

التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (1839 - 1918)

الدكتور
محمد الناصر النفاوي

نشر



دار محمد علي الحامي
صفاقس



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
تونس

الجمهورية التونسية

العنوان	:	التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (1839-1918)
الكاتب	:	محمد الناصر النفزاوي
الناشر	:	- دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع - صفاقس - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 9 أفريل - تونس
الطبعة	:	الأولى جانفي 2001
توزيع	:	دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع 40 شارع الشابي 3000 - صفاقس هاتف: 216-4-229322 - فاكس: 216-4-211552
تصميم الغلاف	:	بريد إلكتروني caeu@gnet.tn Email
رقم الناشر	:	منير الشعراني 00/391-109
الترقيم الدولي	:	ISBN : 9973-33- 002 - 1

حقوق الطبع محفوظة

هذا الكتاب بحث أنجزه صاحبه بعنوان: " التيارات الفكرية السياسية
في السلطنة العثمانية من صدور التنظيمات الأولى إلى سقوط الدولة العثمانية الاتحادية"
لنيل شهادة دكتورا الدولة في اللغة والآداب العربية (اختصاص حضارة حديثة) ونوقش بتاريخ
30 جانفي 1999 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمنوبة.

كانت السلطنة العثمانية عندما وقع إصدار التنظيمات الأولى (1839) تضم الأغلبية الساحقة من البلدان التي ستسمى في فترات لاحقة بـ " العربية " ومنها بلاد الشام وكانت هذه التنظيمات الرأسمالية الروح التي فرضت فرضا على السلطنة التقليدية ما قبل الرأسمالية ، حسب ما يذهب إلى ذلك أغلب الباحثين، تتضمن وجهين : وجه اقتصادي جمعي وإفرادي يهدف إلى تسوية الاقتصاد العثماني هيكلياً بالاقتصاد العالمي ، أي البريطاني آنذاك ، القائم على حرية التبادل ووجه ثقافي يهدف إلى تغيير الثقافة التقليدية العثمانية والذهنيات والعادات أي ما يطلق عليه علماء الاجتماع عبارة " المقوم الجمعي " (substrat collectif) حتى يتحقق بذلك الانسجام أولاً بين الاقتصادي والثقافي في السلطنة وثانياً بين الاقتصادي والثقافي في السلطنة والاقتصادي والثقافي في العالم الغربي.

ويتصور المرء بسهولة عظمة هذا المشروع إن لم نقل مثاليته. فإذا كان أغلب الناس في العالم غير النامي يردّون الفعل، بعنف أحياناً، نهاية القرن العشرين على مشروع "العولمة" الاقتصادية والثقافية لأسباب مختلفة ومتضاربة أحياناً، فإنهم وقفوا منذ 1839 الموقف نفسه لا في السلطنة العثمانية فحسب ولكن كذلك في عدد كبير من البلدان والإمبراطوريات ومنها الصين (حرب الأفيون ، 1840) ضدّ هذه الخطوة الأولى والمبكرة في مشروع العولمة.

نقول أغلب الناس ولا نقول جميعهم لأن المستفيدين المحليين من هذا المشروع ، وهم قلة ، سوف يرحّبون به وسيسعون إلى التمكين له في الأرض العثمانية. وليس تاريخ السلطنة ، ومن ضمنها الشام الذي تعيره هذه الدراسة أهمية خاصة ، وتاريخ الأفكار فيها غير تاريخ الصراع بين المستفيدين من هذا المشروع والمتضررين منه. إن ردّ السبب الأساسي في هذا الصراع إلى الجانب الاقتصادي / الثقافي يمكن من فهم تطور الأفكار في السلطنة ومن ضمنها الشام فهما على قدر كبير من الجدة. فلقد لاحظنا عندما درسنا ثمّ درسنا مادتي الحضارة العربية الحديثة والقومية العربية نقصا في التركيز على الاقتصادي والثقافي¹ وميلاً مشطاً ، في أغلب البحوث : إلى تناول هاتين القضيتين انطلاقاً من ثنائية الإسلام والنصرانية عندما يتعلّق الأمر بعلاقة السلطنة بأوروبا² وثنائية العرب والترك عندما يتعلّق الأمر بعلاقة

¹ نستثني من حكمنا الباحث وجيه كوثراني

² اتجاه شكيب أرسلان

الشوام بالأتراك³ وذلك بالرغم من أن الشعور القومي في أغلب الفترة موضوع الدراسة لم يتبلور عند هذين الجنسين بل كان العثمانيون، عربا وتركيا وأكرادا ويهودا وأرمنيين... في وضع الإنسان التقليدي الذي غلبه على أمره إنسان أوروبي جديد يزداد كل يوم حيرة وقوة وقسوة. ولذلك سعت هذه الدراسة إلى أن تطرح قضية تطور التفكير في الشام خاصة (أي في هذا الجزء الصغير من سلطنة واسعة) منذ صدور التنظيمات الأولى (1839) وحتى سقوط الدولة العثمانية الاتحادية لا من وجهة نظر التفكير الديني ولا من وجهة نظر التفكير القومي النابذ الذي كثيرا ما يغلب المنطق الإيديولوجي على ما عداه ولكن من وجهة نظر معرفية أي من وجهة نظر تقول إن الخصومة الكبرى كانت أساسا في الفترة التي نتناولها بالدراسة خصومة بين عثمانيين اختلفوا إزاء وضع السلطنة، حول الإجابة عن السؤال : ما العمل؟ وانقسموا تبعا لذلك إلى عثمانيين آخذين بنظرتين متناكرتين إلى الأشياء نظرة يطلق عليها عادة صفة "النظرة الحديثة" وهي تندرج ضمن دعوة إلى تبني روح الرأسمالية ونظرة يطلق عليها عادة صفة " النظرة التقليدية" وهي تندرج ضمن دعوة إلى المحافظة على أسس المجتمع التقليدي، ما قبل الرأسمالي.

هاتان النظرتان عبرتا، كما قلنا، عن خلاف عميق بين المستفيدين من النمط الرأسمالي، وهم، في أغلبهم ممثلو الأقليات العرقية والدينية سواء كانوا عربا مسيحيين أو أرمنيين أو يهودا، والمتضررين من هذا النمط، الذين كانت تخيفهم نتائج عولة الاقتصاد والثقافة، وهم أغلبية العثمانيين المسلمين. فليس من باب الصدفة أن بدأ الصدام بين الآخذين بهاتين النظرتين منذ سنة 1839، سنة الإعلان عن التنظيمات الأولى، سواء في البلقان التي ستتواصل ثورة الإقطاعيين البوسنيين المسلمين فيها مدة طويلة حتى تضطر الدولة إلى إخمادها في الدم، أو في بلاد الشام التي ستنتهي فيها ردود الفعل على التنظيمات بحرب الشام الأهلية سنة 1860. إن هذا الصدام سيتواصل خمسا وثلاثين سنة وسينتهي بردة فعل عبد الحميد الثاني (1876 - 1909) رأس التقليديين، على الوجهين السياسي والثقافي في التنظيمات وإلغاء الدستور الوليد.

لقد تعرضنا في القسم الأول من هذا الكتاب (الخود العثمانية بين خطيبين : آدم سميث والماوردي) لنشأة هذه الخصومة واجتهدنا في بيان أسبابها. وكان علينا أن نخصص فصلا كاملا منه هو الفصل الأول (برج بابل شامي) للتعدد العرقي والديني والطائفي في بلاد

³ اتجاه جورج أنطونيوس

الشام نظرا إلى أن وقع التنظيمات لم يكن واحدا على العثمانيين المسلمين وعلى العثمانيين غير المسلمين وحرصنا على الاستشهاد بالرأي والرأي المضاد إذ لم نعثر على آثار عديدة تحدثت عن الطوائف، وخاصة عمن نبذوا فكرة الطائفية وتمردوا عليها، بقدر معقول من التجرد وعدم الانحياز. ولنلاحظ من الآن كثرة الشواهد، والطويلة جدا منها أحيانا في هذا الكتاب. إن سبب ذلك، في نظرنا على الأقل، واضح. فالكتاب جميعه يستند إلى نظرة إلى التاريخ الفكري في الشام، الجناح الجنوبي للسلطنة العثمانية⁴ شذت أو كادت تشذ عن أغلب الرؤى التي حكمت ما وقع بين يدينا من أبحاث تتعلق بهذه المسألة وبهذه الفترة التاريخية. وليس من الممكن، في حالة مثل هذه، أن نكتفي مثلا بتقرير تسرب الصهيونية إلى حزب اللامركزية الشامي في القاهرة ولا نورد أكثر من شاهد يؤكد ذلك. كما كان علينا أن لا نهمل الإطار التاريخي من ناحية وأن لا ننسى من ناحية ثانية أن هذه الدراسة ليست دراسة تاريخية إذ تندرج ضمن تاريخ الفكر في شعبة خاصة هي شعبة العربية ولذلك اجتهدنا قدر المستطاع في تدوين المعالم التاريخية حتى لا تبدو ناتئة أكثر مما هو ضروري.

أما الفصلان الثاني (وأورقت الشدايقية فترة من الزمن) والثالث (خريف العثمانية) من القسم الأول فقد خصصنا الثاني منهما للآخذين بالنظرة الحديثة الذين عبر عنهم محمود الثاني في قوله المأثورة " لا أود أن أرى فروقا دينية بين رعاياي إلا عندما يدخلون المسجد أو البية أو الكنيسة" مثلما عبر عنهم فارس الشدايق الذي كان يرى أن " تغيير الديانات لا يسلب الإنسان محامده" وعبر عنهم، وإن بطريقة أقل بيانا وتبيينا الأمير مصطفى فاضل وشيعته من العثمانيين الفتيان والسياسي أحمد مدحت باشا. ولقد توسعنا في دراسة الشدايق في هذا الفصل لأنه مدنا برمزين للعلاقة العمودية بين الله والطبيعة والدولة والمجتمع والزوجة والمعلم والتلميذ هما رمزا " الشيخ" و " الخود"⁵ ولأننا عثرنا في تفكيره على أهم التيارات التي ازدهرت في أوروبا الغربية بداية من القرن السابع عشر من دون أن نتمكن من تحديد قنوات التأثير بشكل دقيق ومقنع حري بتحقيق الإجماع حول هذه المسألة.

وخصصنا الفصل الثالث للآخذين بالنظرة التقليدية، وهي نظرة ما قبل رأسمالية لا تقول بارتقاء العلاقة بين الله والطبيعة، هذا الارتقاء الذي يقود حتما إلى كسر الثنائية في

⁴ نلح على هذه النقطة لأن اعتمادنا لا ينصب على الخط الأفقي مصر الشام وإنما على الخط العمودي البلقان الشام.

⁵ الخود : المرأة الشابة الرشيدة ج: خود وخودات.

التفكير بل تقول، على العكس من ذلك، بانشداد الطبيعة إلى الله انشدادا كاملا، وتبعا لذلك بانشداد المجتمع إلى الدولة وأفراد العائلة إلى رب العائلة والزوجة إلى الزوج والتلميذ إلى المعلم... ولقد عبّر عن هذه النظرة التقليدية ساسة ومفكرون داخل الدولة وخارجها أشهرهم عبد الحميد الثاني.

لقد انتهى الصراع بين النظرتين اللتين وصفنا بغلبة النظرة التقليدية ممثلة في عبد الحميد الذي تواصلت على عهده سياسة الانفتاح الاقتصادي إذ لم تكن له القدرة على تغييرها والذي نهج على المستويين السياسي والفكري نهج " الانغلاق الثقافي " (autarcie) وقمع نتيجة لذلك كل أشكال التحرر الفكري مما تسبّب في تكاثر التيارات الفكرية المعارضة التي انفصلت من عقال العثمانية واتجهت نحو الاستقلال بذاتها. فباستثناء الإسلامية التي كانت دائما تناصر دولة الخلافة، بغض النظر عن مضمون الحكم، أحصينا سبعة تيارات معارضة لسياسة عبد الحميد الإسلامية، واحد منها يأخذ بالنظرة التقليدية (التيار العروبي الإسلامي) والبقية تأخذ، إن قليلا أو كثيرا، بالنظرة الحديثة (العثمانية بوجهيها الائتلافي والاتحادي / التتارية الإسلامية / القومية اللبنانية / القومية اليهودية / دعاة الوحدة القيسية اليمانية من قدماء جمعية بيروت السرية / اللاقومية). وبما أن هذا التصنيف من اجتهادنا فقد حرصنا على دراسة هذه التيارات في القسم الثاني (الخود العثمانية تطلق شيخها)، أمّ قسم في الكتاب، بالقدر الذي رأينا أنه كاف لبيان ما يميّز الواحد منها عن الآخر وتتبعنا منابعها الأولى وتخبرنا لكل منها نموذجا يعبر عنه كما يبيّن ذلك الجدول التالي

التيار	النموذج	الفصل من القسم الثاني	العنوان
الإسلامية	شكيب أرسلان 1869-1947	الفصل الأول	في ظلال الهلال
العثمانية الإئتلافية العثمانية الاتحادية	ولي الدين يكن 1870-1921 سليمان البستاني 1856-1925	الفصل الثاني	التوأمان المتناكران
العروبية الإسلامية	محمد رشيد رضا 1865-1935	الفصل الثالث	الحنين الأخضر
التتارية الإسلامية	يوسف أفجورا 1876-1935	الفصل الرابع	ليم ⁶ سلطان غاليف
القومية اللبنانية	يوسف آصاف 1859-1921	الفصل الخامس	نهم المدينة التاجرة

⁶ الليم: شبه الرجل في قدّه وشكله وخلقه " هو ليمه " ، أي شبهه.

القومية اليهودية	حاييم وايزمان 1874-1952	الفصل السادس	موسم هجرة الأشكيناز إلى الجنوب
القومية القيسية - اليمانية	فارس نمر 1856-1952	الفصل السابع	طلع اليانكي علينا
اللاقومية	محمد كرد علي 1876-1953	الفصل الثامن	كردستاني في شامستان

فضلنا أن نفتح هذا القسم بالحديث عن الإسلامية لأنها قريبة روحا من الفصل الأخير من القسم الأول وتخبرنا الأمير الدرزي شكيب أرسلان نموذجاً معبراً عنها. لقد عرفنا الإسلامية في الفصل الأول من القسم الثاني ولذلك يمكن أن نكتفي بالإشارة هنا إلى أنها تيار كان يتعلّق بالخلافة تعلّق بالله سواء كان رحيماً أو قاهراً ولذلك لم يكن تبديل سياسة بسياسة حرياً يدفع الإسلاميين إلى مراجعة مواقفهم من الدولة. فما دامت الدولة تتبنّى الإسلام ديناً فهم معها وضدّ خصوصها.

ولقد بدا الفصل الثاني من القسم الثاني المخصّص للعثمانيين وكأنه في غير موضعه إذ توسّط الحديث عن الإسلاميين والعروبيين الإسلاميين. ونحن لم نتمكّن من العثور على هندسة أفضل لبناء القسم الثاني في الكتاب. لقد أجبر الآخذون بالنظرة التقليدية الذين استولوا على الحكم زمن عبد الحميد العثمانيين الآخذين بالنظرة الحديثة على توضيح مواقفهم من السياسة الجديدة فانقسموا شقين لن يخمد الصراع بينهما بداية من 1902 وحتى انهيار الدولة العثمانية الاتحادية، شقّ معارض اتّسمت معارضته بالمحافظة بسبب أصوله الأرستقراطية ويتبنّى فكرة المساواة الدينية على المستوى الميتافيزيقي وفكرة اللامركزية على المستوى السياسي وفكرة التبادل الحرّ على المستوى الاقتصادي ولا يرى حرجاً في تدخّل القوى العظمى (بريطانيا) في سياسة السلطنة الداخلية لإجبارها على تطبيق ما تعهّد به الخطّ الهمايوني لسنة 1856 من ضمان للحريات. هذا الشقّ تعدّدت تسمياته حسب المصادر والمراجع وكثيراً ما يوصف بـ "الأحرار العثمانيين" أو "الإثلافيين" ولقد اخترنا وليّ الدين يكن معبراً عنه، وذلك لعدة أسباب، منها أنه مسلم لا يمكن اتّهامه، عندما يقف موقفاً عدائياً من سياسة عبد الحميد الإسلامية، بأنه يصدر عن موقف ديني معاد وموروث، ومنها أنه، في تعلّقه ببريطانيا إلى حدّ تسمية ابنته "فكتوريا" يعبر أكثر من غيره عن فكرة الانفتاح.

أما الشق الثاني فهو معارض كذلك ولكن معارضته لا تنسجم بالمحافظة لأنه ينتمي أساسا إلى الطبقتين الوسطى " والنازلة " وهو يتبنى فكرة المساواة الدينية على المستوى الميتافيزيقي وفكرة المركزية على المستوى السياسي وفكرة بناء اقتصاد عثماني وطني، ويرفض رفضا باتا تدخل القوى العظمى في سياسة السلطنة الداخلية. هذا الشق تتعدد تسمياته في المصادر والمراجع فهو حيناً " تركيا الفتاة " وهو حيناً آخر " جمعية الاتحاد والترقي " أو " العثمانيون الاتحاديون ". وأكثر التسميات تضليلاً، في نظرنا، هي تسمية " تركيا الفتاة " لما توحى به هذه التسمية من تعلق بـ " الأصل التركي " ولما توحى به كذلك من ترادف بين " الاتحاد " و " التتريك ". ونكاد نستغني عن القول إن كتابنا هذا يخطئ هذا المذهب ويجتهد في بيان الأسباب الإيديولوجية التي قادت إلى تشطين⁷ العثمانيين الاتحاديين. ولذلك اخترنا سليمان البستاني العربي الماروني الشهير الذي دعا، تدعيماً للبناء الوطني العثماني، إلى اعتماد التركية العثمانية، دون غيرها، لغة رسمية في السلطنة، معبراً عن هذا الشق.

إن هذين الشقين العثمانيين اللذين سيصطدمان بعد سقوط عبد الحميد بسبب ما رأينا من خلاف حول دور الدولة في المجتمع وحول النمط الاقتصادي الأفضل وحول مسألة تدخل القوى العظمى في سياسة السلطنة العثمانية كانا كما قلنا، آخذين بالنظرة الحديثة إلى الأشياء، مما يبين صحة رأي من يرى أن الحداثة أحداث ولذا فممن الصعب على المسلمين، جميعهم، أن يتبنوا نظرتهم لأن " الإسلام إسلامات " هو كذلك: هناك إسلام المناطق التي يغلب على نشاطها الاقتصادي وعلى بنياتها الاجتماعية وطرق تفكيرها الطابع التقليدي وهذه المناطق ستظهر فيها الدعوة العروبية الإسلامية (محمد رشيد رضا) وهناك إسلام المناطق التي يغلب على نشاطها الاقتصادي وبنياتها الاجتماعية وطريقة تفكيرها الطابع الرأسمالي وهذه المناطق ستظهر فيها الدعوة التتارية الإسلامية (يوسف أقجورا). وللعروبية الإسلامية خصصنا الفصل الثالث.

وللتتارية الإسلامية الفصل الرابع

والدعوة الأولى ترى وجوب تأسيس " دولة الإسلام العربية " استنساخاً منها لـ " دولة الإسلام العربية " القديمة ولذلك فهي تحتفظ إزاء الأجناس المسلمة غير العربية مثل الترك والمصريين وسكان شمال أفريقيا، أو تعتبرهم، على الأكثر، كمّاً مضافاً ولا ترى خلاصاً إلا في محاربة

⁷ تشطين: شَطَنَ شَطْنًا وشَطَنَ صاحبه: خالفه عن نَبْته ووجهه في بحث، ونحن نستعمل " التشطين " بمعنى

(diabolisation) في اللغة الفرنسية.

التنظيمات لأنها نافذة تتسلل منها الحضارة الغربية " النصرانية" إلى قلوب العرب المسلمين. ولقد بينا في هذا الفصل لم نعتبر الشرفاء الكواكبي وحسين ومحمد رشيد رضا عروبيين إسلاميين لا إسلاميين.

أما الدعوة الثانية التي كثيرا ما توصف بـ " الطورانية" فهي ترى وجوب تأسيس " دولة الإسلام التتارية" لا استنساخا منها لدولة تركية قديمة بل بناء جديدا على غرار الدولة القومية الحديثة، ولا ترى خيرا في لحمية تركية عربية لأن أتراك السلطنة المسلمين وعرب السلطنة المسلمين لا قوة لهم اقتصادية وتجارية وبكيه وسناعية، نمذهم من بناء دولة مزدوجة الجنس في عالم يسير في شبه حتمية نحو تحقيق مبدأ القوميات. فلا عدا، إذن، في هذه الدعوة، للتيارات النابذة ولكن فيها ميلا جارفا إلى استقلال الأتراك في السلطنة وخارج السلطنة بأنفسهم. ونكاد نستغني عن الإشارة هنا إلى أن هذين الفصلين قد كلفنا من الجهد أكثر مما كلفتنا بقية فصول الكتاب خاصة أننا نجهل التركية العثمانية من ناحية ولم نعثر، من ناحية ثانية، على دراسة واحدة تناولت الموضوع من زاوية نظرنا وأعانتنا، بإصابتها وخطئها، على تناول المسألة بشكل أكثر عمقا.

لقد توارت العروبية الإسلامية وراء الشق العثماني الإثتلافي، شأنها في ذلك شأن كل القوميات النابذة، وسعت إلى أن تنسف في الشام وفي الجزيرة العربية قواعد العثمانية الاتحادية وساعدتها بريطانيا في هذا المسعى مساعدة كبيرة. ولكن التتارية الإسلامية، هي كذلك، لم تسفر عن أبعاد مشروعها إلا بعد تخلي الشوام المسلمين من أنصار العروبية الإسلامية عن الدولة في حربها، في طرابلس، ضد إيطاليا وفي حروبها البلقانية وكانت دائما تفضل الروح الألمانية القومية " المتصوفة" على روح " ماريان اللعوب"⁸ وعلى روح " ألبيون⁹ الخبيثة" التي سيدفع العروبيون الإسلاميون ثمنها باهظا لعدم كنهها على حقيقتها.

إن العروبية الإسلامية لم تتفطن إلى أنها، بسعيها إلى إقامة " دولة الإسلام العربية" لم تكن تثير حقن العثمانيين الاتحاديين فحسب ولكنها كانت كذلك تضاعف من إحساس المارونيين والروم الكاثوليك خاصة، وهم مادة القومية اللبنانية، بالخوف من مشروع كهذا المشروع يعيدهم في القرن العشرين، وهم الأكثر اندغاما في حضارة العصر، إلى وضع أهل الذمة، ولا يقيم في احسن الحالات، بينهم وبين المسلمين غير علاقات فيها قدر معين

⁸ ماريان Marianne كناية عن الجمهورية الفرنسية

⁹ ألبيون Albion، كناية عن بريطانيا

من " التسامح "، ولم يكن التسامح في يوم من الأيام يعنى المساواة إذ التسامح فكرة إسلامية موروثه عن عصور غلبة المسلمين والمساواة فكرة حديثة تتحدر مباشرة من الثورة الفرنسية التي دفع ما بين ألفين وأربعة آلاف من الفرنسيين أرواحهم ثمنا لإقرارها على المستوى التشريعي على الأقل. ولهذا ظهرت منذ الحرب الأهلية في الشام (1860) التي قتل فيها من المسيحيين ثلاثة أضعاف من قتلوا في الثورة الفرنسية بذور فكرة قومية لبنانية خصصنا لها الفصل الخامس الذي حاولنا فيه أن نبين ما تقوم عليه هذه الإيديولوجيا القومية مستندين إلى واحد من كبار القوميين المتطرفين الجبليين اللبنانيين وهو المحامي يوسف آصاف، غير حاسبين حسابا لمن قد يلومونا على " تعميق الجرح العربي "، لأننا نؤمن إيماننا شدياقيا أن الجراح العميقة لا تداوى بالمرامح وإنما بمعرفة أسبابها وأبعادها ومن ثم محاولة علاجها بعيدا عن كل " مظهرية " أي عن كل " اتباعية ".

إلى أي مدى كانت الإيديولوجيا القومية اللبنانية، وهي تطالب بتوسيع مجال " الفينيقيين " الحيوي حتى يشمل طرابلس والبقاع وجنوب لبنان الحالي، وهي مناطق أشبه ما تكون بالقنابل الموقوتة لغلبة المسلمين فيها، سنة وشيعة، على حد سواء، تستند إلى شرعية تاريخية أي إلى حقوق تاريخية؟

إننا لا نهتم في هذه الدراسة بقضية الشرعية. ولو كنا نفعل ذلك لما خصصنا الفصل السادس للقومية اليهودية (الصهيونية) التي لم تنشأ في القدس أو الجليل وإنما نشأت عند اليهود الأشكيناخ الذين لم تكن تربطهم بمنطقة الشرق الأدنى رابطة اقتصادية أو ذهنية. فنحن إذ نتناول هذه القومية في دراسة تتعلق بالتفكير في السلطنة العثمانية وخاصة في بلاد الشام (ونحن لم نقل التفكير العثماني أو الشامي) فذلك لأن نشاط هذه الحركة كان، حسب تقديرنا، أكبر نشاط قومي في الفترة موضوع الدراسة، حقق التعادلية بين السياسي والاجتماعي، بين النظري والتطبيقي، بين المثال والواقع، إذ نشر الصهاينة كتباً قومية لم ينشر غيرهم مثلها (ولنقارن بين عدد ما نشروا من كتب وبين القصيدة التي يستند إليها جورج أنطونيوس لتقرير نشأة الفكرة العربية في ثمانينات القرن التاسع عشر وهي قصيدة اليازجي التي اختلف المعاصرون حتى حول نسبتها إليه) وابتاعوا، حتى في زمن عبد الحميد، أراضي مثلت قاعدة حقيقية لبناء كيان قومي فلم يبق، بعد ذلك غير انتظار توفر العامل الخارجي لتحقيق مشروعهم القومي. إن الشرط الضروري الداخلي لتحقيق جزء من المشروع الصهيوني هو، في نظرنا، غياب إجماع الشوام وتشتت مذاهبهم. ولقد ساعدت

العروبية الإسلامية، بتنفير المسيحيين والمسلمين غير السنيين منها وكذلك الآخذين بنظرة حديثة إلى الأشياء، على تحقيق المشروع الصهيوني لأنه كان مشروعا يستند إلى نظرة حديثة إلى الأشياء وكانت هي تستند إلى نظرة تقليدية إليها ولأن حملته نشأوا في أوروبا المتطورة بينما نشأ حملة المشروع العربي الإسلامي في سلطنة متخلفة.

لقد نفّر العروبيون الإسلاميون منهم القوميون اللبنانيين ونفروا منهم المسلمين غير السنة فتشتت الشوام تشتتاً لا مزيد عليه وهذا التشتت هو الذي يفسّر، في نظرنا، نشأة التيار التوفيقي الذي نسب إليه جورج أنطونيوس ولادة الفكرة العربية ونقصد بهذا التيار جماعة بيروت السرية التي دعت في مناشير لها أصدرتها وفي قصائد نظمها في بدايات ثمانينات القرن التاسع عشر إلى وحدة قيسية يمانية تتخذ من مقومي الدم والثقافة العربيين أساساً لها بدلا عن مقومي الدم والإسلام العروبيين الإسلاميين، وتبنّت الماسونية المحافظة المتعالية عن خصوصيات الأديان والطوائف ديناً جديداً.

إن دعوة ضعيفة مثل هذه الدعوة قامت على أيدي أقل الطوائف عدداً (أي البروتستانت) لن تتمكن من مقاومة القومية اللبنانية والعروبية الإسلامية مقاومة طويلة فذابت سريعاً وأصبح دعاتها لا يرون خلاصاً في " القومية العربية " ولكن في بريطانيا. لهذا التيار الأقليّ التي اتخذ من الأمريكيّ ذي الأصل الهولندي كورنيلوس فانديك Vandyeck قدوته، مثلما اتخذ العروبيون الإسلاميون من محمد عبده قدوة لهم ومثلما اتخذ القوميون اللبنانيون من البطريك إلياس الحويك قدوة لهم، خصصنا الفصل السابع فاكتملت بذلك " بانوراما " التيارات الفكرية التي سبقت تمرد جيش البلقان على سياسة عبد الحميد الإسلامية.

ثم إننا رأينا، سعياً منا إلى مزيد من التوضيح، أن نصل بالتقاطع بين هذه التيارات السبعة إلى اقصى ما يمكن للمرء أن يصل إليه، فخصّصنا الفصل الثامن للمفكر اللاقومي واللامتثالي محمد كرد علي لأنه كان يؤمن بتهاافت كل عمل حزبي.

بنهاية الفصل الأخير من القسم الثاني، يكون القارئ قد تمكّن، في نظرنا، من النفاذ إلى مضمون الكتاب. فهناك تيارات عديدة معارضة لسياسة عبد الحميد الإسلامية تلتقي، على ما بينها من اختلاف في النظرة إلى الأشياء، عند نقطة بؤرة هي معارضة سياسة عبد الحميد، وتعرض تبعاً لذلك لامتحان. وبما أنها لم تكن تملك، مثل العسكريين، التنظيم والقوة الكافيين لتغيير الأوضاع، فقد تمرّد الجيشان الثاني والثالث في البلقان، وكانا

تحت إمرة العربي البغدادي محمود شوكت، وفرضا على عبد الحميد إعادة العمل بالدستور. ولكن هل يمكن، والاختلاف يتعلق بنظرتين مختلفتين إلى العلاقات الاجتماعية تستندان إلى قوى اقتصادية متعارضة، أن يذوب هذا الاختلاف بمجرد إصدار "الدستور" في سلطنة متخلّفة كانت القوى العظمى تشجّع فيها القوى النابذة على تجذير مطالبها؟ وهل التفتت المعارضة في "العهد الجديد" كما سُمّي آنذاك، حول الدستور لبناء المجتمع العثماني الجديد والموحد؟ إن ما حدث بين 1908 و 1918 كان هو العكس تماما، ممّا دلّ على أن الكسر في المجتمع العثماني كان أكبر بكثير مما كان يتصوره متمرّدو البلقان فقادهم ذلك إلى سياسة الهروب إلى الأمام: فرض سياسة الحزب الواحد، حزبهم "الاتحاد والترقي". وبذلك دخلت الدولة ودخل المجتمع في حلقة مفرغة انتهت بسقوط السلطنة. لهذه السنوات العشر خصّصنا القسم الأخير من الدراسة (وجفّت أرض صَنَعَةِ الغيث) وقد تضمّن ثلاثة فصول ركّزنا فيها أكثر ممّا فعلنا سابقا على الممارسة. ولقد تضخّم نتيجة لذلك الفصل الأول (عهد قديم يتجدّد أم عهد جديد يجهض؟) من هذا القسم، إذ كان علينا أن نورّخ للأحداث في الفترة الفاصلة بين 1908 و 1914 لغموض هذه الفترة واستحالة فهم المواقف إن لم تربط ربطا وثيقا بالأحداث، وكان علينا من ناحية أخرى أن نتناول علاقة العثمانيين الاتحاديين بخصومهم وعلاقة خصومهم بهم ولذلك لم نتمكّن، رغم الجهد الذي بذلناه لإيجاز ما يمكن إيجازه، من الإتيان على كل التيارات النابذة فأرجأنا الحديث عن العلاقات العثمانية الاتحادية العروبية الإسلامية إلى الفصل الثاني (ومن الحبّ ما قتل).

ولقد ختّمنا القسم الثالث بفصل ثالث (إذا متّ ظمّانا) خصّصناه، كعادتنا، لمحمد كرد علي الذي وقف من الأحداث موقفا واضحا يتلخّص في أن السلطنة العثمانية، على نقائصها، تملك من التجربة ما لم يكن الشوام يملكون. فبقاؤها، إذن، أفضل من شتات شاميّ يخلفها لأن الشاميين لم يكونوا، لأسباب تاريخية واجتماعية واقتصادية، قد ولّدوا فيهم في هذه الفترة، ذلك النسخ الحيّاتي الذي يمكنهم من إقامة دولة واحدة قوية ومستقلة، وبذلك فسّر سقوط الدولة الفيصلية التي خلفت الدولة العثمانية في حكم الشام (1918 - 1920) لا بالرجوع إلى العامل الخارجيّ مثلما فعل القائلون بنظرة تقليدية لا تولي العوامل الداخلية الموضوعية أهمية تذكر ولكن بالرجوع إلى العامل الداخليّ أي فسّر سقوطها تفسيراً شديداً.

هل يمكن أن ننهي هذه المقدمة من دون الإشارة إلى فضل الأستاذ المشرف عبد المجيد الشرفي على صاحب الكتاب؟ تكفي الإشارة إلى صياغة عناوين الأجزاء والفصول في هذا الكتاب، وهي صياغة شذت إلى حد ما عن الطريقة التي تكتب بها الأطروحات عادة، دليلا على مدى الحرية التي تمتع بها المترشح. فليتقبل الأستاذ، إذن شكرنا على ذلك، شكرا لا مجاملة فيه.

تونس، أفريل، 1998

القسم الأول

الخود العثمانية بين خطيبين :

آدم سميث والماوردي

الفصل الأول

برج بابل شاميّ

قصة السلطنة العثمانية خاصة في الفترة موضوع الدراسة هي قصة سلطنة يقع قلبها في الآستانة ويقع جناحها الشمالي في البلقان (الجبل بالتركية) أما جناحها الجنوبي فهو يقع خاصة في بلاد الشام فلقد كانت تضم ثلاثين ولاية هي التالية :

أدرنة - أشقودرة - مناستر - سلانيك - يانية - قوصوة - استانبول - أضنة - أنقرة - آيدين - إزمير - بتليس - خدا وندكار - ديار بكر - سيواس - طربزون - قسطنطيني - قونية - معمورة العزيز - وان - حلب - سورية - بيروت - الموصل - بغداد - البصرة - الحجاز - اليمن وطرابلس الغرب.

وكانت كل ولاية من هذه الولايات تقسم إلى صناجق أو متصرفيات يحكمها متصرفون فولاية الموصل مثلا كانت تضم ولاية المركز وسنجق كركوك وسنجق السليمانية أما ولاية بغداد فكانت تضم سنجق المركز وسنجق كربلاء وسنجق الديوانية. وولاية البصرة تضم سنجق المركز وسنجق المنتفق وسنجق العمارة. وكل سنجق كان مقسما إلى قضاات (ج قضاء) يحكمه قائمقام وكل قضاء كان مقسما إلى ناحيات (ج ناحية) يحكمها مدير

إضافة إلى هذا التقسيم الإداري إلى ولايات كان هناك مناطق جعلت متصرفيات ممتازة تابعة مباشرة لوزارة الداخلية في الآستانة مثل جثالجه وقلعة سلطانية وقره سي وجانيك وجزائر البحر الأبيض المتوسط وبولي وإزميت ومتصرفيات القدس وجبل لبنان ودير الزور وبنغازي وعسير والمدينة المنورة.

هذه الولايات والسناجق الممتازة لم تكن لاختلاف مواقعها الجغرافية تتعرض بشكل متساو لضغط أوروبا الرأسمالية والتيارات الفكرية السائدة فيها إذ بقدر ما كان هذا الضغط شديدا في ولاية مثل سلانيك كان منعما أو شبه منعما في ولاية مثل الحجاز ولم تكن العاصمة نفسها قادرة على التخفيف من حدة هذا التناقض إذ كانت هي بدورها عاصمة سلطنة تقليدية أي كان « رهانا السياسة الأساسيان فيها هما الحرب والدين أما النشاط الإنتاجي الأساسي فهو خدمة الأرض¹ على عكس أوروبا الغربية القريبة منها شمالا والتي

¹ Jean-Pierre Derriennic.-Le Moyen Orient au XX e s.- Paris 1980,p.18

ونشير هنا إلى أننا، من الآن فصاعدا، سنرّب المراجع إن تكرر ذكرها

”تطوّر فيها النظام الرأسمالي والقومية ببطء على امتداد قرون كثيرة وبشكل متعرج قبل أن يزدهر في القرن التاسع عشر“²

مثل هذا التناقض لا يمكن أن ينتج عنه غير صدام حضاريّ شامل تمثّل في نزعة البلقانيين المسيحيين حتى قبل ثلاثينات القرن التاسع عشر إلى إقامة دول قومية حديثة تأثروا منهم بأوروبا الرأسمالية الغربية. على أن ما يهّمنا أكثر من قيام الدول البلقانية على مرّ الزمان هو تجاور مختلف العناصر العثمانية في البلقان وفي سلانيك خاصّة وتأثير هذا التجاور في العثمانيين المسلمين إذ سيكون هؤلاء من بين حملة فكرة التغيير سواء في عهد التنظيمات (1839 - 1876) أو في عهد عبد الحميد (1876 - 1908) أو في عهد العثمانيين الاتحاديّين (1908 - 1918). وفعلًا فإنّ سلانيك مثلاً كانت : « وقتئذٍ أكثر ولايات الدولة العثمانية تقدّمًا فكانت ذات طابع عالميّ يميّزها عن بقية ولايات الدولة كما كان يهود المشرق المعروفون بـ «السافاردي» يشكلون حوالي نصف سكّانها. ومن المؤكّد أن مستوى التعليم فيها كان أرقى كثيرًا من بقية ولايات الدولة الآسيوية»³

ولايات الدولة الآسيوية التي يقصدها حرّاز هي ولايات الأناضول وولايات الشام الثلاث وكذلك الحجاز واليمن. فالأناضول كانت بصفة عامّة منطقة «ظلّ» أما الشام فقد كان في مناطق سكن الأقلّيّة المسيحية فيه، بصفة عامة، ونتيجة تسرّب الاقتصاد والفكر الرأسماليين إليها، شبيها، إلى حدّ ما، ببلاد البلقان وكانت مناطق الأغليبيّة المسلمة المرتبطة بنمط الإنتاج ما قبل الرأسمالي وبالثقافة التقليدية التي تناسبه، أشبه ما تكون في ردودها على تنظيمات 1839 و 1856 الداعية إلى «المساواة» بين المسلمين و «أهل الذمّة» بالبوسنة = رفض وتمرّد دائمان واستماتة في الحفاظ على أسس المجتمع التقليدي. ولذلك بدأ من المفيد، في نظرنا، أن نتناول بالدراسة المفصّلة التناقضات الداخلية في بلاد الشام حتى يتمكّن المرء من فهم أسباب ردود الفعل المختلفة على تنظيمات كان الغرض الأساسي من إصدارها إيقاف مسار التفتّت والتناحر بين مختلف العناصر فيتبيّن نتيجة لذلك الأسباب الداخلية التي حالت دون تبلور إجماع شاميّ حول القضايا التي اعترضت المجتمع في الفترة العثمانية وحالت، حتى بعد زوال الدولة العثمانية، دون وحدة هذه المنطقة وصهر سكّانها في بوتقة واحدة.

² A. Guerreau. - L'Iraq, développement et contradictions.-Paris, 1978.-p.150

³ السيد رجب حرّاز. - الدولة لعثمانية وشبه جزيرة العرب 1840 - 1909 . - القاهرة، 1970 ص64

من الأفكار السائدة أن القوى العظمى الغربية هي التي خطّطت من لاشيء لتقسيم بلاد الشام إلى دول بل إلى دويلات لا تملك مفردة مقومات قيام اقتصاد وطني فيها. والحقيقة أن هذه القوى لم تعد إلى أكثر من تقنين تجربة إدارية وسياسية عثمانية ترقى إلى القرن السادس عشر. فقد خضعت بلاد الشام زمن الحكم العثماني لتنظيمين إداريين يمتدّ أولهما من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ويمتدّ ثانيهما من أواسط القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ففي التنظيم الإداري الأول قسّمت بلاد الشام إلى إيالات أربع هي :

- إيالة الشام وقد ضمتّ أولوية دمشق والقدس وغزّة وصفد ونابلس وعجلون واللاجون وصيدا والكرك وعكا.

- إيالة حلب وقد ضمتّ ألوية حلب وكليس وعزيز والمعرّة وبالس وتركمان وحلب

ومنبج.

- إيالة الرقة والرّها وقد ضمتّ ألوية الرقة والرّها وجماسة وبيره جك ودير دهية

وبنى ربيعة وسروج.

- إيالة طرابلس الشام وقد ضمتّ ألوية طرابلس الشام وحمّاه وحمص وسلمية

وجبلية. هذا التقسيم كما يظهر للوهلة الأولى يركّز على المدن التقليدية الداخلية حتى يمكن القول إنه يقوم على مثلث زواياه الثلاث هي حلب - الرّها - دمشق ولا يولي الساحل الشامي أهمية كبيرة فحتّى طرابلس الساحلية وقع وصلها بحمّاه وحمص على الخط حلب - دمشق. أمّا الرّها النضارية في العمق الشامي الداخلي فقد اعتبرت عاصمة إيالة كاملة.

إن هذا التقسيم سوف يشهد انقلابا كاملا في نظرنا بداية من أواسط القرن التاسع

عشر أي بالضبط إثر صدور التنظيمات الأولى (1839) وعند صدور التنظيمات الثانية (1856) أي إثر بداية التغلغل الاقتصادي والفكري الأوربي الغربي والأمريكي في السلطنة فيتضخّم تبعا لذلك دور الساحل الشامي ودور بعض ممثلي الطبقة البورجوازية الناشئة فيه ويتقلّص عمقه الداخلي ودور بعض ممثلي الطبقات ما قبل الرأسمالية كما يتبيّن من صورة التقسيم الإداري الثاني :

- ولاية حلب وتشمل متصرفيتين هما :

أ. متصرفية حلب عاصمة الولاية التي تضمّ أقضية عينتاب وانطاكية واسكندرون

وبيلان وحارم وجسر الثغور وأدلب ومعرّة النعمان وباب الجبول ومنبج وجبل سمعان والرّقة

جـ. متصرفية مرعش وتضم أقضية زيتون والبستان وكوتسون وبازارجق .
ويقدّر «مقتبس» محمد كرد علي (الجزء الثامن، المجلد الخامس) الذي نعتمده في هذا الإحصاء مساحة ولاية حلب بـ 86.000 كلم² وعدد سكانها سنة 1906 - 1907 بـ 995.800 ساكن.

«ولاية سورية وتشمل أربع متصرفيات هي :

أ. متصرفية الشام وتضم أقضية بعلبك وبقاع العزيز ودوما والنبك والقنيطرة ووادي العجم والزبداني وحاصبيا وراشيا.
بـ. متصرفية حماه وتضم أقضية حمص والسليمية والعمرانية.
جـ. متصرفية حوران وتضم أقضية عجلون ودرعا وبصرى الحرير وسويد وصلخد والعاهرة.

د. متصرفية الكرك وتشمل أقضية السلط ومعان والطفيلة.
وقد ذكر المقتبس أن مساحة هذه الولاية كانت 95.900 كلم² وقدّر عدد سكانها سنة 1906 - 1907 بـ 719.500 ساكنا.

« أما الولاية الأخيرة في هذا التقسيم فهي ولاية بيروت (1888) وتشمل خمس متصرفيات :

أ. متصرفية بيروت العاصمة وتضم صيدا وصور ومرجعيون.
بـ. متصرفية عكا وتضم حيفا وطبرية وصفد والناصرة.
جـ. متصرفية طرابلس الشام وتضم صافيتا وعكار وحصن الأكراد.
د. متصرفية اللاذقية وتضم جبلة ومرقب وصهيون.
هـ. متصرفية نابلس وتضم جنين وبني صعب.
هذه الولاية التي لم تتجاوز مساحتها 16.000 كلم² وصل عدد سكانها سنة 1906 - 1907 إلى أكثر من نصف مليون ساكن (533.500) وأهم ما يستحق الملاحظة هنا هو أن جزءا كبيرا مما سيمسى بفلسطين (متصرفية عكا ومتصرفية نابلس) كان تابعا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لولاية بيروت.

أما الجزء الثاني من فلسطين فكان يقع بين حدود ولاية بيروت الجنوبية وسيناء المصرية ويعتبر متصرفية ممتازة قائمة بذاتها تخضع مباشرة لسلطة الآستانة وتضم قضاءي

يافا وغزة. وقد كانت متصرفية القدس تمتد على مساحة 100.17 كلم² ويقطنها 341.600 ساكناً في بدايات القرن العشرين.

ويشارك متصرفية القدس في هذا الوضع الإداري متصرفيتان أخريان هما متصرفية دير الزور (78.000 كلم² و 100.000 ساكن) ومتصرفية جبل لبنان التي حصلت منذ 1864 على وضع إداري خاص متّبعها بما يشبه «الاستقلال الذاتي» بضمانة من القوى العظمى. لم تكن مساحة هذه المتصرفية تتجاوز 3.100 كلم² بالرغم من أن عدد سكانها الجبليين بلغ بداية القرن العشرين 200.000 ساكن وقد توّسّطت متصرفية جبل لبنان ولاية بيروت فشطرتها شطرين ومن هنا كان لتأثير القوى النابذة في هذه المتصرفية تأثير مضاعف.

وخلاصة القول إن المنطقة التي نطلق عليها عبارة الشام كانت تشمل الولايات الثلاث (حلب ودمشق وبيروت) والمتصرفيات الثلاث (دير الزور وجبل لبنان والقدس) أي مساحة 296.700 كلم² وعدد سكانها يقرب من الثلاثة ملايين ساكن (2.890.440) سنة 1906 - 1907 ضمن سلطنة عثمانية كانت تعدّ اثنين وعشرين مليوناً من السكان.

لقد حوّل التقسيم الإداري العثماني الجديد مركز الثقل من المثلث سالف الذكر إلى شكل جديد هو شكل الخطّين المتوازيين = خط حلب - حماه - حمص - دمشق - حوران - الكرك وكأنه يتّبع في ذلك خط طريق الحجّ نحو مكة، وخطّ إسكندرون - اللاذقية - طرابلس - بيروت - صيدا - صور - يافا - غزة وكأنّ الساحل يميل في بعض نقاط تمرّكز الاقتصاد الرأسمالي والقوى المستفيدة منه إلى الانسلاخ عن الداخل ولذلك يمكن اعتبار ولادة ولاية بيروت (1888) مؤشراً اقتصادياً وسياسياً وثقافياً لكل ما سيحدث في الشام طيلة قرن. هذا التقسيم الإداري الذي قد يبدو مستجيباً لأغراض أمنية لم يكن تأثيره واحداً في البنيات الاجتماعية في محور حلب - حمص - دمشق - الكرك (أي ما سيسمّى بسوريا الداخلية) وفي المحور الساحلي ولذلك لا بدّ، في نظرنا، من استعراض التركيب الجنسي والديني والطائفي في هذين المحورين حتى نتبيّن أسباب ردود الفعل المختلفة على التنظيمات.

تضمّ ولاية حلب من الناحية العرقية والدينية أجناساً وديانات مختلفة ففيها الترك وفيها كذلك الأكراد من البدو أو المزارعين الذين «كانت أعداد كبيرة من سلالتهم تعيش في إقليم التلال الواقعة على سفوح الجبال شمال حلب، حيث، مع احتفاظها بولائها القبليّة ولغتها الكردية فإنّه قد مضى عليها بعض الوقت منذ أن بدأت تتبنّى الحياة الزراعية

المنظمة بدلا من بداوتها الأصلية. لم تكن لهؤلاء سوى صلة ضئيلة بجماهير الأكراد الموجودة في أماكن أخرى من تركيا»⁴ وفي حلب الأرمن المسيحيون الذين اشتهروا بالتجارة شهرتهم القديمة بالنزاعات مع الأكراد « وقد قامت أكبر مستوطناتهم في حلب، إلى جانب مجموعات أصغر في بيروت ومدن أخرى. كانت أغلبية الأرمن من أعضاء الكنيسة الغريغورية، أي الكنيسة الوطنية ذات التنظيم الأممي الواسع بقيادة بطارقة إقليميين ولكن أقلية واسعة كانت تحولت إلى الكاثوليكية وشكلت الكنيسة الكاثوليكية الأرمنية التي كانت قوتها الرئيسية في حلب (...). وقد برز الأرمن في الأعمال وكانوا مجتهدين على نحو يدعو إلى الإعجاب وحرفيين ممتازين وأثرياء غالبا. وكانت تقودهم طبقة رفيعة الثقافة. وحافظ معظم الأرمن على استعمال لغتهم الخاصة غير أنهم جميعا كانوا يفهمون العربية»⁵ بل إن بعضهم مثل حسون الحلبي (1825 - 1880) صاحب « ديوان النفثات » وأديب اسحق (1856 - 1885) صاحب « الدرر » يعدون من المبرزين في هذه اللغة ومن كبار دعاة التغيير. ولقد تحدثت غواشون عن سياسة التنظيمات إزاء الانقسامات في صلب الطوائف نفسها فكتبت :

« لم تعد الإمبراطورية العثمانية مع منتصف القرن التاسع عشر تعارض التغييرات في صلب الطوائف فقد قبلت بالأثر تترك المسيحيين الذين التحقوا بالبابا تحت السلطة المدنية لهؤلاء الذين انفصلوا عنهم، وهكذا وقع الاعتراف بالبطريق الأرمني الكاثوليكي (رئيسا مدنيا لطائفته) أول مرة سنة 1831 وبعد ذلك سنة 1867»⁶.

ما حدث من انقسام طائفي أرمني حدث بالنسبة إلى العرب المسيحيين الأرثوذكس فظهرت نتيجة لذلك طائفة الروم الكاثوليك وهم فرع كبير من الروم الأرثوذكس انفصلوا عنهم سنة 1724 وأسسوا لهم بطريركية خاصة في ماردين مرتبطة بروما. وقد سوت التنظيمات وضعهم هم كذلك سنة 1848 بتأثير من فرنسا⁷ فازدادوا بذلك اقترابا من الأرمن الكاثوليك ومن الموارنة وابتعدا عن « إخوتهم » القدامى في الطائفة. ويمكن للمرء أن يعد من

⁴ متيفن همسلي لونغريغ. - سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. - بيروت، ط7، 1982. - ص. 16.

⁵ لونغريغ. - المرجع السابق، ص 21

⁶ A. M. Goichon. - Jordanie réelle. II. - Paris, 1972. - p. 113

⁷ سوت التنظيمات وضعية البروتستانت سنة 1847 بتأثير من بريطانيا أما اليهود فلن يحصلوا على وضع مائل إلا

مشاهير الروم الكاثوليك، نشأة على الأقل، إذ سيضيق كثير من المفكرين الشوام بالطائفية فيخرجون عنها ويتبنون الماسونية بديلاً عنها، ناصيف اليازجي وأبناءه وسليم وبشارة تقلا (مؤسسي الأهرام) و خليل مطران وعائلة المعلوف...

على أنه يمكن القول، بصفة عامة وبغض النظر عن الحالات الفردية، إن هناك سمتين تميزان هذه الطائفة العربية = ميلها إلى الموارنة وميلها إلى فرنسا فـ «بالنسبة للموارنة والروم الكاثوليك فإن فرنسا كانت دون سواها الصديق والممدن والحامي. وكان الحصول على الجنسية الفرنسية حلماً مفضلاً والتدخل الفرنسي وسيلة معقولة للتحرر من الحكم التركي وبالنسبة إلى الكاثوليك الآخرين فإنها كانت، رغم أنها كريمة ومألوفة، أقل إغراء بسبب المنازعات فيما بين الطوائف، ولكنها ظلت مهيبه ومهيمنة حتى بالنسبة إلى هؤلاء»⁸ لذلك يمكن القول إن الروم الكاثوليك والموارنة كانوا يرحّبون بقولة الشاعر والسياسي الفرنسي لامتريين : " (سوريا) مستعمرة فرنسية رائعة تنظر فرنسا"⁹

هاتان السمتان هما بالذات السمتان اللتان نعثر على نقبتيهما عند الروم الأرثوذكس = تناغم مع العرب المسلمين، إخوتهم في العروبة بل في القحطانية في أغلب الأحيان (والصراع القيسي اليماني غلب على الشام قديماً وتجدد في القرن الثامن عشر)¹⁰ ومشاركتهم في معاداة الموارنة وأحلافهم. وعن السمة الأولى كتب لو نغريغ :

⁸ لو نغريغ. - سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 60

⁹ لو نغريغ. - المرجع السابق، ص 61

¹⁰ القيسية واليمانية : على إثر أول مؤرخ «للقومية اللبنانية» جوليلين (وهو اسم مستعار لبولص نجيم) أولت كثير من الدراسات في القرن العشرين اهتماماً خاصاً بحكم الأمراء المعنيين وخاصة منهم فخر الدين الثاني (E.Picard.-Liban)، و فخر الدين المعني (Etat de discorde: des fondations aux guerres fratricides.-Paris, 1988.p.24) درزي أي عربي قحطاني (من طيء) «جمع حوله القبائل القيسية في الجبل وحارب بنجاح عائلات جامعي الضرائب الكبيرة التي قاومته» (الزاييت بيكار. - لبنان، دولة الشقاق، ص، 25) وللتوضيح نشر إلى أن هذه العائلات درزية وقد وصل خمس أو ست منها نهاية القرن الثامن عشر إلى امتلاك عشر أراضي الجبل المزروعة. وقد صاهر المعنيون القحطانيون الدروز بسبب انقطاع نسلهم من الذكور، الشهابيين القيسيين المنحدرين من بني مخزوم القرشيين وتقربوا من الموارنة بتصرهم كل ذلك تمكينا لحكمهم في الجبل وتسموا بالحمر. وهذه القوة الجديدة تمكّن حيدر شهاب سنة 1711 من إلحاق هزيمة نكراء بالدروز اليمانيين (البيض) الذين نصره بعضهم (مثل الجمبلاطين وهم من أصل كردي) وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى جبل حوران. وقد شجّع هذا الحلف (القيسي) جزءاً من الطائفة الارثوذكسية على الخروج عن مذهبها فتسمّى بالروم الكاثوليك وبذلك بدأ ميزان القوى يتغيّر لصالح المسيحيين (موارنة اصليين - قرشيين

« أما الأغلبية التي ظلت على أرثوذكسيتها فإنها في ظل بطريركها لم تكن قد احتفظت في 1914 سوى بالزر اليسير من اليونانية سواء في طقوسها أو (باستثناء القدس) في كهنوتها»¹¹ و «قد اختلط الأرثوذكس المتميزون من حيث العقيدة أو التنظيم الطائفي، مع جيرانهم بسهولة وكان باستطاعتهم أن يفاخروا بناطقين بارزين بلسانهم»¹² إن لونغريغ، وهو يتحدث عن «ناطقين بارزين بلسانهم» إنما يشير إلى هذه العائلات العربية الأرثوذكسية التي يمكن للمرء أن يذكر منها عائلات شقير (مثال أسير شقير) وتويني (جبران وابنه غسان) والخوري (فارس وفائز) وسرسق (يوسف والفريد) وزيدان (جورجي) ونعيمة (ميخائيل) وطراد (نجيب) ودباس (شارل) وأبو شهلا (حبيب) وأنطون (فرح وأخته روزا) فهذه كلها عائلات عربية أرثوذكسية بمعنى أنها من العرب المسيحيين القائلين بطبيعة المسيح الواحدة ويطلق عليهم أيضا اسم اليعقوبيين نسبة إلى الأسقف يعقوب البرادعي (القرن السادس الميلادي)¹³

وأما عن الصفة الثانية فقد كتب السياسي والمؤرخ الانكليزي لونغريغ الذي خبر المنطقة خبرة جيدة = «من وجهة نظر المسيحيين غير الكاثوليك وخاصة الطائفة الأرثوذكسية الكبيرة والأرمن الغريغوريين فإن فرنسا كانت بالأحرى النصير الدائم للموارنة الذين هم خصومهم العقائديون ومنافسهم»¹⁴

عمرنوا - روم أرثوذكس تكتلكوا) وعندما سيحكم بشر الشهابي جبل لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر سيلحق بخلفائه القدامى من الدروز الجبلانيين وكذلك بالارسلانيين هزيمة نكراء وسيعلن عن تنصره لقد كتب الأب جون فونتين عن الكتاب المسيحيين الذين ضاقوا بدياناتهم وطوائفهم الأصلية كتابا (Jean Fontaine-La Crise religieuse des écrivains syro-libanais chrétiens.-Tunis, 1966) قسا فيه على بعضهم وخاصة الشهابي ونحى نرى أن ظاهرة التحول من دين إلى دين في بلاد الشام ليس لها بالضرورة الملول «الإشكالي» الذي حاول الأب البحث عنه بدليل ما ذكرنا عن المثال الشهابي.

¹¹ لونغريغ. - سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 21

¹² لونغريغ. - سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 21

¹³ محمد الناصر النزاوي. - فارس ويزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع. - تونس، 1995 ،

¹⁴ من الأمثلة على راديهكالية هذه الخصومة تأسيس الماروني بيار جميل سنة 1936 «الكنائس» لمقاومة حزب

الأرثوذكسي أنطون سعادة وتأسيس السنة النجادة لمقاومة «الكنائس»

وكتب «كانت كنيسة عربية تنصرها روسيا بسخاء لتؤمن معاقلها في الأراضي المقدسة»¹⁵ وكانت رعيّتها الفقيرة العدد موزعة في أنحاء البلاد (...) وكانت تحرز قوة أكبر بفضل أفراد وعائلات ذات شأن رفيع وبفضل مؤسساتها الحسنة التنظيم»¹⁶.

ما سبق يفيد أنه يسهل على الدروز مثلاً أن يتحالفوا مع الروم الأرثوذكس¹⁷ بالقدر الذي يستحيل عليهم مع الموارنة أو الروم الكاثوليك أو الأرمن الكاثوليك :

«كانت فرنسا أكثر شبهة في نظر الدروز بوصفها النصير الأكبر للموارنة وكانت الأغلبية الإسلامية السنية تخشى فرنسا أكثر من خشيتها من أية دولة كبرى أخرى بسبب ما عرف عنها من نصرّة المسيحيين»¹⁸.

فعلى القارئ، إذن، أن يحذر كل الحذر، عند الحديث عن الشام، من هذه الثنائية التي تصنف الشوام تصنيفاً ثنائياً : صنفاً مسلماً وصنفاً مسيحياً فلقد بلغ الاختلاف بين الشوام المسيحيين حدّاً دفعهم سنة 1919 إلى أن يختلفوا حول القوة العظمى التي يطلبون حمايتها وقد كتب مصطفى الشهابي عن هذا الاختلاف في جبل لبنان مثلاً « ففي جبل لبنان طلب الموارنة والكاثوليك والاسماعيليون وصاية فرنسية وطلب الدروز وصاية أنكلترا. أمّا السنيون والبروتستانت ومعظم الشيعيين وبعض الأرثوذكس فقد طلبوا وصاية أمريكية أولاً وأنكلترا ثانياً »¹⁹

ولعلّ هذا الواقع هو الذي دفع بالمرستون سنة 1839 ، نظراً إلى ضعف العرب الشوام البروتستانت والعرب الشوام الدروز، حلفاء بريطانيا، إلى التفكير في اليهود، وحتى قبل نشوء الوعي القوميّ عند هؤلاء، علّهم يكوّنون طائفة منافسة للمارونيين والروم الكاثوليك، محمّيين فرنسا وحلفائها :

¹⁵ لم تكن روسيا «مكة» الأرثوذكس لتخلفها وتعصّبها ولذلك لا يعتبر مثال نعيمة قابلاً للتعميم فحسبني بندي

الجزوي فضل الانتماء إلى الماركسية وسوف يكون العرب الأرثوذكس في الشام ركيزة من ركائز اليسار الشيوعية

¹⁶ لونغريغ . - سوريا ولبنان، ص 22

¹⁷ مثال تحالف الدرزي شكيب أرسلان والأرثوذكسي ميشيل لطف الله لتأسيس المؤتمر السوري الفلسطيني بداية

العقد الثالث من القرن العشرين لا يحتاج إلى تعليق

¹⁸ لونغريغ . - سوريا ولبنان، ص 60

¹⁹ مصطفى الشهابي . - القومية العربية . - القاهرة، 1961، ص 126

« قادت جهود اللورد بالمستون في السنوات 1839 - 1841، بريطانيا إلى أن تطلب من السلطان تشجيع الاستيطان اليهودي في الإمبراطورية العثمانية »²⁰.

إن رفض هذا الطلب كان من بين أسباب الدعم البريطاني الكبير للمبشرين الأمريكيين الذين سيتمكنون من تكوين جيل شامي من البروتستانت الخارجيين عن طوائفهم الأصلية (البستاني، اليازجي، الشدياق، سرکس، ثابت، نمر، صرّوف...) وهو الجيل الذي سيصوغ قولة محمود الثاني في العبارة الشعار «الدين لله والوطن للجميع» التي ستحاربها كل القوميات النابذة. إلا أن الجماعة العربية الغالبة على حلب كانت، في الحقيقة، من العرب السنة بل من السنة الطرقية.

«احتفظت جماعات المتصوفة بأهمية كبيرة في الجزء الأكبر من أراضي سورية: فقد أحاطت الطريقة الرفاعية عملياً سورية كلها بشبكة من تكاياها وأصبحت منطقة حلب مركز نفوذها. كما نشط في حلب أيضاً أتباع طريقة الشاذلية التي لعبت فيها دوراً بارزاً أسرة الكواكبي المتنفة التي كانت من كبار ملاك الأراضي في هذه المدينة حتى نهاية القرن التاسع عشر واحتكرت منصب نقيب الإشراف في ولاية حلب»²¹.

لا أحد يجهل الخصومة بين الطرقي الرفاعي أبي الهدى الصيادي (1849 - 1909) والطرقي الشاذلي عبد الرحمن الكواكبي (1854 - 1902) فمن يكون هؤلاء الأشراف وما هي امتيازاتهم التي ستعمل التنظيمات على نسفها؟ الأشراف هم المنتسبون إلى العترة النبوية ولهم امتيازات تميزهم عن بقية المسلمين السنة. وقد كان في مركز الولايات منصب باسم (نقيب الأشراف) يعينه شيخ الإسلام من بين مرشحي الأشراف وهو الذي يبت في انتسابهم ويحافظ على امتيازاتهم ويمكن للمرء أن يذكر من العائلات الشريفة المشهورة عائلات السادات (مصر) النقيب (البصرة)، الكواكبي (حلب)، الحسيني (القدس) العوني (مكة)... ويتخذ الأشراف من اللون الأخضر لوناً يميزهم عن غيرهم لأنه لون أهل البيت والهاشميين عموماً. ومعروف أن اللون الأسود (راية العقاب الخاصة بالنبي) يرمز إلى الدولة العباسية والأبيض إلى الأموية. أما الأحمر فهو راية أشراف مكة التي اتخذوها منذ عهد الشريف أبي نعي من السلطان سليم الأول في القرن السادس عشر. وهنا لابد من

²⁰ Catherine Kaminsky - Le nationalisme arabe et le nationalisme juif - Paris, 1983.-p.104

²¹ كوتلوف (ل.ن.). - تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر - 1908) دمشق،

الإشارة إلى أن بعض الطوائف قد تبالغ في الإكثار من الألوان التي ترمز إليها فألوان الدرزيّة مثلاً بلغت خمسة ألوان هي = الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق والأبيض. وعلى هذا المحور الداخلي نفسه تقع حماه وحمص وفي حماه كانت الكيلانيّة هي التي تنزل المنزلة الرفيعة²² ولم تخل حماه، شأنها في ذلك شأن كثير من المدن الشامية العريقة، من عائلات «احتكرت» العلم التقليديّ يمكن للمرء أن يذكر منها آل العظم، هذه العائلة ذات التأثير السياسي الكبير في تاريخ الشام منذ القرن الثامن عشر على الأقلّ إذ كان منها ولاة ورجال متنفّذون في الحكم.

ولا تختلف ولاية سوريا عن حلب اختلافا كبيرا في المساحة أو عدد السكّان أو التنوّع العرقي والديني والطائفي فقد ضمت الأكراد الذين «شكلوا أحد عناصر سكّان دمشق، حيث تم امتصاصهم جزئيا ضمن الأكثرية العربيّة وحيث تعلّموا العربيّة لغة ثانية»²³. بل برز في هذه اللغة رجال مثل محمّد كرد علي (1876 - 1953) ومثل الشاعر والسياسي خير الدين الزركلي (1893 - 1976) الذي سيتجنّس بالجنسية الحجازيّة بعد 1920 ثم بالجنسية السعوديّة. ومن بين العائلات الكرديّة التي حازت مكانة متنفّذة في دمشق عائلة اليوسف الإقطاعية التي كانت تمتلك المزارع الشاسعة. وفي هذه المدينة كانت الجماعة الغالبة هي السنّة وهي، كما هو الشأن في ولاية حلب، سنّة ميّالة إلى التصدّف «أمّا دمشق فقد كان تأثير الطريقة السعديّة (الجباويّة) فيها بالغ القوّة»²⁴.

ولا يسع المرء وهو يتحدّث عن دمشق وعن التصدّف ألاّ يذكر الجزائريين المستقرّين فيها مثل عبد القادر الجزائري ومثل طاهر الجزائري، أستاذ محمد كرد علي نظرا إلى دور عبد القادر السياسيّ الكبير في التوفيق بين المنتمين إلى مختلف الديانات والطوائف. فلقد تمكّن هذا الشريف المتصدّف والماسونيّ في الآن نفسه سنة 1860 بفضل أتباعه الجزائريين المسلّحين من إنقاذ آلاف من النصاريّ من القتل. وكانت منحة المائة ألف فرنك فرنسي التي يتلقّاها من وزارة الخارجية الفرنسية منذ حلوله بدمشق سنة 1855 والتي رفعت سنة 1865 إلى مائة وخمسين ألفا من بين العوامل التي سهّلت عليه مهمّته التوفيقية تلك. ولسوف تفقد

²² غلبة التصدّف هي التي تفسّر كتابة عبد الحميد الزهراوي «الفقه والتصدّف» وتدمره من هذه الظاهرة

²³ لونغريغ. - سوريا ولبنان... ص. 16

²⁴ كوتلوف. - تكوّن حركة التحرّر الوطني في المشرق العربي. - ص 261

فرنسا بموته سنة 1883 أحد كبار المخلصين لها.²⁵ ولقد عدد شاکر مصطفى بالنسبة إلى دمشق العائلات التي كانت تعيش من «العلم» أي العلم التقليدي :

«لم يكن بدّ من أن يحتكر «العلم» في أسر معيّنة تعرف به، وإنّك لتعدّ من هذه الأسر العدد الوافر ففي دمشق آل الكزبري وحمزة و الخاني والطنطاوي والميداني والعطّار والمنير والنايلسي والقارّي والشطيّ والعمرى والصمادي والمرادي والسبكي والبيطار...»²⁶

لقد وصفنا العلم السائد في دمشق بـ «التقليدي» ولا بدّ من تحديد القصد من هذا الوصف. كتب عن ذلك محمد كرد علي :

«أدرکت مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانوني ولا حقوقي قانوني ممّن درسوا هذه الفروع على الأصول وعرفوا صناعتهم معرفة ثاقبة لعهدي بها، وليس فيها حيسوب لأنّ الأمة عاشت وترید أن تعيش بدون حساب. أمّا العلوم الرياضيّة التي كان يدرسها أجدادهم مع علوم القرآن والحديث فقد غدت عندهم أسماء لاسميّات لها، أو من المعارف التي يستغنى عنها»²⁷.

إن عبارة «لأنّ الأمة عاشت وترید أن تعيش بدون حساب» تعني في حقيقة الأمر أن هذه العائلات لم تكن تضطرّها ظروف العيش إلى الاتجاه نحو «العلم الذي ظهرت أعلامه في الغرب بعد النهضة» على حدّ تعبير محمد كرد علي نفسه إذ كانت مرتبطة، رغم شكواها أحياناً، بسلطنة تقليديّة ضمنت لها حتى نهاية القرن التاسع عشر على الأقلّ، منزلة مرموقة في المجتمع الشامي المسلم والمتخلّف فأصالتها أصالة مصالح إذ «استحلّ أبناؤها الاستثثار بالمدارس والأوقاف والوظائف الدينيّة بدون أن يكون لهم شيء من العلم (وهم يطمحون إلى) أن تبقى لهم هذه المغام والمظاهر وقفاً أبدياً على الدهر وفكروا في أسهل حيلة تديم عليهم نعمتهم فكان منها منع الشبان من التعلّم، ليكون القضاء والإفتاء وأعمال التدريس والوعظ والخطابة والإمامة حكرة لهم ولأعقابهم من بعدهم»²⁸.

أمّا عن انتشار اللغات في هذا المجتمع التقليدي فقد كتب الكردي :

²⁵ Pierre Bardin.- Algériens et Tunisiens dans l'Empire ottoman de 1848 à 1914.- Paris, 1979.p15

²⁶ شاکر مصطفى. - محاضرات عن القصّة في سوريا حتى الحرب العالميّة الثانية . - القاهرة، 1958. -صص. 17-18

²⁷ محمد كرد علي.-أقوالنا وأفعالنا. - القاهرة، 1946. - ص107

²⁸ محمد كرد علي.- المذكرات (4ج).- دمشق، 1948 - 1951. - ص27

« كنت متمكناً من الفرنسية ومعرفة المسلم الفرنسية في ذلك الدور كانت تعدّ منقبة عظيمة»²⁹. وعلينا نحن أن نشدد على صفة المسلم في الشاهد الذي أوردنا لأن ولاية سوريا كانت تضمّ من بين ما تضمّ، دمشق وبلبك وهما من أكبر مواطن الروم الكاثوليك الذين رأينا ارتباطهم بفرنسا وعناية هذه بهم حتى أن شارل لافيغري أبى عند تنظيم عمليات غوث الموارنة والروم الكاثوليك خاصة أثناء الحرب الأهلية الشامية سنة 1860 إلا أن يؤسس للروم الكاثوليك مدرسة القديسة حنا في القدس.

« دخلت مدرسة القديسة حنا في القدس (...) في حوزتنا تنازلاً من أحلافنا العثمانيين غداة حرب القرم فثبتت فيها سيادة لافيغري الآباء البيض الذين يكوّنون الإكليروس الرومي الكاثوليكي بنجاح منقطع النظير»³⁰.

على أنّ ما لا بدّ من التأكيد عليه أن مثل هذه الولاية التي ضمت من رأينا من المنتمين إلى أعراق وديانات وطوائف مختلفة قد ضمت كذلك في البقاع ومعناها السهول حسب محمد كرد علي طائفة مسلمة نوّد التوقّف عندها بشكل أطول هي طائفة المتأولة (ومن أشهر العائلات فيها عائلة حيدر) التي تتمركز كذلك في جنوب لبنان اليوم (ومن أشهر الأسماء في سبعينات القرن العشرين موسى الصدر 1928 - 1978) وقد كتب فولني عن هذه الطائفة في القرن الثامن عشر ما يلي :

« يقطن شرق بلاد الدروز في الوهاد العميقة التي تفصل جبالهم عن جبال بلاد دمشق، شعب آخر صغير يعرف في سوريا باسم المتأولة. والسمة التي تميّزهم عن بقية سكّان سوريا هي أنهم يتبنّعون، مثل الفرس، حزب عليّ : هم يلعنون عمر ومعاوية على أنهما مغتصبان وعاصيان ويحتفلون بعليّ والحسين باعتبارهم من القديسين والشهداء³¹ وهم يبدأون الوضوء من الكوع عوض أن يبدأوا بطرف الأصابع مثل الأتراك ويعتبرون أن لمس الأجانب نجاسة. وعلى عكس العادة السائدة في الشرق لا يشربون ولا يأكلون في الوعاء الذي استعمله من ليس من طائفتهم بل هم لا يجلسون إلى المائدة نفسها(...) وقبل منتصف القرن الثامن عشر لم يكن المتأولة يملكون غير بعلبك، مركز قصبته و بعض النواحي في الوهاد وفي

²⁹ محمد كرد علي - المذكرات، ص 3

³⁰ Pierre Rondot.- Les Chrétiens d'Orient.-Paris, 1955.- p.20

³¹ أطلق على هؤلاء الشيعة اسم «التأولة» نَحْنا للعبارة «مت ولّيا لعليّ» كما أطلق عليهم اسم العاملين نسبة إلى جبل

عامل أو عاملة وجبل بني عاملة

الجبال الشرقية حيث تبدأ أصولهم الأولى. أمّا في هذا الوقت (يقصد 1784) فإنّ المرء يراهم محكومين، تماماً مثل الدروز، أيّ مؤرّعين على عدد من الشيوخ يرأسهم شيخ من عائلة حرقوش. ولقد توسّعوا بعد 1750 شمال البقاع ودخلوا لبنان فبلغوا بشارة وتملّكوا أراضي في حوزة المارونيين³³ (...) واستحوذوا على صور وحولوا هذه القرية إلى مستودع بحريّ لهم. وفي 1771 قدّموا عوناً يذكر لعلّي بك وضاھر في حربهما ضدّ العثمانيين³⁴.

وكتب لونغريغ عن مذهب المتاوله ومواقعهم وأوضاعهم الاجتماعية وعلاقاتهم بجيرانهم التي تستهدف التنظيمات إلى تغييرها على أساس المساواة بالمعنى الحديث للكلمة والتساكن المطمئن وكذلك عن عددهم :

« أمّا المتاوله الذين التزموا بعقيدة الشيعة الإيرانية أو العراقية الصارمة فقد توزّعوا بين سهل البقاع والمدن القائمة إلى جنوب بيروت ولبنان الجنوبي وشكّلوا في المنطقتين الأولى والثانية أكثرية محلية. غير أنهم كانوا على العموم قوماً فقراء ومتأخّرين يملكون القليل من الأرض ولا يستطيعون المفاخرة بأكثر من دزينة من العائلات البارزة. وكانت علاقاتهم مع جيرانهم تتراوح بين الخوف والكبت والتحالف القصير الأجل. وكان حسّ العصبية قويّاً للغاية لديهم. وقد بلغت المتاوله في 1914 حوالي 100.000 إنسان³⁵.

أمّا المتاولي عبد المجيد الحرّ الذي لا بدّ من الاستشهاد به حرصاً على التوازن فقد كتب في هذا الموضوع ما يلي :

« والمقاطعة التي كانت تابعة لجبل عاملة والمعروفة ببلاد بشارة أطلق عليها لقب بلاد المتاوله وهو لقب حديث لا يتجاوز القرن الثامن عشر. وفصل الحديث في أصولهم العرقية وفي سبب تشيعهم :

³³ لن تتمكّن القومية اللبنانية من «هضم» المتاوله ولذلك سعت منذ أربعينات القرن العشرين إلى التنازل عن منطقتهم لصالح إسرائيل «بعد أن باءت محاولاته (تقصّد إميل اده) لفصل جبل عامل عن لبنان الكبير، أرسل مرات عديدة ابنه ريمون اده (...) إلى مخوفوت، قرب تل أبيب، لإقناع حاييم وايزمان، رئيس الوكالة اليهودية، بإدماج هذه المنطقة ذات الأغلبية الشيعية وكذلك صيدا، عاصمة السنة في الجنوب اللبناني، في دولة اليهود التي هي بصدد التكوين ولكنه فشل في مساعاه فلقد أجاب القائد التاريخي الشاب ريمون = علمتي جدّي ألا أقبل هدية مسمومة» (- Annie Laurent

(Guerres secrètes au Liban, - Paris, 1987, P 179.

³⁴ C.-F. Volney - Voyage en Egypte et en Syrie .. Paris-La Haye, 1953.- pp. 245-247

³⁵ لونغريغ، - سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص. 16.

« ومن الهجرات التي شهدتها هذه البلاد أيضا إلى ربوعها الزحف النبطي الذي وصلها إثر الموجة العارمة التي غطت قسما من أرضها في المكان المعروف اليوم باسم النبطية في جنوب لبنان والجزء المحيط به. وقد قدم الأنباط إلى جبل عامل من جنوبي الأردن حيث أسسوا هناك دولة كان يطلق عليها اسم «دولة الأنباط». وقد كان مجيء الأنباط إلى جبل عامل في سنة 85 ق . م . وفي الربع الأول من القرن السابع الميلادي دخل إلى بلادنا عنصر جديد من العناصر البشرية لم يكن له وجود من قبل فوق البقعة العاملة وعينت به العنصر الفارسي الذي شهد فيما بعد الحرب الفارسية البيزنطية التي انتشرت في جميع البلاد اللبنانية³⁵ وكان له تأثير قوي على الحالة الاجتماعية (...) بعد الفتح الاسلامي... كانت البلاد العاملة أكثر من غيرها تأثرا بهذا التغيير حين فاجأتها موجة من النزوح القبلي العدناني القحطاني إلى سائر المناطق المحيطة بالعاملين وهي فيض من الموجة القبلية التي احتلت سفوح لبنان ومروجه. وهذه الهجرة السكانية إلى البلاد العاملة فعلت فعلها في العادات والتقاليد التي طبعها الآن بالطابع القيسي اليمني. وكان لابد للحكم أن يتأثر بدوره نتيجة التفاعل السكاني الجديد فترجع على سذته إقطاعيون ينتمون إلى أسر يعود أصلها إلى قحطان وعدنان وقد عمل هؤلاء الحكام على ترسيخ تلك العادات بين الأسر العاملة البارزة حتى باتت البقاع المحكومة وكأنها جزء من الجزيرة العربية وبلاد اليمن لما أضفت عليها المناسبات والاحتفالات والحياة اليومية المتعارفة بين الناس من سمات هي في أصلها تعود إلى القبائل القحطانية والعدنانية لا للسكان اللبنانيين العاملين. وحين خضعت هذه البقعة للمد الإسلامي الذي باشره الفتح في كل أنحاء لبنان دخل إلى جبل عامل رجل من الصحابة أثار حوله الشبهات واتهم من قبل والي دمشق آنذاك معاوية بن أبي سفيان بنشر بذور التشيع في الربوع العاملة. والحقيقة أن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ضاق ذرعا بالنقد الذي كان وجهه أبو ذر الغفاري إلى حكمه فنفاه سنة 644 إلى عامله في الشام معاوية. ورغم الكياسة وحسن السياسة التي كان يتمتع بها معاوية فهو لم يطق التوبيخات والتقريعات التي كان يرسلها أبو ذر ضد حكمه وحكم الخليفة عثمان وخاف أن يؤلب أهل الشام عليه فبعث به إلى جنوب لبنان (وإلى البقعة الممتدة من الصرفند جنوبي صيدا حتى صور) وهناك راح يدعو إلى نصره علي بن أبي طالب والتشيع له فأطلق على من أيدوا هذه الدعوة بالشيعية وقد شاء البعض أن يقرنوا اسم جبل عامل باسم التشيع تيمنا منهم بهذه المبادرة التي قام

³⁵ محمد الناصر النفزاوي. - فارس وبيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع، ص ص. 107-109

بها أبو ذرٍّ ومغلاة بالمناسبة التي لولاها ما عرف هذا الجبل العقيدة التي يحملها أبناؤه اليوم»³⁶.

ويوجد جنوب هذا المحور المنطقة التي ستسمى بداية من عشرينات القرن العشرين (1921) بشرق الأردن.

«جنوب سوريا توجد قبائل سورية أهمها الروالة الرحّل وكذلك شمر الذين يشبهونهم وضعنا³⁷ وقبائل أخرى. وكل هذه القبائل لا اتصال بينها وبين الحضارة فهي تنجع في قلب الصحراء بين سوريا والعراق والأردن وتعيش عيشة أجدادها»³⁸.

ومن أشهر المواضع في هذه المنطقة معان التي تعرف في الأدب العربي القديم بـ «الشراة» ولغظ معان يطلق اليوم على جميع أراضي «الشراة»³⁹ ومن القرى التابعة لمعان «وادي موسى». ويمكن للمرء أن يذكر من العشائر التي تقيم في أطراف معان عشائر الحويطات التي اشتهرت بالدور الذي لعبته في تمرّد الشريف حسين على العثمانيين الاتحاديين بداية من 1916 وخاصة بما أورد لورنس عن شيخها عوده أبوتاية. ونحن لانعتقد أنه بإمكاننا أن نصف هذه القبائل العربية التي يذكر نمط عيشها بما يعرف المدمنون على دراسة الأدب القديم عن حياة العرب في القرن السادس الميلادي وصفا يفضل وصف عبد الرحمن الشهبندر (1880 - 1940) لها في العقدين الأوّل والثاني من القرن العشرين :

« وفي شهر شباط من سنة 1917 تعرّف (لورنس) ببديويّ من الحويطات من فخذ اسمه أبوتاية، وهذا البديويّ هو المرحوم الشيخ عوده. وقد قصّ عليّ المجاهدون القصص العجيبة عن أعماله وبطولاته وأجمعوا على أنه على قلّته في المال والرجال ما قطّ غزا إلا

³⁶ عبد المجيد الحرّ - معالم الأدب العالمي - بيروت، 1982، صص 19-24

³⁷ من شمر طيء القديمة وآل الرشيد شمالي الجزيرة وقبائل المتفق في البصرة. وتعدّ شمر (إضافة إلى عترة التي ينتسب إليها السعوديون) من أكبر القبائل المترحلة المعروفة حتى قبل القرن السابع. ولقد مثل الصراع بين شمر (آل الرشيد) وعترة (آل سعود) في القرن العشرين، فصلا حديثنا من الصراعات بين القبائل كما أن النزاعات بين الدولة الوهابية في الرياض والدولة الهاشمية في بغداد لم تحمد إلا سنة 1931 عندما تمكنت بريطانيا من إقناع الطرفين بضرورة التوصل إلى صيغة تعايش تمنع تواصل الغارات القبلية على الحدود. ولقد كان سعي ساطع الحصري يتمثل في بداية دعوته إلى «القومية العربية» في تجاوز هذه النزاعات للتمكّن من التصدي للقوميتين المجاورتين الفارسية والتركية وهذا هو نظرنا السبب الأوّل في غياب الثقل الاجتماعي في تفكيره.

³⁸ غواشون - مملكة الاردن الحقيقية، ص. 91

³⁹ خير الدين الزركلي - عمان في عمان - القاهرة، 1925 - ص. 23

وعاد رابحا يتعثر بأثواب الكسب وقال عنه لورنس إنه أعظم مقاتل في شمال الجزيرة العربية. وبعقد أواصر الصداقة معه، صار اكتساب القبائل النازلة بين العقبة ومعان قاب قوسين أو أدنى. ومنذ ما اجتمع لورنس وعوده لأول مرة تحاببا، لأن لورنس كان معجبا منذ حادثة سنه بالفروسية (...) وهي تنبت في الصحراء عادة، ولا تزال ماثلة للناظرين بين البدو في الجزيرة وتعيد ذكر عنثرة وعبله ومجنون ليلي وحروب الجاهلية (...) وجرى ذات يوم أن الناس وهم في حضرة الأمير فيصل ينتظرون طعام العشاء إذ سمعوا طقطقة خارج الخيمة، فخرجوا فإذا هم بعودة يكسر أسنانه الصناعية بحجر ثقيل فسألوه ما الداعي إلى ذلك فقال إنه نسي أن هذه الأسنان الصناعية قد عملها له أحمد جمال باشا السفاح وأنه يكره أن يأكل زاد فيصل بأسنان جمال. وبقي عوده بسبب تكسير الأسنان شهرين كاملين على السوائل من غير مضع إلى أن عمل له «الحلفاء» أسنانا جديدة أنكليزية بواسطة طبيب خاص أرسل لهذه الغاية من مصر»⁴⁰.

لقد كانت غزوات هؤلاء البدو التي تستهدف الحجاج مثلما تستهدف غيرهم أحد أهم شواغل الدولة العثمانية الحريصة على تأمين طريق الحج فاجتهدت في كبح جماح بدو هذه المنطقة بإقامة مستوطنات شركسية زراعية مستقرة فيها لا علاقة لها جنسا ولغة واقتصادا واجتماعا وثقافة بالبدو فكانت منها قرية صويلح (شاشان وشركس) التي سيتزوج منها شكيب أرسلان⁴¹ وقرية ناعور التي سكنها الشراكسة والمسيحيون :

«لم يكن للسلطات السلطانية عمليا أي نفوذ على شرقي الأردن حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ولم تستطع القائمقاميات التي غرست في إربد عام 1851 وفي السلط عام 1867 بالرغم من تمتعها بنفوذ معلوم بين المزارعين وسكان المدن، من إخضاع القبائل البدوية المحلية للسيطرة الفعلية. ويعود الهدوء النسبي في شرق الأردن إلى توطيئ المهاجرين الشراكس في أراضي»⁴².

فيمكن للمرء أن يتصور بعد هذا الوصف الهوة الشاسعة التي تفصل نمط عيش سكان هذه المنطقة حتى عن حياة الدمشقيين على المحور حلب دمشق معان حتى لا

⁴⁰ حسن الحكيم. - عبد الرحمن الشهبندر، حياته وجهاده. - بيروت، 1985. - ص 39

⁴¹ فينجب ابنته مي، زوج كمال جلاط.

⁴² غواشرون. - مملكة الاردن الحقيقية، ص 273

نتحدث عما يميّز هؤلاء «السكان» عن سكّان المحور الساحلي ومنهم سكّان العاصمة بيروت التي بدأت تندرج ضمن سياق اقتصاد رأسمالي عالمي وتأسّست فيها الجامعات الحديثة. فالمحور الساحلي، إذن، إن كان أقلّ مساحة من المحور الداخلي فهو أكثر منه تعقيدا بما لا يقاس. ويعطينا شارل رزق فكرة موجزة عن هذا التعقيد :

«كانت الولايات الوحيدة في المشرق قبل 1860 هي ولايات الموصل وبغداد وحلب وصيدا ودمشق والحجاز واليمن. وفي سنة 1887 وقع تحويل القدس كذلك إلى سنجق منفصل. أمّا بيروت التي تطوّرت تطوّراً كبيراً على المستوى الاقتصادي بفضل الاستقرار السياسي الذي انجرّ عن نظام 1864 فإنّها أصبحت ولاية تشمل بداية من 1888 سناجق أربعة: اللاذقية وطرابلس وعكاّ ونابلس. لم يكن هذا الإصلاح يتّسم، كما هو باد للعيان، بسمة البساطة وما يسمّى بسوريا كان يشمل إذن ثلاث ولايات (حلب ودمشق وبيروت) وأربعة سناجق خاضعة لولاية (اللاذقية وطرابلس وعكاّ ونابلس) وسنجقان مرتبطان مباشرة بالباب العالي وهما جبل لبنان والقدس»⁴³.

إنّ من يقول اللاذقية يقول السنّة والروم الأرثوذكس والنصيريين قبل 1919 والعلويين بعد هذا التاريخ :

«أمّا العلويّون أو النصيريون القاطنون في منازل جبليّة خلف ساحل اللاذقية وغرب نهر العاصي، والذين قد يمثّلون مزيجاً دموياً مميّزاً وكذلك جماعة ثقافية ذات وعي ذاتيّ فكانوا يتكلمون العربيّة (باستثناء أقلية من ذوي اللسان الكردي) ويعيشون الحياة التي تحياها الجماهير الريفيّة السورية الأكثر تأخراً. وكانت شيعيّتهم ممزجة بقوة بعناصر ما قبل إسلاميّة وربما بعناصر مسيحيّة. وأمّا من حيث المظاهر فقد تميّزوا بتبجيلهم المتطرّف للإمام عليّ بن أبي طالب، صهر النبيّ. وقد بلغ عددهم حوالي 175.000 – 200.000 نسمة منظمين تبعاً للقرى وكانوا يطيعون زعماءهم الإقطاعيين ويتعهّدون أراضيهم، إضافة إلى أراضي الملاكين السنّة. وشكّل هؤلاء الأخيرون أقلية مهمّة في المنطقة العلوية بل إنهم مع العناصر المسيحية غير القليلة التي تعيش في المنطقة أحرزوا الغلبة بسهولة بين سكّان المدن الساحلية»⁴⁴.

⁴³ Charles Rizk. - Entre l'Islam et l'arabisme: Les Arabes jusqu'en 1945.- Paris, 1983.-

الملاحظة الأخيرة التي أبداها لونغريغ فيما يتصل بالعلاقة بين النصيريين والسنة سبق أن أبداها العربي الأرثوذكسي اللاذقي يوسف الحكيم :

« رغم انتشار العلويين في القرى الجبلية والساحلية لم يكن أحد منهم في المدن آنذاك، لا في بلدة جبلة، مركز القضاء العلوي بأكثرية البارزة المأهولة بالسنيين دون سواهم ولا في اللاذقية، المأهولة بالسنيين والمسيحيين »⁴⁵.

لقد « تحالف » المسلمون السنة والمسيحيون الأرثوذكس ضمناً، وإضافة إلى السلطنة العثمانية، على تنزيل العلويين هذه المنزلة ولكن ذلك لا يعني أن العلاقة بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين كانت دائماً علاقة مساواة لا تشوبها شائبة إذ أن مبدأ التفرقة عندما يتكرس لا يمكن أن يقف عند حدود واضحة فيوسف الحكيم يروي في هذا السياق الرواية التالية :

« لم يكن اللون الأخضر في الألبسة مسموحاً به لغير الشرفاء المنتسبين إلى آل البيت. وذات يوم ذهبت عائلة الطبيب (أسبريدون الحكيم) مع ذوبها إلى حمام الحي، حسب المألوف في ذلك الزمن. ولما ظهر اللون الأخضر على قباب بعضهم سمعوا انتقاداً أوجب ارتيابهم فغادروا الحمام مسرعين وقصّوا ما سمعوه على وليهم وكان الطبيب الوحيد، حائزاً ثقة أهلها على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم ولاسيما الحاكم وأهل بيته. فذهب إليه مودّعاً لعزمه على مغادرة المدينة إلى بلد آخر. ولما وقف الحاكم منه على جليّة الأمر، ثناه عن عزمه وطمانته وأهداه أقمشة حريرية خضراء اللون، تكفي لجميع أسرته وأمر النادي بأن يعلن في الأحياء أن آل الحكيم مسموح لهم بارتداء الألبسة الخضراء كما يشاؤون »⁴⁶.

فإذا كانت عائلة الحكيم البورجوازية المتوسطة قد تعرّضت لما تعرّضت له فليتصوّر المرء ما كان يمكن أن يتعرّض له علويّ لو تجاسر فخرق العرف خاصة أن أهل السنة يعدّون العلويين غير مسلمين :

« لما كان دين الدولة العثمانية الإسلام على المذهب السني، مذهب أكثرية العثمانيين المسلمة كان لأهل المذهب الجعفري (المتاول) المنزلة الثانية في نظر الدولة، ثم يأتي الإسماعيليون بينما كان الدروز والعلويون غير منظور إليهم كمسلمين »⁴⁷.

⁴⁵ يوسف الحكيم، - سوريا في العهد العثماني. - بيروت، 1966. - ص 71

⁴⁶ يوسف الحكيم، - سوريا في العهد العثماني، ص 74

⁴⁷ يوسف الحكيم، - سوريا في العهد العثماني: ص 62

كثيراً ما تتحدّث الدراسات عن أهل الذمّة من المسيحيين واليهود فتبالغ حتى الشطط في وصف اضطهادهم بينما كان وضع العلويين أسوأ بكثير من وضع اليهود والمسيحيين :

« ظلّ الشعب العلويّ مضطهداً في كلّ العهد العثماني الذي استمرّ أربعة قرون فمنعت عنه الوظائف الحكوميّة حتى الصغيرة منها التي لا تتطلّب شيئاً من العلم والكتابة»⁴⁸.

وذلك بالرغم من أنّ هذا «الشعب» عربيّ قحطانيّ كان «خطؤه» التمهّذ في القرون الوسطى بمذهب شيعيّ: «العلويون مسلمون من غلاة الشيعة شايعوا الإمام عليّ رضي الله عنه وظلّوا مشايعين له ولحقّه في الخلافة وحقّ ذريته من بعده، ممّا أوجب نقمة باقي المسلمين عليهم وعرضهم للاضطهادات فيما مضى من الزمن في العراق وغيره فكان ذلك في مقدّمة أسباب هجرتهم غرباً واعتصامهم في الجبال التي استوطنوها وسمّيت باسمهم : سمّوا نصيريّة أولاً نسبة إلى الشيخ الزعيم محمد بن نصير النميري في القرن الثالث (التاسع الميلادي) ثم أطلق عليهم حسب إرادتهم اسم العلويين سنة 1919 وعلى الجبال التي سكنوها جبال العلويين»⁴⁹.

ونكاد نستغني عن القول إنّ سياسة سيّئة مثل هذه السياسة لن تكون نتيجتها غير إيغال العلويين في علويّتهم إذ أنّ الطائفية في مثل هذه الحالة تتحوّل إلى ملجأ تلجأ إليه الجماعة حفاظاً على الذات وهو ملجأ لا يقتصر على الجانب العقديّ بل يتعدّاه إلى المستويات الاقتصادية والاجتماعية إذ لا يمكن أن يطلب المرء من جسد اجتماعي يتعرّض لضغوط خارجيّة تهدّد وجوده أن لا يتقوقع حول نواته الابتدائية :

«إنّ الطائفية هي أكثر من الانتماء إلى عقيدة مشتركة إذ هي إطار اجتماعي وسياسيّ بل اقتصادي لأنّ الجدل المحموم الذي غلب طيلة قرون على اهتمامات الكنائس المسيحية في الشرق لم يكن يمثّل في حقيقة الأمر شاغلاً بالنسبة إلى الجماعات المحليّة ولم يكن له من دور في أغلب الأحيان غير طمس التناقّس السياسي الذي يمثّل رهان هذه الانقسامات الحقيقي، وأشهر مثال على ذلك هو مثال الأميرين معن وشهاب، فالانتهازية

⁴⁸ يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، ص 71

⁴⁹ يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، ص 68

تبرّر اعتناق دين دون آخر و التمدّ به بمذهب دون آخر ولذلك فإنّ التصنيف الطائفي يجب أن يفهم في المقام الأوّل على أنه أحد مستويات الانقسام العام في المجتمع»⁵⁰.
فن الطبيعيّ، إذن، أن تتّسم هذه الطائفة بسمات خاصة منها انغلاقها على نفسها انغلاقاً تاماً :

« لا تزال الحياة العشائرية سائدة بينهم ولرئيس العشيرة منزلة ممتازة تضاهي منزلة شيخ الدين (عند الدروز) أو تزيّد. وقد تجتمع الصفاتان في زعيم واحد⁵¹ وعشائرتهم متعدّدة فمنها عشائر الخياطين والحدّادين والمنورة والنواصرة والكلبيين. وقد سمّي باسمهم جبل الكلبيّة في فضاء جبلة. وكان يطلق على الساحليين منهم نعت الشماليين، يقابل ذلك نعت الكلازيين لساكني جبال الكلبيّة وغيرهم»⁵².

وتعدّ عائلة رسلان من أشهر الأسر فيهم :

« تمكّن النصيريون نهاية الأمر من التخلص من هيمنة الإسماعيليين المستقرّين في جبالهم (...) ولقد حافظوا على انقساماتهم في بطون وعشائر وكانت تحكمهم كما هو الشأن بالنسبة إلى الدروز عائلات إقطاعيّة وفي بداية القرن التاسع عشر كان الرسلانيون هم الأكثر نفوذاً »⁵³.

ومن هذه السمات يمكن كذلك أن نذكر التعاطف، داخل العالم الإسلامي، مع الشيعة الإيرانيين : « هذا الشعب يميل بعواطفه إلى دولة إيران الشيعيّة المذهب نظراً لما يلاقيه من ظلم واستبداد من مواطنيه والحكومة معا»⁵⁴ وسمة التمرد التي ميّزت تاريخه على عهد العثمانيين إذ كثيراً ما دفعت سياسة الدولة النصيريين إلى أن يعودوا « إلى سيرتهم الأولى (يهدمون) المساجد (ويقلّبون) المدارس إلى مساكن (فيعود) الجبل إلى حالته القلقة»⁵⁵ وكذلك على عهد الاستقلال السوري بالرغم من الجهود الذي بذله صالح العليّ للحدّ من نزعة العلويين النابذة ولسف يظهر في القرن العشرين ضمن هذه الطائفة جيل جديد

⁵⁰ E.Picard.-Liban, Etat de discorde. Des fondations aux guerres fratricides. - Paris, 1989. p

29.

⁵¹ عند الدروز يوجد الشيوخ العقّال (سلطة روحية) وشيوخ الزمان (سلطة زمنية)

⁵² يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، ص 71

⁵³ H. Lammens.- La Syrie . - Précis historique. - Beyrouth, 1921. t.2,p.139

⁵⁴ يوسف الحكيم : سوريا في العهد العثماني، ص 70

⁵⁵ يوسف الحكيم : سوريا في العهد العثماني، ص 70

ذو نزعة تجميعية تتجاوز حدود الوطن الشامي أمثال زكيّ الأرسوزي (فكر) وأدونيس (نقد) وحافظ الأسد (سياسة).

على هذا الخط الساحلي كذلك تقع متصرفية طرابلس التابعة لولاية بيروت. وتهمنا هذه المتصرفية خاصة بسبب ولادة مفكرين عربيين خصمين فيها هما الشريف محمد رشيد رضا والمسيحي الأرثوذكسي فرح أنطون. وعندما يقارن المرء بين طرابلس وبيروت العاصمة يلاحظ أن بيروت تمثل المركز الناهض مقارنة بالمحيط المتخلف فقد كتب محمد رشيد رضا عن طرابلس :

« إن طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني لا يهاجر إليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولا تعليم فيها إذ لا رجاء لأحد في الكسب منها»⁵⁶.

وهجرة محمد رشيد رضا وفرح أنطون نهاية القرن التاسع عشر إلى مصر أملا منهما في تحسين أوضاعهما الاجتماعية وتحقيق الذات فكرياً تثبت، في حد ذاتها، صحة وصف محمد رشيد رضا لوضع هذه المتصرفية التي بقدر ما سيرحب العرب المسيحيون فيها بالتنظيمات ويطالبون بتعميقها ستقاومها العائلات التقليدية لأنها رأت فيها نسفا لمواقعها الاجتماعية. ومن هذه العائلات عائلة الرافعي التي كان مجال نشاطها محصوراً في الدفاع عن الطريقة القادرية وعائلة كرامة التي ستتنزل في القرن العشرين منزلة خاصة في تحقيق التوازن بين السنة والمارونيين والروم الكاثوليك في إطار الدولة اللبنانية.

في هذا المحور الساحلي تنزل بيروت العاصمة منزلة لا تشبهها فيها منزلة أي عاصمة أخرى من عواصم ولايات الشام ولذلك فنحن نأخذ بما يذهب إليه وجيه كوثراني إذ يرى أنه « في الواقع هناك ضرورة لمعالجة أوضاع بيروت على حدة»⁵⁷ فهذه المدينة التي كانت تعدّ سنة 1830 عشرة آلاف ساكن بلغت نهاية القرن التاسع عشر مائة وعشرين ألف ساكن أي تضاعف عدد سكّانها 12 مرة فما هو سبب هذا التضخم العمراني في وقت شهد بالذات ضمور مدن أخرى وما هي أسبابه الاقتصادية والاجتماعية ونتائجه الفكرية والذهنية؟

⁵⁶ محمد رشيد رضا : رحلات الإمام محمد رشيد رضا. - بيروت، 1971. - ص. 10.

⁵⁷ وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860 - 1920). بيروت ط2،

كتب كوتلوف عن الجانب الاقتصادي :

« بدأ رأس المال الأوروبي منذ منتصف القرن التاسع عشر ببناء طرق ومواصلات جديدة أكثر فعالية من أجل خدمة التدفق المتزايد للبضائع بين أوروبا والمناطق العربية من آسيا الأمامية (وكذلك المصالح العسكرية أيضا). وقد سيطر ممثلو الشركات الأوروبية الغربية الذين تمركزوا في الموانئ الساحلية إما بشكل مباشر أو عن طريق عملائهم التجاريين على جميع تجهيزات الموانئ والمستودعات ومراكب التفريغ وما إلى ذلك وتم بناء ميناء بيروت، المرفأ الوحيد على الساحل السوري الصالح لرسو البواخر الحديثة من قبل شركة فرنسية كانت تملك كافة أرصفة الميناء وجميع التجهيزات الملاحية والأبنية والمستودعات الرئيسية وأبعدت الأساطيل التجارية للدول الأوروبية وللولايات المتحدة الأمريكية مراكب التجار العرب والبواخر التي كانت تبحر تحت العلم العثماني عمليا عن الموانئ السورية فقد بلغت نسبة الخدمات في موانئ سورية عام 1910 من حيث التفريغ 97,8 % لبواخر أنكلترا وروسيا وفرنسا والنمسا والمجر وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول و 2,2 % فقط للسفن التجارية التي ترفع العلم العثماني. أما دور أسطول السفن الشراعية المحلي فأصبح معدوما تقريبا ولم تبلغ حمولة المراكب الشراعية التي أمت الموانئ السورية عام 1910 سوى 3% من حمولة الأسطول التجاري»⁵⁸.

وقد نحا وجيه كوثراني نحو كوتلوف فكتب :

« هذه المدينة كانت في ذات الوقت مرفأ لدمشق بل لكل سورية الداخلية ومرفأ أيضا لتصرفية جبل لبنان. عبر هذا المرفأ كانت تصدر خيوط وشرانق الحرير المنتجة في الجبل، كذلك الحبوب والمواد الغذائية والسلع الحرفية الآتية من دمشق ومناطق سورية الداخلية كذلك كان هذا المرفأ يستقبل لسورياكمية ضخمة من السلع الأوروبية المصنعة ومما زاد في أهمية هذا الدور الطريق المعبد (بيروت دمشق) التي دشنت عام 1863، كذلك خط سكك الحديد الذي مد بين المدينتين عام 1892 والخط المتفرع منه نحو حوران ولقد كان من شأن كل هذا أن يكسب مدينة بيروت استقطابا تجاريا هائلا كان من نتيجته المباشرة تقلص أهمية مرفأي صيدا وصور وتراجع الدور التسويقي الذي كانت تلعبه «القصبات» الوسيطة الواقعة بين صيدا وحوران. من جهة أخرى كانت بيروت سوقا رئيسية للولاية الكبيرة التي تحمل اسمها، كذلك سوقا لجبل لبنان ومركزا لكل فعالياته وشؤونه الاقتصادية، حتى أن

⁵⁸ كوتلوف : تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي ، صص 18-19

الدعائي ذات الطابع التجاري التي كانت تنشأ في الجبل كان لابد أن ينظر فيها في محكمة بيروت التجارية»⁵⁹.

لقد بين كل من كوتلوف وكوثراني أن بيروت تمثل، من الوجهة الاقتصادية، رئة الشام الحديث ولم يتعرّضا، بالدرجة الأولى، إلى «البناء الفوقي» ومنه الأدب فلنستشهد بالشامي جميل صليبا الذي ركّز على العكس منهما على هذه الناحية :

«و الفرق بين أدب الشام الداخلي وأدبها الساحلي أن الأدب الداخلي أدب مدرسي (كلاسيكي) يحافظ بجملته على الأساليب العربية القديمة في الشعر والنثر في حين أن الأدب الساحلي يزيد إبداعا وروعة على قدر أخذه من المدنية الغربية وتأثره بها. ولذلك نجد الدمشقيين والحليين يؤلفون الكتب العلمية ويحققون المخطوطات القديمة وينشرون الدراسات العلمية بلغة عربية مصرية، و نجد المجديين من أبناء لبنان يقلدون الغربيين باتجاهاتهم الفنية وأشعارهم الرمزية والرومنطيكية»⁶⁰

والحقيقة أنه لا اختلاف بين المفكرين الثلاثة في التأكيد على دور بيروت إذ أن صليبا يقصد بـ «الساحل ما» قصدنا نحن بـ «المحور» ونواته هي بيروت إذ لا نعثر في غير هذه المدينة، شمالا وجنوبا وشرقا على هذا «الإبداع والروعة المأخوذين من المدنية الغربية» واللذين لايعنيان في نظر كوتلوف وكوثراني غير المظهر الأدبي من «دور التسويق» وكأنهما يعتبران، بهذا الفهم، أن دور الأدباء المبدعين إنما هو تعبير أدبي عن دور «المنالة» (Sous-traitance) الذي اضطلع به البوجوازيون.

إن كوتلوف وكوثراني وصليبا لم يعيشوا الفترة التي نتحدث عنها ونحن نحتاج إلى شاهد من هذه الفترة ولقد عثرنا عليه فيما كتب العربي الأرثوذكسي جورجي زيدان (1861 - 1914) أحد كبار الماسونيين الشوام :

«هناك مجالس قد تجمع بين رجال الفتوة وأبناء الهوى أو أحدهما دون الآخر، أعني مجالس الشراب، فهذه كانت كثيرة يجلسها العاقل والجاهل إذ مرّ على البيروتيين دهر وهم يعتقدون فائدة العرق قبل الطعام والنبذ مع الطعام ويندر أن لا يتعاطاهما أولا يتعاطى أحدهما. ولا أهمية لمجالس الشراب في موضوعنا إلا إذا كان أهله من أهل الفتوة الذين إذا دارت الخمر في رؤوسهم عربدوا وصاحوا وتفاخروا. تلك آداب عامة البيروتيين في ذلك

⁵⁹ وحيه كوثراني : الاتجاهات، 103

⁶⁰ جميل صليبا : محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث : القاهرة، 1958، ص 81

الحين فإنّ عامّتهم كانوا من الجهلاء لقلة المدارس عندهم ويغلب في أحاديثهم هجر القول والألفاظ البذيئة. ولم يكن ذلك الهجر خاصا بالفقراء والعامّة ولكنه كان يتناول الأغنياء أيضا فقد كان أهل بيروت طبقتين = العامّة وهم الرعاع والصناع وسائر أهل الصنائع الدنيئة والتجارة الصغيرة والخاصة وهم رجال الحكومة وأهل الثروة. والآداب الاجتماعية كانت واحدة في أسسها من حيث العيشة العائلية وآداب الحديث والمؤاكلة و المشاركة وموائد الطعام أو السكن أو غيرها لا تختلف إلا قليلا⁶¹ فكانت الألفاظ البذيئة غالبية على ألسنة الأغنياء كما كانت غالبية على ألسنة الفقراء وقس على ذلك المسكرات ودحوها مع اعنبار التفاوت في الوسائل والأسباب. ونشأ بعد ذلك أي بعد حركة الستين (يقصد الحرب الأهلية) طبقة ثالثة في أهل بيروت تخرّجت من مدارس الإرساليات الدينية المسيحية وخصوصا الأمريكيان والأنجليز والألمان فإنّ هذه الإرساليات تقاطرت على بيروت بعد احتلال الفرنسيين على إثر حادثة سنة ستين فأنشأوا المدارس لنشر العلم والأدب على نهج التمدّن الحديث في أوروبا فنشأ من ذلك طبقة من الفتيات المهدّبات تخرّجن من مدرسة مسزسوط الأنجليزية أو المدرسة الانجليزية ونشأت طبقة من الشبان المتخرّجين في المدرسة الليلية السورية أو من مدارس اليسوعيين أو البطريركية. فهذه الطبقة الثالثة عليها كان المعوّل في تغيير الآداب الاجتماعية ممّا كانت عليه إلى ما صارت إليه حتّى صارت آداب المعاشرة في بيروت تضاهي أرقى آداب الإفرنج من حيث التادّب في الحديث أو الجلوس أو غير ذلك. غير أن هذه الطبقة نمت تدريجيا وكانت في أوّل ظهورها تعدّ في نظر عامة البيروتيين بدعة في التخنّث أو الخلاعة ولا سيما لما أخذ أولئك التلامذة في لبس الزيّ الإفرنجي، فإنّهم لاقوا احتقارا كثيرا. وكنت أنا أيضا أنظر إلى أبناء المدارس وبناتها نظر الاحتقار لأنهم لا يخاصمون ولا يضاربون ولا يسكرون»⁶².

هذا النصّ على غاية من الأهمية، في نظرنا، وذلك لأسباب منها :

أوّلا : أنّه يصف الوضع الاجتماعي والثقافي في بيروت قبل أحداث الستين وبعدها بأسلوب واقعيّ عار ونافذ في الآن نفسه.

⁶¹ يحدّد «الساق على الساق» للشدياق (1855) فيما يتّصل بالاستعمال المكثّف لكلّ ما يمتدّ إلى عالم الجنس بصلة

مثالا فنّيا على ما كان واقعا ثقافيا في بيروت

⁶² جورجى زيدان : مذكرات جورجى زيدان . — بيروت ، 1968 . — صص 26 — 28

وثائقياً : أنه يدلّ، بما لا يدع مجالاً للشكّ، أن بيروت، وحدها، قد استفادت من

«التمدّن الحديث»

وثائقياً : أنّه يؤرّخ لبذور النظرة الحديثة بداية من العقد السابع من القرن التاسع عشر أي، تقريبا زمن بداية الرّدة على التنظيمات ويبيّن أن هذه البذور ممثلة في « التمدّن الحديث» زرعها أمثال الأمريكي كونيلْيوس فاندِيك (1818 - 1895) فإذا كان لدمشق مصلحها طاهر الجزائري (1852 - 1920) وللقاهرة مصلحها محمد عبده (1849 - 1905) فان لبيروت كذلك مصلحها وبذلك يلغى فكرة التأريخ لـ « نهضة عربية شاملة» ترقى إلى حملة نابليون على مصر والشام نهايات القرن الثامن عشر.

وأبعداً : أنه يبيّن أن هذه البذور شملت الذكور والإناث وشملت مختلف النشاطات المعرفيّة إذ اشتهر كورنيليوس فاندِيك، وهو رجل الدين، بدفاعه عن ضرورة تدريس الداروينيّة في الجامعة الإنجيليّة إيماناً منه بوجود اتساع صدر الدين لكلّ المعارف. **خاتمة :** لأنّه يبيّن، ضمناً، رفض الثنائية في تفسير الأشياء فأحداث الستين لم تكن عنده شراً محضاً بل كانت شرّاً (لأنها في نهاية الأمر حرب أهلية) وكانت خيراً كذلك (لأنّه تولّد منها «التمدّن الحديث») وسنرى فيما بعد أن رفض الثنائية هو أحد أهمّ سمات الفلسفة العثمانية.

لاشكّ، إذن، في عمق التحوّلات في بيروت ولكن المرء يتساءل عمّن هو المستفيد منها لأن «ما يهتمّنا هنا هو معرفة كيف توزّعت هذه الفعاليات الاقتصادية في المدينة على المستوى الاجتماعي - الطائفي»⁶³

يجيب كوثراني الذي طرح السؤال بشكل قاطع :

« إنّ بيروت التي كانت سابقاً مدينة إسلاميّة أخذت منذ 1860 تفقد طابعها هذا»⁶⁴ ولكنّ فقدان هذا الطابع لايعني، عندنا، أنها اكتسبت طابعاً مسيحياً لما لاحظناه من خروج عدد كبير من المفكرين والتجار المسيحيين عن دياناتهم الأصليّة وتبنّي الماسونية كما تدلّ على ذلك كثرة الجمعيات « العلميّة » التي تميّزت بانتماء أعضائها، لأول مرّة في ستينات القرن التاسع عشر، إلى ديانات مختلفة وطوائف مختلفة إذ لاشيء مثل الماسونية، وخاصة منها الماسونية المحافظة يلائم النشاط الاقتصادي « التسويقي» الذي ينفر من «الحدود

⁶³ وجيه كوثراني . — الاتجاهات، ص 103

⁶⁴ وجيه كوثراني . — الاتجاهات، الصفحة نفسها

الجمركية « نفوره من الحدود الدينية وليس من باب الصدقة، في نظرنا ، أن تكاثرت في هذه الفترة الكتابات « المسيحية » المتغنية بفصائل الماسونية(مثل تاريخ الماسونية العام لجورجي زيدان) والكتابات المسيحية المنددة بها (مثل كتابات اليسوعي لويس شيخو) عملا بتوصيات البابا بيوس التاسع الذي كان حربا على مظاهر الحداثة كما كان صاحب الدعوة إلى عقد مؤتمر الفاتيكان الأول.

على أن هذه الأخوة في الماسونية لم تنف عن التحديثيين طابع « النخبوية» لأن بيروت المركز ليست كل متصرفية بيروت التي تضم صيدا وصور ومرجعيون بسكانها المتأولة أساسا الذين رأينا وضعهم المتردي في صفحات سابقة كما أن بيروت المركز ليست كل ولاية بيروت التي تشمل كذلك متصرفية عكا(حيفا وطبرية وصفد والناصرة أي الجليل) كما تشمل متصرفية نابلس. وهاتان المتصرفيتان كانتا تشهدان تطورا خاصا نتيجة تزايد المهاجرين الصهاينة الأشكيناز، وهم يختلفون عن سكان المنطقة في كل شيء تقريبا. ففي المتصرفية الأولى (عكا) التي اشتهرت فيها عائلة الشقيري كان النهم الصهيوني شديدا حتى أن الصهيونية تمكنت بين 1899 و 1902 من شراء ما يقرب من نصف إقليم طبرية كما تمكنت سنة 1910 من عقد صفقة اشترت بمقتضاها 1000 هكتار من الأراضي في متصرفتي عكا ونابلس وبذلك مهدت الطريق لمزيد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين :

« كان هناك 25.000 يهودي عام 1880 في فلسطين من بين 500.000 نسمة من السكان. وابتداء من عام 1882 بدأت الهجرات الكبرى عقب عمليات ذبح اليهود في روسيا القيصرية. وعلى ذلك فمن عام 1882 وحتى عام 1917 وصل 50.000 يهودي إلى فلسطين»⁶⁵ ومن الواضح أن روجي غارودي وهو يتحدث عن وجود « 25.000 يهودي عام 1880 في فلسطين من بين 500.000 نسمة من السكان » إنما يقصد بفلسطين ما نقصد اليوم منها لاماكان يعتمد التقسيم الإداري العثماني في هذه الفترة ولا ما قصد إليه جورج أنطونيوس (1893 - 1942) الذي عرف فلسطين، بعد تلك الفترة، على النحو التالي « (هي) ذلك الجزء من الشام الذي كان يعرف في الإصلاح الإداري العثماني بسنجق القدس السابق وأضيف إليه الجزء الملاصق له من ولاية بيروت السابقة»⁶⁶.

⁶⁵ رجاء غارودي . — الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية . — القاهرة / ط 9 ، 1997 . — ص 164

⁶⁶ جورج أنطونيوس . — بقطة العرب . تاريخ حركة العرب القومية. — بيروت، ط 7، 1982 . — ص 268

سنجق القدس سوف تطاله، هو أيضا، الأيدي الصهيونية ولن تحلّ سنة 1909 حتى تكون هذه الأيدي قد تمكّنت من تأسيس تل أبيب، نواة العاصمة الإسرائيلية اللاحقة، فوق التلال الرملية جوار يافا وتكون، في الآن نفسه قد تمكّنت من تأسيس المنظّمة الصهيونية الاشتراكية الدفاعية (هاشومير هاتزير) وهي وحدات عسكرية نشط فيها المهاجرون الكيبوتزيون من أمثال إسحق بن زفي وزوجته راشيل يني ودفيد بن غوريون وفي الأثناء لن تحسّ العائلات الإقطاعية سواء في متصرفتي عكا ونابلس (طوقان - عبد الهادي...) أو في متصرفية القدس (الحسيني والخالدي والنشاشيبي والشوّا...) إلّا إحساسا منقوصا بأبعاد المشروع الصهيوني أمّا العائلات الأقل مرتبة اجتماعية فلم تكن في سعة من العيش تمكّنها من تعليم أبنائها تعليما قادرا على إيقاظ الشعور الوطني إذ، كما يقول دروزة « لعلّ أول مدرسة ابتدائية حكومية قامت في نابلس كانت المدرسة التي درسنا فيها وكان مديرها الشيخ محمد زعيتر ويصادف ذلك لسنة 1895 »⁶⁷. بقي المزارعون البسطاء، وهؤلاء كانوا يردّون الفعل ظرفيا إثر كلّ عملية تفريط في الأرض على الصهاينة والإقطاعيين الشوام الباعة على حدّ سواء وليس من شأن ردود الفعل العفوية والظرفية أن توقف إنجاز مشروع سياسي مثل المشروع الصهيوني الذي لا يشبهه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين (وجود طبقة بورجوازية، توفر الإمكانيات المالية، توفر دعم إحدى القوى العظمى) غير المشروع القومي « اللبناني » أو الماروني - الرومي الكاثوليكي على وجه أصحّ الذي اتخذ من متصرفية الجبل قاعدة سعى منها إلى التوسّع في المناطق المجاورة.

تكوّنت متصرفية جبل لبنان بعد حرب 1860 الأهلية بضمانة من القوى العظمى وبقيت على استقلالها الذاتي حتى بعد قيام ولاية بيروت سنة 1888. ولا يمكن لمن يتحدّث عن جبل لبنان في هذه الفترة أن لا يتعرّض لتركيبه الاجتماعي الثنائي أساسا : الدروز والموارنة .

يتجمّع الدروز الذين هم من أصل قحطانيّ في ثلاثة تجمّعات رئيسية أولّها في ذلك القسم من جبال لبنان الذي تقاسموه طوال قرون مع الموارنة وثانيهما في منحدرات حرمون وثالثها في جبل الدروز الواقع في مقاطعة حوران الداخلية التي نزحوا إليها في فترتين أساسيتين: إثر الهزيمة التي ألحقها بهم القيسيون (الحمير) بقيادة حيدر الشهابي « سفّك الدماء » في بداية القرن الثامن عشر وإثر حرب 1860 الأهلية. « وتشير معتقداتهم (بقدر ما

⁶⁷ عادل غنيم . — محمد عزّة دروزة وحركة النضال الفلسطينيّ . — القاهرة، 1987 . — ص 201

هي معروفة) إلى إضافات غير إسلامية مهمة وبالفعل فإن ادعائهم الإسلام قد وضع موضع الشك على نطاق واسع⁶⁸ غير أن نظرتهم إلى الحياة وطريقة حديثهم إسلامية بقوة إضافة إلى أن أصولهم العرقية لا تقل عروبة عن أي طائفة سورية أخرى⁶⁹. أما التركيب الاجتماعي عند الدروز فهو قريب مما رأينا عند المتأولة وخاصة عند النصيريين إذ «هم طائفة حافظوا على خضوعهم الصارم لـ «النبيلة» وعلى عزلة غير مألوفة وكان الجميع ينفرون منهم وكان الطابع الدرزي قاسيا وغير ودي تجاه الأجانب وميالا للوحشية. غير أنه كذلك ذا قدرة على الولاء وعلى تحمل المشاق. ومن ناحية ثقافية ومع وجود تلك الطبقة الصغيرة المتكتمة من المطلعين دينيا، فإنهم احتلوا مع العلويين والبدو الموقع الأكثر تأخرا في سوريا»⁷⁰ ومن العائلات الشهيرة في جبل لبنان عائلات أرسلان وجمبلاط (وإن كان هؤلاء من أصل كردي) وتلحوق ويزيك... أما عائلة الطرشان فهي متنفذة في حوران التابعة لولاية سوريا.

أجوار الدروز الأخصام هم الموارنة بشكل رئيسي والموارنة ينتسبون إلى مار (القديس) مارون الذي عاش في القرن الخامس الميلادي :

« ففي القرن الخامس كان معظم سكان لبنان وسوريا قد اعتنقوا الدين المسيحي. وكانت اللغة السائدة هي السريانية. انفصل الموارنة عن الكنسية السورية بعد المجمع الخلقدونى 451. وأسسوا أديرتهم على نهر العاصي. فلما اضطهدوا في مطلع القرن السادس أخذوا يهاجرون لاجئين إلى جبال لبنان الشمالية ويكونون طائفة أثر عنها التضامن بين أفرادها وإطاعتهم لرؤسائهم الدينيين»⁷¹.

عندما تأسست الدولة الأموية « أقام (معاوية الأموي) عند الساحل اللبناني قبائل عربية وفارسية مسلمة لحمايته من الغارات البيزنطية بينما قام تعاون بين سكان الجبل المسيحيين والبيزنطيين لمناوأة الحكم العربي (وأصبح) مسلمو الساحل اللبناني يعتبرون أنفسهم حماة الداخل العربي (بينما أصبح) مسيحيو الجبل ولاسيما الموارنة يرون أنفسهم في شبه عزلة عن الغرب الذي يشاركونه في المعتقد الديني ومحاطين بعالم إسلامي»⁷²

⁶⁸ توسعنا في تناول هذه المسألة في الفصل الثالث من القسم الثاني المتعلق بالعروبة الإسلامية

⁶⁹ لونفريغ . — سوريا ولبنان، ص 17

⁷⁰ لونفريغ . — سوريا ولبنان، ص 17

⁷¹ باسم الجسر . — ميثاق 1943 : لماذا كان وهل سقط ؟ — بيروت، 1978. — ص 26

⁷² باسم الجسر . — ميثاق 1943 . — ص 28

هذا الاختلاف في الولاء ازداد تعقيدا أثناء الحروب الصليبية بدخول «آل معن وشهاب السنّة إلى جنوب الجبل اللبناني واشتراكهم مع آل بحتر التنوخيين (الذين أقطعوا بيروت والغرب حتى صيدا) في محاربة الصليبيين الأمر الذي سوف يعطيهم دورا سياسيا وطنيا يعلو على الزعامة الطائفية (...). فتكرّس نفوذ آل شهاب ومعن وبحتر وغيرهم من العائلات المسلمة السنّة كآل سيفا وعسّاف (الذين أقطعوا الساحل من عكار حتى نهر الكلب) وأسند إليهم أمر مراقبة الجبل وحماية الساحل من الغارات الصليبيّة»⁷³

وعندما حكم الماليك مصر والشام قاموا بعدّة حملات عسكرية تأديبية في كسروان «فإلى تلك الحقبة يجب العودة إذا أردنا الحديث عن البنيات والعناصر والمعطيات التي تكوّن لبنان اليوم. لقد أدّى اضطهاد الماليك للشيعة إلى نزوحهم عن كسروان ولجوئهم إلى منحدرات السلسلة الشرقية فحلّ الموارنة محلّهم»⁷⁴

إن فترة الحكم المملوكي هامة جدًا فأثناءها اعتنق أكثر شيعة المدن الساحليّة مثل بيروت وطرابلس وصيدا المذهب السنّي خوفا من اضطهاد الماليك ممّا يسمح بالحديث عن تقية مبرّرة أمّا من كان منهم في كسروان فقد اضطروا إلى النزوح إلى منحدرات السلسلة الشرقية تاركين مجالا حيويا لتوسع المارونيين «بعد أن ظلّوا أكثر من خمسة قرون محصورين في منطقة الزاوية ووادي قاديشا وجبال البترون»⁷⁵ كما أنّ الاضطهاد المملوكي وضع حدّا لانتشار المذهب الدرزي.

أنهى العثمانيون في العقد الثاني من القرن السادس عشر حكم الماليك في مصر والشام ومن ضمنه الجبل اللبناني فبرز دور آل معن القحطانيين الدروز وحكموا مناطق يسكنها الدروز والمارونيون وحرصوا تمكينهم لإمارتهم على سلوك سياسة «لائكيّة» تجذب إليهم الموارنة (أهل الذمّة) فسمح لهم الأمير فخر الدين المعني الثاني (1590-1635) بركوب الخيل المطهّمة والتسلّح بالسيوف... وربط، بواسطتهم، علاقات طيبة بأوروبا وبالفاتيكان خاصّة ولكن هذا الأمير قتل بعد اعتقاله بالآستانة.

انقرضت العائلة المعنية سنة 1697، لعدم وجود خليفة ذكر، ولكنها صاهرت الشهابيين، وهؤلاء هم عرب قرشيون سنّيون قيسيون وقد اشتهر منهم حيدر شهاب «سفّاك

⁷³ باسم الجسر — ميثاق 1943، ص 30

⁷⁴ باسم الجسر — ميثاق 1943، ص 31

⁷⁵ (باسم الجسر — ميثاق 1943، ص 31

الدماء» في الثلث الأول من القرن الثامن عشر، فهذا الأمير جمع حوله القيسية والمارونيين وبعض العائلات الدرزية اليمانية (عائلة أبي اللع ، عائلة جمبلاط ذات الأصل الكردي) ليوقع هزيمة نكراء باليمانية (عائلة علم الدين ، التيوخيين) في وقعة عين دارة في العرقوب (1711) مما سبب هجرة مكثفة لليمانية (الببيض كما يتسمون تميزا عن القيسية ، الحمر،) نحو جبل حوران.

أما بشير الثاني الشهابي ، معاصر محمد علي وحليفه وحليف فرنسا، فقد اشتهر بالقضاء على الجمبلاطية حليفة الأمس وعلى الأرسلانية شهرته بالتنصر علنا. وعندما أجبرته بريطانيا والسلطنة سنة 1840 على الاستقالة والنفي الذي مات فيه سنة 1850 بكاه شاعره الرومي الكاثوليكي حليف الموارنة ناصيف اليازجي بكاء مرا يذكر ببكاء الخنساء صخرا. ولسوف تكون هجرة الدروز الثانية نحو حوران عقب حرب 1860 الأهلية علامة على انقلاب موازين القوى في الجبل لصالح المارونيين والروم الكاثوليك انقلابا نهائيا وهذا هو ما يفسر نشأة القومية اللبنانية مباشرة بعد أحداث الستين.

فما يمكن أن ننهي به هذا الفصل ، إذن، هو أن بداية أربعينات القرن التاسع عشر ستشهد نهاية الإمارة الشهابية في الجبل مما يترك المجال واسعا لتضخم دور البطريك الماروني.

ما ذا سيكون دور الروم الارثوذكس الذين يتمركزون أساسا في الكورة ؟ من السهل على القارئ أن يتصور هذا الدور الذي لا يمكن أن يكون إلا دورا توفيقيا، وسيشاركهم في هذا الموقف البروتستانت مما دفع كثيرا من الدراسات إلى أن تطلق على هذا الموقف الداعي إلى وحدة قيسية يمانية في الشام عبارة «الوحدة العربية» من دون أن تحدد مجالها أو مدى اتساعها وهو ما أدخل الاضطراب على تفكير كثيرين لم يفتنوا إلى أصول هذه الدعوة والغاية التوفيقية منها فخلطوا بينها وبين دعوة ثلاثينات القرن العشرين التي تنسب عادة إلى ساطع الحصري.

الفصل الثاني

وأورقت الشدياقية فترة من الزمن

« لا أود أن أرى فروقا دينية بين رعاياي إلا عندما يدخلون المسجد أو البيعة أو الكنيسة ». هذه القولة التي تنسب إلى محمود الثاني (1809 - 1839) قبل موته بقليل تتضمن قدرا كبيرا من الفلسفة العثمانية لأنها تعني تحولا في نظرة جزء من صنعة القرار في السلطنة إلى المجتمع وإلى العالم إذ تعوِّض ثنائية المسلم والذمي وثنائية دار الإسلام ودار الحرب بنظرة جديدة تقول بالاختلاف لا بالتناقض وهي بهذا القول تعارض على مستوى التشريع النظرة الإسلامية كما عبّر عنها الماوردي في «الأحكام السلطانية». فلقد قنن هذا الفقيه النظم التي يجب أن تخضع لها الدولة الدينية المسيحيين واليهود فأحصى ستة واجبات «واجبة» وستة «مستحبة» تبعا لخطورة ما يرتكبه هؤلاء. فالواجبات الستة الضرورية ينجرّ عن الإخلال بها نقض عهد الحماية التي يضمنها المسلمون لأهل الذمة فيتعرّضون لإقامة الحد الأقصى (الموت) عليهم وهي :

- **أحدها** : أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له
 - **الثاني** : أن لا يذكروا رسول الله (صلعم) بتكذيب له ولا ازدراء
 - **والثالث** : أن لا يذكروا دين الإسلام بدم له ولا قدح فيه
 - **الرابع** : أن لا يصيبوا مسلمة يزنا ولا باسم نكاح
 - **الخامس** : أن لا يقتلوا مسلما عن دينه، ولا يتعرّضوا لماله ولا دينه
 - **السادس** : أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم
- فهذه الستة حقوق ملزمة فتلتزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعارا لهم وتأكيذا لغليظ العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم¹
- « وأما المستحبّ فسّة أشياء :

- **أحدها** : تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشذّ الزنار
- **والثاني** : أن لا يعلوا على المسلمين في الأبنية ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين

لهم

- **والثالث** : أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عزير والمسيح.

- **والرابع** : أن لا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم
- **والخامس** : أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.
- **والسادس** : أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا، ولا يمنعوا من ركوب

البغال والحمير.

¹ أبو الحسن الماوردي . - الأحكام السلطانية . - بيروت، 1990 . - ص 258

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشتط فتصير بالشرط ملتزمة، ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم، لكن يؤخذون بها إجبارا ويؤدّبون عليها زجرا، ولا يؤدّبون إن لم يشترط ذلك عليهم»²

ولا يظنّ أحد، اعتمادا على ما اشتهرت به السلطنة العثمانية من تسامح ديني مقارنة بكثير من الكيانات السياسية ما قبل الرأسمالية الأخرى، أنّ ما عبّرت عنه «الأحكام السلطانية» لم يكن راسخا في السلوك العام. هذا الرسوخ هو الذي يفسر بالذات أهمية قوله محمود الثاني: «فلقد كان المجتمع العثماني المسلم حتى هذه الفترة يعيش في عزلة عن كل ما كان يجدّ في أوروبا المجاورة ولذلك بدا السلطان، على احتشام إطلالته عليها، رائدا في هذا المجال»³ فهو «أول من لبس الطربوش واللباس الإفرنجي على الزيّ المعتاد (في أواخر حكمه) وأول من ركب عربة (فايتون) من سلاطين آل عثمان وقد كان السلاطين قبله يلبسون العمامة والجبّة ويركبون الخيل وفي عصره ظهرت أول جريدة في المملكة العثمانية»⁴ ويقال إنّه أذن بنقل رسمه بالزيت»⁵

وعندما بعث سنة 1827 بأربعة طلبة عثمانيين للدراسة في باريس لقي هذا القرار معارضة المحافظين⁶. وذلك رغم أن محمد علي والي مصر، التابع للسلطنة، سبق سلطانه في مثل هذه الإصلاحات وفي غيرها وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التي دعست كارل ماركس

² الماوردي — الأحكام السلطانية، صص 259-260

³ لقد خلف محمود الثاني سليم الثالث في الحكم، ويعدّ سليم الثالث، بالمفهوم الفضفاض للإصلاح الذي سننقه في مواضع أخرى، «مصلحا» ونحن نورد منشور سليم الثالث حول الثورة الفرنسية حتى يتبين القارئ التطوّر الحاصل «...إن الطائفة الفرنساوية...هم الكفرة الطغاة والفجرة البغاة لا يؤمنون بوحداية رب السماء والأرض، ولا برسالة الشفيع... بل تركوا الأديان كلّها، ويزعمون أن لا يهلكنا إلا الدهر... وما هي إلا أرحام تدفع وأرض تلع ولبس وراء ذلك حساب ولا عقاب... فنبوا كنائسهم وأغاروا على قسوسهم وورهبانهم وزعموا أن الكتب التي جاء بها الأنبياء كفر صريح وليس القرآن والتوراة والإنجيل إلا زور وأقاويل... والذين يدعون أنهم أنبياء كموسى وعيسى ومحمد وغيرهم ليس صحيحا... وما جاء على الدنيا نبي ولا رسول... بل هم مفترون على الخلق... والناس كلّهم متساوون بالإنسانية، متشاركون بالبشرية، ليس لأحد على أحد حزية... وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأي المازل بنوا قواعد جديدة وقوانين أكيدة (يقصد حقوق الإنسان والمواطن) وهدموا قواعد الأديان وحلّوا لأنفسهم سائر المحرمات، وأفتوا بين الملل (يقصد الأمم) وبين الملوك والدول، واتخذوا تحت راية للشيطان وبقيت سائر طوائف الإفرنج من جوهرهم في هرج ومرج... ثم اتصل فسادهم إلى الأمة الحمّدية... سلّطوا الأدق على الأشرف وأعانوا ضعافهم على أقويانهم لأن إذا اضمحل حال الأقوياء هانت إبادة الضعفاء» (سامي الكيالي . — الأدب والقومية في سوريا . — القاهرة، 1969 ، صص 81-82 نقلا عن تاريخ الجزائر 125-126)

⁴ أنشأها الانكليزي تشرشل.

⁵ جرجي زيدان . — تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر . — بيروت، د.ت.، ص 92

⁶ Bernard Lewis.-Islam et laïcité : la naissance de la Turquie moderne.- Paris, 1988 .- p.97

وهو يتحدث عن إصلاحات محمد علي إلى أن يصفه بـ «الشخص الوحيد» الذي كان في وسعه أن يتوصل إلى استبدال «العمامة المفتخرة» بـ «رأس حقيقي» وأن يصف مصر، تحت قيادته، بـ «القسم الوحيد» الذي كان ذا قوة حقيقية آنذاك «في الإمبراطورية العثمانية»⁷ وفعلاً فإنَّ محمد علي لم يكتف بالإصلاح المادي في مصر ولكنه اجتهد في قبر الماوردية بما سلكه من سلوك يضمن التسوية بين المصريين المسلمين والمصريين الأقباط وهو سلوك يمكن للمرء أن يقرأ عند القبطي الاشتراكي سلامة موسى في «تربيته» تمجيدياً له. وبهذا لا يكون محمود الثاني وهو يعلن عن التسوية بين رعاياه المسلمين وغير المسلمين من العثمانيين قد أتى بدعة لم يسبقه إليها أحد.

ومع ذلك فكثير من الباحثين يذهبون إلى أنه إنما صرَّح بما صرَّح به استجابة لبريطانيا فيكتوريا وبالمستون والاقتصادي ريكاردو أي لرغبة الانفتاح الاقتصادي والحقوق التي تخدم مصالح هذه الدولة السَّابقة إلى التصنيع والباحثة بنهم منقطع النظر، على قلة عدد سكانها آنذاك⁸ عن أسواق لبضائع رأسماليها والتي ناصرته على واليه المتمرد محمد علي شأنه في ذلك شأن ابنه عبد المجيد (1839-1861) الذي خلفه وهو في سن السادسة عشرة والذي لقبه فلا ديمير لوتسكي بـ «المصلح رغم أنه»⁹. وأهم دليل على ما يذهبون إليه الاتفاقية التجارية البريطانية العثمانية التي وقَّعت منذ 1838 وألغيت بمقتضاها الاحتكارات وسمحت لكل تاجر بشراء كل المنتجات على امتداد الإمبراطورية وحددت الضرائب الجمركية بـ 5% على الاستيراد و 12% على التصدير و 3% على الترانزيت بل أصبح التجار الأجانب بمقتضاها «يدفعون رسوماً جمركية تفرض على بضائعهم مرة واحدة عند دخولها البلاد فقط أما التجار المحليون فكانوا يدفعون الرسوم مرّات عديدة أي كلما مرّت بضائعهم في دوائر الجمارك الداخلية العديدة وحين نقلها إلى إقطاعية أخرى»¹⁰ فاتفافية مثل هذه بين أكبر قوة صناعية في العالم وسلطنة زراعية وحرفية تقليدية لا يمكن، كما يمكن لأضعف الناس تكويناً اقتصادياً أن يتصوّر ذلك بسهولة، إلا أن تقود إلى موت الحرف وإفلاس الحرفيين العثمانيين المسلمين في أغلبهم ونمو طبقة عثمانية صغيرة أغلبها من غير المسلمين (يونانيين وأرمن ويهود وشوام مسيحيين...) تمتن الواسطة التجارية بين أوروبا الغربية والسلطنة وتستند فكرياً إلى مثقفين يوجزون قولاً محمود الثاني

⁷ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، صص 74 — 75

⁸ كانت أنكلترا وبلاد الغال تعلمان سنة 1801 تسعة ملايين من السكان ومع ذلك فقد توجَّس مالتوس (1766-

1834) خيفة من تكاثر السكان تكاثراً يزيد على تكاثر إنتاج «الحجرات»

⁹ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، ص 152

¹⁰ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، ص 22

الطويلة في العبارة القصيرة والشهيرة «الدين لله والوطن للجميع». لقد بدت تنظيمات 1839 وكأنها إصلاحات تهدف إلى تحقيق التلاؤم بين الوضع الاقتصادي الجديد وبين التشريع إذ يحتاج الانفتاح الاقتصادي أي فلسفة التبادل الحرّ إلى تعديل النظرة التقليدية إلى العالم وتعويض ثنائية دار الإسلام ودار الكفر وثنائية المسلم والذمي بمفهوم جديد يقوم على فكرة «الأم الصديقة» ويقوم على فكرة «الأخوة» الماسونية ومن هنا أصبح عبارة محمود الثاني تعبيراً عن هذا المسعى التوفيقي.

ألا يوجد مسلمون اقتنعوا بهذا الاختيار سعياً منهم إلى «الإصلاح» ؟ لقد وجدوا وإن كانوا قلة قليلة، وأشهرهم مصطفى رشيد باشا (1800 - 1858) وزير الخارجية ثم الصدر الأعظم. فلوتسكي مثلاً يرى أن «المبادر لاتخاذ الإصلاحات الجديدة (هو) رشيد باشا وزير الشؤون الخارجية ذو التفكير الحرّ و«النزعة الغربية» وكان برنامجه متواضعاً إلى درجة ما إذ لم يمسّ أسس الإنتاج الإقطاعي وحافظ على سلطة السلطان المطلقة. ومن الناحية الاجتماعية يمكن اعتبار البرنامج محاولة للتوفيق بين السلطة الإقطاعية ذات الطابع الديني التي ولّى زمانها من جهة والبورجوازية التجارية النامية والملّكين الأحرار من جهة ثانية»¹¹

إنّ لوتسكي وهو يصف مصطفى رشيد باشا ينطلق من نظرة ماركسية راديكالية فهو يقصد بـ «النزعة الغربية» ميل مصطفى رشيد والقوى التي تدعمه إلى سياسة كوبدن Cobden (1804 - 1865) وإلى تفكير ريكاردو Ricardo (1772 - 1823) أحد ممثلي مدرسة آدم سميث Adam Smith (1723 - 1790) الشهيرين ولذلك لا نجد مثلاً عند ولي الدين يكن، الموالي لبريطانيا، إلى حدّ أنّه سمّى ابنته فيكتوريا، و الذي يغلب «البناء القوي» على ماعده هذا النفور من سياسة بريطانيا إذ يصف مصطفى رشيد باشا بـ «أن أبا الحرية وصاحبها الأمير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا،¹² نال الشرف وحده في مجاهدة الاستبداد فكان هو ورشيد باشا قطبي المجد في الملك العثماني».¹³

ويحسن في نظرنا، أن نورد جزءاً من نصّ خطبة الكلخانة التي أُلقيت في وجهاء القوم والسفراء الأجانب وممثلي التجار والتي أعلنت عن إصلاحات 3 نوفمبر 1839 لأنها، ما من شك في ذلك، من صياغة الصدر الأوّل أو كتبت بناء على توجيهاته :

¹¹ لوتسكي. — تاريخ الأقطار العربية، ص 147

¹² (1830-1875) ابن القائد المصري إبراهيم باشا وأخو الخديوي اسماعيل . ماسوني شهير أسّس جمعية العنمانيين

الفتيان وكان على خلاف مع خليفتي مصطفى رشيد باشا، فؤاد (1815-1869) وعالي (1815-1871).

¹³ ولي الدين يكن. — المعلوم والمجهول. — ص 35

« يعلم العالم كله بأن التعاليم القرآنية وقوانين الإمبراطورية كانت قواعد محترمة في السنوات الأولى من عهد الإمبراطورية العثمانية وبهذا تزايدت قوة وسطوة الدولة وتمتع جميع رعاياها دون استثناء بأقصى الرخاء والنعم (...) في خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة¹⁴ كف الناس، تحت عوامل وأحداث مختلفة، عن التمسك بالقوانين المقدسة والقوانين المنبثقة منها¹⁵ فحل الوهن والإملاق في الإمبراطورية محل القوة والرخاء »¹⁶.

بعد الإقرار بوضع السلطنة المتردي والتأريخ لمسيرة هذا التردّي يتعرض البرنامج الإصلاحى للوسائل الكفيلة بتغيير هذا الوضع فإذا هي وسائل شاملة تتناول كل مجالات الحياة العامة باستثناء ما يتصل بمنزلة الخليفة :

المجال السياسى : (صيانة حياة الرعايا وشرفهم صيانة كاملة)

المجال الدينى : (المساواة بين الرعايا على اختلاف دياناتهم وطوائفهم)

المجال الإدارى : (توظيف الأكفاء من الروم والأرمن وسائر المسيحيين في الباب

العالي المؤلف من دواوين الصدارة العظمى ووزارتي الداخلية والخارجية).

المجال القضائى : (إصدار تشريعات جنائية وتجارية ومدنية جديدة وإجراء

المحاكمات علناً إذ «سيحاكم كل متهم علناً وفق شريعتنا الإلهية. وبعد انتهاء التحقيق والاستنتاج وحتى قبل إصدار حكم صحيح لا يحق لأي أحد أن يقتل آخر سرا أم علناً بدس السم له أو بأي وسيلة أخرى».

المجال العسكرى : (إدخال التجنيد العسكرى العام والدعوة إلى الجندية بانتظام

وتخفيف مدة الخدمة العسكرية إلى أربع أو خمس سنوات وتحديد عدد من يدعون إلى الجندية من الأقاليم بنسبة عدد السكان وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتحديد واجبات الولاة والقائمقامين الذي يديرون الولايات والسناجق حتى يصبحوا موظفين يمكن تغييرهم)

المجال المالى : (ضمان طريقة صحيحة لتوزيع الضرائب وجبايتها وإلغاء جباية

الأتاوات ونظام بيع الوظائف الذي آل إلى الابتزاز كالاتزامات حتى لا تعود جبايتها من اختصاص باشوات الأقاليم بل تعود إلى جباية خصوصيين خاضعين مباشرة للمصلحة المالية المركزية).

أما الفلسفة الاقتصادية التي دفعت إلى اتخاذ هذه القرارات فهي ضرورة صيانة

الملكية الخاصة «سيحوز كل شخص ما شاء من الممتلكات الخاصة ويتصرف بها بحرية تامة

¹⁴ نلاحظ التأريخ لتراجع الامبراطورية بفشل حصار فيينا سنة 1683

¹⁵ يلاحظ هنا تشظين الاجتماعى وتبرته السياسى وهذا هو أكبر مأخذ للمعارضة العثمانية على مهندسي التنظيمات

¹⁶ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، ص 148

الخود العثمانية بين خطيبين: آدم سميث والماوردي ————— الفصل 2
دون عائق أي كان ومثلاً لن يحرم ورثة الجناة من حقوقهم الشرعية ولا تصادر ممتلكات
الجباني»¹⁷

علق لوتسكي على هذه الإصلاحات في لغة ماركسية عارية :
« تعهد بيان الكلخانة بإيجاد الظروف للتملك البورجوازي ومنح هذا الضمان لكافة
الرعايا بغض النظر عن أديانهم وكان لذلك أهمية بالغة إذ كانت البورجوازية
في الإمبراطورية تنتسب إلى قومية أخرى وتدين بالديانة المسيحية المضطهدة كالأرمن
واليونانيين في تركيا نفسها¹⁸ والأرمن والعرب المسيحيين في سوريا والموارنة في لبنان والأقباط
في مصر وغير ذلك»¹⁹ لو أردنا أن نلخص ما أقره خط الكلخانة لقلنا إنه ضمن في سلطنة
تقليدية ما قبل رأسمالية مقومات الحضارة الرأسمالية الثلاثة : قدسية الملكية وألوية
الكفاءة (ويدخل ضمنها الضرائب العادلة) وفكرة المساواة بالمعنى الحديث للكلمة لا بمعنى
قريب من مفهوم التسامح الإسلامي. ولكنه أهمل مقوماً أساسياً هو «تطويق السياسي» وكبح
جموحه وهذا الإهمال في حد ذاته ، كان المولد لمعارضة العثمانيين الفتيان.

كيف كانت نتائج هذا الانفتاح الاقتصادي ؟

« فتح تشميل (كذا !) المعاهدة التجارية المعقودة بين أنكلترا وتركيا عام 1838 على
مصر وسوريا إمكانية كبيرة لدخول بضائع بريطانية والدول الرأسمالية الأخرى في أسواق
الأقطار العربية وازداد استيراد البضائع الأنكليزية وحدها إلى الإمبراطورية العثمانية بين
الأعوام 1840 - 1850 حوالي ثلاث مرّات (...) وأدّى الاستيراد المتزايد للبضائع الأوربية إلى
انهيار المراكز الصناعية القديمة وتخريب الحرف والصناعات المنزلية كما أعاق تطور المعامل
اليديوية (المانيفاتورة) الوطنية والإنتاج الصناعي الذي لم يستطع مقاومة مزاحمة الإنتاج
المصنعي الأوربي. وإلى جانب هذا أدّى تطوّر التجارة الخارجية إلى نموّ المدن التجارية وإلى
توطيد البورجوازية الكومبرادورية ونشّط هذا التطوّر توسيع طرق المواصلات (كفتح قناة
السويس وإنشاء مرفأ الإسكندرية وشقّ طريق بيروت - دمشق). وتحت ضغط الرأسمال
الأجنبي اتخذت الزراعة في الأقطار العربية سمة الإنتاج البضائعي إذ اختصت أكثر فأكثر
في إنتاج المحاصيل البضائية القليلة العدد كالقطن وقصب السكر في مصر والقطن والحبوب
والصوف في سورية وفلسطين وخامات الحرير في لبنان²⁰ ومع هذا لم يكن نشوء الاقتصاد

¹⁷ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، ص 148 - 150

¹⁸ تحتفظ هذه الدراسة إزاء استعمال تركيا للحديث عن السلطنة تحفظها من استعمال لفظ العالم العربي في كل الفترة
موضوع الدراسة وستتضح أسباب هذا التحفظ بمجرّ الفصول.

¹⁹ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، ص 149

²⁰ تقوم نظرية آدم سميث الليبرالية المؤسسة على فكرة التنافس على تقسيم العمل والتخصّص وبذلك ينمو الإنتاج
الشخصي نمواً لا مثيل له وهنا نرى تطبيقاً لهذا المذهب على أمم كاملة

البضائعي مصحوبا هنا بتطور الاقتصاد الرأسماليّ إذ وقع الفلاح في حالة تبعيّة للسوق الرأسماليّة العالميّة محافظا في الوقت ذاته على تبعيته للإقطاعي. وتم انضمام الأقطار العربيّة إلى السوق الرأسمالية العالميّة على أساس تحويلها إلى ملحق يزود الصناعة الأوربية بالخامات الزراعيّة²¹ أمّا العلاقات الاقتصادية فأنشئت على أساس التبادل غير المتكافئ وكانت بحدّ ذاتها مظهرا لاستغلال الأقطار العربيّة من جانب الرأسمال الصناعي²².

لخص لوتسكي، في نظرنا أول خطوة لعولة الاقتصاد بمبادرة من بريطانيا، هذه العولة التي انخرطت فيها السلطنة العثمانية وأجبرت عليها بلاد فارس وفرضت على الصين إثر حرب الأفيون. وكما سيظهر البهائيون في فارس فيدعون إلى تجديد جذريّ وصل حدّ الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة فسيظهر مصطفى رشيد باشا وأتباعه مثل شناسي²³ ونامق كمال²⁴ وغيرهما ممن يرون في تطويق السياسيّ حلّ كلّ مشاكل السلطنة. على أنّ هؤلاء الأتباع كانوا قلة قليلة وكانوا لا يرون ما يحدث، نتيجة هذا الانفتاح الاقتصادي، في أعماق السلطنة بداية من اليوسنة وصولا إلى جبال النصيريين وفي كل هذه المناطق لم يكن المسلمون مؤهلين تاريخيا للأخذ بنظرة جديدة إلى الأشياء قوامها قداسة الملكية الفرديّة وفكرتا الكفاءة والمساواة. فنحن لو جارينا عزيز العظمة وفواز طرابلسي في مقال ممتع نشره سنة 1995 في مجلّة «الناقد» تحدّثا فيه عن الشدياق (1801 أو 1804 - 1887) ووصفاه بـ «صلوك النهضة» لإحساسهما بتفوّده²⁵ لوصفنا مصطفى باشا وشناسي ونامق كمال كذلك

²¹ قامت نظرية «الاكتفاء الذاتي» الاقتصادية الألمانية (ليست) على رفض مبدأ التبادل الحرّ بسبب تخلف السدول الألمانية صناعا عن بريطانيا. ولقد حاول محمد علي في مصر أن ينهج النهج نفسه

²² لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربيّة، ص 147

²³ إبراهيم شناسي (1828-1871) وصفه برنارد لويس بـ «المتغوّب الصرف» تزعم المدرسة الأدبيّة الحديثة . وأسس خاصة «تصوير أفكار» (1861)، كان له تأثير كبير في نامق كمال

²⁴ نامق كامل (1840 - 1888) ولد في عائلة أرستقراطية وتأثّر بإبراهيم شناسي تولّى إدارة تحرير «تصوير أفكار» بعد هجرة صاحبها إبراهيم شناسي سنة 1865 إلى فرنسا. هاجر هو كذلك إلى أوروبا بعد تضيق سلطنة عبيد العزيز الخناق على المجلّة سنة 1867 وعاش في المهجر (لندرة باريس، فيينا) ثلاث سنوات، ينشر الجرائد المعارضة ويدرس القانون والاقتصاد وترجم للعثمانية بعض المؤلفات الفرنسية. عاد إلى اسطامبول سنة 1871 وواصل نشاطه السابق ثمّ عرض سنة 1873 مسرحية بعنوان «وطن» كانت سببا في اعتقاله ونفيه إلى قبرص مدة ثلاث سنوات (1873 - 1876). وعندما وقعت بعبد العزيز الواقعة وقع السماح له بالعودة إلى اسطامبول فساهم في صياغة دستور 1876 ولكن كان من نتائج انقلاب عبد الحميد على الدستور امتحان هذا العثماني الفتي من جديد فقضى بقية حياته إتما في الاعتقال أوالنفي. ألف روايات تاريخيّة وترجم بعض كتابات روسو ومنتسكيو وباكون وفولبي وكونند ورسية إلى التركيّة العثمانية.

انظر : Encyclopédie de l'Islam, nouvelle éd. - Paris - Leiden, 1991, TIV, pp.908 - 912.

²⁵ عزيز العظمة . — «صلوك النهضة» (بالاشتراك مع فواز طرابلسي)، مجلّة الناقد، جانفي، 1995، عدد 79

بالوصف نفسه لأنهم كانوا، جميعاً، وإن بدرجات متفاوتة « ذوي نزعة غربية » في سلطنة قائمة على الأسلحة الضرورية في المجتمعات التقليدية :

«الجندى المنتصب والبيروقراطيين القاعدين ورجال الدين الساجدين والوشاة الزاحقين» وكانوا يعيشون أحداثاً جسيمة لا يتمكنون ، غالباً، من فهم أسبابها أو السيطرة عليها إذ ما أن أقر مهندسو التنظيمات بعضاً منها حتى اضطرت السلطنة إلى مجابهة حرب القرم واللجوء إلى الاقتراض الخارجي لأول مرة في تاريخها وكان عليها نهاية هذه الحرب أن تصدر، اعترافاً بالجميل لحمايتها الأوروبيين الغربيين من نيكيتا الأول، «الخط الهمايوني» الملزم لها دولياً :

« أعطت حماية أنجلترا (وفرنسا) السلطنة العثمانية الفرصة لمزيد إحكام الطوق الاقتصادي والسياسي علي السلطنة فاضطرّ عبد المجيد أن يصدر في 18 فبراير 1856 (...) بياناً سامياً جديداً أو خطهما يون قبل عقد الصلح بقليل وتحت ضغط الدول الأوروبية. وأعادت هذه الوثيقة وثبتت شكلياً المبادئ الأساسية الواردة في بيان الكلخانة السلطاني مواصلة سياسة التنظيمات. إلا أن الأمر لم يكن كذلك في الواقع فخلافاً للبيان السلطاني («خط شريف») عام 1839 اعتبر « خطهمايون» عام 1855 من قبل الدول كالتزام دولي، وهذا ما ورد في المادة التاسعة من معاهدة باريس التي عقدت في 30 آذار مارس 1856. وفعلاً لم يكن باستطاعة السلطان إلغاؤه ولا تغييره بدون موافقة الدول. فإنّ البيان الأول حرم الدبلوماسية الأجنبية من أية ذريعة للتدخل في شؤون الإمبراطورية العثمانية فكان البيان الثاني قبل كل شيء وسيلة لمثل هذا التدخل». ²⁶ سنة 1860 ستتدخل فرنسا عسكرياً في جبل لبنان، بموافقة دولية فلا يكون بإمكان السلطنة حتى الاحتجاج على هذا التدخل في شؤونها الداخلية وسنرى أن من بين أسباب انشطار المعارضة العثمانية إلى عثمانيين فاضليين صابحيين ائتلافيين وعثمانيين مدحتيين رضاويين اتحاديين الموقف من قضية التدخل الأجنبي إذ كان الأوائل يذهبون إلى حدّ المطالبة بتدخل أوروبا الغربية لضمان تطبيق التنظيمات وكان خصومهم يرفضون مثل هذا التدخل رفضاً باتاً.

هل كان مهندسو التنظيمات وأتباعهم من المفكرين يربطون بين الميتافيزيقي والطبيعي، بين السياسي من ناحية والاجتماعي والاقتصادي من ناحية ثانية ؟ وإن كانوا يفعلون ذلك فما هو مدى هذا الربط؟

إننا نجيب من دون تردد عن السؤال الأول بنعم ذلك أن خمسينات القرن التاسع عشر وبالذات حرب القرم وبداية استبدان السلطنة، ولدت حساسية فكرية ترد أسباب الخلل في السلطنة لا إلى العامل الخارجي وحده (السببية العمودية) ولكن كذلك إلى عامل

داخلي (السببية الأفقية) هو الخلل في العلاقة بين الدولة والمجتمع. وأشهر من كان يمثل هذه الحساسية ثلاثة ساسة ومفكرين : فارس الشدياق الذي نشر «الساق على الساق» في باريس، نهاية حرب القرم (1855) ولم يتمكن على نقده الشديد لعلاقة الدولة بالمجتمع من تحديد مسؤول وحيد عن وضع السلطنة المتردي والأمير مصطفى فاضل الذي مال عن الشدياق فجزم أكثر منه العامل الداخلي من دون أن يدعو، لأرستقراطيته، إلى التغيير العنيف وأحمد مدحت باشا الذي جزم، هو أيضا، العامل الداخلي السياسي ولكنه اختار العنف وسيلة للتغيير مما سيقربه أكثر من غيره من العثمانيين الاتحاديين الذين سيبثون تراثه عند استيلائهم على الحكم في أبريل 1909.

هذا الاختلاف بين أنصار التنظيمات يفرض علينا أن نتوقف عنده لأنه هو مفتاح فهم ما سيلي من فصول في هذا الكتاب.

لقد أشرنا قبل قليل إلى ما كتب العظمة وطرابلسي عن «صعلوك النهضة»، فارس الشدياق. وهما قد عنيا بـ «الصعلكة» معناها المحبب عند أهل اليسار بصفة عامة أي «اللامتالية» والمحبب عند أهل الأدب بصفة عامة أي «التفرد». ونحن لا نذهب في هذه المسألة مذهب هذين الباحثين لأننا، ببساطة، ندرج تفكير الشدياق ضمن تيار كامل ظهر في السلطنة العثمانية أثناء حرب القرم وبعدها وكان، رغم اختلاف دعائه وسائل تعبير، يصر على تجذير قولة محمود الثاني في الواقع العثماني وإثرائها. هذه القولة تتضمن، بمعنى ما، ما تضمنته قولة الشدياق «تغيير الديانات لا يسلب الإنسان محامده»²⁷ فلا جدّة إذن، فيما كتب الشدياق، وهو الذي عاش في جبل تعود عدد من قاداته وطوائفه أن يغيروا أديانهم وطوائفهم، من دون إحساس شال بالتأزم الروحي، حول مسألة الأديان. ومن يراجع ما تقوم عليه الماسونية من تعال على الأديان المخصوصة فسيلا حظ أن فكرة التسامح قديمة قدم الماسونية التي يطلق عليها اليسوعيون عبارات ما أقربها من عبارة «بيعة الشيطان». وعلى العكس من فقدان الجدّة في هذه المسألة بالذات فإن الشدياق يمتاز، في نظرنا، بتناوله الرشدي والسبينوزي (نسبة إلى سبينوزا Spinoza) لقضية العلاقة بين الله والطبيعة وقياسا إلى ذلك لعلاقة الدولة بالمجتمع والزوج بالزوجة والمعلم بالتلميذ...²⁸ في هذا الموضوع، لا نعرف مفكرا عثمانيا تناول هذه المسألة بمثل ما تناولها به الشدياق حتى أننا نكاد نستحضر ونحن نقرأ «الساق على الساق»، ومن دون إسقاط نمقته أشد المقت، الجملة الرشدية العميقة

²⁷ أورد ذلك عزيز العظمة وفواز طرابلسي في مقالهما: «أحمد فارس الشدياق صعلوك النهضة»

²⁸ تناولنا هذه القضية، مطبقة على اختلاف التفكير بين محمد عبده وفرح أنطون، في «الملك والبهيمة، أو الدولة والمجتمع من محنة ابن رشد الى خصومة محمد عبده وفرح أنطون»، تونس، مركز النشر الجامعي، 2000.

الدلالة « كلما كانت المعرفة بالصنعة أتم كانت المعرفة بالصانع أتم »²⁹. ففي عبارة ابن رشد رفض لثنائية الله والطبيعة وفيها تبرئة للطبيعة وفيها إن قسنا ذلك إلى علاقة الدولة بالمجتمع تبرئة للمجتمع ودعوة إلى دراسته دراسة تمكن من فهم السياسي على حقيقته. وكل تفكير الشدياق ينبني، في نظرنا، على هذه الفكرة النواة. ولا يمكن أن يتحقق كل ذلك إلا بفحص الظواهر فحوا داخليا والحذر، كل الحذر، من المظاهر التي انبنت عليها النظرة التقليدية إلى الله والطبيعة وإلى الدولة والمجتمع. ففي ما يتعلق بالنظرة إلى علاقة الله بالطبيعة شحبت في « الساق على الساق » الثنائية التقليدية التي تجعل من هذه العلاقة علاقة قديم (الله) بمحدث (الطبيعة) وعلاقة كامل (الله) بفاسد (الطبيعة) لتحل محلها علاقة جديدة أقل تناقضا وتناكرا، علاقة برئت فيها الطبيعة مما ألصقته بها النظرة التقليدية الثنائية من صفات الانفعال والفساد بل كادت هذه الطبيعة تصبح عند الشدياق الشرط المبرر لوجود الله.

تبدو هذه النظرة «المادية» واضحة في مقطوعة شعرية ركيكة العبارة ثرية المضمون نظمها (البسيط).

وما تكون لذة عن فكر	إذا تحققت ولا عن ذكر
وإنما ذا هوس قد يجري	في خاطر المغفل المغتر
فهل تصور الشفاء يسري	ذا مرض أمراض منذ شهر
وهل لمن يبرد وقت القر	دفع بتذكارات أوان الحر ³⁰

تتحدث المقطوعة عن اللذة (الطبيعة) الآن هاهنا في الأرض وعن وسيلتين لإشباع الرغبة الإنسانية في امتلاك هذه اللذة = وسيلة تقوم على «معقوليّة» أفقها الأبعد الطبيعي والجسدي والواقعي كفا يدل على ذلك (الإحساس بغياب اللذة) لفظا « المرض والقر » ووسيلة تقوم على «معقوليّة» تتسع فتدخل في أفقها المطلق كما تدل على ذلك ألفاظ «فكر وذكر وهوس وغفلة واغترار وتصور وتذكّر»، واللذة الآن هاهنا من مرادفاتهما : الطبيعة والمجتمع والجسد والغرب...

فبأي المعقوليتين يجب أن يأخذ المرء ليحصل التوافق بين الغاية الحسية والوسيلة المتوخاة لتحقيق هذه الغاية ؟ كل المقطوعة تدل على أن «المغفل المغتر» وحده يقول بـ «التذكر» (الماضي) وسيلة للشفاء من «المرض» (الحاضر).

²⁹ أبو الوليد بن رشد . — فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . — بسمروت، 1982 . — ص

³⁰ فارس الشدياق . — الساق على الساق فيما هو الفارياق . — باريس، 1855 . — ص142

ويتضح معنى هذه المقطوعة بشكل أفضل من خلال ما أورد الشدياق في الموضوع نفسه نثرا : «زعم الشيخ (ولنفهم من الشيخ المغفل المغتر الآخذ بالنظرة التقليدية) أن اللذة تكون عن الفعل والتصور معا بخلاف الألم . فإن الفكر لا يقع منه موقعا وأنه كان إذا امتثل خودا يداعبها وتداعبه هزته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه وكلكله ومنكبه . بيد أنني ارتببت في كلامه في هذا المحل وقلت = سبحانه الله لا بد لكل مؤلف من هفوة وإن جل وذلك أنني لما تصورت الشخص المتهم والناعس والمتثائب وأنا متناوم لن يغني التصور عن الفعل تقيرا ولا وجدت فيه لذة لا قليلا ولا كثيرا . على أنني أذهب إلى ما ذهب إليه بعض المجانين من أن لذة اليوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للمنائين»³¹.

تحددت ملامح «الغاية» الطبيعية وهي اللذة هنا أكثر بل اتخذت الطبيعة شكل «الخود». وعاد الشدياق إلى التساؤل عن كيفية «امتلاكها» أيكون ذلك بـ «الفعل» أم «بالفعل والتصور معا» ؟. سمة الحضارة الرأسمالية الغربية الحديثة الأساسية هي القول بالفعل. ولقد عبر عن هذه الروح الانكليزي والترالي Walter Raleigh (1554-1618) عندما كتب = « من سيطر على البحر سيطر على تجارة العالم، ومن سيطر على تجارة العالم سيطر على ثروات العالم، ومن سيطر على ثروات العالم سيطر على العالم نفسه»³² وعبر عنها الشدياق في « الساق على الساق » أثناء مقارنته بين « تجار الأفرنج » و « فلاحي بلادنا » « التجار من الإفرنج على ثروتهم وغناهم أشقى الناس من فلاحي بلادنا فنرى التاجر منهم يقوم على قدميه من الصباح إلى الساعة العاشرة ليلا»³³ لأنه « معلوم أنه كلما كثر شره الإنسان ونهمه كثر نصبه وكده وهمه »³⁴ فالتاجر من الأفرنج « يقتحم القفار ويخوض البحار في طلب الأزداد (سبب العيش أو ما تسبب في رغبه)»³⁵

إنه التاجر الرأسمالي الذي آمن بإنجيل جديد لخصته قوله المفكر والسياسي الانكليزي سالف الذكر وبرع في وصفه الفرنسي بلزاك وقاومه (طبقة) كارل ماركس. وقد نستغني عن الإشارة إلى أن الشدياق لا يتحدث وهو يصف التاجر الغربي عن رأس مال عاطل (التصور والتذكار) وإنما يتحدث عن نظام اقتصادي جديد قوامه المنافسة القاتلة (امتلاك الخود قسرا) فعلاقة الإنسان الواقعي بالطبيعة (الخود) هي، إذن، علاقة صراع فيها اللذة وفيها الألم. والطبيعة في هذه الحالة لمن يملكها «غلابا» فليس بإمكانها أن

³¹ فارس الشدياق . — الساق على الساق، ص142

³² Roland Marx.-Histoire du Royaume Uni.-Paris, 5ème éd.,1967.-p.109

³³ الشدياق . — الساق على الساق، ص 97

³⁴ المصدر السابق، ص97

³⁵ المصدر السابق، الصفحة نفسها

«تتوهم وتنعس وتتأهب» لأن علاقتها بالإنسان الواقعي والفاعل محكومة بالحركة (حركة الإنسان طالب اللذة الفعلية وحركة الخود) لأنهما في نهاية الأمر (الإنسان والطبيعة) من جنس واحد أي هما محكومان بقانون الحركة. أما سمة الحضارة التقليدية في السلطنة العثمانية فهي القول بـ «أن اللذة تكون عن الفعل والتصور معا». وإذا كان الشيخ قد ذكر أنها تقول هي أيضا بـ «الفعل» فكثير من القرائن في حديثه تدل على أن قوله هذا إنما هو ضرب من ضروب البلاغة الذي يتشبه بالطباق وهو دليل جديد على ثنائية الله والطبيعة والسماء والأرض والروح والجسد والشيخ والخود بدليل هذا التوسع في وصف العلاقة الجنسية الوهمية بين الشيخ والخود = «إذا امتثل خودا يداعبها وتداعبه هزته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه وكلله ومنكبه». ما من حديث للشدياق في «الساق على الساق» عن علاقة الإنسان بالطبيعة لا يذكر بعلاقة الشيخ بالخود من ناحية وبالعلاقة البورجوازي الغربي بها من ناحية ثانية وإليك أمثلة على ما نزعم ابتداء من أعلى السلطات في السلطنة وصولا إلى أدناها (القسّ والزوج والمعلم) تشترك في وهم امتلاك الخود (الثروة، العلم، الجسد...) =

«مولانا السلطان (يقصد عبد المجيد مصدر التنظيمات) أدام الله دولته أقطع لامرتين في أرض إزمير إقطاعات عظيمة ولم يسمع عن ملك من ملوك الإفرنج أنه أقطع شاعرا عربيا أو فارسيا أو تركيا مقدار جريب واحد في أرض عامرة ولا غامرة»³⁶

من الذي يملك الخود (الطبيعة)؟ السياسي البورجوازي الفرنسي لامرتين أم الشيخ التقليدي عبد المجيد امتلاكا بالفعل؟ ومع ذلك فقد دفع «الوهم» عبد المجيد إلى الإحساس بأنه «قادر» على العطاء والمنع. ومن الذي يمكنه أن يفهم الكرم في حالة السلطان عبد المجيد واليخل في حالة ملوك الإفرنج بمعنييهما التقليديين أي باعتبارهما صفتي مدح وذم؟ إن الأقرب إلى الظن هو أن بخل البورجوازية هنا أصبح معناه قريبا من معنى «الاقتصاد» و«حسن التدبير» إذ لا يعقل أن يوجد من يعرف مقدار الجهد المبذول من أجل تحقيق التوازن في ميزانية الدولة بما يمكن أن يحدث خلا فيها. فكرم السلطنة الضعيفة التي احتاجت إلى عون بريطانيا لحماية ممتلكاتها من تهديد الوالي المصري محمد علي والتي كثيرا ما كانت تعتمد إلى مصادرة أملاك بعض رعاياها لسداد نفقاتها أصبح معناه قريبا من معنى «التبذير» و«الهوس».

« إن وجود الطنابير في الجبل عزيز جداً (...) فإن صناعة الألحان والعزف بالملاهي يسم صاحبها بالشيخ لما في ذلك من التطريب والتصبي والتشويق. والقوم هناك يغنون في الدين ويحذرون من كل ما يلد الحواس لذلك لا يشاؤون أن يتعلموا العزف والغناء بإحدى آلات الطرب أو يستعملوها في معابدهم وصلواتهم كما تفعل مشائخ الإفرنج خشية أن يفضي

بهم ذلك إلى الإلحاد فعندهم أن كل فن من الفنون اللطيفة كالشعر والإيقاع مثلا والتصوير مكروه»³⁷

لو حذف المرء ما يشير إلى الموقع الجغرافي وأمكنة العبادة لظن القارئ أن الأمر يتعلق بالوهابيين في نجد فما الذي يميز في حقيقة الأمر بين رجال الدين في الجبل اللبناني ورجال الدين في الصحراء ؟ أهو الدين كما يذهب إلى ذلك من لا يقولون بنظرة الشدياق إلى الأشياء ؟ أم هو الموقف من الخود (الجسد والحواس)؟

يتوهم كل من رجال الدين في الجبل وفي نجد أنه بإمكانهم أن يمتلكوا حقيقة ما لا يمكن امتلاكه في الإنسان أي «هذه الكوناتوس»³⁸ التي لطبيعتها ذاتها تتوق إلى إشباع رغباتها الأعمق أي الرغبات الحسية - وبما أن هذا الامتلاك مستحيل فإن رجال الدين لا يتمكنون في أقصى الحالات إلا من تحويل نشاط هذه الكوناتوس من حالة الفعل إلى حالة التصور والهوس « ودليلة في من تميل إلى العبادة والنسك فإنها لا تقف في ذلك على أمد بل تتماهى فيه حتى تنهوس وتتخيل فتدعى المعجزات والكرامات وتعتمد إلى الرؤى والأحلام ويخيل لها أن ملكا يناجيها وهاتفا يناغيها وأنها تقيم بدعائها الأموات وتحيي الرفات. وربما قتلت أولادها على صغر ابتغاء دخولهم الجنة بغير حساب أو ولدت توأمين فادعت أنهما من غير أب. وفي من مالت إلى الهوى فإنها تترك أباهما وأما اللذين ولداها وربياها وتقبل تجري في أثر رجل لاتعرف من صفاته شيئا سوى كونه ذكرا»³⁹

شمال المتوسط يوجد أيضا رجال دين ولكن هؤلاء أثر فيهم إن كثيرا أو قليلا تطوّر النظرة إلى علاقة الإنسان بـ «الخود» ولذلك دعا الشدياق إلى وجوب الاقتداء بهم «لو أنهم يقصد رجال الدين في الجبل) سمعوا ما يتغنّى به في كنائس مشائخهم المذكورين (يقصد في

³⁷ فارس الشدياق - الساق على الساق، ص 98

³⁸ الكوناتوس conatus هي «الطاقة» الذاتية الذي تستमित من أجل البقاء وهي عند سبينوزا مشبعة حياة وحركة ومثل الوجدان فيها (عند الانسان) العنصر الاهم وعند الشدياق «اللذة» التي قد تتخذ في حالة قمعها إما شكل «الانكفاء» أو «الجموح» وحالتها المثلى هي حالة «الإشباع» المهذب وقد شرح Lalande هذا اللفظ اللاتيني القريب في معناه من اللفظ الفرنسي « conation » على النحو التالي: Mot rare en français. Il est à peu près: synonyme d'effort ou de tendance ; mais effort appartient plutôt au vocabulaire des philosophies de l'action, et tendance s'applique plus spécialement aux inclinations et passions. Conation présente plutôt l'idée de l'effort comme un fait qui peut recevoir, soit une interprétation volontariste, soit une interprétation intellectualiste-peut être par suite de sa parenté avec Conatus employé dans ce sens par Spinoza (André Lalande. - Voc. technique et critique de la philosophie . - Paris, Puf, 13 ed, 1980.-p.160.

³⁹ الشدياق . - الساق على الساق، ص 127

(يقصد رجال الدين في الجبل) سمعوا ما يتغنّى به في كنائس مشائخهم المذكورين (يقصد في الغرب) من الموشحات أو ما يعزف على الأرغن من اللحون التي ولع الناس بها في الملاعب والمراقص ومحال القهوة استجلابا للرجال والنساء لما رأوا في الطنبور إثما⁴⁰.

عندما يتناول الشدياق العائلة (الزوج والزوجة) بالتحليل يبين من البداية أن العلاقة بين الشيخ والخود انبنت على «الوهم» إذ لم يقم الزواج على معرفة مباشرة («فعليّة») بين الزوجين وإنما قام على الوسائط (الأم، الطائفة، الأعراف) فالمراد من الزواج أن كلا من الزوجين «يزاوج صاحبه لا لنفسه وإنما لأهل البلد والمعارف والأصحاب كما كان عليان يأكل فخذ الدجاجة لأم عليّ»⁴¹. «أم عليّ» هنا تعني كل ما هو خارج عن الزوجين (أي السببيّة العموديّة) أي العامل الخارجي عندما يتضخّم إلى حدّ يطمس ذات المرأة والرجل على حدّ سواء فيصّر الشيخ على امتلاك الخود امتلاكاً إلهياً (وهمياً) وتستमित الخود في الدفاع عن فرديتها ولو بطريق الحلم النابذ «حرّجت اليوم على زوجتي بأن تطلعي على جميع ما يخطر ببالها ويخلج صدرها من الأفكار والهواجس وبما تحلمه أيضاً في الليل من الأحلام التي تنشأ عن امتلاء الدماغ من بخار الطعام أو من دخان الغرام قبل النيام. وقلت لها إن لم تخبريني باليقين أضريت بك أبانا القسّ فيكفرُك ويحظر عليك ثم يستخرج منك ما تكتمين وتضمّرين ويطلع على كل ما تسترين وتخفين وعلى ما تحذرين منه وترتاحين له وتميلين إليه وتكلفين به. وقد خرجت من داري غضبانا متنفّراً وجزمت بأن لا أصالحها إلا إذا كانت تقصّ عليّ أحلامها»⁴².

عبّر الشدياق عن استماتة الكوناتوس في التعبير عن ذاتها بـ «الأحلام التي تنشأ عن امتلاء الدماغ من بخار الطعام أو من دخان الغرام قبل النيام» ووضح أنّه هنا يودّ أن يقول إنّّه لا لذة حقيقة إلا بتفاعل كوناتوسين (مثل الله والطبيعة والدولة والمجتمع والأمة والأمة والرجل والمرأة والمعلم والتلميذ والروح والجسد...) الآن وهنا على الأرض وتكون العلاقة بينهما علاقة تكافؤ أو تقارب بل رضى وتراض وذلك عنده هو معنى السعادة.

لقد أفلت الصفات الظاهرة، وإن كانت محمودة في مجتمع من المجتمعات التقليديّة، من أفق الشدياق لأنه ينزّل العلاقة الداخليّة بين الأشياء المنزلة الأولى وذاك هو أساس الفلسفة العثمانية = فالعفة والطاعة والفضيلة التي تظهر في علاقة الشيخ بالخود في مثال الزوج والزوجة أصبحت شبيهة بما رأينا من صفة الكرم عند السلطان عبد المجيد.

من الذي يؤمن حقاً أن هذا السلطان كريم ؟

⁴⁰ المصدر نفسه، ص 98

⁴¹ فارس الشدياق. — الساق على الساق ص 278

⁴² فارس الشدياق. — الساق على الساق ص 100

من الذي يؤمن حقاً أن هذه الزوجة العفيفة الطيبة والفاضلة إنما هي كذلك حقيقة ؟

من قال إن البحر وإن بدا أزرق هو كذلك حقيقة ؟ وكيف يمكن للغضيلة والعفة والطاعة أن تنبت في تربة الاستعباد؟ العلاقة واضحة إذن بين السلطة عندما يصل بها الأمر حدّ التحقيق في ما تكنّ الصدور وبين الشيخ عندما يصل به الأمر حدّ اعتبار الأحلام نفسها، هذه الوسيلة الطبيعية التي ينفس بها الجسد البشري عن رغباته العميقة، حيدا أخلاقيا لأنها من « وسوسة الشيطان »، الرمز الأشهر بعد الله للسببية العمودية.

لقد دعا تصريح السلطان محمود إلى التسوية الدينية في السلطنة ولكن الشدياق ذهب إلى أبعد من ذلك عندما طالب، لقوله بمنزل الطبيعي الفائقة، بضرورة قبر الماوردية وفتح باب الزواج بين معتنقي الديانات والمذاهب المختلفة حتى تصبح الوحدة بين الشوام « فعلية » لا وهمية «إنه إذا كان المراد من الزواج أن كلاً من الزوجين يزواج صاحبه لنفسه لا لأهل البلد والمعارف والأصحاب كما كان عليان يأكل فخذ الدجاجة لأم علي لم يكن من المعقول أن يدمق عليهما ذو قبعة فيقول للمرأة لا تتزوجي هذا لكونه لم يسم بطرس ثم يقول للرجل لا تتزوج هذه لأنها لم تسم مريم أو أن يقول هذا يوم الأحد لا يصح فيه الزواج وهذه حجرة لا يحل فيها البعال وإلا صح أن يقال لهما أرياني الميل في المكحلة»⁴³

لقد رأينا كيف كان الشدياق يتناول في كل مرة العلاقة بين الشيخ والخود بأسلوب ساخر فيه الكثير من الألفاظ الجنسية التي يعمد إلى استعمالها تبرئة منه للطبيعي والاجتماعي والجسدي مما دفع كثيرا من رجال الدين خاصة إلى التذمر من «خلاعه الفكرية». هذا الأسلوب الساخر يخلي مكانه، عندما يتعلّق الأمر بوجه من وجوه علاقة الشيخ بالخود وهو علاقة المعلم بالتلميذ، لحسرة تشي بحقيقة الألم الذي انبنى عليه «الساق على الساق» فميدان التربية يبدو عند الشدياق مثلما كان عند كثير من «المصلحين» وخاصة منهم الوضعيين الكونتيين والبراغماتيين الستيواريين الميلييين المخبر الأفضل الذي يمكن أن تصاغ فيه ملامح الإنسان الجديد. هذا التركيز على التربية نجده أيضا عند الآخذين بالنظرة التقليدية ولكن الاختلاف بين الطرفين واضح. فالطرف الأول شاغل الأساسي هو المضمون التعليمي أما شاغل الطرف الثاني فهو الشكل. ولهذا يصف الشدياق علاقة المعلم بالتلميذ وصفا شبيها بوصف علاقة السلطان بالرعية والزوج بالزوجة إذ لا مراعاة لـ «كوناتوس» الطفل (ذكرا كان أو أنثى). فكما يحدث في الزواج عندما «يقع» شيخ على فتاة في سنّ

⁴³ فارس الشدياق . — الساق على الساق . — ص 278 والميل بكسر الميم هو إبرة تكحيل العينين والمكحلة بضم

الميم والحاء هي علبة التكحيل والعبارة، كما هو واضح، تعني مباشرة العملية الجنسية

العاشرة أو الثانية عشرة فإنه كثيرا ما يحدث أن يحمل الطفل ما لا طاقة له به عندما يلحق علم اللاهوت مثلا وهو في سن كان يجب حسب الشدياق أن يتعلم فيها ما يتسع له عقله «إن الإنسان منذ يولد إلى أن يبلغ اثنتي عشرة سنة لا يمكنه أن يدرك شيئا على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة ويمكنه في خلال ذلك أن يتعلم ما يفيد في مدرسة أو كتاب»⁴⁴. حدث هذا الخلل لأن النظرة التقليدية إلى الطبيعة تقول بانفعالها الكامل فلا تنظر إلى الطفل من داخل تركيبه الجسدي والنفسي والعقلي أي انطلاقا من قوانين الطبيعة الداخلية بما تتضمن من نمو واكتمال وإنما من خارج هذا التركيب أي انطلاقا من إرادة المعلم.

ونشير هنا إلى أن حكم الشدياق على المعلم إنما هو حكم يتسع ليشمل كل المشرعين سواء كانوا رجال سياسة أو دين أو تعليم. فالتشريع الأفضل هو الذي يحقق حالة الرضا الواعي (السعادة) بين طرفين وبذلك يصبح نوعا من القدرة على الإنصات إلى حركة النمو عند الفرد أو الجماعة وسنّ قوانين تلائم قدر المستطاع هذه الحركة.

لقد بالغ كثير ممن كتبوا عن الشدياق في وصف ثراء التعليم الذي تلقاه في المدرسة الابتدائية امتداحا منهم لجدوى المبشرين وكأنهم لم يقرأوا شكواه من مضمون هذه الدراسة وهو مضمون يقتل ملكات الطفل :

«إن بقلبي منكم لحزازات حاكة وبصدري عليكم ملامات صاكة (...) لأن خليصي الفاريان في دولتكم السعيدة لم يمكنه أن يتعلم في قريته غير الزبور وهو كتاب حشوه اللحن والخطأ والركاكة (...) لأنّ معرّبه لم يعرف العربية وقس عليه سائر الكتب التي طبعت في بلادكم وفي رومية العظمى»⁴⁵.

هل يمكن لطفل، مثل فارس، حسب تساؤله هو أن «يدرك شيئا على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة» حتى لو خلا الزبور من اللحن والخطأ والركاكة ؟

ذاك هو ما لا يقول به الشدياق استنادا إلى العبارة «يدرك على حقيقته» التي تعني ب «الفاعل» (ضدا للوهم والتصور). وما هي نتائج هذا الخلل الأصلي الشبيه بالخلل الذي رأيناه في نشأة العلاقة بين الزوج والزوجة ؟

«معلوم أن الغلط إذا تأصل في عقل الصغير شبّ معه ونما فلم يعد ممكنا بعد قلعة»⁴⁶. ويضيف الشدياق متحدّثا عن حسرة الطفل الشبيهة بحسرة المجتمع والزوجة لإهدار طاقات كاملة: «كم لعمرى من ملكات براعة وحذق من الله تعالى بها على كثير من

⁴⁴ فارس الشدياق . — الساق على الساق، ص 85 وقد سبق لجان جاك رو سو أن كتب في الموضوع («إميل»)

⁴⁵ المصدر السابق، ص 85

⁴⁶ المصدر السابق، ص 85

هؤلاء الأولاد. غير أنه لفقد أسباب العلم وعدم ذرائع التأديب والتخريج طغشت جذوتها فيهم على صغر بحيث لم يمكن أن يستقيها (كذا) بهم نتف التحصيل على كبر»⁴⁷.

يتضح مما تقدّم أننا تمكّنّا من تقديم الأمثلة الكافية على ما ذهبنا إليه من أن كل حديث للشدياق عن علاقة الشيخ بالخود إنما هو في حقيقة الأمر حديث عن علاقة الإنسان التقليدي بالطبيعة وإن بقي موقف الشيخ من الألم على قدر من الغموض. لم رفض الشيخ إمكانية أن يكون «الألم» داخلاً في مجال التصوّر؟

إن الألم، في نظرنا، يقترب من العجز عن الفعل ومغالبة الطبيعة إذ ليس من الصدفة أن استعمل الشدياق للتعبير عنه لفظي «المرض» و«القر» ولا يمكن في هذه الحالة إجلأؤه بطريقة «التصوّر» مثلما هو الشأن عندما تكون العلاقة بين الشيخ والطبيعة علاقة «أبوية» أي علاقة قوامها «النعاس والتثاؤب». يكاد الشدياق يقول إن الإحساس بالألم ومحاولة الخلاص منه بمزيد من الإيغال في الفعل والحركة هما أساس الحضارة الحديثة: فبالحركة تبرأ الطبيعة من سمة الانفعال المطلق التي نسبتها إليها النظرة التقليدية وبالفعل التائق إلى تجاوز الألم يبرأ الإنسان من «خطيئة» إنسانيته أي ضعفه. دفاع الشدياق عن الإنسان الجديد دفاع غير مشروط:

« لما تصوّرت الشخص المتوهم والناعس والمتثائب وأنا متناوم لم يغنيني التصوّر عن الفعل نقيراً ولا وجدت فيه لذّة لا قليلاً ولا كثيراً»⁴⁸

لو أحسّ السلطان والشيخ والزوج والمعلّم (أي الشيخ) بـ «الألم» لتحولوا إلى «الإنسان الجديد» أي لخرجوا من الثنائية التي تحقق لهم «وهم الفعل».

وبما أن القدرة على الفعل وعلى امتلاك الطبيعة (ومن ضمنها المجتمعات الضعيفة مثل السلطنة العثمانية) كانت حكراً على جزء صغير من سكان الأرض يسمّى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ولا يكاد يوجد في السلطنة إلا عدد محدود ممن يذهب مذهب الشدياق فقد وصف نفسه بـ «المجنون»:

« على أتّي أذهب إلى ما ذهب إليه بعض المجانين من أن لذّة اليوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للنائمين»⁴⁹

الجنون هنا يعني القول بالسببية الأفقية أي القول بأنه لا يمكن لـ «من يبرد وقت القر» أولـ «ذي مرض أمرض منذ شهر» أن يدفع البرد والمرض (الواقع) بـ «التصوّر» إذ البرد والمرض حالتان طبيعيتان ليس بالإمكان دفعهما إلا بوسائل طبيعية من جنسهما و في

⁴⁷ المصدر السابق ، صص 83

⁴⁸ الشدياق ، الساق على الساق . — ص 142

⁴⁹ المصدر السابق . — الصفحة نفسها.

هذا إيمان كامل بضرورة تغليب الطبيعي على الميتافيزيقي والاجتماعي على السياسي. نقول تغليب الطبيعي على الميتافيزيقي والاجتماعي على السياسي ولا نقول إلغاء دور الميتافيزيقي والسياسي إلغاء كاملاً لأسباب ثلاثة :

أولها أن القول بـ «إرادة السياسي» التي لا تردّ هو أساس تفكير الشيخ لا الشدياق (وسنرى أن خصوم التنظيمات هم النموذج الحي للشيخ).

وثانيها أن القول بـ «إرادة الطبيعي» التي لا تردّ هو أساس تفكير من يقولون بـ «موت الإلاه» ولم يكن الشدياق من الآخذين بهذا القول⁵⁰.

وثالثها ما توصّلنا إليه من إن تفكير الشدياق يندرج ضمن نوع من التأيهية Deisme ويكاد الشدياق في فهمه للعلاقات بين الناس يرى في هؤلاء حكّاماً ومحكومين، الجلاّد والضحية في الآن نفسه فهو يصف الشيخ ممثلاً في القسّ بعد أن أوسعه لوما بأن له «عند رؤية الرجال مع نسائهم وأولادهم لغصّات وحسرات أيّ حسرات ولا سيما إذا خلا في الصومعة ورأى أن سمنه ذهب سدى من غير منفعة وأن غيره ممن أضواهم الكدّ والغضب وأجاعهم الجهد والتعب أقدر منه على بلوغ الأرب مما اصطلح عليه سائر خلق الله من عجم وعرب (...) فإنّ الراهب ومن أشبهه حريّ بأن يعدّ من الشقيين». ⁵¹ للراهب إذن أشباه فلم لا تكون صورة الراهب هنا هي صورة... السلطان عبد المجيد نفسه عندما يخلو في قصره «ويرى أن سمنه ذهب سدى»؟ ولم لا تكون صورة الملعّم وإن بدا، في الظاهر، واثقاً من جدوى تعليمه ؟

إنّنا لن نتناول الرأي الثاني لأنه لا يمثّل تياراً فاعلاً في السلطنة لا في زمن الشدياق ولا في الفترة موضوع هذا الكتاب ولكننا نودّ التعرّض للنظرتين الأولى والثالثة لأنهما من صميم موضوعنا.

إن النظرة الأولى (ونموذجها الشيخ) تستند على المستوى الميتافيزيقي إلى ثنائية قدم الله وحدوث الطبيعة وعلى المستوى السياسي والاجتماعي إلى اعتبار أن العلاقة المثلى بين الدولة والمجتمع هي علاقة الانفعال والطاعة. ويمكن أن نجد في الأدبيات السياسية الأوربية الغربية في القرن السابع عشر تصويراً رائعاً لهذه العلاقة ممّا يدلّ على أنّنا بإزاء نظرة إلى العالم تتجاوز الخصوصيات العرقية والدينية والثقافية فلقد كتب سينو (Sénault) في «الملك

⁵⁰ ممن قالوا بموت الإلاه من الشوام الملحد شلي شميل (1850-1917) «فأصل العقائد جميعاً وهم الإنسان إذ كان في عهد الخشونة» ولذلك قسا اليسوعي لويس شينخو (1859-1927) في حكمه عليه فكّبت عنه «بالغ في نشر آرائه الكفرية وكان لا يرى فائدة في العلوم ما خلا الطبيعيات والعلوم الوضعية وجنح لتأييدها إلى مزاعم الغلاة من الملحدين فقام كثيرون وردوا عليه حتى بين أصحابه» (تاريخ الآداب العربية - بيروت، 1926، ج3، ص 75)

⁵¹ فارس الشدياق - الساق على الساق - ص 118

أو واجبات السلطان»: «إن العالم الذي هو أول هيئة ومقياس كل الهيئات الأخرى لا يتسنى له الدوام إلا بهذا النظام الرائع الذي يلاحظه المرء بين الأجزاء التي تحكم والأجزاء التي تطيع. إن هناك قانونا لا يمكن نقضه في هذا الجسم ولم تتمكن القرون المتعاقبة من تقويضه: فالأرض تطيع السماء وكل ما تنتج الأرض يرى في الشمس سيدها، والزهور والنباتات تتفتح لاقتبال تأثير الشمس حالما تظهر وهي تنقيض عندما تغيب. ومن السهل على المرء أن يجزم أن هذا النجم المليح هو ملكها إذ لا تكن احتراماً أو حباً لغيره»⁵².

لا ذكر في هذا النص لله في علاقته العمودية بالطبيعة ومع ذلك فالله حاضر في كل مسام النص فهو السماء وهو الشمس وهو النجم المليح وهو الملك أي هو كل المعاني الفاعلة والمشيئة. وعلى العكس من ذلك فحضور الطبيعة حضور مكثف ولكنه منفعل فالطبيعة هي الأرض وهي ما تنتج الأرض وهي الزهور والنباتات. والعلاقة المثلى بين الله والطبيعة هي الانفعال (تطيع، تتفتح، تقبل، تحترم، تحب).

عندما يتذكر المرء أن عنوان كتاب (سينو) هو «الملك أو واجبات السلطان» لابد أن يتساءل عما يود هذا النص أن يمكن له على مستوى العلاقة بين الدولة والمجتمع. والجواب بسيط وقريب: يتمثل الاسم الرائع في «الأجزاء التي تحكم والأجزاء التي تطيع».

إن الأجزاء التي تحكم هي هنا «الشيخ» وهي الدولة والأجزاء التي تطيع هي هنا «الخود» وهي المجتمع. أما العلاقة بين الاثنين (اللذة أو ما عبر عنه سينو بـ «تفتح») فهي لذة ناشئة حسب الشدياق عن «الوهم والتصور» اللذين لا يقول بهما لأنه اكتشف في وجه «النجم المليح» (السلطنة) بثورا ذهبت بالنظرة التقليدية.

لقد كانت المفاضلة بين أشكال الحكم من أقدم المسائل التي تناولها الأدب السياسي منذ هيرودوت في القرن الثاني عشر قبل الإسلام وأفلاطون وأرسطو في القرن الحادي عشر قبل الإسلام كذلك. ويعتبر بوسويه Bossuet (1627-1704) في فرنسا وفي القرن السابع عشر الميلادي من أفضل المفكرين السياسيين تعبيراً عن فضل الحكم الملكي والأبوي على غيره من أشكال الحكم. فلقد كان هذا الأسقف من الذين دعموا سياسة لويس الرابع عشر الذي أثر عنه أنه قال: «الدولة هي أنا» وكلف بوسويه بأن يكون مربياً لولي العهد فكتب «السياسة من خلال الكتاب المقدس» وفي هذا الكتاب يمكن للمرء أن يقرأ:

«إن الملكية هي الحكم الأكثر شيوفاً والأكثر قدماً وهي كذلك الأكثر ملاءمة للطبيعة (...) إن كل العالم قد بدأ بالملك، وكل العالم تقريباً حافظ بذلك على شكله الأكثر ملاءمة للطبيعة وهكذا تأكد لنا أن أساس العالم ونموذجه المثالي يكمنان في الحكم الأبوي،

⁵² أورد ذلك: Gérard Fritz.-L'idée de peuple en France du XVII au XIXème s. Paris, 1988.

أي في الطبيعة ذاتها. إن البشر يولدون رعايا والحكم الأبوي الذي يعودهم على الطاعة يعودهم في الآن ذاته على ألا يتخذوا لهم غير رئيس واحد... إن الناس لا يبلغون من الاتحاد و من القوة ما يبلغونه عندما يعيشون في ظل رئيس واحد، لأن كل شيء إذاً يتظافر في وجهة واحدة». ويضيف : « إن الأمير الذي يخدم دولته يخدم أطقاله. والحب الذي يمكنه لملكته يصبح، إذ يندمج بحبه لعائلته، طبيعياً بالنسبة إليه » وختم حديثه رابطاً تفكيره بما فهم من الكتاب المقدس :

« لابد من طاعة الأمراء مهما كانوا متعسفين وغير عادلين، بل حتى عندما يكونون وثنيين مثلما كان يفعل قدماء المسيحيين الذي كانوا يرون في الأباطرة الرومان اختياراً وامتحاناً من الله الذي منح هؤلاء الأباطرة حكم كل البلاد»⁵³

تستند النظرة الثالثة (ونموذجها الشدياق نفسه) على المستوى الميتافيزيقي إلى رفض ثنائية قدم الله وحدوث الطبيعية إذ ترى أن الطبيعة قديمة وأزلية قدم الله وأزليته لأن الله يحتاج إليها احتياج نجم (سينو) المليح إلى الأرض واحتياج «الشيخ» إلى «الخود» واحتياج الدولة إلى مواطنين أحياء ونشيطين وفاعلين إذ لولا الخود لما كان «للذة» مبرر بل أن تحقيق اللذة السوية يحتاج إلى طرفين فاعلين، طرفين إن كانا مختلفين فهما ليسا بمنقاضين متناكرين تناكر الله والطبيعة وتناكر السماء والأرض والروح والجسد والدولة والمجتمع في النظرة التقليدية إذ أن نتيجة التناكر هي «الأم» الذي هو على المستوى الاجتماعي والسياسي النزاعات العرقية والدينية والطائفية والحروب الأهلية التي كانت تقوض أساس الدولة العثمانية في البلقان والشام. ويمكن، في نظرنا، أن نجد في التفكير السياسي الإسلامي (ابن رشد في القرن الثاني عشر) وخاصة الغربي (سبينوزا في القرن السابع عشر الميلادي) تصويراً لهذه العلاقة. فقد كتب سبينوزا في الفصل الأول من «كتاب السياسة»، في تبرئة الاجتماعي وفي الدعوة إلى علاقة تساكُن لا تناكر بين «الشيخ» و«الخود» :

«من المحقق أن الانتفاضات والحروب والازدراء أو انتهاك القوانين لا تعزى إلى شرور الناس بقدر ما تعزى إلى نظام سياسي فاسد. وفعلًا فإن الناس لا يولدون مواطنين وإنما يصبحون كذلك... ولذلك فكما أن عيوب الرعايا وتسيبهم المشط وتمردهم تعزى إلى المدينة فإن فضائلهم واحترامهم الدائم للقوانين يجب أن ينسب إلى فضيلة المدينة أو إلى قانونها

⁵³ J.-J Chevallier, - Les Grandes oeuvres politiques de Macchiavel à nos jours. -Paris 1970.-

المطلق... ولقد اعتقد الناس على حق أن حنبعل كان على فضيلة لافتة للنظر إذ لم يحدث أن انتقض جيشه عليه»⁵⁴.

كم كتب خصوم الدروز في الجبل اللبناني، وليس لا فيجري أقلهم شهرة⁵⁵، ينددون بـ «طبيعتهم العدوانية» في كل حرب كانت تقع بينهم وبين المارونيين. أما فارس الشدياق، الماروني النشأة، البروتستانتية العبور، الإسلامي المرسى حسب المظاهر، التأليهي حسب نظرنا⁵⁶ فقد كتب عن الحرب الأهلية بين الموارنة والدروز التي شارك فيها أبوه في عشرينات القرن التاسع عشر :

«قد كان أبو القاريق آخذاً في أمور ضيقة المصادر، غير مأمونة العواقب والمصاير، لما فيها من إلقاء البغضة بين الرؤوس وشغب أهل البلاد ما بين رئيس ومرؤوس. فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز⁵⁷ مشهور بالنجدة والبسالة والكرم. غير أنهم كانوا صفر الأيدي والأكياس والصندوق والصوان والهميان والبيوت(...) فأما ما جرى من التحزب والتألب بين طوائف الدروز وغيرهم فإنما هي أمور سياسية لا تعلق لها بالدين⁵⁸ فبعض الناس يريدون هذا الأمير حاكماً عليهم وبعضهم يريد غيره»⁵⁹.

كيف يفسر المرء هذا الالتقاء الفكري بين كتاب مختلفين عصراً ومنشأً وبيئة وثقافة؟

⁵⁴ Fatma Haddad- Chamakh.- Philosophie systématique et système de philosophie chez Spinoza.- Tunis, 1980.-p.160

⁵⁵ في فرنسا نابليون III خاصة لم يقتصر التدخل أثناء حرب 1860 الأهلية على الجانبين العسكري والسياسي بل صاحب ذلك حملة متعاطفة مع المارونيين ومنعدة بالعثمانيين والدروز أعطانا أحد الباحثين الفرنسيين صورة عنها: «يمكن أن نستخرج من فهرس المكتبة الوطنية (في باريس) وحده سبع عشرة مطبوعة من نوع : «سرد حقيقي ومفصل للفظائع التي اقترفها الدروز والترك في حق المارونيين المسيحيين في لبنان. تفاصيل مرعبة (مونيليه ، 1860) أو من نوع «نداء إلى كاثوليكي فرنسا» لـ«لافيجري» Ch. Ageron Politiques coloniales au Maghreb.-Paris, 1972. P.97, note 2.

⁵⁶ عندما مات الشدياق اختلف الناس حول مكان دفنه أيدفن بين المسلمين أم بين النصارى واتفقوا في النهاية على دفنه في مكان وسط بينهم، أفلا تصلح هذه الحادثة موضوعاً لرواية ؟

⁵⁷ (تصفية بشر الشهائي للحميلاطيين والارسلانيين ويمكن للمرء أن يقرأ لناصيف اليازجي في وصفها مدحيات في الأمير المنتصر.

⁵⁸ صادف رغن هذه الصفحة الإعلان عن مذبح في سيدي أحمد في المغرب الأوسط قام بها أقصى اليمين الإسلامي ضد مزارعين متعاطفين مع اليمين الإسلامي (أكثر من مائة قتيل بالرصاص وبالسكين، من النساء والرجال والأطفال) فلم تمالك نفسنا وقلنا : رحم إله ابن رشد المتعالي أحمد فارس الشدياق

⁵⁹ فارس الشدياق . — الساق على الساق، صص 96-97

إنه التقاء مرده إلى تنزيل النظرة الحديثة الطبيعة ومن ثم المجتمع منزلة غير المنزلة التي نزلتها فيها النظرة التقليدية وساعد عليه التطور العام للإنسانية. وهذه النظرة إذا كان يمكن للمرء أن يعثر على بذورها في الرشدية « نقول إن كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالاتها على الصانع - أعني من جهة ما هي مصنوعات - فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم، كانت المعرفة بالصانع أتم»⁶⁰ فإن بإمكانه أن يؤكد أنها أساس تفكير سبينوزا جميعه. ولقد تمحورت عند هذا الفيلسوف حول مفهوم الكوناتوس وفرضت عليه نهجا جديدا في تناول القضايا الاجتماعية والسياسية هو المنهج الذي اعتمده الشدياق كما يظهر ذلك من خلال تناوله لعلاقة « الشيخ » (السياسي) ب « الخود » (الاجتماعي) وهو يتلخص كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، في فحص الطبيعي فحسا يعدل من النظرة إلى الميتافيزيقي. وهكذا فإن الأم، الطبيعة المعبودة، تفقد من قداستها عندما ينتقل المرء إلى تحليلها وتفكيك عناصرها فإذا نحن بإزاء علاقة ميكانيكية أو رياضية بحث، وفي هذه الحالة تصبح العلاقة بينها وبين الإنسان علاقة صراع بل تتحول الطبيعة إلى ما يشبه الكائن الجموح الذي لا بد من إخضاعه والسيطرة عليه لأن جموحه لم يعد مقوما من مقومات سحره بل أصبح تحديا للإنسان الجديد. إن الإنسان الذي هو جزء من الطبيعة (الطبيعة الأم في النظرة الشعرية الوصفية) يتضخم دوره كلما نزع عنها قناعا جديدا. وهل كل الناس قادرون على تحمل هذه الحقيقة الجديدة؟ كتب جوزيف بود Joseph Baude في تقديمه لكتاب الأب روبير لونوبل *Esquisse d'une histoire de l'idée de nature* في هذا الموضوع: «إن الذرية عقيدة أخلاقية وهي كذلك ميتافيزيقا فهي تهدف إلى تخليص الإنسان من كل تأثير للآلهة وللعالم وإلى تحريره كليا. إنها تلقي بالإنسان بعد أن فقد الملاذ الإلهي في أحضان قواه الوحيدة فتحكم عليه بالعيش اعتمادا على نفسه في عالم غاب سحره القديم. وهذا يقتضي شجاعة مطلقة وصرامة بالغة وهما صفتان لا تتوفران إلا عند أفراد متميزين»⁶¹.

ما الذي حدث إذن، حتى بدأت المفاهيم تنقلب هذا المنقلب بداية من القرن السابع عشر خاصة في أوروبا الغربية ؟

حدث تحول في النظرة إلى الطبيعة (والمجتمع البشري جزء منها) فازداد التركيز على القوانين الداخلية التي تحكم الأشياء وتقلص التركيز على القوى الخارجية التي كانت تعتبر هي المحرك للأشياء أي حدث تركيز على الفيزيقا بعد أن كان كل التركيز على الميتافيزيقا، حدث تركيز على التركيب الداخلي للأشياء بعد أن كان كل التركيز على

⁶⁰ ابن رشد . - فصل المقال، ص 13

⁶¹ 22. - Paris, 1968. - Robert Lenoble. - *Esquisse d'une histoire de l'idée de nature*.

الميتافيزيقي الكيفي. ازداد الاهتمام بالواقع والبنية الداخلية وتقلص الاهتمام بالظاهر والشكل. ومن هنا بدأ انفصال الإنسان العالم والتقني عن الإنسان الشاعر: فما كان يراه الشاعر ناتئاً أو مستديراً أو ذا لون معين أصبح عند العالم مجرد صفات ظاهرية لا يوثق بها إلا بعد التجربة المتكررة في ظروف محدّدة : من قال إنّ البحر الذي كثيراً ما تغنى الشعراء بزرقته هو أزرق حقيقة ؟

من قال إنّ متهووسة بالدين إثماتصدر عن حالةتوازن جسدي ونفسي وعقلي ؟ ومن قال إن متهوساً بـ «الجسد» إثمأ يصدر كذلك عن حالة توازن ؟

من قال إنّ تمرّد البلقانيين و النصيريين والدروز... إنما يصدر عن «طبيعة» التمرّد عندهم؟ ولسوف تمتدّ بذور هذه الذرية الطبيعية والأفقية الاجتماعية و العلمانية الفكرية والديمقراطية السياسية وكلها مترادفات وإن كانت مراجعها مختلفة فتشمل شيئاً فشيئاً كل شيء.

إنّ بعض من وقفوا وراء هذا التغيير الذي هو في حقيقة الأمر ضارب في الزمن ولم يصبح قابلاً للمعاصرة إلا نتيحة عملية تراكم ظهرت في العصر الأوربي الحديث هم كوبرنيك Copernic (1473-1543) وغاليلي Galilée (1564 - 1642) وديكارت Descartes (1596-1650) وسبينوزا Spinoza (1632-1677) وعدد آخر لا يحصى، لأنّه أقل شهرة، من حملة بذور التغيير. والحقيقة أن ديكارت، مثلاً، لم يكن يهتمّ بالسياسة بالقدر الكافي مثلما سيفعل معاصره في هولندا، بلاد « تجار الجبن» على حدّ تعبير لويس الرابع عشر، باروخ سبينوزا، لأسباب تتصل بالذات بالتفاوت في نسبة نموّ البورجوازية في فرنسا وهولندا، بل إنه وقف من الدين موقفاً يكاد يكون تقليدياً إمّا عن امتمثالية وإما تقيّة منه. ولكن فهمه للعلاقة بين الله والطبيعة قاد إلى اتجاهين مختلفين في فهمه: اتجاه تبناه رجال الدين في نهاية الأمر واتجاه تبناه خصومهم وانتهى بدعم القطيعة المعرفية التي ذكرنا بعض ملامحها. كان ديكارت يرى أن العظمة الإلهية وهي تخلق الطبيعة المعرفية التي ذكرنا بعض ملامحها. كان تشبه عظمة صانع « ساعة» دقيقة التوقيت ولذلك فهي لا تحتاج في كل آن وحين إلى التدخّل لضبطها وتعديلها وإلا عدّ ذلك نقصاً في الصنعة تتنزّه عنه العظمة الإلهية. مثل هذا الفهم للعلاقة بين الله والطبيعة يحدّ في نهاية الأمر من دور الله في التدخّل في كل صغيرة وكبيرة في العالم فإذا دوره يقتصر على الدفع الأوّل أو الخلق وإذا دور رجال الدين والشعراء ينحصر تبعاً لذلك في نطاق لا يتعدّى تمجيد الله ومناجاته فهو الخالق وهو الباري وهو المتجبر... وتمجيد صنعته فالطبيعة آية من آياته. ومثل هذا الدور هو، كما نرى، دور وصفي لا قدرة له على النفاذ إلى تركيب المصنوع الداخلي وعلى العكس من ذلك فإنّ الفهم الديكارتية (والحقيقة أنّ الديكارتية، في موضوعنا، ليست واضحة تمام الوضوح) يفتح كذلك

مجالا واسعا للذين يفضلون تفكيك هذه « الساعة الدقيقة ». وقد يقودهم هذا الانشغال بعملية التفكيك في نهاية الأمر إلى عبادة القوانين الداخلية التي تتحكم في أجزاء الساعة فيرون أن الإحاطة بها تفضل ما عداها من أشكال المعرفة وبذلك يتحولون إلى رشديين آخذين بما أخذ به أبو الوليد: « يقوم دين الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن وذلك أرفع عبادة يمكن أن يعبد الله بها تقوم على معرفة ما صنع لما يؤدي إليه هذا من معرفتنا إياه على حقيقته كلها وهذا هو أصلح الأعمال عند الله »⁶² أي يتحولون إما إلى قائلين بوحدة الوجود (pantheistes) مثل سبينوزا أو ملحدين أي ينشغلون بالصنعة عن الصانع لأن الصنعة ملموسة وقابلة لأن تمارس عليها التجربة والصانع ليس كذلك. كتب رامسي (Ramsey) في الربع الأول من القرن الثامن عشر في كتابه « أسفار قورش » (Le Voyage de Cyrus) داعيا التلميذ الشاب قورش إلى التأمل في هذه الميكانيكا البالغة الدقة بغية الوصول إلى كنه العقل الإلهي الذي بإمكانه وحده أن يصنعها ومتخذا من تركيب الجسد البشري نموذجا دالا على دقة هذه الميكانيكا: « (تأمل) تركيب الجسم البشري و النوايض التي تكونه والسوائل التي تجري فيه والقنوات والمضخات والخزانات التي تتكون بمجرد تشابك الأعصاب والشرابين والأوردة فتفصل السوائل وتطهرها وتوجهها وتعيد توجيهها في كل أطراف الجسم، ثم (تأمل) الرافعات والحيال والبكرات التي تكونها العظام والعضلات و الغضاريف التي تضطلع بالقيام بكل حركات الأعضاء الصلبة »⁶³.

لا يتبين المرء و هو يقرأ ما كتب رامسي موضوع المناجاة = أهو الله أم القوانين الطبيعية. ورامسي، وهذه ملاحظة لأبد من الاحتفاظ بها، هو أحد أكبر أعلام الماسونية المحافظة التي تقول بمهندس أكبر للكون وتقول بالخلود ولا تقول بشيء آخر فيما عدا ذلك (الفروق بين الأديان، الحساب....)

إن ما أوردنا لرامسي رغم الغاية المعلن عنها يقود حتما إلى طرح قضيتي السببية والغائية في آن واحد. فلأي حافز يخضع عمل اليد مثلا ؟ لإشارة من الدماغ أم لإرادة خارجة عن الجسم ؟ ولأي غاية تنشط الأعضاء بهذه الطريقة ؟ هل للحفاظ على توازن داخلي أم لإشباع حاجة خارجة عن الجسم ؟ وما المعرفة الأكثر إفادة ؟ المعرفة التي تنكسب على الصنعة قبل كل شيء أم المعرفة التي تنكسب على الصانع قبل معرفة المصنوع ؟

⁶² ارنست رينان . — ابن رشد والرشدية . - القاهرة، 1975، ص 176

⁶³ Jean Ehrard.- l'Idée de nature en France dans la première moitié du XVIII ème s.-

إن القول بأن القوانين الداخلية هي المجال الأجدى لمعرفة يمكن الاطمئنان إليها سيقود كل العلوم إلى اعتماد التحليل الداخلي للأشياء ومحاولة النفاذ إلى الأجزاء المكونة لكل بديلين عن الوصف الخارجي الذي غلب على الحضارة التقليدية وسيسبب هذا الاتجاه أزمة روحية في أوروبا لن تبدأ بالتسرب إلى السلطنة إلا مع الشدياق في «الساق على الساق» منتصف القرن التاسع عشر.

وإذن ، فإذا كان ديكرت قد جعل من الطبيعة ميدانا محكوما بقوانين دقيقة يمكن العمل على استكشافه رياضيا في ذاته من دون أن تمس هذه النظرة عند المؤمنين ما وراء الطبيعة أو الله ، ذلك أن الله يبقى رغم انحصار دوره في عملية الدفع الأول وفي صنع الطبيعة الساعة الدقيقة أي رغم ترفعه عن التدخل المباشر في كل ما يلحق الساعة من عطب هو الصانع الأزلي والعقل الكلي التي تعتبر الطبيعة مهما يحدث فيها آية من آياته ، وإذا كانت هذه الثنائية التفاضلية بين العقل الإلهي والطبيعية تجد على المستوى الإنساني ثنائية ثلاثهما، إذ شطر ديكرت الإنسان شطرين غير متساويين، شطره طبيعتين تفضل إحدهما وهي العقل طبيعته الأخرى وهي الأهواء وأناط بعهدة الطبيعة الأولى وظيفة كبح الطبيعة الثانية التي تبدو كأنها ميدان صراع يقوم على سعي الإنسان إلى إشباع حاجاته من طموح ولذة... فإن باروخ سبينوزا سيعمد إلى بيان تهافت هذه الثنائية إذ لا مبرر عنده للفصل بين الله والطبيعة ، بين العقل الإنساني والأهواء الإنسانية في الإنسان بل بين الإنسان وبقية الكائنات : ومن الوهم عنده أن يظن أن الطاقة العقلية التي تسكن الإنسان الذي هو جزء من الطبيعة يمكن أن تكون في منزلة الخارج عنها المتعالي عليها. يعني ذلك أن لوجود لعقل منفصل عن الجسد ويعني ذلك أنه يجب اعتبار الإنسان طاقة وجهدا مستمرين للحفاظ على الذات شأنه في ذلك شأن كل الكائنات المسكونة بطاقة تشدها إلى البقاء وتدفعها إلى البحث عن تأكيد وجودها والاستماتة في الحفاظ عليه، كل منها حسب قوانين طبيعته الخاصة. فالإنسان لا يختلف عنها إلا في وعيه ، وهو يجتهد في الحفاظ على الذات، بهذا الجهد. ذلك أن مكونات الطبيعة من إنسان وحيوان... إنما تستمد شروط وجودها وبقائها بل تستمد حقيقتها لا من شيء خارج عنها منفصل عنها مهما اختلفت أسماؤه وإنما من ذاتها أي من قدرتها الذاتية على البقاء وعلى مقاومة كل ما من شأنه أن يهدد وجودها أي من الجهد الذي تبذله للبقاء : إن هذا الجهد وهذه الطاقة الذاتية وهذه المقاومة من أجل البقاء هي ما يطلق عليه سبينوزا لفظ «الكوناتوس» ويطلق عليه الشدياق لفظ «اللذة»، وهو عند سبينوزا وكذلك عند الشدياق ، لفظ مشبع حياة وحركة ويمثل الوجدان فيه العنصر الأهم وبذلك يتوحد الإنسان فإذا هو طاقة تجمع ما كان يسمى بالعقل وبالأهواء على حد سواء وتبعد عن الأهواء ما لحقها من تشويه ناتج عن النظرة الثنوية التقليدية فإذا الأهواء مقوم أساسي من

مقومات الكوناتوس : بهذا الفهم للأشياء تصبح الانتفاضات التي لا تنقطع في بلاد الشام وبلاد البلقان على السلطنة مثلاً رد فعل طبيعي يبرره سعي الجماعات المتمردة إلى الحفاظ على ذاتها. فإذا شاء المشرع أن يتجاوز الناس هذه الحالة فلا بد من سن قوانين تشعرهم عن طوعية أن تغليب المصلحة العامة هو أنفع لهم من تغليب المصالح الخاصة. بهذا الفهم فقط للحرية يقع التجاوز لا بالقهر والتهديد كما أنه بهذا الفهم للأشياء يصبح الحب عند المرأة في مثال الشدياق الذي تحول إلى «أحلام نابذة» شعوراً طبيعياً يبرره سعي المرء إلى إشباع حاجاته البيولوجية والنفسية والعقلية فلا مجال لإدانتها باسم حقيقة خارجة عنه (الشیطان الوسواس) وإذا شاء الزوج أن يحول هذا الشعور من طاقة جارفة نابذة إلى طاقة بناءة تساهلية فعليه أن يسلك سلوكاً يشعر الزوجة عن طوعية أن تغليب الحب على معنى الجنس الضيق هو أنفع لهما. فأساس الفضيلة نفسه يصبح انطلاقاً من هذا الفهم مرادفاً للسعادة الإنسانية التي تعني بدورها المنفعة وما هو خير يصبح عند سبينوزا وكذلك عند الشدياق ما هو نافع وما هو سيء ما هو ضار إذ لا يمكن أن تعني الفضيلة في نظرهما نفي الذات. الفضيلة الحقيقية تتمثل إذن في تشذيب العواطف الجامحة لا في قتل العواطف إذ بذلك يقتل جزء كبير مما تقوم عليه الكوناتوس. لقد بينا بما فيه الكفاية الالتقاء الفكري بين سبينوزا والشدياق وإن كنا لا نعرف بالضبط قنوات الاتصال التي تفسر هذا الالتقاء ولعلها مبنوثة في الروح العامة للحضارة الرأسمالية الليبرالية الغربية وعلينا الآن أن نبين وجهة مذهبن بالتعرض لاتفاق المفكرين في المنهج المعتمد لتناول القضايا السياسية والاجتماعية التي كانت تشغلها إذ كل نظرة إلى العالم تعني منهجاً ملائماً لهذه النظرة. كتب سبينوزا: «وإذن فقد آليت على نفسي وأنا أنكب على دراسة المسائل السياسية أن استنبط من حالة الطبيعة الإنسانية ذاتها لا شيئاً جديداً أو خارقاً للعادة وإنما القوانين التي تلائم أكثر ما يمكن الممارسة فحسب»⁶⁴

معنى هذا أن سبينوزا لن يلجأ إلى إسقاط نظرية من النظريات على المجتمع (الكوناتوس الجمعي) ليطالبه فيما بعد بالامتثال لها وبغض النظر عن أنها تلائم طبيعته أولاً تلائمتها وإنما سيلجأ إلى ملاحظة ما يحدث في المجتمع ليستخرج من ذلك ما يعتقد أنه قوانين «اجتماعية» ولذلك قرر أن يتناول نقائص البشر وعيوبهم على طريقة المهندسين وأن يعتبر «أعمالهم ومنازعهم الإنسانية كما لو تعلق الأمر بالخطوط والسطوح والجوامد»⁶⁵ أو كما يتناول خصائص الظواهر الطبيعية فينظر إلى «الحب والحقد والغضب والغيرة والكبرياء

⁶⁴ سبينوزا . — كتاب السياسة، الفصل الأول، ص 31 وما نثبه لسبينوزا أورده Jaleleddine Said . - Morale

et éthique chez Spinoza . - Tunis , 1991 . p. 88 et suiv.

⁶⁵ سبينوزا . — كتاب الأخلاق، III، المقدمة.

والشفقة لا كما ينظر المرء إلى رذائل وإنما كما ينظر إلى خصائص في الطبيعة الإنسانية أي كوجوه لها، شأنها في ذلك شأن الحرارة والبرد والعاصفة والرعد وكل الظواهر التي هي من خصائص الهواء»⁶⁶

فهل كان الشدياق من القائلين بضرورة البحث في «خصائص» الأشياء لا في «صفاتها» ؟

جوابنا عن هذا التساؤل قاطع. فلقد طبق الشدياق هذه الدعوة المعرفية الجديدة عندما فسر الصراع الديني بين الدروز والموارنة بأسباب سياسية بل إنه طبقها في ميدان أكثر تعقيدا بما لا يقاس من ميدان السياسة وهو ميدان الأخلاق فرسم صورتين راشتين لضلال الكوناناتوس الفردي = صورة انكفائية وصورة جامحة وكل منهما لا تعبر عن حالة الكوناناتوس السعيدة والمزهرة :

« ودليله في من تميل إلى العبادة و النسك فإنها لا تقف في ذلك على أمد بل تتماهى فيه حتى تهوس وتتخيل (...) وفي من مالت إلى الهوى فإنها تترك أباهها وأمها للذين ولداها وربباها وتقبل تجري في أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئا سوى كونه ذكرا » من لا يحس وهو يقرأ هذا النص الذي يدين حالة انكفاء الكوناناتوس وجموحها أنه بإزاء التقاء منهجي بين الشدياق وسبينوزا؟

في النظرة التقليدية تبدو صورة المرأة الأولى صورة قدوة وصورة المرأة الثانية ضلالة جنسية ما بعدها ضلالة . أما عند الشدياق فليس الأمر كذلك إذ أن الرجل، كذلك، واعتمادا لا على الصفات وإنما على الخصائص، يعيش وضعاً لا يختلف عن وضع المرأة. إن المرأة في السلطنة العثمانية تبحر، تماما كالرجل عن اللذة وعن كيفية امتلاكها تحقيقا لذاتها. وبما أن هذه الغاية الطبيعية حرام «فعلا» فإنه لا يبقى أمامها غير امتلاكها «تصورا» فيفتح الباب واسعا أمام عالم قوامه «الهوس والخيال...» أما الرجل الذي لا يتعرض اجتماعيا لما تتعرض له المرأة من ضغط فهو لا يقل عنها «هوسا» . ألا تراه حتى عندما يكون في سن متقدمة، ينظم شعرا يعبر فيه عن «شكوى وعتاب وتواجد إلى قوله أرق على أرق ومثلي يارق وكفى بجسمي نحولا إنني رجل وذبت وجدا وغراما ونحو ذلك»⁶⁷ بل «هناك دقيقة وهي أن بعض العتاول ج. عتول وهو من لا خير عنده للنساء يستنقل المؤنث في الغزل والنسيب فيجعله مذكرا وبعضهم يضمر»⁶⁸

⁶⁶ سبينوزا . — كتاب السياسة، الفصل الأول، الفقرة 4

⁶⁷ الشدياق . — الساق على الساق، ص 116

⁶⁸ الشدياق الساق على الساق . — صص 125 - 126.

فالمرأة والرجل هما عند الشدياق ضحيتان. وما كان للشدياق أن يصل إلى هذا الحكم لو اعتمد التركيز على الصفات (رجل، امرأة) عوضا عن التركيز على الخصائص (استماتة الكوناتوس في الدفاع عن ذاتها). وقد يكون من المستحسن هنا، وعلى سبيل التمكين لفكرة جدّة تفكير الشدياق، أن نورد رأيا للطهطاوي المصري في سبعينات القرن التاسع عشر يبيّن الفرق بين التفكير الشدياقي وتفكير من يأخذون بالنظرة التقليدية فلقد كتب الطهطاوي في «المرشد الأمين للبنات والبنين»: «فالحياة صفة ممدوحة فيهنّ فاللائق بمن يرّبي البنات ويتعهّد بشؤونهنّ أن يتركهنّ على حيائهنّ الذي هو زينتهنّ فلا تمسه التربية بمحو ولا تخفيف وأن لا يجتهد أحد في إلهام الشجاعة لهنّ وكذلك ما اشتملن عليه عادة من الخوف والوجل مما ينبغي محوه في الذكور فلا بأس بإبقائه في النساء فإنهن غير مخلوقات لأن يحزن شجاعة الرجال وإنما وصفهنّ أن يحملن الرجال على الشجاعة»⁶⁹

عندما كتب الطهطاوي ما كتب كان كثير من نساء الجبل اللبناني (المسيحيات) تضطرّهن الحاجة خاصة بعد الخراب الذي لحق بالجبل بعد حرب 1860 الأهلية⁷⁰ ونهاية الحرب الأهلية الأمريكية إلى السفر إلى نيويورك وكاليفورنيا بحثا عن الشغل : وفي هذا العالم القاسي كان البعض من هؤلاء العربيات يمتن من الجهد المضني والمرض وسوء التغذية والبعض الآخر كدّبن بنجاحهنّ ما كان يراه الطهطاوي طبيعة فيهنّ أي «إنما وصفهنّ أن يحملن الرجال على الشجاعة» بل إن زوجة الشدياق نفسه مكّنها السفر (أي الفعل) من المعرفة إذ «أنها بعد أن كانت لا تفرّق بين الأمر والمخلوق للحية وبين البحر المالح وبحر النيل تدرّجت في المعارف بحيث صارت تجادل أهل النظر والخبرة وتنتقد الأمور السياسيّة والأحوال المعيشيّة والمعادية في البلاد التي رأتها أحسن انتقاد»⁷¹

فكما أن زوجة الشدياق مكنتها التجربة (أي الفعل لا التصوّر) من «المعرفة» الحقيقيّة كذلك مكنت التجربة هؤلاء النساء العربيات المسيحيات من «الوعي الحقيقي» بذواتهنّ ولذلك يمكن أن يعتبر المرء تفكير الطهطاوي تفكيرا معبرا عما يجب أن يكون عليه وضع المرأة المصريّة في طبقة إقطاعيّة خاملة ومحدودة العدد كما أنه يمكن أن يفهم لم سيكون الشدياق رائدا فكريا بالنسبة إلى كثير من اللاحقين لأن من يعيش ضمن أقليّات وتضطّره ظروف الحياة الصعبة إلى الضرب في بقاع الأرض سعيا إلى تحقيق قدر من شروط الحياة لن

⁶⁹ الطهطاوي . — الأعمال الكاملة، — بيروت، 1973 . — ج 2، ص 369

⁷⁰ اتّجه المهاجرون (وفيهم نساء) «إلى شتّى المدن السورية العربية وإلى مصر وأستراليا وأمريكا الشمالية والجنوبية وقد كان معظم المهاجرين إلى هذه البلدان فلاحين ومزارعين موارنة (يقدر عدد المهاجرين بين 1860 و 1908 — 100.000 كلهم مسيحيون وأغلبهم موارنة" (كوثراني، الانجهايات، ص 86) فنحن إذن إزاء ظاهرة لم تعرفها المناطق العربية الأخرى.

⁷¹ الشدياق . — الساق على الساق، صص 65-66

يدفعه « الترف الفكري الواهي » إلى أن يترنم في القرن العشرين ببيت الشاعر المصري (الكامل) :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً
بين الرجال يجلسن في الأسواق
إن الفرق بين تفكير الطهاوي وتفكير الشدياق واضح إذن : فالأول يرى أن هناك طبيعة رجالية وأخرى نسائية لا تلتقيان في حين أن الشدياق يرى أن الرجل والمرأة ليسا غير وجهيين مختلفين لطبيعة واحدة. الأول يقول بالمرتببة في كل شيء على غرار ما رأينا من تفكير كل من (سينو ويوسويه) والثاني يقول بالاختلاف على غرار ما رأينا من تفكير سبينوزا، الأول محافظ مهما كتب فيه للإقناع بعكس ذلك والثاني تحديثي بالمعنى الدقيق للكلمة ، الأول يقول بـ« الصفات المحمودة » وبـ« الزينة » والثاني ينفر من «المظاهر» ، الأول تألفي في أحسن الحالات والثاني مدمر لأسس المجتمع القديم حتى عندما يغلف مواقفه بقناع التحفظ أو السخرية أو اللامبالاة.

نقول هو مدمر لأسس المجتمع القديم لأن القضية لا تقتصر على المرأة إذ صفة الحياء المطلوبة منها هي الصفة المطلوبة من المجتمع وأفراد العائلة والتلميذ. والحقيقة أن رفض الشدياق القول بالتناقض بين الرجل والمرأة (وقياساً على ذلك بين الدولة والمجتمع) وقوله بفكرة الاختلاف يطرحان قضية من أعقد القضايا وهي قضية الحرية والمسؤولية. من هو المسؤول عن حالة الخلل في علاقة «الشيخ» بـ « الخود»؟

هل هو السياسي وحده أم الاجتماعي وحده أم أن المسؤولية مشتركة ؟
يمكن لمن يدرس « الساق على الساق » أن يعثر في مواضع عديدة على ما يفيد مسؤولية « الشيخ » مسؤولية كاملة بل ما يفيد سوء طويته ومن ذلك هذا البيت الذي رادف فيه الشدياق بين « الخود » و« الدنيا » (الطويل)

وذبوا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفأويق حتى ما تدر لنا ثغسل

الشيخ هنا يفيد الدولة والرجل والمعلم...

والدنيا هنا تفيد المجتمع والمرأة والتلميذ...

طرف العلاقة الأول يعمد إلى خطاب وفعل متناكرين فهو بقدر ما يذم الدنيا يستنزفها رضاعاً.

لم هذا التناقض بين القول والعمل ؟ إنه بسبب الخوف من التسوية في « الرضاع » بما يذهب بمصالح ونهم الطرف المهيمن.

ألا ترى مثلاً أن كثيراً من الساسة ورجال الدين والمدافعين عن «خصوصية» الخود

العربية والإسلامية والمحاربين « للخود » الغربية يبادرون بإرسال أبنائهم إلى الدراسة في

« دار الحرب » وبالذات دراسة العلوم التي تمكنهم من السيطرة على المجتمع (مثل القانون) أو الطبيعة (مثل الطب).؟

ألا ترى مثلاً أن كثيراً من الساسة والمحاربين لـ «الخود الغربية» هم أكبر مستهلكي البضائع الغربية المستوردة ؟

بل إن الكنيسة التي اختصت في ذم «الخود» بصفة عامة « لبطرق الطائفة المارونية (فيها) دخل له وقع عظيم وقدر جسيم »⁷² ورجل الدين بصفة عامة « يأكل من أرزاق الناس ويعوضهم عنه دعاء يطفح من أسمار الكأس ويغنيهم في الدياجي عن النبراس ويركب ما لديهم من النجائب فهو كما قيل آكل شارب راكب ثم ما عليه بعد ذلك إن خرب الكون أو عمر وإن مات الخلق أو نشر »⁷³

أمّا «المقاطعي» في مختلف مناطق السلطنة فيتحالف مع رجل الدين ورجل السيف لرضاع «الخود» (وهي هنا المزارع): «ما يكاد (الحارث) يتخلص من ورطة أحدهما إلا ويقع في شرك الآخر ولا يفوته شرّ إلا واستقبله شرّ أكبر»⁷⁴

ولا يختلف الزوج والمعلم في علاقة الأول بالزوجة والثاني بالتلميذ عمّن سبق أن وصفنا إذ الجامع بينهم هو الانفراد بالقرار وقتل كل ما يشي بإمكانية خروج «الخود» عن طاعتهم .:

«ويل لمن يكون قد ذكر اسم الأمير وقت الجدل فإن عفوه حينئذ من المحال. فأما في الحوادث العظيمة فإن المتعدّي⁷⁵ إذا فرّ من القصاص أخذ بذنبه أحد أهله أو جيرانه أو ماشيته أو ماعونه وقطع شجره وأحرق منزله»⁷⁶

هذه هي ملامح صور « الشيخ » الجلاد وتقابل هذه الصورة ملامح صورة «الخود» الضحية التي كلما حاولت (حتى في الحلم كما هو الشأن في مثال الزوجة السالف) أن تدفع ضغط «الشيخ» الشال استماتة في الدفاع عن «كوناتوسها» تعرضت لأفظع أشكال الامتحان:

«لو أن (الحارث) رام أن ينهج لأهله منهجا ارتضاه لنفسه واستطوبه ولم يك على وفق مرام إمامه وأميره أو آخر ذي مرتبة لم يأمن غرامة منهما أو حسم عرتبة أو قسم رقية»⁷⁷

⁷² فارس الشدياق . — الساق على الساق، ص 83

⁷³ فارس الشدياق . — الساق على الساق، ص 118

⁷⁴ فارس الشدياق . — الساق على الساق، ص 119

⁷⁵ للتسطير. لأن الضحية هنا تتحول، في النظرة التقليدية (عند الشيخ) إلى جلاد

⁷⁶ فارس الشدياق . — الساق على الساق، ص 114

⁷⁷ فارس الشدياق، الساق على الساق . — صص 119 — 120

تكاد هذه الشواهد تقنع بأن الشدياق يقول بمسؤولية السياسي وحده عن الخلل في علاقة «الشيخ» بـ «الخود» وبذلك يكون قد برّر، ضمناً، التمرد على علاقة لا تستند إلى قدر كاف من الوثام. ولكن هذا المذهب في التفسير ليس مذهبنا وذلك لسببن :

أولهما ما سبق أن رأيناه من رشدية الشدياق وسببونوزيته ومن تحفظه إزاء قدرة السياسي وحده على الفعل السحري في المجتمع من ناحية وإزاء كل قول باستقلال الاجتماعي استقلالاً تاماً عن السياسي من ناحية ثانية. هذا الموقف يقود ضرورة إلى البحث الداخلي عن أسباب الخلل العميقة. وذلك البحث مكن الشدياق من اكتشاف مسؤولية اجتماعية كذلك عن هذا الخلل فالحارث (أي الخود) الذي «رام أن ينهج لأهله منهجا ارتضاه لنفسه واستطوبه ولم يك على وفق مرام إمامه وأميره أوآخر ذي مرتبة» لا يتعرض لمقاومة هؤلاء (أي السياسي) فحسب وإنما :

«لم يلبث أن يرى أصحابه له أعداء وأخذانه ألداء فهو على هذا رهين الخضوع وأسير القنوع»⁷⁸

فإرادة التمرد الفردية موجودة في كل واحد من أفراد المجتمع العريض (الزوجة، الحارث، التلميذ...) ولكن الغائب الأهم هو الوعي العام بضرورة التمرد الجماعي. عند الشدياق، ضمناً، رفض لفكرة الإنقاذ الفردي لأن هذه الفكرة قريبة من فكرة الإعجاز ولا يؤمن الشدياق بالإعجاز.

نعم، كثيراً ما حدث في الشام أن تمردت جماعات اجتماعية على «الشيخ» ولكن هذا التمرد كان من النوع الابتدائي أي ردة فعل على ضغط حياتي لا يطاق ولم يكن يستند، لأسباب موضوعية، إلى فكر حديث يعوّض الانتماء إلى الجنس (القيسية واليمانية) أو الدين (الإسلام والمسيحية) أو الطائفة بانتماء ثانوي حديث إلى الوطن العثماني أو الطبقة الاجتماعية مثلاً. ولذلك كانت الانتفاضات الاجتماعية على «الشيخ» في الشام تنحرف دائماً عن صفتها الاجتماعية وتتحول إلى صراع عرقي أو ديني أو طائفي يزيد من إحكام قبضة «الشيخ» على «الخود» التي لم تتمكن من معرفة ذاتها على حقيقتها ومن معرفة مصالحها الحقيقية فإذا هي تكرر في كل مرة صورة الخود التي إذا «مالت إلى الهوى فإنها تترك أباهاً وأمها اللذين ولداها وربياها وتقبل تجري في إثر رجل لا تعرف من صفاته شيئاً سوى كونه رجلاً». هذا الرجل قد يكون الإمام أو البطريك في الداخل وقد يكون فرنسا أو أنجلترا في حالة القوى العظمى. والذكورة هنا تعني «القوة الاقتصادية الرأسمالية والتقنية العسكرية». ومن المعروف أن الخود الدرزية كانت «تجري في أثر» بريطانيا عند كتابة «الساق على الساق» وأن الخود المارونية كانت تجري في أثر فرنسا نابليون الثالث.

ثاني سبب دفعنا إلى اعتبار الشدياق من القائلين باشتراك السياسي والاجتماعي في المسؤولية هو « وهم » الامتلاك الفعلي عند الشيخ.

قد يبدو من الشواهد المتقدمة أن امتلاك الشيخ (السلطان، المقاطعي، البطيرك، الزوج، المعلم) الخود (المجتمع، المزارعين، المتدينين، الزوجة، التلميذ) كأنه فعلي. ولقد سبق أن ذهبنا في مواضع عديدة إلى أن امتلاك الشيخ الخود إنما هو امتلاك « وهمي » فهل نكون قد وقعنا في تناقض ؟ عندما ندقق النظر في هذه المسألة نرى أن الشدياق وهو يتحدث عن عبد المجيد الذي سلك إزاء لامتريين سلوك « الواهب » و « القادر » يستنكر هذا السلوك لأن السلطنة كانت في تلك الفترة أبعد ما تكون اقتصادا وقوة عما يود أن يظهرها عليه السلطان فلقد تدخلت بريطانيا (وروسيا) عسكريا لمنع انهيارها على يدي محمد علي، أحد الولاة.

فقدرة السلطان على الفعل الحقيقي هي في هذه الحالة « وهم وتصور » أي هي من بقايا ما ترسب في ذهنه من ذكريات تتصل بمجد الدولة العثمانية السالف :

وهل لمن يبرد وقت القَرَّ دفء بتذكُّر أوان السحر ؟

أ فليس السلطان ، إذن، وانطلاقا من فهمنا هذا « شيخا » و «خودا » في الحقيقة وإن لم يع منزلته « الخلاسية » الحقيقية ؟

وبصريح ، في نظرنا، أن نقيس إلى السلطان عبد المجيد كل وجوه الشيخ. فالناس في السلطنة، عند الشدياق، إذا أخذوا أفرادا يبدون، مهيمين أو مهيمنا عليهم، مجرد ضحايا لخضوعهم لنظرة إلى الحياة وصفية لا تحليلية، عمودية لا أفقية، مطلقة لا نسبية، فكرية لا عملية براغماتية، ومن هنا كان همّ الشدياق الأول يتمثل في الدعوة لا إلى الطاعة (النظرة التقليدية) أو التمرد (النظرة الحديثة الراديكالية) وإنما إلى الإنصات إلى حركة المجتمع الداخلية ودراستها دراسة «مفيدة»، دراسة «بنتمية» (نسبة إلى Bentham).

وإذن، فإذا كان للشدياق دعوة في «الساق على الساق» فهي هذه الدعوة إلى المصالحة بين السياسي والاجتماعي مصالحة تسمح للسلطنة (رجال سياسة ومحكومين) زمن حرب القرم بإثبات تهافت صفة «الرجل المريض» التي نسبها إليها نيكيتا الأول وأكدتها هذه الحرب التي خرجت منها السلطنة «منتصرة» ولكن بعون...بريطانيا وفرنسا.

لقد كتب سبينوزا « إن حنبعل كان على فضيلة لافتة للنظر إذ لم يحدث أن انتقض جيشه عليه » ونحن نعتقد أن الشدياق كان يرى أن العلاقة الفضلى بين الشيخ والخود هي العلاقة التي لا يحدث فيها أن تنتقض الخود على الشيخ أو أن تنكفي على نفسها مخالفة بذلك شروط الحياة الحقيقية. وهذا الاعتقاد هو في الحقيقة عقيدة وهي ما أطلقنا عليها، ببعض التجاوز، عبارة «الفلسفة العثمانية» مما اضطرنا، للإقناع بوجهة نظرنا، إلى التوسع في الموضوع وربط تفكير الشدياق بتيارات ظهرت في بلاد الإسلام وفي أوروبا

الغربية وإن بعمق متفاوت لاختلاف العصور وتطور البنيات الاجتماعية والاقتصادية. هذا الربط هو السبيل الوحيدة، في نظرنا إلى نفي صفة « الصعلكة » الفكرية عن الشدياق وتنزيله منزلته الحقيقية بصفته معبرا عن وجه من وجوه تيار نقدي سياسي واجتماعي كامل شأنه في ذلك شأن العثمانيين الفتيان الذين رفض مرجعهم الفكري الأمير مصطفى فاضل تعميم فكرة الجلال والضحية على المجتمع فجرم السياسي أكثر مما فعل الشدياق إذ حمله مسؤولية الأوضاع في السلطنة. ولقد كتب البرت حوراني عن الجماعة « حاولوا بمفاهيم إسلامية تبرير تبني المؤسسات الغربية، معتبرين ذلك التبرير عودة إلى روح الإسلام الحقيقية، لا إدخال شيء جديد عليه أما في الشؤون السياسية فكانوا ديمقراطيي النزعة، يعتقدون أن النظام البرلماني الحديث ليس سوى بعث نظام الشورى الذي كان قائما في فجر الإسلام وأنه الضمانة الوحيدة للحرية. وهذا ما أدى بهم إلى الاصطدام بالحكومة. فعلى تأييدهم إصلاحاتها، انتقدوا طابعها الأتوقراطي »⁷⁹

ويحتاج رأي البرت حوراني، في نظرنا، إلى التحليل وإلى التعليق عليه : إن هؤلاء العثمانيين الفتيان هم عثمانيون مسلمون أي هم منتمون إلى أغلبية العثمانيين الذين لم يستفيدوا من التنظيمات استفادة أغلبية المسيحيين منها وهم من ناحية ثانية كانوا مرتبططين إما بشكل أو بآخر بـ « مهندسي التنظيمات » مصطفى رشيد وعالي وفؤاد في البداية ثم بالأمر مصطفى فاضل، خصم عالي وفؤاد بعد ذلك، فكانوا شببيين بالمعارضة من داخل السلطة، معادين للتغيير العنيف. وهم من ناحية ثالثة لم يتجاوزوا الثنائية التي تجاوزها الشدياق وأغلب الشوام المسيحيين الذي خرجوا عن دياناتهم وطوائفهم وتبنوا الماسونية الكوسموبوليتية التي عبر عنها الشدياق بقوله « تغيير الأديان لا يسلب الإنسان محامده ». هذه السمات الثلاث متجمعة تجعل من الصعب على الباحث الحديث عن تطابق في تفكير الجماعة. ويكفي أن نضرب لذلك مثلين مما كتب إبراهيم شناسي في التغني بفكرة المساواة وما كتب زميله عبد الحميد ضيا في بيان تهافتها فلقد نظم الأول قصيدة امتدح فيها ولي نعمته مصطفى رشيد عند إصدار الخط الهمايوني سنة 1856 جاء فيها ما نقله نثرا.

الحياة والملكية والشرف شموع ثلاث تنير قلوبنا

وعدالتك سراج يحمينا من عصفة الاضطهاد

حررتنا نحن الذين كنا عبيد الطغيان

يشدنا جهلنا بالأصفا

قوانينك أعتقت الناس

وقوانينك بينت للسلطان حدوده⁸⁰

مثل هذه المقطوعة دفعت برنارد لويس إلى أن يصف إبراهيم شناسي بـ «المتغرب الصرف». ولسوف يؤسس شناسي مجلة «تصوير أفكار» (1861) التي سيساهم العثمانيون الجدد في تحريرها ومن بينهم عبد الحميد ضيا الذي يمكن أن نعهده، قياسا إلى طريقة برنارد لويس في التصنيف و«التعليب» «متشرقا صرفا». فبعد أن تحسر للهوة الساحقة التي تفصل بين «بلاد الكفار» و«بلاد الإسلام»:

«جزت بلاد الكفار ورأيت مدنا وقصورا

همت في مملكة الإسلام ولم أر غير الخرائب»

ازداد اقتناعا بضرورة «انكفاء الخود» (المجتمع العثماني المسلم) على نفسها :

«إلى الرجال الغيورين ينسب التعصب

وإلى من خلعوا الدين تنسب الحكمة

ذاك هو اليوم الأمر الملائم لروح العصر

الإسلام عندهم حجر عثرة في سبيل تطوير البلاد

إنها لحكاية كانت مجهولة قديما وأصبحت اليوم درجة

فك الارتباط بالدين في كل شيء

اقتفاء الأفكار الإفرنجية هما اليوم الدرجة»

سيقول ريدارد كيبلينغ Kipling (1865-1936) الكاتب الاستعماري البريطاني

الحائز على جائزة نوبل في الآداب ومن منظور استعماري صرف «إن الشرق شرق والغرب

وغرب» ولكن عبد الحميد ضيا سبقه إلى هذا القول ولكن من منظور انكفائي صرف فلقد

هجا عالي باشا، أحد مهندسي التنظيمات، فنسب إليه صفة العشوائية التي تدفع المرء إلى

الخلط بين «الأنا» و«الآخر»، بين الشرق والغرب، في حين أن لكل منهما «أصالته»

و«طبيعته» الثابتة :

أ فليس بين مناخيهما اختلاف ؟

هل للشرق وللغرب الوضع نفسه

هل يقدر راسين أو لامارتين على أن يدبجا قصيدة مثل نافع ؟

وهل يقدر سنائي أو الفرزدق على كتابة مسرحيات مثل موليير ؟

ولقد قاده هذا الفصل التام بين الشرق والغرب إلى التنديد بفكرة «الدين لله والوطن

للجميع» أي بفكرة المساواة بين المسلمين والمسيحيين في ميدان إسناد الوظائف تنديد خير

الدين بها فقد عرض بسياسة عالي باشا التي تقول بالمساواة :

⁸⁰ هذه الأشعار عرباها نقلا عن برنارد لويس : الإسلام واللاتينية ، صص 127 - 128

إذا أعانه الله على إتمام القصد
سيجلس هؤلاء المتشرّدون عمّا قريب على أريكة الصدارة العظمى
لن يشذ عن ذلك غير اليهود
إذ بلغ فنّه في المساواة في الحقوق
حدّ تعيين الروم والأرمن بايات ومشيرين.

سنة 1876 سعيّن السلطان عبد الحميد الثاني الشاعر العثماني الجديد واليا على دمشق وقد التقيا في محاربة التنظيمات فإلى أي حدّ يصحّ الجمع، فكريًا، بين إبراهيم شناسي وعبد الحميد ضيا وهما على ما رأينا من الاختلاف في النظرة إلى الطريقة المثلى في تعامل « الشيخ » مع « الخود العثمانية »؟

أمّا نامق كمال، أصغر الجماعة، وأكثرها التزاما، إذ بقي على معارضته حتى مات في النفي، فهو يستعصي على الدراسة أكثر منهما لأنه يقع بالضبط بينهما، فكرا وسلوكا، وكم تصعب دراسة المواقف الوسط « الآخذة من كل شيء بطرف » خاصّة في الميدانين الاجتماعي والسياسي وفي فترات التأزم الحضاري. فلقد تأثر بـ « المتغرب » شناسي وخلفه عندما هاجر سنة 1865 إلى فرنسا في إدارة « تصوير أفكار ». ورغم هذه العلاقة الوثيقة بين هذين العثمانيين الجديدين فإنّ نقد نامق كمال للتنظيمات كان من الشدّة بحيث نميل إلى اعتبار ما ذكره البرت حوراني عن العثمانيين الجدد أكثر انطباقا على نامق كمال. يركز تفكير نامق كمال على اعتبار أن « الشريعة (...) هي ميثاقنا الحقيقي الوحيد » وعلى ضرورة « الخلافة » بكل ما يعنيه ذلك من رفض للشذائية. ويتفق نامق كمال مع عبد الحميد ضيا في الإحساس بوضع هذه الخلافة (همت في مملكة الإسلام فلم أر غير الخرائب) ويردّ هذا الوضع إلى غياب « الشورى » ولكنّه يوسّع فهم الآية « وشاورهم في الأمر » إلى حدّ يجعل منها « شكيمة » حقيقة للسلطة السياسية. وبهذا التوسيع البالغ يتمكن من نقد التنظيمات التي « حافظ (فيها مصطفى رشيد) تماما على سلطة السلطان المطلقة » حسب الكاتب السوفياتي لوتسكي محافظة لم يحد عنها، حسب يكن، خلفاؤه في الصدارة العظمى إذ « كان عالي باشا من القائلين بالترقي في المألوف والإعراض عن المستجدّ وكان يؤثر رضا السلطان على رضا الأمة »⁸¹ وكان فؤاد باشا « من أنصار القديم » حتّى أنّه « ما أن ولي الصدارة في سنة 1278 هـ (حتّى) كان أوّل ما أتى به من جلائل الأعمال أن سعى في عزل فاضل باشا من نظارة المالية ووشى به إلى السلطان حتى أوقع بينهما العداوة والبغضاء وحرّم بذلك الأمة من أبي الحرية وموجدها. ولبعض الكتاب في فؤاد مبالغات لا طائل تحتها ولم

⁸¹ ولي الدين يكن. — المعلوم والمجهول، ص 35

يكن الرجل إلا من أنصار الفكر القديم وقد مات بعدما اختل عقله بالغاً من العمر خمسا وخمسين سنة»⁸²

كتب نامق كمال في نقائص التنظيمات السياسية :

« إن أمر دار الورد العالي (خط شريف كلكانة) ليس كما قدر ذلك البعض ميثاقاً أصدرته الإمبراطورية السنية. فهو يتكون من إعلان سمح، في الوقت الذي كان يردد فيه بعض مبادئ الشريعة التي هي ميثاقنا الحقيقي الوحيد، بقرارات إدارية مختلفة من وحي أوربي. ولو كان الأمر العالي لا يحصر المبادئ القانونية العامة المعددة في الديباجة في الحرية الشخصية التي يفسرها على أنها الأمن على الحياة والممتلكات وعلى الشرف، وإنما يعلن أيضاً عن إقرار مبادئ أخرى أساسية مثل حرية التفكير وسيادة الشعب ونظام الحكم المبني على الاستشارة، لاتسم بسمة الميثاق الأساسي بالنسبة إلى الخلافة الإسلامية»⁸³

مأخذ نامق كمال الأساسي على التنظيمات هو إذن اقتصارها على إقرار الحرية الشخصية دون الحرية السياسية وخوفها الشائن مما يمكن أن تقود إليه الحرية السياسية من «حصول الهرج» أي خوفها من إمكانية تمرد «الخود» العثمانية خوفاً أبعد خير الدين التونسي في بيانه :

« المعنى الثاني (للحرية بعدما يدخل ضمن الحرية الشخصية هو) الحرية السياسية وهي تطلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية و المباحثة فيما هو الأصلح للمملكة (...) ولما كان إعطاء الحرية بهذا المعنى لسائر الأهالي مظنة لتشتيت الآراء وحصول الهرج، عدل عنه إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الأوربيين بمجلس نواب الأمة⁸⁴ وعندنا بأهل الحل والعقد وإن لم يكونوا منتخبيين من الأهالي. وذلك أن تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط الطلب على الباقيين وإذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص»⁸⁵

ما أقرب تفكير خير الدين الاجتماعي والسياسي من تفكير عبد الحميد ضيا وما أبعد عن تفكير نامق كمال⁸⁶ حتى لا نتحدث عما يفصل صاحب «الساق على الساق» عن صاحب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» من هوة في النظرة إلى العلاقة المثلى بين

⁸² يكن . — المعلوم والمجهول، ص 35

⁸³ برنارد لويس . — الإسلام واللاتينية، ص 153 نقلا عن مقال لنامق كمال نشره سنة 1862 في «عبرت» عدد 46

⁸⁴ «أهل المعرفة والمروءة» تعريف لأعضاء المجالس النيابية الاوربية يستأهل التوقف عنده

⁸⁵ خير الدين . — أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . — تونس، 1972، صص 207-208

⁸⁶ ليس من الصدفة أن عين عبد الحميد الثاني عبد الحميد ضيا واليا على دمشق سنة 1876 وخير الدين صدرا أعظم

لمدة قصيرة نهاية هذا العقد بالذات. وكل أولاد خير الدين سيكونون حميديين فيشنق العثمانيون الاتحاديون أحدهم سنة

1913 وتدخل بعض القوى العظمى لصالح الآخرين المتبقين فيتمكنان من الهجرة خارج السلطنة

« الشيخ » و « الخود ». وفعلًا فإن تزويج نامق كمال الإسلام بالروسوية تولد عنه فهم جديد للإنسان فإذا هو إنسان اجتماعي أي سياسي بالطبع ومنعه من « حرية التفكير » و « الاستشارة » يحوله إلى كائن بيولوجي لا منزلة إنسانية له بالفهم الهيجلي للقضية فيصبح المجتمع العثماني بذلك مجرد تجمع خلایا لاتجمع « أعضاء » مما يكرس هيمنة الدولة باعتبارها عضوا أكبر إذ لا تجد أمامها شكائهم سياسية تحول دون جموحها. وكيف يمكن للإنسان فردا (وإن أمن على حياته وممتلكاته وعرضه) أن يبدي مقاومة إزاء « الليفياتان » الهوبزي إن تاق إلى الخروج من الانكفائية السياسية إلى الاجتماعية السياسية؟

ولعل هذا الفهم المتطور لمنزلة الإنسان هو الذي سبب امتحان نامق كمال زمن عبد الحميد في حين فضل عبد الحميد ضيا اعتناق سياسة عبد الحميد الإسلامية فعين واليا على دمشق. هذا الامتحان هو الذي يفسر إحياء العثمانيين اللاحقين لذكراه سواء كانوا فاضليين أو مدحنيين، نقول مدحنيين لأن أحمد مدحت، رجل الممارسة، سوف يكون شدياقيا حتى النخاع وسوف يختار مناصرة « الخود » العثمانية على « الشيخ » مناصرة لا تستنكف من استعمال العنف لتغيير أوضاعها مما سبب قتلته الشنيعة في سجن الطائف سنة 1883.

لا بد، بعد أن بينا الحساسيات المختلفة داخل العثمانيين الجدد، أن نعرض ما توصلنا إليه على محك الممارسة ممثلة هنا في أسباب التفاف الثلاثي شناسي وضيا ونامق كمال حول مصطفى فاضل مؤسس جمعية العثمانيين الجدد. فكيف تأسست هذه الجمعية المعارضة في المهجر؟

لا يوجد اتفاق بين برنارد لويس وولي الدين يكن مثلا حول هذه المسألة فيمكن يذكر أن أخا الخديوي إسماعيل اضطره تحويل إسماعيل الخديوية للعلويين من صلبه بموافقة السلطان عبد العزيز إلى الهجرة إلى الآستانة حيث تولى وزارتي المعارف والمالية قبل أن يضطره « حسد » عالي باشا وفؤاد باشا إلى الهجرة إلى فرنسا إذ أنه « هاجر من عاصمة الملك يوم بلاد الغرب حتى استقر به النوى في باريس سنة 1865 وكان استصحب معه الشعارين الكاتبين الشهيرين كمال بك وضيا بك »⁸⁷

نميل ، كما يلاحظ القارئ ذلك ، إلى الأخذ بما جاء في يكن على معرفتنا بولائه لمصطفى فاضل ، لأن برنارد لويس يبدو أحيانا مزعجا إلى حد كبير بسبب حرصه الشديد على التصنيف من ناحية وبسبب رده كل ما يتصل بالعثمانيين الجدد وبغيرهم إلى التأثير الفرنسي بل « الكربوناري » دليله على ذلك أن البعض من هؤلاء العثمانيين الجدد شوهد مرة ، على ما يقال ، وهو يحمل معه أحد مؤلفات الكربوناريين. ولقد رأينا نحن قبل قليل التعقيد البالغ الذي يتميز به هذا « التيار ». ثم إن ولي الدين يكن هو في نهاية الأمر مفكر

⁸⁷ ولي الدين يكن . — المعلوم والمجهول، ص 36

فاضلي وتركي ومسلم ومعاصر للجماعة وأهل مكة أدرى بشعابها، على الأقل في بعض الميادين. ويرى باحث عربي «أن مصطفى فاضل (كان) يتطلع إلى تولي منصب الصدارة العظمى في الآستانة بعد إقامة الحكومة الدستورية وكان هو الذي كشف اللثام عام 1867 عن وجود أنصار له في تركيا وأشار إليهم باسم «*Jeunes Turcs*»^{88 89} ما يهمنا نحن هنا هو ما يبرر به الأمير هجرته وقد ورد ذلك في رسالة بعث بها إلى السلطان عبد العزيز حرص ولي الدين يكن الفاضلي الاتجاه على إثباتها في المعلوم والمجهول:

«أصعب ما يدخل قصور الملوك هو الحق. ومن يحيطون بهم يخفون الحق حتى عن أنفسهم لأن هؤلاء لما عاشوا في مركز الحكومة وبين لذتها حسبوا أن المشقة التي تكابدها الرعية هي من فتورها.⁹⁰ وهم يزعمون أن وقوع الدول في الضعف هو من حوادث الكون التي لا حيلة في درئها. لا بد من جرأة في الصدق ليبصر الحق، من غير وقوع في الأوهام الباطلة ولا بد من جرأة أكثر من ذلك لبيان الحق للملك. وهذا الصدق لم يتخط عبدا أبدا. وإثباتا لذلك أرجع إلى ذاكرة جلالتك ومن كانوا سببا في نفيي إلى دار الغربية.

نعم لم يتهيأ لي إلى الآن خدمة تري الآثار البادية لهذه الصداقة واستعدادي لها أي لم أتمكن من خدمة صالحة تستوجب إصلاح وطننا وإعادة الحياة إليه ولكني أول من أمارت الحجب عن وجوه الخلل وعرض سيئات حكومتك وجراحاتها لذاتك الهمايونية. وجل أفكار عبك متجهة إلى خدمة ذاتك الشاهانية. وإني لإخلاصي لذاتك الهمايونية ومحبتني لوطني لم يبق لي صبر للتفرج عن بعد على الأسواء التي أحاطت بنا ظاهرا وباطنا. وإذ كنت على ثقة من المروءة التي اتصف بها قلبك الشاهاني عدت من وظائف التبعية أن أبين هذه الأسواء مرة أخرى غير كاتم منها واحدا لنجد لنا سبيلا إلى خلاصنا في حينه. مولاي صاحب الشوكة، إن ما يقوم به في دولتك من أعمال الفوضى رعاياك المسيحيون⁹¹ هي كلها من أعمال أعدائنا في الخارج. على أن الإدارة الحاضرة أيضا لها من ذلك نصيبها الأوفر⁹² لأن أعمالا لم يكن بها بأس فيما سلف من الأزمان، تلوح اليوم وكأنها ظلم وجور على

⁸⁸ يستعمل الغربيون والشوام المسيحيون المعادون للعثمانيين الأسماء والصفات «تركيًا» و«الأتراك» و«تركي» في زمن لم تظهر فيه القومية التركية ولهذا فإننا نغرب *Jeunes Turcs* بالعثمانيين الفتيان أو العثمانيين الجدد وإذا كنا نحافظ في

الشواهد على إثبات ما نغدر منه فذلك لاستحالة التصرف فيها

⁸⁹ السيد رجب حراز. — الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، ص 47.

⁹⁰ تجريم السياسي، هنا، واضح، وفيه نقد لما جاء في تنظيمات 1839

⁹¹ إشارة إلى ما يحدث في البلقان وما حدث في الشام سنة الستين

⁹² تظهر هنا فكرة الجلال والضحية الشديداية واضحة. وهي فكرة تضرع عند عبد الحميد ضيا وتتضخم عند نامق

الرعايا من كل جنس. والأوروبيون يحسبون أن المظلومين والممتهنيين والمحقّرين كلّ التحقير في تركستان⁹³ هم من الأمة المسيحية المحكومة وليس الأمر كذلك. إن المسلمين، ولا تحميمهم دولة من الدول الغربية، سحقوا ومحقوا أكثر من الملل غير المسلمة. المسلمون كابدوا هذه الكرب إلى الآن بما اتصفوا به من النخوة في الصبر والانتظار. أمّا الأوروبيون فلا يعلمون ذلك. على أن المسلمين لما كانوا دم ذاتك الشاهانية التي بيدها زمام حكومتهم يعدّون محبّتهم وطاعتهم لعرش سلطنتك من الأوامر القرآنية. ولكن ائذن لي يا مولاي صاحب الشوكة أن أقول لك إنّه لم يبق للملّة الإسلامية جلد، لا على الإخلاص ولا على احتمال الكرب. إن أصوات السخط وإن عولجت بالإسكات ما عولجت أخذت ترن في كل صوب فإنزالهم إذن إلى هذه الدركة من اليأس مضرّ بنسلك وبهم.

إن من سيئات أصول الإدارة الحاضرة التي ربّما كانت على ما يخالف رضاك الشاهانيّ خاصة ويخالف رضا الوكلاء أيضا، بل من أنواع الظلم التي لو علمت به ذاتك الهمايونيّة لأزاحتها، أن أعراض التناقص بدأت تبدو في سلالة الأتراك يوما بعد يوم، وأن البعض من عبيدك الصادقين الذين يفتخرون بأنهم من هذه السلالة العلية، يرون قلة هذه الأمة فيأسفون أسفا حقّا. ولئن كان السبب الأصليّ لهذا الخطأ الأصول العسكرية إلا أن الأمر الذي يخيف عبدك أكثر من ذلك ليس هذا، بل ما يخيفني جدّا من أحوالنا الآتية هو كما يرى في الملل المحكومة ازدياد سوء الأخلاق الذي عرض لأمتنا العثمانية وتمكّنه كلّ أن وانتشاره.

مولاي صاحب الشوكة، محا آباؤنا⁹⁴ قبل أربعمئة سنة إمبراطورية الشرق من على وجه الأرض⁹⁵ وجاؤوا البلدة المشهورة التي اتّخذها قسطنطين مقرّا للملك العالم في أبهتهم وجلالهم وسكنوها. فما كان هذا الشرف التاريخي الذي أحرزوه ناجما عن غير دينية أو شجاعة عسكرية بل كانت الغيرة الدينية والشجاعة العسكريّة عكسا لأشعة أخلاقهم المليّة⁹⁶ وإن ما نالوه لأنهم كانوا مطيعين قوادهم، ولكنّ هذه الطاعة كانت قائمة على أساس حرية اختاروها وقبلوا بها من أنفسهم وكان قلب كلّ واحد منهم وعقله حرّا فيما يختار⁹⁷ ولا أدري أيّ شمم غريزيّ اجتمع فيهم واستحدث لهم نظاما وجعل أخلاقهم الحية

⁹³ يقصد السلطنة العثمانية إذ تعني ستان : بلاد

⁹⁴ بين انتساب ابن ابراهيم بن محمد علي الألباني إلى الأتراك ثقافت المفاهيم العرقية.

⁹⁵ إشارة إلى سقوط القسطنطينية سنة 1453 على يدي محمد الثاني

⁹⁶ يلاحظ هنا الاستعمال الخاص جدًا لمفهوم الأخلاق

⁹⁷ السعادة في العلاقة الحرة بين «الشيخ» و «الخود» وهذه فكرة نسبناها الى سبينوزا و الشدياق

ومشاريهم في حالة الاطراد هذا هو السبب، سهل لهم الظفر بدولة عظيمة قامت فيها حكومة الظلم وأضحت الذلّة والمسكنة وكلّ المعاييب الأخرى دستور العمل»⁹⁸
فكرتان أساسيتان لهما علاقة بموضوعنا تحكمان هذه الرسالة :

الفكرة الأولى تتصل بتحديد أسباب وضع السلطنة المتردي والثانية تتصل بسياسة بديلة يطلبها ابن ابراهيم باشا وهما معا من علامات أخذه بالنظرة الحديثة إلى الطبيعة وإلى المجتمع فهذا الأمير لا يقول بالسببية العمودية لا في الطبيعة ولا في المجتمع ف « المشقة التي تكابدها الرعية (ليست) من فتورها» قياسا إلى قانون اجتماعي ينطبق على دول الأرض جميعها فلا مجال عندئذ لأن يزعم بعضهم ممن يعيشون « في مركز الحكومة وبين لذتها» أن « وقوع الدول في الضعف هو من حوادث الكون التي لا حيلة في درئها».

إنّ السببية العمودية تميل إلى تفسير كل شيء باعتماد أسباب خارجية فهي في مجال الطبيعة تفسّر الزلازل بإرادة امتحان إلهية وهي في مجال « الزلازل الاجتماعية» تفسّر ما حدث في الشام من حرب أهلية وفي تونس من انتفاضة زراعية وفي البلقان من تنامي مظاهر القومية بإرجاع كل ذلك إلى « أيد خارجية» شبيهة بـ « يد إبليس» وبذلك تبرئ الدولة من كل مسؤولية وتجرم المجتمع وكأنها، وهي تفعل ذلك، تبرئ السماء وتجرم الأرض. ولكنّ مصطفى فاضل، تماما مثل الشدياق، يشير إلى العوامل الداخلية بل يركّز عليها أكثر من التركيز على العوامل الخارجية « إنّ ما يقوم به في دولتك من أعمال الفوضى رعاياك المسيحيون هي كلها من أعمال أعدائنا في الخارج على أن الإدارة الحاضرة أيضا لها من ذلك نصيبها الأوفر »

يكاد مصطفى فاضل، والد الأميرة نازلي هانم التي ستكتب بعد ثلاثين سنة لائحة إلى عبد الحميد تنقد فيها سياسته، يستغرب أن توجد ظروف داخلية توفّر شروط التدخّل الأجنبيّ في سياسة السلطنة ثم لا تقوم «الأيدي الخارجية» باستغلال هذه الظروف إذ لا قدرة « للجرائيم » على الإطاحة بجسد من الأجساد إلا إذا كان هذا الجسد فاقدا للمناعة والحصانة الداخليتين.

ثمّ يتعرّض مصطفى فاضل للبديل فيطلب ألا يكون الدواء «شكليًا». ومن الأمثلة التي يضربها على هذه الأدوية الشكلية زيادة التسلّح إذ ما يهّمه أساسا هو حامل السلاح لا السلاح في حدّ ذاته وكذلك انتهاج سياسة دينية إذ ما يهّم هو الإنسان لا مظاهر التدين وهو يستعمل لفظا على غاية من الأهمية فيما يتّصل بموضوعنا لبيان أن ما تعتبره الدولة سببا يجب أن يعدّ نتيجة وهو لفظ «عكس» بمعنى «نم»: «ما كان الشرف التاريخي الذي أحرزوه ناجما عن غير دينية أو شجاعة عسكرية بل كانت الغيرة الدينية والشجاعة

⁹⁸ ولي الدين يكن. — المعلوم والمجهول، صص 38-39، ولقد نقله يكن من التريكة العثمانية إلى العربية

العسكرية عكسا لأشعة أخلاقهم المليّة». فالأخلاق، هنا، ليست جملة المظاهر الأخلاقية وإنما هي هذا التوهج الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن كائنات حيّة وقادرة ومشعة ومزدهرة (بمعنى الإزهار من الفعل أزهَر) فلا أخلاق (أي لا وهج) للكائنات الميتة التي تعيش في ما يشبه الحياة ولكنه ليس منها حتّى وإن شَبّه لها أنها كائنات حيّة. والأخلاق هنا تصبح، لا معجمياً وإنما سياسياً مرادفة للحرية. حتّى مفهوم الطاعة يتفرّق معجمياً فإذا هو معنيان : معنى موجب ومعنى سالب. المعنى الموجب هو أن تكون نتيجة اختيار حرّ والمعنى السالب هو أن تكون موقفاً دالاً على « الذلّة والمسكنة وكلّ العيوب الأخرى »

ولقد قادت هذه النظرة مصطفى فاضل إلى نتيجة لم يتفطن لها الكثيرون ممّن درجوا على الحديث عن مسلمين متعسّفين وعن مسيحيين « أهل ذمّة » مضطهدين لأنهم يعتمدون فكراً يقوم على المظاهر (ومنها كثرة عدد قوم من الأقوام) فاعتبر هذا الرأي غير سليم إذ أنّ المسلمين هم بمقياس النظرة الحديثة إلى الطبيعية وإلى المجتمع أصبحوا « أهل ذمّة » في حقيقة الأمر.

إن صحّ تحليلنا لرسالة مصطفى فاضل تتّضح أسباب التفاف شناسي وضيا ونامق كمال حوله. فهو يمثّل الموقف الوسط بين مادية الشدياق وطبيعيّته الجافّة ومثاليّة جماعة « تصوير أفكار ». لذلك لا يعجب المرء من تكوين جمعيّات علميّة في بيروت تنفر من تفكير الشدياق الراديكاليّ القاطع نفورها من إسلامية عبد الحميد ضيا الكامنة أحياناً والمعلنة أحياناً أخرى مثل « الجمعية العلميّة السورية » (1868) التي نكتفي في هذا الفصل بالإشارة إلى أنّها كانت جمعية عثمانية بلغت فيها الروح التوفيقيّة مبلغاً يفسّر انضمام الأمير مصطفى فاضل والصدر الأعظم فؤاد إليها ممّا شجّع على انخراط عدد كبير من الشوام فيها إذ عرفت «امتداداً واسعاً بحيث انضمّ إليها حوالي 180 عضواً من انتماءات طائفية مختلفة لكن ضمن غلبة مسيحية عدداً وثقافة»⁹⁹

فكيف يمكن تفسير انضمام مؤسّس جمعية العثمانيين القتيان مصطفى فاضل ومهندس التنظيمات الصدر الأعظم فؤاد وهذا العدد الضخم من الشوام من مختلف الأعراق والديانات والطوائف إليها إذا لم يكن ذلك بسبب طابعها «العثمانيّ» بل «الماسوني»؟ على أنّ ما لا بدّ من التأكيد عليه نهاية هذا الفصل هو أنّ الدعوة إلى التسامح لا تكفي وحدها لتحقيق وحدة الأمة إذ للناس حاجات ماديّة إن لم تقع تلبية حدّ أدنى منها فإن الخطب حول التسامح تتحوّل إلى خطب وعظ لا طائل من ورائها.

هذه الحاجات لم يقع تلبية الحدّ الأدنى منها في السلطنة التي تدهورت أوضاعها الاقتصادية خاصة إلى حدّ جعلها سنة 1854 تلجأ لأول مرّة في تاريخها إلى الاقتراض

⁹⁹ وجيه كوتراني . — الاتجاهات، صص 147-148

الخارجي. ولن يحلّ شهر أكتوبر 1875 حتى يعلن الصدر الأعظم نديم باشا «أنّ دفع فوائض الدين العمومي سيخفّض إلى النصف بما يتضمّنه هذا الإعلان من نتائج وخيمة على سمعة الدولة العثمانية في أوروبا»¹⁰⁰

ولقد وجد خصوم التنظيمات في ذلك الفرصة المناسبة لتجريمها ففرضوا عبد الحميد الثاني سلطانا مكلفاً بـ «قبرها». لقد كانوا قلة سنة 1839 ولكنهم أصبحوا هم الأكثرية في منتصف سبعينات القرن التاسع عشر. فلنتناول، إذن، في الفصل التالي مأخذهم على عملية الإصلاح العثمانية وطرق مقاومتهم لها.

¹⁰⁰ برنارد لويس. — الإسلام واللامركزية، ص 144

الفصل الثالث

خريف العثمانيّة

لا نخشى تشبيه السلطنة العثمانية في استجابتها لطلب بريطانيا الرأسمالية وجوب إصدار التنظيمات بعدد من الكيانات السياسية التقليدية التي استجابت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لشروط بعض القوى العظمى الرأسمالية في ربط إعانتها للبلدان المتخلفة حضاريا بضرورة الانفتاح الاقتصادي وإقرار الحريات الديمقراطية. وهذان الشرطان إن كانا محلّ ترحيب من الأوساط المحلية المؤهلة للانخراط في المسيرة الرأسمالية وما يلائمها من نظرة إلى العلاقات الاجتماعية في السلطنة قد قاومتها الأوساط التقليدية أي ما قبل الرأسمالية، في صلب السلطة الحاكمة وخارجها وذلك بغضّ النظر عن الانتماء العرقي أو الديني في بلاد البلقان أو في الآستانة أو في بلاد الشام حتى لا نتحدّث عن الجزيرة العربية مثلا.

ففي بلاد البلقان «اشتعلت كلّ الولاية البوسنية عندما أعلن خط الكلخانة المساواة في الحقوق بين المسلمين والمسيحيين وعاشت البوسنة طيلة عشر سنوات في حالة حرب كامنة من دون أن يجرؤ الباب العالي على التدخّل. وفي سنة 1850 قرّرت إسطنبول إعادة فرض سلطتها وكلفت عمر باشا، وكان معروفا بالحزم، بهذه المهمة فنقل مقرّه من ترافنيك إلى سراييفوا البعيدة عن تجمّع إقطاعات البايات ثمّ أخضع هؤلاء إخضاعا تامّا لسلطته»¹ أمّا في الآستانة فقد «بلغ غضب الناس أن سبّه (يقصد السلطان) درويش على قارعة الطريق واتهمه بممالاة أهل الذمّة على المسلمين وأنذره بسوء المصير ومع أن هذا الدرويش ألقي القبض عليه وأعدم إلّا أن قبره غدا سريعا مزارا لعامة المسلمين»². وفي بلاد الشام «خلال الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر حصلت انتفاضات مستمرة في منطقة نابلس الجبلية. وقد اعتمدت هنا أسرتا طوقان وعبد الهادي الإقطاعيتان المتعاديّتان في صراعهما على السلطة (وكان يجري تعيين الحاكم المحليّ منهما في تلك السنوات) على الحركة الجماهيرية ضدّ الضرائب الحكومية والخدمة العسكرية ولم تستتب السيطرة التركية الفعالة نسبيا في هذه المنطقة إلّا في نهاية 1859 »³.

¹ G. Castellan . - Histoire des Balkans . - Paris, 1992.- p.317

² حرّاز. - الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، ص 20

³ كوتلوف . - تكون حركة التحرّر الوطني في المشرق العربي، ص 279. ولنلاحظ أن رفض الخدمة العسكرية لم يكن مسيحيا فحسب

أما أكبر ردة فعل على التنظيمات في الشام فستكون سنة 1860 . لقد كان الهمّ الشاغل لكبار الإقطاعيين هو مسألة الضرائب والخوف من تعميمها على أساس «العدالة». ومن المتفق عليه أن مسألة الضرائب أصبحت أعظم المسائل بالنسبة إلى السلطنة التي استنزفتها حرب القرم واستنزفها كذلك فتح أسواقها للبضائع الغربية الأكثر جودة والأقل كلفة ومن ثمّ سعرا والتي كان عدد هام من المسيحيين وسطاء في ترويجها. ففي دمشق العاصمة وفي « بداية مارس (1860) تليت فتوى لأحد علماء دمشق كتبت بروح العداء للمسيحية أثناء الاجتماع السريّ المشترك لقادة الإدارة التركية⁴ وأعيان المسلمين في دمشق. وعبر المجتمعون عن استيائهم من نفوذ المسيحيين المتزايد الذين أثروا من التجارة في أوروبا كما طرح رأي يقول بأن الإصلاحات التنظيمية ولا سيما الخطّ الهمايوني لعام 1856 لا تنسجم مع مبادئ الشريعة الإسلامية»⁵.

لقد رأينا أن تهمة « الحيد عن الشريعة » ترقى في حقيقة الأمر إلى سنة 1839 ولكن هذا الموقف المحافظ من التنظيمات ترسّخ سنة 1855 عندما حاول الباب العالي «أن يوسّع الخدمة العسكرية لكي تشمل المسيحيين. ولهذا السبب ألغى الخراج في 7 مايو 1855. وأثار هذا الإجراء مقاومة الرجعيين المسلمين الذين استأثروا من السماح « للكافر » بالالتحاق بالجيش التركي. وأعفى الباب العالي في آخر المطاف المسيحيين من الخدمة العسكرية واستبدلها بضريبة خاصة تعرف بـ «البدل العسكري»⁶. هل اقتضت مقاومة التنظيمات، في الشام، على المسلمين التقليديين ؟ لا بالطبع. إن الكنيسة المارونية ستنشط في مقاومة التنظيمات لأنها بتسويتها بين الأديان كادت تذهب إلى ما كان يذهب إليه فارس الشدياق من أن «تغيير الديانات لا يسلب الإنسان محامده» وهو مذهب لا يمكن إلا أن ينسف هيمنة الكنيسة على رعاياها. وقد بلغ نشاطها في مقاومة التنظيمات ذروته قبل وبعد الحرب الأهلية سنة 1860.

« لعبت الكنيسة المارونية دورا كبيرا في ذلك. وبدأت منذ 1860 بتوجيه نشاط «الاتحاد المسيحي» الذي تأسس قبيل ذلك بفترة وجيزة وتمتّع بنفوذ قويّ في بيروت وجبل

⁴ مقاومة التنظيمات كانت من داخل السلطة كذلك (ولادة...)

⁵ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 287

⁶ فالدنبر لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 160

لبنان فقد دعت نداءات الزعماء الروحيين المارونيين التي تم توزيعها في المناطق المسيحية من لبنان إلى الجهاد المقدس ضد من يخالفهم في العقيدة»⁷.

هكذا بدأت القضية في هيئة موقف من الضرائب أي قضية علاقة بين المجتمع والدولة وانتهت إلى قضية دينية. ولقد توفرت كل شروط الحريق في حقيقة الأمر ولم يبق غير إشعال عود الثقاب. وفعلا ففي «26 ماي 1860 وقع تبادل إطلاق النار حول بيروت بين جماعات من الفلاحين الدروز وجماعة من سكان المدينة المسيحيين سقط نتيجة ضحايا من كلا الجانبين وأدت هذه الحادثة الفردية إلى اندلاع الفتنة الدينية الدموية المعدة منذ فترة بعيدة»⁸.

لقد رأينا كيف رفض الشدياق، أول معبر شامي عن الفلسفة العثمانية، اعتبار الصراع الدرزي - الماروني صراعا دينيا ولسوف يذهب كل تلامذته الفكريين هذا المذهب فسليمان البستاني الذي ولد في بستان في منطقة الشوف معقل الدروز عام 1856 أي كان عمره عند اندلاع هذه الحرب أربع سنوات تحدت عنها في لهجة قريبة من لهجة لوتسكي. امتدّ الطور الأول من هذه الحرب الأهلية من 26 ماي إلى 6 جويلية. وقد قام الدروز فيه بمهاجمة المسيحيين في الجنوب والبقاع ف «لجأ آلاف المسيحيين إلى كسروان وبيروت وغيرها من المدن الساحلية وقتل نتيجة هذه المذبحة في لبنان (يقصد الجنوب اللبناني اليوم والبقاع) ما يزيد عن 10.000 شخص ونهبت وحرق جزئيا 360 قرية كما هدم 360 كنيسة و42 ديرا و 28 مدرسة. وبلغت قيمة الأضرار المادية للمسيحيين وحدهم، حسب تقديرات الصحافة الفرنسية، ما يزيد عن 90 مليون فرنك فرنسي»⁹.

أجبر الفريقان على إيقاف القتال فتوقف مدة ثلاثة أيام «ولكن المسيحيين رفضوا تعويض الخسائر واعترفوا فقط بالامتيازات الإقطاعية لمشائخ الدروز»¹⁰ كما أن الوضع لم يتغير في كسروان (شمال الجبل) مصدر التمرد «التي نجت من مصير المناطق اللبنانية الجنوبية»¹¹ ولذلك سرعان ما بدأ الطور الثاني من هذه الحرب وكان هذه المرة كاسحا

⁷ لوتسكي . - تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 28

⁸ لوتسكي . - تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 289

⁹ لوتسكي . - المرجع السابق، ص 289

¹⁰ لوتسكي . - المرجع السابق، الصفحة نفسها

¹¹ لوتسكي . - المرجع السابق، الصفحة نفسها

و امتدّ فشمل دمشق عاصمة سوريا و« كانت الطوائف المسيحية في دمشق تقدّر بـ 8000 من الروم الأرثوذكس و 8000 من الروم البابويين¹² و 3000 من المارونيين»¹³ و « في 9 جويلية بدأت مذبحة المسيحيين في دمشق بتحريض بعض الوجهاء المعروفين من الزعماء الدينيين المسلمين ويتأييد من الوالي التركي (يقصد أحمد باشا) واستمرت أعمال النهب والقتل حوالي عشرة أيام (يقصد من 9 جويلية إلى 19 جويلية 1860) وتحول القسم الأكبر من الأحياء المسيحية في دمشق إلى خرائب وهلك تقريبا حوالي ربع مجموع مسيحيي دمشق (يقصد 5-6 آلاف شخص) وقدّرت الأضرار المادية من قبل المعاصرين لتلك الفترة بمائة مليون فرنك فرنسي»¹⁴.

ويبدو أنّ هذه « البوغرومات»¹⁵ آتت أكلها الدموي بالنسبة إلى الإقطاعيين خصوم التنظيمات ففي «29 جويلية 1860 وقّع ممثلو فلاحي كسروان على «إعلان قرى لبنان» الذي وافقوا بموجبه على عودة المشايخ المطرودين إلى كسروان وعلى إعادة حقوقهم بالأراضي التي تمّ الاستيلاء عليها أثناء الانتفاضة»¹⁶. لقد انتصر في هذه الحروب الإقطاعيون والآخذون بنظرة تقليدية إلى الطبيعة ومن ثمّ إلى العلاقات الاجتماعية أي انتصرت الطبقات غير المؤهلة تاريخيا للقيام بدور اجتماعي تغييري يدرج المجتمع في نسق التطور الرأسمالي ومن ثمّ فستكون نتائج هذه الحرب خطيرة.

فعلى مستوى تأثير القوى العظمى في الأحداث كان التنافس البريطاني الفرنسي¹⁷ قد بلغ أشده بين سنة إصدار التنظيمات الثانية وسنة اندلاع الحرب الأهلية.

« فالإقطاعيون لم يكفوا عن السعي لاستعادة امتيازاتهم أو على الأقل المحافظة على ما تبقى منها. كذلك الفلاحون بالنسبة للحقوق التي كانوا اكتسبوها. كان عملاء بريطانيا مستمرين في الحفر تحت أقدام النفوذ الفرنسي في طريق تبني المطالب الدرزية بينما استمرت فرنسا في تأييد حقوق الموارنة متأرجحة بين إرضاء رجال الدين أم الإقطاعيين.

¹² الروم الكاثوليك

¹³ آجرون . — السياسات الاستعمارية في المغرب . — باريس، 1972 . — ص 95، حاشية رقم 3

¹⁴ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية، ص 290

¹⁵ «بوغرومات» من الفعل الروسي بوغروميت وهو يعني هدم

¹⁶ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 291

¹⁷ جهد بالمستون لتطويق سياسة نابليون الثالث مشهور

أما العثمانيون فقد ظلّوا ممسكين العصا من وسطها، حذرين وساهرين، خوفاً من أن يعطوا الدول الأوروبية فرصة التّدخل العسكريّ أو السياسيّ. لقد ظلّ هذا الوضع غير الطبيعيّ يتفاعل حتّى تفجّر عام 1860»¹⁸.

وإذن فإنّ تفجّر الوضع سنة 1860 كان يعني في حقيقة الأمر فشل سياسة مهندسي التنظيمات فؤاد باشا وعالي باشا إذ أعطت هذه الحرب القوى العظمى فرصة للتّدخل في سياسة السلطنة الداخلية.

ولسوف يقضي تدخّل القوى العظمى في تلك الفترة إلى اتفاق حول «قانون أساسي» للجبل أمضت عليه في 9 جوان الحكومة العثمانية (فؤاد باشا) وهو ينصّ على تأسيس « متصرفيّة جبل لبنان » التي يديرها حاكم عثماني مسيحيّ من غير « اللبنانيين » تقترحه السلطنة على أن يحظى هذا الاقتراح بقبول الدول المضية على « القانون الأساسي » ولهذا السبب كان المتصرفون في الجبل طيلة الفترة الفاصلة بين إعلان هذا القانون وإلغاء العثمانيين الاتحاديين له في الحرب العالمية الأولى هم :

1868-1864/1864-1861	القسطنطينية	داود باشا
1873-1868	حلب	فرانكو باشا
1883-1873	من أصل إيطالي	رستم باشا
1892-1883	من أصل ألبانيّ	واصا باشا
1902-1892	حلب	نعوم باشا
1907-1902	من أصل بولونيّ	مظفر باشا
1912-1907	حلب	يوسف فرانكو باشا
1915-1912	من أصل أرمنيّ	أوهانس باشا

ومما تضمّنه القانون الأساسي المواد التالية :

- يقع تعيين حاكم المتصرفيّة لمُدّة لا تقلّ عن خمس سنوات يمكن تجديدها.
- ويلاحظ المرء أنّه لا أحد من المتصرفين الذين حكموا الجبل في القرن العشرين جدّد تعيينه.
- يضطلع حاكم المتصرفيّة بكل المسؤوليات العائدة بالنظر إلى السلطة التنفيذية فيقبض الضرائب ويزكّي أحكام المحاكم التي يصدرها قضاة من الجبل.

18 باسم الجسر . — ميثاق 1943 لماذا كان ؟ وهل سقط . — بيروت، 1978. — ص 41

– يعين المتصرف على القيام بمسؤولياته مجلس إدارة ينتخب أعضائه سكان الجبل على أن يكون هذا الانتخاب معيّراً عن التنوع الطائفي. هذا الشرط لن يساعد على التخفيف من حدة الطائفية في الجبل نفسه.

– يقوم بحفظ الأمن العام في المتصرفية فرقة من الحرس الجبليين يشرف على تنظيمهم مدرّبون فرنسيون¹⁹

ولسوف يقع تنقيح هذا القانون الأساسي في 6 سبتمبر 1864 فتضيف إيطاليا توقيعيها عليه. إنّ ستين سنة إلا قليلاً من حكم الجبل حكماً ذاتياً (1861 – 1915) أشرف عليه حكام مسيحيون بضمانة من الدول العظمى ستعمّق الفروق بين الجبل وبقية مناطق الشام بحيث تصبح إمكانية ضمّه قسراً إلى كيان شاميّ موحد بعد هذه الفترة الطويلة من باب الادعاء المحض خاصة إذا كان القائلون بهذه الإمكانية لا يملكون قوّة حقيقية تفصل في المسألة.

لقد وافق خروج متصرفية لبنان سنة 1861 عن الإدارة العثمانية المباشرة اعتلاء السلطان عبد العزيز العرش خليفة لأخيه عبد المجيد ويبدو أن الاستقلالية المسيحية المتنامية في البلقان والشام قد غيرت نظرة السلطان الجديد إلى التنظيمات فـ «في الوقت الذي وقع فيه طرد حتى المسيحيين العثمانيين من الإدارة²⁰ ازداد التأكيد على الطابع الإسلامي للإمبراطورية وعلى ضرورة الوحدة الإسلامية التي اتخذت شكلاً يمهد السبيل للنظريات الإسلامية التي ستنتصر في العقد اللاحق. ففي زمن خلافة عبد العزيز وقع بقوة خاصة تطوير الفكرة القائلة إن السلطان العثماني ليس رئيساً مسلمي الإمبراطورية فحسب وإنما هو كذلك الخليفة بالنسبة إلى كلّ المؤمنين وهو، وهذا هو الأمر الجديد، وريث الخلفاء الأوائل²¹»²².

¹⁹ Lyné -Lohéac. - Daoud Ammoun et la création de l'Etat libanais. - Paris, 1979. - p.189

²⁰ هذه إحدى علامات التناقض في سياسة السلطنة فمنع المسيحيين من الاشتغال في القطاع العمومي يحوّلهم، ضرورة إلى القطاع الخاص المعادي، طبيعة، لمركزية الدولة.

²¹ قد يكون من مبررات هذا الاتجاه قضاء بريطانيا في الهند على إمبراطورية المغول الإسلامية وحاجة المنود المسلمين (الباكستانيين فيما بعد) إلى مرجع ديني

²² برنارد لويس. - الإسلام واللايكية، ص 114

وقد صاحب هذه السياسة الجديدة سعي نحو استعادة السلطان المكانة التي كانت له قبل إعلان التنظيمات الأولى :

«كان عبد العزيز أول سلطان عثماني زار أوروبا وكان يرافقه الوزير فؤاد باشا المعروف بأصالة الرأي والبداهة في الجواب. وبعد انقضاء زمن على عودة السلطان عبد العزيز إلى عاصمته لم يجد وزرائه ووكلاء الدولة في رحلته إلى أوروبا، أثرا يدل على إمكان تنازله عن بعض صلاحياته المطلقة إلى مجلس الوزراء المسؤول عن إدارة الدولة»²³

ما هو مجال المبادرة الذي تبقى لمهندسي التنظيمات فؤاد باشا وعالي باشا بعد أن قرّر السلطان التراجع عن سياسة أخيه المتفتحة ؟ وهل يمكن للسلطنة حقيقة، أن تتراجع عن اتفاقيات ملزمة عقدتها مع قوة عظمى حليفة مثل بريطانيا ؟ وما هي الدوافع الحقيقية إلى مثل هذه السياسة الجديدة ؟ هل هي دوافع ذاتية كما يوحي بذلك كلام برنارد لويس أم أنّ القضية، إن غيرنا وجهة النظر، أعقد من ذلك بكثير؟

لن نجيب عن هذا السؤال الذي كان سببا في انشطار النخبة العثمانية إلى مقاومين لعبد العزيز ولمهندسي التنظيمات على اعتبار أنهما يدا عبد العزيز في انتهاج هذه السياسة (جماعة مصطفى فاضل) وإلى أنصار لرجلي التنظيمات (جماعة «زهرة الآداب» وجماعة «الجمعية العلمية السورية» وكذلك مدحت باشا) يرون فيهما، على الأقل، شكائم تعوق جموح عبد العزيز السياسي. وفعلا فلقد نشط رجلا التنظيمات، في عهد عبد العزيز، في مجالات ثلاثة تتصل بموضوعنا أولها مواصلة إصدار القوانين المنظمة للإدارة وإنشاء المؤسسات التعليمية المختلفة وثانيهما الحد من آثار الحرب الأهلية الشامية باتخاذ إجراءات حازمة ضدّ المقاومين للتنظيمات سواء داخل الإدارة أو خارجها وثالثها تشجيع الجمعيات الشامية المستندة إلى الشعار الماسوني «الدين لله والوطن للجميع» المستند، بدوره، إلى قولة محمود الثاني الماثورة .

نذهب هذا المذهب في تفسير الأحداث استنادا إلى ما كتب خصمهما الفاضلي ولي الدين يكن الذي رأى في موت آخر مهندسي التنظيمات، عالي باشا، سنة 1871 كارثة حقيقية :

«أتى عبد العزيز وقد تخلّص من عالي وفؤاد بموتهما واستخلص لنفسه محمودا نديما المعروف عند العثمانيين بـ(نديموف) وإنّما سمّي بذلك لأنه كان صنّيعا أغنايف وأول

²³ يوسف الحكيم . — سوريا في العهد العثماني، ص 20

من جعل السياسة الروسية رابحة في المابين فانطلق هذا الخوون في زمان صدارته يرتكب الموبقات ما لم يسبقه إليه سواه. استغوى السلطان عبد العزيز حتى أغواه وحارب به الحرية والأحرار»²⁴.

كان الفاضليون يشكون من سياسة «الوزير فؤاد باشا المعروف بأصالة الرأي والبداهة في الجواب» لأنهم يختلفون معه حول سرعة نسق التغيير فجاءهم نديم باشا الذي «انطلق في زمان صدارته يرتكب الموبقات ما لم يسبقه إليه سواه» ممّا ولد عندهم حنينا إلى عهد سابق طالما أشبعوه نقدا وتجريحا. وهذا، في نظرنا، هو أحد وجوه مأساة الدولة العثمانية.

ونحن لا نعتقد أن ولي الدين يكن، الذي دمره السجن والأفيون فسببا حقا لا مزيد عليه، عنده، على المحافظين قد جنح إلى المبالغة في وصف «محاربة نديم باشا الحرية والأحرار» إذ نعرف معاملته لجمال الدين الأفغاني عندما حاول الاستقرار بالآستانة أول مرة كما أننا نعرف سلوكه إزاء رزق الله حسن الحلبي، موضع ثقة فؤاد باشا، إذ اتهم في عهد الصدر الجديد بمدّ يده إلى واردات نظارة جمارك التبغ وسجن بسبب ذلك ولسوف يقع الإعلان في زمنه في أكتوبر 1875 عن تخفيض دفع فوائض الدين العمومي كما أن أحمد مدحت باشا سوف يخلقه، لمدة شهرين سنة 1876 في الصدارة العظمى. وأحمد مدحت باشا (1822 - 1883) هو أكثر العثمانيين الفتيان شدياقية لذلك نغر منه المحافظون نفور الحياة من الموت.²⁵ ولد أحمد مدحت باشا في اسطامبول في عائلة قضاء وانضم إلى الإدارة وهو في سن العشرين (1852) ثم أرسل للتربص في أوربا فعاد منها سنة 1858 ليشغل مناصب سامية في سلطنة عبد العزيز سواء في البلقان المتمردة باستمرار (1864) أو في ولاية بغداد (1869 - 1872) أو في ولاية دمشق (1879) ممّا مكّنه من الاطلاع الحي على أوضاع السلطنة ودفعه إلى تبني الفلسفة العثمانية في أكثر جوانبها راديكالية فلقد كان يختلف عن التيار الفاضلي المعارض في أمرين أساسيين هما الإيمان بضرورة التركيز على تغيير البنيات الاقتصادية والذهنية الداخلية للمجتمع وثانيهما تجريم السياسي وعدم استبعاد العنف

²⁴ ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول، ص 36

²⁵ قال عنه محمد عبده لويلفرد بلانت «أما من ناحية كونه مصلحا فقد كان ضحلا ومتأوربا بأسوأ معنى» و «كان رجلا مندفعاً لا يعرف الحذر ولا سيما مع كؤوسه لأنه اعتاد الشراب، وكان هذا هو سبب سقوطه» (محمد عبده

سلسلة الأعمال المجهولة - لندن، 1987، ص 129)

في التغيير. ولذلك سيتبنّى التيار الرضائيّ وامتداده التيار العثمانيّ الاتحاديّ تفكيره وسلوكه الصارم « والدليل على ذلك هو ما قام به الأحرار بعد انقلاب 1908 وخلع السلطان عبد الحميد، آخر سلاطين الحكم المطلق من إحياء ذكرى مدحت باشا وتحيّة روحه والإشادة بفضله على الأُمّة وتكنيته بأبي الأحرار وبأبي الدستور »²⁶ ودليل ذلك أيضا إهداء العثمانيّ الاتحاديّ سليمان البستاني كتابه « عبرة وذكرى » « إلى روحك الطاهرة يا رجل الحرية » مثلما أهدى العثماني الفاضليّ الائتلافي وليّ الدين يكن كتابه إلى الأمير الماسوني مصطفى فاضل.

كتب كوتلوف عن سياسة الوالي أحمد مدحت باشا في العراق، مهما قضية اعتياده الشراب ممّا كان « سبب سقوطه »:

« كان السكان المسلمون في العراق متخلفين كثيرا من حيث تطوّرهم الثقافيّ عن أبناء وطنهم الآخرين من المسلمين واليهود²⁷ وقد تمّت الخطوة الأولى على طريق تحديث الحياة الاجتماعيّة لمسلمي العراق في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر وكانت مرتبطة بأعمال مدحت باشا عندما كان حاكما عاما للعراق »²⁸.

أمّا سليمان البستاني الذي كان يرى في مدحت ما يقرب ممّا كان هيجل يرى في نابليون فقد كتب عنه :

« تولّى بغداد قبل عهد الاستبداد سنة 1870 وكانت الإدارة مختلّة والقبائل ثائرة والماليّة ناضبة وليس في البلاد شيء من معاهد العلم والصناعة فوجّه نظره إلى توطيد دعائم الأمن فسار بنفسه للضرب على أيدي رؤساء العشائر الهنديّة والدغارة فأخذ من أخذ بالقوّة وسكّن روع من بقي باللين والمجاملة وسيرّ البعوث إلى قبائل المفتك و الأحساء و القطيف فدوّخ العصاة وأمن الطائعين ولمّا استقرّ له الأمر وساد الأمن انثنى إلى الشؤون الداخليّة فأصلح إدارة الحكومة ونظّم المحاكم وأوجب أن لا يكون أحد من عمّال الحكومة من صنائع

²⁶ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، ص 55- 56

²⁷ تخلف المسلمين العراقيين كان أحد أسباب توجههم المكثف نحو الجيش (وسيكون ذلك شأن العلويين في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية) مما سيجعل منهم نواة تمرد 1916 والعامل الحاسم في فشل الدولة الفيصلية في سوريا التي كثر فيها السياسيون مقارنة بالعسكريين

²⁸ كوتلوف . - تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي . - ص 236

الوجهاء»²⁹ ثم «إنّ المهندسين الأوروبيين الذين استقدمهم خاصة لوضع مشروعات الإصلاح وضعوا التقارير الوافية عن كل وسائل السقي وتجاوزوا إلى ما وراء ذلك بوضع الخرائط لكل الشؤون الزراعيّة»³⁰.

ويتحدّث العربيّ الارثوذكسيّ يوسف الحكيم عن سياسته في سوريا على النحو التالي :

« نقله (عبد الحميد) إلى ولاية سوريا سنة 1879 وقد سبقت إليها شهرته قدومه فكان الوالي المصلح. ومن أحباره التي يتحدّث عنها السوريون نقلا عن آبائهم وجدودهم الحوادث التالية :

أولا بعد وصوله إلى دمشق أراد توسيع الشارع المستقيم الممتدّ من باب الجابية باتجاه الشرق مسافة ميل تقريبا فعارضه مالكو العقارات القائمة على جانبيه من مكاتب ومخازن وحوانيت ملتسمين بقاء ما كان على ما كان. ولم يمض على ذلك سوى القليل من الأيام حتى فوجئ الأهلون ليلا باشتعال النار في عدّة نقاط من الشارع اشتعالا قضى تلك الليلة على ما بقي في تلك العقارات من بضاعة وأموال ولم يتمكّن أصحابها من نقلها وإنقاذها. ثم أعيد تنظيم الشارع بضعف عرضه السابق وأعيدت الأبنية إلى جانبيه بأحسن ممّا كانت عليه ويسمى الشارع من ذلك الحين سوق مدحت باشا وقد شاع فورا بين الخاصة من الشعب أنّ الحريق قد جرى بأمر من الوالي بغية التنظيم السريع.

ثانيا حين رأى دمشق مكتظةً بالجوامع والمساجد أمر بتحويل جامع «تنكز» الفخم بينائه واتساعه وحسن موقعه إلى مدرسة عسكريّة فنقّذ أمره بدون تأخير ودعا على الإثر وجهاء دمشق وأقنعهم بأن يرسلوا أبناءهم إلى هذه المدرسة فيضيفون إلى نجاتهم العلوم العسكريّة والمدنيّة معا، وبذلك يتيسر لهم الاحتفاظ بوجاهتهم وكرامتهم وحكم بلادهم بالطرق الدستورية. لبّى بعض الوجهاء هذه الدعوة وكان في مقدّمة خريجيّ المدرسة العسكريّة المذكورة رضا باشا الركابي»^{31 32}.

²⁹ سليمان البستاني . - عمرة وذكرى. - ص 131

³⁰ سليمان البستاني . - عمرة وذكرى، ص 196

³¹ رضا باشا الركابي : من غلاة العثمانيين الاتحاديين بعد استيلاء هؤلاء على الحكم سنة 1909 فأتيا نصّح أحمد

جمال باشا عند بداية الحرب الكبرى بإعدام محمد كرد علي لماضيّه العثمانيّ الاتنلافيّ ثم تمارض سنة 1916 عندما بدأت

من الشواهد المتقدمة تظهر صرامة أحمد مدحت باشا في التغيير وعداوته للمظاهر ومنها الإكثار من بناء المساجد في سلطنة مقلسة ماليًا ونفسيًا. ولا يمكن للمرء وهو يقرأ هذه الشواهد ألا يحسّ بقرب شخصيتي العثمانيين الاتحاديين أحمد جمال ومصطفى كمال من شخصية أحمد مدحت باشا. فعند هذا الثلاثي لا تمثل السياسة حرفة ولكنها تمثل الحياة ذاتها. على أن أحمد مدحت باشا كان يرى أن إجراءات مثل التي كان يتخذ هي إجراءات فردية لا يكتب لها النجاح إلا بتقييد السياسيّ ممثلًا في السلطان والوزراء فلقد صرّح للسفير البريطاني سير هنري اليوت «ريف 1875» «إن الإمبراطورية تسير بسرعه نحو الخراب...»³² وإنه لا يرى علاجًا لذلك في غير ثلاث وسائل أولاهها ضرورة خضوع السلطان للمراقبة وثانيتهما أن يصبح الوزراء وخاصة فيما يتصل بالمسائل المالية مسؤولين أمام مجلس وطني حقيقي لا اعتبار في تكوينه للفروق الطبقيّة أو الدينيّة وثالثتها اتباع سياسة لا مركزيّة وإخضاع الولاة لمراقبة محلية في الولايات»³³ أي اعتماد نظام قريب من الفيدرالية.

أهم ما يلاحظه المرء في برنامج مدحت المتقدّم هو جمعه بين النمطين الفرنسي والأنكليزي في الحكم : فهو إذا كان يقول بالمركزيّة، هذه الخاصية الفرنسيّة التي تجعل من باريس قلب الجسد الفرنسيّ، فإنه يتحدث كذلك عن «إخضاع الولاة لمراقبة محلية في الولايات» ويتحدّث عن مجلس تشريعيّ وطنيّ عثمانيّ يمثل كلّ العثمانيين مهما كانت انتماءاتهم الطبقيّة أو الدينيّة. والنقطة الأخيرة على غاية من الأهمية، في نظرنا، لما بيّناه في الفصل الأول من أوضاع المسيحيين «أهل الذمّة» ومن وضع المسلمين الذين يعيشون، حقيقة، وضع أهل الذمّة (الدروز، المتأولة، النصيريين...) وبرنامج مدحت حرّي بإذابة عقلية القرون الوسطى التي ما زالت حيّة والتي تجعل جهلا كاملا فكرة الوطن بالمعنى الحديث للكلمة. هل كان يمكن لبرنامج مدحت «لو تحقّق» أن يقود إلى مصير غير المصير الذي ستعرف السلطنة فيما بعد ؟ لسنا ممن يجدون لذّة فكريّة في «المضاربات» الفكرية. فما يهمّنا هنا هو أن العثمانيين الجدد، بتوجيه من مدحت وأوساط قريبة منه في الحكم، قد فرضوا هذا البرنامج بعد قتل عبد العزيز عندما نصبوا واحدًا منهم، وهو الأمير مراد

علامات الهزاع العثمانيين في الحرب وانتمى إلى «العربية الفتاة» وكان له دور في الأحداث اللاحقة سواء في سوريا أو في إمارة شرق الأردن زمن عبد الله.

³² يوسف الحكيم . — سوريا في العهد العثماني، ص 54

³³ برنارد لويس . — الإسلام و اللائكية، ص 274

الخامس، سلطانا لمدة قصيرة ثم اضطروا إلى تنصيب عبد الحميد خليفة له فانقلب عليهم وعلى برنامجهم.

يروي ولي الدين يكن بأسلوب قصصي، في نظرنا، يقلص إلى حد كبير من أبعاد المسألة، انقلاب عبد الحميد الثاني على الدستوريين وعلى مدحت بشكل خاص :

« وكان مدحت أخذ عليه (يقصد على عبد الحميد) عهدا بخطه أن لا يحيد عن أسلوب الدستور وأن لا يستبد برأيه فرضي بذلك ساكن « يلديز » وأصدر إرادته بإنفاذ القانون الأساسي الذي كان اشترك في تحريره كمال بك وضيا باشا (...) وفتح مجلس الأمة في سنة 1877 إلى أن ثبت قدمه. وكان اسم مدحت يكاد يطغى على اسم السلطان فديت في فؤاده نيران الحسد وأكبر أن يعلوه أحد رعيته مجدا وسؤدا ويسلبه محبة الأمة ولا يدع له من الملك إلا تاجا أذهبت تألقه الأيام وأبلت جدته العصور فاضمر له الشر. ولكن كيف يقوى على ذلك ومعه رقيبان لا يغفلان عنه ولا تسام ذمتاهما بأعلى المهور، وهما كمال بك وضيا باشا وكانا جعلنا مستشاريه ومراقبيه. فدعا مدحت ذات يوم إلى قصره وقال إن وجود رقبين عليه يخفض جانبه ويذهب بهيبته ويحقره في أعين أمته. ولعبد الحميد في مثل هذه المضايق حيل لاتخذ له. ومدحت وإن عرف بسعة العقل وخلاص الطوية وكثرة التجارب لم يكن من نظراء عبد الحميد في مكايده فدخلت عليه الحيلة ورضي بما نوى سلطانه واستكان. وما لبث السلطان العثماني أن استطار « كمالا » و « ضيا » كلا إلى بلدة يحتكمها ظاهرا ويبببت عانيها باطنا. واستشعر مدحت بعاقبة الأمر وكاد يقضي ندما ولات ساعة مندم. ظفر الجبار أول ظفر وهدم سدين قويين بينه وبين الاستبداد »³⁴.

لقد ذكرنا قبل إيراد الشاهد أننا إزاء أسلوب قصصي يقلص إلى حد كبير من أبعاد المسألة ولم نقل إنه يزيّف الحقيقة التاريخية. وقلنا هذا يفسره ما تثبت التجارب القديمة والمعاصرة من صدق الصورة التي رسمها يكن لتطور العلاقات بين المتسلطين على السلطة عقب الانقلابات الفوقية التي لا دخل للشعوب في توجيهها.

ففي مثل هذه الانقلابات كثيرا ما يحدث أن يصفى واحد من الانقلابيين أصدقاءه القدامى وينفرد بالسلطة بعد اجتهد كبير إمّا في تشويه صور أصدقائه القدامى وأعدائه اليوم وإمّا في تصفيتهم جسدياً. ومثل هذا السلوك الذي لا يسمح به إلا غياب المراقبة الاجتماعية كثيرا ما يتواصل على مستوى أشمل يطال كل من بإمكانهم أن يذكروه بعهد ما قبل سيطرته

³⁴ ولي الدين يكن، المعلوم والمجهول، صص 40 - 41

أي بعهد «عبوديته» للسلطة السابقة. ومن هنا يشهد المجتمع عملية غسل دماغ حقيقية. هذه السياسة اللاأخلاقية وقصيرة النظر لا نشك أن عبد الحميد الثاني كان معبراً سيء السمعة عنها.

ولكن مأخذنا على صورة يكن هذه إنما هو ناتج عن ردّ سعي مدحت لإقرار الدستور وانقلاب عبد الحميد عليه إلى «نيران الحسد» أي إلى أسباب شخصية وهو بذلك يصبح كمن يتحدث عن شجرة وهو لا يتبين الغابة الكامنة وراءها وهي هذه الطبقة المحافظة والتقليدية التي تعتبر إقرار دستور 1876 وتطبيقه فعلياً وصولاً بتنظيمات 1839 و 1856 إلى مداها الأبعد أي الميدان السياسي ولقد حاربت هذه الطبقة التنظيمات منذ البداية وليس بإمكانها اليوم أن لا تردّ الفعل على عملية الإجهاز النهائي على دورها التقليدي.

إن هذه الطبقة هي التي دفعت عبد الحميد بصفته سلطاناً (بل خليفة) إلى إلغاء الدستور ومطاردة دعائه ولقد استماتت في الدفاع عنه لأنه (بصفته خليفة) هو وحده القادر على القيام بهذه الدور إذ هو الحائز عند عامة الناس على هذه الهالة الدينية التي تساعد على شلّ حركات المعارضة في مجتمع زراعي ديني ما زالت للماضي فيه سطوة على العقول. فسّر برنارد لويس «اطمئنان» العثمانيين الجدد قبل 1876 إلى عبد الحميد «بتقيته» فإلى أي مدى يصحّ الحديث عن «تقية» الأمير عبد الحميد قبل توليه السلطة؟ وكيف أمكن للعثمانيين الجدد فاضليين ومدحتيين أن ينخدعوا بمظهر الأمير الفكري؟

يبدو في نظرنا أن الأمر لا يتعلق بـ «تقية» الأمير عبد الحميد وإنما بحاجة العثمانيين الجدد إليه من ناحية وثقتهم المبالغ فيها بالنفس من ناحية ثانية والتي وصلت حدّ الاعتقاد أنه يمكنهم أن يستغلّوا موقعه باعتباره خليفة لنشر الفلسفة العثمانية والتمكين لها في المجتمع.

فهم قبل أن ينصبّوه خليفة اختاروا عليه مراداً وكان هذا الأمير آخذاً بالفلسفة العثمانية ولكن مرضه حال دون بقائه في الحكم.

لقد اضطرّوا، إذن، إلى تولية عبد الحميد اضطراراً وقد اشترطوا، مع ذلك، شروطاً على عبد الحميد وأحاطوه بمستشارين من أشهرهم نامق كمال.

كانوا يعرفون حقّ المعرفة تكوين الأمير ونفسيته ونوع تفكيره وكانوا بسبب هذه المعرفة بالذات يطمحون إلى أن يجعلوا منه «خليفة يملك ولا يحكم».

لن نتعرض للأحداث التاريخية التي انتهت بانقلاب السلطان الجديد على العثمانيين الجدد وتعطيل الدستور وامتحان من ولّوه الحكم لأن ما يهّمنا بالدرجة الأولى هو بيان تفكير عبد الحميد الاجتماعي والسياسي وما نتج عن سياسته التي وصفت بـ « السياسة الإسلامية » من تجذّر حركات المعارضة وتكاثر القوى النابذة التي أدّى ضغطها، مضافاً إلى العوامل الخارجية، إلى تمرد الجيش الثالث في البلقان سنة 1908.

يفرط المؤرخون لفترة عبد الحميد في الحديث عن « إسلاميته » ويميل البعض منهم إلى أن ينسب إلى الإسلام ما يجب أن ينسب إلى قراءة معينة للإسلام وإلى سياسة تتشبّه تمكينا لهيمنتها على المجتمع بما أَدعى مثقفوها أنه الإسلام القويم. ونحن لم نعد عند تعرضنا لتفكير الشدياق إلى الاستشهاد بسبينوزا باعتباره أحد رواد النظرية الحديثة وبسينو وبوسويه باعتبارهما معبرين عن النظرية التقليدية إلا لقيام هذه الدراسة على تصنيف لا يعتمد التقابل الديني وإنما التقابل بين نظرتين إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثمّ إلى علاقة الدولة بالمجتمع. ومن وجهة نظرنا هذه لم نجد فرقاً يذكر بين السلطان عبد الحميد و « الشيخ » أو بين أنصار سياسة عبد الحميد وأشهرهم شكيب أرسلان من جهة وسينو وبوسويه من جهة ثانية. كيف كان عبد الحميد ينظر إلى المجتمع العثماني الذي بيّنّا في الفصل الأول مدى تنوّعه وكيف كان إسلاميو عبد الحميد ينظرون إليه؟

كان عبد الحميد يرى أن المجتمع العثماني الذي سيعدّ عند نهاية حكمه اثنين وعشرين مليوناً من العثمانيين يوجد من ضمنهم ثمانية ملايين من المسيحيين مجتمع « قاصر » لا يصلح أمره إلا إذا ظلّته عناية أبوية يقظة :

« إن الأوروبيين يقيسون الأمور (في السلطنة) وفق معطيات أوروبية وهل يعلم الأوروبيون بحاجات مجتمع على مستوى بسيط من الحضارة ؟ وهل يعرفون مبلغ فقر البلاد، وأن أي نقص يطرأ على المحاصيل سيؤدّي إلى المجاعة. نحن سعداء إذا استطعنا تأمين حاجات هذا المجتمع الغذائية. أما المدارس والمحاكم أما المؤسسات الأخرى الهامة فتأتي أهميتها هنا في مرتبة لاحقة. إن التطوّر السريع في مثل هذه الظروف الاقتصادية أمر مستحيل، وإصلاح خراب بدأ منذ قرن من الزمان مسألة صعبة »³⁵.

إن عبد الحميد يطرح في الشاهد في حقيقة الأمر قضية أساسية اعترضت من هم في السلطة ومن هم خارجها : ما النسق الذي يجب أن يكون عليه التطوّر ؟ النسق البطيء

³⁵ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية 1891 - 1908 . — سرور، 1977 . — صص 47 - 48

أم النسق السريع ؟ وما الوسائل التي يجب توخّيها لنجاح واحد من الاختيارين ؟ ولسوف يكون الاختلاف حول هذه المسائل سبباً أساسياً في انشطار العثمانيين إلى فاضليين ثم صباحيين ثم اثتلافيين وإلى مدحتيين ثم رضاويين ثم عثمانيين اتحاديين.

فصورة المجتمع عند عبد الحميد هي صورة «القاصر» في كل شيء ومن المنطقي أن تكون حاجات «القاصر» غير حاجات «الراشد» ومن هنا حصر عبد الحميد حاجات المجتمع في أقلّ ممّا ضمنته تنظيمات 1839 وهو الحرية الشخصية والمتمثلة في «عهد الأمان» على الوجود البيولوجي للإنسان (الأمن على الحياة والشرف والملكية) والتي حاربها حتى العثمانيون الفاضليون لأنها لم تتّسع فتشمل الحرية السياسية. كان الشدياق والعثمانيون الفاضليون والمدحتيون يطالبون بإقامة مجتمع يتصالح فيه «الشيخ» مع «الخود» وأراد عبد الحميد والمحافظون الذين يدعمون حكمه أن يعودوا بجرّة قلم إلى «الغزالي» وهو يعلن «إن الإمام واجب لأن نظام الدين واجب ولا يحصل نظام الدين إلّا بنظام الدنيا الذي يكفل بقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والسكن والأقوات وما أشبه»³⁶.

ف «السعادة» عند عبد الحميد تتحقّق، زمن الثورة الصناعية في أوروبا الغربية المجاورة والولايات المتحدة الأمريكية التي كثر المهاجرون الشوام إليها «إذا استطعنا تأمين حاجات هذا المجتمع الغذائيّة» وحتّى التعليم أصبح عنده من الكماليات فيكفي «الشيخ» أن يؤمّن (وكيف ؟) حاجات «الخود» الغذائيّة ليقول بـ «سعادتها».

مثل هذا التفكير الاجتماعي لا بدّ أن يكون له وجه سياسي ملائم :

«إنّني على رأس دولة ينفرط عقدها في اللحظة التي تضعف فيها إدارتها المركزيّة»³⁷. ولنسطر من الآن عبارة «الإدارة المركزيّة» لما سيكون لها من أهميّة في هذا الفصل وفي كلّ ما يتعلّق بالخلاف بين العثمانيين الاثتلافيين والعثمانيين الاتحاديين.

إنّ المركزيّة تعني من منظور هذه الدراسة ضرورة انشداد المجتمع إلى الدولة انشدادا كاملاً أساسه الطاعة لثنايّة تقول بـ«حكمة السياسي» و«قصور الاجتماعي» وفي أفضل الحالات عدم الاطمئنان إليه وهي لا تعني بالنسبة إلى القوميات المختلفة غير إذابة خصوصياتها:

³⁶ البرت حوراني . — الفكر العربي، ص 26

³⁷ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية . — ص 56

« إن أكبر الأخطاء التي ارتكبها أسلافي من الحكام الأتراك هو عدم سعيهم لصهر العنصر السلافي و عثمانته »³⁸ وفي هذا الكلام قبر لقولة محمود الثاني الشهيرة وتجريم للتنظيمات عموما ولل فكرة العثمانية خصوصا أي في هذا الكلام عودة إلى ثنائية دار الإسلام ودار الحرب وثنائية المسلم والذمي وهذا يقتضي فكريا الاستناد لمحاربة الفكرة العثمانية ، إلى تفكير الغزالي. فلقد اجتهد الغزالي في مقاومته للفلاسفة المسلمين الآخذين ببعض آراء الفلاسفة الإغريق في التأسيس لفكرة الصراع شرق - غرب وفكرة الأنا والآخر المتقابلين عندما كتب:

« وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقرات وأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم (...) فلما قرع ذلك سمعهم (...) تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا إلى غمار الفضلاء بزعمهم وانخرطوا في سلوكهم وترفعوا عن مسaire الجماهير والدهماء واستنكافا من القناعة بأديان الآباء »³⁹.

فالمقابلة عند الغزالي بين الغربيين (سقراط...) والآباء واضحة كما أن تنديد عبد الحميد بتبعية رجال التنظيمات المسلمين الفكرية هو أكثر وضوحا :

« يدعي فؤاد باشا أننا تخلفنا عن باقي الأمم في المجال الفكري أيضا. ولعل هذا الرجل قد دخل في نفسه بعض أوصاف الكفار، وإلا فكيف ينسى أن الصراع الفكري لا يؤدي بالإنسانية إلى السعادة »⁴⁰. هذه المقابلة التي سيعمد إليها عبد الحميد طمسا منه لمعالم الصراع السياسي بين الآخذين بنظرة حديثة إلى العلاقة بين الدولة والمجتمع والآخذين بنظرة تقليدية ستقوده إلى الدعوة إلى ما يشبه « الاكتفاء الذاتي » الثقافي الذي سبق أن جربه نيكيتا الأول في روسيا فباءت سياسته بالفشل⁴¹:

« علينا أن نترك الحضارة الغربية لنصارها وألا نحسد على هذه الحضارة »⁴².

تفكير عبد الحميد واضح إذن :

³⁸ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية، ص 30

³⁹ أبو حامد الغزالي . — تهافت الفلاسفة، القاهرة، ط 7، 1987 . — ص 75

⁴⁰ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية، ص 54

⁴¹ ألغى الفلسفة كرها منه للثورة الفرنسية وشجع على دراسة اليونانية واللاتينية وأكثر من المعاهد التقنية والعسكرية

في عهده حكم بالإعدام على دستويفسكي (غير الحكم) لأسباب لا تبرر مثل هذا الحكم . وكان من نتيجة هذه السياسة أن ولدت... القوضوية.

⁴² عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية . — ص 55

إنّه يعتبر أنّ من يتمردون على مفهوم الطاعة غير المشروطة التي يقوم عليها المجتمع التقليدي هم «خونة» بالمعنى اللائكي للفظ و«كفرة» بالمعنى الديني وبذلك أسس عبد الحميد للعبارة الاتهامية التي ستستعملها كل الدول حديثة التأسيس منذ خمسينات القرن العشرين في وصف معارضيه في الداخل والخارج فهم «مصادون في الماء العكر» وهم «بيادق تحركهم أياد خارجية» ومثل هذه العبارات تحيل على مفهوم «الشیطان» ومفهوم «السببية العمودية» اللذين يستند إليهما التفكير التقليدي ولا تحيل من قريب أو بعيد على العوامل الداخلية التي تسبب موقف «الخود» من «الشيخ» وتدفع «من تميل إلى الهوى (إلى أن) تترك أباه وأمه اللذين ولداها ورباها وتقبل تجري في أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئا سوى كونه ذكرا»⁴³.

هذا التفكير الحميدي أطلق عليه البعض صفة «الإسلامي» مثلما أطلق على سياسة عبد الحميد صفة «الإسلامية» فلنعرّف إذن الإسلامية ولنبيّن ملامح سياسة عبد الحميد الإسلامية داخل السلطنة وخارجها.

الإسلامية هي نظرياً الدعوة إلى إقامة دولة مادتها جماعة المؤمنين دون غيرها من الرعايا وهي تستند بذلك إلى مفهوم الأمة الإسلامية «وجذر الأمة هو أمّ. وهذا هو الاسم الذي يطلقه القرآن على مكة، أم القرى، فالأمة، هذه المؤسسة القرآنية الدينية، هي جماعة المؤمنين الذين يسكنون دار الإسلام، دار السلام، في مواجهة دار الحرب التي يسكنها من لم يأخذوا بكلام الله. إنّ الولاء فيها ديني ومادتها كل المسلمين مهما اختلفت أجناسهم (...) والأمة تمثّل الإسلام الذي أصبح غير العرب فيه يشكّلون منذ نهاية القرن الأول الهجري الأغلبية»⁴⁴.

وبهذا المعنى تصبح الإسلامية دعوة إلى ولاء لا تقبل به الفكرة العثمانية أو العروبية الإسلامية التي لا تقرّ بالولاء إلا لدولة «الإسلام العربية» أو التتارية الإسلامية التي تقول شأنها في ذلك شأن العروبية الإسلامية بالخصوصية التركية حتى لا نتحدّث عن القوى القومية الصرفة النابذة. ومع ذلك فقد بدت الإسلامية في بداية الأمر طاقة جذب تحمّس لها كثير من أعلام المسلمين الذين شرعوا منذ بداية حكم عبد الحميد يلوّحون بعدد المسلمين في مقاومة خصومهم لا بـ «فاعليتهم المادية والعلمية والتقنية». وهذا التلويح بالعدد هو أحد

⁴³ الشدياق . — الساق على الساق، ص 127

⁴⁴ شارل رزق. — بين الإسلام والقومية العربية، ص 18

سمات النظره التقليديّة = العدد الظاهر لا الفاعليّة أي مظهر المجتمعات لا بنيته الداخليّة. ولسوف تزخر حاشية عبد الحميد بأعداد كبيرة من رموز الإسلاميّة جاؤوا من كل حدب وصوب وعاشوا من نفقات خزينة مفلسة منذ 1875 لن تقاربها كثرة إلاّ الأعداد الهائلة من اللاجئين إلى خارج السلطنة رفضا لهذه السياسة.

فسياسة عبد الحميد الإسلاميّة هي إذن سياسة تنبع من نظرة تقليديّة إلى علاقة الدولة بالمجتمع وتطمئن إلى المظاهر اطمئنان الشدياق إلى ما هو خفيّ وغير ظاهر و مسكوت عنه. ونحن لم نر من بين العثمانيين المعارضين مفكراً عبّر عن تهافت هذه المظاهر تعبيراً اقترّب من بلاغة وليّ الدين يكن :

« كان المفطر منهم في رمضان يزجّ في السجن والقاتل مطلق السراح يمشي في الأرض مختالاً »⁴⁵.

وكتب عن غزو مظاهر التديّن القضاء الاجتماعيّ في الآستانه نفسها :

« غمّ ذلك الصفاء (يقصد الصفاء الذي كان سائداً قبل سياسة عبد الحميد الإسلاميّة) أهل الدين وأهل التعصّب، من يعمرّون المساجد ليستغنوا بها عن تكاليف المنازل فيتخذونها مساكن ويشيدون الزوايا والتكايا ليصيبوا فيها مآكلهم وأقواتهم فهبوا يغالبون المخلوق باسم الخالق وأنت الدولة الحميديّة وسيّد صرحها الممرّد (يلدين) فوجدوا منه أكتافاً موطّأة للمزاحمين وآذاناً سمّية للواشين. قالوا = النبيّ يأمر. قال: وأنا خليفته أفعل. قالوا الدين يفرض. قال: وأنا حاميه أقوم بما فرض. وماذا فعل لا درّ درّه ؟

جعل بيوت الحكومة كالمساجد ترنّ في سلالها أصوات المؤذنين وصيّر المكاتب (يقصد المدارس) كالمدارس الدينيّة تقام فيها الصلوات وتقرأ كتب الدين ويزرع التعصّب في قلوب الشباب فتنمو معه نفوسهم وترسخ عليه طبائعهم »⁴⁶

في الشاهدين المتقدّمين تجاوز للشدياقية أي تجاوز لمفهوم الجلاّد / الضحية وتجريم للسياسيّ وحده. فلقد تقلّصت ملامح الضحية في الجلاّد الذي بدا واعياً بما يفعل لأنّ حرصه على البقاء بصفته فرداً يفوق حرصه على خلاصه وخلاص السلطنة في نفس الآن :

⁴⁵ وليّ الدين يكن . — المعلوم والمجهول . — ص 50

⁴⁶ وليّ الدين يكن . — المصدر السابق، صص 49-50

« أعرف جيداً (...) أن رجال المباحث والمخبرين أناس سفلة عديمو الشرف وأن ديننا يلعن أهل الزور. إلا أنه لو لم يكن لي هذا الجهاز الكبير من المخابرات لكان مستحيلاً عليّ حماية نفسي من الأخطار المحدقة بي من كل جانب. أليس الحكّام والأباطرة الآخرون يتصرّفون كما أتصرّف؟ »⁴⁷.

الجلاد هنا خائف من كل من حوله ومن كل ما حوله ولذلك فهو الشرور المجسّد. وإذا كان الحكّام والأباطرة الآخرون، وهم ليسوا مسلمين، « يتصرّفون كما أتصرّف » فلم إذن نسبة هذه السياسة إلى الإسلام؟

إنها تنسب إلى الإسلام لأن هذه النسبة هي الحرية وحدها بإضفاء الشبهات عند العامة المسلمة على المعارضة العثمانية :

« من دواعي الأسف أن هؤلاء الشباب منقادون لما يدبره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين. إنهم يقدّمون شعارات برّاقة كتوعية الأمة وترقيتها بغية القضاء على النظام القائم وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرون خلت. وفي الحقيقة إنهم يريدون الإطاحة برجال دولتي المجرّبين وتولي زمام الأمور بأنفسهم »⁴⁸.

لقد وصلنا بفضل ما كتب ولي الدين يكن ممّا يقرب من « الكفر » بسياسة عبد الحميد الإسلامية وبقيادة عبد الحميد نفسه، إلى بيت القصيد وهو الصراع بين « السوء » والشباب المنقادين « على « امتلاك الخود » العثمانية التي تعيش حالة انكفاء جسدي اقتصادياً وعسكرياً ونفسي (انهيار أخلاقي) فلنبيّن إذن بما فيه الكفاية حالة « الخو- لتبيّن نوع الحلول التي تقترحها الدولة والمعارضة لإنقاذها .

وقع الإعلان عن إفلاس الخزينة العثمانية منذ 1875 أي حتّى قبل تولّي عبد الحميد الحكم بل إنّ من أسباب الإطاحة بعبد العزيز وحاشيته تحميلهم مسؤوليّة ما وصل إليه الوضع المالي في السلطنة والهزائم المتعاقبة في منتصف السبعينات.

«ومنذ 1881 أصبح يدير الدين العمومي جهاز فرنسيّ أنكليزيّ يتسلّم مباشرة جزءاً من الضرائب حارماً بذلك الدولة من أقلّ إمكانيّة لاستعادة أي استقلال اقتصادي في يوم من الأيام»⁴⁹

⁴⁷ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية، ص 72

⁴⁸ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية، ص 46

⁴⁹ (Jean Pierre Derriennic .- Le Moyen Orient au XX ème s .- Paris, A. Colin, 1980 p.18)

وقد تسبَّب هذا الوضع في فقدان القوى الاقتصادية البورجوازية المحليَّة الناشئة، حتى لا نتحدَّث عن القوى الاقتصادية التقليدية، كل إمكانية لبناء اقتصاد عثمانيّ تساهم في تحديد المشاريع فيه وتوجيهها :

« في بداية القرن العشرين كانت أغلب المؤسسات الصناعيّة النادرة (ثلثا السكك الحديدية مثلا) ملكا لأجانب لا يخضعون لرقابة الدولة ولا يؤدُّون ضرائب عليها»⁵⁰. وإذا كانت أغلب المؤسسات الصناعيّة النادرة ملكا للأجانب وكان جزء من الضرائب التي يدفعها العثمانيون للدولة العثمانية يحسمه صندوق الدين مباشرة فهل بقي هناك أمل في خدمات اجتماعية أو تعليمية يمكن أن تقدّمها الدولة التي تطمح إلى القيام بدور شبيه بدور «العناية الإلهية» لصالح المجتمع بل هل هناك إمكانية حتى لخلاص أجور الموظفين نهاية كل شهر ؟ إنَّ الجدول التالي حرّري بتوضيح ما سبق :

أرقام السنة المالية 1897 - 1898
ميزانية النفقات العامة : 18,4 مليون ليرة
المصاريف (بملايين الليرات)
تسديد الديون الحكومية : 7,2
الأغراض العسكرية = 6,3
وزارات المعارف والتجارة والأشغال العامة والبريد والتلغراف إلخ = 1,7

ولعلَّ ما كتب الخليفة عبد الحميد الثاني في تبرير الرشوة مثال آخر على هذا الوضع :

« حقيقة الأمر أنَّ بعض العادات التي كانت في أوروبا قبل عصور خلت، لازالت موجودة عندنا الآن، حيث لم تكن لدى الغرب كما هي حالنا الآن ميزانية رسمية، فكان الموظفون يسعون إلى تدبير معاشهم ما وسعهم أن يدبّروا (...) إذن فلا مجال لأن يحتدّ كتاب أوروبا لعادة موظفينا في قبول الهدايا. وقياس موظفينا على الموظفين الأوروبيين الذين يسندون أظهرهم على وضع ماليّ صريح ومنظّم قياس مع الفارق. فالموظف الذي يتهم بالالأخلاقية وقلة الشرف بسبب انتظاره الهدية لا يمكنه أن يعيش على الراتب الذي

⁵⁰ درينيك . — الشرق الأوسط في القرن العشرين، ص 18

يحصل عليه من دولتنا. لذا فإنه يرى المبلغ الذي تعطيه له الناس مقابل عمل يؤدّيه لهم وكأنّه حقّه الطبيعيّ، كما يعتبره الناس أمراً طبيعياً»⁵¹.

يوحي كلام عبد الحميد بأمرين أولهما أنّ تهمة فساد نظامه هي نتيجة «احتداد كتاب أوروبا» وثانيهما أنّ الرشوة محصورة في فئات دنيا من الموظّفين. ولقد كتب كوتلوف عن «رشوة» الخليفة نفسه =

«شغل عبد الحميد الثاني مكاناً خاصاً بين كبار الملأ الذين وسّعوا ممتلكاتهم من الأراضي في الولايات العربيّة في نهاية القرن التاسع عشر فقد باشرت إدارة الإقطاعات السلطانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بالاستيلاء المنظم على الأراضي البور الغامرة والمحروثة في كافّة الولايات العربيّة الخاضعة للإمبراطورية العثمانية»⁵².

ما ذكره كوتلوف من سعي عبد الحميد المحموم إلى امتلاك مزيد من الأراضي كان سعياً ميّز كلّ المحيطين به ولكنّ هذا السعي لم يمنعهم من أن يشهدوا تدهوراً في أوضاعهم الماليّة نتيجة سمة التراكم السريع الذي يحققه الرأس مال التجاريّ والبنكيّ والصناعيّ الذي كان أغلبه إذاك في أيدي البريطانيين والفرنسيين وخدمتهم من المسيحيين العثمانيين ولذلك يلاحظ المرء توازياً بين مقاومته لبريطانيا وفرنسا (وخدمتها المحليين) وتعاطفه المتزايد مع ألمانيا التي كانت حريصة على أن تبقى على «هالة» السلطان السياسيّة الدينيّة وأن تقتصر على التغلغل الاقتصاديّ، وهو أمر ما كان ليمثّل شاغلاً مؤرقاً في سياسة عبد الحميد الإسلاميّة. ورد في تقرير ألمانيّ رسميّ رفع إلى غليوم الثاني عام 1882 ما يلي :

«ما زال الشرق المنطقة الوحيدة البعيدة عن سيطرة الدول الأوروبيّة المباشرة. وإمكاناته الاقتصاديّة والبشريّة من السعة بحيث تجعله حقلاً مثاليّاً للاستعمار الألمانيّ، لذلك وجب أن نجدّ للسيطرة عليه قبل أن تمتدّ إليه يد الغير. لقد نالت فرنسا قسماً من العالم الإسلاميّ في إفريقيا الشماليّة وإفريقيا الغربيّة ونالت بريطانيا نصيبها منه في مصر والسودان وإفريقيا الشرقيّة والهند، كما نالت روسيا المناطق الإسلاميّة الواقعة على البحر الأسود وفي القفقاس. وللشعب الألمانيّ الحقّ كلّّه ليداعي (كذا) بنصيبه من هذا العالم. والدول الأوروبيّة تحاول اليوم أن تتقاسم ما تبقى من الإمبراطوريّة العثمانية فيعطى العراق لبريطانيا وأرمينيا لروسيا مع القسم الشرقيّ من آسيا الصغرى وتمنح سوريا لفرنسا وطرابلس

⁵¹ عبد الحميد الثاني . — مذكراتي السياسية، صص 40-41

⁵² كوتلوف. — تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، ص 53

الغرب لإيطاليا. وعلى ألمانيا بالاتفاق مع النمسا أن تحبط هذه المساعي بجميع الوسائل السلمية وغير السلمية. ومن هذه الوسائل التغلغل الاقتصادي في المنطقة. والعمود الفقري لهذا التغلغل أن ينشأ خط حديدي يتصل بسوريا والعراق عبر آسيا الصغرى. وعلينا ضمانا للنجاح أن نتقرب من الشعوب التركية والعربية وأن يكون فتحنا لهذه البلاد فتحا أدبيا واقتصاديا يصون مصالحنا بصورة أكيدة وسليمة»⁵³.

قليلة هي التقارير القصيرة الموجزة التي تتضمن ما تضمن هذا التقرير الألماني الباكر (1882) من تحليل للأوضاع الدولية ومن مشاريع اقتصادية ألمانية ووسائل لتحقيقها. ولكننا لن نستغل منه إلا ما بدا لنا أن له علاقة مباشرة بموضوعنا. لقد حدد التقرير الغاية من الاستعمار الألماني ووسيلة تحقيق ذلك. فغاية الاستعمار هنا «اقتصادية» ووسيلته سياسة صارمة إزاء «خصوم» السلطنة: روسيا وبريطانيا وفرنسا وهي كذلك سياسة عون عسكري وسياسي للسلطنة.

إن الفتح الاقتصادي الألماني لم يكن ليخيف عبد الحميد الثاني فلقد أصبحت «الخود» العثمانية مستعمرة اقتصادية بريطانية وفرنسية وأي استعمار جديد لن يكون في نهاية الأمر غير تبديل ما لك بآخر. وفضل الاستعمار الألماني هو أنه يحافظ، في نظر السلطان، على وحدة السلطنة ويحافظ على ما يرى أنه الشرط الوحيد لبقائها: الحكم المطلق.

إنه ما سمينا، عند تناول الشدياق بالدراسة، «وهم» امتلاك «الشيخ» «الخود» امتلاكاً فعلياً. ولقد توهم عبد الحميد أن عدم اقتسام كل السلطنة في عهده إنما مرده، لا إلى حقيقة التوازن العالمي الذي سينخرم في الحرب العالمية الأولى، وإنما إلى سياسته في ضرب قوة عظمى بأخرى:

«إذا هددته روسيا أسند منصب الصدارة العظمى إلى الوزير كامل باشا المعروف باتجاهه السياسي نحو موالاة الأنكليز حتى أن أخصامه السياسيين لم يأنفوا من تسميته «الأنكليزي»⁵⁴ وإذا أقبل سعيد باشا عرف العالم أن سياسة الدولة العثمانية اتجهت نحو

⁵³ اسماعيل عادل - السياسة الدولية في الشرق العربي - بيروت ج (4)، 1964 -، ص 113

⁵⁴ كامل باشا، شغل مناصب عليا على عهد عبد الحميد منها الصدارة العظمى وكذلك في الفترة الانتقالية جويلية 1908 - أبريل 1909. عاد إلى الصدارة العظمى عند طرد الاتحاديين من الحكم صيف 1912 واستدخل بريطانيا لمنع

الاتحاديين من امتحانه عند عودهم إلى السلطة في جانفي 1913

مؤالة فرنسا⁵⁵ كما عرف اتجاه خليل باشا إلى مؤالة روسيا وتوفيق باشا⁵⁶ ألمانيا مع بقاء ثقة السلطان ومعظم الأمة بإخلاص هؤلاء الأقطاب السياسيين كاملة لا يشوبها أدنى ريب بل تتعزز بالاعتقاد بحسن التدبير بإزاء ما يجري في ذلك العصر⁵⁶.

إن نمط الاستعمار الإنكليزي سار إلى زمن قريب أفضل أنماط الاستعمار عند المحافظين لأنه لا يكسر الأسس التي تقوم عليها المجتمعات الأكثر تقليدية ويكتفي بـ«امتصاص» ثرواتها على عكس الاستعمار الفرنسي الذي يميل، لتشيئته بـ«رسالة» تمدينية موروثية عن القرن الثامن عشر إلى أن يدمر «ثقافياً» البلدان المستعمرة. ولكن أنجلترا، وهي تنهج سياسة تعاطف مع العثمانيين (مصطفى فاضل ومدحت باشا على حد سواء) فقدت ثقة عبد الحميد فيها وأصبحت ألمانيا هي المؤهلة وحدها لتعويض الدور الإنكليزي. ولقد ضاعف من الجاذبية الألمانية الأدب السياسي الألماني الذي كان يصور خصوم ألمانيا أي في النهاية خصوم السلطنة في صورة يرتاح إليها كل ضعيف يود أن يقرأ عن خصومه كل ما يحول سمات التفوق عندهم إلى نقائص. فقد كان يمكن لعبد الحميد أن يعثر على صدى لكرهه لفرنسا عند فاقتر الذي كتب منذ 1849 إلى صديقه (أولش Uhlig) متحدثاً عن ثورات 1848 التي أطلقت عليها عبارة «ربيع الشعوب» :

« يمكنني أن أوكد لك أن الثورة الوحيدة التي ما زلت أومن بها هي هذه الثورة التي تبدأ بإبادة باريس بالنار»⁵⁷ أو أن يقرأ لـ (ترايشكو Treischke) في خصمي السلطنة روسيا وبريطانيا : «لقد كانت ألمانيا إلى الآن غير محظوظة فيما يتصل باقتسام العالم غير الأوروبي بين القوى الأوروبية. ومع ذلك فإن هذا الأمر يتعلق بوجودنا بصفتنا دولة كبرى عندما نتساءل إن كان يمكننا أن نصبح قوة عظمى في ما وراء البحار. وفي حالة النفي تظهر هذه الإمكانية المربعة، إمكانية أن تتقاسم روسيا وأنكلترا العالم. والمرء لا يعرف في حقيقة الأمر أيهما أكثر إماتة وفظاعة : السوط الروسي أو المال الإنكليزي»⁵⁸ أو لماكس فيبر Weber

⁵⁵ (سعيد باشا (1838 - 1914)، ولد بأرض الروم في عائلة علماء وأصبح صدرا أعظم في أكتوبر 1879 وبعد

ذلك عدة مرّات زمن عيد الحميد وأثناء الفترة الانتقالية. عاد بعودة الائتلافين إلى الحكم فترة قصيرة.

⁵⁶ (يوسف الحكيم . — سوريا في العهد العثماني، ص 38

⁵⁷ Jorg von Uthmann . - Le Diable est-il allemand ? Paris, 1984 . - p. 25

⁵⁸ Wolfgang Mommsen . - Max Weber et la politique allemande 1890-1920 . - Paris, 1985

الذي حضر، فيما يبدو، في برلين بعض الدروس التي ألقاها ترايشكو، و طالب بقيام أمة ألمانية ذات سيادة وتَفوق لا تشبه كثيرا أمة فيخته Fichte الثقافية :

«إنه لمن الخزي الذي لن يَمحي أن تعوز المرء الشجاعة على منع البربرية الروسية من ناحية والرتابة الإنكليزية من ناحية ثانية والهذر الفرنسي أخيرا، من الهيمنة على العالم»⁵⁹.

إن الأصابع الألمانية الفكرية تشير كلها إلى ما يشبه الخصائص الثابتة في الأمم الأوربية: عقلية المويك الروسية وعقلية الحانوتي الإنكليزية والميل الفرنسي المشط إلى التحذلق والفنقلة البلاغية .

لقد شجعت سياسة ألمانيا إزاء السلطنة عبد الحميد على خرق ما جاء في خط 1856 الهمايوني من ضمانات للحريات وعلى توخّي سياسة شدة إزاء معارضة كان لا يكف عن اتهامها بالعمل لصالح الأنكليز =

« لم تتطور بلادنا التطور الكافي لتقبل الحكم الدستوري فإنّ هذا الطراز من الحكم خطر كبير علينا إذ بمقتضاه يكون جميع الرعايا متساوين في الحقوق والواجبات. وهذا أمر مستحيل تطبيقه في بلادنا فالإمبراطورية العثمانية تشكّلت من الأتراك والعرب والروم والبلغار والأولاخ والأرناؤوط واليهود. فهل ترضى العناصر والمذاهب غير المسلمة أن تستغني عن كنائسها بنفسها وعن استقلالها القضائي. ثمّ إنه ليس هناك من لسان يجمعنا. فهل ترضى هذه الأقوام أن تهجر لغاتها وتقبل التركية لغة رسمية؟ فإذا كانت هذه حالنا فكيف تتأصل فينا القومية العثمانية؟ ومعلوم أنّ النصارى يلودون بالدول العظمى (...) إنّ الأتراك الشباب قوم خياليون. فإعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعا وأحزابا يقاتل بعضها بعضا ويؤدّي بالدولة العثمانية إلى الخراب. وتعاطف الأنكليز مع الأتراك الشباب أمر يلفت الانتباه فهم يشجعون هؤلاء المفترين على المطالبة بإعلان الدستور ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة مع أنّ أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر غير متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد »⁶⁰.

⁵⁹ مومسن . — ماكس فير والسياسة الألمانية 1820 - 1920 . - ص 271.

⁶⁰ عبد الحميد الثاني . - مذكراتي السياسية، صص 104-105

كثيرة هي أوجه الشبه بين سياسة القمع التي انتهجها عبد الحميد الثاني بين 1876 و 1908 وسياسة «العصا» التي انتهجها نيكيتا الأول (1825 - 1855) في روسيا المجاورة والمتخلفة فلقد منع حرية الفكر والنشر منعاً باتاً على الفاضليين والمحدثين على حدّ سواء فالمدحتي سليمان البستاني كتب في الموضوع :

« أمّا مواضيع المباحث المباح التأليف فيها فلم تكن تشمل شيئاً من المباحث الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية وكلّ ما من شأنه أن يعليّ الهمم ويثقف العقول وينير البصائر. وهل بعد هذا من قتل لهم الكتاب ؟ »⁶¹.

أمّا العثماني الفاضلي ولي الدين يكن فقد كتب :

« (قال لي ممدوح باشا ناظر الداخلية ناصحاً) : إذا شئت أن تكتب فاكتب ما ينفع بلادك والذم لا ينفعها. ألف روايات وترسل فيها ببيانك المعلوم أو فاكتب في التاريخ والأدب. وإذا كان لك عند السلطان حاجة فتعال إلى بيتي ولك عليّ أن أكون رسولك إليه »⁶².

ومن تخطى هذه الحدود فهو يتعرّض لامتحان يصل حدّ الاغتيال :

« ممّا يتنادره الناس من الاغتيالات السياسية وإلقاء ضحاياها في البوسفور أنّ قرينة سفير النمسا حين كانت مع زوجها في مأدبة السلطان عبد الحميد، لم تشأ تناول السمك المقدّم بين المأكولات. ولما سألها السلطان عن سبب امتناعها عن تناول شيء منه، إظهاراً لاهتمامه بضيوفه، أجابت بأسلوب قد يكون بريئاً أو مصطنعاً: أخشى أن يكون السمك أصاب وهو في البحر شيئاً من جسم الإنسان. فبهت الحاضرون لهذا الجواب متظاهرين بعدم وصوله واضحاً إلى مسامعهم ومفاهيمهم »⁶³.

لقد كانت السلطنة و «الخليفة» في وضع من الهوان عند ممثلي القوى العظمى كثيراً ما كان يدفعهم إلى السخرية العلنية من « الشيخ » (الرجل المريض) ولكن « الشيخ » كان عند عامة المسلمين فوق كلّ شبهة. وعندما تكثر الفضائح كثيراً ما كانت هذه العامة تنسبها بإيعاز من حاشية السلطان، إلى هذا الطرف في السلطة أو ذاك، فيسرع عبد الحميد إلى تغيير صدر أعظم بصدر أعظم آخر في ماكيفيلية عارية : « من الطبيعي أن أضطرّ أحياناً إلى إجراء

⁶¹ سليمان البستاني - عيرة وذكرى، ص 110

⁶² ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول، ص 277

⁶³ يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني، ص 34

تغيير عندما أحسّ بالحاجة إلى ضحية سياسية فأعين أحيانا كامل باشا إرضاء لأنكلترا وتارة أعين الذئب العجوز سعيد باشا الصغير وفقا للمصلحة العامة. إن استبدال رئيس الوزارة بغيره ليس بالشئ المهم في بلادنا، ومع ذلك فإنه أمر غير مستساغ. أما الوزراء فلا استبدلهم إلا في ظروف اضطرارية. إبعاد رئيس وزارة واستبداله بآخر لا يستوجب كل هذا الضجيج. فما الفرق بين « كامل » و « سعيد » إذا كان الرئيس الفعلي للوزراء هو السلطان المقيم في قصر يلدز»⁶⁴.

لا يمكن للمرء، إذن، أن يصف كلام سليمان البستاني وهو يتحدث عن الصحافة مثلا بالمبالغة فلقد كانت « تحت مراقبة حوّلها إلى أبواق تمجيد وأغوال تهديد يضطرب أصحابها خوفا لكلمة تبدو منهم أو من محرريهم يتأولها أولو الأمر على غير ما أرادته الجريدة»⁶⁵ وخاصة إذا تعلق الأمر بسياسة « الشيخ » :

« أما المقالات السياسية فباتت من أمثال العنقاء، تذكر ولا ترى، وبات العثمانيون وهم يقرأون في جرائدهم القليلة نفا من أخبار الدول ولا يقرأون شيئا من سياسة بلادهم وإدارتها إلا ما أشير به إلى نعمة سلطانية أو تعيين وال أو مأمور أو أدعية متوالية تشفّ عن غلّ شدّ في أعناق الصحافيين وقادهم وهم صاغرون في سبيل لا يتاح لهم أن يلتفتوا وهم سائرون فيه يمينا وشمالا. ولهذا لم يكن في البلاد من ينكر عليهم هذا الصغار بل كل الناس ينظرون إليهم نظر الأسير المشفق على أسير آخر بإزائه. ولطالما شاقنا استطلاع الأخبار فتسقطناها من بريد أجنبي أو جريدة في سفارة أو دار قنصلية. وسئم الناس قراءة جرائد بلادهم كما سئم محرروها كتابتها على هذا النهج»⁶⁶.

هذه هي سياسة عبد الحميد الثاني في كبح الحريات السياسية القليلة التي ضمنها التنظيمات فهل كانت سياسته فيما يتصل بالتسوية بين الأجناس العديدة في السلطنة أفضل منها ؟ إن عبد الحميد لم يكتف بالتفرقة بين المنتمين إلى أجناس وديانات مختلفة بل وسّع تفرقته فشملت المسلمين أنفسهم. لقد اجتهد، مستغلا الرأي العام العثماني المسلم وغير الراشد، في إبراز السيطرة الاقتصادية للثمانية ملايين من العثمانيين المسيحيين على... السلطنة العثمانية فمسّ بذلك موقعا حسّاسا :

⁶⁴ عبد الحميد الثاني . - مذكراتي السياسية . - ص 105

⁶⁵ سليمان البستاني . - عيرة وذكرى . - ص 87

⁶⁶ سليمان البستاني . - عيرة وذكرى، صص 98-99

« لا أكون مبالغاً أبداً إذا قلت إنَّ ثلث الموظفين هم من الأرمن »⁶⁷.
 « ثمَّ أليست الضرائب تكاد تكون منحصرة فيهم ؟ »⁶⁸.

كثيراً ما تنسب سياسة «فرّق تسد» إلى القوى العظمى « الشريرة » وحدها تماماً كما تنسب إلى « الشيطان ». وهذه السياسة كانت بالذات سياسة عبد الحميد الذي تخلّى عن أن يكون « سلطان العثمانيين » جميعهم مهما كانت أجناسهم ودياناتهم وطوائفهم واختار أن يكون « خليفة » جماعة المؤمنين في السلطنة وفي مناطق عديدة من العالم. فلم اختار، في حقيقة الأمر، هذه السياسة ؟ لأنَّ المسيحيين كانوا، إضافة إلى مواقعهم الاقتصادية المهيمنة يطالبون بحقوق سياسية تستند إلى نظرة حديثة إلى علاقة الدولة بالمجتمع في حين أن عبد الحميد كان يرى أنه « لا يجوز أن تقاس بلادنا بمقاهيم أوروبية ». إنَّ بنية المجتمع في بلادنا بنية دقيقة للغاية. كلَّ حركاتنا وتصرفاتنا يجب أن تنطلق من هذا الأساس وإلاّ فكيف يمكننا أن نجعل أقواماً بدائيين يعيشون بجرّة قلم عيشة أوروبية محضة ؟ »⁶⁹.

ونحن لا نحتاج إلى أدلة كثيرة لحصر الخلاف في نطاق فهمين مختلفين لعلاقة الدولة بالمجتمع إذ كان عبد الحميد نفسه مقتنعا بـ « حيوية العثمانيين المسيحيين » الاقتصادية والفكرية وبـ « خمول » العثمانيين المسلمين :

« ليس من أحد يفكر في دفع عجلة التجارة والصناعة إلى الأمام. إنَّ تجارة الروم والأرمن لن تكسب الشرف بلادنا ولن ترقّيها. أمّا السادة عندنا فليس عندهم أيّة رغبة في التجارة أبداً »⁷⁰. والحقيقة أن عبد الحميد لم يتفطن في مقابله بين المسيحيين والمسلمين إلى أكثر ممّا أشار إليه الشدياق منذ 1855 عندما قارن بين الإنسان الرأسمالي الغربي الحديث والإنسان قبل الرأسمالي الشامي الذي يزامنه فلكياً لا ذهنياً :

« التجار من الإفرنج على ثروتهم وغناهم أشقى الناس من فلاحى بلادنا فنى التاجر منهم يقوم على قدميه من الصباح إلى الساعة العاشرة ليلاً »⁷¹.

⁶⁷ عبد الحميد الثاني . - مذكراتي السياسية، ص 27

⁶⁸ عبد الحميد الثاني . - مذكراتي السياسية، ص 27

⁶⁹ عبد الحميد الثاني . - مذكراتي السياسية، ص 89

⁷⁰ عبد الحميد الثاني . - مذكراتي السياسية، ص 89

⁷¹ الشدياق . - الساق على الساق، ص 97

صحيح أنّ عبد الحميد كان يتّهم العثمانيين المسيحيين (والأرمن منهم بالخصوص) بولائهم لقوة عظمى ولكننا رأينا أن هذا الولاء هو نتيجة وليس سببا. فالخلاف الأساسي بين عبد الحميد والعثمانيين الجدد يكمن في هذه النقطة بالذات. فهو، باعتباره آخذاً بالنظرة التقليدية، كان لا يولي حركة الجسد الداخلية قيمة تذكر. وعلى العكس من ذلك كان يولي العامل الخارجي كل الأهمية حتّى أن بعض الروايات فسّرت علاقته الأولى بأبي الهدى الصياديّ بأخذ الرجلين معا بنظرة «سحرية» إلى الأشياء :

«السبب في تقدّم أبي الهدى هذا التقدّم السريع هو أنّ امرأة الناظر (يقصد ناظر الضبطية أي الأمن العمومي) أصيبت بمرض أعجز الأطباء (...) فاستدعاه ليطبّب حبيبته بما عنده من بضائع المشائخ (...) فبرئ بعد أيام (...) ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني بعارض يشبه عارض امرأة الناظر فعلم الوزير بالأمر وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي الهدى مع زوجته... ألخ»⁷².

وقد قاده هذا الأخذ بانفراد العامل الخارجي بالتأثير في الأحداث وتوجيهها إلى الاقتناع بإمكانية دفع الخطر عن السلطنة بمجرد مرواغة القوى العظمى من دون التفطن إلى أنّ العامل الحاسم في تحديد مصير السلطنة هو بالذات إيجاد صيغة للتعايش السليم بين مختلف العناصر تدفعها إلى أن تدافع عن السلطنة أي عن وجودها هي أنانيّة منها وسعيا إلى الحفاظ على الذات كما تدافع كوناتوس سبينوزا بكل الوسائل عن شروط بقائها.

قد يقود اقتصرنا على التعرّض لتفرقة عهد الحميد بين العثمانيين المسلمين والعثمانيين غير المسلمين إلى تبرير سياسته إلى حدّ معيّن لما كانت تتعرّض له السلطنة من ضغط خارجي. ولكن سياسة التفرقة التي انتهجها طالت المسلمين (خصومة الكواكبي / الصيادي وخصومة الصيادي / العابد) مما يدلّ على أنّنا إزاء حالة تضخّم نفسيّ تطابق مطابقة تامة بين مصلحة السلطان ومصلحة الدولة أي تذيب الدولة في شخص فرد.

لقد رأينا في الفصل الأول أن المحور الشاميّ الداخليّ كان يقوم أساسا على ولايتي حلب وسوريا المتنافستين ومن العائلات المتنفذة في حلب عائلة الكواكبي التي كانت تملك إقطاعات كبيرة إضافة إلى انحصار نقابة الأشراف فيها مما يدفعها إلى الميل إلى «الأصل العربي» الذي يحفظ منزلتها المتميّزة أي يدفعها مصلحيّا إلى الميل إلى عرب الجزيرة الذين كانوا لا يرون في الخلفاء العثمانيين خلفاء شرعيين للعرب. ولقد خطّط عبد الحميد الثاني

⁷² محمد كرد علي - المذكرات، ص 243-244

في البداية لكسر شوكة عائلة الكواكبي المتنفذة واختار لذلك رجلاً حليفاً لا أصل ولا فصل له على ما يقول خصومه هو أبو الهدى الصيادي الحلبي الرفاعي (1849 - 1909) ومنحه رئاسة النقابة مقاومة منه « للعروبية الإسلامية » واستجلاباً لأقوى الطرق الصوفية في حلب وكانت الشاذلية التي ينتسب إليها عبد الرحمن الكواكبي أقل قوة من الرفاعية التي ينتسب إليها أبو الهدى فأشعل بذلك ناراً لم تخدم بين هذين الحلبيين نتجت عنها كتابات عبد الرحمن الكواكبي المعروفة.

ثم خطط عبد الحميد بعد ذلك لتعميق التنافس بين حلب وسوريا فعين أبا الهدى الصيادي (حلب) وأحمد عزت العابد (دمشق) مستشارين له رغم أنه يعرف (بل قد يكون ذلك لأنه يعرف) تناقض هاتين الشخصيتين تناقضاً تاماً.

« كان أبو الهدى أشد بغضاً لعزت العابد وكان العابد أشد الناس بغضاً لأبي الهدى وكان عبد الحميد مصطفى كليهما وهو يعلم أنهما لا يتفقان في رأي ولا يجتمعان على خطة. فإن كان يظن بأبي الهدى خيراً فقد وجب عليه أن يكتفي به ويستغني عن العابد وإن كان يتوهم بالعابد نفعا فكان من الصواب أن يستخلصه لنفسه وينصرف عن أبي الهدى »⁷³.

ترد كثير من المصادر والمراجع علاقة عبد الحميد بمحمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى إلى توافق في النظرة إلى الطبيعة تجلّى في قصة تطبيب أبي الهدى محظية الخليفة بطرق شبيهة بطرق راسبوتين في مداواة ابن نيكيتا الثاني المريض. ولكن هذا السبب غير كاف لتفسير مكانة أبي الهدى السياسية الكبيرة. وحتى محمد كرد علي الذي أورد قصة هذا التطبيب اجتهد في البحث عن أسباب إضافية لهذه العلاقة فكتب :

« وكان من أعماله (يقصد أعمال أبي الهدى) مكافحة المذهب الوهابي لئلا يتسرب إلى العراق والشام »⁷⁴. واجتهاد محمد كرد علي وجيه في نظرنا لأنه هو وحده الذي يبين السبب الذي دعا السلطان إلى أن يقرب منه « التقي » أبا الهدى الصيادي و « المفراح » أحمد عزت العابد⁷⁵ أي التنافس القديم بين حلب ودمشق، هذا التنافس الذي يشل، لاعتماده

⁷³ ولي الدين يكن . - المعلوم والمجهول، ص 122

⁷⁴ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 244

⁷⁵ زمن عبد الحميد « كانت جريمة الطعن أو القدح أو إطالة اللسان بحق الأنبياء العظام أو أولي الأمر وحتى آخر العهد الحميدي وبعده بقليل من الزمن تسمّى في العرف القضائي « فضيحة لسانية » وكانت محكمة الخنج تنظر في القضية بمواجهة الظنين حالة كونه قيد التوقيف. فإذا ثبت لديها كذب الشكوى أطلقت سراحه وإلا رفعت الاضبارة إلى وزارة

على الولاء للأعيان، كل إمكانيّة لتكوّن إجماع على معارضة سياسة عبد الحميد. وتذكر المصادر والمراجع أن عبد الحميد قد نجح في سياسته هذه نجاحاً كاملاً فمن كانت له من الحلبيين أو الدمشقيين مطالب اتجه لنيلها إمّا إلى الصيادي وإمّا إلى عزت العابد :

« كان كل عربي وبالأحرى كل سوري لم يجد في المراجع العليا من يأخذ بناصره، لجأ إلى أحد هؤلاء المقرّبين فيقضي أمره بما أمكن من السرعة. وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى الأكراد والألبان وسائر العناصر العثمانية »⁷⁶.

ولقد تمكّن عزّت باشا العابد، بفضل نفوذه في البلاط السلطانيّ، من إحراز ثروة مالية كبرى ومن تعيين أخيه مصطفى باشا واليا على الموصل وصهره حسني بك سيفي وابن عمّه عبد الغني باشا متصرفين وكثيرين من ذوي قرياه وأخصائه قوام ومديرين»⁷⁷.

أمّا الشيخ أبو الهدى أفندي فـ «لم يكن أقلّ نفوذاً من عزّت العابد فقد تفضّل على كثيرين من أبناء وطنه فأوصلهم إلى مراتب عالية في حلب وملحقاتها وطرابلس وغيرها، وعطف بصورة خاصة على العلماء والفقهاء ورجال الدين»⁷⁸.

لا يمكن للمرء أن يدعي أنّه يوجد مجتمع يخلو من الوساطات ولكن هذه الممارسات عندما تعمّ بالشكل الذي وصفنا والذي يبدو وكأنه سياسة منظّمة لمعارضة الفلسفة العثمانيّة

العدل حيث تحدّد العقوبة بناء على قرار لجنة مختصة بالاعتقال المؤقت في إحدى المدن ذات القلاع كعمكا ورووس» (يكن، العلوم والمجهول، ص 179). هذا عندما يتعلّق الأمر بعمامة الناس أمّا القائمون على هذه السياسة الدينية فهم لا يتحرّجون، في قصورهم، من السكر كما يتحدث عن ذلك وليّ الدين يكن «فما وقعت عينه (يقصد عزّت العابد) علينا إلا بادر نحوي أخذنا يميني ثم قال - تعال أقاسمك ما رزقنا الله، هذا جعل للشعراء أمّا رفيقك (يقصد مصطفى ظافر) فهو تقّي وابن تقّي. دعه وحده في مراقبته فبسمت وأنشدت قول الصفيّ الحلبي :

يرنون بالاحاظ شزرا كلّمها _____ صبغت أشعتها أكفّ سقاتها _____

فأخذ عزّت بيدي ودخل الغرفة (...) وفي أحد أركان المكان مائدة عليها ما لذّ وطاب من العرق الشاميّ وأنواع الأطعمة (الزّة) فناولنا عزّت كأساً وقال لي = قل فيها شعراً ثمّ اشربها» (يكن - المعلوم والمجهول ص 179) وعزت العابد هو والد محمد علي العابد (1867-1939) الذي رأس الجمهوريّة السوريّة في ظل الانتداب الفرنسي عام 1932 ودامت رئاسته حتى عقد معاهدة 1936 القصيرة الحياة.

⁷⁶ يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، ص 59

⁷⁷ يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، ص 59

⁷⁸ يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، ص 59

التي تدعو إلى اعتبار مفهوم الجدارة في إسناد المناصب فإنه يمكن الحديث عن كسر مقعّد لمفهوم الدولة التي يجب أن تكون متعالية عن كل انحياز.

ويحدث أحيانا أن لا يتمكّن الخصمان الصيّادي وعزّت العابد من الاتفاق على اقتسام هذه المغامر فيتدخل السلطان في الأمر تدخّلا مباشرا :

« كان سعيد باشا، الزعيم الكردي المقيم في دمشق، أميرا للحجّ ولما شاخ انتقلت هذه الإمارة إلى حفيده عبد الرحمن اليوسف⁷⁹ بفضل توسّط الشيخ أبي الهدى أفندي فصعب ذلك على عزّت العابد وهو أبن دمشق فتمكّن بنفوذه لدى المراجع المختصة من نزع الإمارة من عبد الرحمن باشا اليوسف بعلة حدّاثه سنّه، والعهد بها إلى كبير آل العابد فغضب الشيخ أبو الهدى وأخذ يواصل مساعيه بحكمة ودهاء حتى استحصل على إرادة سنّية بإعادة الإمارة إلى عبد الرحمن باشا. وأخيرا تمّ الاتفاق بين آل اليوسف وآل العابد بفضل زفاف الغادة الحسناء الزهراء أخت عبد الرحمن باشا إلى زين الرجال محمد علي بك نجل عزّت باشا العابد⁸⁰ .

يمكن القول، نهاية هذا الفصل، إنّ صفة الرعيّة المثلى لم تعد، في عيني عبد الحميد، حتى الولاء للدولة وإنّما الولاء للسلطان وحده. ولقد استعمل كل الوسائل الممكنة لصياغة المجتمع العثمانيّ على الهيئة التي يريد فكان من نتيجة ذلك تكاثر أشكال المعارضة التي إن استثنينا الإسلاميين الذين نصرّوه كما سينصرون من أطاحوا به فيما بعد، لم تعد تكفي بما كان يطالب به العثمانيون الفتيان بل أصبحت ترى في دستور 1876 دستورا قد تجاوزه الزمن.

⁷⁹ عبد الرحمن اليوسف، ثريّ كبير سينضمّ إلى الاتحاديين قتلته سنة 1920 المعارضون للانداب الفرنسي على سوريا

ربطته صداقة متينة بمحمد كرد علي الذي استقينا من مذكراته هذه المعلومة.

⁸⁰ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، ص 58-59

القسم الثاني

الخود العثمانية تطلق شيخها

الفصل الأول

في ظلال الهلال

إذا كان عبد الحميد أثناء حكمه قد خسر ولاء « تلك الفئة التي كان يجب أن تكون عماد الدولة وروح البلاد، ونعني بها فئة الأحرار ودعاة الإصلاح بعرفنا والخونة المجرمين السياسيين وأعداء الدولة باصطلاح الما بين (...) » وهي لا تقل عن السبعين ألفاً منها خمسة وستون ألفاً من المسلمين وخمسة آلاف من المسيحيين (وهم) جميعاً من ذوي الدراية والنشاط، ومن جميع عناصر الأمة العثمانية¹ « فإنه أصبح قبلة الإسلاميين جاؤوا الآستانة من كل حذب وصوب بداية من خير الدين لتونسي مرورا بعبد الله النديم وصولاً إلى شكيب أرسلان الجبلي اللبناني. فما الذي دفع كل هؤلاء الإسلاميين إلى الالتفاف حول عبد الحميد وتزكية سياسته الإسلامية التي وصفنا في الفصل الأخير من القسم الأول ؟

إن ما يجمع بين الإسلاميين هو النظرة التقليدية إلى علاقة الله بالطبيعة وقياساً إلى ذلك إلى علاقة الدولة بالمجتمع. وهم في هذه النظرة لا يختلفون عن العروبيين الإسلاميين الذين سنعرض لتفكيرهم في الفصل الثالث من هذا القسم. ومن ثم كان الإسلاميون حرباً على التنظيمات وعلى التيارين العثمانيين والتيارات النابذة على حد سواء. لقد بدأت قصة الإسلامية بعد الحرب الأهلية في الشام مباشرة وتكوين « متصرفية الجبل » سنة 1861 بإدارة مسيحية.

فلقد قادت أحداث الشام، أي الجناح الجنوبي للسلطنة، عبد العزيز حتى في حياة رجلي التنظيمات عالي باشا وفؤاد باشا إلى الإحساس المتزايد بخطر سياسة الانفتاح التي فرضتها التنظيمات فحاول أن يعارضها على الأقل سياسياً وثقافياً :

« في الوقت الذي وقع فيه طرد حتى المسيحيين العثمانيين من الإدارة ازداد التأكيد على الطابع الإسلامي للإمبراطورية وعلى ضرورة الوحدة الإسلامية التي اتخذت شكلاً يمهد السبيل للنظريات الإسلامية التي ستنصر في العقد اللاحق. ففي زمن خلافة عبد العزيز وقع بقوة خاصة تطوير الفكرة القائلة إن السلطان العثماني ليس رئيساً مسلمي الإمبراطورية فحسب وإنما هو كذلك الخليفة بالنسبة إلى كل المؤمنين وهو، وهذا هو الأمر الجديد، وريث الخلفاء الأوائل² ».

¹ سليمان البستاني - عيرة وذكرى، صص 180 - 181

² برنارد لويس - الإسلام والائتكية، 114

وقد تجلّت السياسة الجديدة في سعي السلطان إلى استعادة المكانة التي كانت للسلطين قبل إعلان التنظيمات والتي خفّت موازينها زمن عبد المجيد فرحّب بها كلّ من كانوا معادين للرشدية والشدياقية والفلسفة العثمانية بصفة عامّة ومشكّكين في إمكانية إخلاص الأجناس غير المسلمة «للوطن العثماني» ومن أشهرهم خير الدين التونسي الذي كتب في «أقوم المسالك» (1867):

« وهذا الصنع الجميل (يقصد التنظيمات) الذي صدر من هؤلاء السلطين العظام، مع ما حصل به من تحسين حال الدولة والرعايا، ممّا لا يسع المنصف إنكاره، بالنسبة لما كان قبل، لم يقنع حزبا من المسلمين، مع الرعايا من غيرهم، بل لم يزالوا يطلبون من الدولة إطلاق الحرية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركّب من أعضائها تنتخبهم الأهالي، وفي هذه المدّة الأخيرة أشدّت إلحاحهم في طلب ذلك حسبما تضمّنته صحف الأخبار. ونحن وإن لم نطلّع على أحوال إدارة الملكة العثمانية في الحال لاسيما في كيفية إجراء هذه التنظيمات إطلاعا يمكننا معه معرفة صحّة الأسباب التي يتظلم منها الفريق المذكور أو عدم صحّتها، فإنّا نسلم أن هذا المطلب الذي طلبوه هو من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدولة وقوّة شوكتها ونموّ عمران ممالكها ورفاهيّة رعاياها، خصوصا في هذه الأزمان. كما نسلم أيضا أن مقصد المسلمين من أهل الحزب المذكور بطلبهم لما ذكر إنما هو إصلاح حال الدولة والرعيّة لكن³ لنا أن نسألهم : هل ثبت عندهم أن مقصد غيرهم ممّن معهم موافق لمقصدهم حتّى تحصل لهم الثقة بهم، ويصدر منهم ما ذكر؟ فإنّا نرى خلاف ذلك منهم بما بدت عليه القرائن من أن مراد أكثرهم إنّما هو التفصّي عن سلطة الدولة العثمانية، حيث لم يظهر منهم بعد نيل الحرية الموجودة الآن شيء من أمارات

³ نظرا إلى أهميّة الاستدراك «لكن» في نفس ما سبقه نورد رأي جمال الدين الأفغاني في العثمانيين الفتيان : «ثمّ أرجع البصر تجد هزة في نفوسهم وحركة طباعهم أحدها فيهم ما توعّدكم به الحوادث الأخيرة من رداءة العقابّة وسوء المنقلب. حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقا وغربا وتألفت من خيارهم عصابات للحقّ كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الهمة لبثّ أفكارها وجمع الكلمة المفترقة وضمّ الشتات المتبدّدة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم ما يضرهم الأحناب لهم و إنّنا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم. نسأل الله تعالى بنجاح أعمالها وتأييد مقصد الحقّ ورجاؤنا من كرمه أن يترتّب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما وللمسلمين خصوصا» (جمال الدين الأفغاني - المخاطرات - بيروت، ط2، 1980، صص 353-354)

النصح للدولة بل ربّما أظهروا حبّ النزوع إلى بني جنسهم بالتظلم من تصرفاتها واستثارة مبادئ الحيوة معها وذلك لاستمرار إفساد الأجنبيّ لهم وزرعه الحميّة في صدورهم لأغراض له لا تخفى. فربّما كان تأسيس الحرّية على الوجه المطلوب آنفاً، قبل التبصّر في العواقب، ممّا يسهّل غرضهم المذكور إذ من لوازم هذه الحرّية تساوي الرعايا في سائر الحقوق السياسيّة التي منها الخطط السامية، مع أن الشروط المعتبرة في إعطاء تلك الحرّية تواطؤ جميع الرعايا على مصلحة الملكة وتقوية شوكة دولتها. ولأقلّ من هذا السبب امتنع بعض الدول الأوربيّة من إطلاق الحرّية المشار إليها، تحاشياً من تحزّب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكيّة (...). فإذا ساغ الامتناع مع كون البديل المتوقّع من جنس المبدل منه فلاّن يسوغ هذا مع كونه من غير الجنس أخرى وأولى.

وأيضاً فإنّ رعايا الدولة ينقسمون على عدّة أجناس مختلفة الأديان واللغات والعادات، وغالبهم يجهل اللغة التركيّة التي هي لغة الدولة، بل يجهلون لغة بعضهم، بحيث تعسر المفاوضة بينهم لو رُكّب مجلس من جميع طوائفهم، ولا يتيسّر إعطاء الحرّية للبعض دون البعض، لما ينشأ عن ذلك من الهرج. فيجب أن تعتبر حالة هؤلاء الرعايا من أعظم العوائق عن تأسيس الحرّية على الوجه المطلوب بالدولة العثمانيّة. فمن اعتبر ما أشرنا إليه لا يسوغ له أن يوجّه اللوم على الدولة في توقّفها إلى الآن عن إعطاء الحرّية المطلقة وتأسيس المجلس المذكور وإن كان ما ذكرناه لا يرفع عنها وجوب الاجتهاد في قطع تلك العوائق التي يكون حسمها - بعون الله - من مآثر خليفة العصر....⁴

في نصّ خير الدين تحديد لمطلب المعارضة الأساسي وهو «الحرّية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركّب من أعضاء تنتخبهم الأهالي» وهو الدستور. وفيه إقرار بنبل هذا المطلب فهو «من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول... خصوصاً في هذا الزمان».

هذا هو الجزء الأوّل من النصّ وليس فيه ما يدلّ على موقف خير الدين من المعارضة العثمانية، مسلمة وغير مسلمة. أمّا بقية النصّ فجميعها مآخذ على هذه المعارضة لا تختلف عن مآخذ عبد الحميد عليها.
من هذه المآخذ :

⁴ خير الدين . - أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك صص 43-45

- اغتزار العثمانيين المسلمين بما يبدي العثمانيون المسيحيون مما لا يتفق مع ما يبطنون من قومية انفصالية.

- عدم تفتنهم إلى العامل الخارجي ممثلاً في القوى العظمى التي تشجع القوميات على الانفصالية.

لم يتبق أمام خير الدين بعد أن أظهر العثمانيين المسلمين في مظهر «الأغرار»، وهو المظهر الذي صورهم عبد الحميد عليه « هؤلاء الشباب منقادون لما يدبره بعض التآمرين من الرجال المغرورين، إنهم يقدمون شعارات براقة كتوعية الأمة وترقيتها بغية القضاء على النظام القائم وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرون خلت» إلا أن يستخلص النتيجة المنطقية :

- استحالة الاستجابة لمطلب العثمانيين المتمثل في إقرار الحرية والدستور والذي عبر عنه الشاعر « الدين لله والوطن للجميع » لأن « من لوازم الحرية تساوي الرعايا في سائر الحقوق السياسية التي منها الخطط السامية » وقد يقود ذلك إلى انتقال الحكم إلى أيد غير مسلمة أو أيد مسلمة غير سنية.

هذا هو أهم ما يتضمنه نص خير الدين وهو يدل بشكل قاطع على إسلاميته بمعنى إخضاع كل ما يتعلق بقضايا الدولة والمجتمع لمنطق مصلحة الدولة المسلمة العليا واعتبار أن الصراع الأكبر هو الصراع بين الدولة العثمانية و « الأجنبي » الذي يحيك المؤامرات لتقسيم السلطنة بـ « زرع الحمية في صدورهم لأغراض لا تخفى ».

قد يستغرب الكثيرون، خاصة من القراء التونسيين، إدراجنا خير الدين ضمن الإسلاميين لاقتران اسمه عندهم بعدد من الإصلاحات التي تبناها ورأوا فيها أفضل أشكال الإصلاح وهذا الاستغراب إنما هو في نظرنا نتيجة أمرين :

- الخلط بين تجربة خير الدين في تونس وتجربته في السلطنة وما أبعد وضع تونس الفكري والثقافي بصفة عامة في القرن التاسع عشر عن وضع جناحي السلطنة (البلقان والشام) الفكري والثقافي بصفة عامة. فما كان يبدو في تونس من علامات الريادة كان يعد إذا ما قورن بتفكير الشدياق أو أديب إسحق أو سليمان البستاني من الأفكار التي كاد القوم يسأمون من ترديدها من دون طائل فاضطروا إلى الهجرة أو إلى المعارضة. وليس استقدام عبد الحميد خير الدين و توزيعه مما ينقض رأينا لما سبق أن رأينا من رأي هذا السلطان في « تصدير » الصدور الأعظم.

- الخلط بين الإسلامية والعروبية الإسلامية من ناحية والخلط بين الإسلامية وسياسة عبد الحميد الإسلامية من ناحية ثانية : فمثل خير الدين لا يمكن أن يكون عروبيا إسلاميا لما سنرى من ملامح هذا التيار بل إن كل الشمال إفريقيين كانوا بصفة عامة معادين للعروبية الإسلامية. كما أننا نعتقد استنادا إلى ملامح تفكير خير الدين أنه لاشك كان متحفظا إزاء سياسة عبد الحميد الإسلامية الداخلية مناصرا لها على مستوى العلاقات الخارجية لأن إسلامية القرن التاسع عشر هي هذه النظرة إلى العالم نظرة تستند إلى الثنائية ومنها ثنائية دار الإسلام وبقية العالم ممثلا في القوى العظمى ولقد عبر عنها مفكرون كبار كثيرا ما يقع الخلط بينهم وبين مفكرين أقل منهم سعة أفق تسببوا في رسم صورة غير مشرقة لإسلامية القرن التاسع عشر.

كما أن الإسلاميين لم يكونوا، خارج هذه النقطة الأساسية التي تجمع بينهم وهي ثنائية العالم ومن ثم ضرورة مناصرة الخلافة بغض النظر عن أخطائها، موحدين فكريا ولذلك فبقدر ما كانت اللامركزية تزعم خير الدين كان جمال الدين من دعائها :

« قلت يا مولاي (يقصد عبد الحميد) : إن السلطنة تتألف اليوم من ثلاثين ولاية (...) فتبدأ بالبعيد منها و المظموع فيها مثل طرابلس الغرب فتجعلها خديوية، وإلى بيروت وسورية وحلب مع القدس فتجعلها خديوية (...) هذا يامولاي عشر خديويات بل عشر ممالك كل واحدة منها أعظم موقعا من اليونان وأكبر مساحة وأخصب أرضا وأنشط قوما وأرجح عقولا. وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية أو التفوق عليهم إلا شكل الحكم وقيود أغلال المركزية القاتلة للهمم الموهنة للعزائم. ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم أحد رجلين : إما الخامل البليد المرتبك وهمه جمع المال وتوسيع الخراب وإما الرجل النشيط، العامل، وليس له من الأمر شيء إلا الاستئذان من الباب العالي لترميم جسر في بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر أو أعوام وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر (...). ولما انتهت هز السلطان رأسه وتناول لفافة من التبغ أسرع في تدخينها وقال :

- ما تركت يا حضرة السيد للسلطان، وما أبقيت لتخت آل عثمان؟

- قلت : يبقى جلالة مولاي السلطان ملك أولئك الملوك »⁵.

⁵ جمال الدين الأفغاني . - خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، صص 222-223

هذا النصّ يطفح رشديّة لأنه يحصر وظيفة السلطان (تماما كالله) في التحريك الأوّل للمجتمع العثمانيّ ثمّ يكفّ يده بعد ذلك عن التدخّل في كلّ صغيرة وكبيرة في السلطنة حتى لو كانت هذه الصغيرة هي « ترميم جسر في بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر» وهو من إملاء جمال الدين... الإسلاميّ. لذلك من الصعب على من يدرس الإسلاميّة أن يرجعها إلى مصدر واحد أو رؤية واحدة وهذا هو بالذات ما يفسّر الجدل الذي لا ينتهي حول جمال الدين مثلا : هل يجب أن نفهمه من خلال كتابه الجداليّ « الردّ على الدهريين » أم يجب أن نفهمه من خلال كتابه الذي يطفح رشديّة وسبينوزيّة وشدياقية بل بهائيّة وهو كتاب « الخاطرات »؟

فهناك إذن صعوبة في تناول الإسلاميّة لأسباب عديدة أهمّها اختلاف أجناس الآخذين بها واختلاف بيئاتهم وذهنيّاتهم اختلاف خير الدين التونسيّ وجمال الدين الفارسيّ وشكيب أرسلان القحطانيّ الدرزيّ الجبليّ اللبنانيّ وكلّ هذه العوامل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عندما يقرأ القارئ ما سنكتب عن شكيب أرسلان، مجايل محمد كرد عليّ الكرديّ، أحد كبار المعبرين عن الإسلاميّة.

ولد شكيب أرسلان (1869 - 1945) في الشويفات في متصرفيّة جبل لبنان زمن إدارة الحلبيّ الأرمنيّ المسيحيّ فرانكو باشا هذه المتصرفيّة (1868 - 1873) وسعي يوسف كرم (1823-1889)، بدعم من الحزب المسيحيّ، إلى نقل هذه الإدارة إلى أيد مسيحيّة محليّة أي مارونيّة أو روميّة كاثوليكيّة أي في هذه الفترة التي كرّس فيها قانون 1861 الأساسي، بعد هجرة أعداد كبيرة من الدروز إلى حوران، هيمنة الطائفة المارونية على الجبل.

في التاسعة من العمر (1879) ألحقته عائلته بـ «مدرسة للأمريكيين في حارة العروسة بالشويفات فتعلّمنا فيها مدّة وقرأنا من جملة ما قرأنا الجغرافيا والحساب ومبادئ الأنجليزيّة»⁷ ثمّ واصل دراسته بعد ذلك في بيروت « وسنة 1879 أدخلونا مدرسة الحكمة⁸

⁶ إذ هو شيعي النشئة ولد بإيران . انظر = Djemal ed.din Assad- Abadi dit Homa Pakdaman . "Paris, 1969 Afghani.

⁷ شكيب أرسلان . - بنو معروف أهل العروبة والإسلام. نصوص مختارة. تقديم سعود المولى . - بيروت، 1990. -

ص53

⁸ كان لكلّ طائفة مدرستها الخاصّة =

الأقمار الثلاثة (1865) للروم الارثوذكس مثل جورج زيدان.

المدرسة البطريركية (1865) للروم الكاثوليك مثل خليل مطران

في بيروت، وهي التي أسسها المطران يوسف الدبس⁹ رئيس أساقفة الطائفة المارونية وكانت هذه المدرسة مشهورة بإتقان اللغة العربية (...) فبقينا نطلب العلم في مدرسة الحكمة من سنة 1879 إلى سنة 1886¹⁰.

سنة 1887 التحق شكيب أرسلان بـ «المدرسة السلطانية» التي درس بها محمد عبده أثناء إقامته الاضطرارية بالشام :

« دخلنا المدرسة السلطانية فأقمنا بها سنة نتعلم التركية والفقه وحضرنا "مجلة الأحكام العدلية" على المرحوم الشيخ محمد عبده وكنا نلازم المرحوم في مجالسه الخاصة لاسيما أنه كانت انعقدت بينه وبين المرحوم والدي صداقة أكيدة»¹¹.

إلى أي حد يمكن أن تعني هذه «الصداقة الأكيدة»، إن صح كلام شكيب أرسلان، اتفاقاً في التفكير خاصة فيما يتصل بسياسة عبد الحميد؟

لقد كان محمد عبده في هذه الفترة، على ما يذكر ويلفرد بلانت (Blunt 1840 - 1922) «يتكلم الآن بصراحة ضد السلطان والأترك»¹² أما شكيب أرسلان فكان ينشد (الخفيف)

إيه عبد الحميد إن زمانا أنت فيه عباسه بسام

حبذا الدولة التي صار فيها توأمين العلم والإسلام

هو ذا الشرق في حماك لك الأم ر جميعا وفي يدك الزمام¹³

وأيا كانت مشاعر العروبي الإسلامي محمد عبده والإسلامي شكيب أرسلان الحقيقية فإن ما يهمنا هنا هو أن هذه السنة (1887) هامة في حياة الأمير الشاب إذ مات

مدرسة الحكمة (1876) للموارنة مثل جبران خليل جبران.

مدرسة «المقاصد الخيرية» (1880) للمسلمين السنة. ونلاحظ، هنا تأخر ظهور المدارس الحديثة عند المسلمين مقارنة

بغيرهم

⁹ يوسف الدبس (1833-1907) ألف في المفاضلة بين الطوائف «الجمع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل (بيروت، 1905) ردا على كتابات معادية مثل «جامع الحجج الراهنة في إبطال دعاوي الموارنة» للمطران يوسف داود (1829-1890)

¹⁰ شكيب أرسلان . - بنو معروف، ص 53.

¹¹ شكيب أرسلان . - بنو معروف... ص 54

¹² محمد عبده . - سلسلة الأعمال المجهولة . - لندن، 1987 . - ص 87

¹³ شيب أرسلان . - الديوان . - القاهرة، مط. النار، 1935 . - ص 98

فيها أبوه فعينه المتصرف وأصا باشا (1883 - 1892) وهو في الثامنة عشرة من العمر مديرا لناحية الشويفات كما أنه نشر ديوانه الأول « الباكورة ».

لا يتحدث شكيب أرسلان عن الثلاث سنوات اللاحقة (1887 - 1890) ويكتفي بالإشارة إلى الفترة 1890 و 1892 فيذكر أنه سافر مارا بمصر وباريس ولندن إلى الآستانة حيث تعرف فيها، على ما يقول، على جمال الدين الذي اضطر اضطرارا إلى تبني سياسة عبد الحميد الإسلامية القائمة على مستوى العلاقات الخارجية على ثنائية عالم الإسلام والعالم الغربي¹⁴. ولا يشير شكيب أرسلان إلى الغاية من هذه الرحلة إلى عاصمة الخلافة. ونحن نعتقد أن هذه الغاية هي تأكيد ولاء العائلة الأرسلانية لسياسة عبد الحميد الإسلامية بعد أن أصبح الدروز المفصولون عن إخوتهم الذين هاجروا إلى حوران (ولاية سوريا) أقلية في الجبل اللبناني (10 %) إذ ستحصل عائلة أرسلان (وهي من الدروز الذي لا تعتبرهم السلطنة، بناء على تأثير المسلمين السنة، من المسلمين) على مناصب في المتصرفية طيلة حكم المتصرف الحلبي المسيحي نعوم باشا (1892 - 1902) جبل لبنان، وعلى مناصب أخرى في السلطنة :

« ولما جاء نعوم باشا متصرفا للبنان سنة 1892 وأعاد معنا المرحوم الأمير مصطفى إلى قائممقامية الشوف جعل أخي نسيب مديرا لناحية الشويفات فأقام بهذه المأمورية نحو عشر سنوات محمود السيرة. وعندما استعفى معنا سنة 1902 صار هذا العاجز قائممقام قضاء الشوف »¹⁵.

ما الذي دعا السلطان عبد الحميد إلى تقريب الأرسلانيين يا ترى ؟ هل سبب ذلك أن شكيب أرسلان كان على ما تذهب إليه بعض البحوث الإسلامية شخصا يتعبد على مذهب أهل السنة فيصوم ويصلي ويحج كما يفعل جمهور المسلمين ؟
لقد كتب شكيب أرسلان نفسه في الموضوع « (وقد قمت سنة 1902) بعدة مأموريات في جبل حوران لإقناع الثوار (يقصد الدروز الذين تدعمهم بريطانيا والمتأثرين بالفكرة العروبية الإسلامية التي تدعمت نتيجة المعاهدة بين بريطانيا ومبارك الصباح شيخ

¹⁴ نقول اضطر اضطرارا لأنه لم يكن تفكيرا ومزاحا شبيها بأغلب الحميديين . فهو يقع في موقع وسط بين نامق كمال

ومدحت باشا

¹⁵ شكيب أرسلان . - بنو معروف. صص 55-56

الكويت (1869 - 1915) واستغاثة السعودية الوهابية على ידי عبد العزيز آل سعود (1880 - 1953) وفيصل الدويش (1882-1930) ... (الخ) بالرجوع إلى طاعة الدولة»¹⁶.

فحاجة عبد الحميد إلى الأرسلانيين سياسية بحثة : إذ في حين كان دعاة القومية اللبنانية في الجبل على ولاء فرنسي وفي حين كان دروز متصرفية حوران التابعة لولاية سوريا (ويرأسهم الطرشان خاصة) على ولاء بريطاني احتاج السلطان إلى دعم درزي للدولة فوجده في الأرسلانيين واحتاج الأرسلانيون إلى دعم الدولة في الجبل فوجده عند عبد الحميد وبذلك تبدو نشأة « الإسلامية » في حالة شكيب أرسلان تعبيرا عن مصالح عشائرية ضيقة. وهذا هو بالذات ما ذهب إليه الباحث سعود المولى فقد كتب عن اختلال التوازن في الجبل بعد الحرب الأهلية وعن علاقة هذا الاختلال بإسلامية شكيب أرسلان :

« من هنا نفهم غوص الأمير في الصراعات الحزبية الجبلية الضيقة في السنوات 1892 - 1908¹⁷ ونفهم قيامه بعدة مأموريات في جبل حوران لإقناع الثوار هناك بالرجوع إلى طاعة الدولة. فهو حاسم وواضح في موقفه من ضرورة وحدة الدروز والتفافهم حول الدولة في تلك المرحلة التي تميزت على حد وصف جميع المراقبين والباحثين بضعف الدروز وقوة الموارنة ذلك أنه بعد أحداث 1860 حصل نزوح كثيف للدروز في اتجاه حوران واستولى الموارنة على أراض كثيرة. وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبح الموارنة المالكين الرئيسيين للأراضي الصالحة للزراعة في الجبل... أما النظام الجديد للجبل فقد كرس تهميش الدروز الذين أصبح عددهم لا يتجاوز نسبة 10 % من مجموع سكان الجبل كما أن الدروز ظلوا على هامش التطور الاقتصادي الذي عرفه الموارنة بفضل الدعم الخارجي أساسا (يقصد الدعم الفرنسي) وعلى هامش سلطة القرار الذي أمسك به المتصرف والمدير ورئيس مجلس الإدارة...) غير أن هذا الضعف كان لابد أن يؤدي إلى طرح أهمية وضرورة الوحدة الداخلية والارتباط بعموم السوريين والمسلمين خارج الجبل وبالدولة تحديدا. هذه هي المعاني السياسية التاريخية الأساسية لسياسة الأمير العائلية والعشائرية في الفترة 1892 وحتى 1908.¹⁸ »

¹⁶ شكيب أرسلان . - المصدر السابق، ص 13

¹⁷ أي بالضبط سنوات التحاق الكواكبي ومحمد رشيد رضا بالعروبة الإسلامية حليفة بريطانيا ضد السلطنة وضد

ألمانيا

¹⁸ سعود المولى . - مقدمة بنو معروف، أهل العروبة والإسلام» . - ص13

لقد تناول سعود المولى ، كما رأينا ، مسألة الصراع الدرزيّ تناولاً شدياقياً ونتيجة لذلك ظهرت إسلاميّة شكيب أرسلان « ملاذا ». فلا قيمة فائقة عندئذ ، عند محاولة فهم الأحداث والتّيارات الفكرية في الشام خاصة ، من الإيغال في تفكيك عقائد الدرّوز أو الموارنة أو المتاولة أو النصيريّين إذ أن هذه العقائد هي وجه واحد من وجوه محاولة الأقليّات الدفاع عن وجودها الاقتصادي والاجتماعي والسياسيّ أي بمصطلح سبينوزا الدفاع عن « كوناتوسها » ضدّ كلّ خطر خارجي كاسح. وبما أنّ الطرشان في متصرفيّة حوران كانوا يرون خلاصهم في العروبيّة الإسلاميّة فقد حاربوا السلطنة وحاربوا خصومها سواء كانوا الجبل كانوا يرون خلاصهم في الإسلاميّة فقد ناصروا السلطنة وحاربوا خصومها سواء كانوا عثمانيين ائتلافيين¹⁹ أو عروبيين إسلاميين أو قوميين لبنانيين أو دعاة فكرة عربيّة على أساس لغويّ أو دعاة الصهيونية فكانوا بموقفهم هذا أقرب الناس إلى العثمانيين الاتحاديين الذين سيتحالفون معهم سنة 1909 بعد قيام الحكم العثمانيّ الاتحاديّ أمثال سليمان البستاني وعبد الرحمن الشهبندر وساطع الحصري على ما يفصل بين الشّقيين من نظرة إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثم إلى علاقة الدولة بالمجتمع ، وهو اختلاف دفع الإسلاميين إلى أن يناصروا عبد الحميد ودفع العثمانيين الاتحاديين إلى أن يحاربوه حرباً لا هوادة فيها. وفعلاً فإنه فيما يتّصل بهذه النظرة كان شكيب أرسلان هو المعبرّ في القرنين التاسع عشر والعشرين عما رأينا أن بوسويه وسينو عبّرا عنه في القرن السابع عشر الفرنسي خاصة. فكما كان هذان المفكران يمجّدان فكرة الاتحاد حول الملك - الشمس - الأب لأن « أساس العالم ونموذجه المثاليّ يكمنان في الحكم الأبوي ، أي في الطبيعة ذاتها وأن البشر يولدون رعايا والحكم الأبوي الذي يعودهم على الطاعة يعوّدهم في الآن ذاته على ألا يتّخذوا لهم غير رئيس واحد (...) وأن الناس لا يبلغون من الاتحاد ومن القوّة ما يبلغونه عندما يعيشون في ظلّ رئيس واحد لأن كل شيء إذّاك يتظافر في وجهة واحدة»²⁰ كان شكيب أرسلان يرى (الطويل)

لمن عاف أن تغشى عليه منازل
ينال لديها العزّ من هو آمله

فليست بغير الاتحاد وسيلة
وليس لنا غير الهلال مظلة

¹⁹ سينصر شكيب أرسلان سنة 1909 العثمانيين الاتحاديين لاتفاق الموقف من القوميات النابذة

²⁰ تحدّثنا في الفصل الثاني من القسم الأوّل بتوسّع عن هذين المفكرين

وبما أن الخليفة هو رمز «الهلال» و«الاتحاد» معا فهو، مهما تعارض الناس في تقييم سياسته، لا يمكن أن يصدر في هذه السياسة إلا عن «حب» لأبنائه (الطويل)

وحاشا أبا برّ الأبوة مثله يريد بنا ضيما ويرهقنا عسرا
إمام له في كلّ يوم عوارف على الشرق والإسلام لا تقبل الحصر²¹

هذه الأبيات التي تتّصل بعلاقة عبد الحميد بالمجتمع وتطلب أن تكون هذه العلاقة أبوية ليست إلا نموذجا من نظرة تقليدية لها وجهها الميتافيزيقي والسياسي والاجتماعي تقع من الشدايقية مثلا في فهم هذه لما يجب أن تكون عليه علاقة «الشيخ» (الدولة) بـ «الخود» (المجتمع) موقع النقيض.

فهناك، عند شكيب أرسلان عالم الله والنفس من ناحية وهناك عالم الطبيعة والجسد من ناحية ثانية. وبين عالم الله والنفس وعالم الطبيعة والجسد (والمجتمع) لا يمكن أن توجد غير علاقة تبعية . علاقة التبعية هذه تظهر على مستوى العلاقة بين الدولة والمجتمع في وجوب خضوع المجتمع للخليفة لأنّ الخليفة يستمدّ إرادته من الله ولذلك نرى الأمير يصف الدستور الذي فرض الجيش الثالث في البلقان على عبد الحميد إعادة إصداره سنة 1908 بأنّه كان "منّة" من السلطان "ألهمة" الله بها (الطويل) :

فمن غير وعد بدّل الله حالكم لتضحى لكم رحمتي وتغدو لكم ذكرى
ويعلم أن الله لا ربّ غيره وليس سواه يملك النفع والضرّ
أراد تلافي الشرق من عثراته فألقى عليه من عنايته سترا
وألهم مولانا الخليفة ظلّه قياما على الدستور في الدولة الغرّ
بكم ضنّ إشفاقا وفي أرض غيره فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى
لقد منّ بالشورى عليكم بمقتضى (وشاورهم بالأمر) إن تحمل الأمر²²

لقد أثارت هذه القصيدة زمن نشرها حفيظة كثير من الناقمين على عبد الحميد وسياسته وحتىّ الشابّ مارون عبّود الذي كان شديد الإعجاب بشعر الأمير اضطرّ إلى أن يكتب عنه :

²¹ شكيب أرسلان . - الديوان، ص 103

²² شكيب أرسلان . - الديوان، ص 103

« وأول مرة سمعته فيها ينشد كان عام إعلان الدستور العثماني سنة 1908، بيد أنه لم يعنف ولم يلم ولم يهاجم مثلاً. عدّ الدستور مئة من جلالته السلطان وأوصى بالتعلّق بالعرش فلم ترق قصيدته للمتطرفين منّا »²³

لم ترق هذه القصيدة « للمتطرفين » لأن إرساله قد نزل فيها عبد الحميد (« مولانا الخليفة ظلّه ») منزلة الله القديم ونزل فيها المجتمع (بكم ضنّ إشفاقاً) منزلة الطبيعة المحدثّة والمنفعلة فهل يكون شكيب إرساله قد ذهب هذا المذهب في التفكير لمجرد أنه كان يخدم « عائلته وعشيرته » ؟ إننا لا نعتقد أن هذا التفسير هو تفسير كاف شاف بدليل ما كتب مارون عبود نفسه عن « مزاج » الأمير :

« لم يمرّ حدث في الشرق إلّا تناولته قريحته بما حضر، فشارك في كلّ معضلة بقلبه ورأيه ولسانه. لم يمدح غير العظام، وقلّما قال شعراً في غير الحوادث الجسام »²⁴ فالأمير يبدو وكأنه، لتضخّم شعوره بالذات، يفيض على طائفته الجبليّة الصغيرة و المهمّشة في الجبل اللبناني لأنّه لم يكن ينظر إلى الحياة نظرة أساسها العقل وما يقود إليه من إحساس حادّ بالنسبيّة وأنّما كان ينظر إليها ويقيسها بمقياس النفس المتعالية على الجسد والمجتمع والطبيعة و« الظروف الموضوعيّة ». وتدّل بعض الأخبار المتعلّقة بالأمير والتي يمكن أن يدخلها البعض، ولسنا منهم، في باب الطرائف على ميل الأمير إلى التشكيك في العقلانيّة العمليّة الحديثة وإلى الميل إلى الميتافيزيقولوجيا :

« وقع أمامي من خوارق أعمال الشيخ علي العمري (يقصد العمري الطرابلسي) أمران أولهما إلى الآن لم أفهم سرّه وهو أن الشيخ كان يستدعي أحد الحاضرين أيّا كان ويقول له ليقطع ورقة من عنده فإذا قطعها أخذها الشيخ من يده وتفل عليها وقال : أدن متّي فيدنو منه فيمسح بها عيني ذلك الرجل فلا تمضي لحظة حتى يشعر هذا كأنه قد وضع البارود في عينيه وتنهمر منهما الدموع كالماء الجاري ويبقى على هذه الحالة دقيقتين أو ثلاثاً ثم تعود عيناه إلى حالهما المعتادة. وقد فعل الشيخ ذلك مع أناس كثيرين أمامي وكلّهم حصل لهم ذلك. وكنت ممن أجرى لهم الشيخ هذه العمليّة وشعرت بما شعر به غيري حتى أنني في البداية خفت على عيوني (كذا!) فحدثت بذلك نجيب سرق من وجهاء المسيحيين (يقصد الأرثوذكس) في بيروت فقال لي قم بنا لنزور هذا الشيخ. وكان

²³ مارون عبود . - رواد النهضة الحديثة . - بيروت، 1952 . - ص12

²⁴ مارون عبود . - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

مراده أن يختبر ذلك بنفسه. فلما ذهبنا شعر الشيخ فيما يظهر أن هذا الرجل يريد أن يختبره فأجرى هذا العمل لعدة أشخاص أمامه ومنهم الدكتور عبد الرحمن الأنسي البيروتي وجريت أنا ذلك مرة ثانية فحصل لي كما حصل في المرة الأولى ومما أتذكره أنه لما كان الدكتور الأنسي يمسح عينيه بعد فيض دموعهما قلت له : يا دكتور ! أين العلم من هذا ؟ فقال لي : هذا فوق العلم ثم دعا الشيخ نجيب سرسق²⁵ ليأتيه بورقة و يتفل له عليها ويمسح بها عينيه فاعتذر نجيب وتوقف كأنه خاف على عينيه. أما الأمر الثاني...»²⁶

من وجهة نظر هذه الدراسة توجد علاقة وثيقة بين تفكير شكيب أرسلان الخرافي الذي نزل في هذه « الطرفة » الخوارق للعادة منزلة رفيعة («أين العلم من هذا ؟») وتفكير شكيب أرسلان السياسي الذي كان يحيط الخليفة بهالة²⁷ شحب إزاءها المجتمع شحوب العلم التجريبي والطب إزاء « العرافة » وإذا كان الدكتور عبد الرحمن الأنسي نفسه قد زكى تفكير شكيب أرسلان فذلك مرده إلى أنه يمكن أن يتجاوز عند بعض الناس التكوين العلمي الحديث والذهنية الخرافية مما يطرح قضايا لا نهتم بها هنا.

إن عبارة « أين العلم من هذا ؟ » تدل، عند شكيب أرسلان على أنه يعتبر النفس، لا القوى المادية أو الاجتماعية، وحتى العقل، هي محرك التاريخ : ومن هنا كان تغنيه بالفرد «المريد» والخلاق بنى عليه تفسيره للتاريخ العربي وبنى عليه إجابته عن السؤال : لماذا تخلف المسلمون ؟ فخالف ما كان يذهب إليه التياران العثمانيان، الائتلافي والاتحادي وبقية التيارات النابذة وخاصة منها التيار العروبي الإسلامي ممثلاً في محمد عبده والكواكبي ومحمد رشيد رضا وجماعة العربية الفتاة التي سيندد بمؤتمرها في باريس سنة 1913 أشد تنديد. نقول خاصة لأن التيار العروبي الإسلامي يشترك مع إسلامية شكيب أرسلان في القول بالإسلام ويختلف معها في حصر الإسلام القويم في العرب ومن ثم فهو ينفي شرعية حكم عبد الحميد ولذلك حرص شكيب أرسلان على بيان تهافت ما تذهب إليه العروبية الإسلامية من ادعاء احتكارها للأصل العربي ومن ادعائها أن سبب انحطاط العرب كان نتيجة اختلاط الدم العربي بدماء تركية وفارسية وبربرية مؤكداً على أن سبب هذا الانحطاط نفسي أخلاقي لا جسدي عرقي. وقد عمد لبيان ذلك ومنذ البداية إلى التأكيد على أصله

²⁵ الشيخ عند الشوام لا يقرن بمعنى ديني

²⁶ شكيب أرسلان . - السيد رشيد رضا، ص 56

²⁷ رأينا عند الحديث عن عبد الحميد أنه كان يلجأ إلى «العرافة» وإلى الشيوخ في «تطبيب» معظياته.

العربي القحطاني السابق للإسلام حتى لا ينسب تعصّبه لدولة آل عثمان إلى أصوله غير العربية أو إلى انتمائه إلى الطائفة الدرزية التي لم تظهر إلّا في القرن الحادي عشر الميلادي فذكر شجرة أنسابه التي ترقى إلى المناذرة والتي تجلّت فيها « السجاياء العربية القديمة في تنوّخيتها و منذريتها بحيث فاقت في العشيرة وغنمت مفاخر بني معروف منذ حلّت لبنان »²⁸ ثمّ توسّع بعد ذلك في بيان محاسن الحفاظ على الأنساب وضرورة توارثها مبتدئاً ببيان كيفية تكوين « أهل البيوتات » فإذا نحن بإزاء شرح لا دخل كبيراً للدين فيه (بما أن العروبيين الإسلاميين ينتسبون إلى الظواهر من ذرية النبي ويعادون الدروز لـ « درزيتهم ») :

« من المعلوم أن أصل البيوت الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أقرانه ، ويبدأ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة في نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، وإنّما تظهر آثارها في أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، ويشيع ذكره ويرتفع شأنه ، وتتمنى الحوامل أن تلد مثله وهذا ما يقال له المجد الطريف . وبعد ذلك إذا أعقب نسلاً اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الإمكان حتى يمتازوا بالأخلاق التي امتاز بها أبوه ، ويحوزوا مثلما حازه من الشرف والسؤدد وتعب رهطهم في تقوية هذه الروح فيهم طمعاً في استبقاء هذه الغرائز التي أورثهم إياها سلفهم ، وهي التي تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترتفع بهم عن سفاسف الأمور ، ويقال لها المجد التليد : ولهذا كان من العادة أنه إذا أقدم أحد أبناء البيوتات على عمل خسيس كان أوّل ما يقرعه به الناس ، ويهيبون به إلى التوبة منه ، أن يقولوا له : أفلست أنت ابن فلان ؟ أو من آل فلان : أيجمل بك أن تفعل ما هو كذا وكذا !!! فماذا تركت للسوقة والطغام ؟ وأشباه هذه الأقوال التي تدلّ دلالة واضحة على الأصالة مفروض فيها أن تقتزن بالنباله ، وبعبارة أخرى أن الأصل في نسبه ينبغي أن يكون فاضلاً في عمله ، بارعاً بأدبه . وما جاء على خلاف هذه القاعدة فيعدّ شاذّاً »²⁹

إنّ العروبيين الإسلاميين والإسلاميين يؤمنون جميعاً بالثنائية «أهل البيوتات» / « السوقة والطغام» ولكن الأوائل يركّزون على الأصل العربي والمسلم السنيّ أمّا شكيب أرسلان فهو يوسّع مفهوم الأصل إلى « الأصالة » التي لا يعتبرها حكراً على دعاة مذهب من المذاهب أو قوم من الأقوام ويوسّعها زمنياً فإذا شرطها الأساسي أن يوافق المجد التليد (القديم) المجد الطريف (الحاضر) . وبهذا الشرط الأخير يتمكّن من إجلاء شرط الجنس الهام عند العروبيين

²⁸ شكيب أرسلان . - بنو معروف ، أهل العروبة و الاسلام . - ص 10

²⁹ شكيب أرسلان . - بنو معروف . - ص 43

الإسلاميين وإقرار شرط مقياس آخر : النفس والأخلاق والإرادة وهذا العامل النفسي هو عند شكيب أرسلان، محرّك الأمم بل محرّك التاريخ. لقد رأيناه في الشاهد المتقدّم يرجع أصل نشأة «البيوتات الشريفة» و «النبيلة» إلى فرد سكنته «طبيعة ممتازة في نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة». هذه الطبيعية الممتازة لا يمكن إلا أن تكون «شريفة». وهي الوحيدة التي تبرز شرعية الحكم عند الفرد المؤسس (مثال ذلك عثمان مؤسس الدولة العثمانية) وعند من ورثوا هذه الطبيعة (مثال عبد الحميد) أمّا المجتمع (السوقة والطعام) فعليه أن تكتفي فيه «الحوامل (بأمل أن) تلد مثله». إن المجتمع يجب أن يحكم بالأخلاق (أخلاق النبلاء والشرفاء) ومتى كثر عدد الذين تطبّعوا بإخلاق «البيوتات الشريفة» ارتقت الأمة :

« متى كثرت الفضائل في المجتمع ترقّت الأمة وعرجت في سلّم النجاح وأصبحت أمة عزيزة غالبية، لأن الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي ينبني عليه كيان الأمم »³⁰.
عالم شكيب أرسلان عالم مغلق تحدّد فيه كل شيء. وكيان الأمة لا يكون إلا على شكل هرمي رأسه الضيق «أهل البيوتات» وقاعدته «السوقة والطعام». كما أن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في هذا الكيان يجب أن تحدّدتها الأخلاق لا المطالب المادية إذ لا قيمة لهذه مقارنة بالمطلب الأخلاقي بل إن «البيوتات الحاكمة» لا يجب أن يفهم دورها انطلاقا من نظرة مادية شدياقية تعبّر عن شكّها في نوايا الحاكمين بالبيت :

وسبوا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما تدّر لنا ثغل

كما أن حرص «البيوتات الحاكمة» على نقاوة أصلها ليس نابعا من غرض «طبيقي» بل من أسباب أخلاقية : «لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لا نجده منحصر في معرفة التاريخ ولا في الامتيازات المادية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة، ولكن هناك غرضا آخر أعلى من ذا وذا، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل، والأفعال المجيدة وتزكّي الأنفس»³¹

وما ينطبق على الاختلاط بين الطبقات في مجتمع ما ينطبق على اختلاط الأمم بعضها ببعض إذا الاختلاط والاندماج يقودان حتما إلى فقد «الأصالة». ويقدم شكيب أرسلان دليلا يقول عنه إنّه علمي على ما يذهب إليه «أفلا ترى كيف ثار الألمان (...) وأوجدوا

³⁰ شكيب أرسلان . - بنو معروف، ص 43

³¹ شكيب أرسلان . - المصدر السابق، الصفحة نفسها

قضية النسب «الآري» ومنعوا بجميع الوسائل اختلاط «السامي» مع «الآري» بالمصاهرات حفظا للنسب الذي ينتمون إليه، والذي لا يرون لهم رقياً إلا به وضمن خصائصه. وما فعلوا ذلك إلا بناء على نظريات علمية ثابتة، وهم إن كانوا غلوا في هذا الأمر إلى حدٍّ أوجب انتقاد سائر الأمم لهم فلا يمكن أن يقال إن قاعدتهم هذه غير راجعة إلى أصل صحيح»³² خلاصة القول عند شكيب أرسلان هي أن محور المسألة الاجتماعية هو «الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها ويتمكن المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث في سلالتهن والاعتناء بحفظ أصلاتها ومنع اختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها»³³

لا شك أن القاريء أحسن وهو يقرأ ما سبق أن شكيب أرسلان لم يفعل أكثر من دعم مذهب خصومه العربيين الإسلاميين بتأكيدهم على ضرورة التشبث بالأصل العربي والإسلام العربي ولكننا سنرى أن غايته من ذلك تختلف عن غاية هؤلاء : فهو بعد أن بيّن أصله القحطاني وعدّد محاسن «الاعتناء بحفظ أصالة الأنساب» تساءل : إذا كان هذا يصح في حالة الأمم التي لها خصائص مميزة (أعطى مثالين على ذلك الأنجليز واليهود) فهل يكون التشبث بالأنساب خيراً على العرب؟ ولقد أجاب عن هذا السؤال بلا قاطعة. فظهر بذلك اختلافه عن العربيين الإسلاميين إذ في حين تعود هؤلاء على أن يفسروا التاريخ استناداً إلى مفاهيم جنسية مقتدين في ذلك بمحمد عبده : «ظن خليفة أن الجيش العربي يكون عوناً لخليفة علوي لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدوها ويصطنعها بأحسنه. هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجمياً»³⁴ انتقاد شكيب أرسلان، نتيجة اعتبار العامل النفسي - الأخلاقي محرّكاً للتاريخ إلى تفسير انحطاط العرب بـ «طبيعة الانقسام» فيهم ميراثاً الأجناس الأخرى المسلمة من مسؤولية الخط من الحضارة العربية المسلمة :

«لقد أجمع المؤرخون واتفق علماء الاجتماع أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد وغرامها في منافسة بعضها بعضاً ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها، ويتمكن المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلالتهن والاعتناء بحفظ أصلاتها، ومنع

³² شكيب أرسلان . - بنو معروف . ص 43

³³ شكيب أرسلان . - المصدر السابق، ص 42

³⁴ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته ، ص 277

اختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها»³⁵ فالعرب «لبثوا وهم المسيطرون في الأرض لا يضارعهم مضارع ولا يغالبهم مغالب مدة ثلاثة قرون أو أربعة ثم أخذوا بالانحطاط وجعلت ظلالهم تتقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً وذلك بفتور الهمة ودبيب الفساد إلى الأخلاق ونبد عزائم الدين واتباع شهوات النفس. وأشد ما ابتلوا به التنافس على الإمارات والرئاسات ولا سيما بين القيسية واليمانية مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها وكانت الآن عربية كما هو المغرب»³⁶

ولقد قادته فكرة « الطبيعة الثابتة » إلى أن يبحث في تاريخ العرب قبل امتزاجهم بالأناس الأخرى عن أمثلة على هذا الانقسام تقنع القارئ :

و«كل من العرب مفتخر بنسبه ، مستمسك بأصله ، فإذا كان عدنانياً لم يرض أن يكون قحطانياً وإذا كان قحطانياً ساءه أن ينتسب إلى عدنان قال الشاعر

وما قحطان لي بأب وأم ولا تصطادني شبه الضلال
وليس إليهم نسبي ولكن معديا وجدت أبي وخالي»³⁷

واختار شكيب أرسلان الدولة الأموية التي اشتهرت بـ « التسامح » مثالا على تغلغل الروح القبليّة في الحياة السياسيّة .

« ومن الأمثال التي تدلّ على غلوهم في هذا الباب أن جرير بن عطية الشاعر وكان من تميم ، قال في إحدى مفاخراته للأخطل التغلبي :

إنّ الذي حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبي وأبو الملوك جميعهم فاعلم فليس أبوكم كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ضحك وقال : ما زاد ابن الفاعلة على أن جعلني شرطياً عنده !! ثم قال وقد نبض فيه عرق العصية لمضر : أما والله لو شاء لسقتهم إليه»³⁸

³⁵ شكيب أرسلان . - بنو معروف ... ص 42

³⁶ شكيب أرسلان . - لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم . - بيروت ، 1969 ، ص 129 ونحن قد فضلنا كتابة اليمانية بإضافة الألف بين الميم والنون قياسا إلى شكيب أرسلان .

³⁷ شكيب أرسلان . - بنو معروف ... ص 41

³⁸ شكيب أرسلان . - المصدر السابق ، ص 42

روح الانقسام هذه واكبت عرب الجزيرة والشوام حتى القرن العشرين وكان أهم شكل اتخذته هو الصراع بين القيسية واليمانية³⁹. وإذا كان هذا شأن العرب قديما وحديثا فيما يتصل بعلاقاتهم ببعضهم البعض فما هو المصير الذي ينتظرهم إذا أخذوا بالعروبية الإسلامية التي أضافت إلى التقسيم العربي العرقي تقسيما طائفيًا على أساس من التفرقة بين السنة والشيعية فاعتبرت النصيريين والدروز (الذين ينتمي إليهم شكيب أرسلان) مثلا من أهل الأهواء وكتب محمد عبده عنهم :

« يوجد في (بلاد الشام) طائفتان تعدّ إحداهما بالآلاف وتزعم كلّ منهما أن لها نسبة إلى الإسلام وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروض المعلومة منه بالضرورة وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات (يقصد السنيات) وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم ومن العلماء من قال لا تقبل توبته »⁴⁰.

إن ظاهرة الانقسام بل الإيغال في مسار التفتت بتشجيع من القوى العظمى هي التي دعت شكيب أرسلان إلى أن ينفي عن عامل الجنس، في حالة العرب، صفة العامل الموحد على شدة تعلق الأمير بصفاء الجنس وبما أنه لا يتمكن من النفاذ إلى الأسباب الأكثر عمقا في تفسير الظواهر الاجتماعية (مثل العوامل الاقتصادية والتطور العلمي والتقني والفلسفي) فقد ذهبت به المقارنة بين العرب من ناحية والبريطانيين واليهود من ناحية ثانية إلى استنتاجات سطحية إذ فسر « سيادة الأمة الإنجليزية » بـ « بالأخلاق » شأنها في ذلك شأن اليهود مما سئى أن هرتزل نفسه ينفيه.

كتب في رد عظمة بريطانيا إلى طبيعة ثابتة في أهلها هي طبيعة الالتحام :

³⁹ لقد كان الصراع القيسي اليماني في فلسطين مثلا هو الصراع الغالب، قبل الحكم البريطاني، على الريف الفلسطيني أي على 70% من مجموع السكان العرب «كانت القرية تمثل أكبر الوحدات الاجتماعية في الريف الفلسطيني وبما أنها تتكون من مجموعة عائلات كبيرة بعضها (قيسي) والبعض الآخر (عيني) فكثيرا ما كانت تنقسم على بعضها في حالة نشوب خلاف بين أفرادها» (ابراهيم رضوان الجندي - سياسة الانتداب البريطانية الاقتصادية في فلسطين 1922 - 1939 . - عمان، 1986 . - ص 50) فإذا أضفنا إلى هذا الصراع الصراع العربي - الشركسي (عائلة النشاشيبي مثلا) حصلنا على فكرة عن الثغرات التي سهلت تحقيق المشروع الصهيوني.

⁴⁰ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته . - بيروت، 1988 - ص 217

« يقولون لماذا سادت الأمة الأنكليزية هذه السيادة كلها في العالم ؟ نجيبهم أنها سادت بالأخلاق والمبادئ الوطنية العالية. حدثني رجل ثقة أنه يعرف أنكليزيًا ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يوميًا من دكان رجل أنكليزي في البلدة التي هم فيها. فجاءه الخادم مرةً بجدول حساب وفرّ به 20 جنيها في شهر. فسأله الأنكليزي : كيف أمكنك هذا التوفير ؟ فقال الخادم : تركنا دكان الأنكليزي الذي كنّا نشترى منه وصرنا نشترى من دكان أحد الأهالي من العرب فقال له الأنكليزي : ارجع إلى دكان الأنكليزي الذي كنّا نشترى منه. فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيها زيادة ؟ قال الأنكليزي : ولو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيها زيادة. وسمعت أن كثيرا من الأنكليز الذين في الأقطار لا يشترون شيئًا ذا قيمة إلا من بلادهم ويرسلون إلى لندرة مالهم في الخارج (...) أفنقيس هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم وعلموا أنهم يقدرّون أن يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملّتهم ورجّحوا الإفرنجي؟⁴¹ وإذا كان شكيب أرسلان قد فسّر هيمنة الأنكليز بتعصّبهم لبعضهم البعض فمن السهل على المرء أن يتكهّن بموقفه من اليهود الذين قامت فلسفتهم الصهيونية على رفض الاندماج في الأمم الأخرى :

« وهؤلاء اليهود مهما ننكر عليهم من الفضائل فلا تقدر أن نكر عليهم المقدرة والذكاء والحس العمليّ والجذّ الهائل لا يزالون يفخرون بثورات وجدت منذ آلاف السنين (...) ولماذا نرى أعظم شبّان اليهود رقيًا عصريًا يجاهدون في إحياء اللغة العبرية التي لا يعرف مبدأ تاريخها لتوغّلها في القدم (...)؟⁴² »

إن سبب نجاح كلّ من بريطانيا واليهود هو « روح التلاحم » ومثل هذه الروح لا يساويها، في تفسير حركة التاريخ شيء إذ « ليست الدبّابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم وتوقد نيران الحميّة في صفوف البشر، بل الحميّة والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبّابات والقنابر (يعني القنابل) وما هذه إلا مواد صمّاء لا فرق بينها وبين أي حجر، فالمادّة لا تقدر أن تعمل شيئًا من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الروح⁴³ .

⁴¹ شكيب أرسلان . - لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم . - ص 48

⁴² شكيب أرسلان . - المصدر السابق . - ص 102

⁴³ شكيب أرسلان . - لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم . - صص 77-78

إن تفكير الأمير لا يقول، إذن، بغير الطبائع الثابتة، هذه الطبائع إما أن تكون في حالة توهج وعند ذلك يكون الرقي وإما أن تكون في حالة خمود وعند ذلك يكون الانحطاط. هذا التوهج مرادف عنده للتماسك والحماسة والعزيمة والتضحية أي لكل هذه السمات النفسية التي يعد كل ما هو مادي تابعا لها ولذلك يمكن أن نعد تفكيره مناقضا مناقضة تامة لتفكير الشدياق مثلا.

إن الموت نفسه قد يعبر، عند الأمير، عن حالة التوهج كما قد يعبر عن حالة الخمود:

« إن الموت موتان: أحدهما الموت لأجل الحياة وهو الذي حثّ عليه القرآن الكريم (...) وهو الموت الذي يموت به الفرنسي لأجل حياة فرنسة والألماني لأجل حياة ألمانية والأنكليزي في سبيل حياة بريطانيا العظمى (...) وأما الموت الثاني فهو الموت لأجل استمرار الموت، وهو الذي يموت به المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم وذلك أنهم يموتون حتى ينصروها على أعدائها»⁴⁴.

يبدو من كل ما تقدّم هذا النقد الشديد والمبطن في الآن نفسه للعروبية الإسلامية فهي في نظره :

أولا: فاقدة، طبيعة، لروح الوحدة.

ثانيا : تعمق الانقسام العرقي عند العرب بإضافة دعوة إلى الانقسام السني الشيعي.

ثالثا: تدعو، وهي غير القادرة - لطبيعتها - على التوحد، إلى الانفصال عن

الخلافة، ملاذ العرب الأخير، والقوة الوحيدة التي يمكنها، على ضعفها، أن تقيهم من مطامع القوى العظمى.

ولذلك أعتبر شكيب أرسلان المشروع العروبي الإسلامي «كيذا» للعرب والأتراك

جميعا (الطويل)

ولكن لصيد الأمتين حبا لله

ينال لديها العزّ من هو أم لله

ومهما استطال الليل فالصبح واصله⁴⁵

وكيد على الأتراك قيل مصوب

فليست بغير الاتحاد وسيلة

سيعلم قومي أنني لا أغشهم

⁴⁴ شكيب أرسلان. - المصدر السابق . - ص 56

⁴⁵ مارون عبّود . - رواد النهضة الحديثة . - بيروت، 1952 . - ص 112

خلاصة كل ما تقدّم أن الإسلاميّة ممثّلة في الأمير شكيب أرسلان لم تكن تختلف عن العروبيّة الإسلاميّة في النظرة إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثم إلى علاقة الدولة بالمجتمع إذ النظرتان تذيبان المجتمع في الدولة قياساً إلى حرّيّة الله في تشكيل الطبيعة ولكنّ ما تختلفان فيه هو إلحاح العروبيّة الإسلاميّة على أن لاشريعة إلّا لـ « دولة الإسلام العربيّة » ممّا يحولها إلى قوّة نابذة متعاطفة مع كل حركات التمرد على السلطنة في الكويت ونجد والحجاز وإلحاح الإسلاميّة على ضرورة الحفاظ على وحدة الخلافة ممّا يحولها إلى قوّة مناصرة لعبد الحميد في البداية وللعثمانيين الاتحاديّين بعد ذلك ومعادية لكل القوى النابذة ومنها العروبيّة الإسلاميّة⁴⁶ وهذا هو ما ينير كلام شكيب أرسلان ومواقفه حتّى نهاية العقد الثاني من القرن العشرين التي تقف عندها هذه الدراسة :

« إنّ سقوط أهميّة الدولة لا تنحصر ضرورة في الترك وحدهم بل يتناول جميع المسلمين لأن الأوربيين مهما اجتهدنا ومهما حاولنا التظاهر بالقوميّة لا يعرفون المسلمين إلّا أمة واحدة إذا سقط بعضهم رأيت الأوربيين احتقروا الجميع »⁴⁷.

كيف نوفّق الآن بين ما أورده سعود المولى من أن تفكير الأمير وممارسته أملتتهما عليه « سياسته العائليّة والعشائريّة » ممّا قد يوحي بازدواجيّة الأمير الدرزي نظراً إلى ما عرف عن الدروز من أخذ بـ « التقيّة » وما حاولنا نحن أن نبيّنه من خلوص نيّة الأمير ؟ لا يوجد في نظرنا تناقض بين الرأيين فالأمير كان طيلة حياته يفيض على طائفته الصغيرة وكان مسكوناً بالماكر - سياسة يضيق بالكيانات القوميّة الصغيرة خاصة أن تكوينه التقليديّ كان يحول دون اعتبار الظروف الماديّة والموضوعيّة التي تقسّم العالم العربيّ والإسلاميّ وهو لم يخش حتّى عندما تمرد الجيش الثالث على عبد الحميد أن ينظم موصياً بالتروّي داعياً إلى الحفاظ على الخلافة :

ألا يا بني عثمان حسبكم بشـرى لقد جاء ربّ العرش بالنعمة الكـبرى
وقد فزتم ذا اليوم بالغاية الـتي عليها رجال قد قضاو دونكم قـهـراً
وكم قد أسأتم من ظنون وقلتم مضيّنا وبعض الظنّ يحـتـقـب الـوزـراً
ولا عذر في التقصير بعد الذي جرى فما فات فرض الصوم من شهد الشـهـراً

⁴⁶ نقتصر في هذا الفصل على الإشارة إلى موقف الإسلاميين من العروبيين الإسلاميين إذ من السهل تصوّر مواقفهم

من القوى النابذة الأخرى مثل القوميّة اللبنانيّة أو القوميّة الصهيونيّة

⁴⁷ شكيب أرسلان - سيرة ذاتيّة - بيروت، ط1، 1969 - ص 109

وفدّوا أمير المؤمنين بأنفسهم
 سيغدو لكم دور جديد بـجوده
 تلقوا لنا العصر الجديد بحكمة
 كفتها إلى عثمان نسبتها فـخـرا
 وقبل أياديه على هامكم تـتـرى
 فقد جاء عدوا في شبيبته الخـضـرا⁴⁸

⁴⁸ (شكيب أرسلان . - الديوان، ص 103

الفصل الثاني

التوأمان المتناكران

استعان أعوان وزارة الداخلية الحميدية بالشرفاء العونيين على قتل أحمد مدحت باشا في سجن الطائف سنة 1883 قتلة شنيعة :

« جعلوا إقامتهم من البداية في القلعة لكن مع الترفيه والاعتناء وكان لهم طاه خاص يصلح لهم طعامهم. لكن بعد أن مضت على ذلك مدة شرعوا بالتضييق عليهم وأبوا أن يطعموهم إلا من غذاء العسكر. وبعد عدة سنوات من حبسهم بالقلعة وفي أيام المشير عثمان نوري باشا قرروا قتل مدحت (...) فدخل عليه ملازم تركي اسمه إسماعيل قيل لي يوم كنت بالطائف (صيف سنة 1347) إنه لا يزال حيا يرزق وإنه مقيم بجدة، ولم يكن قتل هذا الضابط لمدحت خنقا كما كنا نسمع بل قبض على أنثييه واستلهما بقوة عصبه، فبرد مدحت في مكانه، ثم عادوا إلى الداماد فحاول أن يجاحش عن خيط رقبته، ولكنهم صرعوه وأزهقوا روحه. ولم يستلما للموت بدون صراخ بل استغاثا بالجيران الذين بيوتهم مجاورة للقلعة، فصاح النساء الذين في القلعة ووبخنهم ودعون عليهم واشتدت الولوجة إلا أن ذلك لم يمنع قيام القتلة بإنفاذ الأمر. وأما خير الله أفندي، شيخ الإسلام، فلم يمسه وبقي في القلعة إلى أن مات. وتزوج بالقلعة وولد أولادا وعاش طويلا. ودفن مدحت ومحمود الداماد بترية الحبر ابن عباس (...) وقد جاء بعض الأتراك بعد إعلان الدستور العثماني وبحثوا عنهما وبنوا لهما قبرين حيث رجع الناس أنه وقع دفنهما¹.

لقد كان لعملية الاغتيال التي نفذتها الدولة الحميدية الإسلامية وقع شديد على بقايا العثمانيين الفتيان سواء كانوا فاضليين أو مدحنيين إذ دلت فيما يتعلق بسياسة عبد الحميد الداخلية أولا على ما يمكن أن تصل إليه هذه السياسة في تعاملها مع رموز المعارضة وثانيا على إصرار هذه السياسة على تدمير جيل أحمد مدحت باشا بل جيل نامق كمال. أما فيما يتعلق بسياسة عبد الحميد الخارجية فقد دلت على تحول حميدي نهائي نحو ألمانيا لما عرف عن بريطانيا من دفاع عن مدحت باشا ومن سعي إلى منع امتحانه قبل نهاية السبعينات.

¹ شكيب أرسلان. - الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف (الرحلة الحجازية). - القاهرة، 1350، ص

هذا الوضع أدّى إلى ظهور جيل جديد معارض لسياسة عبد الحميد الإسلامية سيعرف باسم « جماعة الاتحاد والترقي » ولد أشهر ممثليه في خمسينات القرن التاسع عشر وستيناته ويمكن أن نعدّ منهم "التركي" أحمد رضا والكردى عبد الله جودت² والماروني سليمان البستاني والأذربيجانيّ حسين زاده علي³.

إنّ السمة الأولى الجامعة بين هذه الأسماء هي أصولها العرقية وديانات النشأة المختلفة ممّا يذهب بكلّ الآراء التي تودّ أن ترى في مؤسّسي " جماعة الاتحاد والترقي " جماعة « تركيّة » أمّا السمة الثانية فهي أخذها بنظرة حديثة إلى الله والطبيعة ومن ثمّ إلى العلاقات الاجتماعية. وتعتبر سنة 1889 سنة على غاية من الأهميّة في تاريخ هذه الجماعة إذ ستظهر هذه المعارضة الجديدة التي تنتمي إلى الطبقتين الوسطى والصغيرة في أكثر من موقع فيحوطها بعض قداماء "الجمعية العلميّة السوريّة " الذين فضّلوا، بعد حلّ البرلمان سنة 1877، الهجرة إلى أوروبا، برعاية تامّة، نقصد منهم خاصّة المفكر والسياسيّ الماروني المنشأ خليل غانم⁴.

كتب برنارد لويس عن الجيب الطلابيّ المعارض الذي نشأ سنة 1889 في أوساط كليّة الطبّ العثمانيّة في الآستانة :

« إن أوّل مجموعة منظمّة للمعارضة تكوّنت سنة 1889 أي كما لاحظ ذلك أحد المؤرّخين الأتراك، سنة مائويّة الثورة الفرنسيّة⁵ وقد كان المؤسّسون أربعة طلاب طبّ

² عبد الله جودت (1869-1932). انشأ جريدة "عثماني" (العثماني) في جنيف وشاركه زميله إسحق سيكوتي في تحريرها ثم جريدة "اجتهاد" في مصر وكانت تنشر مقالات بكلّ اللغات وجودت هو أحد كبار المتفرّجين " لا يكفّ يكن عن وصفه بـ "صديقي" ممّا يدلّ على أنه كان فاضلياً صباحياً ائتلافياً (انظر دائرة المعارف الإسلاميّة 546/II-547).

³ حسين زاده علي (1864 — 1941) ولد في باكو حيث كان أبوه يشتغل في الثانوية تخرّج من سان بترسبورغ بدبلوم في الطب والتحق سنة 1889 بمدرسة الطب العسكرية في اسطامبول ثم أصبح طبيباً رئيساً فاستأذناً في الطب عاد الى القوقاز سنة 1904 وعاد إلى اسطانبول سنة 1910 ونشط ضمن جماعة يوسف أقجورا ثم أصبح سنة 1913 أحد أعضاء لجنة الاتحاد والترقيّ p30 - Paris, 1980. - F. Geogon . (Aux origines du nationalisme Turc.

⁴ خليل غانم (1846 ~ 1903) عضو مجلس النواب العثماني (1876)

⁵ من أهمّ ملّحذنا على برنارد لويس استماتته في كل أطروحته في البحث عن تواريخ، ولو تقريبية أو تستند إلى مجرد روايات لا إجماع حولها، لربط تاريخ العثمانيين (أي الاتراك عنده) بأحداث أو تيارات ظهرت في أوروبا (أي في فرنسا عنده). ولقد رأينا قبل الآن أنه، عند الحديث عن عثمانى 1867، استند إلى رواية تقول إنه قد شوهد أحدهم وهو

اجتمعوا في ماي في حدائق مدرسة الطب العسكرية (...) وهم إبراهيم تيمو الألباني وليد أوهريد ومحمد رشيد الشركسي من القوقاز وعبد الله جودت الكردي من عربكير وإسحق سيكييتي الكردي من ديار بكر⁶. ويضيف بعض الكتاب اسما خامسا وهو حسين زاده علي، من باكو، في الإمبراطورية الروسية. وقد كبر التنظيم الجديد بانتداب منخرطين جدد من بين تلامذة المدارس العسكرية البحرية منها والطبية ومن بين تلامذة مؤسسات التعليم العالي الأخرى في العاصمة. وكما كان الأمر بالنسبة إلى سابقهم من العثمانيين الجدد سنة 1865 فإن هؤلاء المتآمرين الجدد أسسوا، على غرار الكربوناريين الإيطاليين، شعبا مرقمة يعرف كذلك المنخرط في إحداها برقم يسند إليه. هكذا كان تيمو مثلاً، وهو أول عضو في أول شعبة، يحمل الرقم 1/1 وبواسطة مكتب البريد الفرنسي في غلطة، كان المتآمرون على صلة بباريس التي تكون فيها في الأثناء أول تنظيم معارض للمنفيين⁷ إشارة منه واضحة إلى العثمانيين الفتيان في المنفى منذ السبعينات.

يتضمن نص برنارد لويس فكرتين أساسيتين أولاهما اعتبار سنة 1889 سنة نشأة المعارضة الجديدة المنظمة لسياسة عبد الحميد سواء في الآستانة (الأوساط الطالبيّة) أو باريس (أوساط المعارضة الأكبر سنًا والأكثر تجربة) وثانيتهما الإشارة الضمنية إلى التواصل بين حركة العثمانيين الجدد (1867) والحركة المعارضة الجديدة (1889).

ونحن نعتبر أن الذي قاده إلى أن يذهب هذا المذهب هو أولاً حرصه الشديد على ردّ المعارضة العثمانية جميعها إلى مصادر فرنسية وثانياً حرصه كذلك على ردّ هذه المصادر الفرنسية نفسها إلى الشقّ الراديكاليّ فيها ممثلاً في التراث اليعقوبي الذي سيتبنّاه الماسونيون الكربوناريون الإيطاليون. وقد يكون مردّ حرص برنارد لويس هذا إلى سعيه إلى إقامة فاصل عازل بين هذه المعارضة ذات الأصول البورجوازية الوسطى والصغيرة والمعارضة الائتلافية

يحمل إحدى كتابات الكربوناريين، ليربط بين بعض مؤسسي جماعة العثمانيين الفتيان وهذه الحركة الماسونية الثورية اللاتينية (بل الغاريبالدية) وكل تاريخ الفاضلين — الصباحيين — الإئتلافيين إنما هو تاريخ معاد لهذا الاتجاه الجمهوري الراديكالي.

⁶ لا يوجد، كما يمكن أن يلاحظ ذلك المرء بسهولة، "تركي" صاف واحد من بين مؤسسي التيار الذي سيصبح فيما بعد التيار العثماني الاتحادي فتحى أحمد رضا كانت أمّه "نمساوية بحرية"

⁷ برنارد لويس - الإسلام واللايكية... ص 177

اللاحقة التي ستكون على مقاومتها لسياسة عبد الحميد بمثابة ردّ الفعل على « راديكالية » المعارضة المتواضعة الأصول.

ونحن لا نعتقد أنّه يوجد مثل هذا الفاصل العازل بين الشّقيّين العثمانيين. ومما يدلّ على صحة ما نذهب إليه من تهافت الرأي القائل بـ « أهمية معارضة طلاب المدرسة العسكريّة البالغة » في الآستانة هو أن أحمد رضا الذي سيصبح رمزا للاتحاديّين لم يكن عسكريّ التكوين وقد اختار سنة 1889 أن يهاجر إلى فرنسا وينشط فيها سياسياً ضدّ عبد الحميد صحبة الماروني "خليل غانم" أحد قدماء الجمعيّة العلميّة السورية وزميل أبيه في البرلمان العثمانيّ الذي حلّه عبد الحميد سنة 1877 ولم يبق منه إلّا على مجلس الأعيان. فلم لا تكون معارضة باريس ، على عكس ما يذهب إلى ذلك برنارد لويس ، هي الأصل وتأسيس ناد طلابيّ سريّ معارض في الآستانة هو الفرع ؟⁸ لقد كان خليل غانم أحد البرلمانيين العثمانيين الذين فضّلوا عند حلّ البرلمان الهجرة إلى فرنسا مثل زميله السدرزيّ الأمير أمين أرسلان⁹ وزميله ضياء الدين الخالدي (1829-1906) فنشط الجماعة في المهجر في « كتابة المقالات في الصحف الأوربيّة وكانوا يحملون فيها على الاستبداد الحميديّ ويدعون إلى مناوآته »¹⁰ ولكنّ أنشط هؤلاء الشوام كان خليل غانم. فلقد أصدر جريدة بالفرنسية في جنيف اسمها (الهلال) كما تولّى في باريس تحرير جريدة فرنسية اسمها (فرانس أنترناسيونال).

ما يهمّنا أساساً في خليل غانم هو هذه النزعة العثمانيّة الراسخة المعادية للقوى النابذة ومنها القومية اللبنانيّة واتجاهه العمليّ وميله مثل الشدياق إلى اعتبار فهم الماديّ والطبيعي والاقتصاديّ المفتاح الوحيد لحلّ القضايا الشائكة في السلطنة. ولذلك كان هذا

⁸ وقع كثير من المؤرخين الشوام، عندما أرّخوا "للربيّة الفتاة" ولم يعتبروها "ظلاً" للامركزيّة القاهرة، في مناهة مماثلة

⁹ أنشأ في باريس جريدة "كشف النقاب" وألّف "حقوق الملل ومعاهدة الدول"، في أربعة أجزاء طبع الرابع منها في

(هلال) جورجي زيدان سنة 1900

¹⁰ عزة دوزة . - نشأة الحركة العربيّة الحديثة . - صيدا - بيروت، ط2، 1971، ص 144

العثمانيّ الاتحاديّ من أوائل من ألقوا وهم يشهدون إفلاس الخزينة العثمانية، في الاقتصاد السياسي¹¹

ولعلّ أفضل دليل على مكانة هذا العثمانيّ الاتحاديّ النابذ لفكرة القوميات هو ما كتبه عنه العثمانيّ الفاضليّ، خصم العثمانيين الاتحاديين، وليّ الدين يكن :
"فأما غانم فهو أبو المقالات الرئانة في جريدة "مشورت" الفرنسية وغيرها. جاهد جهاد لا وان ولا متخاذل واشتدّت وطأته على الظالمين فطلبوه بكلّ حيلة وحاربوه بكلّ شرّ فما فتنوا له لبّا ولا زعزعوا له جأشاً"¹².

فإذا كان هذا هو دور المارونيّ خليل غانم قبل تأسيس "مشورت" وبعدها فلم هذا الميل إلى نسبة كلّ شيء تقريباً إلى "التركي" أحمد رضا ؟

ولد أحمد رضا (1859 - 1930) في إسطنبول من عليّ رضا باي¹³ الملقب بـ "انجليز عليّ" ومن أمّ نمساوية مجرية وتلقّى تعليمه الثانويّ بمعهد "غلطة سراي" الفرنسيّ ثمّ درس الزراعة بفرنسا والتحق بباريس سنة 1889 وهو في سنّ الثلاثين لينضمّ إلى قوى المعارضة لحكم عبد الحميد : ولسوف يصبح عند إعادة العمل بالدستور أولّ رئيس للبرلمان العثمانيّ الجديد ولذلك يمكن عدّه من بين ورثة خطّ أحمد مدحت باشا، هذا السياسيّ "الإنسان" بالمعنى الهيجلي للكلمة الذي اعتبر العثمانيون الاتحاديون "قصّة اشتراكه في المؤامرات التي كان ضحيّتها السلطان عبد العزيز (...)" خدمة وطنيّة الغاية منها بناء الدولة على أساس دستوريّ، ديمقراطيّ بعد أن أصيب تاريخ سلطنة آل عثمان بعار الاغتيالات (...). والدليل على ذلك هو ما قام به الأحرار بعد انقلاب 1908 وخلع السلطان عبد الحميد، آخر سلاطين الحكم المطلق، من إحياء ذكرى مدحت باشا وتحيّة روحه والإشادة بفضله وتكنيته بأبي الدستور"¹⁴.

¹¹ "الاقتصاد السياسي أو فنّ تدبير المنزل". - الإسكندرية، 1879 وقد كتب هشام شرابي في الموضوع = "وربّما كان الكتاب الأوّل عن الاقتصاد السياسي في اللغة العربيّة هو لخليل غانم" (المثقفون العرب و الغرب، بيروت، 1971،

ص 90)

¹² وليّ الدين يكن . - المعلوم والمجهول، ص 65

¹³ كان عضواً في برلمان 1877 ثمّ نفاه عبد الحميد إلى الجين حيث مات

¹⁴ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، صص 55-56

اجتهد برنارد لويس في بيان تطوّر الأفكار بين جيليّ مدحت باشا وأحمد رضا فكتب :

« مدّت النظريّات الأجنبيةّ الجيل الجديد من جديد بالأسس النظريّة للنقد السياسيّ والاجتماعيّ وإذا كانت فرنسا مازالت هي المنبع الفكريّ الأساسيّ، فإنّ التأثير الغالب على تفكير الإصلاحيين والثوريين الترك لم يعد لأنوار القرن الثامن عشر وإنما تحوّل إلى علوم القرن التاسع عشر الاجتماعيّة فتنزّل أوغست كونت منزلة الصدارة إذ ألهمت سوسيولوجيته الوضعيّة أحمد رضا (...) وأثّرت تأثيراً عميقاً في تطوّر الراديكاليّة اللائكيّة في تركيا »¹⁵.

ويضيف برنارد لويس فيما يتعلّق بمضمون "السوسيولوجيا الوضعيّة" وبانتشار "مشورت" في العاصمة العثمانية : "سنة 1895 ، بدأ أحمد رضا ، بالاشتراك مع منفين آخرين ، ينشر جريدة نصف شهرية هي "مشورت". هذا الاسم ذو الأصل العربي والذي يعني "الشورى" هو صدى للجدل القديم الذي كان يسعى إلى بناء الحكم على أساس من القرآن أمّا شعاره "انتظام وترقي" (نظام وتقدّم) فقد كان شعار الوضعيّة. ولاشكّ أن جماعة استنبول غيروا ، تأثراً بهذه الوضعيّة ، اسمهم "اتحاد ـ ي ـ عثماني" (الوحدة العثمانية) وتبنّوا اسم "اتحاد وترقي" (اتحاد وتقدّم) ذلك أن "مشورت" التي كان يقع توريدها خلسة بطرق مكاتب البريد الأجنبيةّ وبطرق أخرى بدأت تنتشر بأستنبول وهي إن ساهمت بذلك في تنمية عدد المنخرطين في الجمعية السريّة فقد جلبت إليها ضرورة أنظار السلطة »¹⁶.

إنّ أطروحة برنارد لويس اختصّت بتركيا¹⁷ ولذلك نلاحظ هذا التركيز المشطّ على "تركيا" وعلى "الترك" في زمن تقول عنه دراسات أكثر تجرّداً ونفاذاً إنه كان خلوا من الشعور القوميّ التركيّ.¹⁸ ولعلّ ذلك هو السبب الذي دفعه إلى التركيز على أحمد رضا من دون غيره من غير الأتراك وعلى هذه الوضعيّة التي لم تبدأ ، في نظره بالانتشار ، إلا بعد

¹⁵ برنارد لويس . - الإسلام واللائكيّة ، ص 15

¹⁶ برنارد لويس . - الإسلام واللائكيّة، ص 177

¹⁷ عنوانها الكامل هو - الإسلام واللائكيّة . - نشأة تركيا الحديثة.

¹⁸ كتب ف. جورجون - "عندما اندلعت ثورة تركيا الفتاة في تركيا في جويلية 1908 كان التيار الوطني فعلا غير

موجود فلا صحيفة ولا جمعية تدافع عنه، ولا رجل سياسة أو أي حزب ينتسب إليه صراحة" F. Georgeon.- Aux

Origines du nationalisme turc.- Paris, 1980, p 40

1895 عندما أسس أحمد رضا، مع منفيين آخرين، المشورة نصف الشهرية. ويكفي أن نعرف أن من بين هؤلاء "المنفيين الآخرين" كان يوجد خليل غانم الذي ينتمي إلى جيل ما قبل جيل أحمد رضا حتى يتأكد المرء أن ما ينسبه برنارد لويس إلى أحمد رضا إنما كان في حقيقة الأمر شائعا في البلقان وفي الشام بداية من ظهور "الساق على الساق" = نعثر عليه عند أديب إسحاق (مات 1885) وعند سليمان البستاني وغيرهما ولهذا فإن أهمية أحمد رضا لا تكمن، في نظرنا، في سبقه إلى الأخذ بالوضع (وعن أي وضعيت يتحدث برنارد لويس وورثة أوغست كونت فرقتان متناكرتان) بقدر ما تكمن في الربط بين المدحيتية من ناحية والعثمانية الاتحادية من ناحية ثانية أي في القول بضرورة المركزية في السياسة الداخلية والقول بالوطنية السياسية والقول بالوطنية الاقتصادية، أي بهذه المقومات الثلاثة للنظرة العثمانية الاتحادية. لقد درس أحمد رضا في فرنسا وتأثر بـ "بيير لافيت" (1823-1903) أحد مشاهير الوضعيين وخضم إميل ليتري (1801 - 1881) في الكونتيه. كان لافيت ينتمي إلى هؤلاء الوضعيين الكونتيين الأرثوذكس الذي يتبنون جملة آثار أوغست كونت بما في ذلك "الطريقة الذاتية" و"دين الإنسانية" أما ليتري فقد بدأ خلافه مع أوغست كونت منذ 1851 لأسباب أيديولوجية خاصة إذ اختار كونت الانحياز إلى فكرة "النظام" التي جسدها نابليون الثالث عندما قبر الجمهورية الثانية وأحل مكانها الإمبراطورية الثانية. وقد قرأ ليتري الكونتيه قراءة ابتعدت بها عن أصولها الأولى ونظر لذلك بداية من سبعينات القرن التاسع عشر فسادت هذه القراءة التي تفهم الوضعية على أنها "نزعة موضوعية وعقلانية" ميزت التفكير العلمي في القرن التاسع عشر، مهمة بذلك جوانب أساسية في الكونتيه.

ويبدو أن أرثوذكسية لافيت وصلت حد انتهاج نهج أستاذه، أوغست كونت، عندما اختار الانحياز إلى نابليون الثالث إذ انحاز لافيت بدوره إلى الجمهورية الثالثة (1871-1940) التي تقول بالبرلمانية والمركزية في آن واحد والمعادية للإكليروس. وهذا هو بالذات ما تبرزه مقاومة بعض من يعتبرون أنفسهم "أرثوذكسيين" حقيقيين لهذا الأرثوذكسي "المزيف" :

« إن بيير لافيت يعتبر مسؤولا إلى حد كبير عن الأسطورة التي نسجت لفترة من الزمن حول اسم أستاذه الشهير إذ اعتبر لسنوات طوال المعبر الرسمي عن الوضعية وذلك رغم أنه كان يؤولها بطريقة فريدة حقا، خالطا بين الجمهورية والبرلمانية، مصرا على غض النظر عن مسألة الحرية الدينية، وماندعا في التشهير بـ "خطر الإكليروس" ومكررا بالحاح

سوف يلقي ظللا قاتمة على ذكره أن «غامبيتا وجول فيري» قد أسسا عندنا النظ النهائي»¹⁹.

إن خصوم لافيت ليسوا أقل لاثكية منه ولكثهم كانوا يرفضون هيمنة الدولة هيمنز كاملة على المجتمع وفرض التغيير عليه فرضا وبطريقة جذرية وسريعة. فهذا (بومان) الذ رأينا مدى عداوته لـ"لافيت" يعرف ما يجب أن تكون عليه الوضعية القديمة :

« إنه ما كان يمكنني أن أكون هذا المعجب المتحمس بأوغست كونت لو كنه أعتقد في خلود الكاثوليكية ولكنني كذلك لا أعتقد أن نهايتها ستكون في مستقبل قريب جذ ذلك أن الكاثوليكية إذا لم تعد كما كان شأنها في القرن الثالث عشر كافية لإشباع عطش ك الناس، فهي مازالت اليوم أكثر من غيرها من المعتقدات ملائمة لطريقة أغلب النار في الإحساس. وفيها قوة روحية ليس بالإمكان القضاء عليها باستعمال وسائل القس القانونية»²⁰.

إن معاداة "الليترين" للمركزية التي سيتبنها أحمد رضا تبدو إذن واضح ولا مبرر لهذه العداوة غير اعتبارهم أن هذه المركزية ارتبطت بالثورة الفرنسية التي أد دورها في فترة معينة لا بد من تجاوزها. هذا الموقف من المركزية (أي في نهاية الأمر م هيمنة السياسي) يمكن رده، في حقيقة الأمر إلى فترة سبقت فترة انتشار الوضعية الكونتية فرنسا والستيوارية الميلية في بريطانيا خاصة وإلى سان - سيمون "Saint Simon" (1760 1825)، أحد كبار المعادين لهيمنة السياسي على الاجتماعي : والمجال الذي يظهر أكثر م غيره هيمنة السياسي في البلدان الديمقراطية هو مجال المناظرات البرلمانية التي لا بداية و نهاية لها ولذلك فإن المعرفة (أي علم الاجتماع) حسب سان سيمون « تتأسس فحسد عندما يصبح المعرفي منصبا لا على الأنظمة السياسية وإنما على العلاقات الاجتماعية »²¹ ويعطي سان- سيمون مثالا على تهافت السياسي ببيان أسباب الثور الفرنسية الحقيقية نفسها التي لم تكن، في نظره، نتيجة "الأفكار التنويرية" في القرن الثامن عشر وإنما كانت نتيجة التغيرات الداخلية في صلب المجتمع الإقطاعي :

¹⁹ Antoine Baumann .- Le programme politique du positivisme .- Paris, 1904.- p.7 note 1

²⁰ أنطوان بومان .- البرنامج السياسي للوضعية .- باريس، ص 20

²¹ Ansart .- la Sociologie de Saint-Simon.- Paris, 1970.-p.184

« لقد بيّن تحليل النظام الإقطاعي أنّ نظاما كهذا لا يحمل في ذاته أسباب انحلاله وضرورة تفكّكه : فطالما بقيت الظروف التي ولّدته قائمة وطالما اقتصرّت الصناعة على أشغال الزراعة وبقيت المعارف ظرفيّة تمكّن النظام الإقطاعي من المحافظة على قوّته. ومن الخطأ المحض التفكير أنّه كان يمكن للوعي بالاضطهاد أو للحدق على الطغيان أنّ يتكوّنا في مثل هذا النظام وأن يسبّبا سقوطه. إن ضعف هذا النظام لا يمكن أن يتأتى إلاّ من تحوّل داخليّ في ظروف بقائه وهو تحوّل يسبّب، بتغييره التوازنات اللازمة لهذا النظام، سقوطه التدريجيّ. وإذن فإنه يجدر البحث في صلب تركيبة النظام الإقطاعي نفسها عن التحوّلات البطيئة التي سيكون تناميها سببا في مواجهة بين (هذا النظام) ونظام العلاقات الاجتماعية وفعلا فإنه في حين يبلغ هذا النظام أقصى ما بإمكانه أن يبلغ "تبدأ بذرة سقوطه بالنشوء" ²². ويميّز سان - سيمون ، ضمن هذه القوى المتنامية والمحلّة للنظام الإقطاعي عنصرين : انتشار الصناعة وتكوّن المعرفة الوضعيّة التدريجيّ.

لم يولد كارل ماركس (1818 - 1883) أو على الأكثر كان طفلا يحبو عندما كتب الأرسقراطي سان - سيمون ما كتب من آثار تتغنّى بقدرة نمط الإنتاج على الفعل الفائق في "الأبنية الفوقية". والمفكران معا كانا آخذين بنظرة إلى الطبيعة تحل الطبيعي والموضوعي المحلّ الأسنى في عملية قطع فكريّ نهائية مع الفلسفات المثاليّة التقليديّة. ونحن هنا نودّ أن نذكّر بـ "مثل النحل والزنابير" الذي ضربه سان - سيمون على مدى تأثير النحل (العلماء - أصحاب الشركات الإنتاجيّة - التجار - الصنّاع - المخترعون - العمال) والزنابير (النبلاء - الوزراء - الكرادلة - الولاة - الملاك الزراعيون) في التطوّر الفعليّ في المجتمع :

« في الأوّل منهما تخيل ما يمكن أن يلحق المجتمع الفرنسيّ من أضرار نتيجة فقد أفضل العلماء والمهندسين وأصحاب المصانع والتجار والصناعة والعمال أمّا في الثاني فقد تخيل ما يمكن أن ينجرّ عن موت أكبر النبلاء ووزراء الدولة والكرادلة والولاة وأغنى الملاكين العقاريين. وانتهى إلى أن الضرر بقدر ما يكون فادحا في الافتراض الأول يكون خفيفا في الافتراض الثاني. ذلك أن فقدان أفضل المنتجين يمكن أن يحدث تراجعاً تكون نتائجه وخيمة على المجتمع جميعه. وعلى العكس من ذلك فإنه يمكن تعويض النبلاء ووزراء الدولة

وكبار ضباط العرش من دون أي صعوبة ولا ينجر عن فقدهم أي ضرر بالنسبة إلى مجموع السكان»²³.

هذا المثال وحده يكفي، في نظرنا، للدلالة على فهم معين للوضعية كما ستتحدد عند أوغست كونت وكما اجتهد أحد الباحثين في تحديدها :

« يقوم كونت في "الخطاب حول روح الوضعية" بتحليل دلالي لهذا اللفظ فيطلق على "الوضعي" صفة "الحقيقي" باعتباره نقيضا لـ "الوهمي" وصفة ما يمكن أن يتوق إلى "اليقين" باعتباره نقيضا لـ "التردد والحيرة" وصفة "الدقيق" باعتباره نقيضا للفضاضة و"المفيد" باعتباره نقيضا لما لا ينفع " وأخيرا على أنه صفة لـ "النسبي" باعتباره نقيضا لـ "المطلق" ²⁴.

ولا يعدو "بومان" وهو يقاوم منحى "لافت" هذا التعريف للوضعية الأرثوذكسية فهو مثلا يرى في كثير من الشعب التي حوتها الجامعة الفرنسية "خلية زنابير" كثيرة الضوضاء قليلة التأثير الفعلي والإيجابي في المجتمع :

« إن الميتافيزيقا الأكثر ضبابية أصبحت اليوم، وخاصة منذ الأزمة الدريفوسية التي دلت على أن هذه الحركة بلغت أقصى ما يمكن أن تبلغ، هي المهيمنة هيمنة كاملة على الجامعة وتجاوز هراء الكانطية الجديدة قسم الفلسفة إلى علم البلاغة بل إلى أقسام النحو ²⁵ ».

في هذا النقد للجامعة الفرنسية يعثر المرء على ألفاظ "ضبابية" و"هراء" وبشكل أكثر كمونا "لا فائدة" الذي يذكره بومان صراحة في موضع آخر باعتباره نقيضا لـ "الفائدة" :

« إنني شديد الرغبة في معرفة الفائدة من هذه الكراسي في النقد الأدبي التي تسمى كرسي الشعر الفرنسي وكرسي البلاغة اللاتينية وكرسي الأدب الإفريقي الخ وأنا لا أعلم أنه كان لهذه المخابر مساهمة في تكوين روائي أو شاعر أو كاتب درامي ²⁶ ».

²³ أنصار . - سوسيولوجية سان سيمون، ص 132

²⁴ Jürgen Habermas . - Connaissance et intérêt . - Paris, 1976.-p.108

²⁵ أنطوان بومان . - البرنامج السياسي للوضعية، ص 29 حاشية 1

²⁶ المصدر السابق، ص 32، حاشية 1

إن هذا الفهم الحصري "للفائدة" و"للإفادة" يمكن ناقد الجمهورية الثالثة لا من رفض هيمنة الدولة بما فيها الجامعة على المجتمع أي رفض السياسي الذي تشبه بالإلهي فحسب ولكن كذلك من نقد العقلية الخطابية التي تحكم رجال الدولة وأغلبهم من المحامين ورجال القانون (أي في النهاية نقد فلسفة الصفات) وكل ذلك يقوده إلى المطالبة، منطقياً، بإلغاء الجامعة (المركزية) « إننا لا نطالب بالمنافسة الحرة مع الجامعة فحسب (بل نطالب) بإلغاء المؤسسة (الجامعية) نفسها على أن تمنح، وهذا ما لم نكف عن تكراره، تعويضات للمستخدمين الجامعيين »²⁷.

لم عمدت الجمهورية الثالثة، إذن، إلى الإبقاء على هذه الشعب وتشجيعها؟ إن السبب عنده هو حرص الجزء السياسي من المجتمع على تكييف الكل الاجتماعي وصياغته على هيئة معينة. وكما يظهر هذا الحرص في ميدان المركزية السياسية فهو يظهر كذلك في ميدان الاقتصاد. إن الجمهورية الثالثة تقول بالمثل الليبرالي القانوني التقليدي المتمثل في ثنائية المجتمع المدني والدولة تبريراً لحضور السياسي المشط في حين يرى خصوم لافيت وجوب تغيير هذا المثل بالمثل آخر يستند إلى نظرة عضوية إلى المجتمع تحل "النحل" منزلة أرفع من منزلة "الزنابير" فليس على المنتجين (النحل) أن يخضعوا لتوجيهات سلطة مخططة (ليست منهم وهي سلطة السياسي) إذ أن ذلك يمثل عودة إلى علاقات القيادة التقليدية (القيادة العسكرية، القيادة البوليسية، القيادة الأيديولوجية) بل عليهم أن يديروا إنتاجهم بأنفسهم في مجتمع لا بد أن تقتلص فيه القيادة التقليدية إلى أقصى الحدود. هنا يحدث تقارب شديد بين النظرة الوضعية المحافظة والنظرة الأنكلوساكسونية إلى دور الدولة الذي يجب أن يكون ظلياً (Etat croupion)²⁸.

إنه لا مكان في تفكير هؤلاء الوضعيين "للزنابير المنقذين" من عسكريين وخطباء مدنيين ورجال دين وشعراء الذين يمكنهم أن يتحولوا، بين عشية وضحاها وبطريق الانقلاب العسكري أو البرلمانية المشطة والاستفتاء، إلى قادة للأمم. وفي تفكير هؤلاء الوضعيين يكاد يتنزل كبار القادة والفلاسفة (أمثال نابليون وكانط وهيغل) منزلة "المغتصبين" لأنهم ركبوا جواد الطبيعة والمجتمع من دون أن تكون لهم معرفة « وضعية » بالطبيعة والمجتمع. وكثيراً

²⁷ أنطوان بومان . - المصدر السابق، ص 28

²⁸ ولعل من أفضل المعبرين عن ذلك هربرت مبنسر Herbert Spencer (1820-1903)

ما تكون أعمال هؤلاء، في نظرهم، سببا في تعطيل سير التاريخ نحو مرساه وهو المجتمع المحكوم بالصناعة والمعرفة الوضعيّة.

هذه الخصومة الكبيرة حول المحرّك الحقيقي للتاريخ من الطبيعي، إذن، أن تظهر كذلك في ميدان التعليم أي في الرهان الاجتماعيّ الأكبر بسبب العدد الضخم من المنخرطين فيه، ولكنّ المتهم الأساسيّ هو في حقيقة الأمر «السياسيّ» الذي وإن فقد على عهد جول فيري صفاته الإلهيّة فهو ما يزال، عملياً، يسلك إزاء المجتمع سلوك الله إزاء الطبيعة وما زال يحرص على أن يقول للمجتمع كن بهذه الهيئة أو لا تكن. ممّ تستمدّ الدولة - الله هذا الدور؟ إنها قد تستمدّه من التسلّط العسكريّ أو البوليسيّ أو الإيديولوجيّ : وهذا التسلّط ما كان يمكن أن يحدث لو لا جهل « الجماهير » لأنّها لم تبلغ بعد مستوى التفكير الوضعيّ ومن هنا كانت عداوة خصوم لافيت لا للنظام البرلمانيّ ولكن للبرلمانيّة المشطّة.

ذهب كثير من الباحثين مذهبنا في وصل قضية التعليم كما بدت من خصومة اللافيّتين و الليتريين بالقضية السياسيّة خاصة على عهد الجمهوريّة الثالثة :

«إنّ النقاشات المتّصلة باللائكيّة تنزّلت عندنا منزلة الصدارة أثناء الفترة 1880 و 1904 وإذا كان تعليم اليسوعيين هو الذي هدفت القوانين المدرسيّة الأساس إلى (مواجهته) فإن إشعاع الجمعيّة اليسوعيّة الفكريّ في أماكن أخرى يجلب الانتباه»²⁹.

ولقد حدّد الباحث المؤرّخ ديروسل ملامح الجمهوريين الفرنسيين ممثّلين في التيّار الراديكالي (مثال كليمنصو) والتيّار الانتهازي (غامبيتا وجول فيري) الذي ساند لافيت على النحو التالي :

«في هذا الوقت لم يكن يوجد بعد لا "أحزاب" ولا «جماعات برلمانيّة» رسميّة ولكن وجد موقفان متعارضان تماماً من عمل الجمهوريين : الموقف الأوّل يتمثّل في تكييف العقيدة الجمهوريّة بغاية تجميع أكبر عدد ممكن من الفرنسيين و الموقف الثاني، النقيض، يرى ضرورة التشبّث بالعقيدة الجمهوريّة ونبذ كلّ من يريدون تليينها أو إيجاد حلول وسط مع الآخرين. وكلمة راديكالي تعبّر جيّداً عن التيّار الثاني أمّا كلمة انتهازيّ التي استعملت، كما نعرف، بالنسبة إلى الأغلبية في الثمانينات (أي تحالف غامبيتا الجمهوري و"اتحاد جول فيري الجمهوري") فهي تعبّر عن الموقف الأوّل»³⁰

Alain Guillermonet . - Les Jésuites . - Paris, 1975 - p.61²⁹

J-B.Duroselle . - Clémenceau . - Paris, 1988,p 175³⁰

إن أخذنا بتصنيف ديروسل فإنّ لافيت يندرج ضمن التيار "الانتهازي" شأنه في ذلك شأن تلميذه العثماني أحمد رضا وشأن العثمانيين الاتحاديين بصفة عامة³¹ جول فيري الانتهازيّ هذا كان، إضافة إلى أنّه جمهوريّ ووضعيّ، ماسونيًا منتميا منذ 1875 إلى الشرق الأعظم الفرنسيّ ذي الميول المعادية للإكليروس عداء سافرا وعندما كان وزيرا للتعليم العمومي سنة 1879 أعربت له كثير من المحافل الماسونية عن مساندتها له في موضوع إصدار مشروع لإصلاح التعليم في فرنسا وهو مشروع كانت ترتقبه منذ عقد من الزمان على الأقلّ ويقوم على ثلاثة أمور: لائكيّة التعليم وإجباريته ومجانّيته. والغاية من الإلجباريّة والمجانّيّة لم تكن غاية اشتراكيّة وإنّما كانت تهدف إلى خلق جيل جديد وكبير العدد من اللائكيين الذين يحولون في المستقبل دون إمكانيّة «الصحة الدينيّة».

تولّى جول فيري مجدّدا سنة 1882 وزارة التعليم في هذه الجمهوريّة الثالثة التي كثيرا ما وصفها خصومها بـ "الجمهوريّة الماسونيّة" لأنها درجت منذ قيامها وحتى سقوطها (1871 - 1940) تحت ضربات أدولف هتلر على إسناد وزارتي التعليم والداخلية إلى ماسونيين خلصاء³² فحرص على تحقيق مشروع إصلاح التعليم وجاءت قوانين (1881 - 1882) لتلبّي رغبات المحافل الماسونيّة والجمهوريين جميعا ثمّ صدر سنة 1886 القانون الذي يشترط في المدرّسين من موظفي الدولة أن يكونوا لائكيين. إن كثيرا من البحوث تركّز على جول فيري وتتناهى أنّه وإن كان الوزير الماسوني والجمهوريّ الذي تحققت في عهده كثير من مطالب اللائكيين والجمهوريين، فإن هذه المطالب ترقى إلى فترة سابقة عن فترة وزارته وهي مطالب مئات الآلاف من رجال التعليم ونسائه في فرنسا :

« فمئذ جوان 1870 أقرّ المؤتمر الماسونيّ لائحة عظيمة الدلالة تدعو إلى التعليم الإلجباريّ ووجّه ماسونيّون كذلك لوائح فرديّة في هذا المعنى نفسه. وقد حصلت جامعة

³¹ عقد العثمانيون الاتحاديون حلغا مع الإسلاميين، على تقليديّة نظرة هؤلاء إلى الطبيعة، ولم يظهروا حقيقة وضعيتهم اللافيتيّة إلا في مناسبات ثلاث استغلها خصومهم استغلالا لا مزيد عليه :

1909 = عندما غيروا دستور 1908 على نحو يجعل من محمد رشاد خليفة "ملك ولا يحكم"

1915 = عندما دعوا إلى سفور المرأة العثمانية وجوزوا إفطار الجيش المحارب خاصة في المناطق الباردة

1924 = عندما ألغى الاتحادي القديم مصطفى كمال الخلافة ولقد كانت فترة حكمه الفترة الوحيدة التي طبّق فيها

اللافيتيون العثمانيون بحمل ما كانوا يحذرون من ردود الفعل عليه في فترة حكمهم "الانتهازية"

³² Pierre Chevallier . - Histoire de la Franc- Maçonnerie . - Paris, T.II, 1975 . - p. 471

التعليم سنة 1872 على إمضاءات مليون ومائتي ألف ممض على لائحة تدعو إلى التعليم الإجباري. وعندما تولّى الأخ جول سيمون J. Simon وزارة التعليم العمومي في وزارة دي فور (Du Faure) (فيفري 1871- ماي 1873) قدّم مشروع قانون يجعل من التعليم الابتدائي تعليمًا إجباريًا. هذا المشروع رفضته اللجنة المختصة في البرلمان الوطني التي كان يرأسها أسقف أورليانس ديبينلوب (Mgr. Dupanloup). لقد دافعت الأغلبية الكاثوليكية والمحافظة في المجلس عن حرية أبي العائلة أي عن هذا الطلب الذي عارض به الكاثوليك أنصار إجبارية التعليم»³³.

مما تقدّم يظهر كيف أن إصلاح التعليم كان ميدانًا برزت فيه كل تناقضات المجتمع الفرنسي التي لم تستطع ثورة 1789 أن تجد لها حلولاً نهائية فموقف رجال الدين والمحافظين في الشاهد المتقدّم لا يختلف في شيء عن موقف خصوم لافيت إذ يطالب الموقفان بحرية التعليم وقوفاً منهما ضد سياسة الجمهورية الثالثة المركزية وذلك رغم ما يفصل بين نظرة رجال الدين إلى الطبيعة والمجتمع وهي نظرة تقليدية ونظرة الوضعيين مهما كان موقفهم السياسي والاجتماعي، إلى الطبيعة والمجتمع وهي نظرة حديثة. فلا اختلاف، في نظرنا، بين الجمهوريين والوضعيين، في النظرة إلى الأشياء إذ الجميع يحاربون النظرة التقليدية المستندة إلى السببية العمودية. ولقد عبّر الأخ الماسوني دلبيش (1895) في خطاب له بعنوان « حول أخلاق الكنيسة وأخلاقنا » عن الهوة التي تفصل بين هاتين النظرتين بمهاجمة الكنيسة التي «تلهم حالياً التعليم الفلسفي في دار المعلمين العليا»³⁴. حيث يتعلّم طلبة الجمهورية (...) إجلال القديس توما الأكويني على أنّه أكبر عقل في الأزمنة القديمة والحديثة ولعلّ القوم، وهم ينحون في التعليم هذا النحو، كانوا يبحثون بواسطة هذا الرجل العظيم في الهيئة التي ظهر عليها الملك الذي أرسله الرب إلى مريم للقيام بوظيفته، هل كانت صورة رجل شاب أم صورة حمالة أم كان ذلك بتأثير روحي»³⁵.

من خلال الشاهد يتبيّن أن لافيت إذا كان قد انحاز إلى الجمهوريين وناصر سياستهم المركزية التي تسعى، على المستوى الثقافي، إلى صياغة مجتمع جديد معاد

³³ بير شوفاليي . - تاريخ الماسونية، ج3، ص 64

³⁴ Ecole normale supérieure ، تأسست سنة الحملة الفرنسية على مصر، 1798

³⁵ شوفاليي . - تاريخ الماسونية، ج 3 ، ص 60

للميتافيزيقا حتى لا نقول للخرافة فذلك لأنه كان، في نظرنا، يتوجس خيفة من إمكانية استغلال رجال الدين والمحافظين بصفة عامة الوضعية الكونتية "المحايدة سياسيا" فيوظفونها لخدمة نظرة تقليدية إلى الطبيعة و المجتمع. فالوضعيون اللافيتيون كانوا يرون أنه ليس بالإمكان بناء دولة حديثة إذا اقتصر البناء على الجانب الاقتصادي والعلمي والتقني ولهذا حملوا السياسي مهمة تغيير نظرة الفرنسيين جميعهم إلى الطبيعة وإلى المجتمع ونجحوا في ذلك إلى حد كبير إذ صاغوا مجتمعا فرنسيا أصبح يتغنى، في الجزء المتطور منه، بنزعة الديكارتية. وما كان ليحقق ذلك لولا جهد ماسونبي الجمهورية الثالثة البالغ : ولعل هذا الاتجاه السياسي المركزي هو السمة الأساسية التي تفرق بين النمطين الأنكلوساكسوني واللاتيني في الحكم.

وإذا كان قد اتضح عندنا الآن بما فيه الكفاية، الفرق بين الوضعية كما فهمها الشق اللافيتي وكما فهمها خصوم هذا الشق فإنه يمكن للمرء أن يفهم لم كان أحمد رضا من المتأثرين بالشق الأول : لقد كان يحتاج إلى نظرية آخذة بالنظرة الحديثة إلى الطبيعة فوجد في الوضعية بصفة عامة ضالته وكان يحتاج إلى فرع من هذه النظرة الحديثة يبرر النشاط السياسي المناهض لسياسة عبد الحميد الثاني فوجده في اللافيتية إذ أن الأخذ برأي خصومها يقود ببساطة إلى الابتعاد عن كل نشاط سياسي يتوق إلى التغيير وانتظار اللحظة التي تنمو فيها قوى الإنتاج الحديثة بشكل كاف في السلطنة فيتهدم النظام الإقطاعي من الداخل. ولكن أحمد رضا كان يعرف وهو يأخذ باللافيتية (المركزية السياسية، المركزية الثقافية...) الصعوبات الناتجة عن ظروف السلطنة الخاصة والتي تختلف تماما عن ظروف فرنسا. ففرنسا دولة من أقدم الدول القومية الحديثة. أما السلطنة فهي على العكس من ذلك دولة تقليدية تصلح مثلا حيا على دول القرون الوسطى ولذلك كان على أحمد رضا أن يكيف نشاطه على نحو يلائم الأوضاع الداخلية. هذا التكيف لم يتفطن إليه برنارد لويس إذ أنه أكد من ناحية أن أحمد رضا تأثر بـ «لافيت» تأثرا لا حدود له : «إن هذا الإبن الفكري لأوغست كونت دربه على الفلسفة الوضعية التي ستهيمن على تفكيره»³⁶. وأكد من ناحية ثانية ما يفيد أن أحمد رضا كان خصما حقيقيا لـ «اللافيتية» :

³⁶ برنارد لويس . - الإسلام واللائيكية، ص 177

» إن الإسلامية ، على ما بين ذلك أحمد رضا في تحليل عقائدي كتبه ، هي مجموعة الفضائل والحقائق التي نادى بها نسل رسل الماضي... والدين ، بالنسبة إلى المسلمين ، لا يعني فحسب موضع التأمل وقاعدة التعبد ولكنه يعني أيضا واجبا اجتماعيا : فالملكية والعائلة والحكم والأخلاق وكل ما له علاقة بالحياة العامة ، كل ذلك هو في عداد الدين وكل مسلم يخل بواجباته إزاء المجموعة أو يهمل خاصة معاضدة إخوته في الدين ، إنما يرتكب إثما... إن ثلثي سكان تركيا مازالوا مسلمين ، مسلمين صادقين ومؤمنين يفون بواجباتهم الدينية. فالدين في الإمبراطورية التركية هو أساس من أسس المجتمع ما زال يؤثر تأثيرا بالغا في أقدار الشعب (...). ثم إن سلطة الخليفة الدينية على مسلمي العالم جميعه مازالت كبيرة جدا. فالخليفة هو نقطة ارتكاز المسلمين وهو عروة رابطتهم الوثقى. أما الحكم الزمني فليس بإمكانه أن يمتد إلى ما وراء هذه الحياة الأرضية كما أنه ليس بإمكانه أن يحل الوثائق الذي يشده إلى هذا العالم فكيف يمكنه ، منفردا ، أن يحقق اكتفاء شعب مازال تعلقه بهذا العالم ضعيفا ؟ لقد كان تجميع السلطنة والخلافة في القديم ضروريا لعملية الفتح وهو اليوم ضروري لدفاعنا عن النفس. وفي هذا الزمان المتأزم خاصة تكتسب وحدة الكلمة قيمة أساسية ولذلك فإن الفت في هذه الوحدة الأساسية وإجازة سلطتين متعارضتين في الدولة يعدان جريمة إذ أن تركيا لا يمكنها الآن أن تنفصل عن الخلافة أو يمكنها أن تنفصل عن حكمها الزمني»³⁷.

نص مثل هذا النص الذي أورده برنارد لويس لا يحتمل قراءة مطمئنة تنبذ الشك في حقيقة تفكير صاحبه : ففي النص نجد أحمد رضا الذي كرر خمس مرات أو أكثر لفظي "مازال " و "الآن" بما يوحيان به من إيمان بضرورة التغيير من ناحية وبضرورة الحذر إزاء ردود الفعل الاجتماعية من ناحية ثانية. وفي النص تجريم للقائلين بضرورة الفصل بين الدين والدولة : فماذا بقي ، إذن ، إن اطمأننا إلى الخطاب المعلن من "لافيقية" أحمد رضا التي قال بها برنارد لويس نفسه ؟ وما هو سبب هذا التناقض ؟ إن سبب ذلك يكمن ، في نظرنا ، في نسبة برنارد لويس أحمد رضا إلى الكونتية عموما وإهمال التمييز بين وجهيها السياسيين كما أنه يكمن في نقص اطلاعه على التفكير الوضعي في كتب العثمانيين المكتوبة بالعربية ، على معرفته بهذه اللغة. وقد فسر العثماني الفاضلي ولي الدين يكن في "المعلوم والمجهول"

³⁷ برنارد لويس . - الإسلام واللايكية، ص 84

سبب هذا التكيف فنسبه من دون استعمال المصطلح، إلى "انتهازية" التيار الرضائي ونقده نقداً مرّاً:

« أنشأ (مشورت) التركية والفرانسوية (1895) في باريس ثم صدرتا في جنيف أما (مشورت) فكانت من ضرب الإصلاح الديني (...) فإن صاحبها ما استعانا على عبد الحميد إلا من الوجهة الدينية (...) وسبب اتخاذها هذه الخطة أنه لم يمكن مخاطبة العثمانيين إلا باسم الدين وأسفاه »³⁸.

إن اختيار لفظ "مشورت" (الشورى) عنواناً للجريدة يعد في حد ذاته وجهاً من وجوه « هذه الاستعانة على عبد الحميد بالوجهة الدينية » إذ ما أبعد البرلمانية التي يقول بها لافيت عن الشورى بالمعنى الإسلامي المجمع عليه والذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقارن بمفهوم السيادة الشعبية كما تحدرت من النظرة الروسية إلى علاقة المجتمع بالدولة. ثم إن الأخذ بظاهر ما كتب أحمد رضا لا يسمح، في نهاية الأمر، حتى بفهم الفرق بينه وبين من سبقوه من الفاضليين أمثال مصطفى فاضل وشناسي ونامق كمال الذين "حاولوا بمفاهيم إسلامية، تبرير المؤسسات الغربية، معتبرين ذلك التبرني عودة إلى روح الإسلام الحقيقية" أو بفهم أسباب ردود فعل المحافظين بدايةً من 1908 على انتصار التيار الرضائي.

هل كان هذا التيار الذي نعتبره امتداداً لتفكير أحمد مدحت باشا (بخلاف التيار الفاضلي الذي يمتد عبر الأمير صباح الدين إلى الائتلافيين) مقصوداً على المهجر الغربي وعلى "الترك"؟ نحن لا نعتقد ذلك فلقد كان سليمان البستاني مثلاً، وهو مجايل لأحمد رضا، أفضل تعبير شامي عن مقومات التيار الثلاثة (المركزية السياسية والثقافية في الداخل والوطنية السياسية والوطنية الاقتصادية) ولقد انتسب سليمان البستاني علانية إلى التيار المدحتي، تيار العثمانيين الاتحاديين إذ أهدى كتابه "عبرة وذكرى" (1908) إلى مدحت باشا =

" إلى روحك الطاهرة يا رجل الحرية أهدي هذه الصفحات."

³⁸ ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول - ص 68 وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن الماروني خليل غانم أصدر في وقت سابق جريدة بالفرنسية في جنيف اسمها "الهلال"

وسليمان البستاني، شأنه في ذلك شأن الشدياق يصدر عن نظرة إلى علاقة الله بالطبيعة (ومن ثمّ بالمجتمع) إن كانت لا تقبر صراحة مفهوم العناية الإلهية كما تظهر في الأديان المخصوصة فهي لا تشغل إلّا بما هو طبيعي واجتماعي وسياسي ومن ثمّ فهي نظرة ترى في القرن السابع عشر الأوربي الغربي بداية مرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية على العثمانيين الاتحاديين، وهم جزء من البشرية، أن يعتبروها المرحلة المنطلق إذ لا فترة سابقة عليها يمكن أن تصلح تراثا خادما للتقدّم كما يفهمه :

« لا نزلنا مخطئين إذا قلنا إنّ الحكم الدستوريّ لم يستتبّ أمره على هذا الشكل ويعم دول الحضارة إلا على إثر الثورة الفرنسية، وإن كانت الثورة الأنكليزية، قبل زهاء قرن من أعظم مهيئاته »³⁹.

هذه القولة وحدها تبين مدى ما بلغت الفلسفة العثمانية من تطور وهي التي كانت تعبر عن نفسها زمن الثلاثي شناسي - ضيا - نامق كمال على أنها يجب أن تكون تأليفا بين مبادئ الإسلام ومبادئ الثورة الفرنسية. فالمرجع الوحيد أصبح عند سليمان البستاني هو " العصور الحديثة " حسب التقسيم التاريخي الغربي السائد. ودليله على إنسانية هذا المرجع ما بلغه اليابان الشرقي من تطور عندما حذا، على خصوصياته القومية، حذو أوروبا الغربية. فهل يعني هذا أن سليمان البستاني كان يسوي تسوية تامة بين الأمم ولا يرى لها خصائص مميزة ؟

إن سليمان البستاني واضح في هذه المسألة :

« لا يصعب علينا ونحن في أول مراقبه (يقصد التقدم) أن نختار حسناته ونضم إليها ما وافق حالة جونا و تربتنا فنبتدع لنا تمدنا شرقيا صافيا من شوائب الفساد والترّف، الذي يعود بنا القهقري فيؤدي إلى الانحطاط والانحلال »⁴⁰

هناك إذن أخذ من الغرب ولكن ليس على أساس من الثنائية الضارة : أخذ علمي وتقني ومحافظة سياسية دينية. يناقش الأب روبر لونوبل قضية تعامل الحضارات مع الطبيعة على النحو التالي :

³⁹ سليمان البستاني . - عبرة وذكرى . - ص 77-78

⁴⁰ سليمان البستاني . - المصدر السابق، ص 85

« يتخيل الناس أن على وحدة الطبيعة الفيزيائية أن تحدث عند من يجتهدون في معرفتها صورة واحدة لا اختلاف فيها إلا ما كان من هذا التفاوت في الدقة بحسب تطور العلوم. وفي الواقع فإن الطبيعة التي بناها الإغريق واقتبسناها منهم ليست إلا فكرة من الأفكار الممكنة، فكرة من الأفكار التي نجحت فعليا ولنا الخيار في اعتبارها الفكرة الأمثل (...) إن طبيعتنا قانونية وميكانيكية أساسا ولا شيء يثبت أنه ليس بإمكان الهنود مثلا زمن انحطاط الأمم الأوروبية، أن يعثروا، وهم يستعملون الجزء المقبول من علومنا ومن هذه الميكانيكا التي أصبحت ترعبنا، على الوسائل التي تمكنهم من توجيهها وجهة أخرى مغايرة تماما »⁴¹.

كان البستاني وهو يتعرض لحركة ميجي اليابانية التحديثية منذ 1868⁴² يلح على اختلاف ظروف اليابان عن ظروف السلطنة :

« لقد فازت أم من قبلنا بدستور كدستورنا ولكنه ليس في تاريخ واحدة منهن بلوغ هذه الأمنية في منتهى أدوارها بمثل هذه السرعة ومثل هذه الحنكة، وهذا التدبير بدون إراقة دم من الدماء الطاهرة والذنسنة. ولا يعترض على هذا القول بما كان من أمر الدستور الياباني فليست هناك حقوق نهضت الأمة تطالب بها، وإنما هو قبس حكمة وذكاء اتقد في رؤوس أولي الأمر منها وهم أرقى علما وعقلا وأدبا من محكوميه فجردوا أنفسهم بلا منازع من سلطتهم المطلقة وجادوا بها على أمتهم المتحدة العنصر فأفلحوا. أما في الممالك العثمانية فليست الحالة على ما تقدم فإن لدينا سلطتين متنازعتين وعناصر مختلفة وأما متباعدة بقوة الإعزاء حتى لكنت تخال أن جميع العوامل داخل البلاد وخارجها متفقة على ملا شاة هذه الأمة بل تلك الأمم المتخاذلة »⁴³.

كل تفكير البستاني الاجتماعي والسياسي وجهته خصوصيات "هذه الأمة بل تلك الأمم المتخاذلة" كما تحدت عنده من خلال المقارنة بين وضعي اليابان والسلطنة :

⁴¹ روبر لونوبل - مشروع تاريخ لفكرة الطبيعة، ص 56

⁴² عبد الغفار رشاد - التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية - بيروت، 1984

⁴³ سليمان البستاني - عبرة وذكرى، ص 86

- وحدة العنصر في الأمة اليابانية وغيابها في السلطنة

- تغلغل مفهوم الطاعة في اليابان إذ في عهد مييجي أصبح الإمبراطور ميتسوهيتو (1852-1912) بؤرة الولاء السياسي وغيابه في السلطنة إذ كان عهد عبد الحميد هو عهد تفتّت الولاء السياسي.

- شدة الضغط الخارجي على السلطنة بغية تفكيكها من الداخل بتشجيع من روسيا وفرنسا وإنجلترا نتيجة حالة التفتّت سالفة الذكر.

هذه الخصوصيات العثمانية الثلاث قادت سليمان البستاني (وجماعة العثمانيين الاتحاديين على اختلاف أجناسهم) إلى صياغة برنامج يهدف إلى الحيلولة دون "ملا شاة هذه الأمة" يقوم على ركائز ثلاث :

① مقاومة النزعات النابذة بمقاومة ما تدّعي من مقومات نابذة أهمها اللغة الخاصة والجنس الصافي والتاريخ الخاص.

② تقوية اللحمة الداخلية بتحقيق ازدهار اقتصادي عثماني وتقدّم اجتماعي وحرية سياسية تدفع "العناصر العثمانية" إلى الإحساس بوحدة المصير.

③ مقاومة التدخّل الأجنبي في سياسة السلطنة تجفيفاً لـ "منابع" الدعم الخارجي للقوى النابذة. لقد سبق أن اجتهد أديب إسحق في بيان تهافت فكرة اعتبار الجنس واللغة من المقومات الثابتة في تحديد هوية الأمم. ولقد كان سليمان البستاني أكثر وضوحاً في مقاومة مفهومي الجنس واللغة فمن المفهوم الأول كتب:

« التعصّب دينياً أو جنسياً، إذا لم يتجاوز حبّ الدين والجنس إلى بغض من خرج عنهما فليس بالخلة المذمومة»⁴⁴

أما موقفه من اللغة فهو يتمثل في ضرورة اعتماد التركية العثمانية لغة رسمية لأنّ تلك هي السبيل إلى الحيلولة دون ظهور نزعات قومية نابذة على أساس لغوي :

« إن أعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصّب الجنسيّ تعميم اللغة الرسمية وجعل تعليم التركية إجبارياً فإنّ هاتين الوسيلتين، مع تعميم أسباب العلم والتهذيب، يضمنان توثيق عرى التواء والإخاء»⁴⁵. لو عبّر عن هذه الدعوة بمفكر غير عربي سنة 1908 لوسمته

⁴⁴ سليمان البستاني . - عبرة وذكرى . - ص 151

⁴⁵ البستاني . - عبرة وذكرى . - ص 159

القراءات الإيديولوجية الإسلامية المساندة لعبد الحميد والعروبية الإسلامية المعادية لهذا السلطان والمتحالفة مع بريطانيا بالدعوة إلى "الطورانية" وإلى "تترك العرب" ولعدّ كلامه من أسباب تحوّل "العرب" عن "الترك". وليس من سبب وجيه في نظرنا لثل هذه التهم التي مازالت ماثوثة في كثير ممّا يكتب اليوم عن هذه الفترة غير الجهل بما كان للفلسفة العثمانية الاتحادية من أنصار من العرب قبل 1908 وبعدها. والعجيب أن هذه القراءات الإيديولوجية ساهم في نشرها لا الغربيون فحسب بل كذلك كثير من المفكرين السوفييت فلقد كتب كوتلوف عن اجتهاد مهندسي التنظيمات فؤاد باشا وعالي باشا لعرقلة نسق نموّ النزعات النابذة أن هذين الصديقين الأعظمين أصدرّا « قانون عام 1864 الذي أعلن اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة (وفتح) إمكانيات واسعة لخلق اللغات المحلية »⁴⁶.

إنّ المثل الأعلى عند البستاني كان، فيما يتّصل بمسألة اللغة، هو الولايات المتحدة الأمريكية التي زارها في تسعينات القرن التاسع عشر: وفي الولايات المتحدة لم يمنع تشبّه الأجناس المختلفة فيها بلغاتها الخاصة من استعمال اللغة الأنكليزية، لغة رسمية جامعة. وبقدر ما يقلّص البستاني من دور الجنس واللغة نراه في كل ما كتب يركّز على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في حلّ أزمة السلطنة وكأنه كان يؤمن بتساهف الثقافى إن لم يستند إلى قواعد طبيعية واجتماعية واقتصادية صلبة فعن المرأة العثمانية التي وصفها يكن المفكر الفاضلي الصباحي الائتلافى وصفا يشي بياسه من تغيير وضعها فكتب :

« وممّا أذهل عقلي أنّي رأيت نساء الأرمن والروم في أماسيا متحجّبات يتهددين صاحبات مآزرهنّ كما تفعل نساء المسلمين⁴⁷ فأيقنت أن المرأة العثمانية في تلك البلاد محرومة من نعم الدنيا »⁴⁸ كتب سليمان البستاني أنّ ربع قرن يعدّ كافيا لتغيير وضعها تغييرا جذرياً:

« ما عسى أن يقال ممّا تبخله المرأة العثمانية في خمس وعشرين سنة (يقصد 1933) وهي القوام الأعظم لكلّ تمدّن حقيقيّ ثابت، وهي نصف هذا الجسم فلا تصحّ حياته

⁴⁶ كوتلوف - تكوّن حركة التحرّر الوطني في المشرق ص 218

⁴⁷ "حتى القرن التاسع عشر كانت نساء بلغراد الصربيات تخرجن محجّبات في حين كان أزواجهنّ يلبسون العمامة

ويدخلون النرجيلة G. Castellan - Histoire des Balkans XIV-XXeme s. - Paris, 1992.P.146

⁴⁸ (ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول، ج2، ص 69

إلا بصحة حياتها، وهي العون الأكبر للرجل في رجولته ومربيته في طفولته ورفيقته في عزله ومؤسسته في شدته، وإليها مرجع الفضل في تثقيف العقول النامية وإنبات غرس الفضائل فيها (...) وإِنَّه ليسرنا أن نفاخر (...) أَنه كان للمرأة التركية يد قوية في نهضتنا الحديثة فقد ناضلت وجاهدت وخاطرت بنفسها فكان لها بذلك فخر يسطر بعداد الذهب. فإذا كان هذا شأنها في زمن الاستبداد، فما عسى أن يكون بعد خمس وعشرين عاما إذ تكون هذه النفحة الطيبة قد سرت منها إلى سائر أخواتها من بنات هذه الأمة في كل صقع وناد، وأعدت المدارس للبنات إعدادها للبنين وانقشعت غياهب الجهل المغطية بظلم الرجال على عقول الناس؟»⁴⁹

ما هي الطبقة العثمانية المؤهلة، في نظر البستاني، للقيام بهذا التغيير الجذري؟ إنَّها «تلك الفئة التي كان يجب أن تكون عماد الدولة وروح البلاد ونعني بها فئة الأحرار ودعاة الإصلاح بعرفنا، والخونة المجرمين السياسيين وأعداء الدولة باصطلاح عمال المابيين»⁵⁰.

ما هو نوع التعليم الذي يجب أن يتلقاه الجيل الجديد ؟

تحدّث عن ذلك العثمانيّ الاتحادي ساطع الحصري (1880 - 1969) الذي اشتغل

طويلا في ميدان التعليم شأنه في ذلك شأن زوجته التركية :

« إن العلوم الطبيعية ذات تأثير عظيم في التربية العقلية، ولا بدّ من الاستفادة من هذا التأثير في الدراسة الابتدائية والثانوية، ولا سيما في الشرق لأننا، نحن الشرقيين، ميّالون إلى الخيالات و الكلاميات بعوامل عديدة أثرت وما زالت تؤثر في تربيتنا منذ قرون وهذا ما يجعلنا أشدّ افتقارا من سوانا إلى العلوم التي تعدّل هذا الميل فينا. ولا يمكننا أن ننتظر ذلك من العلوم الرياضية لأنها هي أيضا مستندة إلى الأمور الذهنية المجردة، وعاجزة عن تعويد الشبيبة على قسم مهمّ من الفضائل العقلية، كالمشاهدة والتجربة والمقايسة والتصنيف

⁴⁹ سليمان البستاني . - عبرة وذكرى . - ص 246

⁵⁰ سليمان البستاني . - عبرة وذكرى، ص 180

والاستقراء «⁵¹ من المثاليين المتعلقين بالنظرة إلى المرأة والنظرة إلى التعليم تبدو بعض سمات التفكير العثمانيّ الاتحاديّ التي ستقاومها القوى المحافظة (العروبيون الاسلاميون مثلاً) مقاومة لا هودة فيها لأن الأمر يتعلّق بميدانين حاسمين في الحفاظ على أسس المجتمع التقليدي⁵²

أما في الميدانين السياسيّ والاقتصاديّ فتبدو سمات هذا التفكير من خلال شكوى البستاني من لا وطنية الاقتصاد العثمانيّ حتى أنه يمكن للمرء أن يتحدّث في هذا الشأن عن "وطنية رأسمالية عثمانية" :

« يقال لك إنّ جميع الشركات في البلاد العثمانية عثمانية بمقتضى القانون، فيقال لك البنك العثمانيّ وشركة الرزي (احتكار الدخان) العثمانية (...) (إنّ) نعت تلك الشركات بالعثمانية إنّما هو حلية لا تفيد كونها وطنية. وكيف تكون عثمانية بالفعل ومجالس إدارتها في باريس ولندن وفيينا وبرلين ؟ وإنّ بعض هذه الشركات كالبنك العثمانيّ

⁵¹ ساطع الحصري. - مذكراتي في العراق. - بيروت ج1، 1967. - ص18 و "كنت نشرت كتاباً باللغة التركية بعنوان "التطبيقات الزراعية" بيّنت فيه التجارب الزراعية التي يمكن أن يقوم بها المعلومون و ذلك مستندا على التجارب التي كنت قمت بها عندما كنت معلماً في أقصى الغرب من أوروبا العثمانية (مذكراتي، بيروت ، 1967. ص 227)

⁵² ولنضرب ثلاثة أمثلة على شدة تعلّق المحافظين بمكانة المرأة التقليدية : فرسيد رضا كان يرفض الاختلاط رفضاً تاماً - اجتنب حضور مجالس الأدباء والوجهاء من نصارى طرابلس التي يجتمع فيها النساء مع الرجال وأقفلت الباب دونها بحيلة لطيفة (ارسلان . - السيد رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة. - دمشق 1937 ص 89) أما شكيب أرسلان "فكان مبعداً عن بلاده، وكان أكبر ما يؤله أن يموت بأوروبا ويقي بها أبنائه فتهربون تربية أوربية (...) وقد وجّه عائلته سنة 1354 للصمصاف بلبنان ثم رجع ولده الأمير غالب وبقيت حرمة مع كرميته مي وناظمة بلبنان فاشتدّ شوق الأمير غالب إلى أخته فقال له الأمير كما ذكر لي في إحدى رسائله "إنني أشدّ منك عذاباً في فراقهنّ لكنني لا أريد أن يخرجن إفرنجيات. فلو ربّيتهنّ في جنيف لخرجن بدون لغة عربية وبدون عقيدة إسلامية وما يعود ممكناً إعادتهنّ إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن" (ارسلان . - بنو معروف أهل العروبة و الاسلام، ص 150) وتروي عنيرة سلام، شقيقة صائب سلام القصة الطريفة (إن كان في هذه الثنائية والمظهرية طرافة) "مع عودتي (سنة 1927 من أنكلترا) عدت إلى حجائي. وما أن رجوعنا كان بحراً مثل ذهابنا فقد كان لا بدّ من أن أعرف على بعض المسافرين من الأجانب في إقامتنا خمسة أيام معاً على ظهر الباخرة وحين رست بنا هذه في ميناء بيروت أحضرت حجائي من مخبئه وارتديته مسدلة النقاب الأسود على وجهي. ولا أزال أذكر الدهشة المضحكة التي ظهرت على عيون رفاق السفر حينما رأوني أتحوّل فجأة من فتاة حيّة إلى شبح غامض (عنيرة سلام . - جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين . - بيروت، 1978. - ص 147).

وشركات طرق الحديد وشركات الماء قد أفاد فائدة يحق لها أن تقتضي سيطرتها في التاريخ ولكن ذلك ليس بالمانع لنا من التصريح أن الشركات الوطنية أجزل نفعاً لو أمكن تأليفها وأحسنّت إدارتها ولم تقيد حريتها»⁵³.

انشغال العثمانيين الاتحاديين خاصة بقضايا الاقتصاد لا نجد شبيهاً له إلا عند التتاريين الإسلاميين والقوميين اللبنانيين والقوميين اليهود. أمّا عند الإسلاميين والعروبيين الإسلاميين فتكاد القضايا الاقتصادية تغيب من تفكيرهم. ويتميز العثمانيون الاتحاديون عن العثمانيين الائتلافيين بما سمّيناه بـ "وطنية الاتحاديين السياسية والاقتصادية" التي ترفض أن يكون رأس المال الأجنبي هو الحكم في توجيه الاستثمار مما يحول دون تحقيق برنامج التغيير "الوطني العثماني" :

« لسنا ممن ينكر فضل الأجانب بتأليف الشركات عندنا، إذ لولاهم لبقينا الآن نخترق الوديان والمهضاب على البغال والجمال ولم يكن لنا من مرفأ ولا مصرف ولا شيء من وسائل العمران الحديث. ولسنا أيضاً ممن يقول بوجوب الاستغناء عنهم لو فرضنا ذلك في الإمكان : فالبلاد تستفيد من مالهم وعلمهم لقاء ما يستفيدون منها. ولكننا ننكر كل الإنكار أن لا يكون لنا يد في شيء من تلك الأعمال في بلادنا . وإذا شاركناهم بالمال فإنما نحن شركاء مستترون بنفوذهم وسيطرتهم. أمّا الآن، وقد احتجب طالع الاستبداد، وفتحت الأبواب للطلاب، فالأمل أن لا تمرّ برهة طويلة حتى نرى أيدي أبناء الوطن ممتدة إلى كل عمل مفيد في بلادهم سواء استقلّوا به بأنفسهم أو استرشدوا له بشريك أجنبي»⁵⁴.
يلاحظ هنا تفاؤل سليمان البستاني كما يلاحظ تفاؤله فيما يتصل بمسألة المرأة :
ولسوف تكون ردة فعل العثمانيين الاتحاديين شديدة على من سيشككون في هذا الأمل ويتحالفون مع « الأجانب » والأجانب هنا هم أنكلترا وفرنسا بصفة خاصة.

لا يوجد في نظرنا تيار وقف من الأجانب مهما كانوا، روساً أو بريطانيين أو فرنسيين موقفاً متحفّظاً شبيهاً بموقف العثمانيين الاتحاديين أي بهؤلاء الذين ستسهم كثير من الدراسات باللاوطنية حيناً وبالطورانية حيناً آخر. ونحن نعتقد أن في الشواهد التي أوردناها لسليمان البستاني ما يفنّد مثل هذه التهم.

⁵³ سليمان البستاني . - عيرة وذكري، ص 227

⁵⁴ سليمان البستاني . - عيرة وذكري . - ص 229

لقد كان العثمانيون الاتحاديون حربا على القوى العظمى التي تحكم السلطنة اقتصاديًا وكانوا حربا على عبد الحميد الثاني في الآن نفسه لأنهم كانوا يطمحون إلى تغيير المجتمع العثماني تغييرا جذريًا : هل كانوا يحملون القوى العظمى وحدها مسؤولية تردّي الأوضاع في السلطنة ؟ لو كانوا يفعلون ذلك لكانوا من الآخذين بالنظرة التقليدية التي تردّ كل شيء إلى « الشيطان » بالمعنى الديني للكلمة وإلى « الأيدي الخارجية » بالمعنى اللائكي لها. إن الشيطان عندهم مزدوج الوجه : هو القوى العظمى الباحثة عن مصالحها والتي لا تتمكّن من تحقيق رغباتها إلا بإعانة، غير واعية، من عبد الحميد والمستفيدين من حكمه وبذلك ربطوا بين العامل الداخلي والعامل الخارجي :

« معظم الشكوى (...) إنما هي من ذلك الاستبداد الذي أباح الموبقات واستباح المحرّمات (...) استبداد تقسم فيه فئة ضئيلة أموال الأمة فتتنعم بها وتشقى الأمة ولا حرج على تلك الفئة ولا جناح. تستولي على موارد ثورة البلاد من حرث وغاب ومنجم وتستلب الامتيازات كأئمة ذلك من تراث آبائها وأجدادها⁵⁵ إذا اكتشف مجتهد منجما⁵⁶ وقال للحكومة أنا صاحب الحق باستخراجه فلکم سهمكم ولي سهمي بمقتضى النظام، قال رجل الما بين بل هو هبة استوهبها أحدنا فاذهب خاسرا وإذا قضى بساحت زمتنا فدرس مشروعا وقال : هذا نتاج بحث طويل ولديّ جميع الوسائل العلمية والمالية للقيام به بهذه الشروط وذلك السهم منه للحكومة، قالوا : بل هولنا ، فأخذوه بلا شرط ولا بدل . تلك هي الفئة الظالمة التي كانت تتسبّب بالنفي والسجن والقتل »⁵⁷ لقد كان القارئ ينتظر، ما من شك في ذلك في نظرنا، أن يتوسّع سليمان البستاني، وزير الفلاحة وأحد نواب رئيس البرلمان العثماني زمن الاتحاديين، في الحديث عن الدين وعن مظاهر التدين زمن عبد الحميد بعد أن تعرّض « للاستبداد الذي أباح الموبقات واستباح المحرّمات » ولكن الدين لا يمثل، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، شاغلا بالنسبة إلى العثمانيين الاتحاديين فهو « إذا لم يتجاوز حبّ

⁵⁵ تحسن هنا المقارنة بين مآخذ العثمانيين الاتحاديين على عبد الحميد ومآخذ العربيين الإسلاميين عليه (الفصل

(اللاحق)

⁵⁶ استعمال عظيم الدلالة لمعنى «الاجتهاد» وبجمله هنا الطبيعي والمادي

⁵⁷ سليمان البستاني . - عبرة وذكرى . - ص 88 - 89

الدين إلى بغض من خرج عنه فليس بالخلة المذمومة»⁵⁸ فسياسة عبد الحميد الدينية لاثمه بقدر ما لتهمة « سياسته الاقتصادية » هي سياسة تقوم على قتل المبادرة الخاصة والتبذير والإنفاق على خلية كبيرة من « الزنابير » من أمثال عبد الله النديم وأبي الهدى الصيادي وأحمد عزت العابد وكل من هبّ ودبّ من اللاتئين ب « حمى » الآستانة من الإسلاميين من مختلف بقاع الأرض وانتهت بإفلاس « بيت مال » عبد الحميد نفسه فقد « تنازل السلطان عبد الحميد (يقصد سنة 1908) عن أراضي وأملكه الخاصة إلى خزينة الدولة. وتبين لدى وزارة المالية أن هذه العقارات تزيد وارداتها السنوية على أربعمئة ألف ليرة، ولكنها مدينة بما يقرب من مليون ونصف ليرة من تراكم المعاشات وسائر النفقات، فمن الحكمة أن تدفع الخزينة تلك الديون بإضافة مليون ليرة على مبلغ الاستقراض الذي تنوي عقده»⁵⁹

فبعد الحميد لم يكن، إذن، ليعدو، في نظر البستاني، أن يكون إقطاعيًا كبيرًا يعبر فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا عن مصالح طبقة أفل نجمها، مقارنة بما يحدث في العالم المحيط، وعلى العثمانيين الاتحاديين أن يعوضوها في قيادة المجتمع العثماني.

لقد كان للاتجاه الاتحادي الذي رأينا أهم ملامحه تأثير كبير في الأجيال الجديدة الحائرة حتى أن بعض ممثلي الأرستقراطية العثمانية (خط مصطفى فاضل والعثمانيين الجدد: نازلي هانم - الأمير صباح الدين) أبدوا تعاطفًا مع تيار العثمانيين الاتحاديين مما أثار حنق عبد الحميد البالغ فكتب في مذكراته :

« علمت أن الأتراك الشباب في جنيف عقدوا مؤتمرًا بكل معنى الكلمة وبالرغم من أن اجتماعاتهم كانت سرية فإن استخباراتي تحصّلت على أسماء سبعة عشر رجلًا منهم. ومن دواعي الأسف أن هؤلاء الشباب منقادون إلى ما يدبره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين (...) إنهم عصابة منافقة دنيئة تنكرت لدينها ووطنها وحالفت الصليبية العدو في القضاء على أبناء جلدتنا وأخوتنا في الإسلام»⁶⁰ إن ما أثار عبد الحميد الثاني في حقيقة الأمر ليس مجرد عقد اجتماع سري ضمّ بعض الشباب « المنقادين إلى ما يدبره بعض الرجال المغرورين » أمثال الماروني خليل غانم والكردى عبد الله جودت والتركي أحمد رضا فمثل

⁵⁸ سليمان البستاني . - عيرة وذكرى، ص 151

⁵⁹ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني . - ص 157

⁶⁰ عبد الحميد الثاني . المذكرات، ص 46

هذه الاجتماعات السرية أصبحت أمرا معتادا سواء في مصر أو في مهاجر أوروبا ولكن ما أثاره هو أن جزءا من الأرستقراطية العثمانية بدأ يبدي تعاطفا إزاء التيار الاتحادي ذي الانتماء الطبقي «الأكثر شعبية» مما يهدد بقيام تحالف واسع ضد عبد الحميد. وفي هذا السياق تبدو رسالة الأميرة نازلي هانم، ابنة مصطفى فاضل، على غاية من الأهمية ولذلك فنحن نوردتها، على طولها. «قرأت مع الأسف الشديد في جرائد أوروبا التي وردت هذا الأسبوع أن مولاي الأعظم غاضب عليّ غضبا شديدا. وعلمت أن السبب في غضبه حضوري مؤتمر (تركيا الفتاة) الذي عقد بباريس. ولهذا أرجو الإذن لي ببيان ما يدور بخلدني في هذا الباب.

إن استهدافي للغضب الملوكي ليس بالأمر الحاد ولكن مستمر منذ أربع سنوات⁶¹ وإذ وجب أن يميز من حل بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة التي ينبغي أن أحشر في عدادها. غير أن حضوري مذكرات هذا المؤتمر ليس تذرا للشهرة فهو إذن منزّه عن كل غرض ذاتي.

يذكر مولاي الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف «إنني مغرم بكلمة الحق». ولقد بشرني المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك الحين أن لا نحيد عن كلمة الحق. قرأت ما ينشره هذا المؤتمر من زمن مديد واطلعت على اللوائح التي رفعها إلى الأعتاب الشاهانية. ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة الحق في وصف الدمار الذي باتت فيه الممالك المحروسة الشاهانية لا أيت (كذا) أن أحضر مذكراته عند نزولي بباريس فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقام الملكي وللوطن والأمة ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذي بات على شفا الفناء فهاجني ذلك وتذكرت أن مولاي كان مغرما بكلمة الحق فظننت وأأسفاه أنه ربما تسلى عن ذلك الغرام. ولكن هز فؤادي ما عاهدت الله عليه وأيقنت أن العشق يزول والعهد يبقى.

لما زرت الآستانة منذ أربع سنوات أوصاني بعض المقربين بأن أرفع إلى مولاي عريضة أستقيل بها من هفواتي. ولما لم يكن لي علم بهفوة تكون قد سبقت لي لم أقدم على هذا الأمر. فقد تغيرت سياسة مولاي مع الأنكليز⁶² وذهب الرضاء الذي كان توسطي في نيّله

⁶¹ تقصد سنة 1892

⁶² فالمرقوف من بريطانيا خاصة هو أحد أكبر أسباب الخصومة بين الاتحاديين والإتلافيين لذلك يمكن للمرء أن يطلق

عليهم اسم «عثماني بريطاني»

المرحوم السير هنري لأير. وإني لأتلقى بكل ارتياح توسط الأنكليز في إحراز رضا مليكي بل أشكر اليوم ما أصابني من الغضب الملوكي. وإن في بعدي عن مشاهدة ما وقع بالآستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر وما جرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم ما يسليني وما أحمد الله على بعدي عنه⁶³ وسأستمر لذلك في العمل بنص الأمر الملوكي الذي أبلغتني به الحكومة المصرية غير رسمي (كذا!) مادامت لي الحياة.

على أنني لا أبرح داعية بطول عمر مولاي وبقاء دولته ولا أبرح داعية بأن يعود له سالف غرامه بكلمة الحق. فإذا قدر الإله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة فيصبح سعيدا مهناً ويلقي رعيته في رغد بالاتحاد والحرية فإن رعيته لا تريد منه إلا أن يكون أباً مشفقاً.

لعلني تجاوزت الحد وأسأت البيان فلست أدري مبلغ وقع ما أتشرف بعرضه فليثق مولاي أن كلام أصدق عبيده في زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلمي وليوقن أن ورقتي لم تسطر إلا بخالص النية وصادق الولاء.»

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصري
خادمتك نازلي⁶⁴

هذه الرسالة تبين عددا من ملامح التيار العثماني الفاضلي - الصباحي - الائتلافي وهي:

- أصول دعائه الأرستقراطية

- اللامركزية في الداخل على أساس من «الاتحاد والحرية» لا «الاتحاد والترقي»

⁶³ يقارن هذا الموقف من المذابح الأرمنية بموقف الصيادي الذي «عثر في مكتبة (آبا صوفيا) على شيء من الجفر المنظوم ذكر في أوله أنه كان من محفوظات السلطان مراد الرابع فطاب أبو الهدى هذا الكتاب نفساً وأخذه من المكتبة واحتفظ عليه (كذا) فلما كانت المذبحة الأرمنية التي وقعت في سنة 1894 رفع هذا الكتاب بنفسه إلى عبد الحميد وإذا فيه إشارة بالحمر على بيت من الشعر هو هذا :

ويحترق الأرمني الخبيث بما كان أضرمه فاستعر

فكان هذا معاوناً لعبد الحميد على الجهل (يكن، المعلوم والمجهول، ص 103)

⁶⁴ أورد الرسالة نقلاً عن جريدة خدام (القاهرة، 22 أكتوبر سنة 1896) التي كان يصدرها يوسف حمدي يكن،

الشاعر الفاضلي الائتلافي ولي الدين يكن (أخو يوسف) في المعلوم والمجهول ص 157 - 159

- القبول بتدخل بريطانيا في سياسة السلطنة الداخلية « فقد تغيرت سياسة مولاي مع الأنجليز » وهي تدلّ، كما يتضح ذلك من المقارنة بين بعض الأفكار الواردة فيها وبين المحاور التي رأيناها في تفكير سليمان البستاني، على أننا إزاء تيار يختلف عن تيار العثمانيين الاتحاديين ولكنه ما زال تيارا ضعيفا وغير منظم في حزب سياسي. وسوف يشتدّ ساعد هذا التيار سنة 1899 بهرب صهر عبد الحميد نفسه الداماد محمود جلال الدين باشا (1853 - 1903) صحبة ابنه الأميرين صباح الدين ولطف الله إلى باريس حيث تجمع حول الأمير صباح الدين جزء من المعارضة العثمانية. ومنذ هذه السنة ستبدأ الخصومة، وإن بشكل كامن في البداية، بين أحمد رضا والأمير صباح الدين.

تحدث برنارد لويس عن تفكير الشاب صباح الدين (1877-1848) الاجتماعي والسياسي فنسبه إلى تفكير فريد يريك لوبلاي Fr. Le Play (1806 - 1882)، أي إلى هذا المهندس والاقتصادي الفرنسي الذي كان لبحوثه الاجتماعية تأثير كبير في التيار المسيحي الاجتماعي الذي ازدهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر :

« انطلقت - أواخر القرن التاسع عشر - حركة فكرية قوية في قلب الكنيسة الكاثوليكية شجعتها منشورات كهنوتية تخصصت بالمسائل الاجتماعية. ففي فرنسا ظهر « أوزانام » Ozanam و « لامنيه » Lamennais ، و هما من أوائل المبشرين بالفكرة، وإن كانا متباينين إخلاصا نحو التقاليد الكاثوليكية وتبعهما لوبلاي فتمثل فيه الميل نحو المحافظة المتشددة. ولاحظ لوبلاي هذا كثرة الانقلابات الاجتماعية في فرنسا، وعدم استقرار العامل في عمله، والفرد في أسرته، والأسرة نفسها في بيتها، وتتبع أسبابها فوجدها قائمة على نسيان الناس وصايا التوراة العشر، وإهمالهم التقاليد الدينية، وانتهى به التفكير إلى معاداة الليبرالية فقال : « تبرهن الأحداث على أن استقرار الفرد، لا يتم بجهد وحده، بل لابد من تطويره في داخل مجتمع متطور معه » وحذر الدولة الجاهلة العاجزة عن تحقيق التطوير، فقال « لا يمكن تطوير المجتمع إلا بعد ترميم السلطة، مهما كان شأنها، كسلطة كبار الملوك والحكماء وأرباب العمل ، وبخاصة منها سلطة رب الأسرة »⁶⁵.

إننا هنا أيضا نبيدي تحفظنا إزاء القطعية التي يتصف بها تفكير برنارد لويس وإزاء حصر تأثر الأمير صباح الدين في التيار الاجتماعي المسيحي. صحيح أن الديمقراطية

⁶⁵ جوزيف لاجورجي . - المذاهب الاقتصادية . - بيروت - باريس، ط 2، 1984 . - ص 50

المسيحية ظهرت في أوروبا حلاً وسطاً بين الدعوة الاشتراكية بل الشيوعية ودعوة مدرسة منشستر وصحيح أنه « بينما كان العثمانيون الفتيان من فئة عليا نسبياً فإن جماعة تركيا الفتاة كانوا من خلفية اجتماعية أكثر تواضعاً نتيجة توسع الحركة الإصلاحية في الفترة السابقة»⁶⁶ ف « جماعة تركيا الفتاة ترجع للفئات المهنية التي برزت حديثاً من ضباط وصحفيين ومحامين وموظفين صغار في الإدارة، وهم نتاج المدارس الحكومية ولعلمهم كانوا أساساً من الطبقة الوسطى أما الموظفون الكبار فكانوا على العموم معادين لحركة تركيا الفتاة، في حين أن الطبقات الواطنة لم تكثر فالحركة وجدت تأييداً بين الضباط الصغار في الجيش والبحرية وبين الفئات الوسطى المتواضعة في الخدمة المدنية وأصحاب المهن وبعض العلماء»⁶⁷ ولكن دراسة آثار المنتمين إلى التيار الصباحي (وأهمها بالعربية المعلوم والمجهول لولي الدين يكن) لا تبرر ما يذهب إليه برنارد لويس إذ هي تبرز بعض سمات الفاضلية الصباحية التي يكاد المرء يلمس فيها عثمناً لتفكير ستيوارت ميل وغوستاف لوبون وإيدموند ديمولين ممتزجين امتزاجاً يعجب له المرء ولا واحد من هؤلاء ينتمي إلى تيار الديمقراطية المسيحية أو كانت له همومها ومشاغلها وغاياتها. فنحن، إذا تذكرنا الخصومة بين «لافيت» و«بومان»، بإزاء عثمناً للخصومة بين دعاة المركزية ودعاة اللامركزية بكل ما تتضمنه هذه الخصومة من معان ميتافيزيقية وسياسية واقتصادية وثقافية حافة، شاهدنا على ذلك كتاب «المعلوم والمجهول» للتركي ولي الدين يكن، وهو كتاب فضلناه على كتب الشوام لأن صاحبه تركي ومسلم نشأة، ومن ثم يصعب تفسير معاداته للإسلام وللمسلمين بأصوله العرقية أو الدينية.

كان ولي الدين يكن (1873 - 1921) حتى سنة 1897 حميدياً خالصاً يدافع عن السلطان عبد الحميد بقلمه حتى عرّضه هذا الموقف لنقمة عباس الثاني خديوي مصر⁶⁸ وخصم السلطان عبد الحميد وأبي الهدى الصيادي الذي حرص منذ 1892 على إفشال مخطط زواج الخديوي من إحدى الأميرات العثمانيات: «إن المعية أنفذت إلى أحد

⁶⁶ برنارد لويس . - الإسلام واللاتينية . - ص 174

⁶⁷ برنارد لويس . - الإسلام واللاتينية، ص 16-18

⁶⁸ عباس حلمي الثاني (1874 - 1944) تولّى الخديوية سنة 1892 وعزلته بريطانيا سنة 1914، خصم عبد الحميد

لأسباب مصلحة

مستخدميها في عصابة لا أعلم من رجالها إلا نفرا قليلا وأنا إذاك بالإسكندرية أريد السفر إلى الآستانة لأرى عما لي كان هناك فجاءني الرسول في صحابته ليلا وجعل يتوعدني بالضرب والتحقيق إذا أنا لم أكتب له ورقة أقول فيها إن كل ما أدافع به عن عبد الحميد زور وبهتان. فكتبت له الورقة⁶⁹ التي طلبها ودفعتها إليه فلما كان الغد رجعت إلى القاهرة وقصدت إلى قصر الدوبارة ومعني اثنان من أصحابي فاستقبلنا المستر (بويل) وأظهر لنا من البشاشة والظرف ما لا أنساه له إلى اليوم وقام اللورد كرومر بمناصرتي خير قيام وبقيت الإمارة لا تدري كيف تتحامي نبالي وكيف تخفض سماعي»⁷⁰

هذا الحميديّ الملخص الذي نصره اللورد كرومر (1841-1917) على عداوة بريطانيا لعبد الحميد مرّ بعد مذبحة الأرمن سنة 1896 بأزمة نفسية وفكرية حادة فانقلب على سياسة عبد الحميد وأصبح فاضلياً من أكبر المناصرين لحقوق «الشعوب العثمانية» ممّا عرضه للنفي سنوات أصبح أثناءها مدمناً على المورفين، مهدود الجسد والنفس ولم يطلق سراحه إلا عند قيام «العهد الجديد» وإعلان العفو العام فألّف «المعلوم والمجهول» وأهداه إلى مصطفى فاضل، والد نازلي هانم. كتب يكن عن فترة ما قبل هذه الاستفاقة :

« كم أسف أجدّه عندما أتذكر ماضي الشباب أيام كان الفتى ممّا شغلّه مقالة يكتبها أو قصيدة ينظمها لتذكرها له الصحف السيّارة ناعته إياه بالفاضل والأديب، أيام كان الشاب ممّا يقضي ليله في معاقرة ولهو وسماع ثمّ يصبح فينادي في الصحف باسم الوطن ويدعو إلى مكارم الأخلاق»⁷¹

كم تبدو صورة الشاب يكن مثالا حيّاً وباقياً على نفوس «الوطنجيين» الميّته في البلدان الحميدية النظرة إلى اليوم وعلى الهوة الفاصلة بين العمل والقول، بين الممارسة والتفكير: « ليل معاقرة ولهو وسماع » و « صباح مناداة في الصحف باسم الوطن ودعوة إلى مكارم الأخلاق ». ولسوف تكون لذلك استفاقة الشاب يكن عنيفة لأنها كانت مفاجئة ولأنها

⁶⁹ بطرح رضوخ يكن للتهديد قضية موقف « الخود » التي يهددها « الشيخ » التي طرحها الشدياق سنة 1855 =

كيف نحكم على موقف « الخود » (الكوناتوس) وهي تستमित في الدفاع عن نفسها إمّا بطريقة إنكفائية وأمّا بالتمرد والاحتفاء بقوى عظمى أجنبية ؟ القضية ما زالت مطروحة إلى اليوم في البلدان العربية ذات الأنظمة «الحميدية»

⁷⁰ يكن . - المعلوم والمجهول، ص 109

⁷¹ يكن . - المعلوم والمجهول، ص 14

اتخذت شكلي المحاسبة السياسيّة والأخلاقيّة للنفس ولسياسة عبد الحميد الدينيّة التي خدمها يكن فيما يشبه السكرة الطويلة :

« في اليوم الثاني والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1897 دخلت إدارة المقطّم وولجت مكتب الأستاذ فارس نمر »⁷².

ومنذ هذه السنة سوف يصبح يكن أحد كبار المنافيين عن الفكرة العثمانيّة الائتلافيّة بمقوماتها الثلاثة :

- رفض الاحتكار الإسلاميّ للسلطة ومقاومة النزعات النابذة بمقاومة ماتدعيّ القيام عليه من مقومات أهمّها الجنس واللغة الخاصّة.

- السعي إلى تقويّة اللحمة الداخليّة في الوطن العثماني بتحقيق ازدهار اجتماعيّ واقتصاديّ على أساس من الحرّيّة الاقتصاديّة.

- التعويل على بريطانيا في تحقيق نهضة السلطنة.

يرى وليّ الدين يكن أنّ النمط السياسيّ الأصح للسلطنة العثمانيّة ليس هو النمط المركزيّ الذي أخذ به عبد الحميد وعبر عنه بقوله : « إنني على رأس دولة ينفرط عقدها في اللحظة التي تضعف فيها إدارتها المركزيّة »⁷³ فكتب داعياً إلى اللامركزيّة :

« لا تدبير يفيد بلادنا مثل عدم المركزيّة. هذا رأي يفزع أكثر الساسة عند سماعه ولو أطلّوا فيه النظر لبدت لهم محاسنه في أحسن الصور »⁷⁴.

وهو يذهب في هذه اللامركزيّة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه لأنّه يحجم، على عكس خير الدين التونسي مثلاً، عن تصنيف العثمانيين إلى مسلمين يجب أن يحكموا ومسيحيين يجب أن يُحكموا لأنّ المحكّ عنده، في ميدان الحكم، هو الكفاءة. فهو يصنّف العثمانيين صنفين ، صنف آخذ بالنظرة الحديثة إلى الله والطبيعة وإلى الدولة المجتمع

⁷² يكن . - المعلوم والمجهول، ص 131 «والمقطّم» جريدة يومية سياسية موالية بريطانيا أنشأها أعضاء من قدماء «جمعية بھروت السريّة»: يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاربوس (1853 - 1910) في القاهرة سنة 1888 وقد تعاقب على رئاسة تحريرها فارس نمر وخليل ثابت (تـ 1962) وكرم ثابت (ت 1964) (الموسوعة العربيّة الميسّرة ، 1987، ج 1)

⁷³ عبد الحميد الثاني . - المذكرات، ص 56

⁷⁴ وليّ الدين يكن . - المعلوم والمجهول، ج 2، ص 100

يجب أن يقود البلاد، مهما كان عرقه ودينه، وأكثر المعبرين عنه مسيحيون ويهود وصنف تقليدي ما قبل رأسمالي مقاوم للتنظيمات وأكثر المعبرين عنه مسلمون، عرب وترك. ويفسر يكن هذا الاختلاف بين الصنفين العثمانيين باضطراب الأقليات عامة إلى الاستماتة في الدفاع عن ذاتها بـ «اختراع الحيل للنجاة» ومنها العلم الحديث والتجارة والضرب في بقاع الأرض وبخمول المسلمين المحتمين بالدولة الدينية المطمئنين إلى غلبة العدد المسلم :

« يشهد الله وكلّ محبّ للحق أن إخواننا العرب، لا سيما السوريين منهم كانوا أشدّ الناس ضجرا وأعظمهم أنفة من احتمال الدّلّ فهم الذين تاقت نفوسهم إلى الفضيلة العصرية من وراء حجب الاستبداد فأقبلوا على مصر وعلموا إخوانهم المصريين إنشاء الصحف واتخاذ المطابع واحتراف الأدب العصري واصطفاء الحرية هذا مع أنهم محرومون في بلادهم من التمتع بمثل هذه النعم »⁷⁵.

وخصال الأرمن التي عرضتهم لـ «حسد المسلمين» على حدّ عبارة يكن، لا تقلّ عن خصال العرب المسيحيين و« الأرمن عرفوا حدّ ما عليهم للحكومة وما لهم عليها فرضوا أن يهبوها حقّها وأن يطالبوها بحقّهم. وكبر هذا على الحكومة لأنها كانت لا تحبّ النصفة وكبر على المسلمين لأنهم لم يكونوا يعلمون أن للأرمن حقّا على الحكومة وهم يعلمون أنّ الحقّ لا يكون إلّا للمسلمين دون سواهم. نعم كان في جماعات المسلمين رجال رزقوا العلم وأشربوا حبّ الوطن اعترفوا لإخوانهم المسيحيين بالحقّ وأرادوا إنصافهم وودّوا مشاركتهم في مطالبهم غير أن قلّة العدد خذلتهم في مناوأة الحكومة والسلطان الظالم وظلّوا في أعين الجهلاء بمنزلة الأعداء »⁷⁶.

يوجد عند يكن، تلازم بين «طلب العلم والصناعة والاستفادة من معجزات العصر الحديث» وتوق «النفوس إلى الفضيلة العصرية من وراء حجب الاستبداد»، والسمتان من سمات النخبة العثمانية المسيحية، أي يوجد، بصياغة أخرى، تلازم بين التطور العلمي والتقني وبين مطالب التحرر السياسي إذ ليس بإمكان الإنسان التقليديّ، وهو عنده الإنسان المسلم في عصره، أن «يعرف ما عليه للحكومة وما له عليها فيرضى أن يهبها حقّها وأن

⁷⁵ ولي الدين يكن . - المعلوم والمجهول . - ص 71 هذا التعاطف مع الشوام المسيحيين هو الذي يفسّر أن من أهتم

تجمع ديوانه و نشره بعد موت سنة 1921 هو أنطون الجميل

⁷⁶ ولي الدين يكن . - المعلوم والمجهول . - ص 54

يطالب بحقه « لأن هذا الإنسان التقليديّ تربى على نظرة تقليديّة إلى علاقة الله بالطبيعة قاس عليها علاقة الدولة بالمجتمع وبذلك أمكنه أن ينظم ما نظم شكيب أرسلان في عبد الحميد :

وألهم مولانا الخليفة ظلّه قياما على الدستور في الدولة الغرّاء
فالتقليديّون « يعتقدون أن لاحقاً للأمة في مشاركة الملوك في أعمالهم وأنّ الرعيّة عبيد الملوك
أمروا بالطاعة لهم وإن ظلموا والشكر وإن أساءوا . يتحدثون عن ذلك في مجامعهم وفي
أيديهم السبح وأمامهم النرجيلات (الشيشات) يمتصّونها حتى تستطلع حبّاتها. يؤتى لهم
بالشاي منقوعاً وبين أيديهم جماعات من المشائخ منهم المدّعون لعلوم الكيمياء القديمة ومنهم
أولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) ومنهم المتصوّفون من أتباع الرفاعي و الكيلاني
ومحي الدين العربي (كذا) والبكتاشي والمولوي ومنهم أئمة الشرع ورواة الأحاديث
والمفسّرون. وكلّ هؤلاء يكفّرون الأحرار ويدعون لعبد الحميد ويمدّون أنامل أكلت أطرافها
حبّات السبح يجرون بها دراهم أعوانهم عدّاً بطلا (كذا) وجشعا ولؤماً. كانوا يؤثرون حبّاً
عبد الحميد على حبّ العادل الحميد. فمن من هؤلاء القدماء الصلحاء الأتقياء يشكّ في صدق
الحاج السيّد الشيخ زيد مثلاً وهو لابس عمامة كأنّها كيوان وفي يده عصا كأنّها عمود الصبح
وعليه جبّة خضراء⁷⁷ كأنّها ملاءة الربيع وفي رجله خفّان أصفران كأنهما سقينتان من
النحاس الأصفر وفي عنقه سبحة هي أطول من ألفيه ابن مالك ثمّ يصدّق ما جاء به سليم
سركيس⁷⁸ وهو رجل مسيحيّ ما قرأ على شيخ أو يؤمن بما يقول غيره من أحرار الترك
والعرب وهم متعلّمون في أوروبا؟⁷⁹

لم نعرث فيما نعرف من الآثار المتعلّقة بهذه الفترة على مفكر مسلم نشأة وصف علاقة
المسلمين بالمسيحيين بمثل ما وصفها به وليّ الدين يكن وسبب ذلك واضح، في نظرنا، فهو لا
يتناول الفترة الفاصلة بين الإعلان عن التنظيمات الأولى (1839) وتمرد الجيش الثالث
(1908) تناولاً يستند إلى فكرة الصراع بين الأجناس ولكنّه يتناولها انطلاقاً من التضادّ بين
الآخذين بنظرة تقليديّة إلى العالم والآخذين بنظرة حديثة. وضمن كلّ صنف من هذين

⁷⁷ جبّة خضراء - هي حكر على الشرفاء المنتسبين إلى عماد

⁷⁸ سليم سركيس (1869-1927) عربي بروستانتى، صاحب «المشرق» الشهيرة

⁷⁹ وليّ الدين يكن . - المعلوم والمجهول . - صص 71-73

الصنفين يوجد منتمون إلى أجناس وديانات مختلفة. فحقيقة الصراع عنده ليست دينية وإنما هي فكرية « ابيستيمولوجية » ولقد دفعه الشعور بما لحق المسيحيين من ضيم إلى تبرير ثوراتهم مثل ثورة 1860 في الشام وثورة البلغار سنة 1877 وثورة الأرمن بداية من تسعينات القرن التاسع عشر. فعن الأولى كتب ميرزا العرب المسيحيين ومجرماً بعض مراكز القوى في السلطنة وفي الولايات الشامية : « تعصب أكثر العلماء وجهل الرعية وظلم الحكومة أتى البلاد بثلاث مذابح مختلفة : أولاً مذبحه الشام وقعت في سنة 1860 أضرم جاحمها وأجزل وقودها أحد الباشاوات بأمر من الباب العالي فطلبت أنكلترا وفرنسا⁸⁰ من الحكومة العثمانية تحقيق الأمر وعقاب من تثبت عليه جريمة التحريض فذهبت إلى الشام هيئة محققة اشترت رضا الباشا وسارت على ما أمرتها به الحكومة. غير أن أنكلترا وفرنسا لم تقنعا بذلك وأصرتا على طلب التحقيق فتبين ذنب الباشا فطلبت هاتان الحكومتان إعدامه ليكون عبرة لغيره وكان سفير أنكلترا في الآستانة إذاك (أرل رسل) ومعتمدها في بر الشام (اللورد دوفيرين) فرزعت الحكومة العثمانية أن قتل الباشا قد يستثير المسلمين ويدفعهم إلى قتل المسيحيين عامة انتقاما وتشفيًا وربما تعدى ذلك إلى رعايا الدولتين فكان جوابهما الإصرار بعقاب الباشا فأعدمته الحكومة التي أوعزت إليه بالفتنة⁸¹ ولم تحدث هنالك أشياء مما ادعت تخوفها منها... »⁸².

أما عن الأحداث البلغارية في سنة 1877 فقد كتب :

« ثم وقعت مذبحه البلغاريين في سنة 1877 وقد حمى الباب العالي زعماء الفتنة وذهبت مساعي اللورد (بكنسفيلد) غير مجدية نفعاً »⁸³.

وأما عن الأحداث الأرمنية في التسعينات فقد كتب :

« في سنة 1890 قامت جمعية (خنجاك) بواقعة (قوم قبو) وهي براءة⁸⁴ الاستهلال في النهضة الأرمنية. وفي سنة 1896 قامت جمعية (طاشنا قساغان) بواقعة البنك العثماني.

⁸⁰ على عهد كل من بالمرستون في بريطانيا ونابليون الثالث في فرنسا.

⁸¹ بجرم فؤاد باشا، أحد كبار مهندسي التنظيمات هو نتيجة مقاومة فؤاد باشا لمصطفى فاضل، الذي ينتسب يكن إليه

فكريا

⁸² ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول . - صص 50-51

⁸³ ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول . - ص51

⁸⁴ براءة = بداية

كلتا الواقعتان وقعت في عاصمة الملك العثماني لتكون بمشهد من أعين سفراء الدول وبحضرة عبد الحميد. أرادت الجمعيتان الأرمنيّتان أن تعلّما حكومة الاستبداد أن الشعب الأرمني نفّض عنه تراب الذلّ وأنه يأبى الاستمرار في طاعة كلّها تكلف فجاؤوا لسائر إخوانهم العثمانيين بمثال من النخوة كان يجب أن يحذوا على منواله. غير أنّه لم يقرّ عينا بذلك سوى فريق من رجال الحرّية أضجرهم الملك. أمّا الباقون من المتعصبين والجهلاء ومن أسعدهم الاستبداد وعلت أقدارهم في دولته فقد أغضبهم ذلك وأقبلوا بجموعهم يقتلون الأرمن»⁸⁵.

لقد طرح الشدياق منذ 1855 قضية تمرد «الخود» على «الشيخ» الذي يسعى إلى إذابتها فيه ولكن بشكل ضمنيّ ولم يبرّر تمرد «الخود» واكتفى بالإشارة إلى أن مثل هذه العلاقة بين (الشيخ) و(الخود) تشي بخلل يمنع تحقيق السعادة. أمّا يكن فهو يبرّر تمرد «الخود» لأنها جاءت بـ «مثال من النخوة كان يجب أن يحتذى» : «نعم غضب الأرمن من المسلمين عامّة ومثا معشر الترك خاصة. ولا يبعد عن العقل أن يكونوا اتفقوا بينهم أن يتخذونا أعداء فإذا صحّ ذلك فهو أمر حادث ولكنهم لم يكونوا كذلك فلطالما بكوا لبكائنا وشاركونا في ضرائنا ومنعناهم أن يشاركونا في سرائنا»⁸⁶.

يبرّر وليّ الدين يكن ، إذن ، ظهور القوميّات ونمائها لا باختلاف العرق واللغة والدين ولكن بأمر أعمق من ذلك لأنّه أكثر التصاقا بالطبيعة وهو استماتة كوناتوس ضعيف ما في الدفاع عن ذاته إزاء كوناتوس شرس أقوى منه إذ «الحرج يعلم الحيلة وتوالي العقبات يستولد البغضاء ولو كان عدلا فكيف به إذا كان ظلما. ودوام الإساءة يحول دون استعادة الصفاء : هذه ثلاث ضروريّة فرغ العقلاء من التخالف فيها»⁸⁷.

إنّ المقارنة بين تفكير وليّ الدين يكن وتفكير سليمان البستاني تظهر بوضوح كاف نقاط الاتفاق ونقاط الاختلاف بين الإخوة الخصوم : العثمانيين الانتلافيين والعثمانيين الاتحاديين فما يربط بينهم هو الأخذ بنظرة حديثة إلى علاقة الله بالطبيعة وإلى العلاقات الاجتماعية بكلّ ما ينجرّ عن هذه النظرة من نتائج. ولكنّ ما يختلفون فيه ، ضمن هذه

⁸⁵ وليّ الدين يكن . - المعلوم والمجهول . - ص 56

⁸⁶ وليّ الدين يكن . - المعلوم والمجهول . - ص 61

⁸⁷ وليّ الدين يكن . - المعلوم والمجهول . - ص 55

النظرة، هو المواقف من علاقة الدولة بالمجتمع (اللامركزية والمركزية) ومن الاختيارات الاقتصادية (التبادل الحر أو «الوطنية» الاقتصادية) ومن علاقات السلطنة بالقوى العظمى وخاصة منها بريطانيا (موالاة هذه القوة العظمى غير المشروطة ومعاداتها). ولقد كان تيار «الاتحاد والترقي» حتى بداية القرن العشرين تيار الأقلية ولكنه كان يستمد قوته من بعض كبار الساسة (خليل غانم أحمد رضا، سليمان البستاني...) على عكس تيار «الاتحاد والحرية» الذي كان تيار الأغلبية ولكنه كان يفتقر إلى رموز سياسية تجمع قواه المشتتة. ولسوف يعثر في الأمير صباح الدين على ضالته فتحدث عند انعقاد مؤتمر المعارضة المجرية سنة 1902 الخصومة الأولى بين الإخوة الأعداء. ما الذي حدث في مؤتمر 1902 ؟ لابد أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن سنة 1902 قد شهدت انعقاد مؤتمرين للمعارضة العثمانية في باريس وإن كان كثير من الباحثين يخلطون بين هذين المؤتمرين وكذلك بين ما أسفرا عنه من قرارات ويبدو أن المؤتمر الأول الذي انعقد في 4-9 فيفري 1902 وضم سبعة وأربعين عضوا من جنسيات مختلفة (ترك - عرب - يونان - أكراد - ألبان - أرمن) لم تبرز فيه التناقضات بين الشقين الرضاوي والصباحي بالحدة التي ظهرت في المؤتمر الثاني. وقد كتب وجيه كوثراني عن هذا المؤتمر :

« في المؤتمر الأول للأحرار العثمانيين الذي عقد بباريس ألقى (الأمير صباح الدين) خطابا افتتاحيا جاء فيه : « ينبغي أن يكون مفهوما جيدا أن الأتراك الذين يكونون الأكثرية في الإمبراطورية⁸⁸ لا يطلبون لأنفسهم إلا ما يطلبونه وبنفس المقاييس لإخوانهم المواطنين المسلمين وغير المسلمين كافة. إن الإمبراطورية العثمانية منذ ظهورها حتى عهد الدستور (يقصد دستور 1876 الملغى سنة 1877) لم تثبت تقصيرها قط في احترام لغة وعادات وديانة جميع الشعوب المختلفة التي تتولى مصائرها⁸⁹ إننا نعيد القول إن الإصلاحات التي

⁸⁸ الإحصائيات في هذه الفترة هي مجرد تقديرات ولذلك لا اتفاق حول عدد مختلف الأجناس في السلطنة وليلا حظ

القارئ استعمال لفظ «الامبراطورية» بدلا من الخلافة وحتى السلطنة

⁸⁹ لا يجرم الأمير مهندسي التنظيمات مثلما يفعل ولي الدين يكن

نطلب تطبيقها في بلادنا والتي نعمل بكل قوانا لتطبيقها لا نطلبها لشعب دون آخر⁹⁰ أو ملة دون أخرى، كلا إننا نطلبها لجميع العثمانيين دون استثناء⁹¹ أما قرارات المؤتمر فأهمها :

أولا : إننا نرفض الربط بين الشعوب العثمانية والنظام الذي عشنا فيه خمسا وعشرين سنة، فهو نظام ظالم، وهو المصدر الوحيد للمساوئ المقترفة في الإمبراطورية والتي تستثير احتقار الإنسانية جمعا⁹²

ثانيا : إننا نريد أن نؤسس بين مختلف شعوب الإمبراطورية وأجناسها ائتلافا⁹³ يضمن للجميع، ومن غير تمييز، تمتعهم التام بحقوقهم التي أقرتها إعلانات السلاطين وعززتها المعاهدات الدولية⁹⁴ وأن نوفر لهم الوسائل التي ترضي تماما آمالهم الشرعية في الإسهام بالإدارة المحلية⁹⁵ وتضعهم على قدم المساواة من ناحية الحقوق والواجبات المطلوبة من كافة المواطنين وأن نستثير فيهم شعور الإخلاص والولاء للعرش ولآل عثمان اللذين وحدهما يستطيعان المحافظة على الوحدة.

ثالثا : سنوجه جهودنا في جميع الأحوال إلى تنسيق رغبات جميع الشعوب العثمانية وجهود جميع المواطنين من أجل الهدف الثلاثي : المحافظة على وحدة الإمبراطورية العثمانية وعدم إمكان تفككها، إعادة تأسيس النظام والسلم في الداخل وهما شرطان أساسيان للتقدم، احترام القوانين الأساسية في الإمبراطورية وخاصة الدستور الذي

⁹⁰ يحيل العثمانيون الاتحاديون إلى استعمال لفظ «العناصر» والعثمانيون الائتلافيون إلى استعمال لفظ «الشعوب»

فالنصريون هم، مثلا، شعب مستقل بذاته (انظر يوسف الحكيم في حديثه عن الشعب العلوي في الجزء الأول من هذا الكتاب).

⁹¹ وجه كورثاني . - الاتجاهات، ص 159

⁹² الإنسانية = مرجع تقييمي لأبد من الإشارة إليه وتسطيره.

⁹³ ائتلافا = من هنا كانت تسمية الصباحيين بالائتلافيين.

⁹⁴ (نقطة خلاف أساسية مع الرضاويين (الاتحاديين) الذين يرفضون تدخل الدول العظمى في السياسة العثمانية

الداخلية.

⁹⁵ الإدارة المحلية = سيكون هذا مطلب الائتلافيين الشرام حتى الحرب العالمية الأولى ثم يتطور إلى مطلب اقتسام الحكم

في السلطنة أسرة بالتحربة النمساوية - المجرية (دعوة عزيز علي و"المهد")

أدخل في سنة 1876 والذي هو بلا جدال أهم ما فيها والذي يقدم أقوى وأثمن ضمان للإصلاحات العامة ولحقوق الشعوب العثمانية وحرّياتها السياسية تجاه التعسف»⁹⁶.

ما من شك في نظرنا أن القارئ لاحظ في ما أورده كوثراني من قرارات المؤتمر الأول بعض العبارات التي من الصعب على العثمانيين الاتحاديين أن لا يتحفّظوا إزاءها مثل «الحقوق التي أقرتها إعلانات السلاطين وعزّزتها المعاهدات الدولية» فهذه الإشارة إلى القوى العظمى «الضامنة» لتطبيق معاهدات عقدت مع السلطنة تكفي، وحدها، لإثارة شعور الرضاويين. ولعل تركيز الصباحيين على هذه النقطة في المؤتمر الثاني الذي انعقد في العاصمة الفرنسية في ديسمبر 1902 هو الذي دعا برنارد لويس إلى أن يؤرّخ للخصومة بين الشقيين العثمانيين بداية من هذا المؤتمر:⁹⁷

«حدث انقسام كبير (حول مسألة) تدخّل (القوى العظمى). كان ممثلو الأرمن وهم يتذكرون مجازر 1894 - 1896 حريصين على ضمان تدخّل القوى الأوروبية لضمان انطلاق الإصلاحات الفعلية في الإمبراطورية (...) وقد تبسّى الأمير صباح الدين هذه المرة مطالب الأرمن فتضمنت اللائحة المصادق عليها تذكيرا للأوروبيين بأن من واجبهم وفي صالح الإنسانية العام التأكّد من أن بنود المعاهدات والاتفاقيات الدولية المضاة بينهم وبين الباب العالي تطبّق بصورة تخدم مصالح كل الأطراف في الإمبراطورية العثمانية»⁹⁸.

لقد وقعت المصادقة على هذه اللائحة لأنّ الصباحيين كانوا أغلبية ولكنّ التيار الرضاوي الاتحادي حرص على بيان موقفه المعارض كما يظهر ذلك هذا الجزء من مذكرته :

«إنّنا المجموعة الأقلية، لاعتقادنا أن القوى العظمى تسيرها المصلحة وأنّ هذه المصلحة لا توافق دائما مصلحة بلادنا، نرفض بتصميم، نتيجة اعتقادنا هذا، عملا يتعدّى على استقلال الإمبراطورية العثمانية إلا أنّنا مع ذلك لسنا، كما وقع ادعاء ذلك، معادين لأوروبا بل العكس، فإن واحدة من أمانينا الأساسية هي أن نرى الحضارة الأوروبية تنتشر في

⁹⁶ وجيه كوثراني . - الاجتماعات، ص 159

⁹⁷ يضيف جورجون إلى هذا الخلاف السياسي خلافا حول الاختيارات الاقتصادية مشيرا إلى أن صباح الدين كان أخذًا بمبادئ مدرسة مانشستر الاقتصادية لأنه كان يرى في الليبرالية نظاما علميًا، مجردًا وعامًا، مبنيًا على قوانين طبيعية صالحة للإنسانية جميعها (فرنسوا جورجون . - أصول القومية التركية، ص 84).

⁹⁸ برنارد لويس. - الإسلام و اللائكية، ص 180

بلادنا، نخص بالذكر من هذه الحضارة تقدّمها العلميّ ومؤسساتها القيّمة. إنّنا نسلك الطريق التي رسمتها أوروبا، وحتى عندما نرفض القبول بالتدخل الأجنبيّ فإنّنا نستوحي ذلك من روح التصميم الوطنيّة التي تبدو كلّ الشعوب الأوربيّة نفسها الغيرة على استقلالها بحق فخورة بها»⁹⁹.

عندما افترق المؤتمرون في باريس كان صباح الدين يفكر في تأسيس حزب «الجامعة من أجل المبادرة الخاصّة واللامركزيّة» ونشر خلايا هذا الحزب في مختلف مناطق السلطنة. ولقد تمكّن من تحقيق هدفه ذاك في الآستانة وأرض الروم وترتيبزونند وأزمير وألانيا وكذلك في بلاد الشام، في اللاذقية وفي دمشق. هذا النشاط الذي أظهره الشقّ الغالب لم يمنع الشقّ الاتحادي من النفاذ إلى فئات أوسع من فئات الصباحيين ومنها الجيش سواء في جناح السلطنة الشماليّ (سالونيك خاصة) أو في جناحها الجنوبي ومنه بلاد الشام إذ تذكر مختلف المراجع أن سنة 1906 كانت سنة اختلال التوازن لصالح الاتحاديّين :

« إنّ سنة 1906 هي سنة المنعرج الكبير إذ تأسّست فيها خلايا ثوريّة في أوساط الضباط العاملين في الوحدات المقاتلة ويبدو أنّ أوّل تنظيم من هذا القبيل كان « جمعية الوطن والحرية » التي أسسها في دمشق في خريف 1906 مجموعة صغيرة من الضباط من ضمنهم مصطفى كمال¹⁰⁰ »¹⁰¹

لقد كان المعبرون عن مصالح « الشعوب العثمانية » يعرفون جيّدا ما يمثله الاتجاهان الرضاوي والصباحي بالنسبة إليهم وإلى شعوبهم : كانوا يعرفون أن الاتجاه الأول يعني « الدمج » (الاتحاد في الوطن العثماني) وأن الثاني يعني « الحكم الذاتي » ولذلك فمن الممكن للمرء من الآن أن يتكهّن بمواقفهم من الاتجاهين : لقد كان التيار الصباحي هو الذي حظي بمساندة هذه القوى النابذة (العروبيّة الإسلامية، قداماء جمعية بيروت السرية، القومية اليهودية) لهذا السبب أو ذاك. لكن هذا التيار على غلبته العدديّة لن ينجح في الاستيلاء

⁹⁹ برنارد لويس. - الإسلام واللائيكية، ص 181

¹⁰⁰ مصطفى كمال (1880-1938) ولد بسالونيك سنة ولادة عبد العزيز آل سعود (1880-1953) والمقارنة بين

تفكير هذين السياسيين يستأهل دراسة كاملة يمكن أن تعين على فهم الفترة موضوع دراستنا وقد أضر إدمان الخمر

بصحة مصطفى كمال إضرارا كبيرا. انظر عه دائرة المعارف الإسلامية (ج1/756-757)

¹⁰¹ برنارد لويس . - الإسلام واللائيكية . - ص 182

على السلطة بسبب مناصرة الجيش الثالث للرضاويين وبسبب ميوله الأنكليزية خاصة في زمن أظهرت فيه أوروبا الغربية وروسيا نيتهما في اقتسام السلطنة. ففي 1904 عقدت فرنسا وبريطانيا « الاتفاق الودي » وفي 1807 التقى ملك بريطانيا بقيصر روسيا في رافيل بغاية توحيد سياستيها وبذلك اتحد الخصوم القدامى الذين ضمننت خصوماتهم طيلة القرن التاسع عشر وحدة السلطنة النسبية لمواجهة ألمانيا ولم يبق للاتحاديين من خيار غير التحالف مع هذه القوة القومية الشرسة الناشئة. ويمكن للمرء أن يتكهن بما كانت عليه مشاعر الصباحيين عندما تحرك الجيش الثالث بقيادة « أوباش سالونيك » على حد تعبير محمد رشيد رضا في جويلية 1908 نحو العاصمة لفرض الدستور وإعادة العمل ببرلمان كان رئيسه الأول أحمد رضا الوضعي الانتهازي .

الفصل الثالث

الحنين الأخضر

حاولنا في الفصل السابق أن نحدد سمات التيارين العثمانيين الائتلافي والاتحادي فبينما أنه بالرغم من الاختلاف بينهما فإن أهم ما يجمع بينهما فكرياً هو الأخذ بنظرة شدياقية حديثة إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثم إلى علاقة الدولة بالمجتمع إذ لا أحد من بين المفكرين سليمان البستاني الاتحادي وولي الدين يكن الائتلافي مثلاً يرى في ما قبل العصور الحديثة بالتقسيم التاريخي الغربي مرجعاً يمكن الاطمئنان إليه. وعلى العكس من ذلك كان التيار العروبي الإسلامي يلح على فكرة « الأصل » العربي والمسلم وعلى فكرة « الأصالة » بالمعنيين العرقي والثقافي داعياً إلى « تنبيه الأذهان إلى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لتعلم هل هي منطبقة علينا أم لا »¹ ومجرماً كل دعوة إلى القطيعة بين ماضي العرب المسلمين السنة و حاضرهم أي كان تياراً معادياً للعثمانية بشقيها الائتلافي والاتحادي لما يقومان عليه من كوسموبوليتية فرضها فرضاً تعدد الأجناس والديانات والطوائف في السلطنة وكذلك ضغط الرأسمالية عليها.

هذا التيار تطلق عليه بعض الدراسات إسم « القومية الإسلامية » ولقد فضلنا نحن أن نطلق عليه إسم « العروبية الإسلامية » لوضوح هذه العبارة إذ هي تحيل على بعض شروط شرعية الحكم عند ابن حنبل في القرن التاسع الميلادي :

« إن الخلافة في قريش ما بقي في الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا نقرّ لغيرهم إلى قيام الساعة »² ولقد مثل هذا التيار محمد عبده (1849 - 1905) وعبد الرحمن الكواكبي (1854 - 1902) ومحمد رشيد رضا (1865 - 1935) مجايل محمد كرد علي ومثله كذلك محب الدين الخطيب (1887 - 1969)³ وعبد الغني العريسي

¹ محمد رشيد رضا . - رحلات الامام محمد رشيد رضا . - بيروت، 1971 . - ص 28

² البرت حوراني . - الفكر العربي في عصر النهضة . - ص 35

³ محب الدين الخطيب. من أسرة دمشقية يتصل نسبها بعبد القادر الجيلاني يشتغل أفرادها بالعلم والتجارة. أول من رأس تحرير «القبلة» جريدة الشريف حسين وهو صاحب «المكتبة السلفية» الشهيرة وأحد من نشطوا نشاطاً كبيراً لتأسيس جمعيات : «الشباب المسلمين» نهاية العقد الثالث من القرن العشرين وجمعية " الإخوان المسلمين " في مصر. ولقد كان سلامة موسى يجب أن يطلق في مجلته «المجلة الجديدة» على الثلاثي محمد رشيد رضا ومصطفى صادق الرافعي (وهو شامي الأصل) ومحب الدين الخطيب عبارة «أوكار الرجعية» (انظر عدنان الخطيب .. الشيخ الطاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في الشام وأعلام من خريجيه مدرسته. - القاهرة، 1971، صص 40-41)

(1891 - قتل 1916) من جيل العربية الفتاة الذي ولد في تسعينات القرن التاسع عشر ولا نتناوله إلا عرضا بالدراسة. ما الذي يجمع بين أهم المعبرين عن هذا التيار ؟ يجمع بين العربيين الإسلاميين أربع نقاط التقاء على الأقل في نظرتنا : أولاها الأخذ، شأنهم في ذلك شأن الإسلاميين، بنظرة تقليدية إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثم إلى علاقة الدولة بالمجتمع.

وثانيها الإحساس الحاد، على عكس الإسلاميين، بالانتماء إلى الأشراف وثالثها الإحساس الحاد بخطر التنظيمات عموما والتعليم الحديث على مواقعهم الاجتماعية ورابعها وهي نقطة تدخل ضمن العامل الخارجي انجذابهم بعد فساد العلاقة بين بريطانيا والسلطنة بداية من الثمانينات إلى دعوة بريطانيا إلى تأسيس حكم عربي يفصل العالم « التركي » عن « إيران » .

وفعلا فإنه لا يوجد عند العربيين الإسلاميين فيما يتصل بنظرتهم إلى الأشياء مكان إلا للطبيعة المنفصلة والمجتمع « الكم » تشكله الدولة الدينية القويمة التشكيل الذي تريد فتبلغ هذه الدولة ويبلغ هذا المجتمع بذلك منزلة تقصر عن بلوغها كل دولة تقوم على نظرة مغايرة إلى الأشياء. كتب محمد عبده، رأس العربيين الإسلاميين، في لغة تضخم دور الميتافيزيقي والسياسي وتقلص دور الاجتماعي إلى أبعد الحدود :

« لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتمهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرّر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم»⁴.

في الشاهد إجابة واضحة عن السؤال ما العمل الذي أرق دعاة التغيير في السلطنة العثمانية. فالخلاص، أي الانتقال من وضع اللازحام إلى وضع مزاحمة الأوربيين فزحهم أي التفوق عليهم، يتوقف على شروط ثلاثة : توفر الإرادة الإلهية ووجود الدولة الدينية القويمة وأخذ هذه الدولة المجتمع بأحكامها المطابقة لأحكام الدين.

وهناك شرط رابع لا يظهر في الشاهد ولكنه هو الذي يميز العربيين الإسلاميين عن الإسلاميين وهو ضرورة أن يكون الحاكم عربيا إذ أن « أكبر داء دخل على المسلمين في همهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم. أقول الجهلة

⁴ محمد عبده . - الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة . - الجزائر، 1987 . - ص 31

وأريد أهل الخشونة والغرسة الذين لم يهذبهم الإسلام ولم يكن لعقائده تمكّن من قلوبهم»⁵ وقد حدث ذلك منذ القديم عندما «استعجم الإسلام وانقلب أعجميا»⁶.

من الشرط الأول إذن يتبيّن أن تفكير محمد عبده يخضع لثنائية فظة لا تقول بها الرشدية ولا السبينوزية ولا الشدياقية ولا مختلف التيارات في السلطنة باستثناء الإسلامية. فهناك الدين من ناحية (الله والقرآن) وهناك من ناحية ثانية الطبيعة والمجتمع اللذان يتنزّلان منزلة انفعالية بل إنّ الحاكم الذي «يعرف دينه» هو نفسه «رزق الله» أي أداته فحتّى الدولة تحوّلت إلى مجرد أداة خادمة لإرادة خارجة عنها وإلى مجرد وسيلة تنفيذ لما جاء به الرسل كما يدلّ على ذلك ما كتب محمد عبده في رسالة التوحيد :

«العالم الإنسانيّ في حاجة إلى الرسل الذين هم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص (...) يبيّنون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعت مصلحتهم ولذاتهم فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصانع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة»⁷.

فلا شيء ممّا يتّصل بحياة المجتمع لا تجد الدولة الدينية القويمة إجابة شافية عنه في القرآن بما ذلك المسألة الاقتصادية التي كانت شاغل كلّ التيارات السياسية في السلطنة باستثناء الإسلاميين و العربيين الإسلاميين :

«سألت يوما أحد المدرّسين في بعض المذاهب هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك؟ فأجاب : إنّ تلك الأحكام قلّما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وإنّما يفعل ما يفعل الناس. هكذا فعل الجمود بأهله، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء»⁸ إنّ الشرط الوحيد الذي «يسهل به على الناس أن يكونوا أحياء» هو الأخذ، زمن الصراع الحاد في أوروبا الغربية بين الرأسمالية والاشتراكية أي بين نظرتين مختلفتين إلى العلاقات الاجتماعية التي تدخل ضمنها علاقة الدولة بالمجتمع، بالنظرية الاقتصادية الإسلامية إذ «وضع (الإسلام) قانونا للإنفاق وحفظ المال في قوله «إنّ المبذرين كانوا

⁵ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته . - بيروت، 1988 . - ص 218

⁶ فرح أنطون . - المصدر السابق . - ص 277

⁷ محمد عبده . - سلسلة الأعمال الكاملة (ج3) . - بيروت، ط2، 1980 صص 420 — 421

⁸ محمد عبده . - الإسلام والنصرانية . - ص 130

إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» سورة الإسراء⁹.

هذه النظرة التي لا ترى لحاضر القرنين التاسع عشر والعشرين فضلا إلا إذا اتخذ له من قرآن القرن السابع الميلادي مرجعا سوف يتبناها تلميذه محمد رشيد رضا ويعبر عنها بصورة أبلغ :

« (يجب) تنبيه الأذهان إلى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لنعلم هل هي منطبقة علينا أم لا »¹⁰.

ما الذي دفع محمد عبده والعروبيين الإسلاميين (والإسلاميين فيما يتصل بهذه المسألة) إلى إحلال الدولة هذا المحل « الإلهي » والمجتمع هذا المحل « الطبيعي » ؟ لقد دفعهم إلى ذلك نظرتهم التقليدية التي تقول ميتافيزيقيا بانشداد الطبيعة إلى الله انشدادا كاملا واجتماعيا بانشداد المجتمع إلى الدولة القومية انشدادا مماثلا . فهذه النظرة تستند إذن إلى الثنائية التقليدية التي تقوم على الإيمان بقدوم الله وحدث الطبيعة بكل ما تتضمنه هذه الثنائية من نتائج على مستوى النظرة إلى علاقة الدولة الدينية القومية بالمجتمع . فهذه الدولة ، في نظرهم ، وعلى عكس ما يدعي دعاة الدستور الوضعي أي دعاة طرد رجال الدين من الميدان السياسي ، ضرورة المأ للحياء إذ « كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدّها والسلطة الدينية إنما تستمدّ حكمها من الله ثم تمدّ نفوذها بتلك القوة إلى أعماق قلوب الناس وتدبرها كيف تشاء...نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكن أن تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها »¹¹.

يظهر من الشاهد أنّ العلاقة بين الله والروح والدولة الدينية من ناحية والطبيعة والبدن والمجتمع من ناحية ثنائية علاقة انفصال لا علاقة اتصال وسبب ذلك ، على المستوى الميتافيزيقي ، سمة القدم عند الله وسمة الحدوث والفساد في الطبيعة ويستعمل محمد عبده صورة كثيرة الدلالة للتعبير عن ضرورة الدولة الدينية القومية :

⁹ محمد عبده . - المصدر السابق، صص 90-91

¹⁰ محمد رشيد رضا . - رحلات الامام محمد رشيد رضا . - ص 28

¹¹ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته . - ص 233

« (العقل والقلب) عيانان للنفس تنظر بهما: عين تقع على القريب (وهي عنده العقل) وأخرى تمتد إلى البعيد (يقصد القلب والدين) عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس »¹² فهو يعني بذلك أن دولة لائيكية ليس بإمكانها أن « تقع إلا على القريب » مما يعرض للمجتمع ولذلك فلا بد من عين أخرى قادرة على « أن تمتد إلى البعيد » وهذه العين الأخرى هي عين قرآن القرن السابع مجسدا في الدولة الدينية القويمة. لقد استعملنا عند الحديث عن العربيين الإسلاميين عبارة « الدولة الدينية القويمة » لغاية واحدة هي إثبات أن العربيين الإسلاميين لا يرون أن هذه الدولة تجسدت في حكم عبد المجيد أو (وفي هذه الحالة الأخيرة هم يختلفون عن الإسلاميين) عبد الحميد الثاني وذلك يظهر من خلال حكم الشريف العربي الإسلامي عبد الرحمان الكواكبي على فترة التنظيمات :

« وهذا السلطان عبد المجيد رأى من مؤيدات إدارة ملكه إباحة الربا والخمور وإبطال الحدود ورأى من مصلحته قهر الأشراف وإذلال السادات بإلغاء نفوذ النقابات ففعل »¹³

يتساءل المرء إذا كان العربيون الإسلاميون قد نزلوا الديني والسياسي هذه المنزلة فما هو المجال الفكري الذي تركوه للمجتمع وخاصة للمعبرين عن مختلف الطبقات والنزعات فيه؟

إن من يقرأ ما كتب الكواكبي عن « الاضطهاد » و « الاستعباد » وكذلك ما ينسبه الكثيرون إلى محمد عبده من تسامح لا شك أنه أحس منذ الآن بحيرة عميقة إذ كيف تتفق نظرة تؤله الدولة الدينية مع الحرية الفكرية ؟ والحقيقة أن محمد عبده يجيبنا في الصفحة السالفة الذكر من رسالة التوحيد عما يقصد بالحرية الفكرية وبالتسامح :

« يجب أن يكون الدين باعثا (للأرواح) على طلب العرفان مطالبها لها باحترام البرهان فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد ».

هل يمكن التوفيق بين دعوة (الروح) من ناحية إلى أن « تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم » ودعوتها من ناحية ثانية إلى « التزام القصد

¹² محمد عبده . - الإسلام والنصرانية . - ص 147

¹³ عبد الرحمن الكواكبي . - الأعمال الكاملة . - القاهرة، 1970 . - صص 310-311

والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحدّ « إنّنا لن نجيب عن هذا السؤال لبداهة الإجابة إذ يعرف القارئ من خلال تجاربه القانونية ما يمكن أن يتضمنه الاستدراك « لكن » من معان ونتائج. إلا أنّ ما يهّمنا أكثر من كل شيء هنا هو التساؤل عن الأداة التي أناط بها محمد عبده مهمة تحديد الضوابط الفكرية. هذه الأداة هي الدولة الدينية القويمة :

« يقول آخرون إنّ التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذ السيف لغلّوه في فكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتّع به إلى منتهى ما يبلغ. وليس يصحّ أن ينكر ما صنعه الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة. وأقول إن كثيرا من الغلوّ إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله فتضطرّ السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكرة، لا لأنه تفكّر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حقّ الحرية على شخصه بل أراد أن يقيّد غيره بما رآه من الحرية لنفسه، مع أنّ غيره في غنى عما يراه هو حقّا له، وتخشى الفتنة إذا استمرّ مدّعي الحرية في غلوائه، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقّي منهم المجتمع صونا له عما يززع أركانه »¹⁴.

إنّ الشاهد يبيّن إلى أيّ حدّ يمكن أن يصل « تسامح » محمد عبده الفكري. ومحمد عبده لا يبرّر فحسب امتحان المفكر الفرد الذي « لا يلتزم القصد والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحدّ » ولكنّه يبرّر كذلك تهمة جماعات مسلمة غير سنية كثيرة مثل النصيريين والدروز الذين يذهبون في فهمهم للإسلام مذاهب ليست، في نظره، من الإسلام القويم في شيء.

بهذه الصفة التي قادت إلى نبذ جماعات كاملة من العرب الشوام إضافة إلى المسلمين الترك والفرس والبربر تقترب ملامح التيار العروبيّ الإسلاميّ كثيرا من ملامح التيارات النابذة مثل التيار القومي التركي والتيار القومي اللبناني والتيار القومي اليهودي ممّا سيساهم إلى حدّ كبير في تفتيت الإجماع الشاميّ حول أهمّ القضايا في المنطقة ومن ثمّ في تعدّد التيارات السياسيّة التي ظهرت فيها.

إنّنا نذهب هذا المذهب في التفسير لأنه هو المذهب الوحيد الذي يفسّر عدم خلطنا في هذه الدراسة وعلى عكس أغلب ما وقع بين يدينا من أبحاث تتعلّق بهذه المسائل بين الإسلاميّة و العروبيّة الإسلاميّة فبقدر ما كان الإسلاميون يخشون التفرقة الجنسيّة بين المسلمين كان العروبيون الإسلاميون غير متسامحين حتى مع العرب غير السنيين. وإذا كان

هذا هو شأنهم مع العرب المسلمين من غير أهل السنة فمن الممكن للمرء أن يتنبأ بموقفهم من العرب المسيحيين :

« لم أتأخر عن مساعدة أولئك الأشقياء الأذنياء أديب إسحق وسليم النقاش وسعيد البستاني (...) ومشاكليهم من اللثام فأصلحت لهم القلوب وفسحت لهم الصدور وفتحت عليهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة لكنهم لم يراعوا عهدا ولم يحفظوا ودا ولا حاجة لي الآن إلى إيضاح ما صدر منهم خيانة ولؤما فإن مولاي (يقصد جمال الدين) أعلم بمسيحيي الشوام، وجميعهم مع بعض المصريين من اصطلب واحد»¹⁵

إننا نقدر خطورة ما نذهب إليه ولذلك فعلينا أن نتوقف عند هذه النقطة وأن نتساءل من خلال التعرض لبعض الأسباب الموضوعية في حياة هؤلاء العربيين الإسلاميين عن الأسباب الدفينة التي دفعتهم إلى انتهاج هذا النهج في التفكير. إن القاسم المشترك بين الثلاثي محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا هو التربية الصوفية الأولى التي نشئوا عليها والتي اصطدمت بواقع حضارة رأسمالية حديثة وغازية تهدد من خلال التنظيمات التعليمية التقليدية الذي تلقوه والمواقع الاجتماعية والاقتصادية للطبقات التقليدية ولمثلها الفكرين سواء كانوا من هذه الطبقات أو من الطبقات التي تتوق إلى الاندماج فيها.

ولد محمد عبده سنة 1849 في قرية صغيرة بدلتا النيل في عائلة فلاحين مصريين بسطاء وتلقى تعليما تقليديا مثله الأزهر ومدرسه الذين تتلمذ عليهم في منتصف السبعينات والذين « إلى الآن (...) لم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على أبناء ملتزم بفائدة ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه وطويت صحفه وولت ركائبه، غير ملتفتين إلى أننا أصبحنا في خلق جديد، قد طرحنا الأيام بديننا وشرفنا في بادية قد غصت بآساد ضارية»¹⁶ أي عندما قارب الثلاثين من العمر أي بعد عشر سنوات أو أكثر بقليل من تأسيس الإنجليين في بيروت الكلية الإنجيلية حيث أحاط الطلبة العرب من البروتستانت والأرثوذكس خاصة القس كورنيلوس فاندريك بهالة لا مثيل لها لأنه « كان تقياً ولكن عن تعقل وتفكير لا يكثرث بالتفاصيل والجزئيات التي يتمسك بها بعض المتهوسين بالدين وليست هي من الدين في شيء. أما هو فكان شديد التمسك بجوهريات الدين المسيحي لا يبالي بأطرافه وقشوره إذا خالفت قواعد العلم فإذا ظهر مذهب علمي يخالف بظاهره تلك

¹⁵ محمد عبده . - سلسلة الأعمال المجهولة . - لندن، 1987. - ص 49

¹⁶ محمد عبده . - الأعمال الكاملة، ص 20

القشور لا يبالي أن يحترمه وينظر فيه نظر العالم كمذهب الارتقاء وغيره من مذاهب الفلاسفة الطبيعيين»¹⁷.

قادت مقارنة محمد عبده ما عليه التعليم في مصر والتعليم عند المسلمين في الشام من ناحية وما كان عليه التعليم في الكلية الأنجيلية ثم في جامعة القديس يوسف اليسوعية (تأسست 1876) إلى حيرة لن يخرج منها نهاية الثمانينات إلا بانتهاج نهج أنقلوساكسوني في التفكير وفي الولاء السياسي.

وفي ولاية حلب الشامية ولد عبد الرحمن الكواكبي سنة 1854 ولسوف يعيش هو أيضا تجربة مماثلة لتجربة محمد عبده زمن التنظيمات التي كانت بصفة عامة خطرا على مواقع العائلات التقليدية.

لقد تلقى مثل محمد عبده ومحمد رشيد رضا تعليما تقليديا ولم يتمكن من إتقان لغة من لغات القوى العظمى الغازية على عكس الشوام المتخرجين من الكليات الانقلوساكسونية واللاتينية وقد انضاف إلى هذا المؤثر الثقافي سبب عائلي دفعه إلى محاربة التنظيمات أولا وسياسة عبد الحميد الإسلامية ثانيا وإلى اختيار العروبية الإسلامية ملاذا ثالثا.

وتستأهل قصة الكواكبي والعائلة الكواكبية، لكثرة ما كتب في المسألة مما لا يتفق وما نذهب إليه في هذا الكتاب من معاداته للإسلامية وأخذه بالعروبية الإسلامية، أن نتوقف عندها قليلا خاصة أن القارئ أحس، لاشك في ذلك، بما يشبه العجز عندنا عن فهم الأفكار بمعزل تام عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي تفسرها.

إن قصة عبد الرحمن الكواكبي بن أحمد بهائي (1829 - 1882)، بل قصة عائلة الكواكبي بل قصة شرفاء حلب المزعجة مع الدولة العثمانية قديمة قدم إصلاحات سليم الثالث (1789 - 1808) المحتشمة جدا:

« إن الدور الذي اضطلع به الشرفاء (أي المنحدرون من الرسول) في بعض المدن نهاية القرن الثامن عشر مرده إلى أسباب ظرفية ومحلية. كان الشرفاء في كل المدن منتظمين في هيئات خاضعة لنقيب يعينه عادة نقيب الأشراف في اسطنبول¹⁸ ومن بين الامتيازات التي

¹⁷ جورج زبدان . - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ص 66 وقد ترجم محمد كرد علي لفانديك في «المعاصرون» دمشق، 1980.

¹⁸ من أمثلة العائلات الشريفة عائلة السادات في مصر وعائلة بني عون في مكة وعائلة الحسيني في القدس وعائلة النقيب في البصرة. وقد كتب المصري عن عبد الرحمن النقيب (1845 - 1927) الذي تولى الوزارة في العراق بداية

يتمتع بها الأشراف : الحصانة الشخصية وسلطة النقيب القضائية وامتيازات جبائية غير محددة في أغلب الأحيان. وتتمثل وظيفة النقيب الأساسية طبعاً، في ضبط قائمة الشرفاء توقياً من كل اغتصاب للقب يضمن الاحترام والمنافع المادية»¹⁹.

مثل هذه الامتيازات كانت أحياناً تتسبب في ردود فعل على هذه « الطائفة الشريفة » التي لا تشبهها في هذه الامتيازات طائفة أخرى (وما هي « امتيازات » الطائفة الدرزية أو النصرانية أو الإسماعيلية أو المتاولية؟) فعندما بدأت القيم التقليدية تتعرض للاهتزاز، وإن بشكل بطيء جداً، زمن سليم الثالث معاصر الثورة الفرنسية ومعاصر حملة نابليون على مصر والشام نهاية القرن الثامن عشر تعرض شرفاء حلب الذين كانوا يعدون بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف شريف لامتحان دموي .

«بدأت أحداث 1798 بتقتيل الشرفاء اللاجئين إلى (المسجد) بعد أن أعطوا عهداً بالأمان وتواصل هذا التقتيل من فيفري إلى ماي وكان الأشراف متحصنين بداخل المدينة والانكشارية بالقلعة وبأحياء بنقوسة وباب الميرب»²⁰.

ولسوف تتنالى بعد ذلك العلامات الدالة على المزيد من تدهور وضع الأشراف سواء في زمن محمود الثاني (صدام جديد سنة 1819 بين الشرفاء والانكشارية في حلب) أو زمن عبد المجيد (ثورة حلب 1850) الذي وصفه صاحب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » بأنه « رأى (...) من مصلحته قهر الأشراف وإذلال السادات بإلغاء نفوذ النقابات ففعل » مما يحدد إلى حد كبير مجال معارضة الكواكبي رغم أنه ادعى في هذا الكتاب أنه نشر « أبحاثاً (...) في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (...) غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة»²¹ ذلك أن هذه المعارضة تنحصر في نظرننا، في معارضة التنظيمات مما

العقد الثالث من القرن العشرين = «كان شديد النفور من المصافحة. وإذا امتدت يد أحدهم فاضطرته إلى المصافحة أبقي يده المصافحة في جانب جيبه بوضع غريب وذلك إلى أن يخرج الضيف المصافح عنده فيذهب إلى الحمام ويغسل يده لتطهيرها من آثار المصافحة» (ساطع الحصري . - مذكراتي في العراق ص49) وهما نلاحظ أن سلوك بعض الطوائف الإسلامية غير السنية إزاء من ليس منها لا يختلف في شيء عن سلوك عبد الرحمن النقيب. ويدل هذا السلوك من وجهة نظر دراستنا على تفكير ثنائي يرفض كل تقارب بين الله القديم والطبيعة المحدثنة والفاسدة. ونتائج الإجتماعية كما يمكن للمرء أن يستنتج ذلك لا يمكن إلا أن تكون وخيمة

¹⁹ André Raymond . - Grandes villes arabes à l'époque ottomane. - Paris, 1985. - p. 85

²⁰ المرجع السابق، ص 87

²¹ عبد الرحمن الكواكبي . - الأعمال الكاملة . - القاهرة، 1970، ص 276

يزهد بكل الآراء التي تدمج عبد الرحمن الكواكبي ضمن « التنويريين » وكأنها تدعو إلى الاقتداء بهذا العروبي الإسلامي الذي لا يرى مثلاً أن المرأة يمكن أن تكون شريفة إن نبتت في غير « بيوت المجد » أو « البيوت القروية » معارضا بذلك الشدايقية بل إسلامية الأمير الدرزي شكيب أرسلان الذي لم « يأنف » من الزواج من « شركسية » :

« ربما كان أكبر سبب لانحلال أخلاق الأمراء المسلمين أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات إذ كيف يرجى من امرأة نشأت سافلة رقيقة ذليلة (ويعلق الكواكبي هنا، ولو لم يعلق لقرأنا نصه بمعنى آخر، بقوله : كالكرجيات والأرمنيات والرقائق الشركسيات أمهات أكثر الأمراء وزوجاتهم) أن تترك بعلمها، وهو في الغالب أطوع لها من خلخالها أن يجيب داعي شهامة أو مروءة أو أن تغرس في رؤوس صبيتها أميالا سامية ، أو أن تحمسهم على أعمال خطيرة. كلا لا تفعل ذلك أبدا. إنما تفعله الشريقات اللاتي تجدن في أنفسهن عزة وشهامة (ويعلق الكواكبي هنا بقوله : كبنات بيوت المجد الحريصات على الفخر، وبنات أهل البادية والقرى الأبيات النفوس). وهذا هو سر أن أعظم الرجال لا يوجدون غالبا إلا من أبناء وبعول نسوة شريقات أو بيوت قروية وهذا هو سبب حرص أمراء العرب والإفرنج على شرف الزوجات »²².

لقد قام مفهوم « التنوير » على فكرة الاكتساب وكان حربا على « أمراء الأفرنج » (وما معنى الشرف في عصر لويس الرابع عشر مثلا، وفي ما نعرف عن العلاقات الجنسية عند الأشراف في ذلك العصر ؟) ولذلك ليس بإمكاننا أن ننسب إلى الكواكبي أي نزعة تنويرية وهو الذي كتب ما كتب بعد أن قرأ لأديب إسحق (1856 - 1884) (الرملة)

حسب المرأة قوم آففة	من يدانيها من الناس هلــــــــــــــــك
ورآها غيرهم أمنيــــــــــــــــة	ملك النعمة فيها من ملــــــــــــــــك
إنما المرأة مرآة بهــــــــــــــــا	كل ما تنظره منك ولــــــــــــــــك
فهي شيطان إذا أفسدتها	وإذا أصلحتها فهي ملــــــــــــــــك

لم ذهب الكواكبي هذا المذهب في التمييز العرقي ؟ لأنه ببساطة ليس إسلاميا ولكنه عروبي إسلامي و العروبية الإسلامية أغرق في التقليدية حتى من الإسلامية. فإذا كان العروبيون المسلمون لم يقدرُوا على التسامح إزاء المسلمات غير العربيات فهل ينتظر المرء منهم أن يكونوا أكثر تسامحا مع غير المسلمات وغير المسلمين ؟ فـ « التسامح » الذي يعنيه

²² الكواكبي . - المصدر السابق، صص 329-330

العروبيون الإسلاميون هو إذن غير التسامح الذي يدعو إليه خصومهم والذي عرّفه فرح أنطون أفضل تعريف « الإنسان من حيث هو إنسان فقط أي بقطع النظر عن دينه ومذهبه صاحب حقّ في كلّ خيراته الأئمة ومصالحها ووظائفها الكبرى والصغرى حتى رئاسة الأئمة نفسها وهذا الحقّ لا يكون له يوم يدين بهذا الدين أو ذاك بل من يوم يولد »²³

تسامح مثل الذي يدعو إليه فرح أنطون لا يمكن أن يقبل به أي عروبيّ إسلاميّ لا في القرن التاسع عشر ولا في القرن العشرين إذ هو تسامح يخرج باللفظ عن معناه المعجمي الفضاخ ليحلّه في قلب القضية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أي يطرح السؤال : لم يدافع العروبيون الإسلاميون عن التسامح بالمعنى الفضاخ للكلمة ويدافع خصومهم عن التسامح بالمعنى الحديث للكلمة؟ ولم لم يكن بإمكان عبد الرحمن الكواكبي الذي حارب التنظيمات لأنها « قهرت الأشراف وأذلت السادات بإلغاء النقابات » أن يفهم من التسامح ما يفهم منه أصحاب الشعار « الدين الله والوطن للجميع » :

« ينحدر (الكواكبي) من أسرة وجيهة شغلت منصب نقيب الأشراف في حلب لفترة طويلة. ولكنّ هذا الحقّ أعطي أثناء سلطنة عبد الحميد إلى أسرة أحد مقربيه أبي الهدى الصيادي الرفاعي. وقد أثر هذا الحادث تأثيراً كبيراً على (كذا) طبيعة علاقات عبد الرحمن الكواكبي بالإدارة العثمانية »²⁴

وباستعراض حياة الكواكبي يلاحظ المرء أنه لم ييأس من « عدل » عبد الحميد الثاني إلا بداية من تسعينات القرن التاسع عشر وعندما اقترب من الأربعين من عمره فلم لم يندّد قبل ذلك بـ « الاستبداد والاستعباد » خاصة أن عدد المضطهدين والمهاجرين بلغ عشرات الآلاف من المسلمين والسيحيين ؟ بل ما سبب اتجاهه الجديد بعد فترة الصمت الطويلة التي عقيبت تسلّم عبد الحميد الثاني الحكم ؟

كان عبد الرحمن الكواكبي سنة 1892، أي سنة بداية المذابح الأرمنية التي ستدفع حتى الأميرة نازلي ابنة الأمير الماسوني مصطفى فاضل مؤسس جمعية العثمانيين الجدد إلى نقد السلطان عبد الحميد قد بلغ الثامنة والثلاثين من العمر وكان ينشط في نطاق الوظائف الإدارية العثمانية إلا أنه في هذه السنة نفسها تحوّل خفية من حلب إلى الآستانة فأقام في بعض خاناتها مدة من الزمن حاول فيها الاتصال بأحد مراكز القوى المعادية لأبي الهدى

²³ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته . - ص 244

²⁴ كوتلوف . - تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، ص 313، حاشية 1

الصيادي وهو في نظرنا العربيّ الدمشقيّ أحمد عزّت العابد فبلغ الصيادي ذلك فطارده فعاد الكواكبي خفية إلى حلب. ولسوف تخامره منذ هذه السّنة فكرة الهجرة إلى مصر حيث كان الخديوي عبّاس حلمي الذي تسلّم الخديوية سنة 1892 وكانت علاقته تتراوح بين مهادنة عبد الحميد ومناوآته لاينفر أحيانا من مضايقة السلطان ببيت إشاعات حول طموحه إلى الإعلان عن نفسه خليفة. وقد هاجر الكواكبي فعلا إلى مصر سنة 1899 فعين له عبّاس حلمي راتباً قدره خمسون جنيهاً وكتب الكواكبي « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » امتدح فيه « عهد عزيزها (يقصد مصر) ومعزّها حضرة سميّ عمّ النبيّ ²⁵ العبّاس الثاني، الناشر لواء الحرية على أكتاف ملكه » ²⁶ و « أمّ القرى » الذي كتب فيه « إنّ جمعيتنا هذه إذا اختارت أن تجعل مركزها المؤقت ²⁷ في مصر دار العلم والحرية فلها أمل قويّ أن حضرة العزيز عبّاس الثاني يكون عضداً للقائمين بإعزاز الدين وحاميا فخرياً للجمعية، ولا بدع فإنّه خير أمير شاب نشأ على الغيرة الدينيّة والحميّة العربيّة » ²⁸ ممتدحا عائلة محمد علي الذي كاد يذهب بريح السلطنة في ثلاثينات القرن التاسع عشر « خصوصا جنابه السامي (يقصد عبّاس حلمي) من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الإسلام وأمرائها قصب السبق في الاطلاع على أحوال الدنيا » ²⁹ وناسبا إلى أحفاد محمد علي من الإصلاحات ما ينسبه العثمانيون الائتلافيون إلى رشيد ومصطفى فاضل وما ينسبه العثمانيون الإتحاديون إلى أحمد مدحت باشا خاصة :

« إنّ النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة في مصر ومقتبسة عنها بل كما يعرف العارفون إنما تقدّمت الدولة العلية العثمانية بعض خطوات في ميدان المدنيّة والعمران مدفوعة

²⁵ سميّ : يحمل نفس الاسم.

²⁶ عبد الرحمن الكواكبي . - الأعمال الكاملة، ص 329

²⁷ كتب أنور عبد الملك في 205 p، 1980، Paris .- La pensée politique arabe contemporaine : عن

إطار مشروع الكواكبي السياسي : « Il s'agit bien tout à la fois de fournir un cadre de civilisation à l'unité arabe, autour de l'Egypte, tout en respectant pleinement la souveraineté du mouvement national en matière de pouvoir politique »

ومما سبق يتّضح أن أنور عبد الملك لم ينفطّن إلى النعت " مؤقت " بكل ما ينجر عن ذلك من نتائج إذ لم يكن العروبيون الإسلاميون يعتبرون إذاك أن مصر عربية.

²⁸ الكواكبي . - الأعمال الكاملة ... ص 296

²⁹ الكواكبي . - المصدر السابق، الصفحة نفسها

بأيدي المرحومين محمد علي وإبراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات³⁰ فما كان رشيد وعالي وفؤاد وكمال ومدحت وعوني وبقية أحرار الترك إلا وأكثرهم آلات أوجدها ومدها بالقوة هؤلاء العظام ولا غرو فقد يحمل الابن أباه على الرشد وإن أباه³¹ «مبيضا صفحة الأنكليز في سياستهم المعادية للسلطنة » لولا تهاون سعيد وتناول إسماعيل وسقوط نفوذ الفرنسيين بحرب السبعين وانفراد الأنكليز ويأسهم من قبول المريض التمريض وتهاثر قوات الدول بتوازنها لبقيت تلك الحركة مستمرة ولما رجع الشيخ إلى دور الانحلال ولا وقع الإبن في دور الاحتلال³²»

إن مجرد رد النهضة إلى مصر واعتبار هذا البلد « مركزا مؤقتا » للجمعية في انتظار أن ينتقل هذا المركز إلى « أم القرى » (مكة) يعد في نظرنا بالغ الدلالة إذ هو يؤطر الدعوة العروبية الإسلامية في إطار جغرافي محدد هو إطار « دولة الإسلام العربية » القديمة ويجعل من بقية بلاد الإسلام محيطا تابعا للمركز.

وبما أن بريطانيا كانت هي القوة العظمى الداعية إلى المشروع العروبي الإسلامي فإن الكواكبي أظهرها في الشاهد بمظهر من « يئس من قبول المريض التمريض » ولم يصف الكواكبي ، وهو يرسم لبريطانيا هذه الصورة، شيئا جديدا إلى ما سبق أن كتب عنها محمد عبده قبل تلك الفترة بقليل :

« طلب (قسم من المصريين) من دولة الأنكليز أن تساعد على إطفاء الثورة (يقصد العربية) فحضرت عساكرها وحصلت الحرب (...) فهزمت العساكر المصرية وفر رئيسها (يقصد عرابي باشا) من ساحة الحرب استبقاء للحياة مع عدم الثقة بذلك ودخلت الأنجليز بعد أن سفكت دماءها وأنفقت أموالها ولم تفعل ذلك أنجلترا محبة في سواد عيون المصريين بل لأغراض لها دفعتها إليها. ولما دخلت رجال الأنجليز حققت الدماء وأغمدت سيف الانتقام وأخذت تباشر ما في نيتها من الإصلاح وإقامة منار الحرية على مقتضى مانالته أمم أوربا بألعاب جسيمة وتكاليف شاقة في مسافة قرون عديدة³³ »

³⁰ الإشارة إلى الأمرة نازلي واضحة هنا.

³¹ -. الكواكبي . - الأعمال الكاملة، ص 296

³² الكواكبي . - الأعمال الكاملة، ص 296

³³ محمد عبده . - سلسلة الأعمال المجهولة، ص 30

إن الغاية البعيدة التي كان يرمي إليها العروبيون الإسلاميون من وراء تبويض صفحة بريطانيا هي تسهيل عمل هذه القوة العظمى العسكرية خاصة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وهي سنوات تميّزت بالتنافس الألماني البريطاني الشديد: ففي حين كان غليوم الثاني (Guillaume II 1859-1941) الإمبراطور الألماني، يزور الشام ويعلم دعمه للإسلام والمسلمين (أي للخلافة) تمكّن كتشنر (Kitchner 1850-1917) صاحب نظرية العوالم الإسلامية الثلاثة (العالم التركي، العالم العربي، العالم الفارسي) سنة 1898 من طرد القائد الفرنسي (مارشان) من السودان. وعلى حدود العالم العربي والفارسي عقد كرزن Curzon (1859-1925) سنة 1899 مع شيخ الكويت مبارك الصباح الذي احتضن العائلة السعودية الوهابية المتأهبة للانقضاض على نجد، معاهدة حماية دفع له الأنجليز بمقتضاها 15 ألف روبية فهل من الصدفة أن شرع الكواكبي سنة 1901 في رحلة زار فيها إفريقيا الشرقية والجنوبية وتعرّف بشبه الجزيرة العربية وزار سواحل آسيا والهند؟ وما هي الغاية من مثل هذه الرحلة؟ وممن حصل على نفقاتها؟

إننا نذهب إلى حدّ القول إن خدمة العروبيين الإسلاميين السياسة البريطانية وصل بهم في بداية القرن العشرين حدّ تجاوز عداوتهم للمسيحيين الشوام من قدماء جمعية بيروت السرية الذين ينسب إليهم جورج أنطونيوس نشأة الفكرة العربية اللائكية بل إنّ الطرفين أصبحا نتيجة موقفهم المتعاطف مع بريطانيا يتخذون، على ما يذكر محمد كرد علي، من مقهى «إسبلانديد بار» مقرّ اجتماعات لهم:

«هناك (يقصد في إسبلانديد بار) تلقى (من الصحفيين)³⁴ داود بركات، يوسف الخازن نجيب شاهين، إسكندر شاهين، ولي الدين يكن، إبراهيم سليم النجار، خليل زينية، سليم سرقيس، إلياس فياض، طانيوس عبده، توفيق حبيب، يوسف يكن، يوسف البستاني، ومن علماء السوريين وأدبائهم الراتبين في هذا المقهى سليمان البستاني، رفيق العظم، شبلي شميل، عبد الرحمان الكواكبي، خليل سعادة، رشيد رضا، خليل مطران، داود عمّون، وبعد حين انضم إليهم الشيخ طاهر الجزائري (...) ويتدردّ إليها كثير من رجال القضاء والإدارة أمثال إسكندر عمّون، سعيد شقير، نعيم شقير»³⁵.

³⁴ حذفنا من القائمة المصريين والشوام الذين لا نعتبر أن ذكرهم يهيم الموضوع بشكل مباشر

³⁵ محمد كرد علي. - المذكرات، صص 253-254.

يلاحظ المرء من خلال هذه القائمة كيف كان « اسبلنديد بار » يضم سليم سرקيس وعبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا : والأول لا يلتقي مع الأخيرين إلا في الولاء لبريطانيا. وإذا كنا لا نعثر في هذه القائمة على بقية الأسماء الشهيرة من قداماء جمعية بيروت السرية فذلك لأن « كثيرا من الأدباء والعلماء لا يختلفون إلى لقاءهم كثيرا ويقصدهم من يريدهم في بيوتهم ومكاتبهم أمثال ³⁶ إبراهيم اليازجي (1847-1906) يعقوب صروف، فارس نمر، جورجى زيدان ³⁷ لكثرة مشاغلهم إذ أن أكثر هؤلاء كانوا يديرون مجلات شهيرة. على أن هذا لا يعنى أنهم لم يكونوا امتدادا لحلقة « اسبلنديدبار » الشهيرة التي كانت تنشط فيها التيارات المتحالفة مع بريطانيا وتنشط فيها خاصة ثالث شخصية عروبية إسلامية نتناولها بالدراسة وهي محمد رشيد رضا.

ولد محمد رشيد رضا سنة 1865 في قرية القلمون الطرابلسية في عائلة متدينة تدعي الانتساب إلى القرشيين عامة والعلويين الشرفاء خاصة :

« ولا أنسى ليلة كنت أقرأ فيها خبر مقتل سيدنا وجدنا الإمام الحسين السبط عليه السلام وعلى قاتليه اللعنة ولهم سوء الدار فكنت أبكي وتبكي عمتي الكبرى وتقول لي : تجلد فإن القارئ لا ينبغي له البكاء » ³⁸.

كانت طرابلس طفولة محمد رشيد رضا وشبابه ولاية مستقلة متجهة نحو العمق الشامي إذ ضمت ألوية طرابلس وحماه وسلمية وجبلية وكانت اقتصاديا وثقافيا ولاية ميتة « كأنها بمعزل عن العالم المدني لا يهاجر إليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولا تعليم فيها إذ لا رجاء لأحد من الكسب منها » ³⁹. ولن تستفيد طرابلس كثيرا من التقسيم الإداري لسنة 1888 (وكان رشيد رضا آنذاك قد بلغ الثالثة والعشرين) الذي جعل منها واحدة من متصرفيات بيروت الخمس الجديدة (بيروت، عكا، طرابلس اللانقية، نابلس) حتى على المستوى العلمي عن طريق الجامعات الحديثة لنفور كثير من العائلات التقليدية المسلمة من التعليم الحديث المصطبغ في نظرها بصيغة تبشيرية. وتعد عائلة محمد رشيد رضا مثالا جيدا على مثل هذه العائلات التقليدية التي تسلك مع أبنائها سلوكا تعليميا سبق

³⁶ حذفنا من القائمة غير الشوام

³⁷ محمد كرد علي . - المصدر السابق، صص 253-254

³⁸ شكيب أرسلان . - السيد رشيد رضا أو إحياء أربعين سنة . - دمشق، 1937، ص 104

³⁹ محمد رشيد رضا. - رحلات الشيخ محمد رشيد رضا. - ص 10

للسدياق سنة 1855 أن يبين مخاطره إذ « أن الإنسان منذ يولد إلى أن يبلغ اثنتي عشرة سنة لا يمكنه أن يدرك شيئاً على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة ويمكنه في خلال ذلك أن يتعلّم ما يفيد في مدرسة أو كتاب » فوجّهت هذه العائلة ابنها محمد رشيد منذ الصغر نحو مطالعة كتب التصوّف وكتب أعلام الفلسفة الإسلامية الأشدّ محافظة « كنت من قبل طلب العلم شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوّف وكان أعجب كتب التصوّف إليّ إحياء علوم الدين لحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي »⁴⁰ كما أنّ والده أخضعه منذ سنّ مبكّرة جدّاً لتربية صارمة حالت دون مخالطة لداته من الأطفال « ولم يرض لي والدي بالإقامة في المدينة لطلب العلم إلّا بعد بلوغي سنّ الرشد وثقته بديني وأخلاقي لأنّه كان يخاف عليّ من معاشرّة أهل المدينة «البندر» وكنت أجتنب معاشرّة الناس فيها إلّا أفراداً قليلين جدّاً من أصدقائنا»⁴¹.

هذه التربية الصارمة صاغت شخصيّة الطفل محمد رشيد حتّى ظنّ أنها طبيعة فيه « كنت منذ الصغر قليل الرغبة في اللعب، شديد الحياء، ولهذا امتنعت من أوائل سنّ التمييز عن السباحة مع الأولاد في البحر، ودارنا القديمة على شاطئه (...) فكنت أنزع ثيابي وراء صخرة تسترني وأصبح دائماً أو في الغالب منفرداً متنزّراً، و لهذا لم أتقن السباحة لأن سبب إتقانها هو البارة في الإبعاد في البحر وفي السرعة »⁴² بل إنّ هذه التربية الصارمة زرعت فيه شعوراً حادّاً بالحدّ من الآخرين ذكوراً وإناثاً وسهّلت عليه فيما بعد التساهل في تكفير خصومه :

« ومن أمثلة اجتنابي للريبة أنني كنت أشتري شيئاً من تاجر تكرّر تساهله معي في المساومة فقال لي : وحياة عينيك فنفرت منه ورميت ما كان بيدي وما عدت أقف عليه ولا أنظر إليه ولا أمرّ أمام دكانه في يوم من أيام عمري »⁴³.

إنّنا لا ندّعي أن هذه الطفولة سوف توجّه حياة محمد رشيد رضا توجيهها كاملاً ولكنّا ندّعي أن طفولة كهذه سيكون لها قدر كبير أو صغير من التأثير في نظرته إلى الأشياء. ندّعي ذلك لأن كثيراً من الأطفال الشوام سوف يردّون الفعل على مثل هذه التربية فيتجهون

⁴⁰ شكيب أرسلان. — السيد رشيد رضا، ص 36

⁴¹ شكيب أرسلان. — السيد رشيد رضا، ص 36

⁴² شكيب أرسلان. — المصدر السابق، ص 31

⁴³ شكيب أرسلان. — المصدر السابق، ص 36

اتجاهات مختلفة. ونَدَّعي ذلك لأن اختلاف تربية الأطفال الشوام ستساهم في اختلاف نظرتهم إلى الأشياء. ومن ثم في تبني الاتجاهات الفكرية التي تلائم التطور في هذه النظرة. هذه التربية الصارمة الأولى صاغت، إذن، شخصية محمد رشيد رضا إلى حد ما. ولم يكن التعليم الذي تلقاه في طرابلس بعد ذلك شبيها بالتعليم الذي تلقاه معاصروه في الجامعة الإنجيلية على أيدي كورنيليوس فانديك وزملائه أو في جامعة القديس يوسف على أيدي اليسوعيين بل كان تعليما يمتن هذه التربية التقليدية الأولى ويعززها فبعد أن غادر المدرسة الرشدية الابتدائية في طرابلس دخل « المدرسة الوطنية الإسلامية » في بيروت التي كان يشرف عليها حسين الجسر (1845 - 1909) وزاول بها تعلمه من سن الثامنة عشرة (1883) إلى سن الحادية والثلاثين (1896) ، سنة حصوله على إجازة في علوم الدين. وقد تحدث محمد رشيد رضا نفسه عن تفكير أستاذه حسين الجسر الذي ألف « الرسالة الحميدية في حقيقة الشريعة المحمدية » وعن مسامرة هذا الشيخ السني « الرأي العام » في عدم القول، نهاية القرن التاسع عشر، بكروية الأرض :

« وبلغ من رضاه [يقصد الشيخ حسين الجسر] من فهمي أن سألني عن رأيي في كتابه المشهور (الرسالة الحميدية) بعد أن أهده إلي بزمين قائلا : إنَّه يعجبني من بين أولادي فهمك ورأيك فكيف رأيت الرسالة الحميدية ؟ قلت : إنَّ الحاجة إليها لشديدة، ولم يسبق مولانا أحد إلى مثلها في الدفاع عن الإسلام ولكن لي عليها أنكم توردون المسألة القطعية في العلم ككروية الأرض ودورانها بعبارة فرضية تدل على شككم فيها قال : إنك تعلم تعصّب الجاهلين بهذه العلوم في بلادنا . فلا نترك لهم مجالا للقليل والقال »⁴⁴

من هذه الصورة التي رسمها محمد رشيد رضا لشيخه يمكن للقارئ أن يخرج بفكرة واضحة عن تقليدية هذا الشيخ وعن نوع تكوين طلابه ومنهم محمد رشيد رضا الذي كان أثناء هذه الفترة لا يكف عن غشيان المساجد والمحافل العامة للوعظ والإرشاد وحلقات الصوفية بل كان يلجأ أحيانا إلى العنف لرد الناس عن « ضلالتهم » :

« كان (في القلمون) رجال يتركون الصلاة ولا يحضرون الدروس في المسجد فكنت أختلف إليهم في بيوتهم. وأذكر أنه استعصى واحد من البلداء الخاملين فأمرت الشبان فسحبوه سحبا ولكنّه لم يواظب وأعيانا أمره فاكتفيت منه بوعده مكذوب »⁴⁵.

⁴⁴ شكيب أرسلان . - السيد رشيد رضا، ص 45.

⁴⁵ محمد رشيد رضا . - رحلات الشيخ محمد رشيد رضا، ص 28. ونلاحظ قرب هذا السلوك من سلوك الوهابيين

هذا الشاهد يُلخص تفكير محمد رشيد رضا السياسي والاجتماعي فهو تفكير يدعي إمكانية حلّ المسائل الاجتماعية والسياسية بـ « تنبيه الأذهان إلى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لنعلم هل هي منطبقة علينا أم لا... » وبما أنّه من المستحيل أن يكون هناك تطابق بين الغائب والشاهد « لأن الأصل لا يقلد مهما كان مقلده مخلصاً »⁴⁶ على حدّ تعبير العربيّ الأرثوذكسي فرح أنطون، المعاصر لمحمد رشيد رضا وابن بلده فإنّ هذه الاستحالة نفسها تحقق غرضين متلازمين :

أولهما أنّها على عكس الرشدية أو الشديقية أو أغلب التيارات التي تأخذ في الشام بنظرة حديثة إلى الأشياء تفصل فصلاً تاماً ونهائياً بين الله والطبيعة وبين الدولة والمجتمع وبين « أهل البيوتات » والعامّة ومن ثمّ تجرّم المسلمين العاديين وتؤثّمهم وتشطّئهم: « كل المسلمين الذين يكذب الكثيرون منهم على الله بدعوى الإسلام أو يكذب الحكام الجغرافيون بتسميتهم مسلمين »⁴⁷ وثانيهما أنّها نتيجة لهذا التجريم تفتح في وجه رجال الدين مجالاً واسعاً للنشاط الإنقاذي: « شبهات جديدة تولدت من الفلسفة الجديدة »⁴⁸ يجب أن يعنى متكلّموا هذا العصر بكشفها ولا ينبغي أن يذكر شيء منها لعمامة المسلمين ولا لتلاميذ المدارس الابتدائية عند تلقيهم الدين وإنما يخصّ بذلك طلاب العلوم العالية الذين يدرسون الفلسفة وعلم الكلام»⁴⁹

إنّ عمامة المسلمين تصبح هنا مجرد طينة يجب على رجال الدين (أي الدولة الدينية العروبية الإسلامية) أن يشكّلوها لأنهم هم « العين التي تمتدّ إلى البعيد ». ومن هنا تبدو العلاقة واضحة بين تفكير محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا، هذه العلاقة التي عبّر عنها محمد رشيد رضا في خبر أورده حول نشاط المفكرين الشريفيين الشامييين الكواكبي ورضا: « قلت مرّة لعبد الرحمن أفندي الكواكبي (رحمه الله) لو تيسر لنا أن نجعل بعض محبّي الإصلاح المعتصمين بالكتاب والسنة⁵⁰ شيوخاً للطريق لأمكن لنا

⁴⁶ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته، ص 283

⁴⁷ محمد رشيد رضا. رحلات الشيخ الامام محمد رشيد رضا، ص 28

⁴⁸ يقصد في نظرنا وضعيّة العثمانيين الاتحاديين (أحمد رضا) وسبينوزيّة الشدياق وأتباعه وداروينيّة شبلي شميل...

⁴⁹ محمد رشيد رضا. - الرحلات، ص 31

⁵⁰ قليلة هي المصطلحات الحديثة والمعاصرة التي تتضمن ما يتضمن مصطلح الإصلاح من فضفضة - فهو قد يعني كما هو الشأن في شاهد محمد رشيد رضا "إرجاع العامة عن بدعهم وخرافاتهم و هديهم إلى الطريق السوي" وقد يعني نهاية القرن العشرين تبني برامج الإصلاح الاقتصادي (ومن ثم الاجتماعي والثقافي) الميكلي تروفا إلى الاندماج في العولة

بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخاً لطريقة من الطرق. فقال إننا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلاً من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم إلى طريق الدين السويّ فقبل بعد إباء ونفور. فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سبباً لضلالة بدلاً من أن يكون سبباً لهدايتهم وخسرناه خسارة لا مطمع في رجوعها»⁵¹

هذا الحديث بين الكواكبي ورضا جرى في «اسبلنديد بار» وفيه من المعاني السياسية والاجتماعية والدينية ما يكفي لبيان تفكير هذين «المصلحين المستنيرين».

لقد ذكرنا عند الحديث عن الكواكبي أن القاسم المشترك بين الثلاثي عبده والكواكبي ورضا هو التربية الصوفية الأولى التي أخضعوا لها والتي اصطدمت بواقع حضارة رأسمالية حديثة وغازية تهدد من خلال التنظيمات التعليم التقليدي والمواقع الاجتماعية للطبقات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية وعلينا أن نبين فيما يتصل بمحمد رشيد رضا مدى مناصرته «لأهل البيوتات» ومقاومته للتنظيمات التي قادت حسب الكواكبي إلى «قهر الأشراف وإذلال السادات بإلغاء التقابات»

نعثر عند محمد رشيد رضا على شكوى قريبة من شكوى الكواكبي من علامات أفول الطبقات ما قبل الرأسمالية «أرى أن إسقاط الشعب لكرامة أصحاب البيوتات مثلاً وتسلق أفراد الطبقات الدنيا للزعامة فينا مع ما هم عليه من الجهل يقف في طريق نهضتنا»⁵² ف «إنني لا أحب الأرستقراطية وإن كنت من بيت شريف وإثني مازلت من دعاة الديمقراطية بلسان السياسة ولسان الدين، وإنما أميل إلى بقاء زعامة وطني في وجهائه (...) لاعتقادي أنه لا يوجد في دهائه من يصلح للزعامة كما وجد في فرنسا عندما صارت ديمقراطية»⁵³.

الاقتصادية ولذلك لابدّ في نظرنا من التركيز على المضامين في هذه المسألة لا على الشكل (المصطلح) أي لابد من

الأخذ بالشدياقية

⁵¹ محمد رشيد رضا. - المصدر السابق، ص 22

⁵² محمد رشيد رضا. - الرحلات، ص 46

⁵³ محمد رشيد رضا. - المصدر السابق، صص 46-47

في الشاهدين كما نلاحظ، مقابلة بين « أصحاب البيوتات منّا » و « الوجهاء » من ناحية و « الشعب » و « أفراد الطبقات الدنيا » و « الدهماء » من ناحية ثانية. ونحن لن نعتمد على هذه المقابلة لبيان تفكير محمد رشيد رضا الاجتماعي والسياسي إذ أن محمد رشيد رضا لا يختصّ بهذا التقسيم الاجتماعي ولكننا على العكس من ذلك نودّ أن نبين إلى أي حدّ كان هذا المفكر العروبي الإسلامي يؤمن بإمكانية تطوّر « الدهماء ». إن أصحاب البيوتات يمتازون بالعلم الذي يبرّر الزعامة وأفراد الطبقات الدنيا يختصون بالجهل الذي يبرّر وضعهم بصفتهم محكومين. ولكن العلم نفسه لا يبدو في تفكير محمد رشيد رضا أمرا مكتسبا « فمن لم ير في نفسه شيئا من آيات ربّه ومن لم يتلقّ قبي قلبه شعاعا من نور ربّه فإسلامه صوريّ وراثي وإيمانه ظنيّ أو جدليّ وهاتان الثمرتان للدين لا تؤتيهما شجرة الإيمان الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع إلا بمجاهدة النفس (...) مع كثرة الذكر بالقلب واللسان »⁵⁴ فالشروط التي اشترطها محمد رشيد رضا للمعرفة ومن ثمّ للزعامة هي شروط من الصعب أن تتوفر حتى عند الطبقات العليا. ولذلك يلاحظ المرء في كلّ ما كتب هذا السعي إلى إبعاد « الدهماء » (أي الأغلبية) عن كلّ جدل فكريّ أو فلسفيّ أي دينيّ يمكن أن يذهب بامتثاليتها الدينيّة : « إن كتب الكلام المشهورة لم توضع لأجل تلقين المسلمين ما يجب عليهم اعتقاده وإنما وضعت لردّ شبهات الفلاسفة والمبتدعة عن العقائد الإسلامية والاحتجاج على حقيقتها. وقد انقرض أولئك الفلاسفة والمبتدعة الذين عني المتكلّمون بإقامة الحجّة عليهم وظهر بطلان مذاهبهم إلا قليلا من مسائلها وحدث لفلاسفة هذا العصر ومقلداتهم شبهات جديدة تولدت من الفلسفة الجديدة يجب أن يعنى متكلّموا هذا العصر بكشفها. ولا ينبغي أن يذكر شيء منها لعامة المسلمين ولا لتلاميذ المدارس الابتدائية عند تلقينهم الدين وإنما يخصّ بذلك طلاب العلوم العالية الذين يدرسون الفلسفة وعلم الكلام »⁵⁵

في هذا الشاهد تسوية بين « عامة المسلمين » و « تلاميذ المدارس الابتدائية » وهذه العامة التي تمثّل الأغلبية في المجتمع لا يجب أن تلقن إلّا ما يقرّه « متكلّموا هذا العصر » من أمثال محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا.

⁵⁴ محمد رشيد رضا . - المصدر السابق ص 138

⁵⁵ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 30-31

إن ما يبدو من تساهل محمد رشيد رضا مع « طلاب العلوم العالية » ودارسي « الفلسفة » لا يجب أن يفهم منه (حتى في هذا النطاق الضيق) قبول بالفلسفة الحديثة التي عرفها فرح أنطون بأنها هي التي « تري الإنسان ضعفه وعجزه وظلمة الأيديّة التي حوله ومتى رأى هذا الضعف والعجز والظلمة أصبح أكثر تساهلا وتسامحا في رأيه ومعتقدده لأنه يترك الاعتقاد بأن الحقيقة محصورة في يده وحده. وحينئذ ينحصر همه في إصلاح هذه الأرض وخدمة الإنسانية فيها على وجه عام بدلا من زيادة مصائبها بالجهل والشقاق والانقسام وتدميرها بآفة الظلم والانهيار التي هي أقبح الآفات »⁵⁶ إذ أن مثل هذه الفلسفة تذهب بريح علماء الكلام وهي إلى نهاية القرن العشرين لا تدرّس في جامعات البلدان العروبيّة الإسلاميّة أو يفهم منه حرية التفكير حتى عندما « لا يلتزم القصد ويقف في سلامة الاعتقاد عند الحدّ. » وبهذا التحديد لمجالي نشاط المعبرين عن البيوتات والدهماء الفكريّ والسياسيّ (الزعامة والطاعة) يفصل محمد رشيد رضا فصلا تاما بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين :

فإذن على الأولى التفكير وعلى الثانية التقليد

وإذن على الأولى الزعامة وعلى الثانية الطاعة

تبقى المسألة الاجتماعيّة ؟ كيف يجب أن تكون العلاقات الاجتماعيّة المثلى بين هاتين الطبقتين أو بين الدولة والمجتمع ؟

يوصي محمد رشيد رضا وجهاء طرابلس « بأن يتحّبوا إلى الشعب (...) بنشر التربية ومواساة الفقراء والمساكين من أهله »⁵⁷ وبذلك يحلّ الإحسان القضية الأكبر في القرنين التاسع عشر والعشرين وهي قضية ملكيّة والشغل.

هكذا تتّضح إذن نظرة العروبيين الإسلاميين الثلاثة محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا إلى علاقة الله بالطبيعة وعلاقة الدولة بالمجتمع وعلاقة أهل البيوتات بـ « الدهماء ». ولكن هذه النظرة إذا كانت تفسّر إلى حدّ كبير الخصومة بينهم وبين كل التيارات الآخذة بنظرة حديثة إلى الأشياء فهي لا تفسّر سبب الخصومة بينهم وبين الإسلاميين الذين لا يختلفون عنهم نظرة تقليديّة. فما هو إذن السبب في هذه الخصومة التي ستفرّق بين الإسلاميين والعروبيين الإسلاميين طيلة أربعين سنة فلا يتصالحون إلا

⁵⁶ فرح أنطون . - ابن رشد وفلسفته، ص 59

⁵⁷ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 46

بتصالح شكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا سنة 1921 في ... جنيف عند انعقاد المؤتمر السوري الفلسطيني الأول؟

لا بدّ، في نظرنا، من العودة إلى أحداث ثلاثة جدّت في ثمانينات القرن التاسع عشر وكانت من العوامل الحاسمة في نشأة العروبيّة الإسلاميّة، حتى يفهم المرء بذور هذه الخصومة :

أولها فساد العلاقة بين عبد الحميد وبريطانيا واثنيهما تجربة محمد عبده الشاميّة وثالثها ظهور كتابي ويلفريد بلانت وغستاف لوبون Gustave Lebon (1841 - 1931) مستقبل «الإسلام» (1881) و « حضارة العرب » (1883) مرجعي العروبيّة الإسلاميّة الغربيين بلا منازع.

يروى يوسف الحكيم عن هزائم العثمانيين زمن عبد الحميد أن عامة العثمانيين أصبحوا بعد كل حرب وكل هزيمة يردّدون المثل : « الروس إذا غبر (كنية عن غبار الجيش العظيم) والأنكليز إذا بحر والعثماني إذا دبر »⁵⁸ وقد كان عدد المشكّكين في إمكانية بقاء السلطنة يتزايدون بعد كل هزيمة ومن هؤلاء يمكن أن نعدّ العروبيين الإسلاميين خاصة أن بريطانيا كانت حتى مؤتمر برلين سنة 1878 تظهر بمظهر الحامي للسلطنة وجاء احتلال مصر سنة 1882 وموقف عبد الحميد الثاني المتردّد من تطوّر الأحداث فيها ليسبّب أزمة نفسيّة وفكريّة لكثير من الذين شاركوا في الثورة العربيّة ومنهم محمد عبده. وفعلا فقد عاش الشيخ عقدا كاملا من الزمن ميّزه الانكفاء النفسي والحدّ على من كان يحملهم مسؤوليّة الأحداث ومن ثمّ مسؤوليّة إقامته الاضطراريّة في الشام إذ أنه أصبح يمقت، إضافة إلى الأنكليز « الأتراك والشركس والمسيحيين » على حدّ سواء⁵⁹

كان يمقت الأنكليز لأنهم احتلّوا مصر عنوة

وكان يمقت الأتراك لأنهم تردّدوا في نجدة مصر

وكان يكره الشركس لأنهم تسبّبوا في الأحداث

وكان يمقت المسيحيين من أمثال أديب أسحق وسليم النقاش وسعيد البستاني لأنهم خذلوا، على ما يدّعي، وليّه جمال الدين. ومن لم يكن من هؤلاء في مصر قبل الاحتلال

⁵⁸ يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني - ص 38

⁵⁹ محمد عبده - سلسلة الأعمال المجهولة - ص 90

البريطاني سارع إثره إلى الهجرة إلى هذا البلد لخدمة بريطانيا نظرا إلى التكوين الذي تلقاه في الجامعة الانجيلية مثل جورجى زيدان ومثل جماعة جمعية بيروت السرية. وعندما اشتغل الشيخ مدرّسا في بيروت ازداد إحساسا بمكانة الشوام المسيحيين الذين تسبّب تكوين المدارس الحديثة وازدهار بيروت الاقتصاديّ الرأسماليّ في التمكين لهم بل أحسنّ بهيمنتهم على المسلمين الشوام السنّة ولذلك نراه، على كرهه « للأتراك، يكتب بتقريرين إلى السلطات العثمانية أحدهما وجهه إلى شيخ الإسلام في الآستانة ألحّ فيه على ضرورة التعجيل بالتصديّ في كلّ ولايات السلطنة (وخاصة منها الولايات العربية) « للغزو الثقافي» الذي تقوم به البعثات المسيحية الأجنبية وذلك بإعادة تنظيم التعليم الدينيّ وبإنشاء سلك دعاة ينشطون داخل السلطنة بالدرجة الأولى. أمّا التقرير الثاني فقد بعث به إلى والي بيروت وحذّر فيه من مخاطر الحركات الانفصالية في الولايات العربية وخاصة منها سوريا وجبل لبنان حيث كانت الأقليات تنشط نشاطا كبيرا متأثرة بالحركات السياسية والثقافية غير الإسلامية»⁶⁰ ما الذي دعا محمد عبده المعادي « للأتراك » إلى أن يكتب إليهم محذّرا ؟ إنّه إيمانه بأنّه إذ يفعل ذلك فإنما يقصد دفع ضرر أكبر (انفصال القوى النابذة المسيحية) بضرر أصغر (دعم سياسة عبد الحميد الإسلامية).

إن هذا الموقف الذي اضطرّ إليه محمد عبده اضطرارا كان موقفا مؤقتا إذ كانت تختمر في ذهنه طيلة الثمانينات فكرة الدعوة إلى « دولة الإسلام العربية » بتأثير من كتابي ويلفريد بلانت وغوستاف لوبون. وفي نظرنا، كان تأثير « مستقبل الإسلام » (1881) في محمّد عبده عظيما إذ كان هذا الكاتب والسياسيّ البريطانيّ يظهر ميلا إلى الإسلام كاد يصل به إلى حدّ إعلان إسلامه وكان في تفكيره السياسي يرى « في صداقة أنجلترا خير أمل للمسلمين ». هذا التفكير السياسيّ لم يأخذ به محمد عبده في بداية الثمانينات على الرغم من العلاقات المتينة القائمة بين المفكر الانجليزيّ والشيخ المصري والتي دفعت بلانت إلى أن ينسب أفكاره نفسها إلى محمد عبده فقد كتب في الموضوع رسالة وجهها إلى محمد عبده في باريس بتاريخ 7 أبريل 1884 : « أمّا فيما يتعلّق بمصر وسوريا والخلافة العربية فأنت سيد من يعرف آرائي حولها لأنها منشورة بالكتاب الذي ألّفته منذ ثلاث سنوات (يقصد مستقبل الإسلام، 1881) وأقمته على توجيهاتك وآرائك المفيدة»⁶¹

Robert Montran . - l'Egypte d'aujourd'hui, permanence et changement, Paris, 1977, 60

p.39

⁶¹ محمد عبده . - سلسلة الأعمال المجهولة، صص 89

ما هو سبب تردد محمد عبده في الدعوة إلى العروبية الإسلامية منذ هذه الفترة المبكرة التي نشطت فيها جمعية بيروت السرية المسيحية في الدعوة إلى « فكرة عربية » لائكية المضمون؟ يبدو لنا السبب في علاقته بجمال الدين الذين كان ينهج نهجا إسلاميا معاديا في السياسة الخارجية لبريطانيا. وسوف يظهر هذا التردد بين الإسلامية و العروبية الإسلامية حتى عند انتقال محمد عبده إلى فرنسا ونشر « العروة الوثقى » التي لم يتردد بلانت في دعمها ماليا آملا في تحويل القائمين عليها من موقف معاداة السياسة البريطانية إذ يذكر في الرسالة السابقة :

« أما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدني أن أبذل كل ما بوسعي لمعاونتكم. ولكني أنصحكم بكل قواي أن تلتزموا الاعتدال في لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانكليزية لا بمعنى أن أي شيء تقولونه حول تصرفاتها في مصر يمكن أن يتجاوز (كذا !) غضبي ونفاد صبري وإنما لأنني أرى في صداقة أنجلترا خير أمل للمسلمين. وصدقني أنه بالرغم من سلوك أنجلترا خلال هذا الموضوع كله مسلك عدو الدين فما زال بين الأنجليز من يتعاطفون مع آمالنا لأمم الشرق »⁶².

هل يكفي ميل بلانت إلى الإسلام لتفسير القاربة بين تفكيره وتفكير محمد عبده ؟ نحن لا نشك أن هذا الميل، مهما كانت نسبة الصدق فيه ، هو من بين أسباب هذه القاربة. فالبريطاني بلانت كان إذا ما قورن بالفرنسي أرنيست رينان الذي كتب في جريدة « الديبا » (le Débat) بتاريخ 19 ماي 1883 للرد على جمال الدين : « إنني أعتقد أن تجديد البلاد المسلمة لن يكون بالإسلام. إن هذا التجديد يكون بإضعاف الإسلام تماما كما بدأت الوثبة الكبرى في البلاد التي تسمى بـ « المسيحية » بتدمير كنيسة القرون الوسطى المستبدة » في منزلة الأوربي الذي يصدق عليه مضمون العبارة « وشهد شاهد من أهلها (أي أوربا الغربية الرأسمالية المتطورة) على صحة الإسلام وشبابه الدائم » ولكن هذا السبب لا يكفي، في نظرنا، لتفسير كل أسباب هذه القاربة الفكرية إذ هناك على الأقل سببان آخران لها أولهما يتصل مباشرة بالفكرة العروبية الإسلامية وثانيهما يتصل بميل المحافظين بصفة عامة و العروبيين الإسلاميين بصفة خاصة إلى نمط التغيير الانكلوساكسوني ومعاداتهم لنمط التغيير اللاتيني الذي عبر رينان عن وجهه الديني. فالعروبية الإسلامية لم تكن تحتاج إلى من يتعاطف مع الإسلام ويدافع عنه فحسب ولكنها كانت تحتاج كذلك إلى من يتعاطف

⁶² محمد عبده . - سلسلة الأعمال المجهولة، ص 89

مع الجنس العربيّ وهذا الشرط الثاني لم يهمله بلانت وكأنّه كان منذ بداية ثمانينات القرن التاسع عشر يخطط لمشروع كثيرا ما اعتبر العسكريّ كيتشنر من أهمّ المتحمّسين له وهو مشروع تقسيم العالم الإسلاميّ عرقيا : الكتلة التركيّة والكتلة الإيرانيّة والكتلة العربيّة الآسيويّة التي يمكن إن نجح المشروع أن تمثّل كتلة عازلة وسط الكتلتين سالفتي الذكر. وأكبر عامل تسبّب، من وجهة نظر هذه الدراسة، في القطيعة بين جمال الدين ومحمد عبده ليس كما يدّعي البعض إيغال الأوّل في النشاط السياسيّ ونفور الثاني منه إذ هما مسكونان حدّ النخاع بالسياسة ولكنّه قول الأوّل بوجود وحدة الكتل الثلاث (والرجل إيرانيّ عاش في افغانستان وخبر السياسة البريطانيّة) وقول الثاني بـ « خلافة عربيّة » وذلك يعني تبنيّ المشروع البريطانيّ.

عندما عينَ السلطان عبد الحميد الشريف عون الرفيق أميرا على « أم القرى » لم يغتبط العربيون الإسلاميون كثيرا لهذا التعيين بسبب ولاء هذا الأمير العربيّ الشريف للسلطان وعندما تمرّد المهدي في السودان اعتبر العربيون الإسلاميون أنه حتى إن قامت خلافة في الخرطوم فلا يجب أن تكون إلّا مؤقتة لأنّ عاصمة « دولة الإسلام العربيّة » ليست دمشق ولا بغداد ولا الآستانة ولا القاهرة وإنما هي « أم القرى ». كتب بلانت إثر مقابلة جرت بينه وبين محمد عبده في باريس :

« هو يتكلّم الآن بصراحة ضدّ السلطان والأتراك ويشكو من الاستبداد في سوريا (الشام) ولا يعتقد أنّ الشريف عون (أمير مكّة) سيكون الخليفة القادم ويقول إنّ المهدي هو مقدّمة ظهور الخليفة العربيّ وسرعان ما سيصبح الخليفة بعد ذلك »⁶³.

وعبارة « يعتقد (محمد عبده) أن الشريف عون لن يكون الخليفة العربيّ » تستأهل أن نتوقّف عندها لأنّها تسمح بالربط بين تفكير العروبيين الإسلاميّين في منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر وثورة الشريف حسين سنة 1916 التي يصفّها البعض « بالثورة العربيّة الكبرى » وتعتبرها هذه الدراسة ثورة عروبيّة إسلامية لا تتّسع حتى للفكرة العربيّة اللاتينيّة كما دعا إليها جماعة جمعيّة بيروت السريّة من العرب الشوام.

إن الشريف عون القرشي الهاشمي لا يستجيب فحسب لشرط ابن حنبل في شرعيّة الخلافة : « والخلافة في قريش ما بقي في الناس اثنان لا تقرّ لغيرهم إلى قيام الساعة »

⁶³ محمد عبده . — سلسلة الأعمال المجهولة، ص 87

ولكنه كان يمكن مبدئياً، أن يحقق المشروع البريطاني في تقسيم العالم الإسلامي إلى الكتل الثلاث سالفة الذكر. فما هو مأخذ العروبي الإسلامي محمد عبده عليه ؟ هو يؤاخذ على إخلاصه لعبد الحميد الذي ولّاه إمارة مكة مكافأة للعونيين على تواطئهم مع أعوان السلطان عند قتل مدحت باشا في سجن الطائف سنة 1883 :

« أعاد عبد الحميد الإمارة (يقصد الهاشميّة في الحجاز) إلى ذوي زيد في شخص عبد المطلب فغضب بنوعون وأرسلوا وفداً إلى الآستانة لتحريض الخليفة ضدّ ذوي زيد وكان الحسين بن علي (الملك حسين فيما بعد) بين أعضاء هذا الوفد (...) ولجأ الوفد الهاشمي إلى وسيلة (...) لتحريض السلطان على عبد المطلب وحذّثوه عن صداقته لمدحت باشا (...) ونجحت الوسيلة. أرسل عبد الحميد إلى عبد المطلب يأمره بقتل مدحت غدرا ولكنّ عبد المطلب رفض تنفيذ الأمر فغضب السلطان عليه وعزله وسجنه في الطائف وعيّن مكانه عون ابن محمّد المعروف بعون الرفيق وعيّن أخاه عبد الله وزيراً في الآستانة نكاية بذوي زيد ومكافأة لبني عون. نفّذوا أمر السلطان بقتل مدحت في 26 يوليو 1883 واستمرت العائلة تحكم مكة حتى سنة 1925»⁶⁴.

إن ما أورده أنيس صائغ، كما يلاحظ القارئ ذلك، يرقى بالخصومة بين العثمانيين الاتحاديين، ورثة مدحت السياسيين، والعروبيين الإسلاميين إلى... 1883 ويذهب بكل الدراسات التي تؤرخ لهذه الخصومة بداية من 1909 أي عندما بدأت، على ما تدعي هذه الدراسات نفسها، « سياسة تترك العرب » : فارتباط العونيين بالسلطان عبد الحميد هو الذي دفع، إذن، محمد عبده إلى اليأس من إمكانية أن يكون الشريف عون هو الخليفة العربي في ثمانينات القرن التاسع عشر.

على أن التقارب الفكري بين بلانت ومحمد عبده يحتاج، إضافة إلى ما سلف من الأسباب، إلى سبب آخر أكثر عمقا من السببين الديني والسياسي وهو ميل المحافظين بصفة عامة والعروبيين الإسلاميين بصفة خاصة إلى النمط الانكليزي في الحكم فهو نمط. اشتهر منذ أن كتب إدموند بورك Burke كتابه « تأملات حول الثورة في فرنسا » سنة 1790 بمعاداة نمط التغيير الثوري الذي يتسبب في أفول طبقات اجتماعية تقليدية وبروز طبقات جديدة كانت « مغمورة » وليس لها أصول اجتماعية « عريقة ». وقد امتاز العروبيون

⁶⁴ أنيس صائغ. — الهاشميون والثورة العربية الكبرى. — بيروت، 1966. — ص 35

الإسلاميون بكثرة ما كتبوا في محاسن هذا النمط حتى أن محمد عبده اضطرّ إلى تبريره شرعياً:

« نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس من دينها، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم، وهي الأمة الأنجليزّية فهي الأمة المسيحية التي تقدر على التسامح حقّ قدره، ولا يصعب علينا أن نقول إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشدّ الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه، وقد امتاز الأنكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم، فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى بلادهم (...) وهل أجد من يأبى عليّ القول بأنّ الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الأنكليز وعنه أخذوا هذه الخلّة؟ »⁶⁵ وقد أصبح هذا التبرير هو الأساس لعلاقات العربيين الإسلاميين بالانكلوساكسونيين المتميّزة سواء في القرن التاسع عشر أو طيلة القرن العشرين.

فإذا كان الكواكبي قد آخذ التنظيمات على « قهر الأشراف وإذلال السادات بإلغاء النقابات » فإنّ محمد عبده لم يتردّد حتى زمن ثورة الشباب في التنديد بالجانب الاجتماعي الجذريّ الذي كان يمكن أن تصير إليه الثورة العربية وذلك في خطبة له ألقاها في 13 فيفري 1882 في حفل "جمعية المقاصد الخيرية" الذي أقامته ابتهاجا بتشكيل وزارة العربويين إذ خشى أن تتحوّل هذه الحركة من « الثورة » إلى « الثوريّة » : «إنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أنّ الخواصّ والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستثناهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك، فكيف حصل هذه المرّة ومن أهل هذا المجتمع ؟ فهل تغيّرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الإنسانيّ ؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حدّاً لم يبلغه أحد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن رويّة وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حبّاً بالعدالة والإنسانية ؟ أو تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون ؟ »⁶⁶

أمّا محمد رشيد رضا فهو يقيم مقارنة بين نمطي التغيير الانكلوساكسوني واللاتيني مبرزاً أن النمط الأول هو الأكثر ملاءمة للعروبيّة الإسلاميّة :

⁶⁵ محمد عبده . — الاسلام والنصرانيّة، صص 170 - 171

⁶⁶ أورد ذلك رفعت السعيد في " الأساس الاجتماعي للثورة العربية " . — القاهرة، د.ت. نقلاً عن

W. Blunt . - Secret History of English Occupation of Egypt . - London, 1907 . - p. 493

« لرجال الانقلاب العام وسيلتان : إما الثورة التي تصخّ بصيحتها السامع وتهيج الساكن الوداع فتكون كالريح الصرصر العاتية لا تخفى من أمر داعيتها خافية وهي خطة حكيمنا الأوّل السيد جمال الدين (...) وإما الدعوة الهادئة بالحجج الناهضة وهي أولج في السامع وأجول في المجامع ولكنها بطيئة السير خفيفة التأثير في أوّل الأمر وهي خطة حكيمنا الثاني الشيخ محمد عبده التي جربنا عليها في المنار »⁶⁷.

يلاحظ القارئ أن لا إشارة في الشاهد إلى نمطي التغيير الأنكلوساكسوني والفرنسي فما هو سبب ذلك ؟ إنّه ازدواجيّة محمد رشيد رضا الذي يعرف السياسة تعريفاً ماكيافيليا - بأنها « المصلحة »⁶⁸ فهو عندما يتّجه بالحديث إلى عامة المسلمين يتّخذ من جمال الدين (الإسلامي) ومحمد عبده (العروبي الإسلامي) مرجعيه الثابتين ممّا سهّل مع تطوّر الزمن عملية الخلط بين التيارين الخصمين في القرن التاسع عشر وفي العقدين الأوّلين من القرن العشرين وهو عندما يتّجه بالحديث إلى الشوام لا يتحرّج من اعتماد مراجع فكرية غربية سابقة للأفغاني ومحمد عبده. لذلك يمكن أن نقرأ له في خطاب توجّه به سنة 1909 إلى أعيان طرابلس هذا النص الطويل الذي نعتبره السبب الحقيقي في معاداة العثمانيين الاتحاديين، وفيهم عدد غير قليل من ممثلي الطبقتين الوسطى والشعبية، له :

« أيها السادة، إن حكومتكم قد دخلت في طور جديد فصارت ديمقراطية أمرها بيد الشعب بعد أن كانت استبدادية شبه الأرستقراطية بما للأغنياء والشرفاء من النفوذ فيها. واعلموا أن كثيراً من الأحرار الذين انقلبت السلطة الاستبدادية بسعيهم متطرّفون في الديمقراطية وأن معظم الأحكام ستكون في أيديهم عاجلاً أو آجلاً وأن الشعب سيشعر بهذا فتدبّ إليه كراهة الكبراء والأغنياء فيكرههم وتنفخ فيه روح الاشتراكية فيهيّج عليهم بالفعل: فإذا جاء طرابلس متصرّف متطرّف من الديمقراطيين الذين أشرت إليهم وكان والي المدينة⁶⁹ منهم أيضاً فاعلموا أن ما تعودتموه من الجاه والكرامة في وطنكم لا يبقى لكم إلا إذا كان الشعب يحبكم بتحبيبتكم إليه قبل ذلك وإلا دهوركم وأسقطكم كما فعلت قبله

⁶⁷ محمد رشيد رضا - الرحلات، ص 141

⁶⁸ «(السياسة) ليست كالعلم والدين يكفي فيها تأليف الحجج والبراهين ليبراً العالم من إثم الكتمان ويؤدّي ماعليه من واجب البيان بل هي المصلحة» (شكيب أرسلان - السيد رشيد رضا، ص 722 وتحسن مقارنة هذا الرأي بما وصف من «دعوة (محمد عبده) المادّة بالحجج الناهضة».

⁶⁹ يقصد ولاية بيروت التي تتبعها متصرفيّة طرابلس.

الشعوب الإفرنجية بأولئك النبلاء الذين كانوا يملكون أوروبا ويتصرفون فيها تصرفاً لم تصلوا إلى مثله من كونت ودوق ومركز ثم يقوم من طبقات الشعب الدنيا من يتولى الزعامة في البلاد بحق أو بغير حق وما أظن صدوركم تنشرح لتلك الحال ولا أن أعينكم تبتهج برؤيته وإني أحب أن تكونوا أنتم زعماء بلدكم في زمن الحرية وتحت ظل الدستور بأن تتحببوا إلى الشعب منذ اليوم بنشر التربية ومواساة الفقراء والمساكين من أهله (...) إني لا أحب الأرستقراطية وإن كنت من بيت شريف وإني ما زلت من دعاة الديمقراطية بلسان السياسة ولسان الدين، وإنما أميل إلى بقاء زعامة وطني في وجهائه وإياكم أعني لاعتقادي أنه لا يوجد في دهمائه من يصلح للزعامة كما وجد في فرنسا عندما صارت ديمقراطية. الفرق بيننا وبين فرنسا بعيد، إن فرنسا كانت قبل ثورتها المشهورة قد استعدت ما لم نستعد بمثله نحن اليوم حتى نبغ فيها من دهماء الشعب من يصلحون للزعامة بعلومهم وأعمالهم وآرائهم وأخلاقهم. إني لعلمي بهذا الفرق ولما رأيت في بلاد مصر التي تمتعت بالحرية⁷⁰ قبل بلادنا من العبر وهبوط قوم وصعود آخرين أقول ما أقوله عن خبرة وبصيرة وأحب أن نعتبر نحن العثمانيين⁷¹ بحال الأمة الانكليزية التي هي أعرق الأمم في الحرية وأكثرهن استفادة منها فهي الأمة التي حافظت⁷² على كرامة النبلاء وحرمة البيوتات فيها بعد الديمقراطية الراسخة واستفادت من ذلك كثيرا. وأرى أن إسقاط الشعب لكرامة أصحاب البيوتات منا⁷³ وتسلق أفراد الطبقات الدنيا للزعامة فينا (72م) مع ما هم عليه من الجهل يقف في طريق (...) نهضتنا. وأن عناية وجهائنا بحفظ كرامتهم وحرصهم على أن يكونوا هم زعماء الشعب يكون أسرع في تقدمه إذا هم أتوا البيوت من أبوابها فإنهم في الغالب على شيء من الأخلاق والعلم والاختبار⁷⁴ من الذي يمكنه أن يقرأ هذا النص الطويل بل البرنامج السياسي والاجتماعي ثم يتحدث بعد ذلك بشكل قاطع عن «سلفية» محمد رشيد رضا؟ إن محمد رشيد رضا في هذا النص لا يختلف في شيء عن محمد كرد علي مثلاً والكردّي ليس إسلامياً ولا عروبياً إسلامياً وإنما هو محافظ ينفر من التغيير الانقلابي نفور كل

⁷⁰ على عهد كرومر بين 1883 - 1907

⁷¹ يقصد العثمانيين الاتلافيين خصوم العثمانيين الاتحاديين الإدماجيين.

⁷² على عكس التنظيمات وليقارن هذا الرأي برأي الكواكي في التنظيمات.

⁷³ (72م) «منا» و «فينا»: لفظان يفيدان الانفصال الطبقي التام.

⁷⁴ محمد رشيد رضا. - الرحلات، صص 46-47

المحافظين في العالم منه. فمحمّد رشيد رشا يعبر هنا بلغة واضحة لا لبس فيها عن مصالح طبقة تقليدية معينة في متصرفية طرابلس حرص على أن يدمج نفسه ضمنها وكانت هذه الطبقة (وما زالت إلى اليوم : عائلة كرامي (كرامة) مثلاً) ترى أنها مؤهلة أكثر من غيرها للفعل في المادة الاجتماعية السنية وتشكيلها على الصورة التي ترى أنها الصورة الأفضل وتوجهها الوجهة التي ترى أنها الطريق الأسلم إلى « نهضتنا »: لقد شحب في هذا النصّ وجها ابن حنبل و الغزالي باختفاء اللهجة الدينية وبدا ظلّ المحافظ الأنكليزي إيدموند بورك والمحافظ الفرنسي غوستاف لوبون وارفا وحاميا من الثورة الفرنسية الحارقة.

إن هذا النصّ بالغ الأهمية، في نظرنا، لأنه موجّه إلى الأعيان في الشام، لا إلى عامة المسلمين، ومن ثم فهو يخلو خلواً تاماً من اللغة الدينية بل التأثيمية، دقيق المصطلح السياسي والاجتماعي والاقتصادي عظيم الدلالة على انتماء صاحبه الطبقي ونشاطه السياسي بالمعنى المكيفي للسياسة. ولقد تفتن الإسلامي شكيب أرسلان إلى غلبة السياسي على الديني عند محمد رشيد رضا فكتب يلوم خصوم محمد رشيد رضا الذين كانوا يدعونه إلى حصر نشاطه في المجال الديني لأنه، في نظرهم، ليس رجل سياسة فكتب عنه بعد « صلح جنيف »:

« كان بعض الذين يأبون إلا أن يتحذلقوا يعيبون على السيد رشيد اشتغاله بالسياسة ويقولون إنّه كان الأولى به أن يقبل على شأنه في الاشتغال بالأمور الشرعية والعلوم اللغوية التي قد أحكمها بخلاف السياسة التي ليست من فئته ! وحقيقة الحال أن العقل الكبير يتسع لكل شيء ولا سيما إذا كان مستيقظاً ساهراً يلتقط كل شاردة وواردة وأنّ للسياسة صلة وثيقة بالعلم وبالشرع وبالمنطق وبالأدب وبالاقتصاد وبغير ذلك »⁷⁵.

والحقيقة أن محمد رشيد رضا الذي احتذى في ميدان السياسة حذو محمد عبده كان رجل سياسة يعرف توازن القوى في المنطقة ويعرف كيف ينفذ، وهو العروبي الإسلامي، إلى قلوب المسلمين الأكثر عدداً من العروبيين الإسلاميين بما لا يقاس والمعادين للعروبية الإسلامية المتحالفة مع بريطانيا لذلك اختار، عندما يكتب في « المنار » أن تكون مراجعه إسلامية بالأساس. أمّا محمد عبده الذي لم يعد أحد يشكّ في ولائه البريطاني وفي خدمته للمشروع البريطاني في تقسيم العالم الإسلامي إلى كتل عرقية ثلاث، فقد حلّ المشكلة حلاً جذرياً بادعاء هذه القرابة بين الإسلام السليم و « التلميذ » الأنكليزي.

⁷⁵ شكيب أرسلان . — السيد رشيد رضا، ص 259

نعتقد أن ما تقدّم في هذا الفصل يفى بالحاجة فيما يتّصل ببيان النبع البريطاني الذي نهل منه العربيون الاسلاميون وعلينا أن نبين الآن مدى استفادة العربيين الإسلاميين من الطبيب الفرنسي غوستاف لوبون فيما يتّصل بتبرير الدعوة العروبية الإسلامية عرقياً خاصة. نقول خاصة لأنّ لوبون كان هو أيضاً من القائلين بفضائل التطوّر البطيء ولقد كان يمكن للعربيين الإسلاميين أن يكتفوا بمن سبقوه في الأخذ بهذه النظرية السياسية أو لحقوه إذ من المعروف أن محمد عبده أشار على فتحي زغلول نهاية القرن التاسع عشر بتعريب كتاب « فيم يكمن تفوق الانكلوساكسونيين » لديمولين (Desmolins 1907 - 1852) A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons حال صدوره سنة 1897 فصدر تعريبه سنة 1899 إثر هزيمة فرنسا في السودان وعقد الاتفاقية البريطانية الكويتية لو لا أن لوبون كان يسدّ حاجة عزيزة على قلوب العربيين الإسلاميين تتمثّل في تمجيد الجنس العربي والغضّ من الأجناس المسلمة غير العربية والعرب غير المسلمين والمسيحيين عامة والمارونيين خاصة واليهود. هذه الحاجة إلى غوستاف لوبون دفعتهم إلى أن يغضّوا النظر عن تفسيره لنبوّة محمّد بردها إلى أسباب بيولوجية وعصبية ونفسية وجغرافية ليس بإمكان إسلامي أن يقبل بها.

وصف محمد عبده غوستاف لوبون في « الإسلام والنصرانية » بـ « الفيلسوف » وتابعه محمد رشيد رضا في ذلك. أمّا عبد الغني العريسي، أحد رموز « العربية الفتاة »، هذا الامتداد للعروبية الإسلامية في نظرنا نحن، فقد كتب سنة 1911 في تقديم كتاب بول دومر (1857 - قتل 1932) «أبنائي» (1906) الذي ترجمه العريسي إلى العربية وأهداه إلى العربي الإسلامي رفيق العظم باسم كتاب « البنين » ما يلي :

« لو وقفت موقف المؤلّف (يقصد بول دومر) إزاء قومي لقلت عليكم بالقرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة ومقدّمة ابن خلدون والعقد الفريد والأغاني والبيان والتبيين وأشهر مشاهير الإسلام⁷⁶ وأمّ القرى⁷⁷ والتربية الاستقلالية وسرّ تقدّم الأنكليز وروح الاجتماع وحضارة العرب » فما الذي استهوى العربيين الإسلاميين في « حضارة العرب » حتّى ينزّلوه هذه المنزلة ؟ إنّ ما استهواهم فيه هو ما ذكرنا من الغضّ من الأجناس المسلمة غير

⁷⁶ رفيق العظم (توفي 1925)، اشّدد في مقاومة المصري طه حسين بداية العشرينات.

⁷⁷ للكواكي.

العربية ومن أجناس أخرى في المنطقة وتمجيد الجنس العربي بل الصحراء العربية فعن العرب كتب :

« كان العرب من وجهات النظر الأخلاقية والعلمية والصناعية أرقى بكثير من المسيحيين، كانوا في مزاجهم وأخلاقهم على هذا القدر من السخاء والوفاء والرحمة التي من العيب البحث عنها في غيرهم لقد كان المرء يجد عندهم هذا الشعور بالكرامة الإنسانية الذي كان دائما يميزهم عن غيرهم والذي كان لابد أن ينجّر عن الإفراط فيه هوس عادة المبارزة المميتة »⁷⁸.

وعن الصحراء كتب :

« وقضلا عن ذلك فإن حياة الصحراء ليست خلوا من السحر. وأنا أعترف عن طيب خاطر أنه لو كان عليّ أن أختار بين هذه الحياة الحرة وحياة عامل مشدود طيلة اثنتي عشرة ساعة يوميا في المصنع إلى مهنة تبلة العقل فإن ترددي لن يطول »⁷⁹.

بعد أن مجد غوستاف لوبون الجنس العربي وتغنّى بالصحراء عمد إلى « تشريح » الحضارة العربية لغة الإسلامية دينا التي بناها العرب والفرس والترك والبربر وشعوب أخرى كثيرة أي هذه الحضارة الكوسموبوليتية انطلاقا من مفهومي « الجنس » و « المزاج القومي » فأحلّ الجنس العربي في المحلّ الأول ونزل بقية الأجناس منزلة دنيا. بدأ، بعد « إجلاء » الفرس، في تحليل « طبيعة » الأتراك والبربر انطلاقا من الواقع الحضاري الراهن فكتب عن الأتراك : « إن ناشري شريعة النبيّ الجدد لم يكونوا فعلا من جنس عربيّ ولكنهم كانوا من الأتراك ثمّ من المغول أي كانوا أنصاف برابرة. وكما كان شأن البرابرة الذين اجتاحتهم العالم الرومانيّ فإنّ أمر المسلمين الجدد انتهى ما من شك في ذلك بتمثّل حضارة المغلوبين (يقصد العرب) ولكنّ هذا التمثّل احتاج ضرورة إلى مدّة طويلة. و بطء هذا التكيّف يظهر في حدّ ذاته الاختلاف الأساسيّ الذي يفرّق بين الشعوب الذكيّة ذات التطوّر السريع مثل العرب والشعوب السافلة ذات التطوّر البطيء مثل برابرة العصور الوسطى والجحافل الآسيوية الشبيهة بهم والتي اجتاحت امبراطورية محمّد »⁸⁰

رأي لوبون هذا نجد له صدى عند العروبيين الإسلاميين فلقد كتب محمد عبده :

⁷⁸ Gustave Lebon . - La civilisation des Arabes . - Syracuse, 1969, p.213

⁷⁹ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، ص 214

⁸⁰ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، ص 145

« لم أر كإسلام ديننا حفظ أصله وخلط فيه أهله. لا هم فهموه فأقاموه ولا هم رحموه فتركوه سواسية من الناس اتصلوا به ووصلوا نسبهم بنسبه وقالوا نحن أهله وعشيرته وحماته وعصبته وهم ليسوا منه في شيء إلا كما يكون الجهل من العلم والطيش من الحلم وأفن الرأي من صحة الحكم. ظن خليفة أن الجنس العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبيّاً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبد بها بإحسانه. هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجمياً »⁸¹.

وكتب محمد رشيد رضا في الموضوع نفسه :

« طرأ الضعف على الأمة الإسلامية بتفرق الوحدة العربية الكافلة لها وتغلغل الأعاجم في الدول الإسلامية التي تعددت بسبب ضعف الخلافة »⁸².
أما عن البربر فقد كتب غوستاف لوبون :

« إن بربر إفريقيا مجموعة سكان مختلفين جداً عن العرب »⁸³ ف « عربي الجزائر ليس في حقيقة الأمر إلا هجيناً حقيقياً وعلينا أن ننتظر أن نجد فيه كل صفات الهجناء السافلة »⁸⁴.

أما أهلية البربر لتقبل الحضارة فتكاد تكون، عند غوستاف لوبون، مقفودة بسبب « روح الانقسام عند البربر وقلة التهيؤ لتقبل الحضارة »⁸⁵

في النظرة التقليدية إلى الطبيعة (سواء عند المسلمين أو الغربيين وبغض النظر عن نوع التكوين الذي تلقوه في المساجد أو الكليات الدينية أو كليات الطب والهندسة...) تتحول النتائج (خلافًا للرشدية والسينوزية والشدياقية) إلى أسباب لقيام هذه النظرة على الصفات الظاهرة لا على تركيب الأشياء الداخلي ولذلك نرى محمد عبده يزكي في ما كتب عن البربر ما يذهب إليه غوستاف لوبون : « حملت كتب الإمام الغزالي إلى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر

⁸¹ فرح أنطون . — ابن رشد وفلسفته، ص 277

⁸² محمد رشيد رضا . — الرحلات، ص 178

⁸³ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، ص 45

⁸⁴ غوستاف لوبون . — المصدر السابق، ص 46

⁸⁵ غوستاف لوبون . — المصدر السابق، ص 196

بتفسيره وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ «إحياء علوم الدين» ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت»⁸⁶.

على أن ما يلاحظ هنا هو أن البربر لا يتعرّضون لوضعهم بصفتهم مستعمرين لما يتعرّض له «الأتراك الحاكمون» من التنديد الشديد. هذا هو ما يفسّر، على الأقلّ في نظرنا، «شفقة» محمد رشيد رضا على البربر بل أمّله في إمكانية هدايتهم :

«إنّ السيّد الزهراوي قال لي مرّة ما بالي أراك تحمل همّ مسلمي الجزائر وأمثالهم وهم غير مسلمين بالمعنى الذي تفهم به الإسلام وتدعو إليه وتدافع عنه... فقلت له : لو غيرك قالها يا عبد الحميد : إن أجهل الجاهلين من مسلمي الجزائر من الذين يرتكبون من البدع والضلال ما هو كفر وشرك بحسب أصول قواعد الإسلام إنما يفعلون ذلك لاعتقادهم أنه من الإسلام، فهم معذرون بجهلهم لأنهم لم تبلغهم دعوة الإسلام الصحيحة ولكنهم مؤمنون بأصل الإسلام»⁸⁷

بعد أن انتهى غوستاف لوبون من قضية شمال إفريقيا حاول أن يعرف المصريين عرقيا لموقع مصر الوسط بين إفريقيا وآسيا فكتب في الموضوع : «إنّ العربيّ غير المترحل في مصر هو في حقيقة الأمر ابن قدماء المصريين زمن الأهرام. يظهر ذلك من كتفيه العريضتين ووجهه ذي الشفتين القويتين والوجنتين الناتئتين وخاصة من شبهه بالشخصيات المحفورة في الآثار القديمة. والعرب المستقرون على ضفاف النيل ليسوا فحسب أبناء قدماء المصريين سحنة ولكنهم ورثوا عنهم طباعهم فهم يمثلون شعبا على غاية من اللطف والأدب، وهم يخشون، بسبب خضوعهم منذ زمن طويل لكل أشكال العبوديّة، من كلّ الأسياد وخاصة الأوروبيين منهم. وفي زمن صوّرت فيه مصر العليا، من القاهرة، على أنّها كانت في أوج الثورة ولم تعد الصحف تتحدّث إلّا عن المذابح، أمكنني أن أتجوّل وحيدا بين سكان أهمّ القرى الساحلة للنيل من دون أن يتعرّض لي أحد بسوء»⁸⁸.

ولقد تابعه العروبيون الإسلاميون في هذا الاتجاه : فبما أن مصر ليست عربيّة جنسا فهي لا تصلح أن تكون مركزا لخلافة عروبيّة إسلاميّة. ولذلك يجب انتظارا ساطع الحصري في ثلاثينات القرن العشرين لنرى مقاومة جديّة لتفكير لوبون واتجاها نحو اعتبار

⁸⁶ محمد عبده . — الإسلام والنصرانيّة . — ص 159

⁸⁷ شكيب أرسلان . — السيّد رشيد رضا، ص 701

⁸⁸ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، ص 43

مصر القلب الذي رشحته الفكرة العربية اللاتينية المعاصرة ليكون جامعا لجناحي العالم العربي، المشرق والمغرب. أما قبل الثلاثينات فمن الصعب على المرء أن يؤرخ للفكرة العربية اللاتينية بالمعنى الذي نفهمه اليوم منها ودليلنا على ذلك أن العروبي الإسلامي الشريف حسين سيحاول إقناع الفرنسيين والبريطانيين أثناء ثورته وطموحه إلى الحصول على لقب « ملك العرب » بأن هذا اللقب لا يهدد مصالح بريطانيا في مصر ولا مصالح فرنسا في الشمال الإفريقي لأن مصر والشمال الإفريقي لا يدخلان ضمن مجال العروبة. فقد أرسل إليه مندوبه بالفاهرة بتاريخ 22 ديسمبر 1916 هذه البرقية :

« كُرت تشبثاتي مع ولاية الأمور الأنكليز فيينا أن لفظه « ملك العرب » ليس عامة كما يظنون. إنها لا تشمل مصر والجزائر وغيرهما بل المقصود منها ملك البلاد العربية⁸⁹ »⁹⁰.

وفي 25 ديسمبر أرسل الحسين إلى معتمده بمصر البرقية التالية بتوقيع فؤاد الخطيب (وكيل الخارجية) : « ... إذ أن مصر ليست من البلاد العربية وتونس والجزائر بطريقة أولى ولا شك بأن دوام حدوث مثل هذه الخيالات والذهابات يحكم علينا بالتردد في العمل » (89م).

انتقل غوستاف لوبون بعد حديثه عن مصر إلى منطقة الشام التي تهمن أكثر من غيرها وأعمل فيها، وهو الطبيب، كالعادة، « مبضعة » تشريحا نافيا عن أهلها كل الصفات الممتازة التي تميز في نظره العرب المسلمين عن غيرهم فبدأ بالمسيحيين عامة وثنى بالمارونيين وثلث باليهود، معتبرا أنه نظرا إلى هيمنة الرأسمالية المتزايدة على العالم، سيكون لهذا الجنس « ذي الغرائر الخسيسة » والذي اشتغل بالتجارة والربا مدة طويلة، تأثير متميز في المسار العالمي، وهذه الفكرة الأخيرة سوف تشغل بال الماروني نجيب العازوري طويلا.

كتب غوستاف لوبون :

« إن شوام المدن هم بصفة عامة على قدر من الذكاء ولكنهم مرنون وماكرون ومخادعون. ولقد كانوا، حتى على عهد الرومان، لا يحظون بتقدير كبير إذ كان الرومان

⁸⁹ من المعروف أن عبد العزيز آل سعود كان يقاوم ادعاء الشريف حسين إضافة إلى أن القوميين اللبنانيين كانوا ينفرون من العروبة الإسلامية أكثر من نفورهم من القومية اليهودية ومن تبني من بقية الشوام مطالبه كان يهدف إلى تطويع « الثورة العربية » لخدمة الشام نظرا إلى تخلف الإمارة الهاشمية مقارنة بالشام.

⁹⁰ و 89 م) أنيس صائغ، — الهاشميون والثورة العربية الكبرى. — صص 177-178

يصفونهم بالجنس الذي ولد ليستعبد والشوام الذين خضعوا لكل أنواع الهيمنة التي أحكمت قبضتها عليهم منذ قرون، لم يتبقى لهم من القوة إلا ما كان منها متصلاً بالخصومات الدينية. أما فيما عدا ذلك مما لا يتصل بالمسائل الدينية فاستسلامهم كبير جداً وهم يؤمنون بضرورة الخضوع المطلق لكل ما يشبه السلطة، أي سلطة كانت»⁹¹.

يلاحظ القارئ أن غوستاف لوبون يتحدث عن شوام المدن جميعهم فهل كان يدخل ضمن حكمه عليهم المسلمين منهم؟

لا شيء في « حضارة العرب » يدل على أن حكمه يشمل المسلمين كما أنه لا يذكر الطوائف المسلمة غير السنية بما يسيء إليها. فحكمه هو إذن حكم على المسيحيين سواء كانوا من دعاة الفكرة العربية اللاتينية أو من دعاة الفكرة القومية اللبنانية. ولسوف ينهج محمد عبده نهج غوستاف لوبون بعد صدور « حضارة العرب » بقليل فيندد في رسالة له إلى جمال الدين بالشوام المسيحيين الذين وصفهم بـ « اللثام »⁹². ويبدو مقت غوستاف لوبون للشوام المسيحيين بصفة خاصة في ما كتب عن حرب 1860 الأهلية :

« والمسيحيون هم، في نهاية الأمر، على قدر من الجبن يبعث حقاً على الخجل. ففي سنة 1861 (كذا!) استسلموا للتقتيل استسلام الخرفان ومن دون أن يحاولوا حتى الدفاع عن أنفسهم»⁹³.

وضمن هؤلاء المسيحيين الشوام يميز غوستاف لوبون المارونيين عن غيرهم، نتيجة استقلالهم الذاتي بمتصرفية جبل لبنان ونمو الدعوة القومية التوسعية اللبنانية معتبراً أن لهم « شخصية طائفية » متميزة، كل صفاتها صفات سلبية. فـ « للمارونيين، على الرغم من شبههم بالسوريين، شخصية متميزة. وهم يمثلون طائفة مسيحية متباهية ولجبة لم تبتد، في ظروف مختلفة، شجاعة كبيرة »⁹⁴.

ولقد طبق غوستاف لوبون طريقة تحليله « للشخصية القومية » على اليهود والعرب الوهابيين فرسم للوهابيين صورة ترشحهم في مستقبل الأيام للسيطرة على الجزيرة العربية :

⁹¹ غوستاف لوبون . — حضارة لعرب، صص 41-42

⁹² محمد عبده . — سلسلة الأعمال المجهولة، ص 49

⁹³ غوستاف لوبون. — حضارة العرب، ص 34

⁹⁴ غوستاف لوبون . — المصدر السابق، ص 41

«إنّ الوهابيين لا يندفعون لأولى الانطباعات ولكنهم يسرون وفق تخطيط مسطر سلفاً، وهم إن كانوا محدوديّ الذكاء فإنّ إرادتهم القويّة والمثابرة تجعلانهم قادرين قدرة كاملة على تنظيم مجتمعهم وعلى أن يصبحوا سادة مستبدين بالنسبة إلى جيرانهم. وأخيراً فإنّ وحدتهم الصمّاء هي وحدة حريّة بأن تضمن لهم الانتصار على أعداء يضعفهم الشقاق الدائم. ولذلك فإنّ الإمبراطورية الوهابيّة تميل إلى ابتلاع أكبر جزء من الجزيرة العربيّة وقد يتحقّق حلمها الطموح في وقت أقصر ممّا يتصوّره المرء»⁹⁵.

نصّ عجيب مثل هذا النصّ يستأهل أن نعلّق عليه لأنّه كتب في بداية ثمانينات القرن التاسع عشر ولقد كان الوهابيون في هذه الفترة قوّة كامنة لم يتفطن إليها حتى العروبيون الإسلاميون الذين اتجهوا في استطلاعهم الأفق العروبيّ الإسلاميّ وجهة مكّية هاشميّة. وحتى نجيب العازوري الذي كتب «يقظة الأمة العربيّة» سنة 1905 لم يتفطن إلى ما تخبئه نجد من إمكانات قيام حكم عروبيّ إسلاميّ أقوى بما لا يقاس من الإمارة الهاشميّة في «أم القرى»

لقد تبينّ غوستاف لوبون منذ ثمانينات القرن التاسع عشر أن الثقل العروبيّ الإسلاميّ (وموقعه في الجزيرة العربيّة) هو الثقل الحاسم وأظهر بشكل ضمنيّ أن لا مستقبل لفكرة عربيّة لائكيّة مثل الفكرة التي دعا إليها بروتستانتيو قدماء الجامعة الانجيليّة، المدمنون على مقهى «اسبلانديد بار» إدمانهم على الدعوة إلى مناصرة بريطانيا وعلى كوسموبوليتيّة من الصعب أن تستسيغها الكتل الشعبيّة العربيّة التي تعيش وضعاً ثقافياً وسياسياً لا يختلف عن وضعها في أزمنة الانحطاط. كما أنّ غوستاف لوبون بدا وكأنّه يشير على بريطانيا بتخيّر حليفها الأكثر تأثيراً من بين التيارات المتصارعين. تيار دعاة الفكرة العربيّة اللائكيّة والتيار العروبيّ الإسلاميّ. وسوف تختار بريطانيا ما هو منطقيّ بالمعنى السياسيّ أي من يحقّق لها أكثر من غيره مصالحها في المنطقة وهو الشريف حسين وعبد العزيز آل سعود أي هذين الوجهين العروبيين الإسلاميين اللذين لا يختلفان في النظرة إلى الأشياء اختلاف مصالح عرشيهما التقليديين. على أن غوستاف لوبون لم يكتف بالتنبؤ بهيمنة العروبيّة الإسلاميّة ممثلة في عرب نجد ومن ثمّ بالتنبؤ بمأساة العرب المحدثين والمعاصرين الذين انتصرت عندهم، في القرن العشرين، النظرة التقليديّة إلى الله والطبيعة ومن ثمّ إلى الدولة والمجتمع جارفة في انتصارها الشدياقية بمعانيها المختلفة ولكنّه تنبأ

⁹⁵ غوستاف لوبون. — المصدر السابق، ص 40

كذلك بهيمنة اليهود وبالصرع العربي الإسلامي اليهودي كما يدلّ على ذلك النصّان التاليان :

« من المؤكّد أنه لا يكاد يوجد شبه بين العربيّ كما يظهر لنا زمن حضارته واليهوديّ كما نعرفه منذ قرون، وهو في أغلب الأحيان ذلك اليهودي الجبان والبخيل والجشع حتى يبدو للأوّل أن تشبيهه بالثاني إنّما هو من باب الإهانة. ولكن على المرء ألاّ ينسى أن ظروف، الحياة الخاصّة التي أخضع لها اليهود منذ قرون هي التي جعلت منهم هذا الجنس المحتقر الذي نعرف اليوم وإن أيّ شعب يقع إخضاعه لظروف حياة مماثلة ولا يكون باستطاعته أن يمارس غير مهنتي التجارة والربا ويكون محتقرا حيثما كان، يصير، ما من شك في ذلك، إلى ما صار إليه اليهوديّ الذي نعرف، اليهوديّ الذي يحتفظ، غنيّا كان أو فقيرا، بهذه الغرائز الخسيسة التي يبدو أن عشرين قرنا من الوراثة قد ثبتّت فيها بشكل نهائيّ»⁹⁶ لن يفهم العربيون المسلمون السبب الحقيقي الذي دفع غوستاف لوبون، وهو الذي يقول بالصفات الثابتة، إلى أن يقارن بين العربيّ القديم واليهوديّ الحديث، على عكس نجيب العازوري مثلا الذي ساعده العيش في فلسطين وما رأى من نشاط الصهيونيّة على أن يتبيّن مقاصد غوستاف لوبون البعيدة : حقّا إنّ غوستاف لوبون كان يمقت الحضارة الرأسماليّة مقتا ومن أسباب مقت هذه الحضارة أنها يمكن، لاستنادها إلى الرأسمال، أن تقلب سلّم التقييم العزيز على قلب غوستاف لوبون رأسا على عقب وأن تجعل من «القيم الخسيسة» قيما « يقتدى بها » ومن الذين سكنتهم هذه القيم «الخسيسة» ومنهم اليهود، قدوة لغيرهم :

«إن ملوك القرن الذي نتأهّب للدخول فيه عمّا قريب سوف يكونون من هؤلاء الذين يعرفون أكثر من غيرهم كيف يستولون على الثروة. ولبني إسرائيل في هذا الميدان من الكفاءة ما لا يضاهيهم إلى الآن فيه أحد. وفي غمرة هذه الحركة العامة التي تبرز ملامحها في كل مكان ضدهم لابدّ للمرء أن يرى العلامات المنذرة بأشكال المقاومة المربعبة التي يجب دعمها ضدهم للنجاة من سطوتهم الخطيرة»⁹⁷.

لقد أتينا في هذا الفصل على ما بدا لنا أنه يدخل ضمن بيان أسباب نشأة العروبيّة الإسلاميّة. ولكن إلى أيّ حدّ كان ممثلو هذا التيار يعبرون بمشروعهم عن إجماع شامي ؟ إنّ

⁹⁶ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، صص 29-30

⁹⁷ غوستاف لوبون. — المصدر السابق، ص 484

القارئ يتصوّر بسهولة موقف القوميين اللبنانيين من مشروع مثل هذا المشروع لكن ما هو موقف كثير من الشوام المعادين للقومية اللبنانية ؟

نقتصر على موقف فرح أنطون (1872-1921) من العروبيين الإسلاميين فلقد آخذهم على أمرين أولهما أنهم لا يدافعون عن قضية يمكن أن تعود بالنفع على العدد الأكبر من السكان :

« إن تلك الدعوة الجديدة لا فائدة منها لأحد سوى أعداء الدولة. وإذا كان من ورائها فائدة فهي فائدة جزئية لجزء واحد فقط من الإسلام وهو سكّان بلاد العرب الذين يستقلّون ببلادهم هذا إذا لم يقعوا بعد ذلك في حبالل الدول الأوربيّة التي لها أملاك على شواطئ البلاد العربيّة »⁹⁸.

وثانيهما أن العروبيّة الإسلاميّة، لتقليديّتها، لا تتماشى وروح القرن العشرين ولذلك نراه يمتدح عمل محمد علي الذي قبر الوهابيّة في العقد الثاني من القرن التاسع عشر :

« نقول إن ذلك الأمير العظيم والقائد الكبير الذي كان نابغة الشرق في زمنه قد رأى بعقله الكبير الراجح وخبرته الواسعة وحاجاته الجديدة أنّ تلك الدعوة التي كان يدعو إليها الوهابيون إنّما هي بمثابة نقخة في رماد أو صرخة في واد فإنّ الأصل لا يقلّد مهما كان مقلّده مخلصا »⁹⁹.

ولقد دلّ موقف الشريف حسين من إطاحة العثمانيين الإتحاديين بعد الحميد سنة 1909 على شدة عداوة الشرفاء لكلّ محاولة لتغيير أسس المجتمع التقليديّ فلقد كتب خير الدين الزركلي : « يلوح لي أن اختلافه مع الاتحاديّين بدأ منذ خلعوا السلطان عبد الحميد. وقد كان الشريف وما زال يثني عليه ويعدّ في مثالب القوم وثوبهم بسلطانهم وقد حاولوا كثيرا أن ينشئوا فروعا لحزبهم في مكّة وجدة فناوهم الشريف فأخفقوا »¹⁰⁰.

كما كتب عبد الرحمن الشهبندر :

« قد أتيج لي في الأشهر التي أعقبت الانقلاب العثمانيّ أن أطلع بصورة خاصّة على نزعة ربّ البيت الهاشمي الشريف حسين بن علي (...) فقد كنت في الهيئة المركزيّة

⁹⁸ فرح أنطون. — ابن رشد وفلسفته، ص 283

⁹⁹ فرح أنطون. — ابن رشد وفلسفته، ص 283

¹⁰⁰ خير الدين الزركلي. — ما رأيت وما سمعت. — القاهرة، 1923. — ص 114

لجمعية الاتحاد والترقي في سوريا، وكان معنا من الأعضاء المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف، أمير الحج. فلما جاءنا الخبر من المركز العام في سلانيك بأن النية متجهة إلى نقل الشريف حسين باشا من مجلس الشورى في الآستانة إلى مكة ليكون شريفا على الحجاز، حمل الباشا اليوسف عليه حملة منكرة فذكر طموحه الذي لا حد له ومما قاله : إنني لأخشى إذا صار إليه الأمر أن ينسلخ الحجاز عن المملكة العثمانية وتصاب خلافة آل عثمان في الصميم»¹⁰¹.

¹⁰¹ حسن الحكيم. — عبد الرحمن الشهنبر، صص 42-43

الفصل الرابع

ليم سلطان غالييف

كان ترك روسيا في بداية القرن العشرين يشكلون كتلة هامة تقدر بأربعة عشر مليوناً من السكّان في حين لم يكن الترك في السلطنة العثمانية يعدّون أكثر من سبعة ملايين ونصف المليون حسب ما أورده يوسف أقجورا¹.

وقد بدأ الغزو الروسي للبلاد الواقعة في قبضة الترك في منتصف القرن السادس عشر، زمن إيفان الرعب Ivan le terrible (1530 - 1584) الذي استولى على إمارة قازان، موطن يوسف أقجورا وكذلك موطن لينين وهما من مجاييلي محمد كرد علي، ليتدعّم باستيلاء كاترين الثانية Catherine II (1729-1796) نهاية القرن اثنان عشر على القرم ولينتهي سنة ولادة يوسف أقجورا باستيلاء جيوش الاسكندر الثاني Alexandre II (1818 - 1881)، بعد عشر سنوات من المقاومة (1865 - 1875)، على إمارات التركستان (1876).

ويجمع هذه الشعوب الإسلام أولاً واللغة ثانياً «ولذلك يمكن القول إنّ العاملين الإسلامي والتركي يكادان يتطابقان تطابقاً كاملاً. ففي القرن التاسع عشر ما زال الدين يمثل بالنسبة إلى هذه الشعوب السمة التي تميّزها عن غيرها من الجماعات الأخرى. ومن ناحية أخرى فقد وجد كذلك شعور بالانتماء إلى جماعة واحدة وإلى قبيلة واحدة وإلى عائلة واحدة إلا أنّ المرء لا يعثر على أي أثر للوعي القومي إلا عند التتار والأذربيجانيين وحتى عند هؤلاء كان هذا الوعي في مستوى جنيني»².

ملاحظة جورجون وجيهة، في نظرنا، لأن بذور الحركات القومية الحديثة لا يمكن أن تظهر وتنمو في مجتمعات تقليدية أي ما قبل رأسمالية :

« التاريخ قد دلّنا على أن الحركة القومية - أيّة حركة قومية كانت - لا تتحقّق وتنجح إلا في مجتمع قد بلغ نوعاً معيّن من التطوّر والانسجام. وبعبارة موجزة مجملّة يمكننا أن نقول إن القومية لم تقم في الغرب في مجتمع تسوده أوضاع القرون الوسطى، بل قامت على أنقاض هذه الأوضاع. إنّ القومية تتعارض والتيوقراطية وتتطلب - أوّل ما تتطلب - علمانية الدولة (...) وكذلك تتنافى القومية - أيّة قومية - والإقطاع الذي يحصر قسماً هاماً

¹ يوسف أقجورا. - العالم التركي، مقال منشور ضمن الملاحق (كتابات أقجورا مترجمة إلى الفرنسية) التي دُبل

ها François Georgeon أطره حتى: - Yusuf Akçura 1876-1935. Aux origines du nationalisme turc.

Paris, 1980, P. 121 وسنقتصر من الآن فصاعداً، عندما يتعلق الأمر بهذه الملاحق، على ذكر عنوان المقال و رقم

الصفحة فيها.

2 ف. جورجون. - الأصول. - ص 8

من موارد المجتمع في أيدي فئات قليلة نافذة اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا. وفوق هذا تتطلب القومية تطورًا اقتصاديًا مبنياً على الآلة وقائماً على جهود الطبقات الوسطى والعاملة، وتطورًا اجتماعيًا ناشئاً عن انتشار العلم والمعرفة، وتحرير المواطنين من المرض والعوز، ومن النزعات القبلية والطائفية والمحلية ومن الشهوات المصلحية والآفات الاجتماعية والعلل الأخلاقية³. ما الذي وجد في حالة أترك روسيا من هذه الشروط العديدة لظهور الفكرة القومية ونجاحها ؟ لم تظهر بذور الحركة القومية في الأربعة عشر مليوناً من الأتراك المسلمين الروس ولكونها ظهرت وبشكل متأخر عن الحركتين القوميتين اليهودية واللبنانية في أذربيجان وفي تتر قازان والقرم. وضمن الأذربيجانيين ظهرت طبقة بورجوازية حديثة مثلها زين العابدين تاجياف ومرتضى مختاروف وغيرهما.

أما تتر الفولغا الذين كانوا يعدون إضافة إلى تتر القرم في منتصف القرن التاسع عشر ثلاثة ملايين ويتنزلون بذلك المنزلة الثانية بعد الأوزبك فقد كانوا اقتصاديًا وثقافيًا في منزلة الصدارة مقارنة ببقية المسلمين في روسيا ويعود ذلك إلى طول الفترة (ثلاثة قرون) التي سيطر فيها الروس عليهم فلقد تمثلوا الثقافة الروسية وكان أبناؤهم في كثير من الأحيان يعرفون نسبة تعليم تفوق نسبة التعليم عند الروس أنفسهم « وظهرت طبقة تجارية في صلب المجتمع التتاريّ أفرقت كالحل على امتداد الطرق التجارية واستقرت في المدن المصرفية وتوغلت حتى الصين وأنشأت لها مصانع في قازان وأورنبورغ وسيمبرسك⁴ ». يقارن جورجون، عن حق في نظرنا، بين وضع التتر ووضع اليونانيين في السلطنة ليفسر بعد ذلك فشل التتر ونجاح اليونانيين في بناء دولة قومية :

« هذه المنزلة التي كانت للتتر تذكر بمنزلة اليونانيين في الإمبراطورية العثمانية فكما أن اليونانيين في صلب الملة الأرثوذكسية كانوا يشكلون النخبة الثقافية والاقتصادية كان التتر يشكلون النخبة الثقافية والاقتصادية في صلب مسلمي روسيا. والتتر، تماماً مثل اليونانيين، مدينون لموقعهم بصفتهم وسطاء تجاريين بين الشرق والغرب بما بلغوه من مستوى عال من التطور. وكما أن البورجوازية اليونانية أرسلت أساقفتها وتجارها في كل بلاد البلقان كذلك انتشر التجار ورجال الدين التتر بين السكان المسلمين في روسيا وفي تركستان. وفي صلب البورجوازييتين، اليونانية والتتارية نثر على الرغبة نفسها في التوسع

³ قسطنطين زريق . — نحن والتاريخ . — بيروت، 1981، ص203

⁴ جورجون . — الاصول... — ص 8

والهيمنة إلا أنه إذا كان الطموح التتاري سيصطدم بالبيروقراطية والبورجوازية الروسيّتين اللتين كانتا في أوج تطوّرها فإن اليونانيين لن يجدوا ما يعترض نهمهم غير بناء الامبراطورية العثمانية النخر»⁵.

ونحن نتبنّى بدون تحفّظ هذه المقارنة بل نعمّمها لتشمل أسباب «النهم» الصهيوني و«نهم» القومية اللبنانية وذلك للشبه التام بين الحركات القومية جميعا (القومية التركية والقومية اليونانية والقومية الأرمنية والقومية اللبنانية والصهيونية) التي حمل لواءها معبرون عن طبقة بورجوازية وسطى نشيطة يكاد ينطبق عليها وصف الشدياق للإنسان الرأسمالي الغربي الذي «يقتحم القفار ويخوض البحار في طلب الأزاذ لأنه معلوم أنه كلما كثر شره الإنسان ونهمه كثر نصبه وكده وهمّه»⁶ ذات نظرة حديثة إلى الأشياء مكنتهم من الانتصار فيما يتصل بمسألتنا على المعبرين عن مجتمع تقليديّ الآخذين بنظرة تقليدية إلى الطبيعة وإلى المجتمع أمثال إسلاميّي عبد الحميد والعروبيين الإسلاميين. هذه المنزلة الاقتصادية والثقافية الخاصة لتتار روسيا كان لا بد أن تكيّف فهمهم للإسلام إذ لا يتصوّر المرء أن تتفق نظرته إلى الإسلام مثلا مع النظرة الوهابية التي ظهرت في المجتمع النجدي الخاضع لعلاقات إنتاج تقليدية أو مع إسلاميّي عبد الحميد المدافعين عن بناء الإمبراطورية «النخر» أو مع إسلام العروبيين الإسلاميين أمثال الكواكبي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا الذين جمعتهم الدعوة الاقتصادية والسياسية والدينية إلى الحفاظ على منزلة «أهل البيوتات» أي ممثلي الطبقة التقليدية. وتسأهل حركة التجديد والتعصير التتارية أن يتوقّف عندها المرء قليلا لأنها بدت لنا رشدية الملامح شدياقية القاربة تتخذ من الحديث «تفكّروا في خلق الله ولا تفكّروا في ذات الله» نهجا معرفيا ومن الآية «إنّا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» منهجا سياسيا يبرئ كل دعوة قومية في أمم الإسلام. فالشيخ شهاب الدين المرجاني (1815 - 1889) كان عالم كلام ومؤرخا وعالم آثار في قازان كتب تاريخا لقدماء البلغار وتتار قازان ولكنه كان وهو يفعل ذلك لا يكفّ عن زيارة الآثار القديمة للمواقع موضوع الدراسة بل القيام بحفريات حتى أن يوسف أقجورا كتب عن منهجه المعرفي :

⁵ المرجع السابق، ص 8

⁶ الشدياق ... الساق على الساق، ص 97

« إنّه كان يمكن أن يبدو طبيعياً بالنسبة إلى مؤرخ أوربيّ، ولكنّه يستأهل - إذا تعلّق الأمر بعالم تتاريّ، أن يقدره المرء حقّ التقدير»⁷.

هذه النظرة إلى الأشياء التي لا تختلف في شيء عما كان سائداً في أوروبا نعثر عليها كذلك عند ممثّلين للإصلاح الإسلاميّ التتاريّ عاصراً محمد عبده وهما الشيخ البارودي (1857 - 1921) وإسماعيل باي غاسبرينسكي (1851 - 1914). وقد أسّس البارودي، وهو من تتر قازان، مدرسة «المحمّديّة» وكانت الموادّ الدينيّة والموادّ العلميّة الحديثة والمناهج تدرّس فيها على حدّ سواء.

أما إسماعيل غاسبرينسكي، وهو من تتر القرم فقد أسّس سنة 1883 جريدة «الترجمان» التي كانت تصل الآستانة عندما تفلّت من مراقبة شرطة عبد الحميد الثقافية. كانت هذه الجريدة ترى في الإسلام المقومّ الأوّل الذي يحول دون صقلية مسلمي روسيا ولذلك دعت إلى «عروة وثقى» بينهم معتمدة شعار: وحدة اللغة، وحدة الفكر، وحدة العمل. ولقد تميّز إسلام هذه الجريدة بالتقليص الشديد من دور السياسيّ و بإيلاء الاجتماعيّ (المرأة مثلاً) أهميّة كبيرة. هذه النظرة الغاسبرينسكيّة تبنّتتها مختلف المدارس التتاريّة فسمّيت بـ «المنهج الجديد» (أصول جديد) وهذه التسمية استخرج منها الأوربيون اسم «الجديديّة» (جديد يسم).

ماذا كان موقف هذا الإسلام من التنظيمات ومن سياسة عبد الحميد الإسلاميّة المعادية لها؟ إنّ أكبر مأخذ لهذا الإسلام على التنظيمات هو أنّها حاولت تعصير السلطنة من خارج الإسلام. وقد يكون لهذا النقد ما يبرّره فلقد تمكّن التتار الروس لأسباب اجتماعيّة واقتصاديّة خاصّة من تحقيق تلاؤم بين إسلامهم وروح العصر ويكفي مثال مدرسة «المحمّديّة» دليلاً على ما نقول.

وإذا كان موقف الإسلام التتاريّ من التنظيمات على ما وصفنا فإنّ موقف هذا الإسلام من سياسة عبد الحميد الإسلاميّة ممثّلة في الشيخ أبي الهدى الصياديّ يكاد لا يحتاج إلى بيان: فكل المهاجرين من أذربيجان مثل أحمد آغا أو غلو (أغاييف) (1869-1939) أو من تتر الفولقا مثل يوسف أقجورا (1876 - 1935) سوف ينضمّون إلى المعارضة داخل السلطنة وفي المهاجر. ويعتبر يوسف أقجورا، في نظرنا، أفضل معبر عن التتاريّة

⁷ يوسف أقجورا، مجلّة «معلومات» إسطنبول III/69 فيفري 1897. أورد ذلك جورجون في الأصول ص 17

الإسلامية التي يطلق عليها خصومها لفظ الطورانية ولذلك تخيرناه رمزا لهذا التيار مجايلا لمحمد كرد علي.

ولد يوسف أقجورا⁸ في عائلة تتارية في قازان تنتمي إلى البورجوازية الصناعية والتجارية الكبيرة. وقد كان أبوه حسن سليمان أوغلو يملك في سمبيرسك وضواحيها ثلاثة مصانع كبيرة للصرج والأقمشة الصوفية وكان بعض أفراد عائلة أمه. بيبي قمر بنو يملكون مصانع عديدة منها مصنع للدباغة يعالج الجلود التي تقع مبادلتها في الصين بالشاي. غير أن أباه مات سنة 1878 أثناء رحلة بين قازان و سمبيرسك على مركبة الجليد مما عرض أوضاع العائلة المالية للانخرام فهاجرت أمه صحبة ابنها إلى إسطنبول سنة 1883، أي سنة خنق أحمد مدحت باشا في سجن الطائف.

تزوجت أمه قمر من عثمان باي الداغستاني، أحد مهاجري القوقاز ولذلك عرف يوسف زمنا بيوسف الداغستاني. وقد التحق بالمدرسة الابتدائية (1883 - 1887) ثم بمختلف المدارس العسكرية مثل :

- المدرسة الابتدائية العالية العسكرية (عسكري رشدية) بين 1887 - 1892 وفيها تعلم قليلا من الفرنسية والعربية والفارسية.
- المدرسة الثانوية العسكرية (1892 - 1894) وفي هذه المدرسة مر بأزمة فكرية ونفسية حادة حرص على وصفها :

« كنت في السنة الثانية من الإعدادية عندما بدأ يضعف تعلقي العميق بالمثل الديني. عشت أزمة روحية أليمة وكنت أبحث فيما حولي عن شيء أتعلق به أو عن يد منقذة أو فكرة أو عقل يأخذ بيدي. واحسرتها، فنحن الشباب الذين كنا ندرس الكوسمغرافيا وعلم حساب المثلثات والميكانيكا ونهجي فولتير وفولني وكنا مدفوعين إلى النقد والجدال بهذه الثقة في الذات بل بهذا الاعتداد الذي تنعم علينا به فترة المراهقة، لم نجد كي يلهمنا المثل الديني غير أستاذ يلقننا الكتاب الديني، يحضر مرة كل نصف شهر إن لم يكن ذلك مرة في الشهر ويبذل جهده في كل حصة أو ما يشبه الحصة في إعادة وبيان البيت فلتكن جنديا خاضعا لعبد الحميد خان
إذ على المرء طاعته عملا بالقرآن

⁸ كتاب "الأصول" لفرانسوا جورجون هو ترجمة حديثة جدا ليوسف أقجورا . فمن الطبيعي أن نعتمله بشكل

أساسي في الترجمة لهذا الداعية التاريخي الإسلامي . انظر صص 7-34.

وذلك قَدَامَ إمام الكتيبة الذي كان يعضده. فهو لم يكن يَكْفَ عن تذكيرنا بالأحكام المتعلقة بالوضوء أملا منه، ما من شك في ذلك، في إثارة اهتمام التلاميذ وضبطهم وتغاديا لملاحظات ضابط الحراسة»⁹. من الذي يقرأ هذه الفقرات ولا يتذكر تمرّد الشدياق على وضع تعليمي متخشب سبق أن وصفناه في الفصل الثاني من القسم الأول :

« إنّ بقلبي منكم لحرازات حاكّة وبصدري عليكم ملامات صاكّة (...) لأنّ خليصي الفارياق في دولتكم السعيدة لم يمكنه أن يتعلّم في قريته غير الزبور وهو كتاب حشوه اللحن والخطأ والركاكة...»¹⁰

على أن الشدياق اشتكى من تعليم ساد في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر وستعوّضه مدارس البروتستانت واليسوعيين بتعليم أرقى منه سواء على مستوى الابتدائية أو الثانوية أو التعليم العالي. أمّا يوسف أقجورا فقد اشتكى من تعليم عثمانيّ ما زال سائدا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. إنّ ما كتبه أقجورا يمكن أن يتلخّص في ما يلي :

حيرة روحية عميقة

شمول هذه الحيرة أعدادا متزايدة من الدارسين حتى أنها نفذت إلى المدارس العسكرية وهي أقلّ تأهيلا من غيرها لتلقّي المبادئ الفلسفية العميقة. مساهمة سياسة عبد الحميد التعليمية في تعميق هذه الحيرة.

وليس بإمكان المرء أن لا يلاحظ اللون الفرنسي الذي تلونت به هذه الحيرة والمتمثّل في هذه المقابلة بين الثلاثي الفرنسي الذي لم يذكر منه أقجورا إلّا علمين هما فولتير وفولني من القرن الثامن عشر وكان بإمكانه أن يضيف إليهما أوغست كونت من القرن التاسع عشر، وبين أستاذ الدين وعضده الشيخ : طرف المقابلة الأوّل يثير في الذهن فكرة التطوّر الإنسانيّ اللامتناهي كما تأكّد في شكله المتفائل فيما كتب كوند رسيه Condorcet منذ نهايات القرن الثامن عشر وطرف المقابلة الثاني يثير في الذهن الإصلاح السلفي أو على الأكثر ما يسمّى بالإصلاح انطلاقا من الدين واعتمادا على إرادوية نفسية جماعية غير

⁹ يوسف أقجورا. — أمل (يعني المثل الأعلى) ضمن مجلّة تورك يورد و II، 16 جوان 1912، صص 488-489

حورجون ، الأصول، ص 14

¹⁰ الشدياق . — الساق على الساق.. ص 85

محددة الملامح¹¹. ويبدو أن هذه الحيرة لم تخدم في السنتين الموالتين عندما أصبح يوسف أقجورا تلميذا في مدرسة أركان الحرب (الحربية 1894 - 1896) أو بعد ذلك مباشرة (1896) تلميذا برتبة ملازم أول في مدرسة أركان الحرب (أركان حربية) ولكنها تحولت إلى تمرّد اتخذ شكلا عمليا بتشجيع من كثير من الضباط المدرّسين أنفسهم

وقع سنة 1896 إيقاف يوسف أقجورا وسجنه مدة شهر ونصف الشهر. وفي السنة الموالية، سنة 1897 وقع إيقافه وإحالاته مع عدد كبير من المتهمين تخرّج جلهم من معاهد اسطنبول العالية على المحكمة العسكرية : اتهم أقجورا بالمشاركة في مؤامرة « تركيا الفتاة » ضدّ سلامة الدولة وحكم عليه وعلى ثمانين من رفاقه بالسجن مدى الحياة. هذا الحكم بدّلته « إرادة » شاهانية بالنفي إلى ولاية نائية (...). هي طرابلس الغرب. سنة 1898 أصدر عبد الحميد عقب تصالح بينه وبين بعض الأتراك الفتیان في أوروبا عفوا شمل يوسف أقجورا الذي أخضع لإقامة جبرية في طرابلس فشغل وظائف مختلفة في هيئة الأركان هناك كما اشتغل مدرّسا (..) وقد ربط علاقات مع أوساط الأتراك الفتیان الذين كانوا نشيطين جدّا في طرابلس وخاصة بالقائد رجب باشا ومرافقه مظهر باشا زاده اللذين كانا نصيرين معلنين للنظام الدستوريّ وأسسّا في طرابلس الشعبة السابعة للجنة الاتحاد والترقيّ ولقد أسّس يوسف أقجورا هو كذلك بمشاركة صديقه أحمد فريد¹² جريدة صغيرة تنشر المقالات السياسية إلّا أن الصديقين كانا يخططان للهروب إلى فرنسا . ولقد غصّ المقيم العام الفرنسي في تونس ريني ميللي (1894 - 1900) على عهد الباي علي باشا النظر سنة 1900 عن هروب يوسف أقجورا وأحمد فريد من طرابلس إلى تونس ليتوجّها بعد ذلك إلى باريس.

¹¹ عبّر شكيب أرسلان عن هذه الارادية على النحو التالي : « إن الرقيّ الأوربيّ لم يكن مبدؤه البخار وموجات الهواء وإنّما كان مبدؤه النهوض والإرادة، ومنهما وصل بهم اجتهادهم في البحث والتفتيح إلى استخدام قوّة البخار وقوّة الزيت والاستفادة من موجّ الهواء. فأصل الرقيّ هو إرادة الرقيّ ومعدّات الصعود حاضرة لمن شاء الصعود » (شكيب أرسلان، الاستطلاعات، ص70).

¹² أحمد فريد تك (1877 — 1971) رفيق أقجورا في الإعدادية والمدرسة الحربية والمنفى الطرابلسي ومدرسة العلوم السياسية بباريس (1900-1903) أسس سنة 1912 الحزب القومي الدستوري، وبعد مقتل الصدر الأعظم محمود شوكت نفاه الاتحاديون إلى سينوب Sinope شغل منصب سفير (لندن، توكيو) على عهد مصطفى كمال وهما نلاحظ أنّنا قد اعتمدنا في الترجمة ليوسف أقجورا ولأغلب الشخصيات في هذا الفصل خاصة على جورجون في كتابه الأصول. (جورجون، الأصول ص31 ج23)

ما الغاية من هذه الهجرة ولم فضل يوسف أقجورا العاصمة الفرنسية على القاهرة التي كان كرومر فيها سندا قويا للعثمانيين الفاضليين خاصة ؟
هناك سببان. في نظرنا، لهذا الاختيار أولهما رغبته في الاتصال المباشر بالمعارضة في باريس وكانت هذه المعارضة ممثلة في أحمد رضا وعبد الله جودت والأمير صباح الدين الذي قرّ هو بدوره من السلطنة سنة 1899 صحبة أبيه الداماد محمود جلال الدين وأخيه الأمير لطف الله.

أمّا ثاني السببين فهو توقّعه إلى دراسة العلوم السياسية تكملة لثقافته. ذلك أن أقجورا على انحيازه إلى التيار الرضائي مازال يعيش حالة الحيرة التي تملّكته سنة 1896 خاصة. ولسوف تمكّنه دراسته في باريس من صياغة ملامح نهج جديد هو النهج التتاري - الإسلامي الذي يطلق عليه خصومه من العروبيين الإسلاميين خاصة اسم « الطورانية »
لقد تابع دروسا في مدرسة الدراسات العالية بالسوربون وخاصة في مدرسة العلوم السياسية الحرة التي أسسها إميل بوتمي E. Boutmy (1835-1906) سنة 1872 بعد الحرب الفرنسية البروسية لتخريج الإطارات السياسية الفرنسية الثأرية ولذلك أصبحت المسائل المتعلقة بالقومية محور الدراسات فيها. وقد يكون من المفيد أن نتعرّض ببعض التفصيل لهاتين المدرستين لأن الثانية منهما خاصة ستكون قبلة كثير من التتاريين الإسلاميين وكثير من العروبيين الإسلاميين الشبان من المنتمين إلى العربية الفتاة مثل عبد الغني العريسي الذي درس فيها بين 1912 - 1913 وظهر تأثير هذه المدرسة في كل ما كتب وفي « المفيد » على وجه الخصوص.¹³

كانت مدرسة العلوم السياسية الحرة تضمّ عددا من الأساتذة المشهورين مثل مؤسسها إميل بوتمي Emile Boutmy مدرّس علم نفس الشعوب. وقد كان أحد كبار العارفين بأنكلترا المعجبين بنمط تطوّرها البطيء وكان كثير التحفّظ إزاء الثورات العنيفة التي يعتبر نمط التطوّر الفرنسي مثالا عليها.

¹³ كانت مدرسة العلوم السياسية الحرة كذلك قبلة بعض التونسيين الفتان مثل عبد الجليل الزاوش (1873 -

1947) الإيطالي الأمّ وخريج معهد كارنو الفرنسي في تونس و الماسوني الذي كان إضافة إلى دراسة الحقوق في كلية الحقوق بمحضر بين 1897 و 1900 وكلّمًا سنحت الفرصة ما يلقى من دروس في هذه المدرسة. - Sadok Zmerli

Figures tunisiennes : les successeurs .- Tunis , 1967.-p.211.

كما ضمت البير سوريل Albert Sorel الذي يهتم بتأثير العامل القومي في التاريخ وتيوفيل فونك - برنتانو Th. Founk Brentau الذي يهتم بالعوامل الاقتصادية ويتناول المسائل التاريخية والسياسية من وجهة نظر مادية ويرى وراء الأفكار والمثل قوى مادية واقتصادية قاطعا مع النظرة التقليدية التي تركز على الجوانب الدبلوماسية والدينية.

أما مدرسة الدراسات العالية بالسوربون فكان من بين المدرسين الذين اهتم يوسف أقجورا بدروسهم دركايم Durkheim وليفي بروهل - Levy - Bruhl وإسبيناس Espinas تلميذ سبنسر ومؤسس العضوانية (أرقانيسيم) وتاردي Tardé وهومان Haumant وسينيوبوس Seignobos الذي ألف في نهاية القرن التاسع عشر بالاشتراك مع لانجلوا Langlois « المدخل إلى الدراسات التاريخية » وهو كتاب يعتبر مصحف التاريخ الوضعي وكذلك جول هاليفي Halévy مدرّس نقوش الأرخون (Orkhon) ¹⁴ الذي ربطته بيوسف أقجورا علاقة وثيقة.

لقد بلغ إعجاب يوسف أقجورا بمدرسة العلوم السياسية الحرة حدا دفعه إلى أن يكتب : « لقد كانت مدرسة نهج سان-غليوم منبعا كان بإمكان الشبان المتعطشين إلى العلوم أن يشربوا منه حتى الارتواء » ¹⁵.

ولكن هذا الإعجاب الذي قد يوحى بموقف تلقى صرف كان مردّه أساسا إلى ثراء مضامين المواد التي تدرس فيها إذ كان يوسف أقجورا في هذه السن (25 إلى 28 سنة) قد تخرّج من المدارس العثمانية العسكرية وعرف السجن والنفي ومرّ بتجربة شك دينية قاسية وأقضى وضع الأقلية المسلمة في روسيا القيصرية مضجعه ولذلك يمكن القول إن إعجاب يوسف أقجورا بما كان يدرّس في مدرسة العلوم السياسية الحرة إنما كان في جزء كبير منه نابعا من ملاءمة بعض هذه الدروس لنزعة التمييز ورفض الاندماج اللذين وسما الحركة الثقافية التتارية في روسيا وكانت كلّ الحركات النابذة تعدّهما الأساس النفسي في كلّ دعوة قومية حقيقية وترى في التاريخ الحديث والمعاصر ميّانا يتجلّيان فيه تجليا قاهرا و حتميا : « إن العامل الذي أثر أكثر من غيره على تاريخ الحضارة العالمية في القرن التاسع عشر هو

¹⁴ نقوش الأرخون (732-734)

¹⁵ أورد ذلك جورجون في الأصول، ص 20

الفكرة القومية ولا شيء بإمكانه أن يقف سداً إزاء هذه القوة الكاسحة التي وقعت، عبثاً، محاولة التصدي لها بتجنيد جيوش تعدّ مئات الآلاف من البشر»¹⁶

هذا الإيمان بأن الفكرة القومية كانت عاملاً أساسياً حاسماً في التاريخ الحديث والمعاصر كانت تعزّزه الأحداث التي كانت تجذّ كل يوم طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في كل الكيانات السياسية متعدّدة الأجناس واللغات القائمة على أساس من النظرة التقليدية إلى علاقة الدولة بالمجتمع. ففي روسيا نفسها كان التتار واليهود وغيرهم يقاومون عمليات الإدماج القيصريّة المتتالية وفي الإمبراطوريّة النمساويّة المجرية عجزت حكومات الإمبراطور فرانسوا جوزيف François - Joseph (1848 - 1916) المتتالية عن إيقاف مسار تفتّت الإمبراطوريّة. فهل يمكن للسلطنة العثمانيّة، المتخلّفة مقارنة بالإمبراطوريتين الروسيّة والنمساويّة - المجرية أن تنجح فيما فشلت هاتان الإمبراطوريتان فيه أي إخماد ثورة الإمام يحيى في اليمن وخنق الحركة الوهابيّة في نجد وإبطال مفعول المعاهدة البريطانية الكويتيّة في الخليج وإعادة متصرفيّة لبنان إلى حظيرة السلطنة والقضاء على القوميّة الأرمنيّة في الأناضول وإلجام الصرب واليونان والبلغار والألبان في بلاد البلقان ؟

كان يوسف أقجورا يرى، منذ بداية القرن العشرين، استحالة ذلك ومن هنا كانت مقاومته للإسلاميّة السياسيّة لأنها توسّع دعوتها لتشمل مناطق خارجة حتى عن السلطنة مستندة (مثال شكيب أرسلان) على الإرادة ومغفلة الظروف الموضوعية إغفالاً لا مزيد عليه ومقاومته للعثمانيّة بشقيّها لأنّها تطلب، زمن منطق القوميّة، وحدة مستحيلة.

كتب يوسف أقجورا عن الإسلاميّة والعثمانيّة مقالاً طويلاً نشرته سنة 1904 جريدة التركي « Turk » الصادرة بالقاهرة تحت عنوان « الأنظمة السياسيّة الثلاثة » فاضل فيه بين العثمانيّة والإسلاميّة من جهة والقوميّة التركيّة التي عليها أن تحذو حذو القوميّات الأخرى من جهة ثانية فحدّد العثمانيّة بالفترة التي توافقت فترة التنظيمات (1839 - 1876) داخل السلطنة وفترة التوسّع الاقتصاديّ البريطاني وهيمنة نظريّة مدرسة ما نشستر في كثير من البلدان خارج السلطنة وعرفها « بأنها السياسة التي تقوم على مبدأ وحدة القوميّات في الخلافة ضمن أمة عثمانية عبّر عن روحها محمود الثاني (1808 - 1839) الذي أثر عنه قوله : لا أودّ أن أرى فروقا دينيّة بين رعاياي إلّا عندما يدخلون المسجد أو البيعة

¹⁶ أورد ذلك جورجون في الأصول، ص 39

أو الكنيسة»¹⁷. وأقجورا يرى أن هذه السياسة استندت حظوظ نجاحها بعد أن قاومها داخلًا المسلمون المحافظون والقوميّات غير المسلمة وكذلك الإسلام بصفة عامّة وهو الدين الذي لا يقرّ، مهما اجتهد الفقهاء في توسيع مفهوم التسامح، بالمساواة بين المسلمين وغير المسلمين بالمعنى الحديث للمصطلح وعرقلتها خارجيًا القوى العظمى المحافظة ولذلك يؤكد أقجورا : « لا أرى أنه من الخطأ القول إنّ حلم تأسيس أمة عثمانية قد زال بسقوط الإمبراطورية الفرنسية زوالاً نهائياً مثلها تماماً»¹⁸ ليضيف « من العبث إجهاد النفس في محاولة خلق أمة عثمانية »¹⁹.

أما الإسلامية فيؤرخ يوسف أقجورا لهيمنتها بداية من السبعينات وقد كرّسها عبد الحميد سياسة للدولة إذ كان يرمي إلى بناء قوة الدولة على أساس من التضامن الإسلامي وهذا هو خطؤه، في نظر يوسف أقجورا الذي لا يغفل الظروف المادية التي تستند إليها الأفكار شأنه في ذلك شأن كثير من المعبرين عن القومية اليهودية، فقيام حكم عبد الحميد نفسه ليس في نهاية الأمر إلا ردّة فعل على الخراب الذي لحق السلطنة العثمانية التقليدية من جراء انفتاحها الاقتصادي على السوق الرأسمالية، وهو الانفتاح الذي كانت تسعى إليه بريطانيا من وراء الجانب السياسي والثقافي في التنظيمات. غير أن أقجورا إذا كان يرى أن لا أمل يرجى من العثمانية فهو يتوقّف عند السياسة الإسلامية التي ميّزت حكم عبد الحميد الثاني وعند القومية التركية التي يبشّر بها : ويقوده التحليل إلى أن حظوظ نجاح المذهب القوميّ أوفر بكثير من حظوظ نجاح المذهب الإسلامي على الرغم من إقراره بخمول الشعور القوميّ عند الأتراك :

« إنّ فكرة تكوين جنسية تركية مبنية على الجنس فكرة حديثة جدًا. وأنا لا أعتقد أنه قد سبق لهذه الفكرة أن وجدت سواء في الإمبراطورية العثمانية أو في أي دولة تركية ماضية (...) وفي حركتي التنظيمات و العثمانيين الفتيان لم أعر على أي دليل على وجود فكرة توحيد الأتراك»²⁰.

¹⁷ يوسف أقجورا - الأنظمة السياسية الثلاثة (1904)، الملاحق ، ص96.

¹⁸ يوسف أقجورا - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

¹⁹ يوسف أقجورا - المرجع السابق ، ص 103

²⁰ يوسف أقجورا - النظم السياسية الثلاثة (1904)، الملاحق، ص98.

و قد جرى برنارد لويس أقجورا فيما يتعلق بهذه المسألة إذ كتب « مما لا شك فيه أن السكان تسموا قديما بالترك. وما زال المرء يسمى لغتهم التركية. غير أن المجتمع الإمبراطوري العثماني لا يكاد يستعمل اللفظ الإثني « تركي » وبازدراء في غالب الأحيان ، إلا لتسمية الرحل من التركمان أو في وقت لاحق المزارعين الناطقين بالتركية. أما أن يطلق الإنسان نسبة كهذه على شريف عثماني من إسطنبول، فإن ذلك يعتبر من باب الشتيمة».²¹

إن خمول الشعور القومي عند الأتراك مقارنة بنمو الشعور القومي اللبناني واليهودي والأرمني والصربي... هو الذي يفسر الجهد الكبير الذي سبذله يوسف أقجورا من أجل إيقاظ هذا الشعور ليتمكن الأتراك من مقاومة القومية بالقومية ومن هنا كان سعيه إلى كتابة تاريخ قومي للأتراك يختلف في نظره عن نظرة الإسلاميين التاريخية التي ترى أن الإسلام هو بداية التاريخ الحقيقي وبذلك لا تكون حياة العرب وغيرهم من الشعوب المسلمة قبل الإسلام إلا « جاهلية » فلا يستأهل التكريم، انطلاقا من هذه النظرة، إلا ناشرو الدين الاسلامي وخدمته الأوائل اختلافه عن نظرة العثمانيين التقليديين الذين تعودوا أن يروا في السلاجقة حلقة وصل بين التاريخ العربي والتركي وفي مؤسسي الأسرة العثمانية الحاكمة (عثمان بن أرطغرل) مرجعهم الوسط فلا تضخيم من ناحية لدور الفاتحين العرب الأوائل ولا تضخيم من ناحية ثانية لدور أبطال من الترك. وهم إن كانوا قد رسموا لسليمان القانوني مثلا الصورة المشرقة التي رسموها له فذلك لأنهم كانوا يودون على عكس الإسلاميين والقوميين أن يجعلوا منه المرجع « القانوني » لا « الديني » في السلطنة.

هذا البناء التاريخي الإسلامي والعثماني التقليدي هو البناء الذي سعى يوسف أقجورا إلى هدمه لأنه لا يلائم حاجات دعوة قومية ناشئة تحتاج إلى رموز تاريخية خاصة بالجنس التركي فقال، وهو الذي يصر على الانتساب إلى مدرسة المسلم إسماعيل غاسبرينسكي، إلى فهم الآية « إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » بمعناها الأصلي الذي يرقى إلى ما قبل 632 أي بمعنى التقسيم القبلي المعروف لا بالمعاني اللاحقة التي لا تتلاءم وأسباب النزول. وقد قاده هذا الفهم إلى القول بخصوصية الإسلام التركي واختلافه عن بقية القراءات الإسلامية السائدة في غير البلاد التركية. إن كل ما كتبه يوسف أقجورا لا يخرج عن هذا الفهم فهو إذا كان يرفض إسلامية عبد الحميد أو إسلام الوهابيين مثلا فهو شديد التعلق بالإسلام كما طوره التتار في روسيا وهو إذا كان

²¹ برنارد لويس - الإسلام واللاتينية، ص 13-14.

يرى في الإسلام عاملا من عوامل توحيد الأمة التركيّة فهو لا يعتبره، نتيجة معاداته لكل نظام إسلامي، العامل الأوّل فكأنه أمم بذلك الإسلام أو «تركه» فإذا نحن بإزاء إسلام تتاريّ مسالم للقوميّة التركيّة قابل بتقسيمها التاريخ التركيّ تقسيما جديدا هذه فتراته الكبرى :

- العصر القديم وهو يمتدّ من الحضارات التركيّة القديمة إلى الفتح المغوليّ في القرن

الثالث عشر

- العصر الوسيط الذي شهد توحيد الشعوب التركيّة ضمن إمبراطوريّة جنكيز خان

وخلفائه

- العصر الحديث وهو عصر الدول التي نشأت من انحلال إمبراطورية جنكيز خان

- الفترة المعاصرة وهي فترة اليقظة القوميّة عند الشعوب التركيّة التي نذر نفسه

لإيقاظ حسّها القوميّ. إنّ المهمّ في هذا التقسيم لا يكمن في التساؤل عن مدى وجاهته التاريخيّة إذ أن الفكرة القوميّة متى سكنت دعائها لا تتحرّج من شيء ولن يفعل القوميّون اللبنانيون أو اليهود وغيرهم غير ما فعل أقجورا. ولكنّ المهمّ فيه هو سعيه من ناحية إلى وضع تاريخ الأتراك الإسلاميّ في موضع الحلقة الصغيرة ضمن سلسلة طويلة موعلة في القدم ومن ناحية ثانية إلى تحويل مركز الثقل التركيّ نحو آسيا هروبا من أوروبا التي كان يتّهم العثمانيين بتقليدها تقليدا طفوليا ممّا أذاهم في نهاية الأمر حتّى إلى الأخذ بنظرتها إلى التاريخ التركيّ فساهموا بذلك في محو الشخصية القوميّة التركيّة. هذا هو ما يفسّر شدة حملته على العثمانيّة في وجهيها الصباحيّ الائتلافيّ والرضاويّ الاتحاديّ أي على «عقلية القياس» التي تميّز بها الأمير صباح الدين وأحمد رضا وغيرهما وسواء تعلّق الأمر بقراءة التاريخ أو بالاجتماع أو بالاقتصاد:

«يكاد لا يوجد عندنا لسوء الحظ الشكّ العلميّ أي هذا الشرط الأساسيّ للوصول إلى

اليقين فما من نظريّة تجيء من الغرب إلا وتقابل بثقة دغمائيّة بل بإيمان أعمى (...). لقد رأينا بعد الثورة تلامذة أوغست كونت وسبنسر والمخلصين لعلم اجتماع ديمولين وفي نهاية المطاف أنصار مدرسة دوركايم الاجتماعية يعودون إلى الظهور من جديد على ما كانوا عليه من هذا الخضوع الدغائميّ القديم. إنّه لمن الغريب أن تصير نظريات علميّة إلى ما صارت إليه. إنها بذلك تفقد سمة الحقيقة فيها ولا تصبح غير عقيدة مطلقة من صنف العقيدة السياسيّة أو الدينيّة وتكتسب اكتسابا تاما شكلا دغائميّا أو دينيّا. إنّ كلّ الأفكار الواردة من

الغرب والتي تتصل بالسياسة وعلم الاجتماع تميل عندنا لسبب أو لآخر إلى أن تصطبغ بصبغة دغمائية وهذه الذهنية تبدو لي، شخصياً، عقيمة جداً»²². لا يقول أقجورا بنبذ الحضارة الغربية الحديثة ولا بالثنائية التي بنى عليها أصحاب النظرية التقليدية تفكيرهم ولكنه كان ينفر من " عقلية القياس " التي تقتل التجربة الفردية والتجربة القومّة المتميّزتين.

ولقد كان معاصرو يوسف أقجورا من العثمانيين لا يتحدثون عن التغيير إلا انطلاقاً من نمط قدوة فمنهم من يتخذ من عصر ميجي الياباني مرجعاً ومنهم من يقتدي بالنمط الفرنسي أو بالنمط الأنكلوساكسوني ولكن يوسف أقجورا كان يرى، بسبب تعدّد أنماط الحداثة، أن لا خلاص للأتراك إلا باعتماد نموذج للتغيير خاص بهم أي باعتماد ما كان يسميه " ثورة في المجتمع العثماني " الذي كان عدد الأميين فيه يتراوح بين 70 و 80 % من الرجال و 95 و 99 % من النساء على حدّ تقديره. هذه الثورة لا يجب أن تتخذ من الثورة الفرنسية قدوة ولا يجب أن تكون امتداداً للتنظيمات التي كان عثمانيو السلطنة يحنّون إلى إعادة العمل بها وبما حقّقته من مؤسسات شبيهة بمعهد غلطة سراي الفرنسي الذي تأسّس سنة 1859 ودرس فيه العثماني الاتحادي أحمد رضا، وهو شبيه بمعهد كارنو في تونس: " إننا لا نزعّم أنّه لم يكن لمعهد غلطة سراي غير آثار سلبية على التغيّرات التي طرأت على حضارتنا. ومع ذلك فنحن لا نشكّ أن أحد أسباب التخلف الذي عليه الوعي القوميّ التركي إنما هو معهد غلطة سراي الذي كان بمثابة المدينة الأجنبية التي بناها الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية²³ ففي هذا المعهد كان المدرّسون فرنسيون وكانت العطل هي يوم الأحد والأعياد النصرانية. أما لغة التدريس فكانت هي الفرنسية وكذلك كانت التربية الأساسية ... ولقد تأكّد أنه أثناء الانتفاضة البلغارية كان أنصار الاستقلال الأكثر نشاطاً من بين قدماء تلامذة معهد غلطة سراي كما تأكّد أنّ ذلك كان هو شأن بعض ضباط الإمارة البلغارية ورجال الدولة فيها"²⁴

إنّ تأثير هذا المعهد في نظرة العثمانيين إلى الأشياء كان، في نظر أقجورا، على غاية من الخطورة إذ أصبحت الآداب العثمانية مثل السجائر حكراً على فرنسا.

²² يوسف أقجورا - مقدمة دروس حرة ألّفها في أنقرة، أورد ذلك جورجون في الأصول، ص 55

²³ الكونت فالويسكي Walewski وزير نابليون الثالث للخارجية بين 1855 - 1860

²⁴ جورجون في الأصول، ص 62

إن أكبر مأخذاً ليوسف أقجورا على النمط الفرنسي الذي أخذ به أحمد رضا في السياسة هو سعي هذا النمط الدائم إلى إذابة مقوم الدين (وهو ضروريّ بالنسبة إلى تتار روسيا حتى يقاوموا عمليات التنصير) ومقوم القومية (وهو ضروريّ لتحقيق وحدة الأتراك في السلطنة بالأربعة عشر مليوناً من المسلمين الروس) ولذلك نرى يوسف أقجورا منذ وقت مبكرٍ يُبدي تحفظه إزاء هذا النمط الذي بدا في نظره متميزاً بـ " الخفة " و " الخطابية " عكس النمط الألماني الأكثر متانة وإفادة للأتراك :

" من المؤكد أنه قد تكونت أخيراً في اسطنبول حلقة علمية أكثر ممّا هي سياسية تطمح إلى تأسيس قومية تركية. وأعتقد أن ما أثر تأثيراً كبيراً في تكوين هذه الحلقة هو تطوّر العلاقات بين الألمان والعثمانيين وتعلّم الشبيبة التركية اللغة الألمانية وتدرّبها خاصة على أبحاث الألمان حول التاريخ والألسنية ذلك أننا نلاحظ عند أعضاء هذه الحلقة علماً متيناً وقع اكتسابه من دون ضجيج وبكثير من الصبر والدقة بدلاً من هذه السياسة وهذا الأدب الخفيفين والخطابين الشائعين عند محبي فرنسا²⁵

وقد قارن يوسف أقجورا بين النمطين اللاتيني والأنكلوساكسوني فيما يتعلّق بالدين ووصل به التفكير إلى أنّ الحضارة الأكثر تقدماً في أوروبا هي الحضارة الأنكلوساكسونية والجرمانية التي بقيت في الآن نفسه الحضارة الأكثر إشباعاً دينياً.

وبعد أن بيّن رفضه ضمناً لما يذهب إليه مفكرون فرنسيون مثل تين و إرنست رينان وصل إلى المفاضلة بين الحضارة الأنكلوساكسونية والحضارة الجرمانية ، وكانت سياسة بريطانيا معادية للسلطنة ميّالة إلى اقتسام آسيا الوسطى مع روسيا ، وكانت سياسة ألمانيا

²⁵ الأنظمة السياسية الثلاثة، للملاحق ص 89 ونلاحظ هنا أن صورة فرنسا عند أقجورا كثيرة الشبه بالصورة التي كوفا المفكرون الألمان عنها

أنظر : أومان . هل الشيطان ألماني؟ مائتا سنة من الأفكار المسبقة الفرنسية الألمانية. وهذه الصورة، في جزء منها، موروثه عن أزمنة القوة العثمانية إذ كان الأتراك يصنفون الأجناس عند شراء العبيد، تصنيفاً تفاضلياً وهو التصنيف التالي:

1- العبيد الشركس 2- الألبانيين 3- المنغوليين 4- القرجيين Georgiens 5- الروس والبولونيين 6- المجرين والألمان 7- السود 8- الأسبانين والملاطيين والفرنسيين والإيطاليين إذ كانوا يحتقرون اللاتينيين لأهم سكيرون ومتهتكون ومتمردون وقليلو العمل (فولني، رحلة إلى مصر وسوريا، ص 79 حاشية 6)

معادية للسياسة البريطانية ففضّل ألمانيا لأنّ لوثر، في نظره، عرف كيف يعطي لحركته الإصلاحية الدينية وجهين متلازمين: وجهاً وطنياً ووجهاً شعبياً.

لا بد للقارئ أن يلاحظ الربط، عند أقجورا، بين وجوه دعوة لوثر الثلاثة: الوجه الديني والوجه القومي والوجه الاجتماعي إذ لا يتمكّن أقجورا من أن يكون، ولو للحظة، مثاليًا، فكل فكر عنده إنما هو في علاقة وثيقة بما هو ماديّ لذلك نراه يواصل الحديث عمّا يقصد بـ "الثورة في المجتمع العثماني" وينتقل بعد أن أجاب عن السؤالين: من نحن (قراءته للتاريخ التركي) وما هو إسلامنا (تأميم الإسلام) وبعد أن بيّن مواقفه فيما يتعلّق بهاتين المسألتين من العثمانيين خاصة ومن الأنماط الغربية التي يقتدون بها، إلى طرح السؤال الثالث والأكثر تعقيداً وهو: كيف السبيل إلى بناء كيان قوميّ طورانيّ صلب؟ هل يكفي، في مثل هذا المشروع، الاكتفاء بالاستناد إلى مفاهيم الجنس واللغة والدين؟ إجابته هنا قاطعة:

"إنّ كلّ حركة أفكار لا تستند إلى موازين قوى مادية واقتصادية ليس بإمكانها

البقاء" ²⁶

إنّ طرح هذا السؤال ومضمون الإجابة عنه يعدّان، في نظرنا، على غاية من الأهمية فهما يدلّان من ناحية على الحضور الاجتماعي والاقتصادي المكثّف في تفكير أقجورا وهما يدلّان من ناحية ثانية على أنّ هذا الحضور نفسه لا يكفي لانتصار فكرة قومية معيّنة إن لم تلائمها ظروف عالمية معيّنة وهما يدلّان أخيراً على أسباب فشل المشاريع القومية الطورانية والأرمنية والعروبية الإسلامية ونجاح المشاريع القومية اللبنانية واليهودية والتركية (صيغة مصطفى كمال التي تحصر القومية التركية في مجال ضيق هو الأناضول).

لقد قصد أقجورا من عبارة "موازين قوى مادية واقتصادية" نوعين من الموازين:

موازين داخلية وأخرى خارجية. كان يعتقد اعتقاداً لا يتزعزع أنّ "أساس الدول المعاصرة هو البورجوازية فالدول الكبرى الحديثة قامت على البرجوازية الصناعية والتجارية والبنكية" ²⁷ ولهذا نراه يجهد نفسه في دراسة الحياة الاقتصادية وتحليل هذه القوى الحاملة لمفهوم التقدّم شعاره في ذلك:

²⁶ وذلك جورجون في الأصول: ص 50.

²⁷ يوسف أقجورا. — العالم التركي (مقال)، الملاحق، ص 128.

" إذا لم يكن المرء على معرفة بظروف بلد من البلدان الاقتصادية والاجتماعية فإنه يستحيل عليه أن يفهم شيئاً من تاريخه":

" إن العامل الأهم - وأقول جيداً العامل الأهم - في تطوّر مجتمع من المجتمعات التاريخي هو الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وإذا لم يكن المرء على معرفة بظروف بلد من البلدان الاقتصادية والاجتماعية فإنه يستحيل عليه أن يفهم شيئاً من تاريخه. إن الاقتصاد والمجتمع لا يمكن فصلهما عن الأحداث السياسية والعسكرية"²⁸

فمعرفة أسباب الثورة الفرنسية لا يكون، في نظره، بمعرفة كتابات عصر الأنوار وحدها وتاريخ ثورة 1908 في السلطنة لا يجب البحث عنه في كتابات المعارضة العثمانية وحدها كذلك. هذا التفكير الماديّ قاده إلى أن ينقد مثقفي الآستانة نقداً مرّاً:

" إن العامل الأكثر أهمية والذي قد يكون العامل الوحيد الذي يسمح بفهم سير المجتمعات هو العامل الاقتصادي. وهل يوجد في العالم مكان يفضل مدينة اسطنبول في قدرته على التدليل على صحة هذا الافتراض؟ ومع ذلك فمن الغريب أن الطبقة المثقفة التركية على الأقل تبدو مؤمنة بأن ما يسير المجتمعات هو الأفكار لا بل الأخلاق. إذ ليس من النادر أن يقرأ المرء في جرائد مملوءة أحداثاً اقتصادية محيرة إفتتاحيات كتبت بروح مثالية تاريخية جديدة بفتيات في سن الثامنة عشرة. فكتّابنا السياسيون الذين يتحدثون بإسهاب انطلاقاً من دروس يستمدونها من الأحداث اليومية لا يدرسون البتة سير التاريخ من وجهة نظر المادية التاريخية المبنية على أسس اقتصادية. ومع ذلك فأنا أشك في أن أفراد طبقتنا المثقفة يجهلون أهمية القضايا الاقتصادية الفائقة عندما يتعلّق الأمر بمزبذباتهم أو أنهم لا ينظمون حياتهم اليومية بما يلائم قوانين الاقتصاد"²⁹

وقد بيّن تحليله للحياة الاقتصادية في السلطنة انهيار الاقتصاد العثماني من ناحية وضعف الطبقة البرجوازية القادح من ناحية ثانية. فعدد العمال لم يكن يتجاوز في السلطنة سنة 1908 مائتي ألف عامل وذلك يعني أن ما يعدّ طبقة برجوازية إنما كان من التجّار والبنكيين وحتى هؤلاء كانوا في أغلبهم إما من الأرمن أو اليونانيين أو المسيحيين الشوام أو اليهود في حين كان أغلب المسلمين يشتغلون في الجيش أو الإدارة أو الزراعة لأن نظام الإنتاج والمبادلات التقليديّ المبنيّ على الحرف قضت عليه منافسة المواد الأوربية بداية من

²⁸ يوسف أقجورا، - ملاحظة صغيرة (مقال) للملاحق ص127.

²⁹ يوسف أقجورا، - في الثورة البرتغالية (مقال) للملاحق ص117.

التنظيمات إضافة إلى ذلك كانت الأمية ، بين المسلمين (والمسلمات خاصة) ، هي الحالة الطبيعية ، لا الشاذة. هذه النتائج التي توصل إليها أظهرت لعينيه ، الشبه الكبير بين وضع السلطنة ووضع بولونيا نهاية القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر وهو وضع أدى إلى انحلال الدولة البولونية.

" في بولونيا كانت البورجوازية تتكون من اليهود فحسب ، وفي الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر كانت البورجوازية تتكون من اليهود و اليونانيين والأرمن أي من عناصر محلية غير تركية هي بمثابة وكلاء وعملاء مخلصين للرأسمالية الغربية وكذلك من مشرقيين يستحيل تبين أصولهم وجنسيتهم"³⁰

إن العروة الوثقى لا يمكن أن تكون إلا بين الفكر القومي و " الطبقة المتوسطة التي هي طبقة قومية لأن مصالحها تفرض عليها ضرورة التقدم وتنمية الشعور القومي"³¹ هذا الاعتقاد قاد يوسف أقجورا إلى أن يرى خلاص العثمانيين في أمر واحد هو تمكنهم من خلق طبقة وسطى " صناعية وتجارية وبنكية" تحافظ على الأقل ، داخل السلطنة ، على موازين القوى بين المسلمين وبقية القوميات الأخرى :

" إذا لم يتوصل الأتراك من تلقاء أنفسهم وبلاستفادة من الرأسمالية الأوروبية إلى تكوين طبقة بورجوازية رأسمالية فإنه سيكون من الصعب على المجتمع العثماني المكون فقط من الموظفين ومن المزارعين ، أن يحافظ على بقائه في شكل دولة حديثة"³²

لم نعثر على شامي واحد ممن جالوا يوسف أقجورا فهم تفكيره ، فهما صحيحا : فقضية حياة السلطنة وتكوين دولة حديثة هما أمران أساسيان بالنسبة إليه ولكنه كان لا يرى أن هذين الأمرين يمكن أن يتحققا بالدعوة إلى فكرة " المساواة" العثمانية أو " التضامن" الإسلامية أو بالدعوة إلى دولة قومية مزدوجة الجنسية على غرار ما طالب به العروبيون الإسلاميون في فترة ما من فترات معارضتهم لأن القضية الأولى عنده هي قضية غياب " طبقة برجوازية صناعية وتجارية وبنكية" مسلمة فتكوين دولة تركية عربية تحقق العدالة في توزيع المناصب السياسية بين العرب والأتراك إنما هو أمر سياسي لا يحفظ السلطنة إن غابت القاعدة الاقتصادية لهذا البناء. ولقد كانت هذه القاعدة مفقودة فعلا. إن كثيرا من

³⁰ يوسف أقجورا. - حول السياسة الاقتصادية (مقال) الملاحق ص129.

³¹ يوسف أقجورا. - العالم التركي (مقال) الملاحق ص123.

³² يوسف أقجورا. - حول السياسة الاقتصادية (مقال) الملاحق ص129.

الشوام الذين كتبوا عن أقجورا ركزوا على عداوته للعرب وعلى طورانيته³³ في حين أن المرء لا يعثر عنده على هذا الأسلوب الأدبي الغنائي المجد للأمة أو للغة التركيتين، وما ذلك إلا لغلبة الاقتصادي والمادي بصفة عامة على تفكيره.

ما هي إذن الطبقة التي على الأتراك العثمانيين أن يستندوا إليها لبناء " الدولة الحديثة"؟ إنها الطبقة البورجوازية التتارية والأذربيجانية في روسيا المجاورة التي كانت سبّاقة إلى الوعي القومي بسبب سبق صناعي.

يلاحظ القارئ أننا إذا اعتمدنا مثل هذا التفكير (وملاحح الماركسيّة واضحة فيه بالنسبة إلى من له اطلاع ولو محدود على هذه النظرية، وقد يكون من المفيد أن نذكر بأن يوسف أقجورا و لينين قد ولدا في بلدة واحدة وأن هذه النظرية سوف يأخذ بها، وإن باجتهاد كبير سلطان غالييف زمن الثورة الروسية وبعدها)³⁴ فإنه يصبح من المستحيل الحديث مثلا عن حركة قومية عربية مبكرة وأن البحث في الأفكار القومية يجب أن يرتبط بالبحث في تاريخ ظهور طبقة بورجوازية عربية صناعية وتجارية وبنكية.

على أن إيمان يوسف أقجورا بضرورة ربط مصير أترك السلطنة بمصير بقية الأتراك الاقتصادي و من ثم القومي طرح عليه مسألة جديدة هي ما هو المذهب الاقتصادي الذي يجب تبنيه لإنجاح المشروع الوحدوي: مذهب المدرسة الليبرالية وريثة ديفيد هيوم و آدم سميث و بينتام و ستيوارت ميل التي تقوم على " نوع من النظام الكامل و الواضح و النهائي الذي ينتهي على الصعيد المذهبي إلى حرية مطلقة عامة يفسّر مفهومها ضمن

³³ كتب دروزة مثلا دعا عزيز علي المصري العربي اللامع المشهور الذي كان مندجا في جمعية الاتحاد والترقي ومعه ضباط ومدنير العرب الذين كانوا مثله مندجين في هذه الجمعية فريقا من أعضاء هذه الجمعية الأتراك إلى مغرله وتحدثوا معهم في خطأ هذه المواقف (الاستعلائية) وأكدوا لهم حسن نيات العرب وإخلاصهم للدولة، وأن ما يريدونه خدمة بلادهم وأمتهم ولغتهم أسوة بهم في نطاق الالتحام الدائم بالدولة العثمانية وذكرّوهم بعدد العرب وتاريخهم وسعة بلادهم وقيمتها المادية والمعنوية بالنسبة للدولة فسمعوا من غلاهم ومن يوسف أقجورا وأحمد أغايف ازدراء بالعرب وتنقيصا من حطورتهم ومكانتهم وإمكانياهم ونجها من سائرهم" (عزة دروزة - نشأة الحركة العربية - صيدا - بيروت 1971، ص 307) وللاحظ أن يوسف أقجورا لم يكن في يوم من الأيام " مندجا في جمعية الاتحاد والترقي"

³⁴ سلطان غالييف (1880-1940) شيوعي تاري، كان يرى أن العالم الإسلامي هو أكثر قهقوا من غيره لتقبل

ثورتين، إحداهما تقنية صناعية (الثورة الصناعية) و الثانية حقوقية الثورة الفرنسية³⁵ أي تميل " إلى حرية التبادل و حرية تداول البضائع بين الدول و تؤكد على أن لكل بلد تخصصاً بنوع من الإنتاج يبرع فيه و يبادله بنوع آخر من إنتاج بلد مختص آخر، بحيث يجد كل من البلدين المتبادلين ربحه في تقسيم العمل بهذا الشكل و في العمل على إيجاد اقتصاد عالمي متكامل... لكن سرعان ما بدا للعالم أن هذه الدعوة لا يفيد منها أحد بقدر ما تستفيد منها بريطانيا صاحبة الدعوة إليها"³⁶ أم المدرسة الاشتراكية بل الشيوعية المعادية للملكية الفردية أم مدرسة ليست Liest الألماني (1789-1846) الداعية إلى الحمائية نتيجة تأخر ألمانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر؟ :

" كانت ألمانيا في مطلع القرن التاسع عشر متأخرة عن أنكلترا و فرنسا في ميدان التصنيع تأخراً كبيراً و بقيت مجزأة مفتتة سياسياً على عدد من دول مستقلة منفصل بعضها عن بعض بحواجز جمركية لكنها -بمجموعها- كانت مفتوحة لاستقبال الإنتاج الأجنبي و حينما توقف الحصار الموضوع على أوروبا بسبب نابليون عام 1815 أغرقت أنكلترا القارة الأوربية بإنتاج كان قد تراكم لديها خلال عدد من السنين عجزت معه الصناعة الألمانية الناشئة عن المقاومة فانهارت أمامه. و عقد في فرانكفورت عام 1819 تجمع عام للصناعيين و التجار الألمان، بتحريض من فريدريك ليست، و هو أستاذ جامعي، في جامعة توبنجن و اقترحوا إلغاء العقوبات السياسية و إزالة الحواجز الجمركية التي تعوق السيولة الاقتصادية في جميع البلاد الألمانية و تأسس بتحريضه كذلك عام 1828 اتحادان جمركيان طرفاهما المتعاقدان بافيير وورتمبرغ من جهة و بروسيا و هيس من جهة أخرى و ذاب هذان الاتحادان عام 1834 بعضهما في بعض و انضمت إليهما ساكس بعد ذلك و دعوه (زولفراين Zollverein : الاتحاد الجمركي) فكان ذلك خطوة حاسمة نحو الوحدة الاقتصادية الألمانية"³⁷

يتكهن القارئ بسهولة، في تقديرنا، أن لا المذهب الأول ولا المذهب الثاني يلائمان ظروف الأتراك عثمانيين و تتارا و أذربيجانيين و قوقازيين... الذين لم يؤسسوا بعد دولتهم القومية لذلك نقد يوسف أقجورا التنظيمات لأنها أخذت، في نظره، بالمذهب الأول

³⁵ جوزيف لاجوجي. - المذاهب الاقتصادية - بيروت - باريس، ط2، 1984 - ص23

³⁶ لاجوجي. - المذاهب الاقتصادية، ص40

³⁷ المرجع السابق، صص40-41

ونصر سنة 1902 أحمد رضا على صباح الدين لأن الأمير كان من المتعلقين بمذهب مدرسة مانشستر:

« بدا يوسف أقجورا شديد النقد لسياسة التنظيمات الاقتصادية والليبرالية الاقتصادية فتطبيق نظرية مانشستر في الدولة العثمانية كان " كارثة " بالنسبة إلى تركيا والسبب الأول في إفقارها. لقد نشر هذه العقيدة في بداية الأمر اقتصاديون أرمنيون (أو هانس باشا وبرتقال باشا) لأنها، على حدّ قول أقجورا " تلائم مصالح الطائفة التي ينتمون إليها " ثمّ تبناها بعد ذلك الاقتصاديون الترك مثل جاود وممثلو تيار " المبادرة الحرة واللامركزية " المتلفون حول صباح الدين زمن الأتراك الفتیان. إن الليبراليين الأتراك الذين فهموا الليبرالية على أنها نظام علمي، مجرد وعام ومبني على قوانين طبيعية صالحة للإنسانية جميعها " لم يولوا البتّة أهمية للحاجات المحليّة ولمصالح الطبقات الاجتماعية في تركيا"³⁸ لا يمكن، إذن، بعد أن ربط أقجورا هذا الربط بين الاقتصاد والقومية، أن يخالف المفكر التتاري الإسلامي، المفكر الألمانيّ ليست فيما يذهب إليه من قول بالحمايئة التي لا يمكن التخلّي عنها إلا يوم تنمو صناعة قومية قادرة على المنافسة العالمية الحقيقية.

لقد رأينا عند البستاني تعصّباً للاقتصاد الوطني العثماني وشكوى من هيمنة الرأسمال العالمي على السلطنة ولكن يوسف أقجورا إذا كان قريباً في موقفه من الصباحيين من موقف الاتحاديين فهو يبدو يسارياً مقارنة بهؤلاء. على أن هذه اليسارية لا تصل بيوسف أقجورا إلى حدّ الدعوة إلى الصراع الطبقيّ الذي لا يوافق وضع التجزئة التركيّة والتركيب الاجتماعيّ (ضمور الطبقة العمالية وهيمنة الفلاحين) لذلك نراه يجتهد في صياغة نظرية اقتصادية بدت في نظرنا محاولة للتوفيق بين حمائيّة ليست وشعبويّة تولستوي Tolstoi (1828-1910) والشعبويّة عنده هي وليدة العبقريّة الروسية المنصفة والرحيمة.

هذه النظرية الاقتصادية رأى فيها أقجورا الترياق الشافي لأدواء الترك لأنها تمكّن البورجوازية التركيّة من تحقيق الوجه الأول من وجهي " توازن القوى المادية والاقتصادية " التي تعدّ عنده شرطاً أساسياً من شروط نجاح " كل حركة أفكار ". أما الوجه الثاني من موازين القوى فهو يتعلّق بالقوى العظمى التي قد تتدخل لإعاقة المشروع القوميّ الوحدويّ إن عارض مصالحها وهذه القوى العظمى التي لمصالحها مساس بالقضية هي روسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا. يرى أقجورا أن للقوى الثلاث الأولى مصلحة في تدمير السلطنة وأن

³⁸ المرجع السابق، صص 40-41

ألمانيا، على ما يعرف من نهما الاقتصادي الذي كانت تعبر عنه مشاريع القوميين الألمان إذاك صراحة هي القوة العظمى " الأقلّ ضررا" ولذلك كان ميله إلى ألمانيا واضحا وبذلك وقع تكامل بين إعجابه بلوثر (إصلاح ديني) وتفضيله ليست (نظرة اقتصادية) وميله إلى ألمانيا (سياسة) ولسوف يزداد تفكيره الاجتماعي عمقا إثر عودته من فرنسا إلى روسيا سنة 1905 أي سنة اندلاع الثورة الروسية.

فقد نشط سياسيا للدفاع عن حقوق الأقلية التتارية المسلمة في الإمبراطورية الروسية متعددة الأعناس واللغات والديانات مستغلا الاضطرابات الاجتماعية والسياسية (مظاهرات، انتفاضات، إضرابات...) التي أجبرت نيكيتا الثاني على إصدار " بيان أكتوبر" الذي وعد فيه ب " إقرار نظام دستوري" والسماح بانعقاد " الدوما". وقد كتب أقجورا عن الطبقة العمالية التي أجبرت القيصر على ذلك:

" لقد اكتسب الشعب قوة أخطر بكثير من قوة السلاح هي قوة العمل وإن جيش العمال اليوم، في البلدان المتحضرة لأقوى من جيش العسكريين"³⁹

لقد انجرّ عن ضعف الإمبراطورية الروسية أحداث كثيرة فالعناصر غير الروسية الأرثوذكسية رأت في ذلك، تماما كما سيكون عليه الشأن بعد ثلاث سنوات في السلطنة العثمانية المجاورة، مناسبة للمطالبة على الأقلّ بمساواتها في الحقوق المدنية بالروس ونشطت الصحافة التي تحرّرت من عقالها في هذا المجال نشاطا كبيرا ومن ضمن هذه العناصر تتار روسيا المسلمون بتوجيه من مثقفيهم أمثال إسماعيل غاسبرينسكي ويوسف أقجورا وغيرهما ولقد تدعّم هذا النشاط بانعقاد مؤتمر مسلمي روسيا الأوّل (1905) الذي دعا إليه أحد القضاة في الجمعية الروحية في (أورنبورغ) عبد الرشيد إبراهيموف وجمع مائة نائب من جميع المناطق الروسية المسلمة سواء كانت سنية أو شيعية (مثل أذربيجان) .

انعقد هذا المؤتمر في نيجني نوفغورود في أوت 1905 وكان نائبا الرئيس في هذا المؤتمر مسلمين تتاريين اثنين هما عبد الرشيد إبراهيموف ويوسف أقجورا. وقد قرّر المؤتمر تأسيس " اتحاد مسلمي روسيا" الذي اشتهر باسم " الاتفاق" وانتخب للتتاري المسلم يوسف أقجورا سكرتيرا عاما له إذ كانت البرجوازية التتارية تمثل فيه النواة الصلبة.

كانت مطالب المؤتمر في هذه الفترة قريبة من مطالب بقية الأقليات غير المسلمة في السلطنة العثمانية المسلمة المجاورة:

³⁹ يوسف أقجورا. نذر الثورة (مقال) الملاحق ص 119.

- المساواة في الحقوق بين الروس والمسلمين
- احترام الحريات الفردية
- تعصير المجتمع بإقامة حكومة دستورية
- حرية التعليم

أما المطلب الذي يتصل بالعلاقة أترك _ أترك فقد كان ضرورة تكييف الإسلام حتى يلائم الحياة العصرية و هذه النقطة الأخيرة أساسية لأننا سنرى كثيرين يتهمون يوسف أقجورا بمعاداة الإسلام و الحال أنه ليس أكثر من معبر عن إسلام تناري روسي مشبع بالشعوبية (حتى لا نقول اليسارية) يختلف عن إسلام الأمير الدرزي شكيب أرسلان و عن إسلام العروبي الاسلامي محمد رشيد رضا مثلاً بسبب تأثره بالبيئة التتارية البورجوازية و بسبب الأحداث الثورية في روسيا القيصرية.

في هذه الأثناء تأسس في روسيا حزب ليبرالي هو الحزب الدستوري الديمقراطي بقيادة (ميليوكوف) و كان يقوم على البورجوازية الروسية و قد نشط يوسف أقجورا في الدعوة إلى التحالف مع هذا الحزب إذ عد ذلك وسيلة تمكن حزب " الاتفاق " من أن يحصل في الانتخابات المزمع إجراؤها على تمثيل للمسلمين التتار في البرلمان الروسي : لقد أقنع الدستوريين الديمقراطيين بأن حزب (الاتفاق) الذي وقع الإعلان عن تأسيسه رسمياً في مؤتمر مسلمي روسيا الثاني (سان بيترسبورغ ، جانفي ، 1906) ليس حزباً قومياً تركيا انفصالياً ، ولكنه تجمع من أجل الدفاع عن حقوق التتار المسلمين الثقافية و الدينية و التعليمية و قد انتخب نتيجة الاتفاق بين الحزبين ضمن اللجنة المركزية للحزب الدستوري الديمقراطي كما أن التتار المسلمين حصلوا في البرلمان الروسي الأول على ثلاثين نائباً من ضمن 179 من النواب الدستوريين الديمقراطيين بذلك هيمن النواب الدستوريون الديمقراطيون هيمنة شبه كاملة على البرلمان مما دفع نيكيتا الثاني إلى حله في أوت 1906.

يوجد شبه بين روسيا و السلطنة العثمانية في كثير من وجوه الحياة السياسية و يكفي أن يقارن مثلاً بين تأثير رجل مثل أبي الهدى الصيادي في السلطان عبد الحميد و تأثير رجل مثل الراهب الروسي ذي الشخصية الداعرة راسبوتين 1872-1916 في نيكيتا الثاني. أما فيما يتعلق بالتجربة الديمقراطية فالشبه واضح بين ما حدث في روسيا

بين 1905 - 1906 و ما سيحدث في السلطنة العثمانية بين 1908 و 1909⁴⁰ فالتجربتان انتهتا بالفشل مما وجه الأمور في الإمبراطوريتين وجهة انتهت بسقوطهما معا.

و السؤال الملح في هذا السياق هو: هل كان التحالف بين " الاتفاق " و " الحزب الدستوري الديمقراطي " تحالفا تكتيكيا أم كان تحالفا طبقيا أي " استراتيجيا " على اعتبار أن كلا الحزبين يقومان على نواة بورجوازية ليبرالية ترى في رؤيتها الرؤية الأفضل لحل قضايا المجتمع الروسي في العقد الأول من القرن العشرين؟

هذا السؤال طرحه الباحث جورجون و أجاب عنه بالصياغة التالية: " إن الرجل (يقصد أقجورا) الذي كان قبل سنتين على الأقل، يرى في روسيا العائق الأساسي الذي يحول دون تحقيق المثل الطوراني، قد أصبح واحدا من مسيري الحزب الليبرالي الروسي الكبير. صحيح أن الأمر يتعلق أساسا بعملية "تكتيكية" فقد كان الهدف هو تمكين حزب " الاتفاق "، في ظل الحزب الدستوري الديمقراطي من انتخاب نواب مسلمين في الدوما مما يمكنهم من إبلاغ مطالبهم التي وقع التعبير عنها في مؤتمر مسلمي روسيا، للحكومة الروسية إذ كان الحزب الدستوري الديمقراطي حسب ما عبّر عنه أقجورا نفسه في " قازان مخبري " بتاريخ 27 جانفي 1906 يعد أكثر من أي حزب آخر بالعمل لمصلحة المسلمين⁴¹ إلا أن ما يجدر ذكره أن المرء يلاحظ، إذا غصّ النظر عن المطالب القومية المحض، أن برنامج الإصلاحات الذي يدعو إليه حزب "الاتفاق" قريب جدا من برامج الدستوريين الديمقراطيين فيما يتصل بشكلها المعتدل و احترامها في النشاط السياسي للطرق القانونية وكذلك في حذرهما إزاء الإصلاح الفلاحي فالبورجوازيّتان، الروسية والتتارية (المهيمنة داخل حزب "الاتفاق") كانتا تتوقان إلى الإصلاحات التي تمكنهما من أن تلعبا

⁴⁰ قد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن العرب حصلوا في انتخابات 1908 على 70 مقعدا في البرلمان العثماني (25%) و الألبان على 30 مقعدا و اليونان و البلغار على 30 مقعدا أي في الجملة 130 مقعدا لغير " الأتراك " و 143 مقعدا " للأتراك ".

⁴¹ يصعب على المرء أن لا يلاحظ الشبه، على المستوى السامي، بين الحزب الدستوري الديمقراطي في روسيا و حزب المبادرة الحرة والائتلاف في السلطنة وكذلك الشبه بين الاتجاه اللينيني و اتجاه العثمانيين الاتحاديين أما على المستوى الاجتماعي فيصعب الحديث عن وجه شبه بين اللينينية و الرضاوية.

دورا سياسيا أكبر في الدولة الروسية. فسياسة أقجورا بإمكانها، إذن، أن تبدو، في مستوى أعمق من مستوى المظهر التكتيكي سياسة تحالف طبقية⁴²

لقد ضمّ جورجون ضمّا، في حقيقة الأمر، رأيين مختلفين حول حقيقة موقف أقجورا وكان عليه في نظرنا، أن " يغامر " بتغليب واحد منهما ويمكن سبب ذلك في أنه كان ينظر إلى تفكير أقجورا، رغم تبرؤه من مثل هذه النظرة، على أنه تفكير نهائي: ونحن نرى أن أقجورا لم يكن في هذه الفترة ورغم إيمانه الذي عبّر عنه في (النظم السياسية الثلاثة) يعتقد اعتقادا نهائيا في حتمية زوال الإمبراطورية الروسية وانسئطنة العثمانية في زمن قريب : لقد كان شبيها وهو في روسيا سنتي 1905-1906 بهؤلاء الشوام الذين سيهللون سنة 1908 للثورة ضدّ عبد الحميد ليتبين شقّ منهم على الأقل بمرور الزمن أن حلّ قضايا المجتمع الشائكة لا يحصل بمجرد حدوث انقلاب أو إعلان دستور... ولسوف يقود فشل التجربة الديمقراطية في روسيا، بداية من أوت 1906، يوسف أقجورا إلى فقدان تفاؤله الأول حتى أن ترحيبه بثورة 1908 كان فاقدا للاندفاع الذي سيميز مواقف بعض الشوام واليهود والأرمن الذين لم يعرفوا ما عرف هو قبلهم بسنتين (1906) من فشل التجربة النيابية في روسيا. بعبارة أخرى كان أقجورا قبل التجربة النيابية الروسية يؤمن إيمانا نظريا بضرورة انتصار القوميات ولقد تأكد له بعد ضرب نيكيتا الثاني التجربة الديمقراطية في روسيا أن الحلول الوسطى مثل التي يدعو إليها التيار الصباحي في السلطنة لا تعدو أن تكون تكرارا للحلول التي كان يدعو إليها الحزب الدستوري الديمقراطي في روسيا بقيادة ميلوكوف.

لم يبد فشل التجربة البرلمانية في روسيا للعيان مرّة واحدة ولكنّ حزب " الاتفاق " بدأ يفتّت عقب حلّ نيكيتا الثاني البرلمان. ففي المؤتمر الثالث لمسلمي روسيا الذي انعقد بـ (نييجني نوفغورود) في أوت 1906 عقب حل البرلمان ظهرت تيارات ثلاثة تهدّد وحدة حزب " الاتفاق ":

- تيار إسماعيل غاسبرينسكي الذي كان يحرص، كما فعل دائما في جريدة "الترجمان" على حصر النضال التتاري الروسي في النطاقيين الثقافي والديني.
- تيار يوسف أقجورا الذي كان يصرّ على الطابع السياسي " للاتفاق "، وهو موقف شبيه بما سنرى من موقف هرتزل وماكس نورداو

- تيار تشاري قريب من الاشتراكيين الروس أهم ممثليه جماعة " نجمة الفجر " (وهو كذلك اسم جريدتهم تان يلدزي) التي كان يقودها أياز إسحاقى، وهو تيار شبيه بما سئرى من تيار سركين فى الحركة القومية اليهودية.

يلاحظ القارئ أننا عددنا الإشارات، ونحن نتحدث عن التتار الروس، إلى التيارات المختلفة فى الحركة القومية اليهودية التى لم نتناولها بعد بالدراسة والغاية من ذلك هى ملاحظة نقطتي التقاء بين الحركتين الصهيونية والطورانية أولاها أن كلتا الحركتين سينهض بهما ممثلون لأقليات قومية فى روسيا وثانيهما أنهما اصطبغت على الأقل فى البداية بصبغة شعبية هى من سمات الحركات القومية والثورية السلافية بصفة خاصة والبلقانية بصفة عامة إذ لا أثر لمثل هذه الشعبوية عند هرتزل أو ماكس نوروداو مثلا لأنهما لم ينشأ فى روسيا كما أن الفكرة العربية لن تتشبع بالمضمون الاجتماعى إلا فى خمسينات القرن العشرين أى فى فترة متأخرة جدًا مقارنة بالفكرتين القوميتين التركية واليهودية.

حاول الباحث جورجون تحديد موقع أقجورا ضمن التيارات المختلفة فى حزب " الاتفاق " فكتب: " كان جماعة " الفجر " يصرون على القول باستحالة تأسيس حزب سياسى واحد يخدم كل المصالح الطبقيّة وأنه إذا كان هناك رغبة فى جهاز مشترك يجمع بين كل مسلمي روسيا فمن الواجب الإبقاء على صيغة الوحدة الثقافية الأصلية أما أقجورا فكان على إقراره باختلاف وجهات النظر فى صلب حزب " الاتفاق " يرى على العكس من ذلك، أنه، لىتمكّن التتار المسلمون من فرض أنفسهم إزاء الحكومة الروسية، من الضروري إخماد الانشقاقات والاستناد إلى عوامل الوحدة بين النواب وهى القرابة العرقية والوحدة الدينية⁴³

إن أقجورا الذى يبدو يسارياً مقارنة بالعثمانيين الاتحاديين لىبدو مقارنة بجماعة " نجمة الفجر " التتارية رجلاً محافظاً.

وقد جاءت الانتخابات البرلمانية اللاحقة لتعمق الخلاف داخل حزب " الاتفاق ". ففي الانتخابات الثانية (فيفري 1907) وقع انتخاب 39 نائباً مسلماً. وقد عمد نيكيثا الثانى إلى حل البرلمان من جديد فى جوان 1907 أما فى الانتخابات الموالية فلم يقع انتخاب أكثر من سبعة نواب مسلمين نتيجة تغيير طريقة الانتخاب فكان هذا العامل إضافة

⁴³ جورجون. الأصول، ص38

إلى التضييق على الصحافة وعلى ما ذكرنا من تعدد التيارات ضمن " الاتفاق " من أسباب اندثار هذا الحزب.

وقد كتب أقجورا في هذا الموضوع مقالا في جريدة (وقت) بعنوان " حدث 3 جوان المؤسف " حلل فيه أسباب فشل حركة مسلمي روسيا فنسب هذا الفشل إلى :

- ضعف الليبراليين الروس

- ضعف العناصر داخل الإمبراطورية

في هذا المقال أيضا كتب مبديا إيمانه النهائي بحتمية انتصار القوميات بعد أن أكدت التجربة مواقفه النظرية التي عبر عنها في (الأنظمة السياسية الثلاثة، 1904) :

" إن العامل الذي أثر أكثر من غيره في تاريخ الحضارة العالمية في القرن التاسع عشر إنما هو الفكرة القومية وأنه لا شيء بإمكانه أن يقف سدا مانعا إزاء هذه القوة الغالبة التي وقعت محاولة صدها، عبثا، باستعمال جيوش تعدد مئات الآلاف من الرجال "

ولسوف يتعرض أقجورا للمطاردة بسبب هذا المقال فيتخفى ثم يهاجر إلى أوروبا فمصر ليعود إلى القرم ويشارك غاسبرنسكي في تحرير " الترجمان ". وفي القرم بلغه في جويلية 1908 خبر " الانقلاب العثماني " فسافر إلى الآستانة في أكتوبر 1908.

الفصل الخامس

نهم المدينة الناجرة

حاولنا في فصلي العروبية الإسلامية والتتارية الإسلامية أن نحدد سمات هذين التيارين النابذين فبيّنا أن ما يفرق بينهما هو أخذ التيار الأول بنظرة تقليدية وأخذ الثاني بنظرة حديثة إلى الأشياء.

أمّا القوّة النابذة التي نخصّص لها هذا الفصل فهي تقع ضمن مجال التيار العروبي الإسلامي الترابي وتعتمد مفهومي الأصل والدين في دعوتها الانفصالية نقصد بهذه القوّة النابذة القومية اللبنانية التي تندرج ضمن منطق القوميات الذي ساد في القرنين التاسع عشر والعشرين بل تعدّ في بلاد الشام أوّل حركة قومية نابذة سبقت في ظهورها حتى الحركة القومية اليهودية (الصهيونية).

ومن الصعب في نظرنا، أن يتحدّث المرء عن نشأة القومية اللبنانية من دون الرجوع خاصة إلى أحداث الحرب الستين (1860) في بلاد الشام إذ أن «التنافر فيها كان سنة 1860 على ما كان عليه في سائر ثغور البلاد. فلما وقعت حوادث تلك السنة المشؤومة ووجد القتل المسلم مطروحا في أحد الأزقة واثارت تلك الثائرة في صدور الأهالي توقّع جميع الأحرار حدوث مذبحة ترتعد لها الفرائص»¹.

إن المتحدث هو سليمان البستاني العثماني الاتحادي، سليل الشدياق الفكري الذي سبق أن كتب في «الساق على الساق» سنة 1855 أن الحروب الأهلية في الشام هي قبل كل شيء حروب سياسية حتى عندما تتخذ لها مظهرًا دينيًا «فأما ما جرى من التحزّب والتألب بين طوائف الدروز وغيرهم فإنما هي أمور سياسية لا تعلق لها بالدين»².

وإذا كان الشاهد الذي أوردها للعثماني الاتحادي سليمان البستاني يشير ضمّنًا إلى «عامل خارجي» أضرّم النار في «الهشيم» الشامي فإنّ العثماني الاتحادي، نصير بريطانيًا، ولي الدين يكن، شأنه في ذلك شأن دعاة القومية اللبنانية، يغضّ الطرف عن العامل الخارجي ممثلاً في بريطانيا المناصرة للدروز وفرنسا المناصرة للموارنة وروسيا المناصرة للأرثوذكس والولايات المتّحدة المناصرة (باحتشام) للبروتستانت في إطار تنافس هذه القوى العظمى على الشام ويحمّل المسلمين، سلطة عثمانية ورجال دين مسلمين وعامة مسلمة، كلّ المسؤولية في هذه الأحداث التي خلّقت 21.900 ضحية من المسيحيين وحدهم حسب

¹ سليمان البستاني . - عرة وذكرى، ص 162

² فارس الشدياق . - الساق على الساق، ص 37

المصادر الكاثوليكية و 11.500 ضحية حسب المصادر العثمانية³. والرقمان، على ما بينهما من تباعد، يعدّان رقمين هائلين مقارنة بعدد سكان الشام في ذلك الطور التاريخي. إنّنا نغلب، شأننا في ذلك شأن البستاني، العامل الداخلي ممثلاً في «التنافر» على ما عداه من العوامل من دون أن نهمل، مثلما يفعل ذلك ولي الدين يكن، العامل الخارجي ممثلاً في سياسة نابليون الثالث خاصة بعد أن تكونت متصرفية جبل لبنان، الفاقدة موضوعياً لأبسط شروط الحياة. وفعلاً فإن هذه المتصرفية شبه المستقلة عن السلطنة العثمانية كانت تضم بشكل أساسي جبل لبنان وكان يدخل ضمنها في الشمال مناطق البترون والكورة وزغرتا. أمّا في الجنوب فكان من ضمنها مناطق جرّين ولا يدخل ضمنها في الشرق إلا مدينة زحلة أي أنّها، بعبارة أخرى، لم تكن قابلة للحياة إذ لا متنفس لها على البحر (التجارة) كما أنّها لا تشمل البقاع (الزراعة) إن استثنينا مدينة زحلة ذلك أنّ الساحل (صيدا، بيروت، طرابلس) وكذلك البقاع بقيا تابعين لولاية دمشق. إنه ما يسمّى بالاختناق : متصرفية جبلية لا تتجاوز مساحتها 3100 كلم² يبلغ عدد سكانها 200.000 (بكثافة تبلغ 65 ساكن في الكلم²) أي أعلى نسبة في السلطنة إذا استثنينا ولايتي الآستانة العاصمة (308.000) وسيسام (217.000)

ولقد أحسّ الموارنة المعاصرون للأحداث بغرابة هذا الوضع فانقسموا شيعة ثلاثاً : شقّ عبّر عنه الماروني سليمان البستاني الذي نشط في جمعية «زهرة الآداب» المعادية لكلّ الدعوات الانفصالية، وشقّ عبّر عنه يوسف كرم⁴ في جبل لبنان واللوبي الماروني المتجمّع في باريس حول رشيد الدحداح و«برجيس باريس» وهو شقّ يدعو إلى إقامة «دولة عربية شامية» يرأسها عبد القادر الجزائري ويكون فيها يوسف كرم رئيساً على الجبل، وشقّ ثالث يمكن أن يوصف بـ«الانعزالي» لأنه يخشى الانفتاح حتى على بقية الشوام ولذلك فهو يقول بخصائص مميزة «للفنيقيين» ويدعو في الآن نفسه إلى توسيع حدود المتصرفية لتشمل البقاع (منتجة القمح) والساحل (التجارة) ويمكن اعتبار يوسف بن همام آصاف مثلاً معبراً

³ آجرون . - السياسات الاستعمارية في المغرب، ص 95

⁴ يوسف كرم (1823 - 1889) سياسي قوميّ لبناني عبّنه فؤاد باتنا سنة 1860 وكيل قائمقام أهدن، مكان ولادته ثم ساءت علاقته بالدولة فنفي إلى الآستانة سنة 1861. فرّ من العاصمة سنة 1864 وعاد إلى لبنان وتزعّم حركة انفصالية وقد غادر لبنان سنة 1867 استجابة لضغوط فرنسية واستقر بنابولي وفيها مات (الموسوعة العربية الميسرة، ج2).

عن التيار الأخير. فلنتناول إذن هذين الشقين الأخيرين بالدراسة. يبدو أن نابليون الثالث الذي اضطره الإلحاح البريطاني إلى أن يسحب جيشه من بيروت حتى قبل صدور القانون الأساسي كان شاعرا يتهاافت وضع متصرفية الجبل لذلك بحث عن طريقة تضمن هيمنة فرنسا على كل بلاد الشام من دون أن تثير حساسية المسلمين ولقد تمثّل هذا البحث فيما أطلق عليه بعض الباحثين الفرنسيين عبارة « الوهم السياسي الفرنسي ».

ما هي قصة هذا « الوهم » ومن هم أدواته المارونيون؟

في فرنسا نجد رشيد الدحداح (1813 - 1889) وهو من أسرة مارونية كسروانية أصبح من كبار تجار مرسيليا وحرّر « برجيس باريس » (1858 - 1863) يتبنّى بإيحاء من الأوساط الحاكمة الفرنسية دعوة إقامة مملكة عربية يحكمها عبد القادر الجزائري ويكون لـ « لبنان » فيها منزلة خاصة. وقد بحث الفرنسي آجرون في مسألة نسبة هذه الحركة إلى « القومية العربية » وكتب في ذلك :

« يقع حيناً تعريف "برجيس باريس" الذي كان يحرّره بالعربية ماروني هو رشيد الدحداح على أنه جريدة قومية وحيناً آخر على أنه جريدة شبه رسمية. وقد اقتنعت بعد قراءة هذه الجريدة نصف الأسبوعية التي صدر منها 179 عدداً من جوان 1859 إلى ماي 1866 أن الأمر لا يتعلّق بجريدة «قومية عربية» بقدر ما يتعلّق بوسيلة دعاية كاثوليكية موجهة قبل كل شيء إلى السوريين. فمدير الجريدة، الأب ف. بورقاد، وهو مدير أحد معاهد القديس لويس في تونس كان قد أسّس إحدى جمعيات القديس لويس « بغاية نشر الحضارة المسيحية بين المسلمين بواسطة كتابات محرّرة بالعربية أو مترجمة ». وقد انخرط فيها عدد كبير من أصحاب الرتب العالية في الكنيسة وفي الدولة الإمبراطورية سنة 1861... ولقد كان "البرجيس" ينقل إلى العربية « ما هو حريّ أكثر من غيره بإعطاء العرب والشرقيين فكرة سامية عن فرنسا ». كان ينصح السوريين بانتهاج سياسة تعصير ف « إذا تواصلت الأوضاع الراهنة على ما هي عليه، فإنّ الحكومة (العثمانية) تكون بذلك سائرة نحو الخراب، وإن البلاد (السورية) تكون بذلك سائرة نحو خراب عارض تتمكن بعده من السير في طريق الازدهار » (25 أفريل 1860). ولقد تلقت الجريدة من عبد القادر في 10 جوان جواباً جاء فيه « لقد قدّمتم نصائح جيّدة وكان يمكن لهذه النصائح أن تجد آذاناً صاغية لو كنتم تتوجّهون بالنصح إلى أحياء ولكنكم حدّثتم أمواتاً ». هذه الرسالة التي ترجمها

⁵ يعرف البعض الـ «برجيس» بـ «الصقر» (آجرون) ويعرفه آخرون بـ «المشتري» أي «جوبيتر»

« بريد الهافر » في 13 جويلية 1860 كانت منطلق حملة صحفية لصالح عبد القادر⁶ هذا المشروع الفرنسي الذي تبناه اللوبي الماروني في فرنسا وجد له صدى في الجبل عند يوسف كرم فبرز بوصفه بطلا مارونيا في حرب الستين بعد أن عينه فؤاد باشا قائمقاما على الشمال وبعد أن تمكن من تصفية طانيوس شاهين الذي اقترن اسمه بالدعوة إلى تغيير العلاقات الاجتماعية السائدة. وقد اجتهد يوسف كرم طيلة خمس عشرة سنة في أن يصبح « الحاكم الوطني » لجبل لبنان معارضا بذلك روح القانون الأساسي ومن ثم المتصرفين داود باشا وفرانكو باشا ورستم باشا يدعمه في هذا الموقف، على الأقل في بداية الأمر، البطريك بولس مسعد (1854 - 1889) الذي استفاد كثيرا من فقدان الإقطاعيين الدروز والموارنة على حد سواء دورهم السياسي التقليدي الكبير وعن ذلك تحدث ندره مطران في « سوريا الغد، باريس 1916 »:

« بفضل الدعاية الدينية أصبح كرم « بطلا أسطوريا » نسبت إليه أعمال حربية خارقة، وأشيع أن السيدة العذراء ظهرت عليه، ووضعت صورته في الكنائس وكأن الناس أصبحت على اعتقاد أنه المخلص أتى أخيرا »

هكذا يظهر أن الموارنة لم يرضوا منذ الفترة الأولى لقيام المتصرفية بالنظام الأساسي رضاء تاما لأنه إن حقق لهم مكاسب فهو أولا يحصر المتصرفية في مجال حيوي ضيق وهو ثانيا إن كان يشترط أن يكون الحاكم في الجبل مسيحيا فهو يشترط كذلك أن يكون هذا الحاكم المسيحي عثمانيا من غير مسيحيي الجبل خاصة. فحركة يوسف كرم هي إذن حركة قومية حقيقية مادتها المارونيون أولا والروم الكاثوليك القريبون منهم ثانيا. ويكفي ذلك وحده لتفسير مخاوف من بقي من الدروز في الجبل فاتجه هؤلاء وجهة حميدية (شكيب أرسلان) وكذلك مخاوف المسيحيين الأرثوذكس (ومعقلهم الكورة) وحتى مخاوف عدد من المارونيين الذين سيتجهون وجهة بريطانية نظرا إلى هذه الأسباب وإلى اعتناقهم المذهب الإنجيلي. ولقد تواصلت سياسة يوسف كرم إزاء السلطنة والمتصرفية ولكن الأمر الجديد هو تخلي الكنيسة عن مساندة كرم بل دعوته استجابة لرغبة الجمهورية الثالثة إلى الخضوع والامتثال « فالكنيسة تخلت فجأة عن يوسف كرم وكتب البطريك إليه يدعوهُ إلى الامتثال والخضوع لأوامر المتصرف. هذا الموقف المفاجئ للكنيسة يفسره إلى حد كبير موقف الحكومة الفرنسية المعارض لأي تحرّك من شأنه إضعاف صبغة « النظام السياسي » الذي يحضن

⁶ آجرون . - السياسات الاستعمارية في المغرب، ص 94، ح 1.

مصالح فرنسا في الجبل. يخاطب القنصل الفرنسي مبعوثي البطريرك في موضوع دور الكنيسة في دعم يوسف كرم : « أنتم تهتدون بالصواعق الروحية بحرمان البنات اللائي يعملن في مصانع غزلنا لأنهن لا ينفصلن بما هو كاف عن الصبيان، ثم لا تجدون ما تعملونه ضدّ فرد يسيء استعمال اسمكم ويسير بالسلاح ضدّ حكومة بلدكم (يقصد المتصرفيّة)»⁷.

هذا الموقف الفرنسي الذي تبنته الكنيسة دفع يوسف كرم إلى أن يكتب إلى عبد القادر الجزائري بشأن موضوع بتّ الأمير الذي أغرق في التصوّف فيه منذ بدايات الستينات :

« نعلم أنه (يقصد عبد القادر الجزائري) تلقى عددا من الرسائل من يوسف كرم أثناء اندلاع الحرب الروسية العثمانية. وتكشف الرسائل عن مشروع استقلاليّ عربيّ يطرحه يوسف كرم على الأمير بعد فشله في إقناع الحكومة الفرنسية بتبنيّ تسميته حاكما على جبل لبنان : « بينما حكومة روسيا منهمكة بالحرب الحاضرة، فإن حكومتي فرنسا وأنكلترا لاعتقادهما بسقوط الحكومة العثمانية القريب، قد هيّأتا الوسائل الآيلة إلى تجزئة الديار العربية إلى أقاليم تلجأ إلى حمايتها (...) إذا رأيت فخامتكم أن تعيّن على الأقاليم العربية أمراء مستقلّين يدفعون إليكم أموالا مقرّرة ويوحّدون صفوفهم تحت رايتكم ضدّ كل معتد، قبل أن تتداخل بأمورنا الدول الأجنبية فذلك كما يترأى لي هو أحسن سياسة »⁸

لنشر الآن إلى قضية هامة تتصل بدراسة وتدرّيس مادة « القومية العربية ». إن المرء ليضيع بين هذه الدراسات المتضاربة التي يؤدي بها تقليص البعد الاجتماعيّ إلى أن تؤرّخ للفكرة العربية تأريخا سمناه الأساسيتان هما : التضارب في التواريخ والتضارب في تحديد مجال الدعوة إلى « القومية العربية ». لقد تعرّضنا ليوسف كرم، تفكيراً وممارسة فهل يصحّ اعتبار دعوته « دعوة قومية عربية » ؟ إننا لا نعتقد ذلك إذ يكفي ، لتفنيد هذا المذهب، الإشارة إلى العبارة « إذ رأيت فخامتكم أن تعيّن على الأقاليم العربية أمراء مستقلّين.... » فهذه العبارة تحوي من القرائن ما يدلّ على أننا بإزاء دعوة مارونية منفتحة على الشام لا تتجاوزها حتى إلى العراق القريب.

⁷ وجيه كثراني. — الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860-1920) — بيروت، ط

2، 1978. — ص 82

⁸ المرجع السابق، ص 183

في الفترة نفسها نظم رزق الله حسّون الحلبي متشفيًا في العثمانيين بعد أن استولى
اسكندر الثاني على ممتلكاتهم في القارص والباطوم أي « بينما حكومة روسيا منهمكة
بالحرب الحاضرة » (الخفيف) :

علم الروس يخفق اليوم فوق الـ قرص وولّى الأتراك في الغابرينا
هكذا هكذا تدور على البا غي الليالي ويهلك المجرموننا
ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساو أو أنهم أنصفوننا
فهل يصحّ اعتبار موقفه من « الأتراك » تعبيرا عن « دعوة قوميّة عربيّة » ؟ وحتى إن
ذهبنا، افتراضا، هذا المذهب، فما هو مجال هذه الدعوة ؟

وإلى إبراهيم اليازجي (1847 - 1906)⁹ تنسب قصائد نظمت في هذه الفترة بالذات
يدعو في بعضها إلى انتهاء فرصة خذلان العثمانيين (البسيط).

فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا من داهم فرصة ضنّت بها الحقب
لتأسيس دولة عربيّة تتعالى عن الصراع الطائفي وتحقّق وحدة قيسية يمانيّة.
هذه الدعوة التي نشأت في وسط بروتستانتية أقلّي، إذا كانت أكثر قربا مما سيعرف
فيما بعد بـ « القوميّة العربيّة اللاتكيّة » فهي لم تكن على مستوى مدى اتساع مجالها
تتجاوز المجال القيسيّ اليمانيّ الشاميّ ومن ثمّ يصعب الربط بينها وبين الفكرة العربيّة كما
ستظهر في فترات لاحقة. فلا بدّ عندئذ من الحذر عند محاولة التأريخ للفكرة العربيّة.
على أن مشروع يوسف كرم الذي اقتضى في صيغته الأخيرة، لانتفاحه على مختلف
« الديار العربيّة » (الشاميّة)، قدرا من اللاتكيّة حرّيا بأن يذهب بهيمنة الكنيسة على
المؤمنين الموارنة أصبح يحظى عند بعض الباحثين الشوام، بسبب هذا المنحى ذاته، بمكانة
خاصّة :

« حمل يوسف كرم لواء الدولة العلمانيّة التي لا محلّ فيها لخلافة. وكان وهو
المارونيّ اللبناني، من الداعين إلى الفكرة العربيّة في أيامها الأولى. وقد قدّم في العقد السابع
من القرن (يقصد التاسع عشر) مشروعا بتأسيس دولة عربيّة مستقلّة عن السلطنة ينفصل
فيها الدين عن الدولة وتجمع الأخوة الوطنيّة بين طوائفها المختلفة. ونصّ المشروع على أن
تشتمل الدولة العتيقة القسم الآسيويّ من الوطن العربي وأن يكون نظام الحكم فيها اتحاديا

⁹ أحد أبناء ناصيف اليازجي (1800-1871) نزع إلى مصر سنة 1894 و استقلّ بإصدار مجلة «الضياء» من سنة

1898 إلى وفاته. (الموسوعة العربيّة الميسرة، ج 2)

كنفدراليًا وأن يتولّى رئاستها الأمير عبد القادر الجزائري. وقد شرح كرم مشروعه في أربع رسائل بعث بها الأمير المذكور من رومة»¹⁰ يلاحظ المرء السيولة اللفظية في هذا النص وكذلك التساهل في استعمال ألفاظ وعبارات مثل «الدولة العلمانية» عند القائلين بنشأة الفكرة العربية منذ وقت مبكر «على أن تشمل الدولة العتيدة القسم الآسيوي من الوطن العربي»... وهذه السيولة وهذا التساهل يساعدان على طمس ما يميّز دعوتي «كرم» و «اليازجي» مثلًا أي ما قامت عليه دراستنا. يفسّر أنيس صائغ أسباب فشل مشروع «الدولة العربية العتيدة» النابذة برئاسة عبد القادر الجزائري وإمارة يوسف كرم على الجبل ومن دون أي إشارة إلى تضارب مصالح الفئات الاجتماعية في الشام كالتالي :

«لم يجد المشروع اهتماما كافيا. لعلّ ما خفّف من قيمته أن صاحبه اتهم بأنّه سعى إليه بتفاهم مسبق مع فرنسة لتركيز نفوذها في المنطقة وإبعاد النفوذ البريطاني كما اتهم بأنّه يريد من مشروعه مضايقة البطريرك الماروني في لبنان وتحديد صلاحيّاته. وكان يوسف كرم صديقا لفرنسا وخصما للبطريرك»¹¹.

يوحي كلام أنيس صائغ أن «المشروع» وجد اهتماما ولكنه لم يكن «اهتماما كافيا» ولا يحدّد مراكز القوى التي وجد عندها المشروع مثل هذا «الاهتمام غير الكافي». والوقوف عند هذه النقطة يعدّ هامًا في نظرنا : فالمشروع جميعه من إحياء نابليونيّ والأوساط النابليونية تخلّت عنه منذ 1865 أي أثناء حكم نابليون الثالث نفسه وقبل هزيمة حرب السبعين وتغيّر موازين القوى في أوربا إضافة إلى أن أغلب الطوائف كانت تنظر إلى كل سعي سياسيّ مارونيّ، مهما كانت صبغته «اللائكية» نظرة الريبة والشكّ بل إن مقاومة بعض القوميّين المارونيين لأي مشروع يتضمّن ولو قدرا قليلا من الانفتاح على الشام يعدّ، في نظرنا، أفضل دليل على العوائق التي كانت تحول دون نجاح مشروع يوسف كرم ومن بين هؤلاء القوميّين المارونيين لا يسع المرء أن لا يتعرّض ليوسف آصاف (1859 - 1920)

تمثّل أحداث الستين بالنسبة إلى يوسف آصاف منرجا في تاريخ «اللبنانيين» إذ أن ما أسفرت عنه من قيام متصرفيّة لبنان فصل نهائيا بين كيّانين أثبت التاريخ، في نظره، استحالة اندماجهما : القوميّة اللبنانيّة ذات الخصائص المتميّزة بل المتفوّقة تاريخيا وحضاريا وماعداها من القوميّات الأخرى ف «حيثيّة لبنان الاستقلاليّة كانت ترتكز على

¹⁰ أنيس صائغ ، الهاشبيون والثورة العربية الكبرى. — بيروت، 1966. — ص 46

¹¹ أنيس صائغ . — المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تنظيم نيابي برلماني أيضا وقد كان المجلس اللبناني النيابي هو المجلس الوحيد المعروف من هذا النوع في كل البلاد العثمانية حتى عام 1908 أي يوم إعلان الدستور العثماني بينما كانت سوريا جارتها قبل هذا التاريخ تعامل كبقية الولايات التركية وتجهل في الوقت نفسه ماهية الحيثية السياسية الدولية¹²

إن ما مكن لـ «حيثية لبنان الاستقلالية» وجعل سوريا «تجهل في الوقت نفسه ماهية الحيثية السياسية الدولية» ليس في نظره مجموعة الظروف الموضوعية والذاتية المرتبطة بعلاقة المنطقة بتطور الأوضاع العالمية ولكن مرد ذلك إلى خصائص اللبنانيين المتمثلة في الجغرافيا والتاريخ والسمات القومية. فإذا كانت كلمة الشام غير محدّدة جغرافيا فإن لبنان ليس كذلك إذ هو لفظ عبراني يعني البياض إمّا لثلوجه وإما لثريته الكلسية البيضاء. وهو بذلك يتميز عن بقية بلاد الشام حتى لا يتحدث المرء عن تمييزه عن الجزيرة العربية: «ففي أوائل القرن السابع للمسيح ظهر خالد بن الوليد فافتتح الشام وحلب ووصل بجيوشه إلى أبواب القسطنطينية فخرج عليه اللبنانيون في سوريا وأرجعوه عن عاصمة الروم ولبثوا يقاتلونه حتى هادنهم وأقرهم على حدود جبلهم من جبل طورس شمالا إلى جبل الكرمل جنوبا»¹³.

إن حرص «اللبنانيين» على المحافظة على خصائصهم التي دفعتهم إلى محاربة خالد بن الوليد في القرن السابع هو الذي سيدفعهم إلى أن يقفوا الموقف نفسه عبر التاريخ وكما ناصر اللبنانيون الروم في القرن السابع لأنهم كانوا يرون في ارتباطهم بالغرب وسيلتهم الوحيدة في الخلاص فإن لبنان «حرر نفسه من ربة الظلم والعبودية بدماء أبنائه المسفوكة منذ عام 1249 حيث أنجد فيه لويس ملك فرنسا بالخمسة وعشرين ألف جندي»¹⁴ فلا غرابة عندئذ أن يستنجد اللبنانيون بفرنسا في القرنين التاسع عشر والعشرين دفعا لكل محاولات الإدماج سواء كانت عثمانية أو إسلامية أو عروبية إسلامية بل شامية وأن يطالب بـ «حفظ استقلالنا بمعزل عن عاصمة صلاح الدين الأيوبي»¹⁵.

¹² يوسف آصاف . — استقلال لبنان . — القاهرة، 1920 ص 68

¹³ يوسف آصاف . — استقلال لبنان، ص 75

¹⁴ يوسف آصاف، المصدر السابق، ص 23

¹⁵ يوسف آصاف، المصدر السابق، ص 53

إن استعصاء لبنان على الاندماج في العرب مردّه في نظر آصاف إلى السمات القوميّة التي تميّز بها اللبنانيون والتي تعود إلى «أوج (مجدهم) التاريخي المروي عن الفينيقيين»¹⁶ أي إلى «آبائنا الفينيقيين الذين جابوا البحار وطافوا الأصقاع وتركوا لهم أينما حلّوا أحسن ذكر»¹⁷.

يعطينا يوسف آصاف أمثلة عن منجزات الفينيقيين القدامى و « الفينيقيين الجدد»¹⁸ الحضاريّة فإذا للفينيقيين القدامى فضل على فرنسا القديمة نفسها :

« إنهم (يقصد الفينيقيين القدامى) في الجيل الخامس (يقصد القرن الخامس) وقتما اجتاحت القبائل الجرمانية بلاد جالوه - فرنسا القديمة - قصودها من آسيا الوسطى بالذهب البيزنطي والتجارة الآسيويّة. وبعد أن استقرّوا فيها زمنًا روجوا فيها التجارة والصناعة وأكثروا من الإنتاج حتّى أنهضوها من كبوتها. ولعلّ فرنسا تذكر لآبائنا هذه الحقيقة التاريخيّة فتردّ الآن لأحفادهم ذلك الجميل»¹⁹.

وإذا « للفينيقيين الجدد » فضل على مصر وبلاد الشام في القرنين التاسع عشر والعشرين « وما أعمالهم الأدبيّة والسياسيّة في نهضة مصر الأخيرة سوى برهان كاف على كفاءتهم»²⁰ ذلك « أن حالة لبنان العلميّة والأدبيّة تختلف عن حالة بقيّة البلاد الداخليّة حيث لم تنتشر المدنيّة الغربيّة الحديثة إلّا في المدن الكبرى. أمّا لبنان فقد أصبح في الشرق مرجعا لهذه المدنيّة. ورغم عن وجود المدارس العالية والعديدة في بيروت حيث تتوافد عليها الطلبة من جميع أنحاء الشرق فإنّ لبنان لا تخلو قرية فيه من مكتب (يقصد مدرسة) أو مدرسة كبرى. ويمكننا أن نقول إنّ الأكثريّة المطلقة من الذين رفعوا اسم السوري في الخارج واشتهروا في العلوم والآداب والاقتصاد هم لبنانيون وأنّ الدرجة العلميّة التي وصل إليها لبنان تجعله على حقّ صريح في استقلاله»²¹.

¹⁶ يوسف آصاف، المصدر السابق، ص 14

¹⁷ يوسف آصاف. - المصدر السابق، ص 51

¹⁸ «الفينيقيون الجدد» عبارة تقرب من عبارة «التونسيون الشبان» ويمكن أن تكون مرادفا لـ «لبنان الفتاة»

¹⁹ يوسف آصاف. - استقلال لبنان، ص 52

²⁰ يوسف آصاف. - استقلال لبنان. ت ص 71

²¹ يوسف آصاف. - المصدر السابق، ص 68-69

تبدو لنا غاية يوسف آصاف من تعداد فضائل الفينيقيين القدامى والجدد سواء على فرنسا أو على مصر والشرق الأدنى مزدوجة : فهو يطلب من فرنسا أن تساعد على قيام دولة لبنانية موسّعة يحكم فيها اللبنانيون، بحماية فرنسية، أنفسهم بأنفسهم : «إذا كان الشعب اللبناني قد طلب فرنسا لمساعدتها دون غيرها فلأنه يعتقد تمام الاعتقاد أن هذه الدولة الصديقة تحترم استقلاله المطلق تمام الاحترام بل أنها تزيده في قوّته وتوسّعه وتدافع عنه ولأنه مقتنع أيضا بأنها تحترم اللبنانيين وحكومتهم وإدارتهم التي يريد الشعب اللبناني أن تكون لبنانية بحتة وأنها لا تأتي إلى لبنان إلا كصديقة مشاورة وأنها في المدّة التي تعين لها لهذه المساعدة تحيي في اللبنانيين روح الوطنية»²²

أمّا الوجه الثاني من هذه الغاية فهو بيان التواصل بين «مجد لبنان» السابق للإسلام مرجع الإسلاميين (أرسلان الدرزي) والعروبيين الإسلاميين (محمد رشيد رضا الشريف) على حدّ سواء وللعصور الوسطى، مرجع دعاة الوحدة القيسية اليمانية البروتستانتين وقدرات الفينيقيين الجدد الكامنة في القرن العشرين ممّا يمكن آصاف من التساؤل :

«هل من العدل أن يضمّ لبنان إلى سوريا ولم يسبق أن هاتين الجارتين اتحدتا في الماضي لا في النزعات ولا في درجات الرقيّ الفكري والسياسي؟»²³

إن أسلوب يوسف آصاف الذي يعتمد القطع في قضايا لا تحتل ذلك سيثير معارضة حتى في بعض الأوساط المارونية القومية ولكننا لن نتوقّف عند هذه الملاحظة التي سبق أن تعرّضنا لها ولأسبابها الإيديولوجية لأن ما يهمّنا هنا خاصة وفي كل هذه الدراسة ليس بيان صحّة هذه الإيديولوجيا أو تلك (وكيف يمكن ذلك حتى لو شئنا ؟) بقدر ما يهمّنا بيان تفكير القوم ولذلك فعلينا أن نتساءل لم ألح يوسف آصاف في حديثه عن «الجارتين» الشاميتين على فكرة «النزعات» القريبة جدًّا من فكرة «الذهنيات» ؟ ولم كادت تغيب من تفكيره الإشارة إلى عنصر الدين، على ما كان للكنيسة المارونية من دور في دعم المشروع القومي اللبناني ؟

من أهمّ سمات الحركات القومية الحديثة أنها حتى وإن اعتبرت الدين من جملة مقوماتها فهي تؤمّم هذا الدين أي توطّنه. ومن ثمّ فهي كثيرًا ما لا تترك لرجال الدين غير

²² يوسف آصاف . - استقلال لبنان، ص 71

²³ يوسف آصاف . - المصدر السابق، ص 68

حيّز محدود ينشطون فيه وهذه السمة بالذات هي التي تجعل من الإسلامية مثلاً نظرة لا تلائم روح العصر الحديث. ويقود تقليص دور الدين الحركات القومية الحديثة عادة وعندما لا يكون لها أساس مادي صلب، إلى تضخيم دور اللغة ولقد كان ذلك شأن دعاة الوحدة القيسية اليمانية ذات النشأة البروتستانتية الشامية فهؤلاء أحلوا اللغة محلاً رفيعاً وألحوا على مساهمة العرب في القرون الوسطى في بناء الحضارة الحديثة. أما موقف يوسف آصاف فلقد كان شائكاً جداً إذا كيف يمكنه أن يقول بالفينيقية القديمة والجديدة والحال أن الفينيقيين الجدد، أنفسهم، من الناطقين بالعربية بل يعدّ بعضهم ممن أحيوا هذه اللغة وجددوا فيها تجديداً، لا نخشى الزعم أنه لم يضاهاهم فيه أحد، مشرقاً ومغرباً ؟

يضطرّ يوسف آصاف هنا إلى القول إنّه « لا يمكن للغة أن توجد الجنسية وإن خصوصية اللبنانيين في لهجتهم »²⁴:

« حاول البعض خطأ أن يدغم لبنان بسوريا بسبب وحدة اللغة رغماً عن تحدّهم عن خطّ مستقيم من أجدادهم الفينيقيين ولم يتكلّموا العربية إلاّ بسبب مجاورتهم للعرب يوم احتلّوا سوريا مدة 400 سنة. ولكنهم قد حافظوا رغماً عن ذلك على نزعة خصوصية في لهجتهم. ولا يمكن للغة أن توجد الجنسية ولنا على ذلك أمثلة في أمريكا الشمالية (التي تتكلّم الأنكليزية) ودول أمريكا الجنوبية (التي تتكلّم الإسبانية والبرتغالية) وبلجيكا بل النمسا الألمانية نفسها. وهذه حقائق لا يمكن إنكارها »²⁵ هل اختار « الفينيقيون » اللغة العربية اختياراً أم فرضتها ظروف الحياة عليهم ؟ يقول آصاف إن ظروف الحياة فرضت اللغة العربية تماماً كما فرضت الفرنسية عليهم في العصور الحديثة :

« إن آباءنا سعوا دائماً وراء كل مكربة للاستفادة منها وإنهم في أواخر الجيل الثاني وفي الجيل الثالث (يقصد القرن) لظهور الإسلام وعلى عهد الخلفاء العباسيين قد استفادوا من فنون وعلوم العرب حيث استدعت مرافق الحياة لدى الفريقين كثرة المعاملات ووجب التفاهم فقضي علينا أن نتكلّم بلغة الأكثرية وهي اللسان العربيّ الفصيح (...) ولما كان حبّ التطلّع متأصلاً في آبائنا الفينيقيين وكانت مراكبهم تمخر في الدجلة والفرات وخليج العجم قد وقفوا على حقيقة معارف العرب ومدنيّتهم فتعشقوها واقتبسوا أكثرها ثم تركوها لأحفادهم

²⁴ الخصومة حول منزلة اللغة في تكوين الأمة الحديثة أصبحت مع الحصري في ثلاثينات القرن العشرين الخصومة

الرئيسية وهذا مظهر جديد من مظاهر ابتلاع التنافس الاجتماعي

²⁵ يوسف آصاف . — استقلال لبنان . ص 67

جيلا بعد جيل حتى اليوم. ولما دالت دولة العباسيين ورسبت مدنيّة العرب (...) استعضنا عنها بالمدنيّة اللاتينيّة وألفنا النظر إلى فرنسا أرقى دولها و انصبنا إلى تعلّم لغتها واقتباس آدابها إلى يومنا الحاضر. وعلى هذه الدولة علّقنا نوال أمانينا من وحدة القوميّة والمساعدة الجديّة في رقيّنا وإسعاد وطننا. فلا لساننا العربيّ يدلّ على أعرابيتنا ولا لساننا الفرنساويّ يغيّر شيئا من أصلنا الفينيقيّ فما نحن إذن بعرب ولا بفرنساويين وإنما تحلّينا بآدابهم وعلومهم»²⁶

عندما اعتبر يوسف آصاف اللغتين العربيّة والفرنسيّة مجردّ وسيلتين تحسن « الاستفادة منهما » كان في حقيقة الأمر يفتح الباب واسعا أمام الدعوة إلى اللهجة اللبنانيّة التي سيتزعمها في الثلاثينات الأب مارون غصن والشاعر سعيد عقل. إنّ اعتبار العربيّة والفرنسيّة مجردّ أداتي تواصل يقود ضرورة إلى تفضيل أكثرهما استجابة لروح العصر لذلك نراه يطلب من أعضاء مجلس إدارة لبنان :

« يلزم للحكومة لغة رسميّة مع اللغة العربيّة يجب تعليمها إجباريا كاللغة الفرنسيّة. وهذه اللغة يجب تعميم تعليمها حتى أكثر من اللغة العربيّة لأن حياتنا قائمة بهذه الدولة على شروط وقيود مخصوصة »²⁷. وبقدر ما حرص يوسف آصاف على تجريد اللغة العربيّة من هالتها حرص كذلك على تقليص دور الدين فإذا كان لهذا من دور في نظره فهو المساعدة فحسب على تحقيق الآمال القوميّة :

« يجب على أبناء لبنان أن يتّحدوا وينادوا بأمانيتهم ويجب على رجال الدين أصحاب النفوذ العظيم أن يساعدوهم على تحقيق أمالهم القوميّة »²⁸

إن المنزلة التي نزل فيها آصاف الدين - على أهميّتها - تفسّر بأنه لا يمكنه من ناحية أن يتغنّى بـ « المجد الفينيقيّ » السابق لظهور المسيحيّة في القرن الأوّل المسيحي والمارونيّة في القرن الخامس الميلادي على يدي مار مارون وأن يحلّ هذا الدين وهذا المذهب المحلّ الأسنى. كما تفسّر كذلك بضعف عدد المارونيين وتواجد طوائف أخرى حتّى في الجيل ومن ثمّ اضطرار المارونيين إلى التحالف مع طوائف أخرى قريبة منهم مثل الطائفة الروميّة الكاثوليكيّة التي كان أتباعها حتى القرن الثامن عشر روما لورثوذوكسا وتحولوا. منذ

²⁶ يوسف آصاف . استقلال لبنان . ص 53

²⁷ يوسف آصاف . — استقلال لبنان . ص 4

²⁸ يوسف آصاف . — استقلال لبنان . ص 48

هذه الفترة إلى روم كاثوليك. وهناك سبب ثالث لهذا التنزيل، في نظرنا، وهو يتمثل في الحضور المكثف لعنصري الأرض والاقتصاد في التفكير القومي اللبناني الكلاسيكي وشكوى لا تنقطع من ضيق المجال الحيوي في متصرفية 1861 وهو ضيق رده آصاف إلى حيف سلب الفينيقيين أراضي كانت في حوزتهم منذ عهد «المملكة الفينيقيّة القديمة» وتبلغ مساحتها، حسب تقديره، 90.000 كم² «إن لبنان إذا طلب إعادة حدوده فإنما يطلب حقاً أقره له التاريخ وخارطة أركان حرب الحملة الفرنسية عام 1860. أما هذه الحدود فهي كما يأتي: من الغرب البحر المتوسط ومن الشمال النهر الكبير ومن الشمال الشرقي خط يمتد من النهر الكبير ويعطف على سهل البقعة والضفة الشرقيّة من بحيرة حمص. ومن الشرق قمم الجبل الشرقي (أنتي لبنان) وجبل الشيخ (حرمون) ومن الجنوب الشرقي يمتد من آخر قمم حرمون ويعكف على بحيرة الحولة. ومن الجنوب خط يمتد من الجبال الواقعة شرقيّ بحيرة الحولة ويعطف على البحيرة نفسها حتى ينتهي في الغرب برأس الناقورة. وقد كانت هذه الخطوط حدوداً للمملكة الفينيقيّة القديمة حسبما ذكر التاريخ وكانت أيضاً حتى عام 1840²⁹ داخلية في الأراضي اللبنانيّة فإرجاع هذه الأراضي إلى لبنان يعدّ من الأركان الحيويّة للجبل ويضمن حياة ساكنيه (...) (ف) إنّه لاغنى لنا (...) عن السهول المغتصبة منّا كسهول عكار والبقاع وبعلبك كما أن صيدا وصور وبيروت وطرابلس هي المرافق الاقتصادية الطبيعيّة للبنان. وفوق ذلك فإن الأكثرية المطلقة من سكان هذه البلاد المسلوخة عن لبنان تطلب بإلحاح إعادة ضمّها إلى الجبل»³⁰ يستأهل الشاهد الذي أوردنا ليوصف آصاف أن نعلّق على فكرتين وردتا فيه ويمكن أن تغنيانا عن التكرار عندما سنتعرّض في الفصل السادس من هذا القسم للحركة القوميّة اليهوديّة (الصهيونيّة) أولاً وإمكانية الاستناد إلى التاريخ القديم الذي يحكمه منطق أحداث خاصة لتبرير مطالب راهنة هي نتاج حضارة رأسماليّة حديثة لها كذلك منطقها الخاص وثانيتها الزعم أن «الأكثرية المطلقة من سكان هذه البلاد المسلوخة عن لبنان تطلب بإلحاح إعادة ضمّها إلى الجبل».

إن الاستناد إلى التاريخ القديم لتبرير المطالبة بقيام دول جديدة أو تغيير حدود دول قائمة يفتح الطريق في السلطنة العثمانية التي تهمّنا دون غيرها أمام التساؤل عن شرعية وجود الدولة العثمانية نفسها في الشرق الأدنى وفي البلقان إذ هي دولة حديثة جداً مقارنة

²⁹ تاريخ عزل بريطانيا والسلطنة بشير الشهابي، القرشي المتمردون من الحكم ونفيه نتيجة تحالفه مع محمد علي

³⁰ يوسف آصاف، استقلال لبنان، صص 69-70

بدول زالت مثل دول الصرب والبلغار والأرمن واليهود... ممّا يقود يوسف آصاف، منطقياً، إلى تبرير الحركة القومية اليهودية مثلاً فيلحق الضيم، نتيجة هذا المنطق، بـ « الفلسطينيين »:

« نحن اللبنانيين نتمنى لليهود موطناً مستقلاً ولكننا لا نرضى بأن يغتصبوا من أرضنا مثقال ذرة وليكتفوا باسترداد أرض كنعان وليعلموا بأننا - نحن بني سام - قد اتخذنا عريناً لنا جبل لبنان وأن دخولهم إلى أرض الميعاد معروف تاريخياً والحدّ الفاصل بين اليهودية ولبنان إنما هو جبل الكرمل كما هو ثابت من كتابهم التوراة »³¹.

ونحن لن نتوقّف عند هذا الموضوع، على أهميته، أكثر ممّا فعلنا. وعلى العكس من ذلك نوّد أن نتوسّع أكثر في مناقشة فكرة « أن الأكثرية المطلقة من سكان هذه البلاد المسلوخة عن لبنان تطلب بإلحاح ضمّها إلى الجبل » فما نصيب هذه الفكرة من الصحة ؟

علينا أن نستعين هنا بما ورد في الفصل الأوّل من القسم الأوّل من هذا الكتاب وهو الفصل المتعلّق بالتنوع الجنسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والطائفي في هذه المناطق : إن المناطق التي يطالب آصاف بـ ضمّها إلى الجبل ناسباً رغبته إلى أكثرية سكّانها المطلقة إنما هي مناطق يسكنها المسلمون والمسيحيون ويسكنها ضمن الآخذين بالإسلام السنة والشيعية وضمن الآخذين بالمسيحية أتباع رومة وأتباع الكنيسة الشرقية وضمن هذه التقسيمات الكبيرة يمكن أن نعثر مثلاً ضمن الشيعة على الدروز والنصيريين والإسماعيليين والمتاولة فهل يمكن لعادل مهما كان مدى إطلاعه على حقيقة الطائفية في الشام أن يتصوّر إمكانية إجماع كلّ من ذكرنا على الانضمام إلى الجبل ؟ أي على أن يكونوا محكومين بالمارونيين والروم الكاثوليك، محميي فرنسا ؟ وحتى لو افترضنا ذلك فكيف يمكن لأغلب هؤلاء وهم من أصول عربية إمّا قيسية أو يمانية (مثل النصيريين والدروز بل مثل الأورثوذكس وأحياناً الروم الكاثوليك : مثال خليل مطران) أن يقبلوا بقومية لبنانية انعزالية ومحاربة « للجارّة سوريا » ؟ إن مفكراً عروبياً إسلامياً طرابلسياً مثل محمد رشيد رضا وصل به الأمر وهو يتصوّر طرابلس تضمّ إلى لبنان الذي يديره الموارنة والروم الكاثوليك إلى أن يتحدث عن « أولئك المتعصّبين من أوباش اللبنانيين الذين يعتقدون أنّ فرنسا حكمتهم في أشرف المسلمين وعلمائهم - بله عامتهم - تقرباً إلى يسوع المسيح والرسل والقديسين »³².

³¹ يوسف آصاف . استقلال لبنان - ص 77

³² محمد رشيد رضا . الرحلات، ص 268

وحتى المطران الأرثوذكسي غريغوريوس حدّاد³³ كان يعارض « فينيقية » القوميين اللبنانيين التي كانت تتغنّى بـ « الشعب الباسل حفيد آل معن الذي وقف منذ القدم كالطود الراسخ في وجه العرب والأتراك وقتما حاولوا إذلاله وفتح بلاده وساعد ملوك الروم على قهر معاوية وردّه عن غزو القسطنطينية وحالف الصليبيين في حملتهم على الدولة الفاطمية صونا لاستقلاله »³⁴ ويحرص أشد الحرص على التأكيد « نحن النصارى الأرثوذكس في هذا البلد عرب غساسنة تدعونا عربوتنا لنكون يدا واحدة مع أبناء قومنا »³⁵ بل يعثر المرء ضمن المارونيين على عدد من المفكرين ضاقوا بانعزالية يوسف آصاف التي وصلت حدّ المطالبة بـ « حفظ استقلالنا بمعزل عن عاصمة صلاح الدين الأيوبي » فهذا نعيم مكرزل (1867-1932) القومي اللبناني يرى « أن يعقد اتفاق اقتصادي بين اللبنانيين وجيرانهم »³⁶ و « أن يكون اللسان العربي لغة البلاد الرسمية »³⁷ وهذا بولص نجيم (1880 - باريس 1931) يدعو إلى قيام لبنان ضمن إطار قوميّ سوريّ على أن يكون له وضع خاصّ في هذا الإطار.

وقد ولد بولص نجيم في جونية بكسروان في أسرة مطارنة مارونيين ودرس في عينطورة وكان أبوه عميد أطباء جبل لبنان وقد حصل على دكتوراه في القانون، فهو، إذن، مثل المحامي يوسف آصاف، ينتمي إلى الطبقة الوسطى المهنية. نشر بولص نجيم سنة 1908 في باريس كتابا تحت اسم مستعار (جوبلين M. Jouplain) يتعلّق بالمسألة اللبنانية هذا عنوانه : « المسألة اللبنانية. دراسة في التاريخ الدبلوماسي والقانون الدولي » دعا فيه إلى إنشاء لبنان توافق حدوده حدود « فترة الازدهار » وأعاد صياغة التسمية عندما أعلن عن هويّته الحقيقية في « المجلة الفينيقية » سنة 1919 فإذا هذه الصياغة الجديدة هي « لبنان الكبير ». في سنة 1908 كان بولص نجيم يقول بقيام لبنان ضمن إطار قوميّ شاميّ «لي أن يكون للبنان في هذا الإطار دور شبيه بدور « البيمونت » في إيطاليا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ذلك أنّ اللبنانيين هم، في نظره، أنشط سكّان الشام وأكثرهم ذكاء إذ

³³ سبق أن ارتقى المطران الارثوذكسي ملاتيوس دوماني السدة البطريرقية بانتخاب المجمع المقدس المنعقد في دمشق

سنة 1900 خلفا للبطريرك اليوناني فمّثل ذلك حدثا اجتهد ساطع الحصري في إبراز مدلولاته السياسية.

³⁴ يوسف آصاف. استقلال لبنان، ص 63

³⁵ ورد ذلك ضمن تصريح البطريرك حدّاد سنة 1920 للمبعوث الأمريكي كرين (1858-1938) أحد عضوي لجنة

كينج — كرين لتقصّي الحقائق واستطلاع رغبات الشوام السياسية

³⁶ يوسف آصاف . — استقلال لبنان، ص 74

³⁷ يوسف آصاف . — استقلال لبنان، ص 72

هم « وحدهم القادرون على أن يلعبوا في هذه المناطق ذات المجد القديم الدور الذي لعبته مقاطعة ببيمونت الإيطالية في إيطاليا، اللبنانيون هم ببيمنتيو سورية فلتتركهم الدول يلعبوا ذلك الدور في سوريا »³⁸ ولتحقيق الغرض الذي تصوّره فإن الأمر يتطلب، في نظره، إعادة تكوين لبنان الطبيعي باسترداد طرابلس وعكا والبقاع ومرجعيون وصيدا وبالطبع بيروت وكذلك تحديد الأملاك الموقوفة على الفرق الإكليزيكية والأديرة والتي لا تعود ملكيتها لها شخصياً خدمة للمصلحة العامة. فالأمران معا، تكوين لبنان الكبير وتحديد أملاك الكنيسة حريان بإيقاف الهجرة والحد من تضخم الشتات اللبناني، ذي الأساس الماروني والرومي الكاثوليكي، في العالم.

على أن الحركة القومية اللبنانية، ان تراوحت بين انعرالية يوسف آصاف المشطة و « انفتاح » بولص نجيم على الشام بشروط، فهي لم تعدم كذلك أمثلة على قوميين لبنانيين خرجوا صراحة في طور متقدم من حياتهم، عن الخط القومي اللبناني، مثل اسكندر عمون (1857-1920) الذي اختار عند قيام الدولة الفيصلية الانضمام إليها فسبب بذلك حرجا كبيرا للقومية اللبنانية استحق لعنة يوسف آصاف. هل يمكن للمرء أن ينهي هذا الفصل من دون أن يتعرض لنجيب العازوري ويحاول تحديد موقفه من القومية اللبنانية ومن ثم من العروبية الإسلامية ؟ ذاك أمر يصعب في نظرنا لكثرة ما كتب عن هذا الماروني الماسوني والمعادي في الآن نفسه للقومية اليهودية. ولد نجيب العازوري في قرية عازور جنوب الجبل سنة 1870 ومات في مصر سنة 1916 وقد درس في الآستانة وفي مدرسة الدراسات العليا في باريس. وعندما قرر العودة إلى موطنه، كان عليه أن يستمطر عطف الأخوين اللبنانيين ملحمة المقربين من عبد الحميد والبطريرك إلياس الحويك فعيّن مساعدا لمتصرف بيت المقدس بين 1898 و 1904 أي في هذه الفترة التي شهدت ثلاثة أحداث هامة ستنعّض

³⁸ مثل الببيمونت الإيطالي مرجعا سياسيا لكثير من الشوام المسيحيين والمسلمين. وقد تحسن المقارنة هنا بين موقف

بولص نجيم وموقف المسيحي اللبناني أسعد داغر. فهذا العربي الفتى ابتهج لقيام الدولة الفيصلية في دمشق فاعتبر هذه المدينة «مكة العرب» فلما فشلت التجربة الفيصلية وجه ناظره نحو شرق الأردن واعتبره «أناضول» العرب تأثرا بتحربة مصطفى كمال في تركيا. فلما يس من الامر عبد الله وجه ناظره نحو بغداد واعتبرها «ببيمونت العرب» وهذه المرة أيضا خاب ظنه إذ «أدركا أنهم (يقصد العراقيين من "العهد" خاصة) في شغل شاغل عتّا بالخاله التي يعالجونها في العراق فلم نشأ (يقصد جماعة " العربية الفتاة" خاصة) أن نحاول توجيه أنظارهم إلى سورية وغيرها لكيلا تتشتت جهودهم فيضعف بذلك جهادهم في سبيل الاستقلال وانفردنا نحن بالعمل من أجل سورية وفلسطين (داغر.

مذكراتي، ص 155).

بتفصيل أكثر للبعض منها عندما نتناول القومية اليهودية بالدراسة وهي : سعي تيودور هرتزل المحموم للحصول ، إمّا من عبد الحميد أو من بريطانيا ، على « وعد » لليهود وثانيهما تمكّن الصهاينة من شراء مساحة كبيرة من الأراضي في فلسطين وثالثها : تحذير البابا ليون الثالث عشر السلطان عبد الحميد ، خطيّا ، من القومية اليهودية.

هذه الأحداث الثلاثة لاقت صدى في نفس نجيب العازوري ، خاصّة أنّه كان يشتغل في متصرفيّة القدس فوقف من الصهيونية بل من اليهود موقفا شبيها بموقف غوستاف لوبون منهم منذ ثمانينات القرن التاسع عشر. وفعلّا فإننا نعثر في « يقظة الأمة العربية » على كثير ممّا رأيناه (وممّا لم نره) عند تحليل « حضارة العرب » ممّا يدفعنا إلى ترجيح فكرة تأثر العازوري بهذا الطبيب « اليعيني » الفرنسي تأثرا كبيرا.

نعثر قبل كلّ شيء على نظرة شاملة إلى السياسة الدولية أساسها « المركزية الأوروبية الغربية » ومن ثمّ على موقف واضح من مختلف القوى العظمى لهذه الفترة ومن سياستها إزاء البلدان الضعيفة : فهناك من ناحية القوى الرأسمالية الخيرة ممثلة في فرنسا وبريطانيا وهناك القوى العظمى الشريرة ممثلة في روسيا خاصّة ولا واحدة من هاتين القوتين الغربيتين الخيرتين أتت في البلدان التي استعمرتها أو تطمح إلى استعمارها أمرا إذا إذ « الأمة الفرنسية هي في جوهرها ³⁹ أمة نبيلة وقد تولّت فرنسا الحروب الصليبية وهي حملات خطيرة ، فعادت نتائجها بالخير على العالم بأسره » ⁴⁰ وحتى عندما احتلت فرنسا الجزائر فإن هذا الاحتلال لم يكن لغرض استعماري إذ فتحته لا لبناء مستعمرة منتجة بقدر ما هو لتخليص المتوسط من قرصنة البرابرة التي فتكت بالتجارة الدولية ⁴¹

لقد عثرنا عند عدد من الكتاب الفرنسيين على تنديد إن كثير أو قليل ، بالاستعمار الفرنسي ولكننا لم نعثر عند العازوري أو عند ارنست رينان وغوستاف لوبون على موقف مشابه ولو كان بإمكان الشدياق أن يعلّق ، في قبره ، على آراء نجيب العازوري ، لا بتسم على

³⁹ يعادي نجيب العازوري الجمهورية الثالثة والاشتراكيين على حدّ سواء فهو قريب فكريّا ممّا يسمّى في افرنجستان

باقصى اليمين.

⁴⁰ مروان بحيري . — الحياة الفكرية في المشرق العربي 1890-1939 ، إعداد مروان بحيري وآخرين منهم ستيفن وايلد

صاحب مقال "نجيب عازوري وكتابه يقظة الأمة العربية" . — بيروت ، 1983 ، ص 101

⁴¹ المرجع السابق ، ص 101

الأقل، فيما نرجّح. فما هو «الكوناتوس» الاستعماريّ الأقوى يبتلع «كوناتوسا» أضعف منه بدافع... الخير.

وإذا كان نجيب العازوريّ يخصّ فرنسا بمدحيته فهو لا يغفل حليفته بريطانيا، بعد عقد القوتين العظميين الاتفاق الودّي بداية القرن العشرين، لدور بريطانيا في كبح جماح «الدبّ الروسي» :

« لا يلومنّ أحد انجلترا لاحتلالها قبرص، لأن هذه القاعدة تتيح للبحريّة البريطانية الدفاع عن الدردنيل وخليج الاسكندريّة ووادي الفرات (هذه المفاتيح الثلاثة إلى آسيا الوسطى) ضدّ اندفاع روسيٍّ »⁴².

بعد أن حدّد نجيب العازوري دور أوروبا الغربيّة الانقاديّ، اجتهد، مثلما فعل قبله الطبيب غوستاف لوبون في تشريح الأمم التي عليها أن تعوّل على كلّ من فرنسا وبريطانيا لخلاصها فصورها تصويراً قريباً من تصوير غوستاف لوبون لها وابتدأ، مثله تماماً، بسكان شمال إفريقيا ومصر فنفي عنهم صفة العروبة :

« المصريّون لا ينتمون إلى نفس العنصر العربيّ، من فصيلة البربر الافريقيين واللغة التي كانوا يتكلّمونها قبل الإسلام لا شبه لها بالعربيّة »⁴³.

وتعرّض للمصريين بالخصوص، وكان بعض مفكّري هؤلاء لا يكفّون عن التغني بفرعونيتهم منذ أن حلّ الفرنسي شامبوليون Champollion رموز الكتابة الهيروغليفية فكتب عنهم :

« المصريون غير قادرين على حكم أنفسهم »⁴⁴ فلم يختلف، في هذا الحكم، لا عن كرومر الأنكليزي ولا عن محمّي كرومر، البروتستانتّي فارس نمر.

ما الغاية غير المعلنة من كتاب العازوري ؟ إنها لا يمكن أن تكون الحفاظ على وحدة السلطنة بعد أن اعتبر الخير المحض مجسّداً في بريطانيا وفرنسا اللتين تسعيان إلى اقتسامها؟ هذه الدعوة إلى اقتسامها وردت في شكل مضمّر إذ حملت صفحة غلاف « يقطعة الأمة العربيّة » شعار « بلاد العرب للعرب، كردستان للأكراد، أرمينيا للأرمن، بلاد الترك

⁴² المرجع السابق، ص 84

⁴³ المرجع السابق، ص 112

⁴⁴ المرجع السابق، ص 89

للتترك، ألبانيا للألبانيين وجزر الأرخبيل لليونان ومقدونيا مقسمة بين اليونانيين والصرب والبلغار»

فلا واحد من هذه الكيانات السياسية لا يقع في منطقة هيمنة إحدى القوى العظمى إذاك ومنها الكيان العربيّ الواقع في الشرق الأدنى والذي تطوّقه (أي تحتضنه حسب تفكير العازوري) بريطانيا في مصر « البربريّة» وفي الخليج وفي عدن. هذه هي، بإيجاز، بلاد العرب التي تحدّث العازوري عن « يقظتها » ضمن مشروع يوافق إلى حدّ كبير مشروع كتشنر القائم على فصل الكتل الإسلامية الثلاث : الكتلة التركية والكتلة العربيّة والكتلة الإيرانيّة والذي أخذت به العروبيّة الإسلاميّة ووصلت في تطبيقه إلى حدّ إعلان تمرّد الشريف حسين سنة 1916 كسرا منها لفكرة « الجهاد » ضدّ أعداء الإسلام التي دعا إليها الخليفة محمد الخامس.

ولقد كان على العازوري أن يحلّ قضية شائكة تولّدت عن تبنيّه، وهو المفكر الفرنسي الولاء، المشروع الكتشنري البريطاني هي التوفيق بين القومية اللبنانية ذات الولاء الفرنسي والعروبيّة الإسلاميّة ذات الولاء البريطاني. حلّ العازوري، الماسوني، هذه القضية بـ «اجتهاد» دينيٍّ سياسيٍّ يتناول السلطتين الدينيّتين المتناقضتين تناقض البطريرك الماروني إلياس الحويك وشريف مكة عون الرفيق أو تناقض نجيب العازوري وعبد الرحمن الكواكبي⁴⁵ فدعا من ناحية إلى وحدة عربية دينية مسيحية حول طقس كاثوليكي (ومن الذي سيقبل بذلك من العرب الأرثوذكس أو البروتستانت ؟) يجب الطقوس الأخرى الخاصة بالكنائس المتحدة مع البابوية (uniates) ودعا من ناحية ثانية إلى إقامة خلافة لكل المسلمين في بلاد الحجاز يمارس فيها شريف مكة سلطته الدنيوية في الحجاز فقط ويمارس سلطته الروحية على جميع مسلمي العالم أي ما رفضه الفاتيكان ولم يقبل به بيوس الحادي عشر Pie XI إلا زمن موسوليني عندما عقد مع الدولة الإيطالية الفاشية اتفاقية لاتران Latran سنة 1929. وبذلك تتمكن متصرفية لبنان من الحفاظ على استقلالها الذاتي فلاتضام، في نظره، لا القومية اللبنانية ولا العروبية الإسلامية خاصة أن هذا « التراضي » المنشود يمكنهما، معا، من التصدي لخطر أكبر يهدد الشرق الأدنى جميعه بل يهدد، في نظره، السلام العالمي،

⁴⁵ تقوم هذه الدراسة على تصنيف للتيارات السياسية يختلف عن أغلب ما وقع بين يدينا من دراسات عربية وغير عربية مثل دراسة كاترين كامنسكي التي ترى أن العازوري استعاد آراء الكواكبي (القومية العربية والقومية اليهودية، ص

وهو الخطر الصهيوني. وعلى هذه النقطة بالذات ركّز الباحثون من العرب وغير العرب اهتمامهم منذ أصبح الخطر الصهيوني أمراً شائعاً فقد كتب العازوري سنة 1905 في « يقظة الأمة العربية »:

« ثمة ظاهرتان مهمتان هما من طبيعة واحدة ولكنهما مع هذا متعارضة إحداهما مع الأخرى واللذان لم تلتفتا بعد انتباه أحد ⁴⁶ وهما تقصحان عن نفسيهما في الوقت الحاضر في تركيا الآسيوية ألا وهما يقظة الأمة العربية والجهد المستمر لليهود لإعادة تأسيس مملكة دولة إسرائيل القديمة على نطاق معظم جداً ⁴⁷ هاتان الحركتان كتب عليهما أن تقاتل إحداهما الأخرى باستمرار حتى تنتصر واحدة منهما . وعلى النتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين الممثلين لبدأين متعارضين سيعتمد مصير العالم بأسره ⁴⁸ ».

في الشاهد المتقدم إقرار لا مجال للشك فيه بعروبة الشرق الأدنى من دون غيره من المناطق التي ستعتبر منذ الحصري في الثلاثينات جزءاً من عالم عربيّ موسّع. وقدر هذه الأمة العربية الشرق أدنوية هو أن تحارب أمة أخرى هي الأمة اليهودية. وهذه النظرة بالذات هي التي دعت العازوري إلى السعي إلى التسوية بين القومية اللبنانية والعروبية الإسلامية حتى تتمكن في مستقبل الأيام من التفرد للخطر الصهيوني على المنطقة.

دعوة العازوري لن تلاقي صدى عند العروبيين الإسلاميين الذين كان جهلهم بالمشروع الصهيوني جهلاً يصعب أن نجد له مثيلاً وعند القوميّين اللبنانيين الذين رأينا كيف أن آصاف المعبر عن الشق المتطرف فيهم لا يرى في الخطر الصهيوني خطراً يفوق « عاصمة صلاح الدين الأيوبي » على المارونيين والروم الكاثوليك. أمّا الروم الأرثوذكس والبروتستانت فقد رأوا في « ترزية » الكاثوليك تدعيماً لمواقع الموارنة والروم الكاثوليك ومن ثمّ

⁴⁶ هذه مبالغة لا يمكن القبول بها. إذ أنه إن صحّ جهل العروبيين الإسلاميين بأبعاد المشروع الصهيوني بعد انعقاد مؤتمرات صهيونية عالمية عديدة فهو لا يصحّ بالنسبة إلى كثير من المسيحيين، مثل فرح أنطون، الذي تعتبر بعض رواياته، وإن بشكل مغلف، تناولاً للقضية. وعن مصادر اطلاع العازوري على المشروع الصهيوني كتبت غواشون : « من الأمور ذات المغزى أن هذا الأسم (تقصد فلسطين) غير المعروف، آنذاك، في ذات البلد الذي يطلق عليه، كان معروفاً عند عربي سبق له أن كان على اتصال بالأوساط اليهودية في باريس وفي إنجلترا، وهو نجيب العازوري (غواشون . مملكة شرق الأردن الحقيقية، ص 1131 ، حاشية 8)

⁴⁷ يقصد هنا عمدة من اللطائي ومن جبل حرمون إلى صحراء شرق الاردن والى قنال السويس. وهذا التصوّر هو تصوّر فلاحية جابوتينسكي وخلفائه من ميناخيم بيجين إلى بينيامين ناتانياهو.

⁴⁸ نجيب العازوري . يقظة الأمة العربية. تعريب وتقديم أحمد أبو ملحم. بيروت، 1978، ص 7

فرنسا والفاشيكان ولذلك كتب فريد كساب، وقد يكون بروتستانتياً، منذ 1906 كتاباً نشره في باريس يفنّد فيه آراء العازوري سمّاه «الإمبراطورية العربية الجديدة والإدارة البابوية والخطر اليهودي العالمي المزعوم»⁴⁹.

ولسوف يشترك نجيب العازوري في حركات فرنسية يمينية عديدة مناهضة للصهيونية ولسيطرتها على الجمهورية الثالثة. وعندما تمرّد الجيش الثالث في البلقان عاد العازوري إلى يافا وترشّح للانتخابات البرلمانية فلم يفز فيها.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ تفكير العازوري كان يضيق بالقومية اللبنانية لأنّ نظرتهم ماكروسياسية تميل إلى تقليص التناقضات المحلية ومنها التناقضات الاجتماعية والسياسية والدينية وتعتبر التوازنات الكبرى في العالم كلّ اهتمامها ولذلك بدا لنا العازوري، بغضّ النظر عن اختلاف النظرة إلى الأشياء، شبيهاً بهؤلاء المفكرين «الاستراتيجيين» أمثال الإسلاميّ شكيب أرسلان والقوميّ العربيّ ساطع الحصري والقوميّ الناصريّ محمّد حسنين هيكّل.

ولقد اضطررنا إلى أن نتناوله في هذا الفصل المتعلق بالقومية اللبنانية لحيرة كثير من الباحثين إزاء تصنيفه ولقسوة بعضهم، مثل جورج أنطونيوس، في الحكم عليه :

«أثارت حملة عازوري شيئاً من الاهتمام في أوروبا في ذلك الحين ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلاً. وبغضّ النظر عن قيمة هذه الحركة فإن ظهورها في عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية كان أمراً في ذاته يدعو إلى شلّها والحدّ منها. ولم يقدر لها أن تنفذ إلى أعماق الحركة. وقيمتها الرئيسية (تبدو) لنا في هذا الكتاب أنّها تقدّم مثلاً عن انحراف بعض الداعين إلى الثورة ومدى ابتعادهم عن مصادر وحيها وإلهامها بسبب التعليم الاجنبي»⁵⁰.

بإمكان المرء أن يفهم قسوة القوميّين اللبنانيّين أو العروبيّين الإسلاميّين أو الإسلاميّين على نجيب العازوري ولكنّه يصعب عليه، في نظرنا، أن يفهم قسوة حكم جورج أنطونيوس عليه وخاصّة عندما يردّ انحراف دعوة نجيب العازوري إلى «التعليم الأجنبيّ» وكأنّ جماعة بيروت السريّة التي ينسب إليها أنطونيوس «الوحي والالهام» القوميّين العربيّين لم تتلقّ تعليمًا أجنبياً على أيدي المبشرين الأمريكيّين. إنّ ضرورة بيان تهاافت تفكير

⁴⁹ Ferid Kassab . - Le nouvel empire arabe, la curie romaine et le prétendu péril juif

universel. - Paris, Giard et Brière, 1906

⁵⁰ جورج أنطونيوس . — يقظة العرب. تاريخ حركة العرب القومية، صص 172-173.

جورج أنطونيوس فيما يتعلق بهذه المسألة هو الذي يفسر تخصيص الفصل التالي لتأثير الأمريكان في مصادر « إلهام » قداماء جمعية بيروت السرية.

الفصل السادس

طلع اليانكي علينا

لاشك أن القارئ تساءل وهو يقرأ ما تقدّم من هذه الدراسة عن سبب إهمالنا حتى الآن تناول نشأة الفكرة العربيّة خاصة إذا كان هذا القارئ آخذاً بتقليد فكريّ سبق أن عبّر عنه العربي الأمريكي جورج أنطونيوس، صهر فارس نمر، يردّ نشأة هذه الفكرة إلى النصف الأوّل من القرن التاسع عشر :

« بدأت قصّة الحركة القوميّة للعرب في بلاد الشام سنة 1847 بإنشاء جمعيّة أدبيّة قليلة الأعضاء في بيروت، في ظلّ رعاية أمريكيّة »¹.

إن سبب هذا الإهمال هو أن الذهاب مذهب جورج أنطونيوس (1893-1942) يؤدّي إلى نتيجتين أولاهما التأريخ لظهور الفكرة العربيّة منذ فترة مبكرة جداً وثانيهما تضخيم دور بعض دعائها من الطائفة البروتستانتية ممّا يقود، في نظرنا، إلى طمس ملامح التيارات القوميّة النابذة الأكثر تأثيراً في منطقة الشرق الأدنى.

ونحن نحتاج، دفعا لعملية الطمس هذه، إلى تتبّع تطوّر تفكير البروتستانت الشوام في علاقته بتفكير ممثلي التيارات النابذة حتى يتّضح ما يميّز أولئك عن هؤلاء...

إن السنوات الفاصلة بين الإعلان عن التنظيمات الأولى (1839) واندلاع حرب القرم في الخمسينات هي فيما يتعلّق بسياسة السلطنة، سنوات حذر من فرنسا التي شجّعت محمد علي في مصر على محاربة السلطنة واطمئنان إلى بريطانيا التي كسرت شوكة هذا الوالي المتمرد :

« اختصّ مصطفى رشيد باشا بموثة أنجلترا وولائها ومن أجل ذلك لقي من فرنسا من العدوان ما أحبط كثيراً من مساعيه، وما لقيه من أعدائه المقربين من السلطان² كان أشدّ وأنكى. ولم يزل يتولّى زمام الصدارة ثم يبارحها من سنة 1846 إلى 1857 حتى قبضه ربّه إليه فهو ثاني المجدّدين بعد سليم الثالث »³

في ظلّ أبي مهندسي التنظيمات مصطفى رشيد باشا سوف ينتشر التأثير التبشيريّ الانجيليّ في بلاد الشام بالرغم من شدّة مقاومة الكنيسة المارونية وفرنسا والجزويت له :

¹ جورج أنطونيوس . — يقظة العرب . ص 71

² لم تكن التنظيمات محلّ إجماع كل مراكز القوى في الباب العالي أو ممثليهم، من الولاة، في مختلف الولايات

³ ولي الدين يكن . — المعلوم والمجهول، 1، 35

« يذكر عن الدكتور فاندريك ⁴ أنه سئل وهو في طريقه إلى عبية ماذا ينوي أن يفعل هناك ؟ فأجاب أنه يود أن ينشئ مدرستين فقيل له لم اثنتين وواحدة تزيد عن الحاجة ؟ فقال متى أنشأنا واحدة سارع الجزويت فأنشأوا أخرى فنكون قد تسببنا بإنشاء مدرستين ⁵. كانت سياسة بالمرستون طيلة هذه الفترة تتمثل في كبح جماح فرنسا والحد من تأثيرها في المنطقة وكان يبحث عن طائفة يمكن أن تستند إليها بريطانيا في منافسة فرنسا، حليفة الموارنة، على الشرق الأدنى. وقد فكر البريطانيون فترة من الزمن أن اليهود يمكن أن يقوموا بهذا الدور ولكنهم سرعان ما تخلوا عن هذه الفكرة لفقدان الشعور القومي عند اليهود آنذاك، وفضلوا المحافظة على مساندتهم التقليدية للدروز. هذه السياسة التنافسية على الشام كانت كثيرا ماتعرض المبشرين للخطر من هذه الطائفة أو تلك :

«دعي فاندريك لتطبيب أحد وجهاء عبية فركب وسار بركابه خادماً ذلك الوجيه فاتفق في أثناء عودته الشروع في الثورة التي حصلت قبل حادثة سنة 1860 بين النصارى والدروز فرآه بعض الدروز بذلك اللباس (يقصد اللباس الشرقي) فظنوه من أمراء بني شهاب فهموا بقتله ولم ينج من بين أيديهم إلا بعد الجهد. وعول من ذلك الحين على اللباس الإفرنجي ⁶».

وعندما لا يتعرض المبشرون الإنجيليون للخطر نتيجة العداء الماروني واليسوعي فهم يكونون عرضة لمقاومة الطوائف التي ترى في وفود القادمين الجدد عليها خطراً على انتمائها الطائفي التقليدي :

« كان المبشرون الأمريكان في سوريا لا يزالون مضطهدين يخافون على حياتهم من القتل لأن رؤساء النصيرية هناك كانوا يسيئون الظن بهم ويعدونهم غرماً ينافسونهم على السيادة فكثيراً ما أصاب المتقدمين من مبشري الأمريكان أذى أو لحق بهم إهانة في سبيل التعبير. ومن هذا القبيل أن الدكتور (بوست) خرج يوماً إلى دوما للوعظ فحضر الوعظ رجال من بسكنتا صاحوا به وهموا بقتله. وضربه أحدهم بالعصا على كتفه وأطلق آخر الرصاص

⁴ ولد سنة 1818، وأرسله مجمع المرسلين الأمريكان مرسلًا وطبيبًا للديار السورية سنة 1840 تزوج سنة 1842 من ابنة قنصل أنكلترا في بيروت. وكانت علاقته ببطرس البستاني، مثلاً، علاقة حميمة. مات سنة 1895 (انظر ترجمته المطولة في محمد كرد علي. - المعاصرون. - دمشق، 1980).

⁵ كمال اليازجي . - الشيخ ابراهيم الحوراني في فخر النهضة الحديثة. - القاهرة، 1961. - 26، حاشية 1.

⁶ جرجي زيدان . - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر. - ج 1، ص 69

عليه فأخطأه فأسرع بعض الأصدقاء وحملوه إلى البيت وقد تعطلت كتفه ⁷. لم هذا العداء المستحكم للبروتستانتية وما هي أسباب صمود هذا المذهب الجديد إزاء خصومه وهم كثيرون؟ نفّس هذا العداء بالتنافس الأنكليزيّ الفرنسيّ على الشام. وهذا هو العامل الخارجيّ كما نفّسره بضيق المجال الدينيّ الحيويّ في منطقة تميّزت بعراقة الأديان والمذاهب فيها فلم تعد أرضا بكرًا يمكن لدعاة دين جديد أو مذهب جديد أن ينشطوا فيها بسهولة وهذا هو العامل الداخليّ. فقد كان على الإنجيليين أن يفتكّوا مواقعهم في الشام شبرا شبرا وعند أعلام الشوام القليلين الذين ضاقوا بالديانات والمذاهب التقليدية التي جعلت من الشام بؤرة للحروب الدينية وكأنها بذلك تكرّر تاريخ العصور الوسطى.

وفعلا فإنّ هذه الطائفة التي يعدّ أسعد الشدياق (1797 – 1830)، « شهيد البروتستانت الأول أحد رموزها »⁸ سوف تلاقي صعوبات عديدة حتى أثناء قيام دولة لبنان (1920) لإثبات وجودها بصفتها طائفة ولن تحصل على هذا الحقّ إلا سنة 1936 « في زمن خفّ فيه التنافس الفرنسيّ البريطانيّ في الشرق الأدنى »⁹ كما أن تمثيل البروتستانت في البرلمان اللبناني سنة 1960 كان عضوا واحدا من جملة 99 عضوا¹⁰. ومع ما ذكرنا من ضعف عدد هذه الطائفة ونزعة المعبرين عنها الكوسموبوليتية المصطبغة بصبغة ما سونية لا شكّ فيها فإن بعض المفكرين الشوام الكلاسيكيين سوف ينسبون إليها، ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، نشأة الفكرة العربية. فلماذا هذه النسبة وما قدر الإيديولوجيا التائقة إلى تمجيد كل دعوة لا دينية ولا عرقية فيها ؟

لقد استند جورج أنطونيوس في حقيقة الأمر إلى ثلاثة أحداث للتأريخ « للفكرة العربية » بداية من 1847 أولها أن السلطنة اعترفت هذه السنة بالطائفة البروتستانتية طائفة مستقلة وثانيهما أن هذه السنة هي السنة التي توجه فيها القسّ كورنيلوس فاندريك إلى عبيدة لتأسيس مدرستها كما رأينا في الصفحات السابقة. وهذه المدرسة سوف يحولها القسّ دانيال بليس إلى كلية إنجيلية رأسها من سنة 1866 إلى 1902 و خلفه في رئاستها عندما تقاعد ابنه هوارد بليس و في هذه المدرسة درس أو درّس أعلام البروتستانت الشوام الذين سيدعون أولا

⁷ اليازجي . — الشيخ ابراهيم الحوراني ، صص 38-39

⁸ عزيز العظمة وفواز طرابلسي . — صعلوك النهضة، مجلة الناقد، لندن، 1994، عدد 79

⁹ الزايت بيكار . — لبنان، دولة الشقاق، ص 30

¹⁰ بيكار . — لبنان، دولة الشقاق، ص 30

إلى دعم التنظيمات وبعد ذلك، وعند فساد العلاقة بين السلطنة وبريطانيا زمن عبد الحميد، إلى وحدة قيسية يمانية شامية لا دينية تحقق قدرا معقولا من شروط التعايش بين الشوام وهم أساسا إمّا قيسيون (مثل الشهابيين الذين يعتدّ بهم الموارنة) وإمّا يمانيون (مثل الدروز والنصيريين...) وثالثها أن سنة 1847 شهدت تأسيس «جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية».

وقد نضيف من دون أن نلحق ضررا بسياق الحديث أن سنة 1847 هي كذلك السنة التي ولد فيها إبراهيم اليازجي (1847 - 1906) الذي ستنسب إليه بداية ثمانينات القرن التاسع عشر قصائد ذات طابع قومي قيسي يمانى.

لم شجعت التنظيمات البروتستانت في الشام فسّلت بتشجيعها ذاك بقاء هذه الطائفة القليلة العدد والتي لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تستظل بشكل كاف بالأمريكان الذين كان وجودهم في الشام وجودا محتشما ولا بالأنكليز الذين كانوا، واقعية منهم، يفضلون التعويل على الدروز للحدّ من طموح فرنسا للهيمنة على الشام بواسطة الموارنة؟

إن التنظيمات قد اعترفت بالطائفة الجديدة سنة 1847 لأن هذا الاعتراف كان يخدم مصالح السلطنة التي تحتاج إلى تخفيف حدة الصراع بين المسيحيين والمسلمين بصفة عامة وبين المارونيين والدروز بصفة خاصة لأن ذلك الصراع هو أحد شروط التدخل الأجنبي في سياسة السلطنة الداخلية ولا يمكن أن يقوم بهذا الدور "التوفيقى" غير جماعات خرجوا عن طوائفهم الأصلية المتصارعة واتخذوا من قولة الشدياق " البروتستانتى" « تغيير الديانات لا يسلب الإنسان محامده» معتقدا ووسيلة لتجاوز منطق الديانات المخصوصة.

إن بطرس البستاني (1819 - 1883)، صديق كورنيلوس فاندريك الحميم، الذي اجتهد أثناء الحرب الأهلية وبعدها لتخفيف حدة الصراع الدينى بين الشوام بمقاومة التيار الدينى الإسلامى والحزب المسيحى الذى كان يدعمه رجال مثل لا فيجيري لم يعد يعمل هذا أن عبّر عن تفكير الإنجيلي فارس الشدياق إذ اختار مثله تعالى عن الديانات المخصوصة، تماشيا مع سياسة التنظيمات وسياسة الإنجلييين الأمريكان الذين كانوا هم أيضا يتألمون للحرب الأهلية الأمريكية القائمة آنذاك. وقد كتب لوتسكي ما يمكن، مع التحفظ إزاء عبارة « أنشأ في بيروت أول مدرسة عربية وطنية»، أن نأخذ به في هذه الدراسة: «كان أكبر إيديولوجي البورجوازية السورية في العقد السابع من القرن التاسع

عشر، بطرس البستاني، وكان مسيحياً، وقد تخرج من المدرسة الدينية المارونية وكان يجيد لغات عديدة وتعرّف في عام 1840 على المبشرين الأمريكيين فاعتنق العقيدة البرسبيتيرية. وفي دعوته إلى حبّ الوطن ووحدة سوريا ندّد بالتعصّب وعدم التسامح الدينيّ والنزاعات والخصومات الدينية والخرافات والانفصالية الإقطاعية وفساد السلطات التركية واستعباد المرأة. وكان مثقفاً ومعلّماً وكاتباً اجتماعياً لا يكلّ إذ أنشأ في بيروت أول مدرسة عربية وطنية (1863) ونشر باللغة العربية مجلّتين أسبوعيتين : "نفيّر سوريا" (1860) و "الجنة" ومجلّة "الجنان" (1870) فوضعت هذه المجلّات لأوّل مرّة في متناول القراء السوريين القضايا السياسيّة والثقافيّة والأدبيّة وعمل كثيراً من أجل إبداع لغة عربيّة فصحي جديدة ومن أجل نشر المعارف الأوربيّة بين العرب المثقفين فصنّف معجماً ضخماً باللغة العربيّة وسبعة أجزاء من الموسوعة العربيّة (دائرة المعارف) وكانت هذه مخلفاته الأدبيّة. وواصل سليمان البستاني، ابن خاله، نشر الموسوعة العربيّة، بعد وفاة بطرس البستاني وترجم الإلياذة إلى العربيّة¹¹.

لماذا طلبنا من القارئ أن يلزم الحذر إزاء عبارات مثل عبارة لوتسكي «أنشأ في بيروت أول مدرسة عربيّة وطنية؟» طلبنا ذلك لأنّ أغلب الدراسات التي وقعت بين يدينا فيما يتّصل بهذه المسألة تخلط بين «العمل كثيراً من أجل إبداع لغة عربيّة جديدة» و «العمل كثيراً من أجل إبداع أمة عربيّة جديدة» إن صحّ التعبير الأخير. ولم يكن البروتستانت إنذاك يخلطون بين المفهومين خلط الألماني فخته Fichte مثلاً بين مفهوم اللغة ومفهوم الأمة لأن البروتستانت كانوا كوسموبوليتيين أكثر ممّا كانوا قوميين، كانوا دعاة تسامح ولم يكونوا قوميين ينبذون فكرة التسامح. فسليمان البستاني الذي «واصل (...) نشر الموسوعة العربيّة» كان إيماناً منه بوحدة "الوطن العثمانيّ" يرى وجوب تعميم اللغة التركيّة العثمانيّة لما في ذلك من تدعيم لوحدة «الأمة العثمانيّة» و «الوطن العثمانيّ».

يتّضح إذن ممّا سبق أن كل هؤلاء المفكرين قد اتّخذوا، مقاومة منهم للتيارات النابذة، من الشعار «الدين لله والوطن للجميع» مبدأ لهم في نشاطهم الفكريّ وسلوكهم السياسيّ وهو شعار يعني أن الدين مهما كان إنّما هو قضية فرديّة أمّا الوطن العثمانيّ فهو قضية جميع العثمانيين سواء كانوا أتراكاً أو عرباً أو أكراداً أو سلافيين أو أرمناً أو يهوداً ولذلك عندما اندلعت حرب الستين وأنشئت متصرفيّة لبنان واشتدّت مقاومة يوسف كرم

¹¹ لوشكي. — تاريخ الأقطار العربية الحديث، صص 112-113

للسلطنة اجتهد فؤاد باشا في التشجيع على قيام جمعيات شامية لادينية ولكنها ليست معادية للأديان تقف موقفا وسطا بين «الحزب الإسلامي» و«الحزب المسيحي»¹² ورحب كثير من الشوام بهذه الفكرة فظهر نتيجة هذا السعي بعض الجمعيات الشامية الشدياقية الاتجاه نذكر منها «زهرة الآداب» و«الجمعية العلمية السورية».

كتب سليمان البستاني الذي «واصل نشر الموسوعة العربية» والذي كان مناصرا للتنظيمات عن «زهرة الآداب» الذي سببها فترة من الزمن العثماني الماسوني أديب إسحق:

«ألفنا جمعية زهرة الآداب في بيروت وتآلفنا عصابة لم يكن فيها أثر لفارق بين مسلم ومسيحي. وسننا قانونا فجعلنا أول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة، وفرضنا على جميع الإخوان¹³ إلقاء الخطب والمباحث المفيدة، وجعلنا مكتبة على قدر ما تيسر لنا فودع الإخوان القهوةات وما لحق بها من محلات اللهو في الفراغ ثم ما لبث أن عين أسعد مخلص واليا لسوريا بعد تولي الصدارة العظمى وكان ساعدنا قد اشتد ورباط الإخاء قد أحكمت فذهب منا إليه وفد يحمل قانون الجمعية فتلقاه بالبشر فحاطبناه بحرية لم يكن يجرأ أحد على مثلها بعد تلك الأيام إلا حين تولي سوريا مدحت باشا (يقصد سنة 1879) «¹⁴.

وتلخص نظرة أديب إسحق الذي رأس الجمعية، في نظرنا، الأسس التي انبنت عليها فقد عرف الجنس تعريفا لا يعتمد الإثنية ولكن الإرادة فحسب:

«الأمة الجيل من كل حي ومن الرجل قومه. وفي عرف أهل السياسة الجماعة

المتجنسة جنسا واحدا، الخاضعة لقانون واحد. وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الأنساب لتعذر ذلك في كثير منها وإنما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء إلى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به كالجنس الأمريكي لسكان الولايات المتحدة الأمريكية سواء كانوا أنكليزا أو فرنسيين أو إسبانيين أو أمريكيين أصلا والعثماني لسكان

¹² ولقد كان رمزه الأكبر البطريرك الماروني بولس مسعد (1854-1889) ابن خال فارس الشدياق

¹³ مصلح ماسوني (أخ: Frère = FF.. /.. أا)

¹⁴ سلمان البستاني - عيرة وذكرى، ص 122

البلاد العثمانية في أوروبا وآسيا سواء كانوا تركا أو عربا أو تترا أصلا والأوستري لسكان سلطنة أستريا سواء كانوا ألمانا أو صقالبة أو إيطاليين أصلا وهلم جرا¹⁵.

ودحض المواقف القومية التي إن هي تجاوزت مفهوم الجنس والدم فقد استقرت على اعتبار اللغة معيارا للانتماء القومي :

« وقد زعم بعض الناس أن من لوازم وحدة الأمة وحدة لغتها وهو وهم لأنه إما أن يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس أولا. فإن كان الأول فهو فاسد لأنه قد يولد الإنسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم وهو بعيد عنهم نسبا ولأن ما ذكرنا من تخالط الأقوام واغتراب الفاتحين قد أحدث في لغات كثيرة من جماعات الناس فسادا بحيث صارت مزيجا يعجز أبرع الكيمائيين عن تحليله كما في لغة أهل مالطة مثلا فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس. وإن كان الثاني فهو من قبيل إيجاب ما ليس بواجب. ولو اقتصر أهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الأمة لأحسنوا »¹⁶.

أما عامل الدين فهو يرى فيه أخطر العوامل المهددة للوحدة فحذر من جعل « الحب الوطني مدرجة للتعصب المذهبي فإنه يشوه وجه الحق ويضعف حجة أهله بل هو علة التأخر وداعية البلاء وسبب العناء والشقاء ما تأخر الشرق إلا به ولا تقدم الغرب إلا بزواله فاجعلوه دكا وأقيموا على رمتيه بنية المساواة والحرية ثم احرصوا على الشورى حرص البخيل على درهمه والجبان على دمه »¹⁷.

يدل ما أوردنا لرئيس جمعية "زهرة الآداب" الشامية أنه إذا كان لابد من الحديث عن "حب الوطن" فالمقصود بذلك هو "الوطن العثماني".

أما الجمعية الأشهر التي شجع فؤاد على تأسيسها فهي "الجمعية العلمية السورية" (1868) التي إن لم يكن بطرس البستاني وناصيف اليازجي لتقدمهما في السن من أعضائها النشيطين فلقد كانا إلى حد كبير من الداعين إلى تأسيسها :

« وجمع البستاني واليازجي حولهما طلائع المثقفين السوريين لذلك العهد. في 1857 شكّل أتباعهما في بيروت "الجمعية العلمية العربية"¹⁸ التي وُحِّدَت أول مرة في تاريخ سوريا

¹⁵ أدب إسحق . — الكتابات السياسية والاجتماعية . — بيروت، 1978. — ص 74

¹⁶ أدب إسحق . — المصدر السابق، ص 74

¹⁷ أدب إسحق . — المصدر السابق، ص 81

¹⁸ نرى نحن أنه يقصد سنة 1868 كما أنه يقصد "الجمعية العلمية السورية"

المثقفين العرب بغض النظر عن معتقداتهم الدينية. ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يسمح للمبشرين الأجانب بالانتساب إلى هذه الجمعية. ومع ذلك اقتصر البستاني واليازجي على النشاط التثقيفي واعتبرا التثقيف الوسيلة الوحيدة لمكافحة النظام الإقطاعي¹⁹»

يلاحظ المرء أن لوتسكي الذي نسب قبل قليل إلى بطرس البستاني أنه « أنشأ في بيروت أول مدرسة عربية وطنية » سنة 1863 هو نفسه الذي نسب في الشاهد السابق إلى بطرس البستاني وأتباعه بعد خمس سنوات من ذلك تأسيس جمعية لا سياسية « تعتبر التثقيف الوسيلة الوحيدة لمكافحة النظام الإقطاعي » وتشترط على منخرطيها ألا يكونوا من المبشرين الأجانب : فكيف يمكن التوفيق أولاً بين الطابع السياسي «لأول مدرسة عربية وطنية» أنشئت في بيروت والطابع اللاسياسي لخليفتها «الجمعية العلمية العربية » ؟ وكيف يمكن اعتبار مقاومة النظام الإقطاعي، مثلاً، نشاطاً غير سياسي ؟ ثم، أخيراً، كيف يمكن أن يفسر المرء عدم سماح الجمعية للمبشرين الأجانب بالانخراط فيها؟

تصعب، في نظرنا، الإجابة عن كل هذه الأسئلة إذا لم نفهم أن القصد من لفظ «الوطن» هو «الوطن العثماني» وهو قصد يتلاءم وفلسفة التنظيمات المعادية للتيارات النابذة عداوتها «لنظام الإقطاعي» الذي حاربته «الجمعية العلمية السورية» والداعية إلى تجاوز الصراع الديني وإلى أن تكف القوى العظمى عن التذرع بحماية مختلف الطوائف في الشام لقضم مواقع جديدة في السلطنة وبذلك فقط يمكن للمرء أن يفهم لم اشترطت الجمعية العلمية السورية أن لا يكون بين أعضائها مبشرون أجانب.

ومن ناحية أخرى فمن الصعب، في نظرنا، على جمعية غلب على أعضائها الانتماء الماسوني أن تلقى ترحيباً عند ممثلي الديانات والطوائف التقليدية إذ سيقاوم الجزويت مثلاً البروتستانت والماسونيين على حد سواء تماماً كما فعلوا قبل قرن في فرنسا عندما «ثار جماعة الكهنة في فرنسا على جميع الجمعيات السرية ولا سيما الماسون والبروتستانت ونشروا جريدة دعوها (إكلين) موضوعها أشبه بموضوع بشير الجزويت في هذه الأيام»²⁰

ولقد ضمن هذا الشرط إقبال عدد كبير من أنصار التنظيمات الخارجيين عن الديانات والطوائف المخصوصة التقليدية على الانخراط في هذه الجمعية أمثال :

- محمد الأمين أرسلان (مسلم درزي نشأة)

¹⁹ لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية . — ص 168

²⁰ جورج زبدان . — تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم . — القاهرة، 1889، ص 181

- حسين بيهم (مسلم سني نشأة)
- خليل غانم (مسيحي ماروني نشأة)
- جرجس تويني (مسيحي أورثوذكسي نشأة)
- سليمان البستاني وحبیب اليازجي وأخيه إبراهيم اليازجي (مسيحيون بروتستانت)

وعرفت امتدادا واسعا بحيث «انضمّ إليها حوالي 180 عضوا من انتماءات طائفية مختلفة لكن ضمن غلبة مسيحية عددا وثقافة»²¹.

أغلب الدراسات المتعلقة بهذه المسألة وبهذه الفترة تلحّ على ضخامة عدد النخرطين في هذه الجمعية وتكاد لا تتساءل عن سبب انضمام بعض رجال الدولة مثل مهندس التنظيمات فؤاد باشا وبعض المطالبين بالتمكين أكثر للتنظيمات مثل الأمير مصطفى فاضل مؤسس جمعية العثمانيين الجدد إليها. ويكفي في نظرنا، انضمام مهندس التنظيمات فؤاد باشا إلى هذه الجمعية حتى يتبين المرء اتجاهها المعادي للقوى القومية والدينية النابذة.

فما هو إذن سبب هذا الطمس المتعمّد، في نظرنا، لدور فؤاد باشا؟ إنّه سبب إيديولوجي بحث غرضه التمكين لفكرة الدعوة إلى "القومية العربية" منذ هذه الفترة المبكرة ولذلك تكثر هذه الدراسات التي أشرنا إليها من محاولات الربط بين هذه الجمعية و "جمعية بيروت السرية" التي ستظهر بعد تولّي عبد الحميد السلطة والتي يرى فيها البعض "بذور القومية العربية" المناوئة "للأتراك". ولقد وقع لوتسكي نفسه، على انتماؤه السوفييتي، فيما يشبه الحيرة فيما يتعلّق بهذا الربط فعبر عنه بجملة تكاد تستعصي على فهمنا :

«اعتبر (البستاني واليازجي) التثقيف الوسيلة الوحيدة لمكافحة النظام الإقطاعي. أمّا المشاكل السياسية فكانت من نصيب جيل جديد. ففي الاجتماعات السرية التي كان يعقدها أعضاء "الجمعية العلمية العربية" بعد أن استأنفت عام 1868 نشاطها الذي كان توقّف بسبب أحداث 1860 تحوّل النقاش حول البعث الثقافي إلى دعوة حارة للكفاح من

²¹ وجيه كوثرياني . — الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860 - 1920). بيروت

أجل الاستقلال. وفي أحد هذه الاجتماعات تلا إبراهيم اليازجي، ابن ناصيف اليازجي، أشعارا وطنية انتشرت بصورة واسعة في سوريا ولبنان»²²

من الواضح أن لوتسكي استند في ربطه بين الجمعيتين إلى انخراط إبراهيم اليازجي فيهما معا (وكان عمره عند الانخراط الأول إحدى وعشرين سنة) من دون أي اعتبار لتطور تفكير هذا اللغوي الشامي من العثمانية قبل تولي عبد الحميد الثاني السلطة إلى معاداة "الأترك" بعد أن نهج عبد الحميد سياسة إسلامية تعتبر مدمرة في ظروف الشام المتعدد الديانات وبعد أن فسدت العلاقة بين بريطانيا والسلطنة فسادا نهائيا. خلاصة ما تقدّم إذن هي أن هذه الجمعية إنما هي جمعية عثمانية بحثة لا يصحّ الربط بينها وبين "جمعية بيروت السرية" وذلك رغم انخراط بعض الأسماء في الجمعيتين لما يقود إليه هذا الربط من طمس لتطور الأفكار.

وإذا صحّ ما نذهب إليه فالسؤال التالي يصبح على قدر كبير من الواجهة : ما الذي وحد فكريا بين رجال من أمثال الدرزي محمد الأمين أرسلان والمسلم السنّي حسين بيهم والمسيحي الماروني خليل غانم والمسيحي البروتستانتني سليم البستاني وليسوا كلّهم من خريجي الجامعة الأمريكية حديثة الولادة أي ما الذي وحد بين خليل غانم الذي سيكون نهاية الثمانينات من مؤسسي "تركيا الفتاة" وإبراهيم اليازجي الذي سينتسب إلى "جمعية بيروت السرية" التي سيؤسس بعض أعضائها جريدة "المقطم" التي لاتكاد تختلف في امتداح الاستعمار الأنكليزي للمنطقة عن "القايمس" وسليم تقلا صاحب الأهرام الذي كان هو وأخوه بشارة تقلا « محميين بقوة فرنسا فلم يريا من المروءة أن يخالفها في سياستها الاستعمارية. ولو لا ما سبق منهما من الإفراط في التعصّب لها لكان عذرهما أوسع. على أنّهما سعيا لخير مصر من حيث ظنّا أنّه صواب ولم ينصفا الأنكليز بل أصرّا على حربهم ولم يذكرا للقوم يدا وإن جلّت ولم يسترا لهم هفوة وإن صغرت»²³

²² لوتسكي . — تاريخ الأقطار العربية . — ص 168

²³ ولي الدين يكن . — العلوم والمجهول، 1، 12. ونحن نشير هنا إلى أن الشوام كانوا بعد هجرتهم من الشام كثيرا ما ينشطون في المؤسسات والجرائد والمجلات التابعة أو القريبة من طوائفهم المختلفة مثال ذلك أن الرومي الكاثوليكي خليل مطران (1872 - 1949) الكثير الفخر بغسانيته أي بأصوله اليمانية القحطانية نشط طيلة (1892 - 1900) بعد هجرته إلى مصر في "الأهرام".

إننا نعتقد أن ما وُحِدَ بينهم سنة 1868، وفي زمن غياب الأحزاب السياسية، هو القول بالماسونية المحافظة²⁴ التي انتشرت إذاك في السلطنة وفي الشام انتشارا تقتصر على إبراز ما يتصل به في المنطقة الشاميّة:

« دخلت الماسونية الرمزية إلى دمشق بمساعي الطيّب الذكر المغفور له عبد القادر الجزائري وأوّل محفل تأسّس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق تحت شرق إيطاليا الأعظم (...) وقد ترأس عليه كثيرون من أعيان البلاد وأمرائها وقد لاقى اضطهادا قليلا إلا أنّه تغلب على كل الصعوبات فثبت بمساعي الإخوة وتنشيطهم »²⁵.

²⁴ الماسونية المحافظة : أجاب الوالي دولا فان Delavan، على عهد لويس فيليب، عن سؤال حول تسامحه إزاء الماسونية "إن المحافل الماسونية هي منفس للبخار الثوري المضغوط تحول دون هذا الانفجار الممكن الوقوع إن وقع إغلاقها غلقا تاماً" Pierre Chevallier.- Histoire de la Franc-maçonnerie. Paris, 1975, T.II, p. 220 والماسونية ماسونيات، انقلوساكسونية (وفرنسية) محافظة وماسونية فرنسية أكثر تفاعلا مع الحركات الاجتماعية (Le Grand Orient de France) وقد حدثت القطيعة بين هذين الطقسين (Rites) سنة 1877 عندما أعلن الشرق الأعظم لفرنسا عن تخليه عن الإشارة في احتفالاته ومكاتباته إلى : مهندس الكون الأكبر « Le Grand Architecte de l'univers ». أن تكون عقيدة من العقائد ضرورية بالنسبة إلى نظام سياسي، من الذي يعترض على ذلك؟ لقد كان يمكن للطهرين والماسونيين الأمريكيين أن يقولوا (لنا ثقة في الله In God we trust) ولذلك يمكن أن توصف الماسونية الانقلوساكسونية بالتوراتية : إنها ماسونية الكتاب المقدس. أما في البلاد اللاتينية فكان لابدّ للأخوان الذين كانت السلطة العقائدية في روما تعاديهم إذاك عداء حازما وللدواء، أن يغيروا هذه الروح الدينية الفردية الغامضة الروسية التي اكتفوا بها حتى الآن بروح أخرى، هي هذا الإيمان اللاتكي بالعقل، والعلم، أي بكلمة واحدة، الوضعية، (شوفالبي . — تاريخ الماسونية، ج II ، ص 543) وقد نتج عن ذلك قطع العلاقات بين الشرق الأعظم لفرنسا (G.O.F) والماسونيتين الانكليزية والأمريكية وقد كرّست شروط المحفل الأكبر المتحد لانكلترا للاعتراف بالمحافل الأجنبية سنة 1929 القطيعة النهائية بين المحافل الروحية والمحافل (Loge) التي تقول بالحرية المطلقة في الاعتقاد : (شوفالبي، تاريخ الماسونية، ص 546) والسمة الغالبة على ماسوني الشرق الأعظم لفرنسا هي انتماؤهم إلى الطبقة المهنية الوسطى (مهندسين، صيادلة أطباء، موظفين كبار) وما دونهما (معلمين، عسكريين) مما يقرّبهم من جماعة "الاتحاد والترقي". ويستحق سبب انتقال جمال الدين الأفغاني من الطقس الاسكتلندي إلى الشرق الأعظم لفرنسا (وهناك علاقة بين تسمية "العروة الوثقى" و "La Chaine d'Union") دراسته خاصة. أما الماسوني جورج زبدان فسيندّد بقرار الشرق الأعظم لفرنسا وقد هاجم اليسوعيون، نزولا عند رسائل بيوس التاسع، الماسونيين الشوام من الطقسين.

²⁵ جورج زبدان . — تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم . — القاهرة، 1889، ص 200

ونكاد نستغني عن القول إن الماسونية المحافظة إذا كانت قد انتشرت هذا الانتشار في دمشق²⁶ وهي المدينة التقليدية الداخلية فإن ذلك يعدّ دليلاً على مدى انتشارها في مناطق عديدة أخرى. وفعلاً فقد تأسست محافل عديدة في حمص وحلب وعينتاب (...) وأنطاكية (...) جميعها أو معظمها تابع للشرق الأعظم الإيطالياني. وكثير منها متعطّل عن الأشغال لأسباب مختلفة أخصّها الاضطهاد²⁷ أمّا في متصرفية القدس فـ«أول محفل ماسوني رمزي في فلسطين تأسّس في القدس الشريف في مايو (أيار) سنة 1873 تحت شرق كنادا ولغته أنكليزية واسمه محفل سليمان الملوكي الأساسي نمرة 293 ولا يزال عاملاً إلى الآن وهو المحفل الأول والوحيد في فلسطين وقد كان أو شك على السقوط في السنين الأخيرة لولا همّة رئيسه الحالي الأخ المحترم²⁸ وليم أسعد خياط²⁹ فإنه قد أخذ على عهده رئاسة هذا المحفل للأربع سنوات الأخيرة»³⁰

هذا الانتشار الواسع للماسونية هو الذي يفسّر شدة مقاومة الحزب المسيحي لها³¹ في الجبل وفي بيروت فـ«أشدّ مقاومي الماسونية في سوريا جماعة الجزويت وقد أنشأوا لهذا الغرض وغيره جريدة دينية في بيروت دعوها جريدة البشير»³² وموضوعها مقاومة كل المذاهب والأديان إلّا المذهب الكاثوليكي والإيقاع بكلّ الجماعات إلّا جماعة الجزويت»³³.

على الدارس، وهو يتناول الماسونية الشامية بالدرس، أن لا يخلط بين نظرة من نتناولهم من الماسونيين الشوام بالدراسة ونظرة معاصرينا إليهم إذ كانت الماسونية ملاذاً لكل دعة تجاوز منطق الديانات والطوائف المخصوصة يحظى أعضاؤها بالتقدير» ولا يصح في هذا الصدد السكوت عما قام به محفل العشيرة الماسونية في سبيل تحقيق الإخاء الوطني

²⁶ يعد طاهر الجزائري (شرق إيطاليا الأعظم)، أستاذ محمد كرد علي وقدوته من أشهر هؤلاء الماسونيين

²⁷ من المعروف أن عبد الرحمن الكواكبي كان في فترة ما من حياته ماسونياً. ومن المعروف كذلك أن "الاضطهاد"

كان من المواضيع المفضلة عند الماسونيين بصفة عامة

²⁸ الأخ المحترم، مصطلح ماسوني (Vénérable)

²⁹ وليم أسعد خياط، من الواضح أننا ازاء أرثوذكسي تحول إلى البروتستانتية (وليم)

³⁰ زيدان. — تاريخ الماسونية العام، ص 201

³¹ وهو موقف يختلف عن موقف المسلمين الذين انخرط كثير منهم في الماسونية أمثال عبد القادر الجزائري وطاهر

الجزائري وجمال الدين الافغاني بل محمد عبده

³² البشير أسسها الجزويت سنة 1870

³³ زيدان. — تاريخ الماسونية العام، ص 197

الإنسانيّ ولا غرابة في ذلك بعد أن حوى هذا المحفل منذ تأسيسه حتّى يومنا هذا النخبة القيّمة من العلماء الفضلاء والشعراء والوجهاء الأسخياء في كل عمل خيريّ³⁴ فجرجي زيدان مثلاً أرخ للماسونية لأنّه كان يعتبر "مبادئها من أشرف المبادئ وغايتها من أشرف الغايات" :

« باسم الله³⁵ فاتحة كل عمل. أمّا بعد فقد أصبحت الماسونية لحدّاثه عهداً في هذه الديار موضوعاً لأبحاث القوم على اختلاف المذاهب والنزعات. فمن نصير مدافع عن صحّة مبادئها مبالغ في وجوب كتمان أحوالها وعدوّ مشدّد النكير ومختلق الأراجيف عليها يقول في ذلك أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان. وعندى أن السبب في ذلك إنما هو شدّة محافظة أعضائها على التسترّ في أعمالهم (...) على أنّنا لو نظرنا إلى الحقيقة لما رأينا في المكاشفة ما يشينها إذ ليس بين أعمالها ما يكسبها إلا فخراً ولا بين مبادئها إلا ما يرفع منزلتها ويفحم من أراد بها شرّاً لأن مبادئها من أشرف المبادئ وغايتها من أشرف الغايات³⁶ »

إن أهمّ مبدإ قامت عليه الماسونية هو في الأصل مبدأ رشديّ شدياقيّ عبّر عنه الأوّل بقوله :

"المذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر"

وعبّر عنه الثاني بقوله إن "تغيير الأديان لا يسلب الإنسان محامده"

ويستند هذا المبدأ في حقيقة الأمر إلى نظرة كاملة إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثمة، وقياساً، إلى علاقة الدولة بالمجتمع فالإيمان بـ "مهندس الكون الأعظم" يجرّد الإله من كل هذه الصفات التي تذكر من قريب أو بعيد، بالإنسان ومن ثمّ لا يعود بإمكان دولة من الدول أن تدعي في حكمها المجتمع الاستناد إلى ديانات ليس يمكنها أن تصدر مباشرة عن الله البعيد عن الإنسان بعداً لا يسمح بقيام أيّ علاقة بينهما فإذا الكتب المقدّسة مجرد كتب "حكمة" لا يصحّ اعتمادها للقول بحساب وعقاب سواء في هذه الحياة أو بعد الموت. والماسونية، بصفة عامّة، تقول بالخلود ولكنها لا تقول بما عدا ذلك ولسوف يبلغ التسامح بالشرق الأعظم لفرنسا منذ 1876 حدّ اعتماد الصيغة التالية :

³⁴ يوسف الحكيم . — سوريا في العهد العثماني، ص 230

³⁵ الله عند الماسونيين هو مهندس الكون الأكبر

³⁶ زيدان . — تاريخ الماسونية العام، ص ١

« نحن نستقبل بحفاوة كل معتقد (...) فنحن لانتصّر مهندس الكون الأعظم على أيّ هيئة كانت بل نترك لكل واحد حريته في أن يرى فيه ما يرى. أما فيما يخصنا، فإننا ننحني أمام اللا متناهي وأمام ما ليس بالإمكان إدراكه »³⁷. بهذا الفهم يكون هذا المبدأ هو المبدأ الذي عبّر عنه الأخ الماسونيّ دي ايتان Des Etangs في "الشرق" منذ 1815 : « في الماسونية مزج بين مكة وجنيف ورومة وأورشليم القدس. في الماسونية لا يوجد يهود ولا محمديون ولا بابويون ولا بروتستانت. في الماسونية لا يوجد غير بشر ولا يوجد غير إخوة ماسونيين أقسموا أمام الله، أبيهم المشترك، أن يبقوا إخوانا »³⁸

وعبّرت عنه قولة محمود الثاني الماثورة والشعار الشاميّ "الدين لله والوطن للجميع". إنّ كلّ الشواهد السابقة إنّما تتلخص في رفض النظرة التقليدية إلى علاقة الله بالطبيعة وإلى العلاقة بين الدولة والمجتمع كما بيّنا ذلك في الفصل الثاني من القسم الأول من هذا الكتاب وفي القول بضرورة تنزيل الطبيعيّ والإنسانيّ منزلة جديدة. وبهذا المعنى لا يمكن للمرء أن يعثر مثلاً على أي أثر للماسونية عند الإسلاميّ شكيب أرسلان أو في مجمل تفكير العروبيّ الإسلاميّ محمد رشيد رضا.

هذه النظرة إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثمّ، وقياساً، إلى علاقة الدولة بالمجتمع تلائم إذن إلى حدّ كبير روح التنظيمات. ولهذا كان الأمير مصطفى فاضل مؤسس جمعية العثمانيين الجدد ما سونيّاً تماماً كما كان مدحت باشا «أبو الدستور» ماسونيّاً، ولهذا، كذلك كان مؤسسو "الجمعية العلميّة السوريّة" ما سونيين إمّا روحاً أو انتماً صريحاً.

هذه الروح الماسونية هي التي سيقاومها عبد الحميد الثاني لتعارضها مع سياسته الإسلاميّة المتمثلة في نصرة دين مخصوص على بقية الديانات في سلطنة تعدّدت فيها الأديان والطوائف وقد كتب جورجي زيدان في هذه المسألة :

« أمّا شأن الماسونية عموماً في تركيا فشأنها في سائر البلاد. هذا من قبل العامة واعتقاداتهم. أمّا من قبل الدولة فلم تصادف مقاومة رسميّة مطلقة وإن تكن من الجهة الثانيّة

³⁷ شوقالي . — تاريخ الماسونية، ج 2 ، ص 548

³⁸ شوقالي . — تاريخ الماسونية، ج 2، ص 149

لم تصادف تنشيطا كبيرا. على أن مولانا أمير المؤمنين قد كان في ريبة من أمرها لكنه علم مؤخرا صحة مبادئها وإخلاصها لجلالته ولسائر الأمة والوطن وقد تشرفت برضائه عنها»³⁹ عندما نراجع الفصل الثالث من القسم الأول المتعلق بسياسة عبد الحميد الإسلامية يتضح لنا أن "ريبية" عبد الحميد كانت دائمة وأن رضاه عنها لم يكن، إن حصل فعلا، إلا عارضا إذ ما الذي يجمع بين القول بالإسلامية وبين نظرية لا تقول بالديانات المخصوصة وتتوق إلى تعويضها بـ "دين جديد"؟ ومما يثبت، فعلا لا قولا، ما نذهب إليه هو أن عبد الحميد عمد منذ بدايات حكمه إلى حل البرلمان وانتهاج سياسة إسلامية انجر عنها تشتت أعضاء "الجمعية العلمية السورية" فهاجر الأمير محمد الأمين أرسلان و خليل غانم، وكانا عضوين في البرلمان، إلى أوروبا وواصلوا نشاطهما السياسي المعادي لسياسة عبد الحميد الإسلامية.

وهاجر سليم تقلا إلى مصر وأسس الأهرام الموالية لفرنسا ولاء كاملا. أما إبراهيم اليازجي فسينضم إلى جيل جديد من خريجي الجامعة الإنجيلية أمثال فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس (1852 - 1910) يثس يأسا تاما من العثمانية المتراجعة وفضل أن يتوجه وجهة انجلوساكسونية صرفة ترى وجوب تشجيع وحدة قيسية يمانية في بلاد الشام تحقق غايتين متلازمتين :

مقاومة التأثير الفرنسي في الشام عن طريق الموارنة والروم الكاثوليك أولا والتأكيد، ثانيا، على ما يفصل "العرب" عن "الترك" تمهيدا للقضاء على السلطنة نهائيا بما أن هذين العنصرين يمثلان العمود الفقري للكيان السياسي العثماني.

هذا هو ، في نظرنا ، التفسير الأسلم لنشأة "جمعية بيروت السرية" بداية من ثمانينات القرن التاسع عشر وهو تفسير لا يقول، كما يلاحظ القارئ، بوجاهة الربط بين نشأة هذه الجمعية وما سبقها من الجمعيات التي تأسست في بلاد الشام. فهل نكون، بهذا التفسير، أول من ذهب هذا المذهب في التفسير. لقد سبقنا إلى ذلك بعض المفكرين الشوام وإن بانتهاج سبل مختلفة، مثل أنيس صائغ الذي اجتهد في بيان تهافت ما تذهب إليه كثير من الدراسات من التأريخ لـ "قصة القومية العربية" منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر فكتب :

³⁹ جورج زيدان. — تاريخ الماسونية العام، ص 261

« درج بعض مؤرخي الفكرة القومية في البلاد العربية على أن يعودوا إلى الحركات الإصلاحية نسبياً التي ظهرت في بعض بقاع الوطن في القرن الماضي ويشيرون إليها كنواة للتفكير القومي والسياسي ولكن هذه النشاطات (كفتوحات وإجراءات محمد علي ودعوتي الوهابيين والسنوسيين وكتابات محمد عبده) لم تكن في الواقع إجراءات قومية ولا أساساً لحركات قومية وإن كانت قد مهدت للفكر القومي تمهيداً غير مباشر، ولا يصح بالتالي، أن نعتبرها من ضمن المجرى التاريخي للفكر القومي الصرف، فإنها لم تخرج عن الصعيد الديني الصميم ولا عن نطاق الإجراءات الفردية»⁴⁰

ولكن أنيس صائغ وهو ينهج هذا النهج لا يتحرج من التأريخ " للفكرة العربية " بداية من تأسيس " جمعية بيروت السرية " ولا من الربط بين هذه الجمعية التي تأخذ بنظرة حديثة إلى الأشياء وحركة الشريف حسين العروبية الإسلامية التي تستند إلى نظرية تقليدية كانت ثورة 1916 - 1918 ذروة تكامل مفاهيم المرحلة الأولى للقومية بعد تجمع وانتشار في مدى نصف قرن»⁴¹

ونكاد نستغني عن القول إن كل دراستنا تقوم على عكس ما يذهب إليه هذا الباحث الشامي الذي يحكمه هاجس التمكين للفكرة العربية ولو على حساب اختلاف النظرة إلى الأشياء بين مفكرين أمثال فارس نمر ومحمد رشيد رضا ونجيب العازوري لمجرد أن هؤلاء جميعهم "ناصروا" ثورة شريف " أم القرى ". هذا التأريخ للفكرة العربية بداية من نشأة " جمعية بيروت السرية " هو نفسه التأريخ الذي اعتمده جورج أنطونيوس الذي سبق أن ذكرنا أنه أرخ لـ " قصة الحركة القومية العربية " بسنة... 1847. فجورج أنطونيوس يرى أنه « من هذا البرنامج أيضا (يقصد برنامج جمعية بيروت السرية) نبتت جذور فكرة الوحدة العربية التي انتشرت من بلاد الشام فشملت جميع أنحاء الوطن القومي للعرب»⁴² يضع المرء بين هذه التواريخ المتضاربة التي يذكرها القوم تاريخاً لنشأة " الفكرة العربية " فأيهما مثلاً هو الصحيح عند جورج أنطونيوس نفسه : 1847 السنة التي "بدأت" (فيها) قصة الحركة القومية للعرب " أم سنة 1881 التي "نبتت" (فيها) جذور فكرة الوحدة العربية " ؟ وما معنى الجذور في هذه الحالة وإلام تبقى الجذور جذورا ؟

40 أنيس صائغ . — الماشيون والثورة العربية الكبرى، ص 271

41 أنيس صائغ . — الماشيون والثورة العربية الكبرى، ص 73

42 جورج أنطونيوس . — بقطة العرب، ص 158

إن هذا الاختلاف يعود في قدر غير قليل منه إلى سبب إيديولوجي بحث : فلتعدّد الطوائف في الشام عامة و في لبنان خاصة لا يتمكّن المفكّرون في هذه المنطقة من تحقيق إجماع حول تاريخ منطقتهم القديم منه والحديث والمعاصر. ولذلك نرى وجيه كوثراني ينقد جورج أنطونيوس، من وجهة نظر ماديّة تاريخيّة هذه المرّة، نقداً لاذعاً فيما يتّصل بهذه المسألة :

« ينطلق (جورج أنطونيوس) من مفهوم رومنسي مثاليّ للقوميّة العربيّة فيراها فكرة مجردة ، عن أرض الواقع ويبحث لها عن بدايات في الأفكار المعلنة دون انتباه للقوى الاجتماعيّة التي حملتها لذلك نراه يعتبر هذه البداية " أول محاولة منظّمة لبعث الحركة العربيّة القوميّة " ويبني جسراً بينها وبين الدعوة القوميّة كما تبلورت أثناء وبعد الحرب العالميّة الأولى».⁴³

نكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ نقد كوثراني مذهب أنطونيوس إنما هو نقد لأنيس صائغ الذي يتبنّى مذهبه كما نكتفي بالإشارة إلى أن وجيه كوثراني يتبنّى هو نفسه الرأي القائل إن الحركة العربيّة (...) تبلورت أثناء وبعد الحرب العالميّة الأولى، وهذا مخالف لما نذهب إليه نحن في هذه المسألة إذ نردّ ظهور الفكرة العربيّة كما نعرفها اليوم إلى العشرينات (أي الفترة التي لا تدخل مباشرة ضمن هذه الدراسة) ونفسرها على أساس أنها حركة تولّدت عن شعور بالخطر بين القوميين التركي والإيراني. إنّ نقد كوثراني لأنطونيوس سببه أنّه لاحظ أنّه « منذ 1881 وحتى 1908 لم تشهد المرحلة أي عمل سياسيّ بارز في المدن السوريّة »⁴⁴ فكيف يمكن للمرء أن يؤرّخ لحركة قوميّة بسنة 1881 - 1882 إذا عقيبت هذه السنة عقود من الخمول السياسيّ خاصة إذا أصرّ مثلاً على المقارنة بين ولادة الحركة القوميّة اللبنانيّة وتواصلها أو الحركة القوميّة اليهوديّة واتساع نشاطها الثقافيّ والعمليّ والسياسيّ ودوريّة مؤتمراتها ؟ و هل يكفي، في حالة " جمعيّة بيروت السريّة " (وولاية بيروت كانت مجاورة لتصرفيّة الجبل وكانت موطناً للنشاط الصهيونيّ في آن واحد إذ لا ننسى أنّها كانت تضمّ متصرفيّات بيروت العاصمة وعكاً وطرابلس واللاذقيّة ونابلس) ظهور بعض القصائد والمنشورات في فترة قصيرة ستنقطع بعدها ويهاجر أصحابها إلى مصر للتظّل ببريطانيا للتأسيس لحركة بخطر "الحركة القوميّة العربيّة " ؟ ثم إلى أي حد يمكن اعتبار الجماعة المؤسّسة لجمعيّة بيروت السريّة (وهم أساساً من البروتستانت والماسونيين في آن واحد) الذين

⁴³ وجيه كوثراني . — الاتجاهات، ص 127

⁴⁴ وجيه كوثراني . — الاتجاهات، ص 147

سارعوا، عند احتلال بريطانيا مصر، إلى الهجرة إليها وتأسيس الشركات والجرائد والمجلات فيها، بحماية وتشجيع بريطانيين، خدمة "للأمة العربية" أكثر مما هم خدمة لبريطانيا التي كانوا يرون أن احتلالها لمصر شأنهم في ذلك شأن القومي اللبناني نجيب العازوري والعروبي الإسلامي محمد عبده خير صرف لا شر محض، وهل تتفق القومية التي هي أساسا موقف نابذ للقوميات الأخرى مع كسموبوليتية جماعة بيروت السرية؟

يعتقد وجيه كوثراني أن التعبير عن القومية إنما هو في نهاية الأمر تعبير جماعة من الناس عن رغبات ومصالح يرون أنها تتفق مع مصالح ورغبات جماعة من مواطنيهم أكبر عددا ولذلك فهو يدعو جورج أنطونيوس إلى البحث "في أرض الواقع" عن "بذور القومية" "فأرض الواقع" هي الحكم الفصل في الحكم على ظهور القومية في فترة دون فترة أخرى. وعندما لا توجد ظروف لنشأة الفكرة القومية ونموها ومن ثم نجاحها فمن العبث البحث لها عن جذور و"بدايات في الأفكار المعلنة". وعلينا هنا أن نشير إلى أن تفكير كوثراني هو تفكير جيل كامل من العرب ولد في ثلاثينات القرن العشرين واتجه في تفكيره وجهة مادية تاريخية ولم يكن ذلك شأن جورج أنطونيوس الذي ينتمي إلى جيل سابق وظهر كتابه نهاية الثلاثينات. ومما يدل على صحة ما نذهب إليه أن قسطنطين زريق (ولد 1909) الذي ينتسب إلى "القومية الحديثة" عرف القومية تعريفا ينفي إمكانية ظهورها حتى بعد الحرب العالمية الأولى إذ «أن الحركة القومية أية حركة قومية كانت - لا تتحقق وتنجح إلا في مجتمع قد بلغ نوعا معينا من التطور والانسجام (...) ولم تتأصل جذور القوميات في العالم، ولن تتأصل جذور القومية العربية، إلا على هذا الأساس»⁴⁵

يتضح من خلال ما كتب زريق (وأهمية هذا المفكر تكمن، في نظرنا، في تركيزه على العوامل الداخلية من ناحية وفي اعتبار الظاهرة القومية ظاهرة إنسانية بحيث لا يختص بها شعب من الشعوب ومن ثم يمكن مقارنة تجربة شعب ما بتجربة شعب آخر من ناحية ثانية) أنه لا الإسلامية ولا العروبية الإسلامية تدخلان ضمن القومية أما دعوة "جمعية بيروت السرية" فهي حتى عندما نعتبرها دعوه قومية قد ظهرت (ولا بد من التساؤل عن هذا "الشذوذ") في مجتمع لا يمكن أن يحتضن مثل هذه الدعوة لأنه "لم يبلغ نوعا معينا من التطور والانسجام". وما يصح على المجتمع الشامي في القرن التاسع عشر يصح فيما يتصل

⁴⁵ قسطنطين زريق. — نحن والتاريخ. مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ. ص 203

بمستوى التطور على القبائل العربية التي انخرطت في ثورة الشريف حسين إذ اندلعت هذه الثورة في "مجتمع تسوده أوضاع القرون الوسطى".

ومن هنا تسقط إمكانية نسبة نشأة الفكرة العربية إلى جماعة بيروت السرية أو على الأقل يتقلص إلى حد كبير الادعاء بأن هذه الدعوة كانت استجابة لمصالح ورغبات الأغلبية الساحقة من الشوام. وفوق ذلك يتساءل المرء عما كتب بعض أعضاء هذه الجمعية وعن برنامجها ؟ وخاصة، وهذا يتصل بنواة هذه الدراسة، عن نظرهم إلى علاقة الله بالطبيعة وعلاقة الدولة بالمجتمع وإلى أي حد كانت هذه النظرة نظرة يمكن أن تأخذ بها "الأمة العربية" أي هذه التربة التي يتوقف عليها إمكانية احتضان هذه "البذرة" أو "نبذها"؟.

تتضمن القصائد التي ينسبها أغلب الباحثين إلى إبراهيم اليازجي ويرون فيها "بذور القومية العربية" تفرقة تامة بين "العرب" و"الترك" وتعتبر أن علاقة العنصر التركي بالعنصر العربي كانت دائما علاقة "استعمارية" (البسيط).

أقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
وفي علاقة كهذه، تنتفي إمكانية التعايش بين هذين الجنسين فلا بدّ عندئذ من البحث عن وسيلة خلاص.

ويتصفح إبراهيم اليازجي الأفق باحثا عن هذه الوسيلة فلا يعثر على نواة دولة عربية يمكن أن تسند مطلبه مثلما عثر السلافيون مثلا على بلغراد قاعدة ينطلقون منها لمقاومة العثمانيين :

لا دولة لكم يشتدّ أزركم
فلا يتبقى أمامه بعد الوعد والوعيد:

لنطلبنّ بحدّ السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه أرب

غير بريطانيا التي كان العروبيون الإسلاميون والقوميون اليهود يخطبون ودّها، جميعا، يتطلّل بها ويدور معها حيثما دارت شأنه في ذلك شأن يعقوب صروف وشأن فارس نمر الذي أثر عنه قوله " أنا احتلاليّ على رؤوس الأشهاد، من أكبر الاحتلاليين لأنني جاهرت وشهدت، ولم أخف ولم أنكر أن المحتلين أصلحو في هذا القطر إصلاحا عظيما " ⁴⁶.

⁴⁶ كوثريان . — الاتجاهات، ص 164. ولا يختلف موقف فارس نمر في شيء عن موقف الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت (1901 - 1909) الذي صرّح في خطبة له ألقاها في مقر بلدية لندن يوم الثلاثاء 30 أفريل 1910 في خصوص مصر " لقد أعطيتكم مصر أحسن حكومة حكمت عليها منذ ألفي سنة على الأقلّ بل أعطيتكموها أحسن

إن كانت القومية العربية والثورة العربية هما ما وصفنا فلقد أصاب جورج أنطونيوس وأخطأنا نحن. ذلك أننا نميل إلى تفضيل حكم سلامة موسى، الذي لم تشبه شائبة "حب بريطانيا" على مدى شعور بعض قدماء جمعية بيروت السرية "القومي العربي" :
 « إن جميع هؤلاء الأربعة (يقصد جورججي زيدان وفرح أنطون ويعقوب صروف وأمين المعلوف) كانوا سوريين أو كما نقول الآن، بعد التجزئة التي أعقبت الدولة العثمانية، لبنانيين، وكانو جميعهم كارهين للحكم العثماني لايطبقون ذكره وكان، إذا شرع أحدهم في الحديث عنه، لم يتمالك من الغيظ. ولم يكن وجدانهم وطنياً لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسّمت. وكان اليأس أغلب عليهم. وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية، عقب الحرب الكبرى، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية، وأظن أنهم كانوا على حق في هذا »⁴⁷.

وعلى عكس هؤلاء العرب الذين كانوا "كارهين للحكم العثماني" ويأشسين من قيام حكم عربي بديل، كان اليهود الأشكيناز، الذين نخصّص لهم الفصل الموالي، يندفعون أفراداً وجماعات نحن أرض هؤلاء العرب يسكنهم إيمان صهيوني شبه صوفي أن "الغد القومي اليهودي لناظره قريب".

حكومة حكمت عليها طول دهرها على أن الحوادث الحديثة، ولاسيما ما حدث منها وقت مقتل بطرس باشا منذ ثلاثة أشهر، وبعد قتله، قد دلت على أنكم أخطأتم في بعض الأمور الجوهرية والواجب عليكم أن تصلحوا أخطاءكم. هذا الخطأ نتج عن سعيكم في أن تعملوا الخير المصريين أنفسهم أكثر مما يلزم، لا أقل مما يلزم على أنه ينبغي لسوء الحظ لكل من قبض له منا أن يعامل أقوا ما غير متمدينة وخصوصا الاقوام المتعصبة ان يتذكر أن الضعف والتهيب ورقة لقلب والعواطف في مركز كمر كركم في مصر يمكن أن تؤدي الى ضرر أعظم من الظلم والجور، إذ رقة القلب والحنو هما اضعف قصبة مرضوضة يمكن للعدل و الاسقامة الاعتماد عليها" (أورد ذلك سعيد إسماعيل علي في المجتمع المصري في عهد الاحتلال البريطاني 1882-1923 البناء الاقتصادي والتشكيل السياسي. القاهرة، 1972 ص 304 نقلا عن المقطم" بتاريخ 7 جوان 1910 السنة 6444) ولقد شجب حافظ إبراهيم هذا الموقف فنظم (الخفيف) :

يا نصير الضعيف ما لك تطــــــــــــــــــــــــري	خطة القوم بعد ذاك النـــــــــــــــــــــــــكبر ؟
لم تطيقوا حوارهم، بل أقــــــــــــــــــــــــتم	في حاكم من دولهم ألف ســــــــــــــــــــــــور
أنت تطريهم وتثني عليــــــــــــــــــــــــهم	نائما آمنا وراء البحــــــــــــــــــــــــور
ليت شعري أكنت تدعو إليــــــــــــــــــــــــهم	يوم كانوا على تخوم الشــــــــــــــــــــــــور ؟

⁴⁷ سلامة موسى . - تربية سلامة موسى. - القاهرة، 1958، ص 187

الفصل السابع

موسم هجرة الأشكيناو إلى الجنوب

على العكس من وضع المسيحيين الأرمن والمارونيين والمسلمين غير السنّة مثل النصيريين... لم يتعرّض اليهود في بلاد الشام خاصّة وفي السلطنة بصفة عامّة لمثل ما كانوا يتعرّضون له من امتحان في أوروبا الشرقية والوسطى وحتى في فرنسا (قضيّة دريفوس، شفق عدد من اليهود في الجزائر على أيدي الفرنسيين نهاية القرن التاسع عشر) بل لعل سياسة السلطنة المتسامحة إزاء اليهود وضعفها في آن واحد كانا من العوامل التي وجّهت أنظار دعاة القوميّة اليهوديّة (الصهيونيّة) من الأشكيناز¹ إلى التفكير في "ملاذ" قوميّ يهوديّ في الشام شبيهة بمتصرّفه لبنان.

ففي روسيا تعدّ الفترة التي عقيبت حرب القرم (1855) فترة مفصليّة هامّة إذ شهدت على عهد اسكندر الثاني (1856 - 1881) أحداثاً اقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة هامّة. لقد حكم هذا القيصر امبراطوريّة متعدّدة الأجناس والأديان بعد هزيمة روسيا في حرب القرم وانقلاب الموازين في أوروبا لفائدة البلدان المصنّعة أو التي في طريقها السريع إلى التصنيع (انكلترا، فرنسا، بروسيا...) ولم تكن روسيا (ذات الخمسين مليوناً من السكان سنة 1855) تعدّ من العمّال أكثر من 500.000 عامل (1%) ولذلك حدثت في عهده عمليّة تصنيع سريعة نمت نتيجتها السكك الحديدية وغيرها واضطرّ القيصر إلى تحرير مزارعي الدولة (1861) ومنح الأقنان الحرية الشخصية ولقد كان وضع هؤلاء، على عهد نيكيتا الأوّل، شبيهاً بوضع الأقنان في العصور الوسطى الغربية.

غير أن هذه الإجراءات إذا كانت قد استفادت منها البورجوازية الروسية الناشئة لم تغير كثير شيء من أوضاع "الخود" الروسية ولذلك بدت شاذة في بلد أوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهذا هو ما يفسر شدة الحركات التي ظهرت في روسيا ومنها حركات ذات نزعة اشتراكية وشيوعية وفوضوية (باكونين : 1876/1814) ويمكن لبعض كتابات ماكسيم غوركي (1868-1936) قبل ثورة 1905 مثل «القيعان» (1902) وبعدها مثل «الأم» (1907) أن تعطي المرء فكرة عن الحركات الاجتماعية العميقة التي كانت تضطرب تحت سطح المجتمع الأرستقراطي والإقطاعي والديني الروسي.

هذا الغليان الداخلي لم يمنع القيصر من مواصلة سياسته العسكرية والتوسعية سواء إزاء السلطنة العثمانية على عهدي السلطانين عبد العزيز و عبد الحميد أو في المناطق المسلمة الواقعة جنوب بلاد القوقاز. ولذلك نراه في سبعينات القرن التاسع عشر يفتك بعض

¹ الاشكيناز : يهود أوروبا ذرو الثقافة واللغة اليديشيتين

ممتلكات الدولة العثمانية (القارص والباطوم) فيهلل لهذا الانتصار الروسي بعض ممثلي الحركات غير المنظمة من الشوام مثل حسون الحلبي (الخفيف).

علم الروس يخفق اليوم فوق الـ
هكذا هكذا تدور على البها
قرص وولى الأتراك في الغابرينا
غي الليالي ويهلك المجر مونا
وتساو أو أنهم أنصفونا¹

كما نراه في منتصف هذه السبعينات ينهي احتلال إمارات التركستان فيتسبب، على عكس الحالة السابقة، في نمو طموح تثار روسيا و الأذربيجيين الذين استفادوا من الثورة الصناعية الروسية المتأخرة إلى قيادة حركة تدافع عن شخصيتهم المتمثلة في إسلام تتاري جديد ولغة تركية مبسطة. على أن هذا الوضع في روسيا الشاسعة إذا كان له الأثر الذي ذكرنا على بعض القوى النابذة في الشام أو على التتار المسلمين في روسيا فإنه لم يكن، فيما يتعلق باليهود الروس، بالوضوح الذي ذكرنا : وفلا فإن جزء من هؤلاء كانوا يتواجدون سواء في مراكز التأثير الاقتصادي أو في مجال المضاربات التي سينجر عنها أزمة السبعينات المالية كما كانوا يتواجدون بعدد كبير ضمن الإنتلغنسيا² الروسية الراديكالية. أما أغلبهم فكان ضمن الطبقة الشعبية التي سيسحقها التطور الرأسمالي السريع ومن هنا سيكون اغتيال القيصر سنة 1881 إحدى مناسبات تحميل اليهود مسؤولية النشاط السياسي التغييري.

وإذن فقد كان لتطور الرأسمالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما تبعه من أزمات مالية نتائج فادحة على المستويين الاجتماعي والفكري إذ كثيرا ما يكون من نتائج مثل هذه الأزمات الاقتصادية الحادة الشك في النظريات العقلانية التي كثيرا ما يقترن ظهورها بقترات الازدهار الاقتصادي والاطمئنان النفسي وظهور حالات عامة من الاستعداد والتأهب لردود الفعل العنصرية. وستكتب الأشكيناوية غولدا مايير (1898-1978) عن طفولتها بمناسبة أحد « البوغرومات » ما يمكن أن يصدق على الأطفال المسيحيين أثناء حرب 1860 الأهلية في الشام أو على الأطفال الأرمن أثناء مذابح تسعينات القرن التاسع عشر أو على الأطفال الفلسطينيين يوم يتحول اليهود، بفعل القومية، من ضحايا إلى جلادين :

« كنا نعيش في الطابق الأرضي من منزل صغير في كيبف ولم تتجاوز سني عمري الأربع. وما زلت أذكر تماما ما كنت أسمع عن تلك المذبحة التي كانت ستلّم بنا. لم أعرف عندها

¹ سامي الدهان . — الشعراء الأعلام في سورية . — بيروت، ط2، 1968. — ص 25

² الانتلغنسيا : كلمة روسية تعني مجموعة المثقفين.

ما ذا تعني كلمة "المذبحة". كل ما أعرفه أنها تعني شيئاً ضدّ الشعب اليهودي عند أولئك الغوغائيين الذين يطوفون البلدة حاملين السكاكين والعصي الغليظة صارخين، باحثين "عن قتلة المسيح" على حدّ تعبيرهم للاقتصاص منهم بأعمال إجرامية مخيفة. ولم تكن عائلتي - بالطبع - بعيدة عن هذا القصاص⁴. لم تنج ألمانيا والإمبراطورية النمساوية - المجرية هما كذلك من الأزمة الاقتصادية الخانقة وما تبعها من تهم وجهت إلى مراكز التأثير الاقتصادي اليهودية وإلى نشاطها في مجال المضاربات، وهو نشاط خطير على الاستثمار ويعدّ من أكبر أسباب تفاقم البطالة، وهي تهم لم ينف صحتها حتى بعض المؤرخين الصهاينة :

« بعد الازدهار الاقتصادي بداية السبعينات حدثت أزمة اقتصادية خطيرة ووقع اعتبار اليهود الذين لعبوا دوراً رئيسياً في المضاربات المالية مسؤولين عن هذه الأزمة »⁵

ونتيجة لذلك نجد المؤرخ الألماني (ترايتشكو) يصرّح بما سيصبح مثلاً يضرب : «إن اليهود هم آفتنا» ويعتبر « أن اندماج اليهود اندماجاً تاماً في المجتمع الألماني هو الحريّ بحلّ المسألة اليهودية ذلك أنه لا متّسع على الأرض الألمانية لقوميتين »⁶.

إنّ الاندماج الذي كان يطلبه المؤرخ الألماني يعتبر قضية مركزية في التفكير الصهيوني، كما سنرى ذلك فيما بعد. فالصهاينة مجمعون على إساءة الظنّ بهذه الفكرة، لأسباب عديدة. ولعلّ أفضل ما يمكن أن يشعر القارئ بحقيقة الإحساس اليهودي العام بالضيق هو كتابات فرانز كافكا (1883 - 1924) التي كانت في الأصل تعبّر عن شعور بضيق قاتل كان يهودي المنشأ وتبرّره عوامل موضوعية وذاتية خاصة ثم انفلت من رباطه الموضوعي والذاتي الأصلي ليتحوّل بتأثير تطوّر الرأسمالية وميلها الفظّ إلى كسر كلّ الكيانات كبيرة كانت أو صغيرة بتأثير النقد وتوجيه الأذواق إلى شعور «إنسانيّ» عام.

أما فرنسا وهي بلد "حقوق الإنسان والمواطن" فستهزّها في منتصف تسعينات القرن التاسع عشر قضية درايفوس هزاً.

وما وصفنا من أوضاع اليهود في أوروبا ولّد عند النخبة اليهودية غير الماركسية ما ولّدته السياسة الروسية عند التتار المسلمين وما ولّدته سياسة السلطنة عند الأرمن والوارنة

⁴ غولدا ماير . — الحقد (والعنوان بالانكليزية هو حياتي) . — بيروت، 2 ط، 1988 . — ص 13

⁵ والتر لاكر . — تاريخ الصهيونية، ص 693

⁶ المرجع السابق، ص 42

وبعض البروتستانت العرب و العربيين الإسلاميين من ضيق بالوضع ومن تساؤل محير : ما العمل ؟

ولقد وجدوا في ضعف السلطنة وفي إنشاء « متصرفية لبنان » بضمانة من القوى العظمى حلاً للمسألة اليهودية إذ ما الذي يمنع في هذه البوتقة التي تسمى بلاد الشام والتي لم تنصهر فيها الأجناس والديانات في وحدة عثمانية صلبة ومنيعه والتي هي مثال مصغر من السلطنة جميعها من قيام كيان جديد هو الوطن اليهودي ؟

إن كل الكتاب القوميين اليهود تقريباً ، ألفوا في المسألة اليهودية بعد قيام متصرفية لبنان (1861) وبعد تناول الصحف الفرنسية وجريدة "برجيس باريس" مشروع نابليون الثالث المتمثل في إنشاء مملكة عربية في الشام يرأسها عبد القادر الجزائري ويكون لمتصرفية لبنان فيها منزلة خاصة . ولعل التشابه بين وضع اليهود ووضع المارونيين هو الذي قاد يوسف آصاف إلى أن يقر بـ "شرعية" المشروع الصهيوني .

من هم هؤلاء الكتاب اليهود الذين أشرنا إليهم ؟ إنهم :

- جوزيف سالفادور (1796 - 1873)

- موشي هيس (1812 - 1875)

- ليون بينسكر (1820 - 1891)

- ماكس نورداو (1849 - 1923) ، عضد تيودور هرتزل الأيمن (1860 - 1904)

- آحاد حاعام (1856 - 1927)

ولسوف يكون آحاد حاعام هو أستاذ حايم وايزمان (1874 - 1952) مجايل محمد كرد علي تماماً كما سيكون مصطفى فاضل أستاذ العثمانيين الائتلافيين وأحمد رضا أستاذ العثمانيين الاتحاديين ومحمد عبده أستاذ العربيين الإسلاميين وإسماعيل غاسبرينسكي أستاذ يوسف أقجورا ويوسف آصاف أستاذ الفينيقيين الجدد ، وكورنيليوس فاندريك أستاذ العرب البروتستانت الذين سينسب إليهم جورج أنطونيوس نشأة الفكرة العربية وطاهر الجزائري أستاذ محمد كرد علي .

فما هي ملامح تفكير هؤلاء القوميين اليهود وما هي ملامح تفكير أول رئيس لدولة

إسرائيل ؟

يعتبر جوزيف سلفادور، وهو من اليهود السفارديم⁷ أول كاتب يهودي دعا في فرنسا إلى فكرة العودة اليهودية إلى صهيون خاصة في كتابه «روما، باريس وأورشليم» (القدس) الذي ينبني على ثلاثية يبدأ وجهها الأول في سيناء ببداية الوحي الموسوي وينتهي في أورشليم بحريق المعبد على عهد الإمبراطور الروماني فسبسيان : في هذا الطور اكتشف موسى والأنبياء اليهود الحقيقة الأخلاقية التي انفرد بورايتها الشعب اليهودي من دون غيره من شعوب الأرض. ويتعلق الوجه الثاني بنشأة المسيحية الرومانية «المستبدة». ولقد نشأت هذه الديانة عندما طبق العالم الوثني قصص الأنبياء اليهود الرمزية المتعلقة بامتحان المسيح في البداية وضرورة انتصاره نهاية على شخص يسوع.

أما الطور الثالث فهو الطور الذي ظهر فيه وحي جديد هو وحي الفلاسفة ممثلاً في فولتير والثورة الفرنسية والعلم والنقد فذهب بأسس «الاستبداد الروماني» وحصل اليهود، إثر الثورة الفرنسية، على حقوق تسوي بينهم وبين بقية البشر : وهذه الثورة تسمح، بما أقرت من مبادئ الحرية والمساواة المدنية، بتعويض أورشليم القديمة وروما القديمة معا بأورشليم جديدة تعيد إلى العالم وحدته ويكون مقر حكومتها العالمية على أرض أورشليم القديمة نفسها⁸.

لم يكن اليهود زمن ظهور هذا الكتاب يتعرضون لضغط خانق في أوروبا أو لم يكونوا، على الأقل، يحسون بهذا الضغط إحساساً ساماً، وهذا هو ما يفسر ضعف الشكوى والحسرة والبغضاء جميعاً فيه ثم إنه لهذه الأسباب كان يدعو إلى إقامة هذه الدولة تحت حماية فرنسية ولا يشكك في قيم الثورة الفرنسية التي كانت سبابة إلى الدعوة، قانونياً، إلى تحرير اليهود. ومع ذلك فقد كان لهذا الكتاب تأثير كبير على الكتاب الصهيونية اللاحقين.

يتميز التفكير الصهيوني بتسلسل حلقاته في القرن التاسع عشر على عكس ما ينسب جورج أنطونيوس إلى «الحركة العربية» من تواصل ولذلك نرى موشي هيس يكتب سنة 1862. «روما والقدس: آخر مسألة في القومية» يتناول فيه علاقة اليهود بالغرب ويكاد يحمل فيه على المتغربين من اليهود.

ولد موشي هيس (1812-1875) في بون وعرف بانتماؤه إلى الهيجليين الجدد في الثلاثينات وفي جزء من أربعينات القرن التاسع عشر وكذلك بعلاقته بكارل ماركس

⁷ سيفردم (ج. سيفاردي) يهود البحر الأبيض المتوسط.

⁸ كامينسكي و كروك . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 73

وفريدريش أنجلز معاصري الشدياق الشامي. وقد هاجمه ماركس في « بيان الحزب الشيوعي » (1847) لأن هيس كان ينزل الإرادة الواعية أي الجانب الذاتي منزلة هامة في حركة الدعوة إلى مجتمع اشتراكي ولا يعطي " القوى الموضوعية في التاريخ " ما يعطيها ماركس من صفة العامل الحاسم. وهذا الاختلاف في تحديد المحرك الأساسي للتاريخ يقود إلى اختلاف في الموقف من قضية القومية :

« يمكن للمرء أن ينظر إلى قضية الدولة القومية (ETAT-NATION) من وجهتي نظر مختلفتين : إما من وجهة النظر الماركسية فحسب التي تقول بالاحتمية الاجتماعية والاقتصادية إذ أن تركيب المجتمع الاقتصادي هو القاعدة المادية الأصل (Concrète) التي يقوم عليها بناء فوقه قانوني وسياسي⁹ وإما من جهة نظر لا تقول بغير الخصوصيات التي تميز جماعة من الجماعات مثل تاريخ هذه الجماعة ولغتها وثقافتها¹⁰ ».

هرب هيس من ألمانيا إلى باريس فقصى في العاصمة الفرنسية سنوات عديدة تخلّى فيها عن كل نشاط سياسي عملي وتفرغ لدرس العلوم الطبيعية إلا أنه أصدر، فجأة، وبالألمانية، سنة 1862 كتابا في بعث " إسرائيل " اشتهر باسم " روما والقدس، آخر مسألة في القومية " افتتحه بالفقرة التالية :

« ها أنذا بين شعبي من جديد بعد عشرين سنة من الاعتزال ، أقاسمه أيام الفرح وأيام الحزن وأقاسمه ذكرياته وآلامه ، أشارك معه في الصراعات الروحية التي تنشب في داخله وفي داخل الشعوب المتحضرة التي يعيش بينها. إن هناك فكرة طالما ظننت أنها انطفأت انطفاء كاملا في صدري ولكنها عادت لتحيا من جديد ، قوية ، متوحدة... هذه الفكرة هي فكرة قوميتي التي لا تنفصل عن إرث آبائي وإرث الأرض المقدسة والمدينة الخالدة التي شهدت ولادة الإيمان بوحدة الحياة الإلهية في تأخ مقبل للبشر جميعهم¹¹ ».

ما أشبه كتاب موشي هيس بـ « المنقذ من الضلال ». والضلال هنا هو الاندماج في الحضارة الغربية والخلاص هنا هو "الفكرة القومية". ولقد دامت فترة شك هيس، على ما يقول، عشرين سنة كاملة. إن ما يشد الانتباه في هذا الكتاب هو من ناحية تأكيده على عجز

⁹ K.Marx.- Contribution à la critique de l'économie politique. - Paris, 1957 p.4

أوردت ذلك كامينسكي . - المرجع السابق، ص 13

¹⁰ كامينسكي . - القومية العربية والقومية اليهودية . - ص 14

¹¹ أورد ذلك والتراكم في تاريخ الصهيونية، ص 63

الإصلاح والتنصّر والتربية وكل محاولات الاندماج اليهودي في المجتمع الألماني عن تحقيق التسوية الكاملة بين اليهود و الألمان ومن ناحية ثانية حربه على التغريبيين اليهود :

« سنبقى دائما غرباء بين الأمم. إن هذه الأمم قد يدفعها شعور إنساني بالعدالة إلى تحريرنا ولكنها لن تحترمنا البتة ما دمنا نتخذ من المثل "حيثما تكون بخير فذاك هو الوطن" قاعدة لسلوكنا بل حتى لو نزلناه الصدارة في ذكرياتنا الوطنية الكبيرة. قد يكفّ التعصّب الديني عن إثارة الحقد ضدّ اليهود في البلدان الأكثر تقدّمًا ثقافيًا غير أن اليهودي في منغاه لن ينال البتة رغم الأنوار والتربية احترام الأم التي ساكنها ولو أخفى قوميته »¹²

إننا لن نعثر فيما بعد هذه الصفحات على كاتب يهودي عبّر بمثل ما عبّر عنه هيس من شكّ في " عقلانيّة الغرب" وفي قدرة عصر الأنوار بوجهيه الفرنسي والألماني خاصة على تغيير سريع لعقليّة الشعوب الغربيّة :

« لا يمكن حتّى لقرار يتّخذه اليهود بالتنصّر أن ينقذهم من ضغط اللاساميّة الألمانيّة الجسيمة. إنّ الألمان لا يكرهون دين اليهود بقدر ما يكرهون الأنف اليهودي المميّز. فلا الإصلاح واعتناق النصرانيّة أو التربية أو التحرّر يفتح لليهود الألمان أبواب المجتمع الألمانيّ ولذلك نشأت هذه الرغبة عند اليهود في نفي محتدم الاجتماعيّ »¹³

لقد أفضى إيمان هيس باستحالة اندماج اليهود في الأمم التي يعيشون بينها إلى الدعوة إلى العودة إلى فلسطين حيث يكون بإمكانهم أن يؤسّسوا لهم في الشام المنقسم على نفسه عرقيًا ودينيًا وطائفيًا، دولة يهوديّة ذات طابع اشتراكيّ يمنع أن يستغل فيه يهودي يهوديًا.

إن الفترة التي كتب فيها هيس رسائله الإثنيتي عشرة والحواشي العشر إلى إمراة متخيلة والتي اشتهرت باسم "روماوالقدس" (1862) لم تكن في ألمانيا فترة اضطهاد يذكر لليهود. ولعل ذلك هو ما يفسر أن الكتاب لم يلق آنذاك صدّى فمات صاحبه في باريس سنة 1875 وبقي لمدة نسيا منسياً. وعلى العكس من ألمانيا فإنّ البوغرومات التي ستتالي في روسيا بعد مقتل القيصر إسكندر الثاني خاصة بداية الثمانينات واتهام اليساريين، وفيهم عدد كبير من اليهود، بمشاركتهم في الحركات الفوضويّة والشعبويّة Norodnitchestva سوف تكون سببا في تكاثر الكتابات اليهوديّة ذات الطابع القوميّ. فهذا الطبيب اليهودي ليون بينسكر

¹² (والترلاكر . - الصهيونية، ص 65

¹³ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(1820 - 1891) ينشر في برلين سنة 1882 كتاب "الانعتاق الذاتي" متّخذاً من الشعار "إن لم يعن اليهود اليهود فلن يعينهم أحد" وسيلة متطورة بالنسبة إلى وسائل من سبقوه لتغيير أوضاع عامة قومه محمّلاً اليهود أنفسهم مسؤولية الوضع الذي يعيشون، هذا الوضع الذي لن يتغيّر، في نظره، « ما دام من طبع هذا الشعب أن ينتج بدواً تائهيين وطالما بقي اليهود عاجزين عن تقديم إجابة مرضية إلى هؤلاء الذين يسألونهم من أين أتيتم وإلى أين انتم ذاهبون وما دام اليهود أنفسهم يفضلون عدم الحديث في وسط آريّ عن أصلهم الساميّ أو يفضلون أن لا يذكرهم به أحد وطالما بقوا مضطهدين، متحمّلين الضيم، وفي وضع الحميين المحرّرين » يرسم بينسكر صورة اليهوديّ كما تحدّدت عند غير اليهود :

« اليهوديّ في نظر الأحياء ميّت... وفي نظر أهل البلاد غريب... وفي نظر المستقرّين متشرّد... وفي نظر الأغنياء متسوّل... وفي نظر الفقراء مستغلّ صاحب ملايين... وفي نظر الوطنيين من ذوي الجنسيّة... عديم الجنسيّة... وفي نظر كل الطبقات منافس بغيض ¹⁴ »

لينتهي به الأمر إلى تقرير :

« إن اليهود على عكس الشعوب الأخرى، مازالوا مثل الزنوج و النساء في حاجة إلى أن يحرّروا » ¹⁵

فلا علاج عندئذ للمعضلة اليهوديّة حسب بينسكر إلّا بالتعويل على الذات. ويحدّد برنامجها فإذا هو يحتوي بذور اتجاهين صهيونيّين، نقصد الاتجاه العمليّ والاتجاه السياسيّ لأنّه يتمثّل في :

- الدعوة إلى مؤتمر وطنيّ يعمل على اقتناء أرض يلجأ إليها ملايين اليهود (الاتجاه العمليّ)

- السعي إلى الحصول، على غرار القوميين اللبنانيين، على ضمانات من القوى العظمى حتى لا تتعرّض حياة اليهود في الوطن الجديد للخطر (الاتجاه السياسيّ).

هل تعني القوميّة والوطنية مجرد التواجد في مساحة معيّنة من الأرض أم تعني في جوهرها الإحساس الذي يصل في بعض الأحيان حدّ التصوّف بالانتماء إلى هذه المساحة أو

¹⁴ ولترلاكر . — تاريخ الصهيونية، ص 89 نقلاً عن Léon Pinsker . - Auto émancipation .

Jerusalem, 1956 . p. 43

¹⁵ المرجع السابق، ص 72

تلك من الأرض ؟ هذه قضية شائكة لأنها ترتبط بقضية أشمل هي هل الحياة تواجد ووجود شبه بيولوجي أم هي إحساس معين بهذا التواجد وهذا الوجود ؟ ويبدو أن بينسكر لا يقول إلا بالفهم الأخير للحياة لذلك كان في البداية "جغرافيًا" لا يهتمه موقع البلاد الملجأ ولكنه تحول إلى صهيوني بالمعنى الذي عبّر عنه موشي ليليانبلوم منذ سنة 1881 عندما كتب :

« نحن في حاجة إلى قطعة أرض صغيرة، نحن في حاجة إلى فلسطين »¹⁶.

وبهذا الاتجاه الأخير أصبح بينسكر مرجعا عند أحباء صهيون Hovevei Zion الذين نشطوا منذ وقت مبكر لاقتناء أرض يلجأ إليها ملايين اليهود.

إزاء نشاط أحباء صهيون المحموم لشراء الأراضي ظهر تيار صهيوني عبّر عنه أشير قينزبرغ المعروف كذلك باسم آحاد حاعام (1856-1927) يرى أن التركيز لا يجب أن يكون كما يدعو إلى ذلك تلامذة بينسكر المتجمعون في جميعيات «أحباء صهيون» على استعمار الأرض الفلسطينية ولو من غير إعداد مسبق للمستوطنين ولا يجب أن يكون كما يدعو إلى ذلك تيودور هرتزل الذي سنتعرض لتفكيره بعد قليل على العمل السياسي والديبلوماسي للحصول من الدول العظمى على ضمانات سياسية لقيام وطن يهودي وإنما يجب أن ينصبّ على الجانب الثقافي سواء في فلسطين أو في الشتات ذلك « أن لتأسيس جامعة من الأهمية ما لتأسيس مائة مستعمرة »¹⁷ ومن هنا كان تشديده على ضرورة بعث العبرية إذ أن بعث لغة مشتركة يعتبر في نظره المقدمة الأساسية لوجود حياة قومية¹⁸.

يرى آحاد حاعام، وهو رجل تربى في وسط حاسيدي (صوفي يهودي) أن كل شعب يحمل بصمة ثقافية هي التي تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى :

« لكل شعب أخلاقه الخاصة التي تلائم سماته القومية التي تحدّدت عبر صروف حياته وتقلّبات تاريخه (...) فالأخلاق في جزء كبير من فروع ثقافة شعب من الشعوب قد يكون أكثرها أهمية، هي، إذن، إرث قومي. إنها تحمل طابع الشعب والدولة الباقي على اختلاف الزمان »¹⁹.

¹⁶ والترلاكير - تاريخ الصهيونية، ص 84

¹⁷ المرجع السابق، ص 176

¹⁸ المرجع السابق، ص 178

¹⁹ Ahad Haam، - Au carrefour, chap. sur la « Morale nationale », Paris, 1939، أوردت ذلك

كامنسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 69

يمكن في التاريخ أن تلمس أحداث مختلفة هذه السمات في شعب من الشعوب أو أن تجعل من هذه السمات "مجلبة للشعور بالنقص" كما حدث "للمتغربين" اليهود الذين أصبحوا، سعيًا منهم إلى الاندماج في الشعوب الغربية، يستنكفون من إظهار هذه السمات : « إن اليهود الغربيين يعرفون في قرارة أنفسهم أنهم لن يكونوا أحرارًا لأنهم لا يملكون ثقافة وطنية ولذلك فهم مضطرون، تبريرا لوجودهم ، إلى نفي فكرة أن لكل شعب سمات خاصة ورسالة خاصة »²⁰.

فلا خلاص عنده للشعب اليهودي إلا باستعادة ذاكرته القومية. هذه الاستعادة تعدّ عند آحاد حكام المقوم الأساس في البناء القومي اليهودي ولذلك نراه يخطئ "أحباء صهيون" لأنهم يسعون إلى اقتناء أراضٍ في فلسطين ليهود هذا شأنهم إذ يجب في نظره « تهيئة الشعب للأرض لا الأرض للشعب »²¹ كما نراه يخطئهم عندما يظنون أن فلسطين يمكن أن تكون موطنًا لكل يهود الأرض لأن فلسطين، حتى بالنظر إلى مساحتها، يجب أن تكون "ملاذًا" لليهودية لا لليهود : « في فلسطين يمكننا ويجب علينا أن نؤسس مركزًا روحيًا لقوميتنا » فالهجرة يجب أن تنحصر في النخبة إذ على فلسطين أن تكون فحسب مركز إشعاع على يهود العالم بل على العالم :

« إن الدولة اليهودية التي ستقوم على التدرج، ستصبح مع الزمن مركز الأمة الذي تجد فيه روحها تعبيرها الخالص وتتطور في جميع وجوها حتى تبلغ أقصى ما بإمكان هذه الروح أن تبلغ من كمال. وعندئذ، ومن هذا المركز يشعّ روح اليهودية في اتجاه الدائرة الأوسع فيمسّ كل جماعات الشتات ويوحى إليها بحياة جديدة ويحفظ وحدة شعبنا الشاملة. عندما تبلغ ثقافتنا القومية في فلسطين هذا المبلغ يمكننا أن نكون على يقين من أنها ستلد في أرض إسرائيل ذاتها رجالًا يكونون قادرين في اللحظة المناسبة على أن يقيموا فيها دولة لن تكون دولة اليهود فحسب وإنما بحق دولة يهودية »²³.

²⁰ العبودية وسط الحرية) , Advout, betoch Herout - Ahad Ha'am

أورد ذلك والترلاك - تاريخ الصهيونية، ص 46

²¹ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 61

²² Ahad Ha'am . - Ce n'est pas la bonne voie (1899) in Kol Kitvei Ahad Ha' am .

Jerusalem, 1947.pp.11/15 أوردت ذلك كامينسكي، ص 69

²³ Ahad Ha'am . - l'Etat et le problème Juif, 1897 أوردت ذلك كامينسكي، ص 69

لا يوجد إجماع حتى عند الصهاينة على قراءة نصّ كالذي أردنا وذلك لا يعجب المرء أن يقرأه أدولف هتلر (1889 - 1945) في لغة خالّية من الصوفيّة :

« عندما تسعى الصهيونيّة إلى إقناع غير اليهود أنّ الوعي القوميّ اليهوديّ يمكن أن يحقق إشباعه بخلق دولة فلسطينيّة فإنّ اليهود يغالطون مرّة أخرى القويم (كلمة عبريّة تعني غير اليهود) الأغبياء بالشكل الأكثر وضوحاً. إنّهُ ليس في نيّة اليهود تأسيس دولة يهوديّة في فلسطين يهاجرون للإقامة فيها ولكن غايتهم هي ببساطة إقامة المنظّمة المركزيّة لمشروعهم المخادع المتمثّل في العالميّة الكونيّة. وبذلك تصبح هذه المنظّمة ممّعة بحقوق السيادة وفي منعة من تدخّل الدول الأخرى »²⁴.

إنّ ما يهّمنا نحن من الشاهد الذي أردناه لآحاد حاعام هو سمة الواقعيّة التي تكمن وراء خطابه الثقافيّ بل سياسة "الخطوة خطوة" التي ستجذب إليه عدداً هاماً من الأنصار ومنهم حايم وايزمان الذي ولد في بيلوروسيا واختارات عائلته أن ترسله إلى ألمانيا وسويسرا للدراسة فتخرج كيميائيّاً. وكان في تسعينات القرن التاسع عشر، زمن نقد آحاد حاعام نشاط "أحبّاء صهيون" يشغل أستاذاً في ألمانيا ولاحظ ما لاحظ حاعام من فقدان اليهود ذاكرتهم القوميّة :

« إنّ هذا مثلاً هو الانطباع الذي حصل للشاب وايزمان عندما وصل وهو أستاذ شاب إلى ألمانيا في تسعينات القرن التاسع عشر. فلقد تأكّد عنده أنّ اليهود الألمان لا يؤمنون بوجود شعب يهوديّ فلا سمات حياة يهوديّة حقيقيّة عندهم. كانت حياتهم ترسل رائحة كلّ ما غلب عليه القفل وكانت حياة وهميّة لاشيء يصلها بالشعب، فاقدة للدفع والغبطة ولا لون لها. إنّها حياة فاقدة للحميميّة »²⁵.

هذا الانطباع الموحد هو الذي يفسر بروز تيّار "الصهيونيّة الثقافيّة" ولقد أسّس هذا التيّار داخل "أحبّاء صهيون" فرقة خاصّة أطلق عليها اسم "أبناء موسى" (1899). ولسوف يكون بعض ممثلي هذا التيّار (حايم وايزمان) من مؤسّسي الجامعة العبريّة.

إن تأسيس فرقة "أبناء موسى" داخل "أحبّاء صهيون" يكفي لتبرير السؤال : ألا يكون التقارب بين الصهيونيّة العمليّة والصهيونيّة الثقافيّة أكبر بكثير ممّا يدعي الآخذون بالتصنيف الثلاثي للصهيونيّة ؟ ثمّ لم لا يكون موقف التيّارين العمليّ والثقافيّ المتحفّظ بصفة

²⁴ أورد ذلك في Claude Franck Le sionisme.- Paris 1980, p. 87

²⁵ والترلاكير . - تاريخ الصهيونيّة، ص 47

عامّة إزاء هرتزل والصهيونية السياسية مردّه إلى اختلاف هامّ بين أشكينا زروسيا أساسا (وهم صهاينة عمليون وثقافيّون) وأشكينا ز النمسا وألمانيا (ماكس نورداو وتيودور هرتزل)؟ سنحاول من خلال استعراض مآخذ الصهيونية الثقافية على هرتزل الإجابة عن هذا السؤال. هذه المآخذ أوجزها حاييم وايزمان في حكمه على عمل هرتزل وممارسته :

« لا يحتوي كتاب "دولة اليهود" في جوهره بالنسبة إلينا على أيّ فكرة جديدة (...) هو لا يعبر عن مفهوم بقدر ما يعبر عن شخصيّة تاريخيّة (...) إنّ ما صنع عظمة هرتزل إنّما هو دوره بما هو رجل عمل ومؤسس للمؤتمر اليهوديّ ومثال للإقدام والإيمان (...) لقد بدأت صهيونية هرتزل في شكل شبّيه بالنزعة الإنسانيّة (فيلنثروبيّة) (إنّ) يوجد بالنسبة إليه يهود أغنياء ويهود فقراء. ولليهود الأغنياء الذين يرغبون في إعانة اليهود الفقراء تأثير جسيم بين الأمم. ثمّ إن هناك سلطان تركيا الذي كان دائما في حاجة إلى المال وكان يسيطر على فلسطين : فأيّ شيء إذن يتفق والمنطق مثل الحصول للسلطان على مال من اليهود الأغنياء حتّى يتاح لليهود الفقراء الذهاب إلى فلسطين »²⁶.

قام الشاهد على فكرتين : تفكير هرتزل الذي لا جدّة فيه بالنسبة إلى وايزمان وممارسة هرتزل التي صنعت الهالة التي تحيط باسمه. فلنتناول في البداية تفكير هرتزل. كتب هرتزل نفسه في يومياته بتاريخ 10 فيفري 1896 إنه لم يأت بجديد مقارنة بكتاب ليون بينسكر "الانعتاق الذاتي" :

« إنّهُ لَمِ المؤسف ألاّ أكون قد قرأت هذا الأثر قبل أن أنتهي من طبع كُتبيّ (يقصد الدولة اليهوديّة) ومن ناحية ثانية فإنّ جهلي بهذا الأثر كان أمرا طيّبا إذ لولا ذلك ربّما تخلّيت عن مشروعي الخاصّ »²⁷.

هل كان هرتزل جاهلا حقّا بما كتب بينسكر ؟ يصعب تصديق ذلك. وأيا كان الأمر فبإمكان المرء أن يعثر في كتابي ليون بينسكر وتيودور هرتزل على كثير من المعاني المشتركة منها نقد وضع اليهود في أوروبا ونقد محاولات اندماجهم والتأكيد على الخصوصيّة القوميّة اليهوديّة والبحث عن موطن قوميّ لهم. وتكفي الأمثلة التالية دليلا على ما نقول :

« حاولنا في كلّ مكان أن نندمج في المجموعات القوميّة المحيطة بنا وألاّ نحفظ إلّاّ بعقيدة الأجداد فلم يقع التسليم لنا بذلك. عبثا حاولنا أن نكون وطنيّين مخلصين بل في

²⁶ (أورد ذلك شارل رزق في: بين الاسلام والقومية العربية. صص 209-210

²⁷ (أورد ذلك والتر لاكير في تاريخ الصهيونية، ص 106

أماكن شتى مغالين في الوطنية. عبثا كنا نضحّي كما يضحّي من يواطنوننا بالمال وبالدم. عبثا أجهدنا أنفسنا من أجل مزيد من رفعة أوطاننا المتبادلة في الفنون وفي العلوم ومن أجل تنمية ثرواتها بالتجارة وبالمعاملات.

في هذه الأوطان التي سكنا منذ قرون كنا نذم بصفتنا أجانِب وفي الغالب من هؤلاء الذين لم تكن أقوامهم قد استوطنت بعد هذه الأوطان عندما كان آباؤنا فيها قبل ذلك يتعذبون. إن الأغلبية هي التي بيدها تقرير من هو أجنبي في البلاد. والقضية هنا كما هو الشأن في علاقات الشعوب قضية قوة. إنني وأنا أصرّح بهذا بصفتي فردا لا تعويض نديه، لا أتخلّى عن أي شيء من حقنا المكتسب. إن القوة في عالم اليوم وبلا شك في أزمنة طويلة قادمة فوق الحق. فمن العبث، إذن، أن نكون طبيين في كل مكان كما كان "الهوغونوتيون" (يقصد البروتستانت الفرنسيين) الذين أجبروا على الهجرة. آه لو تركنا الناس وشأننا ولكنني أعتقد أنهم لن يتركونا وشأننا»²⁸.

وكتب حازيا حدو بينسكر في الشك في إمكانية انتصار فكرة التسامح عما قريب :
« إذا كان علينا أن ننتظر حتى يبلغ الحس الأخلاقي حتى عند الأغلبية مستوى من الصفاء يصل إلى حد التسامح أي هذا التسامح الذي عبّر عنه ليسينغ²⁹ في كتابه "ناتان الحكيم" فإن حياتنا وحياة أبنائنا وأحفادنا وأبناء أحفادنا لن تكفي لبلوغ هذا الهدف»³⁰
هذا الشعور المزدوج بالتفوق على الغريبيين أنفسهم وباليأس من اندماج كامل في الغرب هو الذي يفسر مضمون العقيدة الهرتزلية التي أزاحت إزاحة تامة، شأنها في ذلك شأن جل القوميات مفهوم الأخلاق من عالم السياسة.

يتّضح، إذن ممّا سبق، أنّ هناك أفكارا عديدة يتّفق حولها كل من "الانعتاق الذاتي" و"الدولة اليهودية" ومع ذلك فهناك نقطة هامة تفرق بين المفكرين : ضرورة "الانعتاق الذاتي" قبل كل انعتاق آخر عند بينسكر والإيمان عند هرتزل بأن « كل الجهود يجب أن تبذل من أجل نيل "ميثاق" ومن أجل امتلاك فلسطين بضمانة دولية»³¹

²⁸ تيودور هرتزل . — اليوميات الكاملة ص 19-20 أورد ذلك لأكبر في المرجع السابق، ص 106

²⁹ كاتب ماسوني ألماني (1729-1781) كان قبل ظهور الفكرة القومية الألمانية من دعاة الكسموبوليتية

³⁰ تيودور هرتزل . — الدولة اليهودية، ص 17 أورد ذلك لأكبر في تاريخ الصهيونية ص 110

³¹ تيودور هرتزل . — الدولة اليهودية، أورد ذلك لأكبر في تاريخ الصهيونية ص 114

إذ « لبلوغ هذه الغاية لابد لنا من مفاوضات دبلوماسية... ومن دعاية على غاية من الكثافة »³²

وهذا التقليل المفرط لعامل « الانعتاق الذاتي » وهذا التعويل المبالغ فيه على السياسي برّهما الصهاينة العمليون والثقافيون بنزعة هرتزل « الفيلانثروبية » وبأنه « لم يكن رجلا من الشعب ».³³ وقد يكون تبريرهما يتضمّن قدرا كبيرا من الصحة إذ كثيرا ما يلاحظ المرء اصطباغ نشاط الصهاينة ذوي الأصول الروسية بصبغة « شعبية » سبق أن رأيناها عندما درسنا يوسف أقجورا وقلما يعثر المرء على ما يقترب منها عند هرتزل أو ماكس نورداو. هذه النظرة المتعالية على المجتمع تبينها نظرتة إلى العلاقة الفضلى بين الدولة والمجتمع :

« كان هرتزل ذا ميل واضح إمّا إلى ملكيّة ديمقراطيّة أو جمهوريّة أرستقراطيّة. ذلك أن الأمم لم تنضج بعد للديمقراطيّة الكاملة. ولا يفضل اليهود في هذا المجال بقيّة البشريّة . فالقضايا السياسيّة التي ستطرح على الدولة الجديدة لن تكون قضايا بسيطة يمكن البتّ فيها إمّا بنعم أو لا. فعلى السياسة، إذن، أن تحدّد في المستويات العاليّة للمجتمع الجديد وأن تدار دفتها طبقا لنموذج مراتبيّ. غير أنّه لا يمكن أن يكون أي عضو في الدولة اليهوديّة محلّ تمييز. ولقد كان هرتزل يعادي كلّ شكل من أشكال الحكم الدينيّ : إنّ لرجال الدين الحقّ في كلّ علامات التبجيل غير أنه لن يسمح لهم بالتدخل في إدارة الدولة إذ أنّ دورهم يجب أن يحصر في نطاق بيعاتهم انحصار دور الجيش في ثكناته (...) إن كلّ الرجال وكل النساء في الدولة اليهوديّة هم أحرار في تبنيّ العقيدة (أو اللاعقيدة) التي يريدون والجنسيّة التي يختارون وهم جميعا، بلا تمييز دينيّ أو جنسيّ، متساوون أمام القانون »³⁴.

لا أثر، إذن، في تفكير تيودور هرتزل، لهذه الشعبويّة العريضة على قلوب أحبّاء صهيون. فإذا كان لابدّ من نسبة تفكيره إلى أحد الأنماط السياسيّة فهو أقرب إلى النمط الأنكلوساكسوني الذي يفضّل التطوّر البطيء على الطفرة والانقلاب. وممّا يؤكّد ما نذهب إليه هذا النصّ الطويل والواضح الذي كتبه ماكس نورداو عضد هرتزل الأيمن الذي ولد مثله

³² تيودور هرتزل . — الأعمال الكاملة، ج 1 ، ص 335 أورد ذلك لاكمير، ص 115

³³ لاكمير . — تاريخ الصهيونية، ص 128

³⁴ لاكمير . — تاريخ الصهيونية، ص 113

في بودابيسست وكان يكبره بإحدى عشرة سنة في المفاضلة بين النمطين اللاتيني والانكلوساكسوني :

« إن فكرة الدولة في فرنسا التي ولدت في البعض منها من فلسفة القرن الثامن عشر البغيضة وفي البعض الآخر منها من الروح الغالية وبالأخص من أفكار فترة الثورة الكبرى ومن مبادئ الحكم التي اعتمدها نابليون إنما تختلف شديد الاختلاف عن فكرة الدولة في العالم الأنكلوساكسوني أو الجرمانى أو السلافي. ففي فرنسا لا تكتفي الدولة بأن تكون جهاز تجميع طاقات كل الأفراد لبلوغ هذه الأهداف ذات الصبغة العامة والتي ليس بإمكان الفرد أن يبلغها اعتمادا على وسائله الخاصة فحسب (والأنكليزي والأمريكي والألماني يحددون معنى الدولة وطبيعتها بهذا التعريف) وإنما تدعي كذلك أنها تملك بإزاء أعضائها دور العناية الإلهية الحقيقية وأنها تتصف بصفات المعنى اللاهوتي للكلمة. إن الدولة المثال (بهذا الفهم) تصبح مؤهلة لإدارة مصير كل مواطن وتحديد هويته وهي تحشر أنفها في كل أفعاله في الحياة وبذلك لا يكون بإمكان المواطن أن يصبح في يوم من الأيام راشدا بالنسبة إلى الدولة فهو واقع تحت وصاية أبدية شأنه في ذلك شأن الطفل في منزل أبيه. والدولة لا تكتفي بإصدار القوانين وبتعيين من تعدوا هذه الحدود ولكنها أكثر من ذلك وإخلاصا منها لدور الأب تسعى إلى مجازاة خدماتها المخلصين. ويحس المواطن بصفة دائمة بيد الدولة وسواء كانت هذه اليد مبسطة أو مقبوضة على وجنتيه أو على كتفه. فعن هذا نتج هذا النقص المميز في النضوج وهذا النقص في الاستقلال الذي يميز مزاج الفرنسي المعاصر»³⁵.

إن هذا التفكير المحافظ لا يمكنه أن لا يقود إلى تغليب السياسي على الاجتماعي فائناء حديث خاص بين هرتزل والبارون موريس هيرش (1895) طالب هرتزل بضرورة إيجاد "قيادة" سياسية متماسكة " : « إنكم طفيليون. وإنه لأمر ذو مغزى ألا يوجد شعب يتعاطى الإحسان والتسول بقدر ما يفعل اليهود. ونتيجة ذلك تفرض نفسها. فهناك، يقينا، علاقة بين هذين الأمرين. وهكذا فإن الإحسان يحرف السمة القومية (...) فإذا كان لنا

Max Nordau . - Le véritable pays des milliards (1878) cité par Jörg von Uthmann dans : ³⁵

le Dialbe est-il allemand ? . - Paris, 1984, p. 174

والحالة هي هذه قيادة متماسكة - وضرورة ذلك لم تعد محلّ جدال - ولم تتخذ هذه السياسة إطلاقاً شكل أخوية سرية فإنه يمكننا أن نتصدى للمسألة اليهودية»³⁶.

إنّ الدولة اليهودية تتحقّق بشرطين : الحصول على "وعد دوي" ثمّ إخضاع فلسطين، بعد لا قبل ذلك، لتنمية مكثّفة تحوّل "الصحراء" إلى «بساتين» :
«إنّ الصهيونية هي قضية مواصلات. توجد أرض بدون شعب ويوجد شعب بدون أرض ولا يتعلّة الأمر إلاّ بجمعهما»³⁷.

كان هرتزل من هؤلاء "المستقبليين" (Futuristes) المؤمنين إيماناً لا مزيد عليه بالتقنية والعلوم : « ليس صحيحاً البتّة (أن اليهود سيخرجون من بلاد الحضارة إلى البداوة). إنّ الهجرة ستكون في إطار الحضارة. إنّنا لا نهبط في مستوى الحضارة درجة ولكنّا على العكس من ذلك نرتقي فيها. إنّنا لن نسكن أكواخاً من الطين والقشّ ولكن منازل حديثة نبنيها ويمكن أن نسكنها من دون خطر»³⁸.

لا قيمة، عند هرتزل، لهذا التصرّف الذي كان يملك أحبّاء صهيون، وهم يتحوّلون إثر هجرتهم إلى فلسطين إلى مزارعين :

« هناك جهود بذلت فيما مضى لحلّ المسألة اليهودية ولكنّ محاولة تحويل اليهود إلى مزارعين في بلدهم الأصلي هي فكرة سطحية تماماً فالفلاح هو كائن ماض، وهو نمط من البشر في طريقه إلى الانقراض»³⁹.

أثار تفكير هرتزل وممارسته "الاستعلائية" أحبّاء صهيون إثارة لا مزيد عليها فكتب عنه الصهيونيّ الثقافيّ أحاد حاعام :

« إنّ خلاص إسرائيل يأتي من الأنبياء لا من الديبلوماسيين »⁴⁰ وكتب عنه حاييم وايزمان : « لقد أقدم على عمل جبّار من دون إعداد مناسب»⁴¹ لقد كان أحبّاء صهيون يؤاخذون هرتزل، إضافة إلى ما ذكرنا من تغليب السياسيّ على ما عداه من أشكال النشاط،

³⁶ Th. Herzl . - Journal (2 juin 1895) أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 76

³⁷ André Chouraqui.- l'Etat d'Israel . - Paris, 8ed.1984.- p.99

³⁸ Th. Herzl . - l'Etat Juif, p.27 أورد ذلك لاكير في تاريخ الصهيونية صص 110-111

³⁹ أوردت ذلك لاكير . - المرجع السابق ص 112

⁴⁰ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 70

⁴¹ Ch. Weizman.- La naissance d'Israel, p 61 أورد ذلك لاكير في تاريخ الصهيونية، ص 128

على هذه اللائكية المشطة، في نظرهم، التي دفعته وهو يكتب روايته Altneuland (1902) أن لا يذكر ولو مرة لفظ "صهيون" وأن لا ينطق بأطاله باللغة العبرية.

ولقد كان هرتزل شاعرا بشدة هذه المقاومة فكتب بروح مكيافيلية بتاريخ 23 أوت 1897 وقبل انعقاد الجلسة الأولى للمؤتمر الصهيوني العالمي الأول ب (بال) عن الطريقة التي عليه أن يسوس بها المؤتمرين : « تقتضي إدارة هذه المناقشات (...) الرقص على عدد وافر وغير مرئي من البيض التي عليّ أن أحذر من كسرها : « بيضة الصحافة الجديدة الحرة » التي ليس من حقّي أن أخرجها ولا أن أمكنها من ذريعة لطرد بيضة اليهود الأرثوذكس وبيضة دعاة المعاصرة وبيضة الوطنية النمساوية وبيضة تركيا والسلطان وبيضة الحكومة الروسية التي يجب، مع إبراز الوضع المحزن لليهود الروس، تلافي إبداء مظاهر العداء إزاءها.

وبيضة إدموند روتشيلد وبيضة أحباء صهيون الروس وبيضة المستوطنين الذين لا يجب على المرء، مع اعتبار بؤسهم، أن يجازف فيحرّمهم من إعانات روتشيلد المالية وأخيرا بيض النزاعات الشخصية والغيرة والحسد. عليّ أن أدير القضية بطريقة لا شخصية وهذا، من دون مبالغة، عمل لا يقدر عليه غير هرقل ولم تعد لي فيه أي رغبة »⁴².

روح هذا النص لا تختلف في فصلها بين الأخلاق والسياسة عن روح النص التالي لمكيافيل (1469 - 1527) : « ليس من الضرورة القاهرة أن يحوز الأمير كلّ الشرائع ولكنه من الضروري أن يبدو متصفا بها. بل إنني أجروّ على القول إنّه إن كانت هذه الفضائل حقيقة من طبعه وأظهرها دائما في سيرته فقد تعود عليه بالضرر. وذلك في حين أنّه يكون من النافع دائما أن يبدو متصفا بها : فمن الجيد دائما أن يبدو الأمير حليما مثلاً أو أميناً أو إنسانياً أو متديناً أو صادقا... ولا بدّ على المرء أن يفهم أنّه ليس بإمكان أمير، وخاصة إذا كان حديث العهد بالإمارة، أن يراعي في سيرته كلّ ما يضيفي على الناس صفة الأخيار وأنه للحفاظ على الدولة مجبر، في غالب الأحيان، على العمل بما يعارض الإنسانية والرحمة وحتى الدين. وإذن فلا بدّ له من حيازة ذهن مرن يمكنه من التكيف مع كلّ شيء حسبما تقتضيه الرّياح وتقلّبات الحظ. إنّه لا بدّ عليه، كما قلت، أن لا ينحرف قدر المستطاع، عن طريق الخير، ولكنّ عليه أن يعرف عند الضرورة كيف يقتحم طريق الشرّ. وعليه كذلك أن يحرص كلّ الحرص على ألاّ ينبس بلفظ لا يكون مشبعا بالخصال الخمس

⁴² أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 81

التي ذكرت، وذلك حتى يحصل الاعتقاد عند رؤيته وسماعه بأنه يفيض رقة وصدقاً وإنسانيةً وشرفاً وبالخصوص تدبناً. والتدين هو الذي ينبغي أساساً أن يظهر به. وسبب كل ذلك أن الناس عموماً يعتمدون في أحكامهم على عيونهم أكثر مما يعتمدون على أيديهم، لأن النظر في متناول عيونهم جميعاً في حين أن اللمس لا يطاله غير القليلين : إن كل الناس يرون ماتظهر عليه وقليلاً منهم يعرفون تماماً من أنت، وهذا العدد القليل لن يجروا البتة على مقاومة رأي الأغلبية التي تدعمها كذلك مهابة السلطة القاهرة»⁴³

هل نكون، بهذه المقارنة بين هرتزل ومكيافيل، قد تجنينا على الداعية الصهيونية؟ إننا لا نعتقد ذلك بدليل ما كتب ماكس نورداو، نائب هرتزل في رئاسة المؤتمر الصهيوني، عندما طرحت مسألة نشر مذكرات هرتزل إثر موته سنة 1904 :

« إذا نشرتم مذكرات هرتزل فإنكم تهدمون سمعته. إن كل من يقرأه ليس يمكنه أن لا يفكر أنه كان إما أحمق وإما محتالاً»⁴⁴.

على أن ما يهمنا، بالدرجة الأولى، في الشاهد الذي أوردنا هو ما ذكره هرتزل من وجوب الحذر من كسر بيضات ثلاث : بيضة أحباء صهيون وبيضة الأرثوذكس وبيضة دعاة الحداثة وهم اليساريون والشيوعيون.

لاشك أن القارئ كاد يخلط وهو يقرأ ما كتب آحاد حاعام « إن خلاص إسرائيل يأتي من الأنبياء لا من الدبلوماسيين » بين الصهاينة الثقافيين أمثال آحاد حاعام وناحوم سوخولوف وحاييم وايزمان من ناحية واليهود الأرثوذكس من ناحية ثانية. وتميز هرتزل بينهم يعني وجوب التمييز بين جماعتين مختلفتين ذلك « أن الصهيونية الثقافية إذا كانت لا تنتسب إلى لصهيونية السياسية فإنها كذلك لا تتطابق بالضرورة مع الصهيونية الدينية»⁴⁵. وفعلاً فقد « شغلت الخطب والمجادلات حول "المسألة الثقافية" حصصاً كاملة في المؤتمرات الأولى وتسببت حتى في نزاعات حادة ذلك أن النهضة الروحية التي نادى بها سوخولوف وموتسكين ووايزمان (بتأثير جزئي من آحاد حاعام) لم تكن فعلاً هي النهضة التي يتصورها الأحرار المناصرون للصهيونية. ولقد حاول وايزمان أن يقنع هرتزل بأن أهمية الأحرار عند الرأي العام اليهودي وكذلك الدعم الذي بإمكانهم أن يمدوا به

⁴³ J.J. Chevallier . - Les Grandes œuvres politiques de Macchiavel à nos jours . - Paris,

1976 . - p.27

⁴⁴ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية ، ص 61

⁴⁵ كامينسكي . - القومية العربية والقومية اليهودية، ص 70

الحركة الصهيونية هو أقلّ ممّا يتصوّر. أمّا موتسكين فقد أثار عاصفة عندما صرّح أن الأحرار لم يحضروا المؤتمر الأوّل وأنّ من الواجب التصديّ لمحاولتهم الانضمام إلى الحركة وفرض أفكارهم عليها جميعها»⁴⁶.

إنّ مأخذ الصهاينة الثقافيين هنا على هرتزل هو مهادنة رجال الدين بل محاولة استمالتهم فبالنسبة إلى وايزمان «كان هرتزل ساذجا. وهو ليس رجلا من الشعب وكانت ميول هرتزل إلى رجال الدين تزعجه»⁴⁷. فهل كان هرتزل، حقاً، ذا ميول دينيّة أم كانت «سياسته القارة (هي) الحفاظ على وحدة الحركة وعلى استبعاد أسباب الشقاق؟» نعتقد أن الشاهد الذي أوردنا لهرتزل قبل الآن هو الحكم الفصل على تفكيره.

البيضة الثانية التي كان على هرتزل أن يحذر من كسرها هي بيضة «أحبّاء صهيون» القريبين من الصهاينة الثقافيين والذين اشتهروا بمقاومتهم لهرتزل أكثر من مقاومة الصهاينة الثقافيين له نظرا إلى ضخامة الاحتياطيّ اليهوديّ في أوروبا الشرقية⁴⁸ وإلى هذا «التصوّف» السلافيّ الذي تشبّعوا به والذي لم تطف منه عقلانيّة أوروبا الغربيّة في القرن التاسع عشر كثيرا.

ومأخذ هؤلاء على هرتزل شبيهة بمأخذ الصهاينة الثقافيين عليه فهو، عندهم، أرستقراطيّ ليس من الشعب ولا يتعلّق بـ «صهيون» تعلقه بأرض، أي أرض، تكون لليهود سواء في أوغندة أو في عريش مصر، وهو «يجهل الواقع» في المنطقة ثمّ هو أخيرا «متسلّط» يودّ أن يلزمهم، بالاستناد إلى قرارات المؤتمرات الصهيونيّة العالميّة، بما لا يمكن أن يلتزموا به لاختصاص مطالبهم بفلسطين دون غيرها من بقاع الأرض. لقد بدأ أحبّاء صهيون هجرتهم من روسيا إلى فلسطين منذ بداية حكم عبد الحميد السلطنة وها أن هرتزل يصرّح أثناء المؤتمر الخامس الذي انعقد سنة 1903 ببال ساخرا إنّهُ يمكن لأحد كبارهم، وهو (أوسيشكين) «أن يشتري كلّ أراضي مدينة مولده، (إيكاترينوسلوف) ولكن هذه ستبقى، مع ذلك، جزء لا يتجزأ من روسيا»⁴⁹.

⁴⁶ والترلاكير. — تاريخ الصهيونية، ص 128

⁴⁷ والترلاكير. — المرجع السابق ص 128

⁴⁸ عدد اليهود سنة 1900 : في رومانيا 250.000 وفي بولونيا 2.000.000 وسيكون عددهم في الولايات المتحدة

، سنة 1914 نتيجة الهجرة المكثفة 3.000.000

⁴⁹ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 151

لم يتأخّر ردّ الصهاينة الروس فلقد أعلنوا أنهم لن يذهبوا إلى أوغندا. وقد اتهم هرتزل علنا بالخيانة وبعد المؤتمر بقليل حاول أحد الطلبة الصهاينة أن يغتال نورداو⁵⁰ ثمّ إنهم أصرّوا، بعد ذلك، على أن يلتزم هرتزل، كتابياً، بالتخلّي عن نزعة الانفراد بالقرار : « نشر (أوسيشكين) وهو أكثر قادتهم جدالاً، بعد عودته من فلسطين، إثر انعقاد مؤتمر (1903) رسالة تضمّنت موافقته على انتخابه ضمن لجنة العمل مع التأكيد على أنه يعتبر نفسه غير ملزم بالقرار حول أوغندا. كان ذلك بمثابة التمرد العلني (...) ولقد صوّت الصهاينة الروس في ملتقى عقوده على لائحة تتهم هرتزل بخرق برنامج بال وعيّنوا ثلاثة منهم لمقابلته ومطالبته بعبارات واضحة بالتخلّي عن طريقته الأوتوقراطية وبعرض كلّ شيء في المستقبل على الجهاز الأعلى المنتخب وهو جهاز لجنة العمل كما أن عليه، إضافة إلى ذلك، أن يعد، كتابياً، بالآل يلتزم دعم المؤتمر في أي مشروع استيطاني غير مشروع الاستيطان في فلسطين وسوريا. هذا الإنذار آلم هرتزل كثيراً وسبّب استياء كبيراً داخل الحركة الصهيونية خارج روسيا»⁵¹.

أمّا البيضة الثالثة التي كان على هرتزل أن يحذر من كسرها فهي بيضة «المعاصرين». والمعاصرون هنا هم المعبرون عن التيارات الاشتراكيّة (مثل سركين) والشيوعيّة (مثل بير بوروخوف) في الحركة الصهيونية، أي هؤلاء الذين يرون أن صهيونية هرتزل الفيئيّ (نسبة إلى Vienne) تفتقر إلى بعد أساسي هو البعد الاقتصادي والاجتماعي. فلقد عبّر سركين منذ المؤتمر الصهيوني الثاني (1898) عن إيمانه بضرورة قيام الدولة اليهوديّة المنشودة على أساس اشتراكي⁵² ولسوف يتجذّر هذا المطلب أثناء انعقاد المؤتمر الثالث سنة 1899 :

«أذهل هرتزل كذلك إنشاء حزب صهيوني اشتراكيّ بقيادة سركين وآخرين طالب بتكوين دولة اشتراكيّة في فلسطين وفي الأراضي المجاورة وقد حمل سركين بشدّة على هيمنة العناصر البورجوازيّة والدينيّة الأرثوذكسيّة على الحركة الصهيونية وحمل كذلك على «المتحقّنين المتعقّنين» الذين كانوا يريدون فصل الحركة عن مبادئ الإنسانيّة التقدّميّة الكبرى

⁵⁰ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية ، ص 151

⁵¹ كامينسكي . - المرجع السابق، صص 151-152

⁵² كامينسكي . - القومية العربية والقومية اليهودية . - ص 91

هذه المشاريع المخالفة لم تكن فحسب تحزن هرتزل الذي لم يبد البتة ميلا كبيرا ولا تعاطفا مع الحركة الاشتراكية ولكنها كذلك كانت أكثر إزعاجا للشباب وايزمان»⁵³.

هذا الحزب هو الذي سيولد منه حزب العمل الإسرائيلي ولذلك كتبت غولدا مائير عن سركين : « لقد قابلت العديد من زوارنا وتحدثت إليهم ، منهم من أصبح عضوا فعّالا ومؤثرا ليس في حياتي فحسب ولكن في الحركة الصهيونية (...) أذكر أولا ناشمان سيركن ، وهو من أشد المتحمسين للإيديولوجية الصهيونية العمالية ، كان يهوديا روسيا ، درس الفلسفة وعلم النفس في برلين ، ثم عاد إلى روسيا بعد ثورة عام 1905⁵⁴ ومن ثم هاجر إلى الولايات المتحدة حيث أصبح قائدا لحركة العمل الصهيوني . كان سيركن يعتقد أن الأمل الوحيد لأفراد الطبقة العمالية هو المهاجرة ضمن المجموعات الراحلة إلى فلسطين ، لقد تكلم كثيرا وكتب بعقريّة عن هذا الموضوع في أوروبا»⁵⁵

الوجه الثاني من وجهي « المعاصرين » هو الوجه الشيوعي الذي عبّر عنه بيربوروخوف (1881-1917) . ويقوم تفكير بير بوروخوف الاجتماعي والسياسي على مطلبين :

أولهما أن على الصهيونية أن تضمن ليهود الشتات ملاذا يحميهم من الاضطهاد وثانيهما أن عليها أن تحرّهم ، في هذا الملاذ ، من الاستلاب الاقتصادي الذي كانوا عليه في الشتات إذ لا معنى لتحرّر اليهود من مضطهد أجنبيّ إن لم يقع التصديّ عند قيام الدولة اليهودية لإمكانية أن يستغل بعض اليهود مواطنيهم . فلا معنى ، عنده ، لوحدة قومية تطمس معالم الصراع الطبقيّ في الوطن المنشود . ومن أجل تحقيق هذه الغاية أسس بوروخوف حزب « باولي صيون » (Paolé Sion) :

« إنّ مبتدأ تفكير بوروخوف هو معاينة وضع اليهود ، فلقد قضى عليهم التشتت الذي حوّلهم إلى غرباء ومستأصلين بأن يكون لهم بما هم شعب بنية اجتماعية غير عادية وشاذة . فهم يمثلون بسبب انحصارهم في مهن معينة ، « بورجوازية » ، بنية طبقية تشبه هرما مقلوبا ، هرما قاعدته البروليتارية صغيرة مقارنة بالطبقات العليا . إنّ تجمع يهود الشتات في طبقات متوسطة يؤدي بهم حتما إلى التوق نحو أعلى السلم الاجتماعي ونحو

⁵³ والتر لاكير . — تاريخ الصهيونية ، ص 134

⁵⁴ يراجع الفصل المتعلق بالتجارة الإسلامية وبهجرتها أثناء ثورة 1905 في روسيا

⁵⁵ غولدا مائير . — [الحقد] ، ص 50

قطاع الخدمات. فهم بسبب ضعف البروليتاريا عندهم، لا يمكنهم أن يشاركوا لا في صراع الطبقات ولا في التحرر الاقتصادي الذي يطمحون إليه. إن هذا التحليل هو الذي أدى بـ «بيربوروخوف»، وهو ماركسي يهودي، إلى الصهيونية. فهي، بالنسبة إليه، ضرورة اشتراكية لأنّ منح اليهود بلدا ودولة قومية و «استقلالاً إقليمياً سياسياً» هو الأمر الكفيل بتسوية وضع بنيتهم الاجتماعية وبتقويم الهرم الطبقي المقلوب. فإذا كان يمكن أن توجد بروليتاريا يهودية على غرار بروليتاريا الأمم الأخرى يمكنها أن تستفيد من ظروف الصراع الطبقي الموضوعية»⁵⁶.

من كلّ ما سبق يتبيّن لنا أن حساسيات عديدة كانت تتعايش وتتصارع ضمن الحركة الصهيونية بشكل يصعب أن نجد له شبيهاً في الحركات القومية النابذة في بلاد الشام، ولأصول الصهاينة ومنابتهم الأولى خارج بلاد الشام أثر كبير في تعدّد هذه الحساسيات و إتجاه أغلبها وجهة اجتماعية بل اشتراكية وشيوعية. نعم، لقد كان لهرتزل حالة عظيمة ولكنّ هذه الحالة لم تتمكّن من الإتيان على الحساسيات المختلفة في الحركة الصهيونية بل إنّ المؤتمرات الصهيونية العالمية التي كانت تعقد سنوياً من 1897 إلى 1901 ومرة كلّ سنتين بعد هذا التاريخ قد امتازت إلى جانب دوريتها بديمقراطيتها نظراً إلى قوّة الحساسيات الممثّلة فيها. ومع ما رأينا أحيانا من شدة مقاومة بعض التيارات لهرتزل فإنّ كثيراً من المعبرين عن بعض هذه التيارات، مثل وايزمان، يقرّون، مع ذلك، بـ «أنّ ما صنع عظمة هرتزل إنّما هو دوره بما هو رجل عمل ومؤسس للمؤتمر اليهودي ومثال للإقدام والإيمان» وهذا الحكم لا تبدو وجاهته إلّا بتناول علاقة هرتزل بـ «البيضة» الرابعة التي كان عليه أن يحذر من كسرهما وهي بيضة تركيا والسلطان بين 1896 وموته سنة 1904. فنحن نراه سنة 1896 عند قيام حملة صحفية أوربية غربية وعثمانية معارضة على سياسة عبد الحميد الإسلامية إثر مذابح الأرمن يزور بصفته صحفياً نمساوياً - مجرباً في صحيفة «الصحافة الجديدة الحرة» عاصمة السلطنة التي رحّبت به سعياً منها إلى تحسين صورتها في الخارج :

«تمكّن هرتزل من مقابلة الصدر الأعظم خليل رفعت باشا مرتين بداية من 17 جوان 1896 وكذلك من مقابلة أعضاء آخرين في الحكومة، في الأيام الموالية. ولم يقع استقباله بوصفه ممثلاً للصهيونية وإنّما بوصفه صحفياً في «الصحافة الجديدة الحرة» ممّا

⁵⁶ شارل زرق . — بين الاسلام والقومية العربية، ص 210

دلّ منذ البداية على نيّة العثمانيين. فالسلطنة لم تكن تولي الصهيونيّة اهتماما وإنما كانت تعبر صورتها في أوروبا أهميّة كبيرة، بعد أن دبّرت مذابح الأرمن»⁵⁷.

هل حقاً أن السلطنة بمختلف مراكز القوى فيها كانت «تسهل الصهيونيّة» وعن أيّ صهيونيّة تتحدّث كامينسكي؟ إنّها تتحدّث عن صهيونيّة هرتزل «التي لا غاية لها غير إقامة ملاذ للشعب اليهودي في فلسطين يضمن وجوده القانون العام»⁵⁸ ومثل هذا المطلب يذكر بـ «متصرفيّة لبنان» التي إن قبلت السلطنة بقيامها فذلك اضطراراً منها. ولن ينظر حتى العثمانيون الاتحاديون، خلفاء عبد الحميد في الحكم، إلى هذه المتصرفيّة بعين الرضا لأنّها مثلت في نظرهم سابقة نابذة خطيرة بل إن آحاد حكام نفسه لم يبد له هرتزل أثناء المؤتمر الصهيونيّ العالميّ الأوّل وهو يعرض مشروعه «أكثر من رجل استغلّ ثقة الناس ولو عن حسن نيّة»⁵⁹.

وإذن فبقدر ما كانت أغلب مراكز القوى في السلطنة تحذر حذرهما من «الطاعون» من قيام كيانات ذات حكم ذاتيّ تضمن القوى العظمى وجودها لم تكن كلّ هذه القوى تقاوم بالشدة نفسها نشاط الصهيونيّة العمليّة والثقافيّة. وهذا هو ما يفسّر أن هذا الوجه من وجوه الصهيونيّة سوف يتمكّن أثناء حكم عبد الحميد نفسه من إنشاء ما يشبه المدينة - المركز، نقصد بذلك مدينة تل أبيب ويدلّ مضمون لقاء بين هرتزل وأحمد عزّت العابد على حساسيّة المسألة الفلسطينيّة بالنسبة إلى دولة إسلاميّة مثل دولة عبد الحميد :

«قابل هرتزل ، في 18 جوان، السكرتير الثاني للسلطان، عزّت باشا، وهو عربيّ (من دمشق) يحظى بالتقدير ويعتبر واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في الامبراطوريّة. إنّ المحادثات لم تسفر عن أيّ نتيجة ولكنّ عزت باي سارّ نفلنسكي (Nevlinski) وهو موظّف نمساويّ اشتغل طويلاً في الآستانة على حدة أن فكرة هرتزل ليست سلبية بالنسبة إليه. وقد نصح اليهود بالآيسعوا إلى الحصول على فلسطين مباشرة لأن الترك لن يقبلوا بذلك. ويمكن لليهود، بالمقابل، أن يشتروا أراضي مجاورة يقايضونها شيئاً فشيئاً بالأرض المقدّسة»⁶⁰.

⁵⁷ كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 86

⁵⁸ والترلاكير. — تاريخ الصهيونية، ص 14 (نقل عن نصّ المؤتمر الصهيونيّ الأوّل في بال الذي حضره مائتا عضو

من كلّ أوروبا)

⁵⁹ ولترلاكير . — تاريخ الصهيونية، ص 128

⁶⁰ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 86 .

إن نصيحة مستشار عبد الحميد، إن صحت الرواية، وهي خطيرة، لا يمكن أن يرحب بها رجل مثل تيودور هرتزل. ولكن مثل هذه النصيحة تتفق تمام الاتفاق مع وجهة نظر الصهيونية العملية التي تمكنت فعلا بين 1899 و 1902 من شراء ما يقرب من نصف إقليم طبرية. على أن هناك قضية هامة أخرى تثيرها نصيحة أحمد عزت العابد، وهي تتصل بما كان رجال السلطنة يفهمون من لفظ فلسطين « فالأرض التي تسمى اليوم فلسطين كانت في حقيقة الأمر مقسمة إلى منطقتين تابعتين لسلطتين مختلفتين. فشمال فلسطين (سنجق عكا ونابلس) كان حتى سنة 1888 تابعا لولاية الشام (سوريا) التي كان مركزها دمشق وكان بعد 1888 تابعا لولاية بيروت أما بقية البلاد الفلسطينية فكانت تشكل متصرفية القدس»⁶¹.

وقد يكون من المفيد، حتى تتضح المسألة أكثر، التذكير بما أوردنا في الفصل الأول من القسم الأول مما يتصل بالتقسيم الإداري العثماني. ففي هذا التقسيم كانت متصرفيتا عكا (وتضم حيفا وطبرية وصفد والناصرة) ونابلس (وتضم جنين وبني صعب) تابعتين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لولاية بيروت أما القدس (وتضم أقيسة يافا وغزة) فكانت متصرفية ممتازة تقع بين حدود ولاية بيروت الجنوبية وسيناء المصرية وتخضع لسلطة الآستانة المباشرة.

هذا التقسيم هو الذي يفسر نصيحة أحمد عزت العابد لليهود بعدم السعي إلى الحصول على « فلسطين مباشرة وبتركيز جهودهم على شراء أراضي مجاورة » (هل كان يقصد بذلك أراضي في عكا ونابلس التابعتين لولاية بيروت ؟) يمكن فيما بعد تعويضها بـ « الأرض المقدسة » (القدس) . إننا نذهب هذا المذهب في التفسير لأننا بقدر ما نلاحظ شبه إجماع في السلطنة على مقاومة كل سعي صهيوني مجاله القدس خاصة نلاحظ في الآن نفسه تسببا سياسيا فيما يتعلق بمقاومة الصهيونية العملية ونشاطها الاستيطاني في نابلس وعكا. إننا نعتقد، نظرا إلى هذا التضارب في التفكير بين صنعة القرار في السلطنة أنهم كانوا لا يفهمون من فلسطين ما نفهم اليوم وبذلك يمكن أن نفسر رفض السلطان عبد الحميد نفسه التنازل لليهود عن مؤطى قدم من الأرض في « فلسطين »:

« بعد اثني عشر يوما من المحادثات مع السلطات التركية لم يتمكن هرتزل من مقابلة السلطان شخصيا وقد سار السلطان نفلنسكي أن الأرض ليست ملكه ولكنها ملك

⁶¹ شارل رزق . — بين الاسلام والقومية العربية، ص 213

الشعب التركي : « إنّه لا يمكنني أن أبيع ولو مقدار موضع قدم منها لأنّها ليست في حوزتي ولكنّها في حوزة شعبي (...) إنّه إذا وقع تقسيم إمبراطوريّتي (...) يكون بإمكانهم أن يحصلوا على فلسطين بلا ثمن. ولكن جسمنا إذاً يكون قد تعرّض للتقسيم... وأنا أرفض التشريح »⁶²

ورغم هذا الرفض السلطاني القاطع فإننا نرى عبد الحميد يطلب من تيودور هرتزل أن يخدم السلطنة صحافيًا وماليًا :

« رفض عبد الحميد استقبال هرتزل ولكن إحدى أفكاره استمالته فبعث إليه برسالة يطلب فيها منه أن يسعى إلى تحسين صورة السلطنة في الصحافة الأوربيّة وإلى تسهيل حصول السلطنة على قرض بمليون جنيه لساداد الدين العمومي »⁶³.

إنّ أغلب الدراسات المحاربة للعثمانيين الاتحاديين وخاصة منها الدراسات السياسيّة العربويّة الإسلاميّة لا تكفّ إلى اليوم عن اتهامهم بالتفريط للصهيونيّة العمليّة في أرض فلسطين وتذكر مثالا لذلك صفقة العربيّ الأرثوذكسيّ البيروتيّ إلياس سرسق الذي باعها في خريف 1910 - 2400 أكر تقع بين الناصرة وجنين (دائما ولاية بيروت !!!) وتعدّ من أفضل الأراضي الفلسطينيّة وتتناسى أن صفقات شبيهة بهذه عقدت بين 1899 و 1902 على عهد السلطان عبد الحميد كما تتجاهل (أو تجهل) أن هذه الأراضي كانت تقع، حسب التقسيم العثمانيّ الإداريّ، في مناطق تابعة لولاية بيروت وأنّ هذا التقسيم، إضافة إلى غياب الوعي القوميّ وغلبة النزاعات العرقيّة والدينيّة والطائفيّة كلّ ذلك لا يسمح بتبيين مخاطر الصهيونيّة العمليّة إلّا عند العدد المحدود جدّا من غير اليهود أمثال سكان المنطقة من الفلسطينيين والشوام المسيحيين وبعض الشوام المسلمين الذين قادتهم ظروف الحياة إلى العمل في فلسطين.

وفعلا فإنّه يمكن، فيما يتعلّق بالفلسطينيين، أن يعثر المرء، حتى في الكتابات الصهيونيّة، على دلائل لمقاومتهم الجمعيّة الاستعماريّة اليهوديّة التي أسّسها سنة 1891 موريس هيرش وخاصة منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول في بال (1897) «إنّ تشكّلت الحركة أمام الرأي العام وأبدى عرب فلسطين الذين كانوا يتابعون الحدث بحذر

⁶² كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 86

⁶³ كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 86 نقلا عن هرتزل (Diaries (19 Juin 1896)

علامات من الفضول والريبة والعداوة»⁶⁴ وفي سنة 1899 كتب يوسف ضيا الخالدي من الآستانة إلى الحبر صادق كاهن (Zadoch Kahn) في فرنسا مندداً بالسياسة الإستيطانية فرد عليه تيودور هرتزل في 19 مارس 1899 نافياً أن يكون لليهودية نية سلب السكّان الأصليين أراضيهم ومبّراً وجود اليهود في فلسطين بـ «ديناميتهم الاقتصادية» التي ستكون، في نظره، خيراً على الجميع.⁶⁵

ومع ما ذكرنا من مظاهر مقاومة الفلسطينيين للصهيونية العملية فإنّه لا يبدو أن هذه المقاومة كانت تصدر عن وعي عميق بـ «أبعاد» المسألة أو تدرجها في مجال صراع القوميات. وعلى العكس من ذلك كان الوعي المسيحيّ بها. فكثير من المسيحيين قرأوا غوستاف لوبون وتوقفوا عندما تنبأ به منذ بداية ثمانينات القرن التاسع عشر ثمّ إنهم كانوا، نقصد المارونيين والروم الكاثوليك خاصة، على اطلاع على موقف البابا ليون الثالث عشر (1878-1903) من الصهيونية بوجوهها المختلفة إذ «اعتقد قداسة البابا، بعد مؤتمر بال، أنّ من واجبه بوصفه رئيساً للكاثوليكية، أن يتخذ كلّ الإجراءات للحيلولة دون قيام أمة يهودية في القدس، ففي رسالة خطها ليون الثالث عشر بيده ناشد البابا السلطان أن لا يتنازل عن فلسطين لليهود» الذين سيكونون مزهوين، ولو لبعض السنين، بإمكانية تكذيب النبوة التي مفادها أنّهم سيقبضون أبد الدهر مشتتين في العالم، عاجزين عن أن يؤسّسوا لهم أمة»⁶⁶ فإذا أضفنا إلى الموقف البابوي ما أثارته الخصومة، في فرنسا، حول العسكريّ دريفوس من ضجة فكرية وسياسية فهمنا أثر كلّ ذلك في اليهود والمسيحيين على حدّ سواء : ففي 1902 نشر تيودور هرتزل روايته «ألت نويلاند». وقد تناول فيها مسألة «المدينة الجديدة» المحكومة بالعلوم والتقنية الحديثة والتي لا أثر فيها للشقاق بين اليهود والسكان الأصليين أمّا الماروني نجيب العازوري الذي عمل في القدس مدّة من الزمن وكان من أنصار الحزب الفرنسيّ المعادي لتزايد التأثير اليهوديّ والصهيونيّ في فرنسا فقد نشر سنة 1905 «يقظة الأمة العربية» الذي تعرّض فيه، شأنه في ذلك شأن غوستاف لوبون قبل ربع قرن، لسيناريو الصراع اليهوديّ العربيّ المقبل. من المقارنة بين هذه الكتابات المسيحية والكتابات

⁶⁴ كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 83

⁶⁵ كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 127

⁶⁶ Etudes, vol. LXXIII, 28 : H. Lammens, S.J. « Le sionisme et les colonies juives en

Palestine, 1897, pp.433-458 أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية... ص 111-112

الإسلاميّة أو العربيّة الإسلاميّة حول المسائل المتعلّقة بالقوميّة يتبيّن، إذن، أن وعي المسيحيين كان أكبر بكثير من وعي مساكينهم ولعلّ نقص هذا الوعي هو الذي دفع هرتزل إلى إهمال إمكانيّة ردّة فعل فلسطينيّة عنيفة على المشروع الصهيونيّ ودفع الصهيونيّة العمليّة إلى مؤاخذه على هذا الجهل. ولقد كان المؤتمر الصهيونيّ العالميّ الخامس (1901) ميدانا لمعارضة رسميّة للصهيونيّة السياسيّة قادتها جماعة تسمّت بـ « الجماعة الديمقراطيّة الصهيونيّة » ضمّت من بين من ضمّت فـ. جاكوبسون V. Jacobson ومارتين بوبر Martin Buber وليوموتسكين Motzkin وحاييم وايزمان وبوتولد فايفل Buthold Feivel ودفيد تريتش David Trietsch وافرايم ليليان Ephaim Lilien أعطت الأوليّة للأهداف الثقافيّة والعمليّة. هذا الاتجاه عبّر عنه الدكتور أرتير روبين، المهندس الزراعي، الذي كان مشرفا على الاستعمار الزراعيّ وشراء الأراضي في فلسطين والذي اشتهر بمبادراته الشخصيّة وبحوثه وتحقيقاته الميدانيّة :

« يبدو أنّ المسألة الأصعب التي علينا أن نواجهها هي مسألة علاقاتنا بالعرب في فلسطين. وإذا لم نصل إلى اتفاق بيننا وبينهم فإنّ كلّ عملنا في فلسطين هو عمل مبنيّ على الرمال »⁶⁷.

مثل هذه المعارضة لم تفتّ من عضد تيودور هرتزل وتيّاره السياسيّ فإذا هو يبذل سنة 1901 كلّ الجهود للقاء السلطان عبد الحميد، وهو ما حصل فعلا في ماي من هذه السنة. ولقد خرج هرتزل من هذا اللقاء بانطباع سيّ:

« اعترف هرتزل، بعد فشل مفاوضاته سنة 1902، أنّ عبد الحميد قد اقتصر على استخدامهم »⁶⁸. فاتّصل ببريطانيا (مشروع الاستيطان في العريش المصري، الأكثر من أوغندا قريبا من فلسطين) بل بالعثمانيين الاتحاديين ولكنّ مساعيه، هذه المرّة أيضا، باءت بالفشل : لقد قابل الدكتور ناظم باي المشهور بلقب روزوفي نوفمبر 1903 ماكس نورداو في باريس وقبل، نتيجة أحداث كيشينيف الدامية ومجازر اليهود، أن يتعهّد بتوطين مائة

⁶⁷ كامينسكي . — القومية العربية... ص 130، حاشية 1

⁶⁸ Th. Herzl. - Diaries, t.III (14 mars 1902, n° 1256), t.IV (27 Juillet 1902, n° 1319) T.IV

(13 Juillet 1902, n° 1331), TIV (2 Fevrier 1902, n° 1341) أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية

والقومية اليهودية، ص 86.

ألف عائلة من أوروبا الشرقية في السلطنة ولكن بشرط توزيع هذه العائلات على كل الولايات تفادياً لتكوّن جماعات قومية كبيرة ينتهي أمرها بالانفصال عن السلطنة.

ويعرف الجميع نهاية هرتزل فلقد مات سنة 1904 من دون أن يتحقق من برنامجه السياسي أي شيء. هذه السنة هي التي انتقل فيها حاييم وايزمان، ممثل الصهيونيين الثقافية والعملية للعمل في مانشستر (بريطانيا)، هذه المدينة التي تعتبر موطناً لنظرية التبادل الحر الاقتصادية وموطناً كذلك لكثير من اليهود الصهاينة ذوي التأثير والنفوذ الكبيرين :

« كانت مانشستر هي قلعة نظرية التبادل الحر وكان وينستون تشرشل قد أثبت كفاءته في الدفاع عن هذه النظرية وهو الذي انفصل عن التوريز، Tories (يقصد أنصار إطلاق الحكم الملكي مقابلة بـ «الويغز» Wighs) بسبب هذه المسألة بالذات وبسبب الطريقة الحية والمعاصرة التي عرف كيف يعرض بها أطروحة التبادل الحر. وسوف يتمكن الآن من استمالة الطائفة اليهودية النافذة في مانشستر. ذلك أن من الأمور ذات المغزى أن كثيراً من أنصاره الرئيسيين في هذه المدينة كانوا يهوداً، ومن هؤلاء تبرز أسماء أنصاره الأوائل: ناتان لاسكو Nathan Laske وحاييم وايزمان وإسرائيل ترانغفيل Israel Zangwill وجوزيف دولبرغ Joseph Dulberg وبارو أي. بليشا Barrow I. Belisha لذلك فلا عجب أن ينحاز إلى قضية الصهيونية منذ زمن باكراً جداً وقبل أن تصبح هذه القضية حديث الساعة»⁶⁹ عن هذا الخيار نفسه كتبت غولدا مايير أنّ وايزمان كان قد « وضع كامل ثقته بالبريطانيين»⁷⁰ تماماً كما وضعها فيهم العثمانيون الصباحيون والعرب البروتستانت من قدماء جماعة بيروت السرية والعروبيون الإسلاميون فأصبح فصل بريطانيا بين هؤلاء الخصوم مع المحافظة على مصالحها في المنطقة، أمراً على غاية من الصعوبة.

سنة 1904، إذن، هي سنة على غاية من الأهمية فيما يتصل بهذا الفصل خاصة أنه سيكون لموت هرتزل تأثير كبير في توازن القوى داخل الصهيونية. فقد انعقد المؤتمر الصهيوني السابع نهاية جويلية 1905 في مدينة بال. وكان عليه أن يتخذ قراراً بشأن المشروع الاستيطاني في أوغنده : رفض المؤتمر هذا المشروع ونتج عن حدة الصراع انسحاب الصهاينة

⁶⁹ Randolph S. Churchill. - Churchill. II : Le Jeune homme d'Etat (1901-1914) , Paris,

1967.- p.90

⁷⁰ غولدا مايير. — [الحقد] - ص 158

الذين لا يشترطون أن تكون فلسطين دون غيرها، موطننا لليهود بقيادة تسانقفيل وبعض ممثلي المنظمات اليسارية الأوربية الشرقية مثل سيركين .

تنزلت بغلبة التيارين الثقافي والعملي على المؤتمر « القضية العربية » منزلة أساسية حتى أن ماكس نورداو تحدث، خلافا لما كان هرتزل يفعل، عن مخاطر نمو الوعي القومي العربي. ثم تناول الكلمة بعده اسحق إيبشتاين Yitzhak Epstein وهو أستاذ فلاح في فلسطين في جلسة مغلقة وكان يرى أن « القضية العربية يجب أن تنزل المنزلة الأولى في سلم القضايا التي تواجه الصهيونية » « فالشعب العربي شعب فخور ذو أنفة ونزاع إلى الاستقلال وعلى « اليبشوف » Yishuv الجديد أن يحذر كل الحذر حتى لا يتسبب في احتكاك يثير غضبه » ونصح اليهود، على سبيل المثال، بالأى يشتروا من الأراضي إلا ما لم يكن الفلاحون يستغلونه وبأن يعملوا على أن يستفيد العرب من المؤسسات الثقافية والصحية اليهودية وبالعمل على رفع مستواهم.

ويعتبر أرثير روبين من الآخذين برأى إسحق إيبشتاين الذي عبر عنه في المؤتمر ووضحته مقالته « مشكلة كامنة » وهي مقالة أثارت نقاشا حادا في الأوساط الصهيونية فأفكار إيبشتاين توافق الدراسات التي قام بها روبين أثناء اشتغاله في فلسطين.

إزاء هذين الموقفين المختلفين (الموقف السياسي والموقف الثقافي والعملي) كان على المؤتمر أن يقوم بعملية توفيقية صعبة كما كان عليه أن ينتخب رئيسا جديدا للمؤتمر ولقد تمكن من صياغة قرارات تجميعية. فقد رفض سياسة الاستعمار الخيري وسياسة الاستعمار على نطاق ضيق إذ أن هذين الاستعمارين لا يستندان، في نظر المؤتمر، إلى مخطط أو نظام شامل. وقرر العمل على تعزيز المواقع اليهودية في فلسطين في الميدانين الزراعي والصناعي كما وقع انتخاب مجلس إدارة جديد ضم ثلاثة من القائلين بالصهيونية العملية (الأستاذ فاربورغ Warburg - أوسيشكين Ussishkhine كوقن برنشتاين Kogen Bernstein) وثلاثة من القائلين بالصهيونية السياسية (ليوبولد غرينبرغ L.Greenberg، جاكوبيس كان Jacobus Kann - إسكندر مارموريك A.Marmorek). مرق ماكس نورداو، العضد الأيمن لهرتزل وممثل الصهيونية السياسية، عرض رئاسة هذه اللجنة فوق وقع انتخاب دفيد فولفسون (1958-1914) رئيسا لهذه اللجنة.

كان فولفسون تاجر خشب في كولونيا. وقد ولد في لوتيانا وانضم إلى أحباء صهيون وكان إلى ذلك من صحابة تيودور هرتزل الأوائل. وتعتبر الصيغة التوفيقية التي انتهى إليها

المؤتمر السابع أكثر الصيغ ملاءمة للظروف السياسية المتقلبة إذًاك على عكس صهيونية هرتزل السياسية الصافية التي تعول، قبل كل شيء، على «وعد» لا يمكن للصهيونية العالمية أن تناله إلا بغلبة شق من شقي القوى العالمية المتنافسة. ومن ناحية ثانية فإن هذه السياسة التوفيقية كانت حرية بعدم إثارة مخاوف السلطنة لذلك سيصرح حاييم وايزمان في المؤتمر الثامن (1907) :

«لابد من الحصول على ميثاق ولكن فقط كنتيجة لجهودنا في فلسطين. فإذا أعطتنا الحكومات اليوم ميثاقا فإنه سيكون مثل قصاصة الورق. ولن يكون الشأن كذلك إن بذلنا نشاطا عمليا في فلسطين، إذ يكون الميثاق أنذاك قد كتب واتحد بدمنا اتحادا لا تنفصم عراه»⁷¹.

أعاد فولفسون في هذه السنة نفسها ربط الصلة بالباب العالي ممثلا في الدمشقي أحمد عزت العابد بعد الفتور الذي ميز هذه الصلة بعد موت هرتزل :

«صادفت زيارة فولفسون الثانية، في أكتوبر 1907، سنة انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن وكانت استجابة لما يشبه دعوة وجهتها إليه الحكومة العثمانية وقد عرض على الأتراك مشروعا ينص على توطين 50.000 عائلة يهودية في فلسطين، ولكن في غير القدس. هؤلاء المواطنون يصبحون رعايا عثمانيين يقومون بالخدمة العسكرية ولكن يعفون من الضرائب لمدة خمس وعشرين سنة. أما الأرض فتشترىها الهيئة التنفيذية الصهيونية وتبقى من ممتلكاتها. كان الأتراك يطلبون لتجميد ديونهم قرضا بـ 26 مليون جنيه إسترليني فعرض عليهم فولفسون مبلغ مليوني جنيه (...) كما اصطدم فولفسون بطلبات عملاء هرتزل القدامى الملحة من أمثال عزت باي الذين كانوا يطلبون مليون فرنك ثمنا للخدمات التي قدموها مثل رفع الحظر عن الاستيطان اليهودي. وقد كان فولفسون يحذر منهم أكثر مما كان هرتزل يفعل. وعندما أعلنت السلطات التركية أنه من غير الممكن أن ينتظر الصهاينة بادرة طيبة منها إن لم يخط هؤلاء الخطوة الأولى رد عليهم فولفسون أن ليس بإمكانه أن يفعل شيئا إذا لم تكن المبادرة من الأتراك. كانت هذه المساومة متواصلة عندما قام جماعة «تركيا الفتاة» بثورتهم وخلعوا السلطان»⁷².

⁷¹ أوردت ذلك كامينسكي في القومية العربية والقومية اليهودية، ص 93

⁷² كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية ، صص 162-163

علينا أن نلاحظ هنا أن كاترين كامينسكي تقصد بـ « الثورة وخلع السلطان » مدة تقرب من العشرة شهور إذ لم يعزل عبد الحميد إلا بعد ثورة الجمعية المحمدية المعادية للدستور الوضعي. وفي هذه الفترة الطويلة اتضح من جديد الخلاف بين الصهيونية السياسية والعملية على الرغم من قرارات المؤتمرات الصهيونية التوفيقية. ففي حين هُلل ماكس نورداو لحدث التمرد أثناء اجتماع في باريس « لو عاش هرتزل إلى اليوم لا غُبط لهذا الحدث أغتباطاً لا مزيد عليه و لقال : ها هو ذا ميشاقي »⁷³ كان الصهاينة العمليون و الثقافيون أكثر حذراً لمعرفةهم بسياسة العثمانيين الاتحاديين إذ تلقى أرثير روبين في 13 أكتوبر 1908 رسالة من زميله فيكتور جاكوبسون، ممثل المنظمة الصهيونية في الآستانة جاء فيها :

« إنَّ "الأترك الفتيان" يعتبروننا انفصاليين. وإذا لم يحدث ذلك اليوم فسوف يحدث غدا. إنهم لا يريدون السماح للشعب بالدخول فـ «يخلق لهم مسألة أرمنية جديدة»⁷⁴.

هكذا يتضح، إذن، خطأ الدراسات التي تنسب تنامي الصهيونية في فلسطين إلى فترة هيمنة العثمانيين الاتحاديين على الحكم وهي هيمنة لا يمكن التأريخ لها بما قبل أفريل 1909. نحن هنا لا نسعى إلى إظهار مدى صحة النهج العثماني الاتحادي الذي كان يقول بوحدة عثمانية زمن انتصار القوميات الخاصة ولكننا نودّ التأكيد على خطورة الرأي الذي يتحدث عن استعمار تركي في زمن كان فيه الحكم عثمانياً اتحادياً أي كان يشارك فيه كثير من العرب النافذين. وقد يكون شعور المفكرين الصهاينة بهذه الحقيقة هو الذي وجّه النشاط الصهيوني بأجنحته المختلفة (الجناح السياسي والجناح الثقافي والجناح العملي وكلها، في نظرنا أجنحة متكاملة بما أن وعد بلفور سنة 1917، وهو غاية ما كان هرتزل يطمح إليه، قد اقترن بإسم وايزمان ممثل الصهيونيتين الثقافية والعملية) وجهة براغماتية أثبتت نجاحتها حتى قبل سيطرة العثمانيين الاتحاديين على الحكم بتأسيس مكتب يافا (1908) :

« يجب انتظار سنة 1908 حتى يبدأ نشاط المنظمة الصهيونية العملي فقد تأسس أول مكتب في فلسطين في يافا هذه السنة وإذا كان الصهاينة السياسيون قد قدّموا هذا التنازل للصهاينة العمليين فإنّ مردّد ذلك إلى أمرين : الأمر الأول هو فشل نشاط هرتزل

⁷³ كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 163 نقلا عن Die Welt, I, 1909

⁷⁴ كامينسكي . — القومية العربية والقومية لليهودية، ص 123 نقلا عن V. Jacobson to A. Ruppel, 13

août 1908, C.Z.A L 2/34 - I ; CZA. Z2/11 (29 mars 1911

الديبلوماسي والأمر الثاني هو ثورة الأتراك الفتيان (...) وفي الوقت نفسه كان على الصهاينة أن يمحوا من خطبهم كل ما كان يتصل بالفكرة القومية خشية إثارة النظام الجديد. ومع ذلك فقد تواصل نشاط مكتب فلسطين⁷⁵ على نطاق ضيق وتواصلت المظاهر الدالة على استمرار هذه الثنائية⁷⁶

لقد انتصر، إذن، تيار حايم وايزمان الذي كان يؤمن بسياسة الخطوة خطوة لأن «التاريخ لا يصنع بمصباح علاء الدين السحري»⁷⁷ ولسوف ينسحب جماعة هرتزل انسحاباً تاماً بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي التاسع سنة 1909 من الحركة فيهيمن بذلك وشيئاً فشيئاً صهاينة أوروبا الشرقية على الحركة القومية اليهودية.

⁷⁵ أداره آرثر روبين A. Ruppin

⁷⁶ كامينسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية ، صص 92-93

⁷⁷ أورد ذلك كلود فرانك في الصهيونية، ص 21 نقلاً عن H. Weizman . - Trial and Error, London,

1949, p. 142

الفصل الثامن

کردستانيّ في شامستان

ولد محمد كرد علي (1876 - 1953) في دمشق ، عاصمة ولاية سوريا سنة تسّم عبد الحميد الثاني عرش السلطنة في الآستانة من أب كرديّ وأمّ شركسيّة. وعن أصله ذاك كتب :
« جاء جدّي من السليمانية من بلاد الأكراد وسكن دمشق قبل نحو 150 سنة .
وأمي شركسيّة من قفقاسيا »¹.

وقد تولّت مربيّة ألبانيّة شأن الطفل محمد بعد الولادة مباشرة فطبع الأصل الكرديّ القفقاسيّ والتربية الألبانيّة الأولى شخصية محمد كرد علي بطابع إسلاميّ متفتح ينفر من الدعوات القوميّة النابذة نفورا شديدا .

كانت دمشق عاصمة سوريا ، أثناء هذه الفترة مثالا طيّبا على تقليديّة سوريا الداخليّة مقارنة بالساحل الناشز إذ في حين أكرّث الطوائف المسيحيّة فيه من إنشاء المدارس الخاصة بها وأنشأ الأنجلييون واليسوعيون الجامعة الإنجيليّة وجامعة القديس يوسف في بيروت فكثّر عدد المتعلّمين تعليما جديدا لم يكن حتى التعليم التقليديّ منتشرًا في دمشق انتشارا كبيرا إذ « احتكر العلم في أسر معيّنة تعرف به ، وإنك لتعدّ من هذه الأسر العدد الوافر. ففي دمشق آل الكزبري وحمزة و الخاني والطنطاوي والميداني والطار والمنير والنايلسي والقاري والشطيّ والعمرى والصمادي والمرادي والسبكي والبيطار... »²
ورغم هذا الوضع الثقافيّ السائد في عاصمة سوريا فقد تمكّنت عائلة محمد كرد علي ، لتوسّط وضعها الطبقي :

« والمنظور إلينا بين قومنا وفي حيننا أنّنا من الأغنياء. وكان معولنا في معاشنا على مزرعة لنا إذا أكدى ريعها بعض السنين نضيق »³.

من أن تلحق الطفل محمد منذ الخامسة من عمره (1881) بمدرسة « كافل سيباي » الابتدائيّة ثم بعد ذلك بالمدرسة الثانويّة. وإذا كان محمد كرد علي سينقطع بعد ذلك عن التعليم إمّا لعدم توفّر المؤسسات التعليميّة في سوريا الداخليّة إذك أو لأسباب أخرى نجهلها فإنّه ، وبفضل مجهود عصاميّ في الغالب ، تمكّن إضافة إلى العربيّة والتركيّة ، من إتقان الفرنسيّة ، أي لغة ذلك العصر السائدة والتي تعتبر مفتاح التقدّم حتى في البلاد الغربيّة :

¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 5

² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 1026

³ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 227

«كنت متمكناً من الفرنسية. ومعرفة المسلم الفرنسية في ذلك الدور كانت تعدّ منقبة عظيمة»⁴. لم حصر محمد كرد علي الكلام في «المسلم الشامي» ؟ لأنّ المسيحيين الشوام المعاصرين له لم تعد اللغات الأجنبية «الحية» بعيدة المنال بالنسبة إليهم.

على أن الكلام عن تكوين محمد كرد علي الابتدائي والثانوي وعن عصاميّته لا يكتمل إلّا بالإشارة إلى شدة تأثير شيخ قبائليّ بجاويّ جزائريّ هاجر أبوه إلى سوريا على غرار كثير من الجزائريين هو الشيخ طاهر الجزائري (1852 - 1920) فيه. لقد خلف هذا الشيخ عنه صورة عند أغلب السوريين المسلمين تختلف بشكل تام عن صورة المشائخ التقليديين الذين كان محمد كرد علي يعاديهم فكأنه كان بالنسبة إليه ما كان كورنيليوس فاندريك عند جورجي زيدان أو محمد عبده عند محمد رشيد رضا. كان هذا الشيخ الجزائري شاذ الطبع، ماسونيّاً، مدمناً على التدخين فضّل العزوبة على الزواج ولكنه كان في الآن نفسه، على حدّ تعبير محمد كرد علي، «في هذه الديار كالأستاذ محمد عبده في مصر»

إن جيلاً كاملاً سيتبنّى في الشيخ طاهر الجزائري علامات القدوة الصالحة في هذه الفترة والمثال المنشود والمضاد لصورة الشيخ التقليديّ : فلقد كان إضافة إلى سعة اطلاعه وإتقانه العديد من اللغات كارها للجمود الفكريّ وللتقليد كره كلّ من انتمى من الشيوخ المسلمين إلى الماسونية وقادراً على ربط الصلات الحميمة بتلامذته الروحيين من دون أن يكفّ عن القول : «أنا شاذ في عاداتي وأحبّ أن لا يقتدي بي أحد منكم.» ومع ذلك فقد طبع بعض تلامذته مثل محمد كرد علي بطابعه في أكثر من مجال وكانت كثير من سمات الشيخ الفكرية تبدو واضحة في تفكير المفكر الكردي السوري حتى في فترة شيخوخته بل كان محمد كرد علي حريصاً على الاستشهاد بشيخه كلّما سنحت الفرصة وسواء تعلق الأمر بقضايا السياسة أو الاجتماع أو الحياة عموماً بل قد لا نبالغ إذا قلنا إن نصائح الشيخ هي التي قادت الشاب محمد كرد علي عندما كان يتحسّس خطاه الأولى بعد انقطاعه عن التعليم وأثناء فترة عمله القصيرة في الوظيفة العمومية : فلقد كان طموح الكرديّ عظيماً وكان في ضيق من وظيفة حقيرة لا تنفتح على آفاق تظهر كفاءته الحقيقية وتخرجه من وضع الموظف الصغير المقنوط :

«الموظف مهما كانت درجته لا يخرج عن كونه عبداً بأجر زهيد يفنى في غيره وتضمحلّ إرادته ويموت فقيراً معدماً إلّا من نهب وسلب»⁵.

⁴ محمد كرد علي . - المذكرات . - ص 37

وهنا كان لتشجيع الشيخ تلميذه وهو يشرع في الكتابة الصحفية الأثر الكبير «ما بلغت السادسة عشرة (1892) حتى أخذت أكتب أخبارا ومقالات في الجرائد. وما كنت أظن أن هذه البداية تنتهي بي إلى الغرام بالصحافة ويبلغ بي الحال أن أحرر أول جريدة ظهرت في دمشق»⁶.

وإذا كانت جريدة « الشام » التي جرب فيها محمد كرد علي مدة ثلاث سنين خطاه الأولى في ميدان الصحافة تعتبر جريدة مغمورة فإن مجلة «المقتطف» «شيخة المجلات العربية» كما يسميها⁷ التي نشرت له سنة 1899 وهو في سن الثالثة والعشرين تسعة فصول في «عمران دمشق» قد دفعته إلى اكتشاف طريقه النهائي ف «بكتابتني في هذه المجلة امتدت شهرتي»⁸.

إن هذه الشهرة المبكرة لا بد لها حتى تبلغ مداها الأبعد والغرض المرجو منها أن تتجاوز دمشق العتيقة والضيقة إلى مصر الكوسموبوليتية إذاك، مصر الخديوي عباس الثاني، أو بعبارة أصح مصر اللورد كرومر :

«وفي ذلك العهد كانت حرية مصر تشبه حرية بلاد الإنكليز»⁹

لذلك هاجر محمد كرد علي لمدة قصيرة إلى مقر صدور «المقتطف» سنة 1901 فحرر في «المقتطف» لصاحبه يعقوب صروف أحد قدماء جمعية بيروت السرية و «الرائد المصري» لصاحبه نقولا أفندي شحادة و «المؤيد» لصاحبه الشيخ علي يوسف وتعرف على أغلب المدمنين على مقهى «اسبلندد بار» قبل أن يعود إلى دمشق بعد عشرة شهور من حلوله بمصر «فارا من الوباء الذي انتشر في القطر المصري»¹⁰.

⁵ محمد كرد علي.. المذكرات، ص 202.

⁶ محمد كرد علي . — المذكرات ، ص 51

⁷ المقتطف : شهرية أنشأها في بيروت يعقوب صروف وفارس نمر سنة 1876 ثم نقلها إلى القاهرة (1885) وقبـد ترأس تحريرها يعقوب صروف إلى وفاته (1927) فخلفه في رئاسة التحرير فؤاد صروف (1927 - 1944) ثم بشـر فارس (1944 - 1945) فإسماعيل مظهر (1945 - 1949) فنقولا الحداد (1949 - 1950) زوج روزا أنطون، أخت فرح أنطون ثم سبيرو الجسري (1950 - 1952) وقد توقفت عن الصدور، شأنها في ذلك شأن المقطم عند قيام الثورة المصرية (الموسوعة العربية الميسرة، ج 2)

⁸ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 52

⁹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 67

¹⁰ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 55

لقد درج أغلب المثقفين الشوام على تبرير هجرتهم إلى مصر بأسباب سياسية أهمها تعمّف عبد الحميد الثاني على المعارضين السياسيين وقليلًا ما يقع التعرّض لأسباب أخرى مثل الهجرة الاقتصادية غير أن محمد كرد علي يكاد لا ينسج على هذا المنوال فهو يصرّح بالغاية الحقيقية من هجرته كما يصرّح بأسباب عودته المبكرة إلى دمشق. فنحن نقرأ له عند حديثه عن هجرته الثانية إلى مصر سنة 1905 :

« هبطت مصر للمرّة الثانية (1905) عازما على أن أصدر مجلة شهرية باسم المقتبس تبحث في العلوم والآداب »¹¹ أي أن الغاية من هذه الهجرة لا تتجاوز تحقيق رغبة في النجاح الفردي الصحفيّ كان الشاب محمد كرد علي مقرّ العزم على بذل كل مجهود مهما شقّ لتحقيقها. وقد اضطرّ فعلا إلى أن يعمل محرّرا بعدّة جرائد : « إنّي أصدر مجلة تضطرني إلى المقام في مصر فأنا في حاجة إلى عمل آخر مع المجلة حتى تكفيني في القاهرة واردات ملكي في الشام »¹².

ولقد بقي على هذه الحال ثلاث سنوات :

« فلما أعلن القانون الأساسي وسقطت دولة الاستبداد رجعت في سنة 1908 إلى دمشق وأنشأت مطبعة وأصدرت المقتبس اليوميّ والسياسيّ مع المقتبس الشهريّ والعلميّ وكان المقتبس السياسيّ أوّل جريدة يومية صدرت في دمشق »¹³.

إن السؤال الكبير الذي لا يسع المرء إلّا أن يطرحه هو : كيف أمكن لمحمد كرد علي الذي اختار العمل الصحفيّ ميدانا للنشاط وغاية من حياته الفكرية أن لا يتعرّض في هذه الفترة الحسنة بالهزّات السياسية وبالصراع بين حكم عبد الحميد الثاني والقوى النابذة وما يصحب ذلك في ظلّ خلافة متخلّفة من ممارسات قمعية، لما اشتكى منه أغلب معاصريه مسلمين كانوا أو مسيحيين ؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال لا تحتل أكثر من وجهين : إمّا أن يكون محمد كرد علي آخذا بنظرة تقليدية مكنته من مهادنة الدولة الحميدية فاتقى شرّها وإمّا أن لا يكون كذلك لكنه سلك مسلكا فيه كثير من «التقية» عملا بمعتقده أن «العامل يلزم السكون عند تبدّل الدول وكذلك يوم تشنّ الحرب في دياره وإلّا جعل منه صاحب القوة ذريعة لالقاء

¹¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 56

¹² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 57

¹³ محمد كرد عاي . — المذكرات، ص 61

الرهبنة في القلوب»¹⁴. ونحن سنسلك في تناولنا لموقف محمد كرد علي من الدولة العثمانية زمن عبد الحميد ومن مختلف التيارات في هذه الفترة مسلك من يحلل مفهوم «العاقل» كما يفهمه محمد كرد علي لتوضيح مواقفه «الكامنة» والتي لا تظهر في مذكراته المتعلقة بهذه الفترة، بما فيه الكفاية من الوضوح. إن «العاقل» عند محمد كرد علي هو الذي يحذو في أحكامه وفي سلوكه حذو «القوانين الطبيعية» إذ «كل قانون غير قانون الطبيعة تنسخه الأيام ولا تبقي على غير المعقول والأنسب»¹⁵ وهو الذي يحذو كذلك حذو من فهموا أكثر من غيرهم هذه القوانين أي «المعبرين» عن «المدنية التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد النهضة» وهم بصفة عامة هؤلاء الذين قَلَّصوا من الإيمان بتأثير العناية الإلهية وبرأوا الطبيعة مما كانت تنسبه إليها الفلسفة التقليدية، فلسفة الصفات.

ما هي هذه القوانين الطبيعية؟ إنها القوانين التي تقرّر أن «السير البطيء الدائم خير من السير السريع المؤقت والساقية الجارية أعود على الحقل والحديقة من النهر المقطوع».¹⁶ بهذا الأخذ بالعقل الطبيعي، لم تعد مراجع محمد كرد علي دينية، لما في الدين من عناية إلهية ومن خوارق للعادة ولكنها أصبحت مراجع «لويونية» (نسبة إلى غوستاف لوبون): «ولقد قال غوستاف لوبون: إن الاحتفاظ بأوضاع الماضي مع تبديلها بما لا يشعر به قوة كبرى للشعوب عرف الرومان في الدهر الغابر والأنكليز لعهدنا كيف يحققون هذا المطلب»¹⁷.

لذلك لا يتمالك محمد كرد علي من أن يصرح في ألم:

«كان يكتب لنا التوفيق لو اقتبسنا من حسنات المدنية الغربية ما يربو على ما أخذنا من سيئاتها. والسبب في تأخرنا عن الغربيين إهمالنا التفكير زمنًا في كل ما يدفعنا إلى الأمام. أبطأنا في الاقتداء بمن كان الواجب الاقتداء بهم وما حدثتنا أنفسنا من أول جيل بالأخذ من المدنية التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد النهضة»¹⁸.

¹⁴ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 177

¹⁵ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 703

¹⁶ محمد كرد علي . — المصدر السابق، ص 1037

¹⁷ محمد كرد علي . — المصدر السابق، ص 1050

¹⁸ محمد كرد علي . — المصدر السابق . — ص 1170-1171

ومحمد كرد علي لا يعتقد، لرفضه القول بالطفرة الشبيهة بالمعجزة، أن «المدنيّة التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد النهضة» قد ولدت من عدم ولكنّه يرى أن الحضارة العربيّة الإسلاميّة نفسها لم تزدهر، في فترة من فترات التاريخ، إلّا لأنّها سايرت حكمة الطبيعة :

«أخذ المسلمون لأوّل أمرهم من العلوم الماديّة ما كان لهم منه عون على القيام بدعوتهم حتى إذا تمّ لهم ما طمحوا إليه من التوسّع في الملك، فترت الهمة في العلوم ودامت العناية بالدين سائرة سيرها العاديّ، ثمّ قوي السواد الأعظم وهم أصحاب الدين على الأقلّيّة وهم رجال العلم فكان من ذلك رجوع الأمة القهقريّ»¹⁹.

في الشاهد المتقدّم يلاحظ المرء الترادف بين عبارة «فترت الهمة في العلوم وعبرة السير السريع المؤقت» ذلك أن «دوام العناية بالدين سائرة سيرها العاديّ» إنما هو علامة على انكسار التوازن بين الأرض والسماء والجسد والعقل وليس علامة على الصحة الدينيّة. كل تفكير محمد كرد علي محكوم بفكرة الخطر الذي يدهم الحضارات جميعا إن انحلت العروة الوثقى بين الماديّ والثقافيّ، وهو يطبّق ذلك على سلوك الجماعات ويطبّق ذلك على سلوك الأفراد حتّى إنّّه ليعجب لـ «راهبة كانت على جمال فتّان (...)»²⁰ رضيت أن تظم نفسها برضاها عن لذائذ الدنيا ابتغاء ثواب الآخرة. سلطان الدين على بعض النفوس أعظم من كلّ سلطان²¹ والراهبة قد تتعدّد فتصير أمة كاملة تثير عجب محمد كرد علي لأنّها أمة سارت على غير قانون الطبيعة، هذا إن لم يكن هذا السلوك مجرد مظهر إذ «مهما صفت نفوس الرجال والنساء وعرفوا بالتقوى والتدين تبقى فيهم فرجة من البهيميّة لا يفعل فيها الدين والتربية»²².

على أن محمد كرد علي يرى وجوب الأخذ من «المدنيّة التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد النهضة» لا يرى أن هذا الأخذ يقود حتما إلى فقدان الشخصيّة الثقافيّة لاستحالة التطابق بين الأفراد والحضارات. ودليله على ذلك اختلاف النمطين اللاتيني والانتلوساكسوني من ناحية وبداية ظهور نمط ثالث هو النمط الياباني في الشرق الأقصى :

¹⁹ محمد كرد علي . — المصدر السابق، ص 1068

²⁰ محمد كرد علي . — المذكرات ، ص 1218

²¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 1218

²² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 1038

« وأعظم مثال (للأهم الاتكالية) الأمم الشرقية حاشا سيّدها الأمة اليابانية العظيمة فإنّ التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قائمة على أعظم هياكلها وأبنائها أبعد المشاركة عن النشأة الاتكالية »²³

هذان النمطان الغربيان بدايا، لعين محمد كرد علي، متباعدين تباعدا كبيرا فتوسع في تناولهما في أكثر من موضع مشبّها السير اللاتيني بـ «السير السريع المؤقت» والسير الانكلوساكسوني «بالسير البطيء الدائم»:

« تتجلى الرعونة في بعض الشعوب اللاتينية حتى لتكون حكوماتها مهددة بالثورات على الدوام خلافا للشعوب الانكلوساكسونية فإنّ هذه اعتادت أن تفكر قبل الإقدام. الثورات في الجمهوريات اللاتينية من الأمور المألوفة والثورات في أمريكا الشمالية تحدث مرّة في كل قرن وفي بريطانيا العظمى لاتحدث إلا مرة في الزمن الطويل »²⁴.

لم يعد محمد كرد علي وهو يصنّف البلدان المتقدمة علمياً وصناعياً وفكرياً إلى صنفين ما كتب عنها (هوبن) وايدموند بورك E.Burke (1729 - 1797) وأغست كونت وغوستاف لوبون فقلد عرض هوبز في كتابه «الليفياتان» (1651) بالمثال اللاتيني في علاقة المجتمع بالدولة وهو مثال يميل، في نظره، إلى إذابة الدولة. وردّ ما حدث من حرب أهلية في بريطانيا في القرن السابع عشر إلى :

« تقليد الأمم الأجنبية وخاصة منها أمّتي الإغريق والرومان، وهو تقليد مشؤوم إلى أبعد الحدود : فلقد عدّت انتصاراتهم العسكرية وعدّ ازدهارهم من بين إنجازات الحكومة الشعبية ووقع غضّ النظر عن الحروب الأهلية التي دمرتهم والتي نتجت عن فساد النظام السياسي »²⁵

ولقد كان هوبز يحب أن يصرّح : «إنني والخشية توأمان»

وحذا حذوه محمد كرد علي عندما كتب «درجت (يانفس) على بغض الفوضى

وحبّ النظام»

أمّا إدموند بورك، أحد المحافظين البريطانيين فقد كتب إثر اندلاع أحداث الثورة الفرنسية «تأملات حول الثورة في فرنسا»، وهو كتاب طبع سنة ظهوره سبع مرات ووصلت

²³ محمد كرد علي. - التقديم والحديث . - القاهرة، 1923. - ص 331

²⁴ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 1179 - 1180

²⁵ أورد ذلك شوفالبي في الآثار السياسية الكبرى من مكيا فيل إلى اليوم، ص 52

عدد نسخه قبل 1897 ثلاثين ألف نسخة. وقد عدّ فيه مآخذه على هذه الثورة مما سنجده ماثوثا في كتابات المحافظين عامة وسواء كانوا شرقيين أو غربيين مثل فيلهلم روبكه في « أزمة عصرنا » في النصف الأول من القرن العشرين.

خصّص إدموند بورك الجزء الأول من كتابه للثورة الأنكليزية سنة 1688 وحاول أن يظهر ما امتازت به من روح المحافظة على التقاليد والتراث المقدّس مقارنة بالثورة الفرنسية التي هدمت في نظره، النظام القائم وكلّ التقاليد الوطنية الفرنسية أما الجزء الثاني فهو نقد صارم لمظاهر التجديد التي سنّتها الجمعية الوطنية التأسيسية ومنها إعلان حقوق الإنسان والمواطن في 26 أوت 1789 الذي لا يعدو أن يكون، في نظره، بناء فكريا مجردا لا يراعي حقيقة الطبيعة الإنسانية وحاجاتها التي تختلف باختلاف البلدان إذ أنّ ما هو طبيعي إنّما يعني عند بورك « ما يكون نتيجة تطوّر تاريخي طويل وعادات ضاربة في القدم » فلا قيمة إذن إلاّ للموروث: « إنّ مجرد التفكير في تأسيس حكم جديد كاف ليثير فينا شعورا بالاشمئزاز والاستفظاع » فهدم كلّ شيء قبل بناء أيّ شيء لا يمكن، في نظره، أن يصدر إلاّ عن زيف فكري :

« إذا كانت مسحة الأجداد ما زالت باقية فينا فما ذلك إلاّ لأننا أبدينا مقاومة عنيدة لكلّ تجديد » وإذ يندفع بورك في الدفاع عن التشريع الأنكليزيّ الذي يحصر الانتخاب في حدود ضيقة فهو يقرّر أن من باطل الرأي عند من أتيح لهم أن يفكّروا بهدوء أن يقع ادعاء أنّ « حق أربعة وعشرين مليوناً من الناس (يقصد عدد الفرنسيين إذّاك) يجب أن يرجح على حقّ مائتي ألف منهم »²⁶

واشتهر أوغست كونت بمعاداته للثورات معاداته للبرلمانية. ونحا غوستاف لوبون نحوه في هذا الموضوع ولقد كان غوستاف لوبون بالنسبة إلى محمّد كرد علي، بعد أستاذه الشيخ طاهر الجزائري، المفكر الفرنسيّ القدوة في هذا الموضوع لا يكفّ عن الاستشهاد به : « ومن أنواع الثورات ما دعاه غوستاف لوبون بالثورة العلمية قال إنّها من أهمّ ضروب الثورات وتحمل نتائج ذات شأن أكثر من الثورات السياسية، وهي أجدر أن تدعى نشوء بالنظر لبطنها منها أن تدعى بالثورة »²⁷

²⁶ شرفالهي . — الآثار السياسية لكبرى من مكيا فيل إلى اليوم . — ص 150

²⁷ محمد كرد علي . — أفراننا وأفعالنا . — القاهرة، 1946 . — ص 163

ولسوف تحكم هذه العقلانيّة المستندة إلى تصوّر محافظ للطبيعة علاقات محمد كرد كعلي بمختلف التيارات في السلطنة العثمانية زمن عبد الحميد وزمن العثمانيين الاتحاديّين فلقد كان يرى أن الدولة العثمانية كانت حتّى نهاية حكم عبد الحميد دولة تقليدية لم تحكم المسلمين بالعقل بل حكمتهم بالدين: «عرفت الدولة العثمانية كيف تحرّك العرق الدينيّ في رعاياها العرب حتّى حكمتهم أربعة قرون» وذلك بالذات في هذه القرون الأربعة التي تمثّل عمر «المدنية التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد النهضة» لذلك فالهوة بين الحضارتين الغربية والعربية الإسلامية، تبدو، في عيني محمد كرد عليّ، هوة شاسعة إذ في حين اكتملت ملامح الحضارة الغربية، بمحاسنها ومساوئها، بعد أربعة قرون تقريبا من النمو «كانت القرون الأخيرة عند مؤلّفي العرب قرون الجماعين والمقتيسين، وإن شئت قل السارقين والمنتحلين. وعصرنا هذا عصر المترجمين والناقلين، وما كنّا في الأوّل والآخر إلّا عالة على غيرنا»²⁸.

لقد درجت كثير من الكتابات على التأريخ لـ «نهضة عربية» مزعومة منذ فترات مبكرة قد ترقى إلى الدعوة الوهابية أو نقيضتها الحملة الفرنسية على مصر والشام في القرن الثامن عشر. ولكنّ محمد كرد عليّ يصرّ، بسبب عنايته بالمادي والاجتماعي عناية كلّ الوضعيين بهما، على اعتبار أن الحديث عن مثل هذه النهضة هو ضرب من اللغو في القول. فما هو سبب هذا الحكم الذي قد يبدو قاسيا؟ إنّ سببه الأساسي هو شكّه في قدرة الدولة أو التيارات السياسية على تغيير أوضاع المجتمع تغييرا سريعا وكاملا إذا كان هذا المجتمع فاقدا لـ «شروط الحياة»: «لا يرجى من الحكم الملكيّ المقيد ولا من الحكم الجمهوريّ خير لمن تجري عليهم أحكامهما إن لم تكن فيهم شروط الحياة موفورة»²⁹ فنهضة أوربا الغربية، حسب قراءته للتاريخ، لم تكن نتيجة إرادة الدولة:

«و نهضة الغرب ما قامت لأوّل عهدها إلّا بأيدي أبنائه لا بأيدي حكوماته. وأبناؤه هم الذين أكرهوا ساداتهم وكبراءهم على السير في طريق سعادتهم فأنشأ الأفراد الصالحون الحكومات الصالحة»³⁰ أمّا في الشرق فما زال الشرقيون محكومين بفكرة العناية الإلهية على المستوى الميتافيزيقي وفكرة أبوية الدولة على المستوى السياسي:

²⁸ محمد كرد عليّ . — المذكرات ص 1024

²⁹ محمد كرد عليّ . — المذكرات، ص 1020

³⁰ محمد كرد عليّ . — المذكرات، ص 198

« ألفتنا أن نتوقع كل خير من الحكومات تضمن لنا مقدماته ونتائجها ومن هي الحكومات حتى نعتصم بها ونجعلها معقد آمالنا في كل شيء »³¹.
تتضمن الشواهد المتقدمة أفكاراً أساسية يمكن أن تعدّ مفتاحاً لتفكير محمد كرد علي :

منها أن عبارة « من تجري عليهم أحكامهما » لا تعني المجتمع عامة إذ أن محمد كرد علي لا يرى « للطبقات النازلة » دوراً غير العمل وصفة مثلى غير الطاعة والامتثال. ويصعب على المرء أن يجد مفكراً شامياً حديثاً أو معاصراً تحدّث عن « قرفه » من « العامة » بمثل الصراحة التي تحدّث بها هو عنها :

« لا قوّة تحول دون انتشار الفساد في معظم الأشياء يوم يصير الحكم إلى العامة. العوام على الأكثر لا يحسنون إلّا التخريب. وقد ينفق الخواص أعواماً في تنظيم أمر فإذا آل النظر فيه إلى العامة دبروه في ساعة »³².
ومنها رفضه للدولة « المنقذة » وشكّه في نيات قادة الأحزاب السياسية « المنقذة » كذلك :

« ثبت لي أنّه ما أفلح في هذه الأرض حزب ولا جمعية اللهم إلّا إذا كان من بعض الشياطين أن اتّخذوا من حزب مطيّة لأغراضهم الخاصة، يصلون على متنها إلى المراتب والمكاسب. والمغفلون من يخدمون معهم في هذه المناحي على العمياء، وبدون إعمال الرويّة، يرفسهم الكبار بأرجلهم من غير حياء في اليوم الذي تتحقّق فيه مآربهم »³³.
ومنها أنّه بقدر ما يرفض أن يكون للدولة ولعامة المجتمع ولقادة الأحزاب الدور الذي ينسبه إلى كل هذه القوى أي على الترتيب دعاة إطلاق يد الدولة ودعاة « الثورات » ودعاة البرلمانية ينيط، لاضطراره إلى ذلك اضطراراً، بـ « الأفراد الصالحين » مسؤوليّة التوجيه الاجتماعي وهو يعني بـ « الأفراد الصالحين » من رأينا من « العقلاء ». فإلى أي حدّ كان المعبرون عن مختلف التيارات التي درسنا في الفصول السبعة الأولى من هذا القسم من بين « الأفراد الصالحين » و « العقلاء » ؟

³¹ محمد كرد علي . — المذكرات، صص 198-199

³² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 1182

³³ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 401

هناك تياران، هما التيار الإسلامي والقيار العروبي الإسلامي، يعتقد محمد كرد علي أن دعائهما والمنتمين إليهما لا يصح إدراجهما ضمن «الأفراد الصالحين» و«العقلاء» أما التيارات المتبقية فهي (إن استثنينا العثمانية الصباحية التي كان يدعو إليها) أقرب ما تكون إلى تفكيره لأخذها بنظرة حديثة إلى الأشياء وإن كان يتحفظ على المستوى السياسي إزاء دوافعها وغاياتها.

إنهم مأخذ لمحمد كرد علي على الإسلاميين هو أخذهم بنظرة تقليدية إلى علاقة الله بالطبيعة ومقايضة بذلك إلى علاقة الدولة بالمجتمع فأبيات مثل هذه تسخيب آرساذا في عبد الحميد :

فمن غير وعد بذل الله حالكم لتضحي لكم رحمى وتغدو لكم ذكرى
أراد تلافي الشرق من عثراته فألقى عليه من عنايته سترا
وألهم مولانا الخليفة ظله قياما على الدستور في الدولة الغرا
بكم صن إشفاقا وفي أرض غيره فما أكثر القتلى وما أرخص الأسمى
إنما هي أبيات تعبر عن علاقات انشداد هرمي لا فكاك منها :
انشداد الخليفة إلى الله

انشداد المجتمع إلى الخليفة

وكل هذه علاقات يرفض محمد كرد علي القول بها إذ ارتخت، عنده، شأنه في ذلك شأن عموم الوضعيين، العلاقة بين الله والإنسان فلم تعد علاقتهما شالة :

« اعتقدت وأنا في العقد الثاني من حياتي أن الدين المعقول أجدى على البشر من الإلحاد وأن من السهل الهدم والصعوبة في البناء (...) وحكمت العقل فيما عرض لي من القضايا الدينية فلم أستطع حل بعض مسائل الآخرة عن طريق العقل وسلمت بما جاء، ولم يكن ما استعصى علي إدراكه سببا في خروجي عن الدين كله، قبلت العقيدة بالتسليم واعتقدت اعتقادا جازما بخالق الأكوان، وقلت إنه لا يطلب من كل إنسان أن يعرف كل سر وأن يعلل بالمنطق كل أمر»³⁴

ونتيجة لذلك ارتخت العلاقة بين الله والطبيعة (ومنها المجتمع) فلم يعد المجال الإلهي يتسع اتساعا يفيض على الكون ويتخذ شكل العناية الإلهية « المنشغلة » ب « عثرات الشرق » في القرن العشرين :

³⁴ محمد كرد علي . - المذكرات . - ص 491

« إِنَّ المسلمين يعتقدون أَنَّ كلَّ خير جاءهم كان من رسولهم محمد بن عبد الله، ولَمَّا كان من عقيدتهم أَلَّا يقوم نبيُّ بعده فالخير لا يتوقَّع من الحجاز (يقصد من دعوة دينيَّة تدعي إمكانية استعادة تجربة ماضيَّة)»³⁵ فهو ضدَّ تسييس الديني لأنَّ في ذلك تكراراً لتجربة الدولة العثمانيَّة قبل 1908 التي ثبت فشلها :

« عرفت الدولة العثمانيَّة كيف تحرَّك العرق الدينيَّ الحساس في رعاياها العرب حتى حكمتهم أربعة قرون »³⁶.

إنَّ السياسيَّ عندما يفقد هالته الدينيَّة يفقد معها صفة «الأبوة» التي يودُّ أن يظهر بها والتي تساكُن صفة «الإشفاق» على المجتمع فتصبح علاقته بهذا علاقة تناقض :

«من هي الحكومات حتَّى نعتصم بها ونجعلها معقد آمالنا في كلِّ شيء»³⁷

لقد قطع محمد كرد علي حبل العناية الإلهيَّة الذي تتعلَّق به السياسة الدينيَّة فعرَى بذلك وجه الدولة الدينيَّة «المنقذة» الذي يتغنَّى بصفاته الإسلاميون وحوَّل المسؤوليَّة الدينيَّة إلى أفراد المجتمع فرداً فرداً إذ «السلامة الأخرويَّة تقوم بكلِّ واحد على حدته»³⁸ وبذلك طرد الديانيين، في حقيقة الأمر، من ميدان السياسة لأنَّهم يمثلون، في نظره، خطراً حقيقياً على المجتمع. ولذلك كتب متعباً أثر ولي الدين يكن :

« متى أصبحت كلمة الفقهاء نافذة في سياسة أمة يخشى عليها الانحلال »³⁹.

وحتَّى لا يتهم بـ «التغرَّب» استنجد بتجربة القائد الكردي صلاح الدين في التعامل مع الفقهاء وأظهرهم بمظهر «زنابير» سان سيمون :

« رحم الله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما كان أعقله في الملوك وأبصره بعواقب الأمور. فقد كان أوَّل العارفين بأنَّ مزج الدين بالدنيا من أضرَّ ما ينهك قوى الأمم فتفقد الصفتين ولا تفوز بالحسنتين ولذلك كان لا يعتمد في تدبير ملكه وقاتل عدوّه إلَّا على أهل الرأي من الساسة في زمنه ممَّن استخلصهم في تدبير ملكه كالقاضي الفاضل ومن كان على شاكلته. ولطالما أَراده فقهاء عصره على أن يعمل بمشوراتهم في زحزحة الصليبيين عن

³⁵ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 263-264

³⁶ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1068

³⁷ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 198-199

³⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 949

³⁹ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1020

البلاد (...) كان صلاح الدين صلاحا للدين والدنيا يعرف من يعمل بآرائهم من رجاله ولذلك ترك الجامدين من أدياء العلم جانبا يغدق عليهم من مكارمه ما يقطع به ألسنتهم ويريحهم من عناء الطلب والنصب ، وإذا رفعوا رؤوسهم وأشاروا إليه بأنه نبذ مشورتهم ظهرياً أشار إليهم بلسان الحال بأن السياسة ليست من شأنهم وأنه يكفيهم أن يحسنوا الاضطلاع بشؤونهم الخاصة وما يفرض عليهم المجتمع العمل به وهم إذا جودوه وأحسنوه يحسنون للأمة كل الإحسان»⁴⁰.

هذه الشدة في مقاومة الإسلاميين مردّها كذلك، في نظرنا، إلى أمر ثان لا ينفصل عمّا ذكرنا من بعض وجوه نظرتهم إلى علاقة الدولة بالمجتمع، وهو هذا الأخذ بتفكير خرافي رأينا مثالا عليه في ما أورد شكيب أرسلان عن قصة « تطبيب عينيه ». فمثل هذا التفكير هو الذي اجتهد « أعلام الغرب منذ النهضة » في مقاومته لأنه يستند إلى فكرة الإعجاز وفكرة العناية الإلهية. وهناك أمثلة عديدة على مقاومة محمد كرد علي لمثل هذا التفكير نورد واحدا منها رغم أنه يرقى إلى الحرب العالمية الأولى . فقد أوفد أحمد جمال باشا سنة 1915 مجموعة من الشيوخ بينهم عدد من التونسيين إلى الآستانة حتى يروا عمرانها وينشروا ما يرون بين الناس رفعا لعنويات العثمانيين في الحرب :

« ركب الوفد إلى هذه الأرجاء باخرة من بواخر المستشفيات الخاصة بنقل المرضى وكان الخطر محققا بنا من الغوّاصات. ودأب المشايخ يتلون حزب البحر داعين الله أن ينجيننا من الغرق فنحنونا ببركات أنفاسهم الطاهرة، وأثر حزبه في البحر وما هاج، بفضل توسّلاتهم، وتخطّطنا غوّاصات الحلفاء، وما كنّا من المغرقين»⁴¹ يبدو جانب ما وراء الطبيعة في العبارة « دأب المشايخ يتلون حزب البحر داعين الله أن ينجيننا من الغرق ». أمّا الطبيعة عندهم أي أجسادهم والبحر والباخرة... فتبدو طبيعة منفصلة تخلّت عن فاعليتها الذاتية إذ غرق الباخرة أو نجاتها لن ينسبإ إليها أو إلى الحلفاء (صناعة الباخرة، حملتها، غوّاصات الحلفاء...) وإنما إلى إله الشيوخ وهو إله بعيد حتى عن إله ابن رشد في القرن الثاني عشر الميلادي ونتيجة لانشداد الطبيعة هذا الانشداد الكليّ إلى إله الشيوخ فإنّ الطبيعيّ يضمّر فلا يكون خلاص الناس هنا الآن نتيجة تطوّر علم المحيطات وعلم المناخ وتقنيّة صناعة السفن

⁴⁰ محمد كرد علي . — المذكرات، صص 263-364

⁴¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 141

والتخطيط الحربيّ أو العلاقات بين الركّاب أو بينهم وبين قادة الباخرة وإنّما نتيجة سببيّة عموديّة.

ما أقرب محمّد كرد علي في مسألة نفى خوارق العادة من إرنست رينان الذي تسبّبت أفكاره حول المسيح في امتحانه إداريّاً فلقد كتب في « حياة المسيح »:

« إن نفى المعجزة أي فكرة أنّ كل شيء يحدث في العالم نتيجة قوانين لا دخل شخصياً فيها اكائنات، فوقانيّة، كانت أمراً شائعاً في المدارس العالية في كل البلاد التي تلقّت علوم اليونان. أمّا المسيح فإنّه لم يعرف شيئاً عن هذا التطوّر. وبالرغم من أنّه ولد في فترة تقدّمها الإعلان عن المبدأ الوضعي، فقد عاش في عالم يطفح بما هو فوق - طبيعيّ (...) كان يؤمن بالشيطان الذي كان يتصوّره على هيئة جنّي شرير وكان يتخيّل، شأنه في ذلك شأن جميع الناس، أنّ الأمراض العصبيّة من فعل الشياطين الذين يستولون على المريض ويثيرونه. لم يكن الخارق للعادة بالنسبة إليه هو الأمر الاستثنائيّ وإنّما كان هو الأمر العاديّ. إنّ مفهوم الفرق الطبيعيّ بما يتضمّن من مستحيل، لم يظهر إلّا في اليوم الذي ولد فيه العلم الطبيعيّ التجريبيّ والإنسان الذي يجهل كل شيء عن الفيزيقيّ ويعتقد أنّه يمكنه بالصلاة أن يغيّر سير السحب وأن يشفي من المرض بل أن يردّ الموت، لا يجد في المعجزة أي شيء خارق للعادة، لأنّ سير الأشياء كلّها هو بالنسبة إليه نتيجة لإرادة الله غير المقيدة. ولقد كانت هذه الحالة الفكريّة دائماً هي حالة المسيح⁴² ». موقف محمّد كرد علي من العناية الإلهيّة يبدو، إذن، غاية في الوضوح. فلا صلة مباشرة بين القرآن وبين الطبيعة والمجتمع. ولذلك فهو يعجب أشدّ العجب لاحتذاء الإسلاميين حذو رجال الدين المسيحيين في القول بالـ « كونكوردية » مقاومة منهم للحقائق العلميّة التي يتوجّسون منها خيفة لأنها قد تشكّك في القرآن :

« من ادعوا أن القرآن يحمل بين دفتيه جميع العلوم لا يدركون أنّهم جعلوا منه بهذا الوصف مختصراً في دروس الأشياء. وما القرآن إلّا كتاب حكمة لخلق أمة تصلح للمعاش والمعاد وكفى بذلك إعظاماً لشأنه⁴³ ».

وبهذه الهوة التي يحفرها بين « خالق الأكوان » والرجال والنساء المسلمين وغير المسلمين الذين « مهما صفت نفوسهم (...) وعرفوا بالتقوى والتدين تبقى فيهم فرجة من

⁴² Ernest Renan .- La vie du Christ .- Paris , 1974 .- p.137

⁴³ محمّد كرد علي . - المذكرات، ص 1167

البهيمية لا يفعل فيها الدين والتربية»⁴⁴ يقلص محمد كرد علي بشكل لا مزيد عليه من إمكانية فعل «الدين» في المجتمع لأن الدين «ثقافة» والمجتمع «طبيعة» تستमित في الدفاع عن «طبيعتها» وعن نواتها المؤسسة استماتة كوناتوس سينوزا والشدياق في ذلك لا فرق فيما يتصل بذلك بين التقي والخليع، في حقيقة الأمر، بدليل أنه «يوم تظهر أسرار الرجال والنساء على جليتها يسؤ ظنّ العقلاء بالصالحين والصالحات»⁴⁵.

ما الذي يكبح، إذن، جماح الإنسان، رجلا وامرأة، رجل دين مدّع للإصلاح ورجلا عاميًا مدعواً إلى الصلاح وكلّ منهما «في ذاته متوحش مخرب حسود طماع»⁴⁶؟ هل هو الدين والتربية اللذان لا يتمكنان من الفعل في «البهيمية» (النواة الطبيعية) أم هو مكبح آخر؟ محمد كرد علي واضح في هذا الموضوع. إنه «الخوف من الفضيحة يجنب بعض الجنسين ركوب مراكب الفحش»⁴⁷ وهو كذلك الخوف من القانون :

«تعيش الممالك بقوة التسلسل. ولولا الخوف من القوانين ما قام في القرى والمدن حجر على حجر»⁴⁸ هذا القانون لاشي يبرر ضرورة اصطباغه بالصبغة الدينية إذ لا يختصّ بـ «البهيمية» شعب دون شعب ولا حضارة دون حضارة :

«إذا فرضنا أن الفساد في شعوب الغرب عشرون بالمائة فليس هو أقلّ من ذلك في الشرق»⁴⁹ ما الحلّ إذن بعد أن ظهر قصور الدين عن الفعل الحاسم في الكوناتوس الفردية هل يحمله المرء أكثر ممّا يتحمّل فيضيف إليه مسؤولية أكبر هي مسؤولية «الفعل» في كيان أكبر هو الكوناتوس الاجتماعية؟ إنّ ذلك يعدّ، في نظر محمد كرد علي، من ضروب الخطأ إذ المطلوب هو سياسة الكوناتوسيين معا بـ «العقل» لا بـ «الدين» أي بهذه الوسيلة التي لا يكون هدفها قتل «البهيمية» وشلّ الطبيعة ولكن معرفة ما للكوناتوس وما عليها معرفة جديدة أي معرفة سينوزية شدياقية.

⁴⁴ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1038

⁴⁵ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1026

⁴⁶ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1296

⁴⁷ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1038

⁴⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1296

⁴⁹ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1030

وبذلك فقط يتحقق المجتمع السليم الذي تكون عقيدته هي أن « السير البطيء الدائم خير من السير السريع المؤقت والساقية الجارية أعود على الحقل والحديقة من النهر المقطوع ».

مأخذ محمد كرد علي الأكبر على الإسلاميين (وعلى الديانيين بصفة عامة) هو، إذن أنهم يؤكّمون مطالب الكوناتوس الأساسية و يشطّنونها بسبب شدة تعلّقهم بصفات الفيزياء الوصفية ولقد كان شعاره الدائم هو : « إصلاح كسوة الرأس واجبة والواجب قبلها إصلاح الرؤوس »⁵⁰.

كان يطلب عقلانية فرط فيها الإسلاميون وأفرط فيها اللاتينيون : فإذا كان الإسلاميون قد ضخموا من دور الله حتى أنّهم أصبحوا يحملونه مسؤولية ما يحلّ بهم من مصائب فإن مفكرى الشعوب اللاتينية خاصة قد سلكوا مسلك من قتل الله ليؤلّه العقل ويعرّي الطبيعة من كل هالة حتى أن ذلك قاد إلى تحلّل شعب مثل الشعب الفرنسي، هذا الشعب الذي تسلّطت عليه « الدولة المنحطة في سلّم الاجتماع التي اشتهرت بلادها بالفسق والفجور والخفة واللهو في أقطار الأرض »⁵¹ والتي على العاقل أن يدعو إلى الابتعاد « عن مبادئها كما نبعد السليم عن الأجرب »⁵².

هذه الدولة هي التي انتصرت فيها مبادئ الوضعيين الليبريين ومن شابههم إذ لا يتمكّن محمد كرد علي من الاقتصاد في مدح فرنسا المحافظة المعجبة بدورها بالمثال الانقلاوساكسوني في السياسة والاجتماع : « وحقيقة أن الدخلاء على الفرنسيين كانوا دائما أخطأ من الفرنسيين العريقين في جنسيتهم. فحسن الخلق والتعذيب يتجلىان في الفرنسي غالبا. ولطالما استبان لي الأدب في العريق في إفرنسيته، حتّى ولو كان من الطبقات النازلة. أمّا الدخيل عليهم فيكون على الأكثر ضيع النفس إلّا من رحم ربك. ولا عجب أن يكون الأضلاء على هذه الأخلاق الطيبة فهم أمة تتعلّم وتتهذّب منذ أجيال، والمدنية متسلسلة في أعقابهم »⁵³.

⁵⁰ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 873

⁵¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 404

⁵² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 404

⁵³ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 384

فبين الدعوة الإسلامية التي تستند إلى رؤية تقول بالعناية الإلهية و بالخوارق للعادة والدعوة إلى تعرية الطبيعة والإنسان تعرية كاملة يقف محمد كرد علي موقفاً وسطاً ويعتبر أنهما دعوتان إيديولوجيتان ضارستان على تناقضهما تناقضاً تاماً، أي هما نتيجة خصومة بين الدين والعقل بلغت أقصى ما يمكن لخصومة من الخصومات أن تبلغ فوجب إبعادهما معا برفض الدعوة الدينية ونقيضتها وذلك لا يكون إلاً بالفصل بين الدين والسياسة فصلا لا إشارة فيه إلى التجربة الفرنسية التي يمجتها لأنه كان يعتقد أن الحكم في فرنسا هو في الحقيقة حكم الإهي « ملأيك » عوض العناية الإلهية بـ « المركزية الفرنسية ».

نعم هو يشير في مذكراته إلى التجربة الغربية في الفصل بين الدين والدولة ولكنه كان يعتقد أن « عقلاء المسلمين » كانوا سباقين إلى انتهاج هذا النهج. فإذا كانت هذه التجربة قد نجحت في أوروبا وفشلت في بلاد الإسلام فذلك لأنها كانت في هذه البلاد محدودة : « يوم فصلت الأمم النصرانية الدين عن الدنيا سارت أمورها على سداد وما وسع الدول الإسلامية في القرون الأولى إلا سلوك طريق الدنيا كما سلكت إلى الدين طريقه وكانت تبعد عن الخلط بين الطريقتين ما ساعدتها الحال »⁵⁴.

لم نجحت هذه التجربة في أوروبا فـ « سارت أمورها على سداد » طيلة قرون ولم تنجح في الدول الإسلامية إلا لفترة قصيرة ؟ هل مرد ذلك إلى طبيعة الدين الإسلامي ؟ إن محمد كرد علي الذي يقول بـ « الطبيعية » وبـ « بهيمية لا يفعل فيها الدين والتربية » لا يمكنه، منطقياً، أن يسلك، في التفسير، مسلك إرنست رينان الذي حمل الفكر أكثر مما يتحمل فنسب انحطاط المسلمين إلى الإسلام لذلك نرى محمد كرد علي يفسر اختلاف مصير التجريبتين بالعاملين الاجتماعيين والسياسيين :

« كان من انحطاط جزيرة العرب حجة لمن يزعمون أن في تعاليم الإسلام ما يحول دون نهوض أهله، لقد أخطأوا فالأمر على غير ما توهموا السبب سياسي اجتماعي والدين بريء من هذه التهمة »⁵⁵ ويضيف في موضع آخر مشككاً في كل الدراسات التي تميل إلى إصدار أحكام قاطعة في مثل هذه المواضيع الشائكة : « في حياة الشعوب أمور غامضة يصعب تحليلها. كتب الباحثون من أهل المشرق والمغرب في انحطاط المسلمين ألوفا من الصفحات ودون الموافقين ما هدتهم إليه آراؤهم من أسباب التدني، وما يجب على

⁵⁴ محمد كرد علي . — المذكرات، صص 1057 - 1058

⁵⁵ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 1169

المسلمين التذرع به لإصلاح ما هم فيه من نقص، وما أظنّ ما قالوه هو كلّ ما يجب أن يقال، ولعلّ الأيّام تكشف عن أسباب ما مرّت بخاطر أحد حتّى اليوم»⁵⁶.

يمكن أن نفهم من الشاهد رفضا لما ادعاه إرنست رينان في « الإسلام والعلم» وشكيب أرسلان في « لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم » من « حقائق » نهائية ورفضاً كذلك لأن يكون الإسلاميون وخصومهم الراديكاليون هم المؤهلون، في نظر محمد كرد علي، لقيادة المجتمع الحديث. فهل كان حظّ العروبيين الإسلاميين أفضل من حظّ الإسلاميين في كتابته عنهم وعلاقاته بهم ؟

إذا كان موقف محمد كرد علي من الإسلاميين صارما فإن موقفه من العروبيين الإسلاميين أشدّ صرامة. وفعلًا فإنّه بقدر ما كان يلحّ على إخلاص إسلاميٍّ مثل شكيب أرسلان على ذهانيته وعلى ما ارتكب من أخطاء ليس أقلّها إخلاصه لعبد الحميد إخلاصه لمن خلعه وتشبّه بفكرة الحفاظ على بلاد البلقان حتّى عندما ظهر تهافت هذا المطلب ومناصرته الشقّ الاتحاديّ الداعي إلى الدخول في الحرب الكبرى من دون أن تكون للدولة القدرة الكافية على محاربة الحلفاء، كان محمد كرد علي يبدي نفوره، ضمناً حيناً وبشكل سافر حيناً آخر، من دعاة العروبيّة الإسلاميّة لأنّهم كانوا في نظره إضافة إلى أخذهم بنظرة تقليديّة إلى الأشياء، يمثلون قوّة نابذة تدعو إلى إقامة « دولة الإسلام العربيّة » على أساس عرقيّ ودينيّ يلحق الضرر حتّى ببلاد الشام نفسها.

هو يتحاشى محاربة دعايتها علناً إن كانت تربطه بهم علاقة « صداقة » بل يظهر بعض الميل إليهم مثلما كان الشأن بالنسبة إلى محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي اللذين ماتا في بداية القرن العشرين إذ كتب عن الأول فيما يشبه التعاطف مع أفكاره :

« لم أجرؤ على التعرّف إلى المويّلحيين وخصوصاً الأب وتباعدت عنه لما رأيته ينال كثيراً من أستاذه الشيخ محمد عبده⁵⁷ ويتقولّ عليه ما لم يقله، ويضع عليه أموراً لم يفعلها، وقيل إنّّه كان مدفوعاً إلى ذلك من مقام عال، وأنا يؤمّنّد أعشق الشيخ وافتخر بالانتساب إليه»⁵⁸ ولكنّ أسلوب محمد كرد عليّ المجامل يتغيّر عندما يتعلّق الأمر بعروبيين

⁵⁶ محمد كرد علي . - المذكرات . - ص 1301

⁵⁷ تعود الخصومة بين محمد عبده والمويّلحيين إلى فترة إسماعيل زمن انتسابهم جميعاً إلى الماسونية

⁵⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 251

إسلاميين من جيله نشطوا سياسياً أثناء الفترة 1908 - 1918 وما بعدها ووقفوا منه أحياناً موقف الخصم مثلما هو الشأن بالنسبة إلى عبد الحميد الزهراوي ومحمد رشيد رضا : « كتب الزهراوي جريدة « الحاضرة » في الآستانة مدةً فما كنت تفهم مقالاته السياسيّة وكتب أشهراً في « الجريدة » بمصر فاضطروا إلى إخراجها منها لأنّ القراء لم يفهموا أقواله ، ولا جلّوا معيّاته وألغاه ولم يجد من يتطوّع في تقيّظه غير صاحب المنار فإنّه صوّره صورة لا تقلّ كثيراً عن تصويره للسيد جمال الدين الأفغانيّ والشيخ محمد عبده»⁵⁹.

إنّنا إذ نبدي تحفظاً إزاء الصورة التي اجتهد محمد كرد علي في رسمها لعبد الحميد الزهراوي لما نعرف من كتابات هذا الفكر الشاميّ ولما نعرف من أسباب خصومتها الحقيقيّة⁶⁰ نؤكد أنّ عداوة محمّد كرد علي للعروبيين الإسلاميين تكمن أساساً في أمرين : أولهما يتعلّق بنظرتهم التقليديّة إلى الله والطبيعة وإلى الدولة والمجتمع على اختلافهم في مدى الإغراق في السلفيّة وهي نظرة تعرّضنا لها بتوسّع في كثير من الفصول السابقة فلا نعود إليها الآن وثانيهما يتعلّق بنظرتهم العنصريّة إلى الأجناس المسلمة غير العربيّة ونظرتهم المذهبيّة إلى الطوائف المسلمة غير السنيّة فمحمّد كرد علي من أصل كرديّ (الأب) وشركسيّ (الأم) وكان يسوّه أن يقرأ، في القرن العشرين، لـ « عربيّ شريف » مثل محمّد رشيد رضا و« عربيّ شريف » مثل الكواكبي، كلاماً عن المسلمين من غير العرب لا ينشرح له صدر مسلم نبذ من قلبه كل غيظ عرقي. لذلك نراه ينسب، في ردّة فعل نفسيّة، بقاء الشام نفسه على إسلامه وعربيّته (لا عروبيّته) إلى الأكراد وإلى دورهم الحاسم أثناء بعض الحروب الصليبيّة ويكثر من امتداح صلاح الدين الأيوبي الكرديّ بل نراه يضطرّ اضطراراً إلى مقاومة العروبيين الإسلاميين بالجهر بالانتساب إلى العرق الآريّ :

« جاء جدّي من مدينة السليمانية من بلاد الأكراد (شمال العراق) وسكن دمشق قبل نحو 150 سنة وأميّ شركسيّة من قفقاسيا. فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آريّ لا يقبل النزاع وليس للغربيّ ولا للشرقيّ ما يقول في دمي»⁶¹.

⁵⁹ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 117

⁶⁰ "استمع (أحمد جمال باشا سنة 1916) لما عرضه (الزهراوي)، وما عرضه غريب في بابه. قال الزهراوي إنّ وإن كان ذهب إلى باريس ورأس مؤتمر الإصلاحيين فإن نيته كانت سليمة، وما كان يضرر خيانة للدولة، وإن الرجل الذي كان يفاوض الأجانب، ويعرف اللغة الافرنجية، هو صاحب المقتبس كرد علي" (محمد كرد علي المذكرات، ص 115-

كان محمد كرد علي يرى في العروبية الإسلامية قوّة تقليديّة مدمرة لأنّها لا تقتصر على الدعوة إلى الجنس العربيّ ولكنّها تقرن ذلك بالدعوة إلى إسلام سنّي لا يتّسع حتّى للطوائف العربيّة المسلمة في الشام مثل النصيرية والدرزية والإسماعيلية والمتاوليّة... مما يدفعه إلى أن يمقتها مقتته لبقية القوى النابذة :

« ولطالما تأملت نفسي في مصر والشام ممن ينشيء ناديا أو جمعية يسميه أو يسميها الكاثوليكية أو المارونية أو الأرثوذكسية أو القبطية أو الإسلامية أو العلوية أو اليهودية ، وكلّ ذلك تفرقات لا معنى لها في هذا العصر»⁶¹.

وقد يكون من أسباب تفضيله الشيخ القبائليّ البجاويّ طاهر الجزائري على الشيخ محمد عبده أنه بقدر ما كان الثاني ينفر من الطوائف كان الأول ميّالا إلى دراستها لفهم أسباب تشبّثها بطائفيّتها حتّى أنّه تعرّض بسبب هذا الموقف للتشكيك السنّي في حقيقة تدوينه :

« كان يقول لو أردني اليهود على أن أعلمهم لبادرت إلى إجابة طلبهم لأنّ في تعليمهم تقريبهم منّا واتقاء شرهم وكان غرامه في تأليف القلوب بين أبناء الأمة على اختلاف أديانهم وإزالة الفوارق من بين الفرق الإسلامية خاصّة ولذلك كان يعرف من أسرار جميع الطوائف ما لا يعرفه أبناء الطوائف نفسها أو ما يستر عن عامّتهم على الأقلّ ويقول : الحمد لله لقد سالنا جميع الفرق. أنا سخفاء أهل السنّة، وهم دونه علما وعقلا، فيبادرون إلى تكفيره كأنّ بأيديهم مفاتيح الجنة»⁶².

والحقيقة، في نظرنا، أن اختيار محمد رشيد رضا، وهو الشريف السنّي الطرابلسي الشاميّ، الانتساب إلى المصري محمد عبده عوضا عن الانتساب إلى الشيخ طاهر الجزائري، وهو الشيخ القدوة عند أغلب الشوام المسلمين، يعدّ في حدّ ذاته دلالة على انتماء الشيخين الشامي والمصري إلى العروبية الإسلامية.

لقد نهج محمد كرد علي في مقاومة العروبية الإسلامية منهجا عقليا يرفض قراءة التاريخ قراءة عرقية تفسّر انحطاط العرب المسلمين بـ «شائبة» الأجناس المسلمة غير العربية واعتمد في ذلك، وهذا هو الأمر العجيب، غوستاف لوبون بعد أن خلّصه من كلّ ما يمتّ إلى

⁶¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 5

⁶² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 47

⁶³ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 321

العرق الصافي بصلة، أي بعد أن عوّض مفهوم «الأصالة القومية» بمفهوم «الأصالة الأقوامية». ما معنى ذلك؟

يرى غوستاف لوبون أنه يمكن تصنيف الناس صنفين: صنف بسيط و «أصيل قوميًا» قلما اختلط بغيره لعزله ومثاله النفسي البدوي والمرأة والطفل وصنف مركّب أو «متحضّر» فقد أصالته الأولى نتيجة اختلاط الأقوام المختلفة و تصالبها ولم تتحدّد خصائصه بصفة مرضية لأنه مازال في تفاعل مستمر :

« إذا كانت السمات النفسية، كما نعتقد ذلك، تكفي لإقامة حدّ فاصل وعميق بين الناس فإنه يمكن القول إن العربيّ المستقرّ والعربيّ البدويّ يكونان، في حقيقة الأمر، جنسين تفصل بينهما هوة (...) ومن النادر أن يعثر المرء على بدويّ لا يكون ملبّسًا بشاعر. هو ملبّس بشاعر وهو مثل الشاعر ملبّس كذلك بطفل. وزيادة على الصفات النفسية التي نسبناها إلى البدوي لا بدّ، فعلا، أن نضيف إليها هذه الصفة التي قد تكون أهمّ الصفات : أنه يملك، رغم هدوئه الظاهر، مزاجا متقلّبًا جدّا يقربه قريبا عجيبا من المرأة ومن الطفل. فهو مثلهما يكاد لا ينقاد إلى غير المشاعر الطارئة، وهو مثلهما كذلك لا يحكم على الأشياء إلاّ من خلال مظاهرها وببهره الصخب و الألق والأبهة بسهولة. ومن هنا كان بهمه أفضل وسيلة لإقناعه. إن هذا ليصدق على كلّ الأجناس وعلى كلّ الأمم البدائية وهو يصدق على النساء وعلى الأطفال لأنهم يمثلون مثله أشكالا بدائية من التطوّر الإنسانيّ. فالبدوي ليس في حقيقة الأمر إلاّ نصف متوحّش: هو نصف متوحّش ذكيّ قطعاً ولكنّه لم يخط منذ ملايين السنين خطوة واحدة نحو الحضارة، ونتيجة لذلك لم يتعرّض للتحوّلات المتراكمة بتأثير الوراثة عند الإنسان المتحضّر»⁶⁴.

أما عن الصنف الثاني (المختلط الذي مازالت أصالته في طور التبلور) فقد كتب

لوبون :

« على الرغم من أن السمات الأخلاقية والفكرية في شعب من الشعوب هي سمات قارة قرار سماته الخلقية فإنها يمكن، شأنها في ذلك شأن هذه السمات الخلقية، أن تتغيّر ببطء، بتأثير عوامل مختلفة وخاصة منها تلك التي عدناها في موضع سابق وهي البيئة الجغرافية والبيئة الأخلاقية وتزاوج الأجناس. وفعلا فإن رومانيا في زمن (الجبل Elagabel) هو رومانيّ فقد سمات أجداده زمن الجمهورية كما أن ساكن الولايات المتحدة الأمريكية اليوم

⁶⁴ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، ص 38

يختلف كثيرا من حيث سماته عن الأنكليز الذين تحدر منهم. أما سمات الأمم الحديثة فهي بصدد التحول وبعيدة عن الثبات. لقد واجهت الغزوات الكبرى التي نشأت عنها هذه الأمم عناصر على غاية من الاختلاف ببعضها البعض. وهذه قد امتزجت منذ وقت قصير جدا لا يسمح بولادة كثير من المشاعر المشتركة بينها وبإمكان المرء أن يفهم ذلك بسهولة إذا رأى عدد الشعوب التي تبدو، مثل الفرنسيين، متجانسة تجانسا كبيرا للوهلة الأولى، وهي مكونة من عناصر مختلفة : لقد وطأ الكيمريون والنورمان والأكيثانيون، والرومان إلخ أرضنا ولم يمتزج ذريتهم بعد كامل الامتزاج»⁶⁵

لقد تبنى محمد كرد علي تصنيف غوستاف لوبون فشطّر العرب شطرين : شطر بدوي هو سكان الجزيرة العربية وشطّر « متحضر » لأنه مديني مختلط هو سكان المدن : « ابن صنعاء وصدعة و القصيم والرياض ومكة والمدينة وعمان لا يرجى أن يشابه ابن القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد والبصرة »⁶⁶.

وحتى ضمن الشق « المتحضر » لا يعدم المرء وجود فروق إذ « العاقلون العارفون مجمعون على أن استعداد الشاميين للحكم أكثر من استعداد العراقيين والنور بآكر الأولين قبل أن يباكر الآخريين »⁶⁷.

لقد مكن هذا التصنيف محمد كرد علي من أن ينفي صفة « استعداد العربيين الإسلاميين للحكم » وهم الذين يدعون إلى قيام دولة عرقية دينية قاعدتها الصحراء كما أنه مكنه ، من ناحية ثانية ، من تبرير تعلقه بالدولة العثمانية :

هذه الدولة شأنها شأن الدولة العربية الإسلامية في القرون الوسطى تشرف على سلطنة مازالت العناصر المختلفة فيها في طور بلورة سماتها النهائية وهو طور قد يكون طويلا جدا فلم السعي إلى تفتيتها ؟ وإذ كانت قوى عظمى مثل فرنسا ومثل الولايات المتحدة تحتاج إلى فترة طويلة، على ما يقول غوستاف لوبون، لبلورة سماتها النهائية فلم تحرم السلطنة من فترة مماثلة ؟

لقد كان محمد كرد علي من أكبر المدافعين عن الحضارة العربية الإسلامية ومن أكبر خصوم العروبية الإسلامية ولذلك كان يميل إلى تفسير التحاق كثير من الشوام الآخذين بنظرة

⁶⁵ غوستاف لوبون . — حضارة العرب، صص 26-27

⁶⁶ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 1180

⁶⁷ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 136

حديثاً إلى الأشياء « بثورة » الشريف حسين الذي يختلف عنهم فكرياً بأنّ ذلك كان نتيجة حساب « خاطيء » : كانوا يطمحون إلى ركوب هذه « الثورة » لتحقيق أغراضهم في الشام. ولقد كانت بريطانيا، وتبعاً لذلك الشريف حسين، تعرف ذلك فخذلتهم لأنها كانت تحتاج إلى قوى تقليدية تحكم المنطقة لا إلى قوى آخذة بنظرة حديثة إلى الأشياء يمكنها بتطور الزمن، أن تندرج في المنطق الرأسمالي اقتصادياً وفكرياً فتقتصر من عمر الاستغلال الاقتصادي البريطاني.

القسم الثالث

وجفّت أرض صنعة الغيث

الفصل الأول

عهد قديم يتجدّد أم عهد جديد يجهض ؟

يصعب على المرء إن لم يحط علما بالصراع الذي نشب طيلة ست سنوات بين 1908 و 1914 بين انقلابيي مقدونيا، هؤلاء "الأوباش من الملاحدة المارقين" حسب عبارة محمد رشيد رضا وبقية التيارات السياسية في السلطنة أن يفهم تطوّر التفكير والممارسة في السلطنة العثمانية عامة والشام خاصة.

وقد يحتاج المرء، لتوضيح المسألة بشكل أفضل إلى الإشارة إلى اختلاف مناطق السلطنة اختلافا كبيرا من حيث النشاط الاقتصادي والفكري والسياسي ذلك أن منطلق تمرّد الجيش الثالث في جويلية 1908 لم يكن بلاد الشام ولا منطقة الأناضول بل كان « الروملي » البلقانية الأوروبية مما سيسهل على الكثيرين الادعاء أن هذا التمرّد ذو صبغة "أوربية" معادية للإسلام. وفعلا فباستثناء بعض المدن الشامية التي سبق أن رأينا تأثير الجامعات فيها ونمو طبقة بورجوازية مهنية ضيقة « لم تحفل الولايات الشرقية ولا العربية، باستثناء بعض المدن السورية، بإعلان الثورة والقانون الأساسي في مكدونيا. ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ الشعوب المهضومة الحقوق في تلك الولايات الآسيوية لم تستطع على الفور نزع وثاق العبودية الذي أحكمه في رقابها الباشاوات والبكوات والآغوات الإقطاعيون، يشدّ أزرهم الحكام الحميديون. أمّا أمثال هؤلاء الحكام في سوريا وبيروت وجبل لبنان فقد هلعوا في بادئ الأمر لنبا الثورة وبذلوا جهودهم للتخفيف من أهميتها. ولاعجب في ذلك لأنهم من أنصار القديم وجلّهم من أخصاء عبد الحميد وأخصاء أخصائه»^١

وفي دمشق فاجأ التمرّد حتى المثقفين فقد كتب الشهبندر :

« في سنة 1908 فوجئنا في هذا البلد بالانقلاب العثماني الخطير»^٢

أمّا في اللاذقية من بلاد النصيريين فلم يول الحدث أهمية :

« ولما قامت الثورة في ولايات الروملي وصدرت على إثرها الإرادة السنية

معلنة العمل بموجب القانون الأساسي وانتشرت أنباؤها في سورية وغيرها، لم تحرك اللاذقية ساكنها عملا بقوة الاستمرار (...) وظلت أكثرية الشعب محافظة على الهدوء والسكينة»^٣ ولم

^١ (يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني، ص 159)

^٢ (حسن الحكيم - عبد الرحمن الشهبندر . حياته وجهاده، ص 159)

^٣ (يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني، ص 160)

يكن دروز حوران أكثر وعيا سياسيًا من نصيري اللاذقية فهذا عبد الرحمن الشهبندر وصفهم سنة 1914 لا سنة 1908 على النحو التالي :

« وحدث لي في سنة 1914 عقيب إعلان الحرب العامة أن ذهبت إلى جبل الدروز في خدمة الحكومة العثمانية، وكان المرحوم يحي بك الأطرش يؤمئذ قد عاد من منفاه⁴ فدعاني لزيارته في قرية عرى. وفيما أنا على الطريق أبصرت بضعة بيوت من الشعر فقلت لرفقائي « هيا بنا نشرب القهوة » فنزلنا فرأينا نفرا من البدو وبينهم شيخ طاعن في السن بلحية بيضاء أكسبته جلالات وأساير في الجبهة دلت على ماض طافح بالحوادث فقلت : ممن العم ؟ فقال من بني الحسن. ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، فسألت : من هو السلطان الحاكم على المملكة في تلك الأيام فقال : الله يعلم هو السلطان عبد المجيد صلى الله عليه وسلم ؟ فابتسمت فأدرك من ابتسامتي خطأه فأراد إصلاحه فقال لا... لا... الله يعلم هو سامي باشا ؟ يريد المرحوم سامي باشا الفاروقي الذي أخضع ثورة جبل الدروز في سنة 1909 فقلت : وأين مسكنه ؟ فقال : في الزنبول فقلت : وأين هي ؟ فأشار بيده إلى جهة الشمال وقال بصوت ناعم للدلالة على القرب "من غاد"... كأن القسطنطينية على مرمى حجر. ثم انتقلت إلى ذكر الدين كما هي عادتي مع البدو لمعرفة تصوراتهم الروحية فقلت : وما هو دين الشيخ ؟ فقال : وشن هي الآخرة ؟ فذكرت له الموت فالقبر فالملكين فالنفخ في الصور فالبعث فالميزان فالصراط فالجنة أم النار. فأطرق في الأرض مليا ثم لوح بيده اليمنى مستنكرا وقال : لا والله ما في آخرة . قلت إذن ما يصير بنا بعد الموت ؟ فقال "نصير ترابا". هذه خلاصة رأي الشيخ البدوي في السلطان والعاصمة والآخرة. وفي وسعي أن أقول إنها نموذج ينطبق على تصورات البدو في السياسة والجغرافية والدين إجمالا إلا من اتصل منهم بالحضر أو وصلته دعوة دينية أو قومية جديدة⁵ »

⁴ من المعروف أن الطرشان في حوران كانوا مبالين إلى العربيين الإسلاميين موالين لبريطانيا على عكس الأرسلانيين في الجبل اللبناني. ولقد ثاروا سنة 1909 فتكل بهم القائد العربي سامي باشا الفاروقي وضباطه ومن بين هؤلاء توري السعيد (1888-1958)

⁵ حسن الحكيم . - عبد الرحمن لشهبندر . - ص 74

هناك دراسات عديدة توهم القاريء بأن ابتهاج الشوام بهذا التمرد المقدوني كان عامًا مستندة إلى بعض القصائد مثل هذه التي نظمها العروبي الإسلامي فؤاد الدين الخطيب (ت 1958) ⁶ سنة 1908 قبل انقلابه على العثمانيين الاتحاديين (الطويل)

بلغنا من الآمال ما كان قاصيا	ورضنا من الأيام ما كان عاصيا
يا عصبية الأحرار إخواني الأولى	اغذوا لضمار الرقي المساعيا
عليكم سلام الله ممن رددتم	عليه نهاء فاستعار القوافيا
شرعت يراعي لا رقيب يرده	ولا حاكم يجني عليه الدعاويا
وأطلقت صوتي في البلاد ولم أعد	أحاذر من ضرب الجواسيس واشيا
ولم يبق في البسفور للغير مزلق	يزلّ به من بات يهوى المعاليا
فقد رأب الدستور منه صدوعه	فأصبح كالرآة في العين صافيا

ولكنّ الشواهد التي أوردنا تدلّ على وجوب الحذر من التعميم. وعلى العكس تماما من وضع "الولايات الآسيوية" كانت "الروملي" مركزا لنشاط المعارضة :

"إن كلمة روملي، المنحوتة من روم إيلي، تعني بلاد الروم، وهي مكدونيا، وكان يطلق عليها أيضا « البلقان » وكانت تشمل الولايات العثمانية الأوربية الست :

أدرنه (وفيها يتفوّق العنصر اليوناني على العنصر البلغاري)

سلانيك (وفيها يتفوّق العنصر اليوناني على العنصر البلغاري). أمّا اليهود فيشكلون

نصف سكان الولاية .

مناستر

- قوصوه (أسكوب) وفيها يتغلب العنصر الصربي) ⁷

- يانية (وفيها يغلب العنصر الألباني (الأرناؤوط) على العنصر اليوناني)

⁶ من أسرة دمشقية تتصل نسبها بعبد القادر الجيلاني اشتغل أفرادها بالعلم والتجارة رأس إدارة : القبلة" بعد محب الدين الخطيب. "وكيل خارجية الحكومة الهاشمية في الحجاز إثر تمرد الشريف حسين على السلطنة سنة 1916 كان وزير خارجية عندما شنّ وهابيو عبد العزيز آل سعود هجومهم على المدينة سنة 1925، وقد تضامن معهم هو ورئيس الحكومة الحجازية (عبد الله السراج) وعارضا بقاء الأمير علي ابن الشريف حسين في المدينة" (أنيس صائغ. - الثورة العربية الكبرى، ص 246).

⁷ اشتغل ساطع الحصري في قوصوة خاصة Kossovo وفي ذلك كتب : "كانت فترة عملي في بلاد البلقان قد فتحت عيني لأول مرة على حقيقة القومية في أوربا"

- اسقودرة (وفيهما يغلب العنصر الألباني على العنصر الصربي)
وأهم العناصر النابذة في هذه المنطقة (البلغار والصرب واليونان) كانت تطمح إلى الانضمام إلى الدولة البلغارية التي كان يرأسها الأمير فرديناند دي ساكس كوبرغ (1861-1948) ⁸ والدولة الصربية التي كان يرأسها في بلغراد بيسار الأول (1844-1921) والدولة اليونانية التي كان يرأسها في أثينا جورج الأول (1845-1913) : هذه الدول الثلاث كانت تشجع العناصر النابذة التابعة لها عرقياً على التمرد مما أضر، سياسياً، في المعارضة العثمانية لسياسة عبد الحميد في سلايك خاصة مقر الجيش العثماني الثالث :
» من المحتمل أن سالونيك كانت وقتئذ أكثر ولايات الدولة العثمانية تقدماً فكانت ذات طابع عالمي يميزها عن بقية ولايات الدولة - كما كان يهود المشرق المعروفون بـ « السافاردي » يشكلون حوالي نصف سكانها ومن المؤكد أن مستوى التعليم فيها كان أرقى كثيراً من بقية ولايات الدولة الآسيوية ومن ثم فإن قبضة عبد الحميد الثاني في سالونيك بصفة عامة كانت ضعيفة نسبياً » ⁹
اختار عبد الحميد لـ "تقوية قبضته" في الروملي حلين أولهما يتصل بالمعارضة العسكرية والمدنية وثنائيهما بإصلاح الإدارة وتكثيف الزيارات المفاجئة. ففيما يتصل بالمعارضة العسكرية وزع الجيش العثماني على النحو التالي :
الجيش الأول (في العاصمة) لأن هذا الجيش كان في جزء كبير منه مكوناً من الألبان المخلصين للعرش.

الجيشان الثاني (أدرنة) والثالث (مكدونيا) في الروملي.

أما بقية الجيوش السبعة فقد توزعت على بقية مناطق السلطنة ومنها الشام (الجيش الخامس) : ومن هذا التقسيم يلاحظ المرء أن الجيش الأول (العاصمة) والثالث خاصة (سالونيك) هما المرشحان للتصادم عند كل محاولة للتمرد على عبد الحميد ذلك أن سالونيك ستكون في العقد الأول وجزء من العقد الثاني هي المجال الجغرافي الوحيد لنشاط المعارضة

⁸ هحاه شكيب أرسلان سنة 1913 (الطويل) :

وأكثر في وادي الضلالة مزعماً

ألا قلّ لفردينان أسرفت عادياً

رجالاً غدوا عما تكيّدون نوماً

وهاجت والأحلاف غدرا وغيلة

وإخواننا الأتراك نوحف تروأما

فمن مبلغ البلغار أنا إلى الوغى

⁹ السيد حجاز - الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب 1840-1909، القاهرة، 1970. - ص 64

العسكرية والمدنية ذات النظرة الحديثة. ففي هذه الولاية وفي الجيش الثالث خاصة وفي الروملي عامة سينشط العثمانيون الاتحاديون العسكريون أمثال محمود شوكت البغدادي (1858 قتل 1913) القائد الأعلى للقوات المسلحة بمقدونيا (الجيشان الثاني والثالث) وعزيز علي المصري¹⁰ والبيكباشي محمد أنور الذي ثار في مقدونيا الشرقية في جوان 1908 واليوزباشي الألباني أحمد نيازي الذي غادر رسة في الوقت نفسه ملتجئاً إلى الجبال المقدونية والكابتين مصطفى كمال الذي عين سنة 1907 في الجيش الثالث والمقدوني فتحي الذي سيقوم على حراسة عبد الحميد عند نفيه إلى سالونيك سنة 1909 وكذلك العثمانيون الاتحاديون المدنيون أمثال محمد طلعت (1872-1921) الذي اشتغل موظفاً بالتلغراف في أدنة، مقر الجيش الثاني وساطع الحصري (1880-1969) الذي كان سنة 1908 قائمقام فلورينا في ولاية مناستر والأمير مصطفى أرسلان الذي كان في الوقت نفسه متصرفاً في أحد ألوية مكدونيا...

أما الوجه الثاني من الحل العسكري فقد تمثل في إبعاد العسكريين المعارضين إلى الروملي مما زاد من لحة هؤلاء وتصميمهم على مقاومة عبد الحميد :

« كانت مقدونيا تتألف من ثلاث ولايات : مناستر وقوصو وسالونيك وكانت هذه الولايات يسكنها البلغار والصرب واليونانيون وتموج بقوات عسكرية كبيرة اضطرت الدولة إلى حشدها هناك لمواجهة الثورات البلغارية والصربية واليونانية. ولما كان السلطان عبد الحميد الثاني يخشى ضباط الجيش وموظفي الحكومة المثقفين بالثقافة الأوروبية ويعتبرهم

¹⁰ عزيز علي المصري (1879-1965)، تعلم بالقاهرة وأكمل دراسته العسكرية بالآستانة وألمانيا وكان زميلاً لأنور في الكلية العسكرية رأس في أبريل 1909 إحدى الفصائل المكلفة بإخماد الثورة المضادة وشارك سنة 1909 في محاولة القضاء على ثورة الإمام يحيى في اليمن و 1912 في الحرب ضد إيطاليا ولكنه انفصل سنة 1914 عن العثمانيين الاتحاديين و أسس بالتعاون مع نوري السعيد و ضباط آخرين جمعية "العهد" ثم دخل سنة 1916 في خدمة الشريف حسين. حاول سنة 1941 الالتحاق بجهة أنور السادات، بثورة عالي الكيلاني في العراق ولكن طائرتهما سقطت فعوكم. (الموسوعة العربية الميسرة - ج 2) و قد وصفه جمال عبد الناصر على النحو التالي :

" قبيل الثورة شعرنا أننا نحتاج إلى شخص ذي نفوذ لتجسيد عملنا وإعطائه إسمًا، وقد طال بحثنا وتفتيشنا، لأننا بين قادة الجيش القدماء لم نجد من يتمتع بالضمانات اللازمة. وقد فكرنا في باديء الأمر باللواء عزيز المصري، إنه عسكري ممتاز ورجل طيب ولكنه كان ناهز الثمانين من عمره، وأفكاره السياسية تختصر بهذه العبارة غير المشجعة التي كان يرددها "إنني أبدأ الاهتمام برأس الرجل فقط بعد فصله عن الجسم" ونحن ما كنا نبغي من ثورتنا أن تفصل رؤوس المواطنين عن أجسامهم" (جان وولف . - نقطة العالم العربي. بيروت 1960، ص 183)

مصدر الخطر الأكبر على حكمه فقد أبعد عن قصد عام 1903 نخبة من الضباط المعروفين بالاستقلال بالرأي ومناهضة الاستبداد إلى مقدونيا لمواجهة ثوراتها ولكي يلقوا حتفهم أو يبتعدوا عن تركيا (يقصد العاصمة) في تلك الأيام. وفضلا عن ذلك فقد أرسل عبد الحميد الثاني إلى مقدونيا طائفة من الموظفين الأتراك الذين كان يخشى على حكمه منهم. وعلى ذلك فقد كانت ولايات مقدونيا الثلاث تزخر بمجموعة كبيرة من ضباط الجيش الأحرار والموظفين الأتراك المثقفين¹¹

أما الحل الثاني الذي اختاره عبد الحميد لـ "تقوية قبضته" في الروملي فقد تمثل في السعي إلى مزيد من الحد من الشطط الإداري وذلك بتكثيف زيارات المفتشين الفجائية: « رأت الحكومة العثمانية أن تقوم بإصلاحات إدارية في تلك الولايات ولاسيما المقدونية منها (سلانيك ومناستر وقوصوة) وعيّنت للإشراف عليها الوزير الكبير حسين حلمي باشا¹² مفتشا عاما، مخولا أوسع الصلاحيات فأخذ هذا الإداري الخبير يختار أفضل الرؤساء والموظفين للإدارة والقضاء والأمن العام وأهم القوى العسكرية لتكون قوة الظهر لقوى الأمن ولتحول عند الاقتضاء دون تدخل الدول الغربية الأوروبية بشكل من الأشكال¹³ » هذان الحلان اللذان اتجه إليهما عبد الحميد لم يكونا كافيين لوضع حد لتدهور الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية أو الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الروملي. ذلك أن التنافس الأوروبي - الأوروبي (بين ألمانيا من ناحية وبريطانيا وفرنسا وروسيا من ناحية ثانية) قد انعكس بشكل مباشر على السلطنة فمن المعروف أن بريطانيا التي عقدت سنة 1904 الاتفاق الودي مع فرنسا اتجهت بعد ذلك إلى تحسين علاقاتها مع روسيا فالتقى ادوارد السابع في رافيل (وهي اليوم تابلين) في 9 و 10 جوان 1908 بالقيصر الروسي نيكيتا الثاني وكأنها تعلن بذلك عن ضرورة قبر « الرجل المريض¹⁴ »

¹¹ السيد رجب حراز - الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب. صص 63-64

¹² حسين حلمي باشا : راس الوزارة من مارس 1909 إلى 1911، أي بعد انفراد العثمانيين الإتحاديين بالحكم عقب قمع التمرد المحافظ المضاد.

¹³ يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني، صص 146-147

¹⁴ سبق لبريطانيا وروسيا قبل عام من هذا التاريخ (أوت 1907) الاتفاق على تقسيم الامبراطورية الإيرانية إلى منطقتي نفوذ - بريطانية وروسية

فإذا أضفنا إلى هذا العامل السياسي الخارجي تدهور الوضع الإقتصادي وانتشار الإضرابات في الأوساط المهنية وشكوى السلك العسكري الذي كان المنتمون إليه يعانون من سوء التغذية وكان يحدث أن لا يحصلوا على مرتباتهم طيلة شهور بل سنوات ولم يعد بمقدورهم جميعاً أن يعوّضوا هذا النقص بائتزاز من هم أضعف منهم من المواطنين كما يحدث عادة في مثل هذه الأوضاع عندما يتحوّل عدد كبير من رجال الجيش والشرطة إلى "سوس لا يقع إلا على صوف اليتامي" فهنا الصدى الذي سيكون لتمرّد الضابطيين محمد أنور (1881-ق. 1922) وأحمد نيازي (قتل 1909) على الحكومة في جوان وجويلية 1908.

على أنه لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن أغلب المراجع خاصة الشامية والغربية ضخمت دوري البيكباشي محمد أنور واليوزباشي أحمد نيازي وهما من درجة عسكرية متوسطة. وعلى العكس من ذلك قلّصت إلى حدّ كبير من دور كبار الضباط العرب محمود شوكت وسامي باشا الفاروقي ومن دور المجتمع العثماني في الروملي : فهل يمكن الحديث عن حركة عسكرية كهذه والافتقار على ذكر ضابطيين أو أكثر من هذه الدرجات العسكرية المتوسطة (بيكباشي : قائد الألف يوزباشي : قائد المائة) ؟ في التاريخ المعاصر حالات مشابهة : ففي مصر كان جمال عبد الناصر بدرجة أحمد نيازي عندما خطّط هو وبقية "الضباط الأحرار" مثل أنور السادات¹⁵ لانقلاب 1952 ولكن دور الجنرال محمد نجيب ، على اختلاف ما قيل فيه ، كان ، في نظرنا ، دوراً أساسياً إذ كان "الضباط الأحرار" تماماً كما كان العثمانيون الإتحاديون ، يحتاجون إلى حملة رتب عسكرية كبيرة يتطلّون بهم طالما كانوا مغمورين : ولقد تخلّص "الضباط الأحرار" منذ فترة مبكّرة من الجنرال نجيب أمّا العثمانيون الإتحاديون فإنهم نزلوا الجنرال البغدادي في منزلة الصدارة في الجيش. وعندما اغتاله العثمانيون الائتلافيون في جوان 1913¹⁶ كان مقتله أحد أهم أسباب انخراط التوازن في الجيش والدولة ونهج العثمانيين الإتحاديين سياسة شدة إزاء ممثلي القوميات النابذة المسؤولين عن هذا الاغتيال. فما الذي دفع ، إذن ، كثيراً من الدارسين إلى أن "يغيّبوا" دور عسكري عربيّ من عيار محمود شوكت ؟ إنّه ، في نظرنا ، الرغبة في إظهار العثمانيين الإتحاديين بمظهر "الطغمة العسكرية التركية الصافية" التي سعت منذ البداية إلى "تترك العرب" والحال أن

¹⁵ تتساءل هنا ، هل من باب الصدفة أن سمي جمال عبد الناصر باسم "جمال" (أحمد جمال "السفاح") وعمد أنور

السادات باسم العثماني الإتحادي و"الطوراني" حسب بعضهم محمد أنور وقد ولدا سنة 1918 ؟

¹⁶ قد يكون من المفيد الإشارة منذ الآن إلى تزامن عقد مؤتمر باريس ومقتل محمود شوكت في جوان 1913

عسكريين أمثال أحمد جمال ومحمد أنور وفتحي لم يكن لهم قبل جوان 1913 الدور المؤثر والحاسم الذي سيعرف لهم بعد حادثة 1913. على أن الغض من دور محمود شوكت وأمثاله من العرب الإتحاديين يقلّ قيمة بما لا يقاس عن الغض من مشاركة المجتمع العثماني في البلقان، إلى جانب الجيش، في التمرد، وهذه المشاركة هي التي أوقعت الرعب في قلوب المحافظين في الشام خاصة. فكلّ التقارير تشير إلى هذه المشاركة الفاعلة التي لم تقتصر كما هو الأمر في بعض المدن الشامية على الخطب ونظم القصائد. فلقد جاء في التقرير الذي رفعه مجلس الوزراء برئاسة الصدر الأعظم سعيد باشا إلى عبد الحميد الثاني عند انتشار حركة العصيان في جويلية 1908 أن « البرقيات والرسائل البالغة سبعا وستين في 8 و 9 و 10 تموز 1908 من ولاية مناستر وقوصوة وسلانيك (يقصد مقدونيا) وقادة المناطق والمفتش العام تتعرّض كلها للعصيان الذي قام به الشعب في الأيام الأخيرة بالاشتراك مع العساكر وضباطهم في مناطق الجيش الثالث فتبين لنا أن أهالي أكثر تلك الأنحاء قاموا بالثورة مع الضباط وأفراد الجيش فكسروا أبواب المستودعات وأخذوا ما حوته من سلاح وعتاد وأموال مهددين كلّ من خالفهم بأشدّ العقوبات وبالقتل. كما قاموا بتظاهرات على أصوات المدافع طالبين في خطبهم إعلان الحرية والدستور وحاصروا المواقع التي تحصّن فيها المشير¹⁷ عثمان باشا وأخذوه وجعلوه رهن التوقيف. ولما كانت أعمال البغي التي قاموا بها تستهدف تطبيق أحكام القانون الأساسي ودعوة مجلس المبعوثين للاجتماع فإذا لم يجابوا إلى طلبهم بعد رفضهم النصائح المعروضة توسّع نطاق ثورتهم وعصيانهم¹⁸ ». تقرير مجلس الوزراء واضح فـ « أهالي أكثر تلك المناطق قاموا بالثورة مع الضباط وأفراد الجيش ». وإذن فقصر الحديث على الجيش لا يسمح بفهم فترة انتقالية دامت ستة أشهر وانتهت بانقلاب عسكري حقيقي (أفريل 1909) لن يقبل بعده قادة الجيش العثمانيون الإتحاديون بالتخلّي عن الحكم. وسبب ذلك بسيط بساطة التجارب المشابهة في كلّ مصر إذ هناك ما يشبه القاعدة في هذا المجال وهي أن الجيش، إذا تعود على التدخل في السياسة للحسم في العلاقة المتوتّرة بين المجتمع والدولة، فإنّه كثيرا ما تخامرهم فكرة الحلول محلّهما معا. ومما يلاحظه المرء عند قراءة نصّ تقرير مجلس الوزراء هو أن هذه الحركة التي قامت في مقدونيا اتخذت شكلا لا يختلف كثيرا عن شكل الثورات التي اندلعت في كثير من البلدان الأوروبية بداية خاصّة من الثورة

¹⁷ كان جيش الدولة مقسما الى سبعة جيوش وكلّ جيش يرأسه مشير بلقب باشا.

¹⁸ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، ص 152

الفرنسيّة (الاستيلاء على مخازن السلاح، اعتقال كبار المسؤولين في الدولة، رفع مطالب دستوريّة) : هذا العمق الشعبي للثورة هو الذي أقنع عبد الحميد وحاشيته وحكومته بضرورة تلبية " المطالب الدستوريّة " للمتمرّدين ولو إلى حين. ومن الوثائق الهامة في نظرنا في هذه الفترة قصيدة من نظم الإسلاميّ شكيب أرسلان وتقرير لمجلس الوزراء الذي انعقد برئاسة الصدر الأعظم سعيد باشا نثبتهما لأنهما يعبران نظاما ونثرا عن النظرة التقليديّة إلى العلاقة بين الدولة والمجتمع وهي علاقة تقوم على "أبويّة" الحاكم "وبنوّة" المحكومين فقد نظم الأمير الدرزي قصيدة طويلة قدّم لها على النحو التالي :

"لما أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الدستور العثماني (...) حصل اجتماع كبير في بيروت فتلوت فيه هذه القصيدة ذاهبا فيها مذهب من لا يريد أن تكون الحرّيّة مقرونة بالفوضى ومن يغار على مقام الخلافة

ألا يا بني عثمان حسبكم بشرى
وقد فزتم ذا اليوم بالغاية التي
أتت وحجاب اليأس قد حال دونها
وكم قد أسأتم من ظنون وقلتم
فعن غير وعي بذل الله حالكم
ويعلم أن الله لا ربّ غيره
أراد تلافي الشرق من عثراته
وألهم مولانا الخليفة ظلّه
تدراكها رمقا بإكسير ناظر
فنتلم بنعماء حياة جديدة
سلاما وبردا نلتموها بلطفه
بكم صنّ إشفاقا وفي أرض غيره
وحاشا أبا برّ الأبوّة مثله
إمام له في كلّ يوم عوارف
تلقاه عصر بالخطوب فلم يزل
أذلّ عناد النائبات فأسلسلت
لنا من نداء الجَمّ في كلّ حادث

لقد جاد ربّ العرش بالنعمة الكبرى
عليها رجال قد قضاو دونكم قهرا
كما ينشر الديان من سكن القبرا
مضيئا وبعض الظنّ يحتقب الوزرا
لتضحى لكم رحمى وتغدو لكم ذكرى
وليس سواه يملك النفع والضرا
فألقي عليه من عنايته سترا
قياما على الدستور في الدولة الغرا
إذا مال نحو الترب صيّره تبرا
غدت بنفوس عند غيركم تشرى
وجيرانكم بالسيف هاماتهم تفرى
فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى
يريد بنا ضيما ويرهقنا عسرا
على الشرق والإسلام لا تقبل الحصر
يكافح في آرائه وحده العسرا
وأصبح بالتدبير يقاتلها قسرا
سحائب في الأقطار قد محت القطرا

ولو لم يكن إلّا الطريق الذي به
 لكان لعمري كافيا في ثنائه
 لقد منّ بالنعمة التي جاء وقّعها
 وأمة عثمان أزالّت بلحظة
 فيالك بشري في مسامع أمة
 وبالك من أمر به السبق جاءنا
 وبالك من وقت سعيد أظّلنا
 فشكرا على النعمة إخواننا الألى
 ألا قدرُوا هذي المكارم قدرها
 فكم قد وقفتم صابرين وكنتم
 ولاتذكروا ذاك الزمان الذي مضى
 لقد طال ليل بالمحبّين غاسق
 ولأعذر في التقصير بعد الذي جرى
 وفدّوا أمير المؤمنين بأنفس
 سيغدو لكم دور جديد بجوده
 تلقّوا لنا العصر الجديد بحكمة
 لقد منّ بالشورى عليكم بمقتضى

غدا آمنا شبّاك طه أبى الزهرا¹⁹
 وأن يبلغ الفخر المؤثّل والأجرا
 على الخلق وقع الماء من كبد حرّى
 به بالليالي البيض أيامها السمر
 بها قد غدت سكرى ولم تعرف الخمر
 فسالت له سحب الدموع من السرا
 ويوم تبشّرنا به يعدل العمر
 لدى تلكم البأساء قد أحسنوا الصبر
 وأدّوا عليها من صداقتكم شكرا
 على شاطيء لا تملكون له عبرا
 فقد عاض حلم اليوم من مرّ ما مرّا
 فقد نسي الظلماء من شهد الفجرا
 فما فات فرض الصوم من شهد الشهرا
 كفتها إلى عثمان نسبتها فخرا
 وقبلا أياديه على هامكم تسترى
 فقد جاء عدوا في شبيبته الخضرا
 (وشاورهم بالأمر) إن تحمل الأمرا²⁰

في هذه القصيدة التي تبدو مغرقة في التقليديّة مجموعة من القيم السياسيّة التي ستتبناها كثير من الأنظمة في البلدان غير المتقدمة طيلة القرن العشرين تبريرا منها لسلطتها المطلقة ومقاومة لمطالب المعارضة منها :

- إرجاع المكاسب مهما كان نوعها إلى "إشفاق" الدولة على المجتمع لانزولا منها عند ضغط المجتمع حتى ليتساءل المرء في كثير من الحالات إن كان عهد عبد الحميد قد ولى نهائيا.

- دعوة الناس إلى الانصراف عن النشاط السياسيّ المعارض بعد « نيل » هذه المكاسب وترك السياسة لأصحابها.

¹⁹ كناية عن سكة حديد الحجاز

²⁰ شكيب أرسلان . - بنو معروف أهل العروبة والاسلام، صص 101-103

- تبرير موقف الدولة قبل الدستور بالعامل الخارجي "تلقاه عهد بالخطوب فلم يزل يكافح في آرائه وحده العصور". أما نصّ تقرير مجلس الوزراء فلم يبعد كثيرًا عن روح قصيدة شكيب أرسلان إذ جاء فيه أنّ إيقاف العمل، سنة 1877، بالدستور إنّما كان فحسب بسبب « عجز مالي »:

« الحقيقة هي أن القانون الأساسي لا يزال مرعيًا ولكن وقف أعمال مجلس المبعوثان زمنًا²¹ قد نشأ عن إلقاءات مالية الدولة. ولما كان حقن دماء الرعية والحيلولة دون تدخل الدول الأجنبية يفرضان افتتاح المجلس المذكور كما أشار بذلك صاحب الجلالة مستهدفا إقرار الأمن والسكينة في المملكة، رأينا بعد المذاكرة في الأمر أن تصدر التبليغات العامة برقيًا إلى الولايات والألوية المستقلة²² لانتخاب نواب حائزين الصفات اللازمة وفاقا لأصول الانتخاب الموجودة²³ لذلك نضعنا هذه المضبطة مع البرقية المتضمنة التبليغات المقتضا رجاء دفعها إلى الحضرة السلطانية لاستصدار إرادته السنية الموقفة إلى الصواب للعمل بموجبها » (24 جمادي الأخرى سنة 1326 الموافق لتاريخ 10 تموز سنة 1324 / السنة الرومية المالية الموافقة لسنة 1908 ميلادية) « هذه البوادر المحتشمة للسلطة الحاكمة لم تتمكن من إخماد الانتفاضة في مناطق التمرد البلقانية بسبب الشك في نوايا عبد الحميد ولذلك تواصلت "أعمال الشقاوة" في مقدونيا مما اضطر حكومة سعيد باشا في 14 جويلية 1908 إلى إصدار عفو عن الذين مازالوا يواصلون أعمال الشقاوة في مقدونيا، بشرط أن يلقوا بأسلحتهم ويسلموها

²¹ زمنًا = ثلاثون سنة

²² الألوية المستقلة = المتصرفيات المستقلة ولا يدخل في ذلك متصرفية الجبل

²³ الأصول الانتخابية الموجودة = سيحدّد القانون الجديد الانتخابي الذي سيصدر في 20 سبتمبر 1908 هذه الأصول مع لائحة تتضمن طريقة التطبيق. وقد اعتبر كلّ لواء (أي متصرفية) دائرة انتخابية وكلّ منتخب نائبًا لكل 50.000 من الذكور الذي أمّوا الخامسة والعشرين من العمر ويجري الانتخاب على درجتين ينتخب في الأولى الذكور الذين أمّوا الخامسة والعشرين وينتخب هؤلاء منتخبين ثانوين ينتخبون بدورهم نائب أوليّ اللواء في البرلمان العثماني. وتدمر النيابة أربع سنوات وللسلطان الحق في حلّ مجلس النواب. فإن فعل ذلك في المدة النيابية القانونية وجب تجديد الانتخابات خلال شهرين من صدور قرار الحلّ (يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، ص 157) إنّ هذا القانون باشرطه أن لا يشارك في الدور الأول من الانتخاب إلا من بلغ من الذكور خمسة وعشرين عاما يحرم شبّانا أمثال عبد الغنيّ العريسي (ولد 1891) وخير الدين الزركلي (ولد 1893) والأمير مصطفى الشهابي (ولد 1893) حتى من المشاركة في انتخاب من سيختبون منتخبين ينوبون عن سكان المتصرفية في البرلمان العثماني

²⁴ يوسف الحكيم. - سوريا في العهد العثماني، صص 152-153.

إلى الحكومة ويعودوا إلى منازلهم»²⁵ ثم إلى إصدار عفو "شمل جميع المجرمين السياسيين والعاديين"²⁶

أن تضطرّ الحكومة الحميدية إلى إصدار عفو عن "المجرمين السياسيين" فهذا أمر قد يكون من قبيل تهدئة الخواطر أما أن ترفقه بعفو يشمل المجرمين «العاديين» فذاك أمر قد يفيد أنها لم تعد تتحكم في زمام الأمور بالقدر المطلوب.

إن ماثير إليه التقارير الحكومية من "أعمال الشقاوة" يشمل، ما من شك في ذلك في نظرنا، أعمال التخريب الفردية وكذلك رفض القوى السياسية العسكرية منها والمدنية، إلقاء السلاح خوفا من إخلال السلطان بوعده وهو الذي سبق له سنة 1877 أن تراجع في قرار منح العثمانيين دستورا يقيد سلطته.

وقد تركزت مطالب المعارضة البلقانية على أمرين :
- المطالبة بإلغاء " منظمة الخفية " التي كان مجرد ذكر اسمها يبعث الرعب في قلوب المعارضين السياسيين.

- المطالبة بمواصلة المباحثات مع كبار المسؤولين في الدولة للإسراع بإصدار نص الدستور وتحديد موعد الانتخابات النيابية.

في 16 جويلية 1908 قرّر مجلس الوكلاء المنعقد برئاسة الصدر الأعظم سعيد باشا وممدوح باشا، ناظر الداخلية إلغاء "منظمة الخفية". ونحن نثبت نص " مضبطة " مجلس الوكلاء لأهميتها التاريخية والقانونية وإليحاءاتها السياسية :

« إن إعلان القانون الأساسي قد قابله الأهليون والعساكر الشاهانية في الولايات المكدونية²⁸ بالشكر والامتنان وتقدّم الثائرون إلى دوائر الحكومة ملقين أسلحتهم على ما ورد في برقية المفتش العام حسين حلمي باشا الذي اقترح أن يفد إلى العاصمة بعض أركان جمعية الاتحاد والترقي ليعرضوا جميع المعلومات التي يطلب منهم إيضاها. كما جاء في البرقية المحولة من الشيخة إلى مجلس الوكلاء أن الجمعية المومل إليها تشير إلى الاتحاد القائم بين

²⁵ يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني، ص 153

²⁶ يوسف الحكيم المصدر السابق، الصفحة نفسها.

²⁷ منظمة الخفية، قسم سلامة الدولة، وهي شبيهة "بالأوخرانا" الروسية على عهد نيكيتا الثاني وكان يرأسها عربي

²⁸ قصر الحديث على الولايات المكدونية دليل جديد على أن الشام كان إمّا حميديا وإمّا غير مكثرت في أغلبيه بالدستور

الأهلين والجيش وكلهم يرجو إلغاء الخفية التي كانت سبب سوء التفاهم بين السلطة السنية والملة»²⁹

في هذه الوثيقة يلاحظ المرء الحرص على التأكيد على أمرين : أولهما اللحمة القائمة بين الجيش والشعب في الولايات المقدونية مما ينفي عن التمرد صفة "الشقاوة" وثانيهما التفريق بين الخليفة وبين جهاز الدولة. هذا التفريق كانت الغاية منه تبرئة السلطان عبد الحميد من مسؤولية ما ارتكب هذا الجهاز من فظائع ولسوف يحرص الدستوريون على تحديد المسؤوليات في المادة التاسعة من الدستور التي تقول تحسباً من تبرؤ أعوان التنفيذ من كل مسؤولية :

« ... لا يخضع الموظفون للأوامر الصادرة خلافاً للقانون ولهم حق الاستقالة من الخدمة متى شأوا على أن يتحملوا المسؤولية في الأحوال التي أخذوا القيام بها على مسؤوليتهم، يستثنى من جميع ذلك العسكريون على اختلاف درجاتهم، متبئين بذلك جزءاً من المادة السابعة من بيان حقوق الإنسان والمواطن التي تنص على أن "كل الذين يطلبون إجراءات تعسفية أو ينجزونها أو ينفذونها أو يأمرهم بتنفيذها تجب معاقبتهم".

أفضت تقارير المفتش العام حسين حلمي وشيخ الإسلام إلى قرار مجلس الوكلاء إجراء محادثات مع رجال الاتحاد والترقي. ولزيد من تطمين هؤلاء صدر قرار مجلس الوكلاء بإلغاء المحاكم الاستثنائية القائمة في الولايات المقدونية واقترن بالإرادة السنية وبدأ العمل به يسير باطراد مع ترقب نشر قانون الانتخابات النيابية.

لم يكن للحكومة الحميدية التي فاجأتها الأحداث إلى حد كبير نص دستوري غير النص الذي « هيأه المجلس النيابي قبل ثلاثين سنة (وحتى هذا النص) لم يقترن بصور الإرادة السنية »³⁰ وكان موقف جماعة الاتحاد والترقي يتجه « نحو الانقلاب على الحكومة إذا لم تجر الانتخابات بمقتضى القانون السالف الذكر »³¹. وللخروج من المأزق وتطويراً للحركة التمردية صدرت إرادة السلطان السنية بتطبيق أحكام القانون الأساسي ودعوة المجلس النيابي وهذا، نص الخط الهمايوني الصادر بتاريخ 18 جويلية 1908 :

"وزير سميع المعالي سعيد باشا،

²⁹ يوسف الحكيم، سوريا في العهد العثماني، ص 153

³⁰ يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص 154

³¹ يوسف الحكيم - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

لما كان الاستقرار الذي نعمت به الرعية في أوج اعتلاء الدولة العثمانية مكانتها السامية قد تعرض لأسباب متنوعة، للإهمال مما حدا والدي السلطان عبد المجيد خان على إصدار التنظيمات الخيرية ومن مقتضاها تنظيم الإدارة وتقوية روابط الإخاء بين عناصر الأمة العثمانية وفي بدء سلطتنا أخذنا بعين الاعتبار درجة الرقي الذي وصلت إليه الأمة، فأعلنّا من تلقاء أنفسنا القانون الأساسي القائم على القواعد الدستورية. ولكن الأعراض المختلفة التي ظهرت آنئذ تغلبت على المصلحة العامة فاضطرت الحكومة في عهد صدارة صفوت باشا إلى تعطيل الحياة النيابية تبعا لرأي الكثيرين. ولما رأينا أخيرا استعداد الملكة للإدارة الدستورية مؤيدا بالميل العامة البارزة، أصدرنا إرادتنا بتطبيق أحكام القانون الأساسي بحذافيره وبدعوة المجلس النيابي إلى الاجتماع كل سنة، كما ذكرت ذلك أمس أمام رجال السياسة من سفراء الدول وغيرهم الذي زارونا لتقديم التهاني. وبديهي أن منافع الملكة الحقيقية إنما تتحقق باكتساب القوة القانونية صفة القوة التنظيمية الشرعية فترتقي مع المنافع الحقيقية للسلطنة. لذلك أصدرنا إرادتنا برعاية القانون الأساسي ودعوة نواب الأمة للاجتماع كل سنة.

وأعلن الآن، بهذا الخط الهمايوني، اكتساب إرادتي المشار إليها الصفة القطعية، مؤكدا تطبيق العدالة والمساواة بين أفراد الأمة الذين تتألف منهم دولتنا، دون أي تفريق بين فرد وآخر وعنصر وآخر، ذاكرة مع الأسف ما طرأ من ضعف على هذه المساواة، خلافا لمقاصدنا في بعض الأنحاء، وبعض شعب الإدارة، مما يستوجب إصلاح تلك الأخطاء باتباع القواعد الآتية :

- (1) كل فرد من العثمانيين، مهما كان مذهبه وقومه، يتمتع بحريته الشخصية ويتساوى مع غيره في الحقوق والواجبات
- (2) لا يجوز استنطاق أي شخص وتوقيفه وسجنه ومعاقبته بصورة من الصور إلا إذا أوجب القانون ذلك
- (3) لا يجوز تأليف محاكم ولجان بصفة غير عادية، بوجه من الوجوه وباسم من الأسماء. ولا يمكن جلب أي شخص إلى غير المحكمة والدائرة الاستنطاقية الحازنتين على الصلاحية القانونية
- (4) منزل كل إنسان مصون من التعرض، فلا يجوز دخوله وترصده إلا بالطرق التي عينها القانون

- (5) لا يجوز لموظفي الضابطة ولا لغيرهم من الموظفين تحت أي إسم وصفة، ملاحقة أحد الناس بغير الأصول التي عينها القانون
- (6) لأفراد التبعة العثمانية الحق بالسفر إلى أية مملكة سواء بقصد التجارة أو السياحة والاختلاط والاجتماع بمن أرادوا من الناس
- (7) لا يتوقف طبع المطبوعات على عرضها على الحكومة ولا يجوز تأخير الرسائل الشخصية والمطبوعات الموقوتة في دوائر البريد. أما التهم المتعلقة بالمطبوعات فتتظر فيها المحاكم العادية.
- (8) حرية التعليم والتدريس مصنونة
- (9) لا يجبر أحد على قبول وظيفة لا يرضاها ولا يخضع الموظفون للأوامر الصادرة خلافا للقانون ولهم حق الاستقالة من الخدمة متى شاؤوا، على أن يتحملوا المسؤولية في الأحوال التي أخذوا القيام بها على مسؤوليتهم، يستثنى من جميع ذلك، العسكريون على اختلاف درجاتهم
- (10) عدا الذين يعهد إليهم بمقام المشيخة (الإسلامية) ونظارتي الحربية والبحرية، ينتقي الصدر الأعظم باقي الوكلاء (الوزراء) ويعرضهم علينا لأجل التصديق كما ينتقي السفراء لدى الدول بعد انضمام رأي ناظر الخارجية بشأنهم ورأي ناظر الداخلية بشأن الولاية ورأي رئيس مجلس الشورى بشأن أعضائه.
- أما انتقاء سائر الموظفين وتبديلهم حين الاقتضاء ومكافأتهم بالرتب والأوسمة وغيرها فيجري بتصويب مرجعهم من نظارة أو رئاسة إدارة وانضمام رأي مقام الصدارة
- (11) يراجع كل موظف تحريرا أو شفهيّا الأمر الذي فوّقه ولا يجوز له مراجعة غير مرجعه كما لا يجوز لأي مرجع إعطاء أمر خطي أو شفهي لغير موظفيه
- (12) على مقام الصدارة العظمى، إذا وجد في انتقاء موظفي الدولة خطأ، بيان هذا الخطأ وإصلاحه والإشراف على تبديل الموظف الذي يظهر منه عجز أو سوء تصرف في وظيفته.
- (13) يعلن في بدء السنة المالية موازنة الدولة، حاوية الواردات والنفقات العادية وغير العادية، كما تعلن موازنة كل دائرة ولاية مع الموازنة العامة «

إنّ ما يمكن ملاحظته ، باديء ذي بدء ، فيما يتّصل بالمحاور التي شغلت بال صاغة الدستور وحظيت برضا قادة الجيش في مقدونيا وفضاع من المثقفين ، أنها استجابت للمطالب التالية :

– اعتماد القانون لا الشريعة ولا السلطان مرجعا واحدا أحدا. يدلّ على ذلك كثرة البنود التي ختمت بضرورة تحكيم القانون في المسائل الخلافية ممّا يجعل من السلطان "ملكا يملك ولا يحكم" وقبول السلطان وحاشيته بهذا الأمر هو الذي سمح بهذا "الحلّ الوسط" الذي شلّ الحركة التمردية وحال دون تحوّلها إلى ثورة حقيقية تذهب برجال العهد القديم جميعهم فبقي في الحكم منهم كلّ من كان في الظلّ زمن حكم عبد الحميد المطلق أو من لم يتورّط بشكل سافر وفاضح.

– ضمان حرية المعتد وحرية الفكر والكتابة والتعليم والسفر والتجارة والتشديد على وجوب كسر شوكة الأجهزة القمعية (وزارة الداخلية) والأجهزة الخادمة لها (وزارة البريد).

– التأكيد على وجوب اعتماد الكفاءة في التوظيف ومحاربة ما عداها من قنوات التدخّل التقليدية (القراية ، الولاء الشخصي...)

– إيلاء المجال الماليّ ما يستحقّ من عناية وذلك في وقت تجاوز فيه الاهتمام في العالم بالمسائل الاقتصادية والسياسية الاستعمار إلى الامبريالية

وكلّ هذه المحاور مثّلت ، بالنسبة إلى المعارضة العثمانية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، المفتاح لكل مشروع تغييريّ ، وكانت ، في جملتها ، قبرا للماورديّة وأخذاً بكثير ممّا جاء في "الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن" الذي نودّ أن نعرّب مواده هنا للمقارنة حتى يتّضح لنا بما فيه الكفاية أن عبد الحميد والمحافظين بصفة عامّة ، لم يكن بإمكانهم أن يكونوا في قرارة أنفسهم راضين عن دستور يعوّض الشريعة الإسلامية بقانون يدعو إلى "الحرية والعدالة والمساواة" :

المادة الأولى : يولد الناس أحرارا ويبقى ذلك شأنهم. ولا يمكن للفروق

الاجتماعية أن تقوم إلا على أساس المنفعة المشتركة

المادة الثانية : إنّ غاية كلّ تجمع سياسي هي الحفاظ على حقوق الإنسان

الطبيعية غير القابلة للتقادم وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الاضطهاد

المادة الثالثة : إنّ مبدأ كلّ سيادة يستمدّ، في جوهره، من الأمة وليس بإمكان أي هيئة أو فرد أن يمارس سلطة لانتبثق حتما من الأمة.

المادة الرابعة : تقوم الحرية على إمكانية فعل كلّ ما من شأنه أن لا يلحق ضررا بالآخرين : وهكذا فإنّ مجال تمتع كلّ إنسان بحقوقه الطبيعيّة يمتدّ حتى الحدود التي تضمن لغيره من أفراد المجتمع التمتع بما يتمتع به هو من حقوق. هذه الفواصل لا يمكن لغير القانون أن يحدّها.

المادة الخامسة : ليس من حقّ القانون أن يمنع غير الأفعال الضارة بالمجتمع. إنّ كلّ ما لا يمنعه القانون لا يمكن حظره ولا يمكن إجبار أحد على إتيان ما لا ينصّ عليه القانون

المادة السادسة : إنّ القانون هو التعبير عن الإرادة العامّة وللمواطنين جميعهم حقّ المشاركة شخصيا أو عن طريق ممثليهم في سنّه. وعلى القانون أن يكون واحداً بالنسبة إلى جميع المواطنين، حماية لهم وعقابا. إنّ المواطنين جميعهم وقد سوى القانون بينهم، مؤهلون لكلّ المناصب والأعمال والوظائف العامّة كلّ حسب كفاءته وبدون اعتبار لأي امتيازات أخرى غير قدراتهم ومواهبهم

المادة السابعة : لا يمكن اتهام إنسان أو إيقافه أو سجنه إلا في الحالات التي يحدّها القانون وفق القواعد التي يقضي بها وكلّ الذي يطلبون إجراءات تعسفيّة أو ينجزونها أو ينفذونها أو يأمرّون بتنفيذها تجب معاقبتهم. إلا أنّ على كلّ مواطن يطلبه القانون أن يمثل حالا وإلا فإنّه يصبح عرضة لتهمة مخالفة القانون

المادة الثامنة : لا يمكن للقانون أن يقرّ بشكل دقيق وبديهيّ غير عقوبات ضروريّة ولا يعاقب أيّ كان إلا بمقتضى قانون مقررّ سبق سنه وكذلك تطبيقه.

المادة التاسعة : بما أن كلّ متهم يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته فإنّ كلّ شدة غير ضروريّة تمارس عند القبض على من يرى القانون أنّ من الضروريّ إيقافه يجب على القانون أن يقيّمها بصرامة.

المادة العاشرة : لا يمكن التعرّض لأيّ كان بسبب آرائه حتّى الدينيّة منها شريطة أن لا يلحق التظاهر بها اضطرابا على الأمن الذي أقرّه القانون.

المادة الحادية عشرة : إنّ التعبير الحرّ عن الأفكار والآراء حقّ من أثمن حقوق الإنسان ، وإذن فيمكن للمواطن أن يتكلّم وأن يكتب وأن يطبع المطبوعات بحريّة على أن يتحمّل مسؤوليّة الشطط في استعمال هذه الحريّة حسب الحالات التي يحددها القانون.

المادة الثانية عشرة : إنّ الحفاظ على حقوق الإنسان والمواطن يحتاج إلى قوّة عامة، فتأسيس هذه القوّة هو إذن لصالح الجميع لا لتحقيق منفعة خاصة للذين فوّضوا أمر هذه القوّة.

المادة الثالثة عشرة : لا بدّ من مساهمة جماعيّة لصيانة القوّة العامة ولصاريف الإدارة فيجب أن يسهم كل المواطنين في ذلك بشكل عادل كلّ حسب إمكانياته

المادة الرابعة عشرة : لكل المواطنين الحقّ في أن يتّثبتوا إمّا بأنفسهم وإمّا بواسطة ممثليهم من ضرورة هذه المساهمة العامة وأن يوافقوا عليها بحريّة وأن يتابعوا كقيّة استعمالها وتحديد مقدارها ووصفها وتحصيلها ومدتها.

المادة الخامسة عشرة : للمجتمع الحقّ أن يحاسب كلّ مأمور في إدارته

المادة السادسة عشرة : كلّ مجتمع لا ضمان فيه لحقوق الإنسان أو فصلا بين السلطات المحدّدة إنما هو مجتمع لا دستور فيه

المادة السابعة عشرة : بما أن الملكية تعتبر حقاً يتعدّى انتهاكه فليس بالإمكان حرمان أي كان منها إلا عندما يقرّ القانون أنّ المصلحة العامّة تقتضي ذلك وبشرط تعويض عادل ومسبق عن هذا الحرمان

من المقارنة بين "قواعد" الخط الهمايوني و مواد الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن يتّضح أمران أولهما أنّ المطالب التي استجابت لها المجموعة الحاكمة، على مضض، إنّما هي مطالب طبقة بورجوازية متوسّطة تأثّرت أيمّا تأثر بنمط الإنتاج الرأسماليّ وبنمط التفكير الذي يلائمه وهو تفكير يعتبر الفرد محور كلّ شيء : ولذلك فلا أثر في الدستور العثمانيّ لما يمثّل شاغل أغلب العثمانيين ممّا يتّصل بالقضايا الاجتماعيّة وعلاقات العمل مثلاً. أمّا ثاني الأمرين فهو أن الدستور العثماني بـ « كلّ ما فيه من النقائص »³² يمكن أن يعدّ، لما نعرف نهاية القرن العشرين من تعثّر التجارب الديمقراطيّة في البلدان التي خلفت الدولة العثمانيّة، مخاطرة تحديّته جريئة جداً . وفهمنا هذا يطرح أسئلة كثيرة منها : إلى أيّ حدّ كان عبد الحميد وهو يأمر بإصدار الدستور "مجبوراً لا بطلا" ؟ وهل يمكن لرئيس دولة رضع النظرة

³² جورج أبطونينوس . - بقظة العرب، ص 177

التقليدية إلى الله والطبيعة وإلى الدولة والمجتمع رضاعاً أن يغير عن طيب خاطر، هذه النظرة بنظرة حديثة حدثة الثورات الغربية السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي نعرف بدء بالثورة الانكليزية في القرن السابع عشر مروراً بالثورتين الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر ووصولاً إلى ثورات القرن التاسع عشر التي تأثر بها العثمانيون البلقانيون أيما تأثر وفرضوا لذلك ممثلهم الوضعي أحمد رضا رئيساً للبرلمان العثماني سنة 1908 ؟ وإلى أي حد سيقبل خصوم التنظيمات القدامى بها في بداية القرن العشرين؟ ثم ما هي قدرة ثوار مقدونيا، العسكريين والمدنيين وأنصارهم في مختلف الولايات العثمانية، على فرض تطبيق الدستور ؟ أي ماذا كانت حظوظ نجاح التنظيمات الجديدة الحقيقية ؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة أو عن بعضها هي الحرية وحدها، بإنارة ذهن القاريء حول تطوّر الأحداث في السلطنة عامّة وفي الشام خاصّة بين 1908 و 1914 ، سنة اندلاع الحرب الكبرى وكذلك سنة بداية مغادرة العثمانيين الاتحاديين العرب "المركب العثمانيّ الاتحاديّ" والتحاقهم بالحركة العربية الإسلامية ممّا ساهم في غرق هذا المركب.

لقد اخترنا إجابة عن هذه الأسئلة أن نفصل الحديث أولاً عن مقاومة الحميديين خاصة والمحافظين عامّة للدستور وثانياً عن مقاومة القوى المعارضة والنابهة للعثمانيين الإتحاديين ومناصرتهم للعثمانيين الائتلافيين مرجئين الحديث عن إحدى هذه القوى النابذة وهي التيار العربيّ الإسلاميّ إلى الفصل الثاني من هذا القسم. لقد رأينا كيف كان موقف شكيب أرسلان من الإعلان عن الدستور فهو قد ذهب " مذهب من لا يريد أن تكون الحرية مقرونة بالفوضى ومن يغار على مقام الخلافة". وليس في مواد الدستور الجديد ما يبقى على "مقام الخلافة" على الأقلّ كما رسخت صورتها في تصوّر الناس إذ الخلافة منصب دينيّ وسياسيّ لا يتحمّل فكرة "المساواة بين أفراد الأمة الذين تتألف منهم دولتنا، دون أيّ تفریق بين فرد آخر وعنصر وآخر" وإلاّ وجبت التسوية بين الأديان تسوية رشدية شدياقية، وهذه التسوية هي بالذات تلك التي حاربها عبد الحميد طيلة ثلاثين سنة.

وإذا كان موقف شكيب أرسلان على ما رأينا فمن السهل على المرء تصوّر نيّة الخليفة نفسه الذي فرض عليه الجيش البلقانيّ "الأوربيّ" دستوراً سبق أن أعدم من أجله سنة 1883 "أبا الدستور" مدحت باشا. فهل يكون عبد الحميد قد أصبح، بعد أن ازداد تقدماً في السنّ، أكثر ديمقراطيّة ؟ إن الأحداث تبين أن عبد الحميد اكتفى بأن «ظهر (...) بمظهر أبي الدستور وحاميه وأعظم داع إلى تنفيذ أحكامه، حرصاً على سلامة الدولة، وسعادة الأمة، وهي

نفس الخطة التي سلكها وكلاء الدولة وأمثالهم من كبار الساسة الفضلاء... بيد أن الكثيرين من أنصار العهد السابق على اختلاف مراتبهم في العاصمة والولايات الشرقية لم يصدر عنهم أي عمل أو قول يدل على إيمانهم بمبادئ الدستور فلم يشترك واحد منهم في هتاف للحرية أو امتداح للعهد الجديد حتى أن بعض هؤلاء الأنصار قاموا بتأسيس جمعيات أعلنوا أن غايتها المحافظة على أحكام الدين الحنيف مقابلة لموقف جمعية الاتحاد والترقي المؤلفة من خليط لاديني من يهود مرتدين وروم وأرمن والقائمة على أساس نزع السلطة من الخليفة المعظم، أمير المؤمنين ³³»

هذه المقاومة العنيفة للدستور تعددت أشكالها ومنها "شراء الذم": «إننا لم نزل في أول ميدان الجهاد والعقبات الصعاب تكتنفنا من كل جانب ونصرا الاستبداد غير مائتين وإنما هي استماعة وقتية، يرتقبون الفرص في أثنائها ولهم من أبناء التقليد البحت وحزب التقهقر الأعمى عون قوي يلتف حولهم أيان تسنى لهم الأمر والأصفر الوضاح ما زال يبذل سر العرقة المساعي التي يقوم بها دعاة الإصلاح. وللدولة من المشاغل السياسية ما يجعل لأسرة البغاة بارقة أمل باستعادة شيء من ماضي رفعتهم وساقط نفوذهم» ³⁴

إن كل حديث عن هيمنة جمعية الاتحاد والترقي العثماني في الفترة الفاصلة بين إعلان التمرد في مقدونيا في جويلية 1908 وقمع الحركة الارتجاعية في أبريل 1909 الذي ستبرز فيه أسماء جديدة مثل أحمد جمال باشا "السفاح" (1872- قتل 1922) إنما هو حديث يحتاج إلى أدلة: فالواقع السياسي يثبت أن هذه الجمعية كانت طيلة هذه العشرة أشهر حزبا سريّا يخشى الجهر بأسماء القائمين عليه فإذا قبلت الجمعية بأحد المنخرطين الجدد عضوا فيها دعت إلى «الهيئة المركزية معصوب العينين ليقسم يمينها المغلظة على السيف والمصحف فيقول بحضور بعض الأمراء العسكريين وكبار رجال الملكة من أعضائها: أقسم بالله وبديني وبشرقي أنني لا أفرق بين العناصر العثمانية» ³⁵ بل أنها كانت تتساهل في قبول بعض الأعضاء ممن تحتاج إلى نفوذهم وتفصلهم عن نظرة منظري الجمعية إلى الأشياء هوة ساحقة: «لما دعي الشيخ فوز (يقصد شيخ الروالة) إلى الهيئة المركزية (يقصد هيئة الاتحاد والترقي قبل خروجها من السرية) معصوب العينين ليقسم يمينها المغلظة على السيف

³³ يوسف الحكيم - سوريا في العهد العثماني، ص 166

³⁴ سليمان البستاني، عمرة وذكرى، ص 238

³⁵ حسى الحكيم - عبد الرحمن الشهيد... ص 153

والمصحف فيقول بحضور بعض الأمراء العسكريين وكبار رجال المملكة من أعضائها : أقسم بالله وبدينني وبشرقي أنني لا أفرق بين العناصر العثمانية إلى آخره وجد هذه اليمين طويلة وثقيلة على طبعه فاقتلع العصابة عن عينيه بحدة وشدة وقال : "والله إن صدقتم صدقنا وإن بقم بقنا" ومعنى البوق عند البدو اليوم هو كما عند أجدادهم في الجاهلية « الغدر »³⁶ فمن الطبيعي، والحال على ما ذكرنا، أن يكون اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية مناسبة لصراع مرير بين الآخذين بالدستور والمدافعين عن "سلطان البرين وخاقان البحرين ظل الله في الأرض" كما كان عبد الحميد يوصف في المساجد. كما أنه من الطبيعي أن لا يفوز في هذه الانتخابات، نظرا إلى ما وصفنا من ضعف الاتحاديين في الشام خاصة عدد هام من "دعاة الإصلاح". ومع ذلك فتوجد دراسات عروبية إسلامية كثيرة ترد نتائج هذه الانتخابات إلى... الاتحاديين :

« قسمت الدوائر الانتخابية وفرض عدد أعضاء مجلس النواب بتخطيط الجمعية لضمان الأثرية للعنصر التركي أولها على كل حال. ولقد كان عدد الترك في الدولة نحو الثلث وعدد العرب نحو ذلك ومع ذلك فقد جعلوا عدد المقاعد المخصصة للترك (137) والمخصصة للعرب (65) أي ضعف عدد العرب وأكثر بل حرصوا على أن يكون نواب البلاد العربية الذين لا يكونون منتسبين إلى جمعيتهم من غير المتحمسين للقضايا القومية وغير المثقفين بثقافة عصرية ومن غير أصحاب النشاط والمراكز والحركات الاجتماعية والسياسية³⁷ دامت هذه المقاومة الشرسة للدستور عشرة أشهر استغللتها النمسا - المجر فضمت إليها البوسنة واستغللتها بلغاريا فأعلنت استقلالها وانتهت في مارس 1909 بـ "الثورة المضادة" فانقسم الجيش العثماني قسمين متقاتلين الجيش الأول في العاصمة المناصر لعبد الحميد (وأغلبه من الألبان) والجيش³⁸ الثالث في مقدونيا المعادي لعبد الحميد

³⁶ حسن الحكيم - المصدر السابق، الصفحة نفسها

³⁷ عزة دروزة - نشأة الحركة العربية الحديثة - صيدا - بيروت، 1971 - ص 299، ونلاحظ هنا أن دروزة كان إتلافيا عروبيا إسلاميا لذلك لا بد من الحذر مما كتب حذره هو مما كتب الضابط العثماني الاتحادي أمين سعيد الذي ورع المقاعد على النحو التالي : "عرب" : 70 مقعدا (25%)، "ألبان" : 30 مقعدا "برنان" و "بلغار" : 30 مقعدا أي في الجملة 130 لغير "الترك" من جملة 273 مقعدا أي % 47,61

³⁸ نشير هنا إلى أن الألباني أحمد نيازي قتل عند عودته إلى ألبانيا ونشير كذلك إلى أن الألبان حصلوا على 30 مقعدا

تختلف المصادر والمراجع في تسمية هذه "الثورة المضادة" على العثمانيين الاتحاديين (مارس - أبريل 1909) فتطلق عليها إسم "الجمعية الارتجاعية" و "الجمعية المحمدية" و "فتنة 31 مارس" و "الاتحاد الإسلامي" وأكثر التسميات تهافتا، في نظرنا، هي تسمية (بنوا - ميشين Benoit- Méchin) قادة هذه الحركة في كتابه "مصطفى كمال أو موت إمبراطورية Mustapha Kémal ou la mort d'un Empire باسم "الاخوان المسلمين".

حدث هذا التمرد المضاد بعد عشرة أشهر من تمرد جيش مقدونيا على عبد الحميد الثاني (جويلية 1908) انطلاقا من أهم ثكنة في العاصمة وانتشر في مختلف مناطق الأناضول وبلاد الشام وشارك فيه طلبة الشريعة ورجال العهد القديم بل شارك فيها الجزء الأكثر محافظة من العثمانيين الصباحيين الائتلافيين. بعض المصادر تتحدث عن مشاركة كثيفة لرجال الجيش الأول» بلغ عدد جنود الحامية التي أيده (يقصد السلطان عبدالحميد) (...) ما يربو على 70.000³⁹ «

وأساب هذا التمرد عديدة منها ما يتصل بالأوضاع العالمية ومنها ما يتصل بالأوضاع الداخلية. ففيما يتصل بالأوضاع الخارجية لم يكن العسكريون بصفة عامة مرتاحين للوضع الانتقالي في السلطنة الذي مكن القوى العظمى وحتى بعض الدول التي كانت تابعة للسلطنة من اقتطاع أجزاء منها أو الاستقلال عنها وفيما يتصل بالأوضاع الداخلية كان الصراع الكامن حينئذ والسافر أحيانا أخرى بين العثمانيين الدستوريين و الحميديين قد بلغ أشده بعد الانتخابات البرلمانية لما أسفرت عنه نقاشات البرلمان⁴⁰ من تعقيد للأوضاع ومن صعوبة حل كثير من المسائل التي لم تكن تولى أهمية كبيرة في العهد القديم. ولقد أدى كل ذلك إلى سقوط وزارة كامل باشا في مارس 1909 وتولى حسين حلمي الصدارة مكانه فكان ذلك بمثابة قبر أمل رجال العهد القديم في استعادة مواقعهم السابقة إذ عمد هذا الصدر الأعظم إلى دعم العمل البرلماني بشكل زاد من مخاوفهم.

« كانت المدة المعينة لاجتماع المجلس العمومي أربعة أشهر تنتهي بنهاية شهر أذار (مارس 1909) ولكن كثرة المهام التي بدأها يستدعي إنجازها وقتا أطول. وبعد مداولة البحث بين المسؤولين وافق وكلاء الدولة، برئاسة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا، على تمديد مدة

³⁹ أسعد داعر . - مذكراتي على هامش القضية العربية، ص 32

⁴⁰ افتتح البرلمان أشغاله في ديسمبر 1908

الاجتماع حتى نهاية شهر حزيران وصدرت الإرادة السنيّة بذلك في 26 شباط (فيفري) بموجب خطّهما يوني تلي في المجلس وقوبل بالهتاف ⁴¹ «
قد يبدو هذا التمديد أمراً عادياً لا يثير التساؤل في أذهان الأجيال اللاحقة ولكن علينا أن نتذكر لفهم مغزى هذا التمديد، سنة 1877 عندما تراجع عبد الحميد الثاني في الدستور الذي أبدى موافقته عليه. وجماعة الاتحاد والترقي، تماماً مثل رجال عبد الحميد لم ينس واحد منهم التجربة السابقة ولذلك لم يكن مبرّر التمديد في فترة انعقاد البرلمان في نظرنا يستجيب فحسب لما فرضته الظروف من قضايا ولكن كان يحمل مغزى سياسياً له قيمة الرمز : كان يعني ببساطة نهاية فترة وبداية أخرى.

ومن هنا كان لهذا الحدث الذي يبدو بسيطاً تأثير كبير في الحميديين الذين تمردوا وتمكّنوا من السيطرة على الأمور خاصة في العاصمة من نهاية مارس (31 مارس) إلى الثالث والعشرين من أبريل 1909 أي طيلة أسابيع ثلاثة روعت فيها السلطنة.

هناك سببان يفسران، في نظرنا، وصف هذا التمرد بـ "الارتجاعي" وبـ "الإسلامي" أولهما أنّ البرلمان العثمانيّ الجديد كان أوّل الأماكن التي تعرّضت للهجوم وثانيهما أنّ مشاركة طلاب الشريعة ورجال الدين في هذا التمرد كانت كثيفة ولقد سبق أن أبدينا تحفظنا إزاء التسمية الثانية لأن التمرد قام ضدّ دستوريين مسلمين ⁴². وأياً كان الأمر، فإن ما يهمّ هنا هو الإشارة إلى العنف الذي ميّز هذا التمرد وسرعة انتشاره :

« في الحادي والثلاثين من شهر آذار (مارس) قام جنود السلطان في العاصمة على رأس المنتميين إلى الجمعية الارتجاعية بهجوم على مجلس النواب وأطلقوا النيران على نواب الاتحاد والترقي وقضوا على حياة بعضهم وبينهم الأمير محمد أرسلان مبعوث اللاذقية ⁴³ وأخو الأمير شكيب أرسلان

وقد انتشر هذا التمرد فبلغ الأناضول والشام :

⁴¹ يوسف الحكيم . سوريا في العهد العثماني، صص 166-167

⁴² كما تحفّظنا إزاء الآراء التي ترجع أسباب الحرب الأهلية في الشام سنة 1860 الى الدّيس لايسعنا هنا أن نذهب مذهبا مغايراً فالخلاف لا يكمن في الدين ولكن في النظرة إلى الطبيعة والعلاقات الاجتماعية ودلّينا على ذلك كثرة المسلمين الذين وقفوا من التمرد موقفا معارضا ومن بينهم... محمد رشيد رضا

⁴³ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، ص 168

» وفي التاريخ نفسه قام المنتمون إلى الجمعيات الارتجاعية في بعض مراكز الولايات والألوية الشرقية والعربية بتظاهرات واعتداءات كان أشدها همجية ماوقع في نفس مدينة أضنا⁴⁴ مركز الولاية وملحقاتها من هجوم مدبر على الأرمن وسائر المسيحيين وقتل عدد كبير منهم ونهب أموالهم وهدم منازلهم⁴⁵. إن السمة التي غلبت على هذا "البوغروم" (رفض الدستور) تسمح بالحديث عن شبه بينه وبين الحرب الأهلية في بلاد الشام سنة 1860 فمثلا تورط كثير من الاقطاعيين ورجال الدين في دمشق خاصة في حرب الستين سيتورط جزء هام منهم هذه المرة أيضا في الانقلاب المضاد :

» وبعد هنيهة (يقصد سنة 1909) حدث في سوريا شيء من الرجعية باسم جمعية ألّفها رجل رجعي يدعى "درويش وحدتي". وقد نشرت دعاية خبيثة في هذه البلدة، وارتكزت هذه الدعاية الخبيثة على مقاومة عدد محدود من أحرار البلاد منهم من الأحياء الأخ الأستاذ فائز بك الخوري، وممن توفوا (...) المرحوم الدكتور حسين حيدر والمرحوم سليم الجزائري والعاجز الواقف بينكم. فتحملنا هذه الرجعية برباطة جأش وسعة صدر لعلنا أن كل عمل اجتماعي سياسي في خطوة عظيمة إلى الأمام تعقبه الرجعية، والرجعية ملازمة للتقدم وهذا أمر مقرر في كتب السياسة وكتب الاجتماع. والذي يهمني أن أقول لكم إن هذه الدعاية قد توسعت حتى صار المأجورون يقولون إياكم أن تعالجوا عند الدكتور شهبندر فشعرت بمقاطعة لي بالنسبة للفن الطبي⁴⁶»

ما من فترة في التاريخ الحديث والمعاصر طرحت فيها قضية "الأصالة الشرقية" والتغريب" بمثل ما طرحت في هذه الأسابيع الثلاثة الدامية ولقد كان حماة "الأصالة الشرقية" عبد الحميد وأبا الهدى الصيادي وأحمد عزت العابد وأمثالهم وكذلك الجيش الأول في العاصمة. أما المتغربون فكانوا، في نظر الخصوم، قادة الجيش الثالث في مقدونيا، وأشهرهم البغدادي محمود شوكت. ولقد كان على الجيش الثالث، هذه المرة أيضا، أن يقف موقف المدافع عن "الدستور الوضعي" :

⁴⁴ سيعين "أحمد جمال" المعروف بصرامته العسكرية واليا على هذه الولاية... سنة 1909 فهل كان ذلك من باب الصدفة ؟

⁴⁵ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني، ص 168

⁴⁶ حسن الحكيم . - عبد الرحمن الشهبندر، ص 159

« وفي بدء المؤامرة الارتجاعية التي هيأها رجال السلطان عبد الحميد، هبّ لإطفاء نارها قبل اتساعها المشير محمود شوكت باشا على رأس جيشه بمن حواه من أركان وأمرء وضباط⁴⁷ وأفراد قادمين من مقدونيا فدخلوا العاصمة دخول الفاتحين وحاصروا فوراً سراي السلطان عبد الحميد وقضوا على حياة بعض رجاله ونجا منهم من ساعده الحظ على مغادرة العاصمة. أعلنت فوراً الإدارة العرفية في المناطق التي اختل أمنها وأخذ أركان الاتحاد والترقي من ناحية ثانية يتأهبون لقمع الفتنة وإزالة أسبابها⁴⁸. » عندما « ضرب نطاق الحصار حول قصر يلدز وقطع عنه الماء والكهرباء⁴⁹ » لم يتردد عبد الحميد في إنذار المهاجمين بأنه سيأمر بـ « إطلاق المدافع من قصر يلدز على حي بك "أوغلي" حيث السفارات ومعظم الأجانب إذا حاول جيش سلانيك مهاجمة العاصمة⁵⁰ »

« وقد جرت مفاوضات بين القصر ومحمود شوكت انتهت بتفضيل نفي عبد الحميد على قتله حتى لا يصبح "الخليفة الشهيد" نفياً إلى سالونك ليموت في الأناضول سنة 1918. حرص القايضون الجدد على زمام الأمور في السلطنة على صيغ أسباب طرد عبد الحميد بصيغة دينية وصيغة دستورية وضعية فأصدر شيخ الإسلام محمد ضياء أفندي في 14 أبريل 1909 فتوى بخلع عبد الحميد نوردها هنا لأنها تساعد بلغتها وصياغتها على استعادة تفكير العقد الأول من القرن العشرين الفقهي وقد ترجمها يوسف الحكيم إلى العربية :

« إن زيدا الذي هو إمام المسلمين قد طوى بعض المسائل الفقهية ومنع الكتب الشرعية وأحرقها وتصرف في بيت المال تصرفاً مقروناً بالإسراف والتبذير واعتاد الإيقاع بالرعية ظلماً وتقتيلاً وحبساً وتعذيباً ثم أقسم بأن يرجع إلى الصلاح ولكنه حنث بيمينه وأصر على إحداث فتنة كبرى تلحق بأموال المسلمين كللاً كلياً وأثار بينهم القتال فتوالت الأخبار عن تغلبهم عليه واعتباره مخلوعاً وقد تحقق وجود الضرر في بقائه والصلاح في زواله فهل يجب والحالة هذه تنفيذ ما يراه أولياء الأمور من أرباب الحل والعقد من ترجيح بين تكليفه للاستقالة من الإمامة والسلطنة وبين خلعه؟.

⁴⁷ من بينهم عزيز علي المصري وأحمد نيازي ومحمد أنور ومصطفى كمال ... ص 159

⁴⁸ يوسف الحكيم . — سوريا في العهد العثماني، ص 168

⁴⁹ أسعد داغر . — مذكراتي على هامش القضية العربية ص 33

⁵⁰ أسعد داغر . — المصدر السابق، ص 33

الجواب : نعم. يجب ذلك⁵¹»

وقد استند البرلمان إلى هذه الفتوى فأصدر قراراً مماثلاً بالخلع أبلغ السلطان به ثلاثة برلمانيين اختيروا من بين لجنة أكثر اتساعاً⁵² وشاهد الناس في العاصمة بعد ذلك وفي اليوم نفسه «عشرات من عربات السراي تقلّ مئات الغانيات من قصر يلدز إلى جهة لم نعرفها حينئذ. وكانت مظاهر الحيرة بادية في ابتساماتهنّ ونظراتهنّ وحركاتهنّ وكنّ كأنهنّ في جهل تام بكل ما جرى. أمّا السلطان فلم نره ولعلّه نقل في الليل»⁵³

نصّب الخليفة الجديد، محمد رشاد (محمد الخامس 1844-1918) ولسوف يكون بحق «خليفة يملك ولا يحكم». وقد ساعده ماضيه على استبطان مثل هذا الدور فلقد «قضى سجيناً في أحد قصور إسطنبول أكثر من ثلاثين سنة لا يعرف عن أمور العالم شيئاً ولا يكثر بشيء، غير ما أحيط به من أسباب التسلية واللهو والنسيان»⁵⁴.

والحقيقة أنّه لا يوجد أفضل من نصّ الخطاب الهمايوني الذي تلي في الباب العالي (21 أبريل 1909) دليلاً على تغيير الموازين في السلطنة بين الخليفة والحزب الجديد الواحد الحاكم. وهذا هو نصّ الخطاب : «وزيرى سمير المعالي توفيق باشا، بناء على خلع أخى السلطان عبد الحميد خان الثانى من مقام الخلافة والسلطنة بموجب القرار المتخذ بالإجماع فى المجلس العمومى بصفته الملية وفاقا لمشئنة تبعتنا ولأحكام الفتوى الشريفة الصادرة من جانب الشرع العالى للأسباب المعلومة لدى الجميع، جلسنا على سرير أجدادنا العظام بإرادة مالك الملك الأزلية وبموجب أحكام قانوننا الأساسى وإجماع الملة العثمانية بأسرها. ونظرا لحميميتكم وبعد نظركم البارزين بعد سابق التجربة وجهنا إليكم، إبقاء وتجديدا، مسند الصدارة وإلى ضياء الدين أفندي مسند المشيخة الإسلامية وصدّقنا تعيين هيئة الوكلاء التي اخترتموها بمقتضى القانون الأساسى وعرضتموها علينا كما أبقينا سائر الموظّفين في وظائفهم. ولما كان جلّ آمالي ومقاصدي أن تكون تبعتنا بجميع صنوفها وبدون أيّ استثناء، حائزة الحرية والعدالة والمساواة وأن تطبّق الأحكام الشرعية والقانونية تماما وتؤيّد شوكة

51 يوسف الحكيم . — سوريا في العهد العثماني، ص 168

52 رأس هذه الهيئة عارف حكمت باشا وكان من أعضائها أسعد تورتباني باشا وغالب باشا وقره صو (وقره يعني

الأسود وهو لقب موجود في تونس يكتب قاره)

53 أسعد داعر . — مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص 33

54 أسعد داغر، المصدر السابق، الصفحة نفسها

دولتنا ومكانتها وتؤمّن الوسائل التي توصلها إلى ما يتفق مع استعدادها الماديّ والمعنويّ من مراتب الرقيّ والكمال وكان قانوننا الأساسيّ كفيلا بتنفيذ ما صمّمنا عليه في هذا الشأن يعون الله سبحانه وتعالى، لذلك وبعد الاتكال على توفيقاته الصمدانيّة والعمل بأحكام قانوننا الأساسيّ أضع كامل ثقتي بكم واعتمادي على مساعيكم لتحقيق أقصى آمالنا السالفة الذكر ومعاونة جميع الوكلاء ومجلسنا العموميّ المّليّ وجميع الموظفين.

ولما كانت الفوضى التي ظهرت في بعض الأنحاء قد أوجبت تأسفاتنا الجديّة فإن من أهمّ الأمور الواجب اتخاذها، دوام الهدوء والاستقرار وإزالة آثار كلّ خلاف بين صفوف التبعة واتخاذ التدابير اللازمة لمنع وقوع الحوادث الأليمة بصورة قاطعة قبل كلّ شيء، وأخصّ أمانينا هي أن تقدّر الأقوام المختلفة ضرورة معاملة بعضها البعض كأبناء وطن واحد فتفيد جميعها بدون استثناء من نعمة الحرّية والعدالة والمساواة وأن توضع القوانين والأنظمة التي تكفل حصول قوّاتنا البريّة والبحريّة على كلّ ما يرفع شأنها وتنظيم أمور العدليّة والماليّة وتعميم التربيّة والتعليم والإكثار من شؤون النافعة (يقصد الأشغال العامّة) والتجارة والزراعة والصناعة وفق الترقّيات العصريّة وإبراز المآثر الجديّة لكلّ ما يتطلب تشريعا جديدا في هذا الشأن وفاقا لقانوننا الأساسيّ واحتياجاتنا الحقيقيّة المشروعة. ولما كانت أحكام المعاهدات المعقودة مع الدول المتحابّة مؤيدة بكاملها من قبلنا فنؤمّل حسن رعايتها والسعي لتأكيد الحبّ والصفاء بين دولتنا وجميع الدول.

أتمّ الله تعالى بتوفيقاته السبحانيّة مساعي الجميع آمين.

15 ربيع الآخر 1327 . محمّد رشاد⁵⁵

هذا الخطاب على غاية من الأهميّة لأنّه يبيّن كيف جعل الاتحاديّون من الخليفة ملكا يملك ولا يحكم ولأنّه يتضمّن سياسة العثمانيّين الاتحاديّين الخارجيّة والداخليّة. ويدلّ ذكر مبادئ «الحرّية والعدالة والمساواة» أكثر من مرّة على انتصار الشدياقية والمدحتيّة، ولو إلى فترة قصيرة، على النظرة التقليديّة إلى العلاقات الاجتماعيّة. ولسوف يعلّق يوسف الحكيم على ما صار إليه الأمر في هذه الفترة القصيرة فيكتب : «وظهر لجميع الناس أنه لا فرق في المعاملات وإسناد الوظائف والحقوق والواجبات بين تركيّ وعربيّ وكرديّ وأرمنيّ وروميّ،

ومكدونيّ وألبانيّ ولا بين مسلم ومسيحيّ ويهوديّ. فكلّهم عثمانيّ ولم يبق من حاجة لترديد شعارات الحرية والعدالة والمساواة فقد ضمن ذلك الدستور الجديد»⁵⁶

ولقد سعى العثمانيّون الاتحاديّون بعد أن أصبحوا صنعة القرار في السلطنة إلى تصفية الأوضاع الخارجيّة والداخلية حتى يتفرّغوا لمشروعهم التغييري الطموح فعقدوا صلحا مع كل من بلغاريا والنمسا - المجر : « لم يكن في وسع الدولة العثمانية ، بعد أن تعرّضت في داخل بلادها إلى الحركة الارتجاعية وخلع السلطان عبد الحميد وإجلاس أخيه محمد رشاد على العرش ، سوى الاعتراف في نيسان 1909 بالأمر الواقع لكل من بلغاريا والنمسا فكان هذا الاعتراف دليلا على تقدير القائمين على الحكم للواقع السياسيّ وانصرافهم إلى ضمان نتيجة الانقلاب من كلّ تدخّل خارجيّ أو ارتجاع داخليّ ، توصلا للاستقرار في العهد الدستوريّ الجديد لذلك نال أولياء الأمر في العاصمة بتصرّفهم السياسيّ على الوجه المذكور استحسان جميع الطبقات وإعجاب رجال السياسة على اختلاف نزعاتهم»⁵⁷

أمّا على المستوى الداخلي فقد سلكوا سياسة صارمة تتمثّل في السعي إلى استئصال الحميديين ومقاومة القوى القوميّة النابذة :

« على إثر فشل المؤامرة الارمنية (...) أدرك رجال السلطان عبد الحميد مغبّة الأمر فأسرع الحكيمة منهم إلى اتخاذ التدابير اللازمة بالسرعة التي توفّرت لديهم وكان من هؤلاء عزّة باشا العابد الدمشقي ، ثاني أمناء سرّ المابيين الهمايوني⁵⁸ فقد تمكّن من ركوب باخرة بريطانية قبلت اعتباره لاجئا سياسيا. وفي إثر خلع السلطان المشار إليه واعتقال كبار رجاله والقضاء على حياة بعضهم في الشوارع طلب ذوو الشأن من الباخرة البريطانية ، حين وصولها إلى مضيق الدردنيل ، تسليمهم عزّة باشا ، فلم يظفروا بطائل بفضل مبدأ اللجوء السياسيّ بالإضافة إلى الامتيازات الأجنبية التي كانت مرعية في الدولة العثمانية حتى ذلك التاريخ. وقد سافر سليم باشا ملحمة ، وزير المعادن و الحراج إلى أوروبا دون أن يكون موضوع ملاحقة من رجال الانقلاب بخلاف أخيه نجيب باشا ، الذي أحرز رتبة الوزارة بعد نجاحه فيما

⁵⁶ يوسف الحكيم . - المصدر نفسه ، ص 176 . ولمعارضة فكرة المساواة سيطالب العروبيون الاسلاميون (محمد

رشيد رضا) باقتسام السلطة بين "العصرين الكبيرين" في السلطنة أي بين المسلمين العرب و "الترك"

⁵⁷ يوسف الحكيم . - سوريا في العهد العثماني ، صص 172-173

⁵⁸ لى يرر اسم أحمد عزّت العابد بعد ذلك إلا بداية من 1913 بمناسبة انعقاد "المؤتمر العربي بباريس" وسنة 1921

عماشة انعقاد المؤتمر السوري الفلسطيني

عهد إليه من التحقيق في مؤامرة لاغتيال السلطان عبد الحميد قبل عدّة سنين اعتقل من أجلها كثيرون ممّن وضعت الشبهة عليهم وبينهم عدد غير قليل من الأرمن.⁵⁹ فلمّا وقع الانقلاب كان في طليعة المنقوم عليهم ولكنّه تمكّن من الفرار أسوة بعزّة باشا العابد. لم يلجأ الشيخ أبو الهدى أفندي، السوري الممدود في مقدّمة العلماء المقربين من السلطان عبد الحميد إلى مغادرة العاصمة، بل لزم بيته اعتماداً على مكانته العلميّة والدينيّة، ولم يسلم مع ذلك من الاعتقال شهراً من الزمن، ثمّ تركت له حرّيته⁶⁰ أمّا شفيق باشا الكوراني، الحلبي، ناظر الضبطيّة (يقصد هذه الإدارة التي يقوم عليها وزير أو ناظر وهي إدارة الأمن العام الداخلي أي المخابرات) السابق فقد لزم بيته دون أن تتعرّض كرامته لأذية ما، بفضل ما كان يتمتع به من شهرة النزاهة الثابتة بعدم إحرازه أية ثروة ماديّة، رغم أهميّة المناصب العالية التي عهد بها إليه وقام بمقتضاها خير قيام⁶¹ ومن هذا القبيل سلامة كلّ من إحسان بك الجابري واسماعيل حقي بك الكردي، من كتبة المابيين الهمايوني، من كلّ تعرّض لحرّيتهما بفضل سلامتهما من كلّ شائبة⁶².

إنّ المرء ليعجب لعدد العرب المحافظين الذين خدموا سياسة عبد الحميد والذين قاومهم عرب آخرون مثل البغدادي محمود شوكتي والدمشقي، عبيد الرحمن الشهبندر والحلبي ساطع الحصري. ولعلّ هذه الكثرة هي التي تفسّر شدّة لهجّة بعض الصحف إذاك في مهاجمة العرب الحميديّين :

« إن بعض الصحف الناقمة على ذوي النفوذ من العرب في العهد الحميدي لم تقتصر حملاتها بعد زواله على أشخاصهم وأعمالهم بل أضافت إلى ذلك ذكر جنسيتهم العربيّة عبارة « بيس عرب »، « بيس عزّت » وكلمة « بيس » تركيّة معناها قدر وكان باعته ينادون بأعلى أصواتهم بهذه العبارة ممّا أوجب اشمئزاز العرب المقيمين في العاصمة من

⁵⁹ كان لنجيب العازوري علاقة بالأخوين ملحمة

⁶⁰ نفس سلوك العثمانيين الاتحاديين إزاء أبي الهدى بمنحاه الإسلامي. ولقد كان الإسلاميون خدمة للدولة زمن عبد الحميد وزمن الاتحاديين كما سبق أن بيّنا بالنسبة إلى الأمير شكيب أرسلان وكما سيبيّن بالنسبة إلى صالح الشريف الترنسي

⁶¹ يلاحظ القاريّ بعض المقاييس التي قيّم بها الانقلابيون سلوك المسؤولين في العصر الحميدي ومنهاتظافة اليد والاكتفاء بتطبيق القانون، على جوره، أي رفض المسؤول أن يكون " ملكاً أكثر من الملك " أو أن يعرق في الرطحيّة

⁶² يوسف الحكيم. — سوريا في العهد العثماني، ص 171

وجهاء وأدباء وموظفين وخرّيجي المعاهد العاليّة (فمنع على) الصحف وباعتها إيراد كلمة عرب في الصدد المشكّو منه وفي كلّ تشهير من هذا القبيل»⁶³

إن يوسف الحكيم، وهو عربيّ مسيحيّ أرثوذكسيّ تحدّث كما يدلّ الشاهد عن مسألة «إهانة الترك العرب» سنة 1909 مستعملاً عبارة «بعض الصحف» ثم حصر العرب في «ذوي النفوذ (منهم) في العهد الحميديّ» فكان بذلك أقرب إلى التعبير عن الحقيقة لما رأينا من مقاومة هؤلاء للدستور. ولكنه يعسر على المرء أن يجد كثيراً من الشوام أخلصوا للحقيقة وللتاريخ فلم يعمدوا إلى التعميم وبذلك حوّلوا هذه الحادثة المنعزلة إلى سبب من أسباب «القطيعة»، ومنذ هذه الفترة المبكرة، بين العرب جميعهم والترك جميعهم وما ذلك في نظرنا، إلا تغطيةً منهم على الأسباب الحقيقيّة للنزاع اللاحق : وهو هزيمة التّيار الصباحيّ الائتلافيّ المحافظ الذي انخرط فيه العروبيون الإسلاميون وهو تيار معاد للعثمانيين الإتحاديّين من العرب والترك وموال لبريطانيا. ولقد «غدرت» هذه بهم فيما بعد فلم يجدوا ولم يجد أحفادهم، دفعا لنوع من "الشعور بالذنب" غير وسيلة واحدة لإجلاء هذا الشعور وهي الادعاء الباطل بأن سياسة العثمانيين الإتحاديّين (وفيههم عدد كبير ونافذ الرأي من العرب) كانت منذ 1909 سياسة قوميّة تركيّة بل «طورانيّة»

لقد تمكّن العثمانيّون الإتحاديّون، إذن، في ربيع 1909 من الفتّ من عضد الحميديّين فقتل البعض منهم وهاجر البعض الآخر ومن كان من الإسلاميين حميديّاً ولم يتورّط بشكل فاضح في أحداث مارس أبريل 1909 نقل ولاءه إلى السلطة الجديدة معللاً موقفه بأنّ الأهمّ (الحفاظ على وحدة الخلافة) يفضل المهمّ (الولاء لهذه السلطة المسلمة التي تطبّق الشرع حرفياً) ولكنّ الإتحاديّين لم يتمكّنوا، فيما يتّصل بالعثمانيين الائتلافيّين وببقية التيارات المعارضة، من تحقيق نتائج ماثلة وذلك لأسباب ثلاثة : أولها أن للعثمانيين الائتلافيّين، منذ مصطفى فاضل وتأسيس جمعيّة العثمانيين الأحرار، ماضياً نضالياً ضدّ عهد الحميد خاصّة وثانيهما أن المواقع الاجتماعيّة لرموز العثمانيّة الائتلافيّة كانت راسخة في مجتمع مازال تقليديّاً إلى حدّ كبير وثالثها أن العثمانيين الائتلافيّين كانوا معادين لنمط التطوّر الانقلابيّ كارهين للمركزيّة داعين إلى انفتاح اقتصاديّ لا حدود له وإلى خلافة دستوريّة يمجّدون بريطانيا وهذه تدعمهم. ولكلّ هذه الأسباب يصعب على المرء أن يجد قوّة نابذة لا تتخفى وراء ادعاء الانتماء إلى العثمانيّة الائتلافيّة فحتّى القوميّة اليهوديّة

⁶³ يوسف الحكيم. — سوريا في العهد العثماني، ص 173

ستتمكن سنة 1913 من حضور مؤتمر باريس بصفة «ملاحظ» بواسطة حزب اللامركزية العثماني في القاهرة. وسوف يتورط كثير من العثمانيين الائتلافيين، لشدة محافظتهم وخوفهم من العثمانيين الاتحاديين في التمرد المضاد سنة 1909 فيتعرضون لامتحان شديد بل إن بعض المصادر والمراجع تردّ هذا التمرد نفسه إلى حادثة اغتيال أحد الائتلافيين وهو «حسن فهمي الذي اغتيل في 7 أبريل عام 1909 (وهو محرّر بإحدى صحف الأحرار عند كوبري غلطة في اسطنبول. ولما كان من المعتقد أن رجال الاتحاد والترقي هم وراء حادث الاغتيال هذا فقد وجّه إليهم نقد عنيف»⁶⁴ ومن لم يتورط منهم علنا في هذه الثورة المضادة فقد نشط صحفياً وسياسياً في مقاومة العثمانيين الاتحاديين أمثال طاهر الدين التونسي (1872-1937) وأخويه محمد خير الدين والداماد صالح خير الدين الذين تربّوا في الحجر الحميديّ وصاهر بعضهم العائلة المالكة فلقد دفع الشعور بالعداء للاتحاديين طاهر إلى أن يؤسّس بالاشتراك مع مجموعة ضيقة من المثقفين (...) على التوالي جريدة «إقدام» و«شهره» اللتين كان يكتب فيهما بانتظام المقالات الأساسية⁶⁵

كانت الثمانية أشهر المتبقية من ثرية بالأحداث الحاسمة ومن أهمها، في نظرنا، خروج حزب «الاتحاد والترقي» من السرية مع إبقاء مقرّه في سالونيك ومنع نشاط بقية الأحزاب والجمعيات السياسية. لقد كان الحزب الواحد الحاكم يودّ التفرّغ للبناء الداخلي وكان يرى أنّه، لدوره الإنقاذي، المالك الوحيد للحقيقة وللتصوّر الأفضل لما يجب أن يكون عليه المجتمع العثماني، ورغم أن الصدارة العظمى انتقلت إلى حسين باشا حلمي (1909 - 1911) فإنّ الانطباع الأوّل الذي بدأ يعمّ هو انتقال مقاليد الحكم إلى «أوباش سالونيك» أي إلى هذه الطبقة المتوسطة فما دونها. لقد كان العثمانيون الاتحاديون، وهم يستولون على الحكم «مجبرين لا إبطالا» ولكنهم كانوا وهم يفرضون الحزب الواحد يكرّرون، وإن استنادا إلى فكرة «الترقي الوضعية»، سياسة عبد الحميد فيما يتّصل بعلاقة الدولة بالمجتمع إذ أنّ كلا من السياستين كانت تريد «قيادة الناس إلى الجئة بالسلاسل». وكثير من الناس يفرضون مثل هذه السياسة، بغضّ النظر عن مضمون الجئة، سواء كان أرضياً أو أخروياً. فخطأ العثمانيين الاتحاديّين، من وجهة نظر هذه الدراسة (وهنا يظهر

⁶⁴ حرّاز. — الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، ص 69 ولقد كانت عمليات الاغتيال متبادلة فلقد قتل العثمانيون

الائتلافيون عمداً أرسلان، أحاً شكيب أرسلان وكان نائباً عن اللادقية في البرلمان

⁶⁵ Sadok Zmerli. - Figures tunisiennes. Les successeurs. - Tunis, 1967, p. 131

فقر الدراسات مقارنة بالواقع إذ لا يملك صناعة القرار في أغلب الأحيان البعد التاريخي الذي يمكنهم من نظرة واضحة إلى الأحداث وإلى مدى تعقدها) هو أنهم كانوا يقولون على المستوى الميتافيزيقي بارتقاء العلاقة بين الله والطبيعة وكانوا يقولون على مستوى علاقة الدولة بالمجتمع بضرورة ذوبان المجتمع في الدولة. وسوف تراث عنهم الأنظمة العربية الأكثر إغراقا في الحداثة هذا التناقض القاتل. هل كان يمكن للعثمانيين الاتحاديين، عمليا أي سياسيا لا فلسفيا، أن يسلكوا غير هذا المسلك ؟ نحن لا نعتقد ذلك، إذ كان خصومهم العثمانيون الائتلافيون يدعون إلى اللامركزية في سلطنة ما من قوة نابذة فيها تخلت عن رغبتها الانفصالية، أظهرت ذلك أم لم تظهره. ولذلك يبدو لنا أن ثورة مارس أبريل 1909 لم تكن غير تكرار أشد تعقيدا لردود الفعل على التنظيمات الأولى وعلامة على بداية انهيار كيان تقليدي متعدد الأجناس في عالم متجه في شبه حتمية نحو الفكرة القومية أي أن حكم العثمانيين الاتحاديين بين 1909 و1918 لم يكن إلا محاولة يائسة للحيلولة دون تحقق قانون « شبه طبيعي ». فمن يلقي نظرة على ميزانية الدولة زمن عبد الحميد وميزانية الدولة زمن العثمانيين الاتحاديين التي يوضحها الجدول التالي :

إيرادات الخزانة العثمانية للسنة المالية 1910 - 1911 : 27 مليون ليرة تتوزع على النحو التالي	
تسديد الديون الحكومية	8.200
الإنفاق على الجيش والحرس السلطاني	17.800 (50.28 %)
بقية المؤسسات (معارف فلاحية...)	3.100

يتبين بسهولة امتداد احتضار «الرجل المريض» (أي الشيخ عند الشدياق) في الزمن فلا يستغرب عند ذلك تكاثر حركات التمرد في البلقان شمالا وفي اليمن ومتصرفيه حوران واستفاقة الوهابية... خاصة أن كل هذه الحركات كانت تحظى بدعم بريطانيا، القوة الأعظم حتى الحرب العالمية الثانية. ولا يستغرب كذلك نمو معارضة داخلية أكثر راديكالية من معارضة العثمانية الأرستقراطية الفاضلية والصباحية التقليدية. فمنذ جويلية 1910 قام أحد ضباط الحرس بمحاولة انقلابية ذات لون ارتجاعي وفي سنة 1911 شهد الحزب الحاكم نفسه انقساماً خطيرا في يساره ويمينه على حد سواء. ففي يساره تأسس «حزب الترقى» الذي يعتمد برنامجا غير بعيد عن برنامج الحزب الحاكم أما يمينه فقد تأسس «الحزب الجديد» برئاسة الكولونيل صادق وعبد العزيز مجدي باي. وقد لخص هذا الحزب الجديد نقده لنهج العثمانيين الاتحاديين السياسي والثقافي في عشر نقاط أعلن عنها في 28 أبريل

1911 تطالب بوجوب المحافظة على ما نصّ عليه الدستور وعلى الشريعة والتقاليد العثمانية والإبقاء على سلطة الخليفة وحقوق الخلافة. وسوف تنمو هذه المعارضة المحافظة وتزيد من ضغطها على العثمانيين الاتحاديّين فلا يتمكّنون من أن يمنعوا شيخ الإسلام من إصدار فتوى في أبريل 1911 تحرم على المسلمين التزيّي بالزيّ الأوربيّ.

هذا الضغط الداخليّ على العثمانيين الاتحاديّين اقترن بضغط عالميّ شديد عليهم إذ لم تكن بريطانيا وفرنسا وروسيا هي القوى الوحيدة التي تتنافس من أجل اقتسام السلطنة بل انضاف إليها «الذئب» الإيطاليّ الضعيف والجائع الذي كان يطمح إلى اقتطاع جزء من جسد السلطنة، جزء لا يستعصي على أضراره القرشية الناشئة ويكون في الآن نفسه بعيدا عن منطقة تنافس القوى العظمى الأقوى منه ولذلك ركّز اهتمامه على عهد جيوليتي «وزير حكومة اللصوص»⁶⁶ على ليبيا الحالية خاصة أي على المنطقة الواقعة بين مصر البريطانية وشمال إفريقيا الفرنسية فشنّ عليها في أكتوبر 1911 هجوما شرسا. وفي بلاد البلقان كانت صوفيا وبلغراد وأثينا تتأهب بدورها لطرد العثمانيين من البلقان، جناح السلطنة الشمالي.

أحسّ العثمانيّون الاتحاديّون الذين بقوا على النهج الرضاوي بالخطرين الداخلي والخارجي المتزايدين ف عقدوا مؤتمرا سريّا توحيدا في سالونيك في أوت - سبتمبر 1911 لمناقشة المسائل الخلافيّة فكان مؤتمرا ساخنا زاد من حدّته الغزو الإيطاليّ لليبيا. وقد أصبح من الواضح أنّ موازين القوى (حتّى العسكرية منها) لم تعد لصالح العثمانيين الاتحاديّين. وبينما كان العثمانيّون الاتحاديّون يجتهدون، بدعم من الإسلاميين، في صدّ الهجوم الإيطاليّ أعلن الداماد فريد في 12 نوفمبر 1911 عن تكوين حزب جديد خارج الكتلة البرلمانية الاتحادية هو حزب «الحرية والائتلاف» الذي يعدّ امتدادا للتيار الفاضلي الصباحي اللامركزي فتجمّعت فيه كل القوى المعادية للعثمانيين الإتحاديّين. وعندما أجريت في 11 ديسمبر 1911 انتخابات برلمانية جزئية فاز فيها مرشّح العثمانيين الائتلافيّين طاهر خير الدين التونسي اعتبر الائتلافيّون هذا الفوز حدثا دالّا على يقين فوزهم في كلّ عملية انتخاب

⁶⁶ « Il ministro della malavita » وهو عنوان كتاب الاستاذ الاشتراكي غايتانو سالفيميني (1873-1958)

في جوليبي وعصره (1901-1914) نشره سنة 1909 انظر - P. Guichonnet . - Histoire de l'Italie 1: La monarchie libérale

1870-1922).- Paris, 1969.- p 103.

غير مزيّفة وأرسل الصدر الأعظم الأسبق كامل باشا الذي تعرّضنا له عندما تحدّثنا عن عبد الحميد برسالة إلى السلطان محمد رشاد يحمّل فيها العثمانيين الاتحاديّين مسؤوليّة كلّ ما كان يحدث في السلطنة ويطالب باستقالتهم. ولقد عمد الاتحاديّون إزاء هذا الوضع إلى حلّ البرلمان في جانفي 1912 وبدأوا يحضّرون لانتخابات عقدوا العزم على ألاّ ينجح فيها من الائتلافيّين غير عدد ضئيل. وفعلا فقد أسفرت انتخابات أفريل 1912 عن انتخاب ستّة نوّاب عن المعارضة في برلمان ضمّ 275 نائبا. تسبّب تزيف الانتخابات في ردود فعل شديدة عند العثمانيّين الائتلافيّين فقد وجّه « ضبّاط الإنقاذ » في البلقان في ماي 1912 تحذيرا للاتحاديّين وطلبوا بحلّ البرلمان المزيف وشجع هذا الموقف العسكري المدنيّين الائتلافيّين فنظّموا المظاهرات في جوان 1912 ومنها مظاهرات يذكر عزة دروزة أنّه شارك فيها. لقد حاول العثمانيّون الاتحاديّون أن يتصدوا للأوضاع الجديدة فترة من الزمن ولكن تهديد الجيش في البلقان بالتمرد دفعهم إلى الاستسلام فاستقالت حكومتهم في أوت 1912 لتخلفها حكومة ائتلافية شغل الصدارة العظمى فيها كامل باشا « الإنكليزي » والداخلية رشيد بك والحربية ناظم باشا وكان الأمير الای صادق والأستاذ حسن صبري أفندي من أعضائها وبذلك عاد كامل باشا الذي خدم السلطان عبد الحميد مدة طويلة وتولى كذلك الصدارة العظمى أكثر من مرة قبل قيام التمرد المضاد سنة 1909 إلى الحكم. سر الائتلافيّون في الداخل وبريطانيا في الخارج أيما سرور لمدة ستّة أشهر وخذل الاتحاديّون الذين انصرفوا إلى ليبيا يحاربون إيطاليا (أنور باشا ومصطفى كمال وعزيز علي المصري وشكيب أرسلان) يباركهم شباب متحمس للعثمانية الاتحادية وفد عليهم من مصر ومن الشمال الإفريقي (عبد الرحمن عزام مثلا)⁶⁷.

ولكن الظروف التي قامت فيها الوزارة الائتلافية كانت ظروفًا لا تسمح باستمرارها طويلا فتشتت الآراء داخل السلطنة والهزائم المتعاقبة في شمال إفريقيا وفي البلقان ذهبا بآمال أغلب العثمانيين فيها. وبعد أن أمضت هذه الوزارة صلحا مع إيطاليا حتى تنفّرج لحرب الحلفاء البلقانيين اضطرتها الهزائم في الجناح الشمالي من السلطنة إلى أن تمضي مع البلقانيين هدنة وبدأت، بإشراف القوى العظمى، مفاوضات معهم. كانت مطالب البلقانيين أن تتخلّى السلطنة عن كل ممتلكاتها في أوروبا باستثناء القسطنطينية وانفردت بلغاريا

⁶⁷ ولد بالجيزة سنة 1893 أول أمين عام لجماعة الدول العربية (الموسوعة العربية الميسرة، ج2)

بالمطالبة، إضافة إلى ذلك، باستسلام اندرينوبل الفوري وكانت هذه المدينة، على الرغم من الحصار الذي ضرب حولها، ما زالت تبدي مقاومة مستميتة.

إنّ الشبه بين ما حدث للسلطنة في الحرب العثمانية البلقانية وما سيحدث لتركيا سنة 1920 عندما سمع الأتراك بقرارات مؤتمر سيفر الذي لم يبق لهم على غير 175.000 ميل مربع في قلب الأناضول المتخلف وبأن الخليفة محمد السادس (1861 - 1926) أذن لممثليه، وهم بالذات من بقايا العثمانيين الائتلافيين، بأن يمضوا على هذه القرارات يسترعي الانتباه: فلقد أصيبوا بالذعر عندما سمعوا، في الحالتين، أنهم طردوا طردا نهائيا من أوروبا، موطن الكثيرين منهم ومن قادتهم أمثال مصطفى كمال وليد سلونيك ومحمد طلعت وليد أدنة وأحمد جمال وليد لسبوس Lesbos إحدى جزر البحر الإيجي Mer Egée وأصبحوا يتلهفون إلى ظهور «منقذ» ولقد وجدوا ذلك المنقذ في العثمانيين الاتحاديين (أنور سنة 1913 وعدوه اللدود مصطفى كمال سنة 1920) الذين تحوّلوا بعد طردهم من الحكم إلى طرابلس لمقاومة الطليان ثم تحوّلوا بعد عقد الصلح إلى البلقان لمقاومة البلقانيين ممّا أحاطهم وأحاط الإسلاميين أنصارهم بهالة ليس بإمكان هالة الحكومة العثمانية الائتلافية المستسلمة أن لا تظهر باهتة إزاءها.

عاد العثمانيون الاتحاديون إلى الآستانة وعقدوا اجتماعا قرّروا فيه الوثوب على حكومة الصدر الأعظم كامل باشا «الأنكليزي» وقد تمكّنوا، فعلا، في جانفي 1913، من القيام بانقلاب أطاح بالحكومة الائتلافية فألف الاتحاديون الوزارة الاتحادية التالية: صدر أعظم محمود شوكت البغدادي قائد الجيشين الثاني والثالث اللذين تمرّدا سنة 1908.

وزير الدفاع: محمد أنور

وزير الداخلية: محمد طلعت

وسيكلف أحمد جمال باستئصال شأفة العثمانيين الائتلافيين في العاصمة

روى «بنوا ميشين» الذي لا يخفي عداوته للعثمانيين الإتحاديين، وإن كان يستثني من ذلك مصطفى كمال بأسلوب روائي عن إسناد وزارة الدفاع إلى محمد أنور مستندا إلى ما كتب الجنرال الألماني ليمان فون ساندس Liman von Sanders «كان السلطان ذات صباح يتصفّح في جناحه إحدى الصحف. وفجأة ترك الصحيفة تسقط من يديه والتفت نحو الضابط القائم على خدمته صائحا:

إنني أقرأ هنا أن أنور أصبح وزيرا للدفاع. هذا مستحيل. إن أنور مازال بعد شاباً بالنسبة إلى مثل هذا المنصب»⁶⁸.

من السهل على المرء أن يتصور السياسة الخارجية والداخلية التي سيسلكها العثمانيون الاتحاديون بداية من جانفي 1913 كما أنه من السهل عليه أن يتصور السياسة المضادة التي سيسلكها خصومهم إزاءهم : فعلى مستوى السياسة الداخلية ظهر الائتلافيون في العين الاتحادية بمثابة الخطر الداخلي على السلطنة بتوقيعهم شروط الاستسلام⁶⁹ فاجتهدوا في اقتلاع هذا التيار بالسيف مثلما فعلوا بالحميديين في أفريل 1909. ولسوف يبرز اسم أحمد جمال الآن كما برز سنة 1909 في عملية التنكيل هذه فيلقبه الائتلافيون و منهم العربويون الإسلاميون والقوميون اللبنانيون، بـ «السفاح». ولقد وصف العربي الإسلامي الائتلافي محمد رشيد رضا سلوك أحمد جمال على النحو التالي :

« نكل بخصومهم الائتلافيين في العاصمة ذلك التنكيل القطيع»⁷⁰

على أن هذا السلوك لم يكن سلوكا فرديا بل كان سياسة تبناها العثمانيون الاتحاديون ضد العثمانيين الائتلافيين :

« ثم أدل لهم من خصومهم الائتلافيين في عاصمة الملك فنكلوا بهم شر تنكيل ولم ينج من زعماء هؤلاء الخصوم إلا من فر متكررا إلى أوروبا أو مصر (ومنهم أمير الآلاي صادق بك والأستاذ حسن صبري أفندي ورشيد بك ناظر الداخلية) وكان ذلك كله في أثناء حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة العثمانية حتى كادت دولة البلغار الجديدة تأخذ القسطنطينية منها عنوة»⁷¹.

⁶⁸ Benoit - Méchin-Mustapha kemal ou la mort d'un Empire. - Paris, Liman von Sanders نقلا عن

1991. P 127

وقد كان هذا الجنرال الألماني قد حل بالأساتذة في ديسمبر 1913 تطبقا للاتفاقيات السرية الألمانية العثمانية وقد عمل معه أمير سعيد صاحب كتاب " الثورة العربية الكبرى أو مأساة الشريف حسين" ولذلك يرى عزة دروزة الائتلافي يندر من أمير سعيد العثماني الاتحادي

⁶⁹ ببا في الفصل الثاني من القسم الثاني الحلاف بين الشقين العثمانيين حول الموقف من أوروبا

⁷⁰ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 216

⁷¹ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 215

لقد كان من فرّ « متنكراً » إلى أوروبا أو مصر، مركزي العداء للاتحاديين، محظوظا إذ لم يسعف الحظ وزير الحربية الائتلافي ناظم باشا فقتل وكان يمكن للصدر الأعظم العجوز كامل باشا أن يلقي المصير نفسه لولا التدخل البريطاني القوي.

لم تحاشى العثمانيون الاتحاديون سنة 1913 «التنكيل» بعدد من الشوام الائتلافيين الذين خذلوهم؟ نحن لا نشك أن سلوكهم هذا أملت الخشية من تنفير مزيد من الشوام منهم في وقت عصيب مثل هذا الذي سبق الحرب الكبرى. كان العثمانيون الاتحاديون يسلكون في الداخل سياسة قمع كل الحركات التي رأوا فيها خطرا على السلطنة أما في الخارج فقد اعتمدوا سياسة المقاومة والاستماتة في الدفاع عن ممتلكات السلطنة في البلقان. وقد حدث أمر هام على هذا المستوى الخارجي خفف من الخناق المضروب عليهم فالدول البلقانية التي اتحدت في البداية للتغلب على الجيوش العثمانية تفرقت كلمتها عند بداية اقتسام ما ظفرت به من أراضي جديدة : وقد عين العثمانيون الاتحاديون وفدا منهم للتفاوض مع البلغاريين كان من ضمنه وزير الفلاحة سليمان البستاني. وفي هذه الأثناء، وبينما كانت القوى النابذة الشامية ممثلة في العروبية الإسلامية وفي القومية اللبنانية (بحضور صهيوني غير رسمي) تعقد مؤتمرا مشتركا في باريس اغتال العثمانيون الائتلافيون الصدر الأعظم محمود شوكت البغدادي في جوان 1913 مما تسبّب في حمام دم جديد (مثال اعتقال أبناء خير الدين التونسي الثلاثة و إعدام أصغرهم الأمير صالح).

لقد كانت الحرب الكبرى على الأبواب وكان العثمانيون الاتحاديون يخطون خطوة جديدة في مسار التفككت : خطوا الخطوة الأولى بالقضاء على الحميديين في أبريل 1909 وخطوا الخطوة الثانية بسلوك المسلك نفسه مع العثمانيين الائتلافيين في ربيع 1913 فماذا بقي للجسد السياسي العثماني بصفة عامة من قوة لمقاومة إعصار الحرب الكبرى ؟ لقد خلف سعيد حليم باشا (1913- 1916) محمود شوكت في الصدارة العظمى ولكنّه لن يتمكن، إزاء قضية موقف السلطنة من الحرب، من توحيد الصفوف فانشطر العثمانيون الاتحاديون تبعا لذلك شطرين : شطر لا يرغب في الدخول في الحرب ومن بينه الصدر الأعظم وطلعت بل جمال الذي أنكر أن يكون على علم بالحادثة التي أدت إليها (إطلاق بوارج ألمانية قيل إن السلطنة اشترتها النار على الساحل الروسي في أوديسا) ومن ضمنه كذلك جاويد بك وزير المالية ومحمود باشا جروك وزير النافعة (الأشغال العمومية) وسليمان

البستاني وزير الفلاحة الذين استقالوا من مناصبهم وشر راغب في الدخول فيها وهو أنور والمقربون منه وخاصة منهم الأمير شكيب أرسلان :

« كنت أنا عند الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم وكان عنده إبراهيم بك ناظر العدلية وغيره من رجال الدولة وكنت أرى أن الدولة لا بد أن تدخل في الحرب ولكن الأمير سعيد حليم شخصيا كان مترددا خائفا عمل هذه المسؤولية⁷² .

وإذا كان عدد من الوزراء العثمانيين الاتحاديين استقالوا رفضا منهم لمشاركة السلطنة في الحرب الكبرى فإن مشاركة كهذه سوف تنفر عددا كبيرا جدا من العرب العثمانيين الاتحاديين من حزب الاتحاد والترقي فيبدأون بالتسلل خارج المركب العثماني الاتحادي المشرف على الفرق لا ردة فعل منهم على «العنصرية الطورانية» كما تذهب إلى ذلك كثير من الدراسات التي لا تنحو نحونا في التفكير إذ لم يقع امتحان العرب بمثل ما وقع به امتحان بعض ممثلي القوى المعارضة الأخرى ومنها القنارية الإسلامية التي أبدت منذ 1904 معارضتها لسياسة العثمانيين الاتحاديين و فعلا فقد كان يوسف أقجورا معارضا للعهد الجديد بصفة واضحة منذ تمرد جويلية 1908 وحتى انقلاب جانفي 1913 على الأقل، هذا الانقلاب الذي هيمن بداية منه الثلاثي محمد طلعت ومحمد أنور وأحمد جمال على الحكم هيمنة كاملة وبدأ البعض منهم، نقصد أنور، يأخذ وإن باحتشام بآراء يوسف أقجورا في القومية التركية ردة فعل منه على ضياع طرابلس وجزء كبير من البلقان واتجاه القوى الشامية النابذة وجهة معادية للسلطنة مستعينة بخصومها.

على أن أسباب معارضة أقجورا العهد الجديد التي تنوعت مظاهرها طيلة هذه السنوات الخمس يمكن أن ترد، في نظرنا، إلى سبب واحد هو إيمان أقجورا منذ أن كتب سنة 1904 «النظم السياسية الثلاثة» بتهافت فكرتي العثمانية (بوجهيها الائتلافي والإتحادي) والإسلامية وبحتمية انتصار الفكرة القومية في القرن العشرين .

لقد عاد يوسف أقجورا بعد تمرد جويلية 1908 إلى الآستانة (ديسمبر 1908) أي في هذه الفترة الانتقالية التي مازال الصراع فيها بين الحميديين والدستوريين على أشده فبدا له، وهو الذي عاش ثورة 1905 الروسية وتجربة الدوما Douma الفاشلة، أن تمد جهوده كان تمردا منقوصا لأنه لم يحقق الغاية المرجوة منه وهي السمي إلى بحير جديري في المجتمع

⁷² شكيب أرسلان . — سيرة ذاتية، ص 124 ولقد بيا في الفصل الأول من القسم الثاني نواة تفكير شكيب أرسلان.

متر : أدوي لا يعبر القرى المادية أي اهتمام

العثماني كما أن بقاء عدد كبير من الحميديين (الصدرين سعيد وكامل) في الحكم كان يغيظ الداعية التتاري الإسلامي. هذان السببان اللذان يمكن ردهما إلى سبب واحد، دفعاه إلى أن يبقى بمعزل عن الحياة السياسية رغم أن « كل الأبواب كان يمكن أن تفتح في وجهه عند عودته من المنفى »⁷³ على حد قول صديقه أياز إسحاقى وإلى أن يفضل أن ينشط ثقافياً فأسس مع أصدقاء قدامى (ولد شلبي، نجيب عاصم...) «الجمعية التركية» (Türk Dernegi) بهدف دراسة التاريخ التركي والتعريف به وكذلك اللغة التركية (لا اللغة التركية العثمانية، لغة العثمانيين) والحالة الاجتماعية للشعوب التركية وكانت « الجمعية التركية تنشر مجلة تحمل الاسم نفسه وتسعى إلى نشر أو إعادة نشر بعض الدراسات الكلاسيكية المتعلقة بالأتراك »⁷⁴ هذا النشاط لن يلقى ترحيباً لا عند الإسلاميين ولا عند العثمانيين الائتلافيين ولا عند العثمانيين الاتحاديين فالعثمانيون الائتلافيون بدوا، في نظره، شبيهين بمن يجلس، في غفلة، فوق قنابل موقوتة . لقد تساءل عن القوة المادية التي تستند إليها الفكرة العثمانية الائتلافية فوجد أن القدر الضئيل من الاقتصاد العثماني الذي لم تطله الاحتكارات الأجنبية هو في حقيقة الأمر في أيدي القوى النابذة التي ستستقل عن السلطنة إن عاجلاً أو آجلاً. فالحل يكمن عند أقجورا لا في الفكرة العثمانية الائتلافية التي لا سند مادياً لها ولكن في ولادة طبقة رأسمالية تركية بمساعدة البورجوازية التتارية الكبيرة بشرط أن تكون هذه البورجوازية قومية أي أن تحقق الالتحام بمناطق «الظل» التركية وبأعماق المجتمع التركي الممتد من الأناضول إلى حدود الصين.

أمّا العثمانيون الاتحاديون الذين نصرهم سنة 1902 لـ « وطنيتهم » على العثمانيين الائتلافيين الذين يصل بهم الأمر إلى حد تبرير تدخل القوى العظمى في سياسة السلطنة الداخلية لضمان الحريات فقد كان في خلاف مع جماعة تركيا الفتاة حول عدة نقاط تمس السياسة التي كان هؤلاء ينتهجونها. فقد كان يؤاخذهم على المنزلة الكبيرة التي نزلوا فيها العسكريين في الحياة السياسية. لقد كان في هذه المسألة يعترض على كل تدخل للجيش في الحياة السياسية⁷⁵

⁷³ جورجون. — الأصول، ص 41

⁷⁴ جورجون. — الأصول، ص 43

⁷⁵ هذا الاتجاه أصبح من الثواتر في سياسة تركيا الحديثة فعندما عمد عدنان مندريس (1899-1961) زعيم الحزب الديمقراطي إلى استخدام الجيش في السياسة (1950-1960) قاد الحزب حمال جورسل (1895-1966)

إن الشعوب التركية تحتاج في نظره، إلى حالة تحيط بال خليفة وحده، الخليفة الدستوري، ولذلك فإن أقجورا يعتبر الخليفة، بعد أن حدث التغيير، هو المفتاح الذي بإمكانه أن يكون له من الكاريسماتية ما يشد إليه الأتراك من الأناضول إلى حدود الصين، أي أن يكون « خليفة الإسلام ومولى الأتراك » له نفوذ قوي مطابق للتقاليد التركية فلا مجال عنده، في ميدان التشريع، لاستيراد نظم تشريعية غريبة تعبّر عن روح أمم مختلفة عن الأمة التركية.

هذا الموقف الرافض للعثمانية الائتلافية وللعثمانية الاتحادية سبب صعوبة كبيرة في فهم تفكير يوسف أقجورا. ففي الدراسات العربية التي تحدثت عنه وعن جماعته يصعب على المرء أن يجد دراسة واحدة اعتمدت في الحديث عنهم على تطوّر الأحداث ومن ثم على تطوّر تفكير الأقجوريين ولذلك فهي جميعها، تصوّر هذا المفكر التتاري الإسلامي وكأنه كان منذ البداية حريا على الإسلام وعلى العرب بل نجد الكثير منها يدّعي أن العثمانيين الاتحاديين كانوا منذ 1909 آخذين بآرائه القومية (الطورانية). ونحن لا نجد تفسيراً لمثل هذا الإجماع في غير اعتماد النظرة الثنائية ومن ثم التبسيطية التي لا تعدلها نظرة أخرى في القدرة على النفاذ إلى أوسع أوساط المتعلّمين. فهناك، ومنذ البداية حسب هذه النظرة، أتراك خلّص من ناحية وهناك عرب خلّص من ناحية ثانية، فلم البحث، أبعد من ذلك، عن سبب الخصومة التي أودت بحياة السلطنة؟ مثل هذا التفكير يقود، ببساطة، إلى التركيز على منع العثمانيين الاتحاديّين سنة 1909 بعض الجمعيات العربية من النشاط السياسي والصمت المطبق عن منعهم كذلك « الجمعية التركية » التي أصدرها يوسف أقجورا عند حلوله بالآستانة فتوقفت بعد صدور سبعة أعداد منها فقط.

ما الذي دعا العثمانيين الاتحاديّين إلى مثل هذا السلوك إزاء يوسف أقجورا إن

كانوا طورانيين « رضاة » ؟

لقد نشط يوسف أقجورا بانتظام بين 1909 وأكتوبر 1911 (شهر اندلاع الحرب العثمانية الإيطالية) في مجلة « السراط المستقيم » لسان حال « الإسلاميين الأتراك » التي أسسها

الذي اشترك في معارك الدردنيل (1915) وفلسطين (1917) وفي حرب الاستقلال مع مصطفى كمال، بالإطاحة سنة 1960 بحكومة مدرس فخر كم وأعدم شقفا (1961) وقد عوّضه عصمت ينوس Inönü (1884 - 1973) في رئاسة الحكومة (1961 - 1965) في حين تولّى الحرال جمال جورسل رئاسة الجمهورية (1961 - 1966) (الموسوعة العربية المنسقة، ح 1).

عقب تمرّد 1908 الشاعر محمّد عاكف⁷⁶ ووجهها وجهة ليبرالية. وقد سبق لهذه المجلة الإسلامية أن تبنت سنة 1908 آراء الجماعة التي أسست الجمعية التركية ولن تنفصل عنها إلاّ عند اندلاع الأزمة الطرابلسية التي كانت سببا في افتراق كثير من الصغوف. فعلاقة أقجورا بـ « السراط المستقيم » لم تكن جديدة إذن بل إننا نعرّض ضمن من كانوا يكتبون فيها على أسماء كثير من المثقفين التتار الروسيين الذين سيّجّهون نتيجة تطوّر الأحداث واختلاف المواقف منها وجهات مختلفة :

- عبد الرشيد إبراهيموف وإسماعيل غاسبرينسكي أي الجماعة التي ستّجه وجهة أكثر محافظة أثناء الحرب الطرابلسية .

- يوسف أقجورا وأحمد أغايف⁷⁷ أي الجماعة التي ستّجه وجهة قومية

- أياز إسحاقوي وآخرون سيّجّهون وجهة يسارية واضحة

فهذه المجلة كانت، إذن، نقطة التقاء بين « الجديدة » (أي التيار الإسلامي والتحديثي التتاري الذي لا يشبهه في أنفتاحه أي تيار إسلامي في البلاد العربية والإسلامية) و تيارات قومية ويسارية تتارية. ليس في النظرة إلى الحياة عند المثقفين التتار في هذه الفترة ثنائية بين الدين والدنيا بل حتّى بين الإسلام والماركسية ويوسف أقجورا التتاري الإسلامي هو بعيد عن العروبي الإسلامي محمّد رشيد رضا بعد السماء عن الأرض ولذلك نرى أقجورا ينشر في هذه المجلة الإسلامية مجموعة من المقالات على غاية من الأهمية تتعلّق بالإصلاح الدينيّ وبمسائل السياسة الخارجية والمسائل الاجتماعية وكذلك... عرضا للماركسية أبدى فيه شدة تشوّقه إلى الثورة الاشتراكية الكبرى التي كانت تعتمل في صلاّيب أوربا الغربية و تراثها. لقد بدا يوسف أقجورا في كلّ هذه المقالات غاية في الروح النقدية والرايكية واستقلال التفكير وقد لاحظ عبد الله جودت (وهو أحد مؤسسي « تركيا الفتاة » سنة 1889 اتّجه وجهة ليبرالية حتّى أنّ الإسلاميين كانوا يسمّونه وجماعته « المتغريون ») :

⁷⁶ شاعر الإسلام عبد الأتراك بلا منازع عاды أسرة ثروة الفنون التي نادت بالأخذ عن العرب توفي سنة 1936

(المسوعة العربية الميسرة، ج 2)

⁷⁷ أحمد أغايف (1896-1939) أذربيجاني درس بالمعاهد الروسية وباريس ودرّس الفرنسية في قفليس وباكوت ثم انترك سنة 1905 1906 في الحركة الوطنية انتقل إلى الآستانة بعد تمرد الجيش الثالث وارتبط بيوسف أقجورا ثم أصبح عضوا في الاتحاد والترقي. فاه الأنكليز إلى مالمطة سنة 1919 وقد التحق بالحركة الكمالية ولكنه كان سنة 1930 من مؤسسي الحزب الجمهوري الليبرالي المعارض لمعظي كمال. (حورحون، الأصول، ص 30)

« أن هذه المقالات كان يمكن أن تنشر في «الاجتهاد» لسان حال المتغربين الذي كان جودت يديره والذي كان علي حدّ تعبيره هو نفسه، نقيض «السرّاط المستقيم»⁷⁸. هكّذا نرى أن التّقاء يوسف أقجورا وجماعته بإسلاميّ «السرّاط المستقيم» لم يكن «صدفة» ولا من قبيل «التسّتر» على الأفكار القوميّة. ولن يحدث الافتراق إلا بعد قيام الحرب العثمانيّة الإيطاليّة. فلقد مثّلت هذه الحرب والحرب العثمانيّة البلقانيّة التي تلتها 1912-1913 منعرجاً فكرياً وعملياً عند كثير من مثقفي الجيل الذي نحن بصددّه فبقدر ما أحسّ العروبيون الإسلاميون من قداماء المدمنين على «إسبلند يار» في القاهرة بأن «ليس عندنا اليوم وقت للاشتغال بصحاري طرابلس»⁷⁹ شرّعت جماعة السرّاط المستقيم (محمد عاكف وعبد الرشيد إبراهيموف وإسماعيل غاسبرينسكي) تماماً كما شعر غيرهم من الإسلاميين (شكيب أرسلان، صالح الشريف التونسي...) نهاية 1911 بالخطر الذي يمكن أن تتعرّض له السلطنة إن قويت التيارات القوميّة ذات الصبغة الإسلاميّة (مثل العروبيّة الإسلاميّة ومثل التتاريّة الإسلاميّة) إضافة إلى بقيّة التيارات النابذة وضعفت الرابطة الإسلاميّة والحرب على أشدها في طرابلس فتخلّلت شيئاً فشيئاً عن خطّها المنفتح البذي توخّته طيلة الفترة 1909 - 1911 فاضطرّ يوسف أقجورا وجماعته إلى الانسحاب من «السرّاط المستقيم» وبدأوا التفكير في تأسيس مجلّة كبيرة تدافع عن القضيّة القوميّة وعن خطّ اجتماعيّ تقدّميّ بعد أن حصل لهم اليقين، عملياً هذه المرّة ومن خلال تخلّي حتى العروبيّة الإسلاميّة عن طرابلس، لا عن البلقان الأوربيّة، بتهافت السياسة العثمانيّة الاتحاديّة.

سنة 1911، لا قبلها، هي السنة التي يمكن الحديث، بداية منها، عن انفصال التتاريّة الإسلاميّة عن الإسلاميّة انفصالاً تاماً ونهائياً فلقد أسس أقجورا في أوت 1911 مجلّة «البلاد التركيّة» (Türk Yurdu) التي سيكتب عنها أحد المختصّين في دراسته وهو فيزي طوغاي :

«إن من يتحدّث عن تورك يوردو إنّما يتحدّث في حقيقة الأمر عن يوسف أقجورا» ولقد أدار أقجورا هذه المجلّة فعلياً من سنة 1911 إلى سبتمبر 1917، وهو الشهر الذي غادر فيه تركيا للاهتمام بالسجناء الترك في روسيا ولقي فيه لينين، ابن بلدته، والذي

78 جورجون . — الأصول . — ص 43

79 أورد ذلك شكيب أرسلان عن رفيق العظم في : سيرة ذاتية، ص 84

انتقلت فيه كذلك إدارة المجلة إلى اللجنة المركزية لـ «الوطن التركي» (Türk Ocakı) ممثلة في الشاعر جلال سهير⁸⁰

يزعم بعض الباحثين أن مبادرة تأسيس «تورك يوردو» صدرت عن الشاعر القومي محمد أمين إلا أننا نعتز كذلك ضمن أسماء المؤسسين على أحمد أغا أوغلو (أي أحمد أغايف) وأقجورا⁸¹ وكما حدث أن قدم الإقطاعيون من جماعة الإخاء العربي العثماني مساعدات إلى عبد الغني العريسي لتأسيس «المفيد» قدم أحد البورجوازيين التتار الروس مساعدات لتأسيس المجلة القومية التركية⁸² وقد جمعت هذه المجلة النصف شهرية التي كانت تصدر في اثنتين وثلاثين صفحة عددا كبيرا من المثقفين والعلماء والصحافيين نذكر من الصنف الأول محمد أمين والروائية خالدة أديب⁸³ واسبرتلي حقي ومن الصنف الثاني كوبري زاده محمد فؤاد وبورصلي⁸⁴ محمد طاهر ومن الصنف الثالث أحمد أغا أوغلو المشهور بأحمد أغايف. وسوف ينضم إلى هؤلاء بعد سقوط سلانك سنة 1912 ضياء كوك ألب وعمر سيف الدين وعلي جانب. أما الركن الاقتصادي في المجلة فقد عهد به إلى الاشتراكي اسكندر هالفند (Alexandre Helphand) الذي اشتهر باسم (Parvus). هذا المفكر الاشتراكي صديق ليون تروتسكي اشرف على الركن الاقتصادي من سنة تأسيس المجلة إلى سنة 1914 «وكتب مقالات هامة حول طبقة المزارعين والدولة والمسائل المالية والإمبريالية. ويبدو أنه كان لـ «بارفيس» تأثير غير قليل في الطبقة المثقفة القومية التركية»⁸⁵

كانت المجلة تسعى إلى خدمة الأتراك جميعهم وقد ظهر ذلك في محتوياتها. فبعد الركن الأدبي الذي كان يخصص بصفة عامة لقصائد ذات طابع قومي يعثر المرء فيما يتصل بالقضايا الأساسية التي تهتم بها المجلة على دراسات في الاجتماع والتاريخ والاقتصاد

⁸⁰ جورجون . — الأصول . — ص 44

⁸¹ جورجون . — الأصول . — ص 44

⁸² جورجون . — الأصول . — ص 44

⁸³ أديبة شهيرة ولدت سنة 1885 ويعتبرها الأتراك نلميدة نامق كمال دعت إلى تحرير المرأة ونبذ الحرم وقد ناصرت

الحركة الكمالية وتولت وزارة المعارف ولكنها عارضت مصطفى كمال عندما أعرق في الاستبداد فهاجرت إلى خارج

تركيا مدة خمس سنوات احتجاجا على سياسته (الموسوعة العربية الميسرة، ج 1)

⁸⁴ جورجون . — الأصول . — ص 45

⁸⁵ جورجون . — الأصول . — ص 45

والتعليم... وكان كلّ عدد منها يتضمّن عموماً تراجم وأحداثاً راهنة كما يتضمّن في أغلب الأحيان عرضاً لما تنشر الصحافة التركيّة في روسيا. «أما المسائل الدينيّة فهي لا تحظى بأهميّة كبيرة»⁸⁶.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى بعض المقالات التي امتدحت جهد ساطع الحصري في ميدان تطوير التعليم لأننا نعدّ الحصري مفكراً عربّ الأقجوريّة في وجهها السياسيّ على الأقلّ. أمّا العالم التركيّ الذي تهتمّ به المجلة فهو عالم شاسع يشمل كلّ الشعوب التركيّة بداية من ياقوت سيبيريا وصولاً إلى أترك البلقان. أمّا ركننا "أخبار" و"عبر العالم التركيّ" فغالباً ما كان يكتبهما يوسف أقجورا أو أحمد أغايف فيتناولان فيهما القضايا السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة من منظور قوميّ يشمل كلّ العالم التركيّ وكأنّ غايتهم من ذلك تعويد القارئ شيئاً فشيئاً على تجاوز حدود الدولة العثمانيّة وعلى اعتبار أن الشعوب التركيّة تمثّل حقّاً عالماً خاصاً له قضاياها المميّزة وله نمط تطوّر خاصّ. إنّ غرضنا من استعراض أسماء المحرّرين وكذلك المواضيع المنشورة في "تورك يوردو" هو محاولة تحديد التكوين الفكري للنواة التي قامت عليها المجلة خاصة إذا عرفنا أنّ هيئة التحرير ستؤسس سنة 1912 مجلة أخرى هي "خلقا دغرو" (Halka Dogru) أي «نحو الشعب» من أجل التقريب بين الطبقة المثقّفة والشعب التركيّ في الريف وضواحي المدن. هذا التكوين لا نجد له شبيهاً لا عند الإسلاميين ولا عند العربويين الإسلاميين ولا عند العثمانيين سواء كانوا ائتلافيين أو اتحاديين إذ يعتبر الشعب عند هؤلاء، وإن بدرجات مختلفة، كما يسعى كلّ تيار من هذه التيارات إلى أن يشكّله كما يشكّل الطين. ولعلنا لا نجد تفكيراً قريباً من تفكير جماعة الـ «تورك يوردو» «نحو الشعب» إلّا عند شقّ من المعبرين عن القوميّة اليهوديّة الذين تأثّروا، تماماً مثل الأقجوريين، بالتفكير الاشتراكيّ والشيوعيّ في روسيا، وهو الشقّ الذي سيؤسس نهاية العشرينات حزب العمل.

يتّضح ممّا عرضنا من تفكير يوسف أقجورا ومن تفكير المحرّرين في المجلّتين القوميّتين التركيتين أنّنا بإزاء جماعة إن كانت تقول بالتتاريّة الإسلاميّة فهي لا تفصل بين مفهوم الأمّة والقوى الاجتماعيّة في أعماق الريف التركيّ المهمل ولذلك اصطبغت هذه القوميّة بما وصفنا من «الشعبيّة». لقد نشط أقجورا في ميدان القوميّة نشاطاً ثقافياً مكثّفاً ولكنّه كان يرى أن مثل هذا النشاط لن يؤتي أكله إن لم يستند إلى قوى مادّيّة وإلى فهم صحيح

⁸⁶ جرجون. — الأصول، ص 46

لاتجاه التاريخ الذي يعمل لصالح القوميات الحديثة. وتركيزه على العنصر المادي لم يكن محل إجماع الجماعة ولذلك لن تكون مواقفهم من العثمانيين الاتحاديّين موحّدة : فمنهم من سيقاوم هؤلاء فيتعرّض سنة 1913 للنفي ومنهم من سيناصرهم فيتنزّل عندهم منزلة رفيعة ومنهم من سيثبت على استقلاله الفكريّ ويحجم حتى النهاية عن الانخراط في الحزب الواحد الحاكم ومن هؤلاء يوسف أقجورا على الرغم ممّا كان يحظى به من تقدير عند بعض كبار الاتحاديّين أي عند أنور⁸⁷ بداية من توالي الهزائم في البلقان سنة 1913. كتب جورجون، الميال إلى التعميم المشطّ عن هذه المسألة :

« حدث تقارب ملموس في هذه الفترة بين مواقف يوسف أقجورا ومواقف لجنة الاتحاد والترقيّ. ففي فحصه لتقرير اللجنة السنويّ الذي قام به في أكتوبر 1913 لاحظ أنّ الأفكار التي تدافع عنها اللجنة⁸⁸ قريبة جدًا ممّا تأخذ به "التورك يوردو". ويبدو ذلك في طريقة معالجة المسألة القوميّة وفي ضرورة تبنيّ الإسلام قيم العالم المعاصر وفي الإقرار بضرورة إنشاء « اقتصاد قوميّ » بشكل عاجل .

إنّ كلّ المصادر والمراجع تؤكّد أنّ محمدًا طلعت وضيا كوك آلب كانا على عكس ما يقول جورجون من الداعين بعد ضياع بلاد البلقان إلى تكوين دولة عربيّة تركيّة مزدوجة الجنسيّة على غرار الإمبراطوريّة النمساويّة المجرية لأنّهما لم يكونا يخشيان من الشوام المسلمين خشيتهما من القوميّتين النابذتين المدعومتين دوليًا : القوميّة اللبنانيّة والقوميّة اليهوديّة. وفعلا فإن الحركة الأولى رفضت منذ تمرّد 1908 المشاركة في انتخابات البرلمان العثمانيّ لأنّ هذه المشاركة تعني عمليًا التخلّي عن "القانون الأساسي" لتصرفيّة جبل لبنان بل كان مطلبها الأساسيّ هو الاستقلال عن السلطنة استقلالًا تامًا بضمانة من القوى العظمى. وقد أسست لهذا الغرض، عقب دعوة لأنطون الجميل « جمعيّة الاتحاد اللبناني » (1909) بفرعيه القاهريّ والإسكندريّ. وقد رأس الفرع القاهريّ المحامي الماروني إسكندر عمّون (1856-1921) بين 1909 و 1917 وكان من بين أعضائه داود بركات وحبيب غانم وحيدر

⁸⁷ كان أنور اصغر الجماعة وأكثرها جرحا "طوباويا" وكان مصطفى كمال القريب منه سًا والذي يمّته يمّفت كذلك كلّ أشكال الجموح

العاظمي و"القومي" أما أحمد حمّال فكان إسلاميا إلى حدّ التعصّب ولكن على غير فهم الإسلاميين التقليديين للإسلام وبعد طلعت، وهو "أدكي" الجماعة، رحل دولة حقيقي، لا تستهويه المعامرات الفكرية ومواقف الجماعة المحظفة من الدحول في الحرب أفضل دليل على ما ذكرنا

⁸⁸ من أشهر الاتحاديّين في لجنة الاتحاد والترقي في هذه الفترة : محمد طلعت ومدحت شكري والدكتور ناظم والبهاء شاكر وضيا كوك الب والدكتور روسخي ووجود ضيا كوك الب وحده ضمن اللجنة يضعف من وجهة حكم

معلوف وبشارة واكيم وخلييل أبو اللمع وحبيب يزبك وجورج حنّا. وعندما سينضمّ إسكندر عمّون إلى أعضاء الدولة الفيصلية سنة 1918 سيّتهمه القوميّون اللبنانيون بـ « بيع النفس » للأعداء. على أن الحركة القومية اللبنانية، نظرا إلى ضخامة الشتات الماروني والرومي الكاثوليكيّ خاصة مقارنة بعدد سكّان الجبل سوف تضمّ حساسيّات مختلفة في فرنسا وفي الولايات المتّحدة الأمريكيّة (حزب النهضة برئاسة نعيم مكرزل 1867-1932) إن كانت ترفض أي شكل من أشكال الوحدة مع العروبية الإسلامية فهي تختلف في مواقفها من العلاقات بين مختلف المناطق الشاميّة. تحدّث وجيه كوثراني عن هذه الحركة في علاقتها بالعروبية الإسلامية وبقية التيارات الشاميّة زمن العثمانيين الاتحاديّين بلغة تختلف كثيرا عن اللغة المستعملة في هذه الدراسة فكتب :

« لما تفكّكت العلاقات العربيّة التركيّة وبرز المشروع الوحدويّ القوميّ العربيّ عائقا في وجه السيطرة والإلحاق والتقسيم، اتّخذت الاتجاهات الانفصالية السابقة طابع العداء « للعروبة » وما يمثلّه هذا شعار من تراث وتاريخ وطموحات قوميّة، واكتسب بالتالي صفة مشاريع سياسيّة (دول) تجسّم السمات الاجتماعية أو الإثنيّة أو المذهبيّة في داخل الوطن العربيّ نفسه. انتظمت في هذا الخطّ ، مثلا، دعوات ندرّة مطران، جورج سمّنة، خير الله خير الله، شكري غانم حين قامت في العقد الثاني من القرن العشرين تطالب بالتنسيق الواضح مع مؤسسات فرنسيّة وديبلوماسية بـ "إقامة دولة سورية" بمساعدة فرنسا. كذلك انتظمت في الخط نفسه « الحركة السياسية المارونية » التي ابتدأت منذ 1911 تطرح الأماني اللبنانية في توسيع حدود جبل لبنان وفتحها على البحر والسهل والتي توجت في فترة ما بعد الحرب بمطلب "تكبير لبنان" وتحويله إلى دولة تنتدب لها فرنسا»⁸⁹

يتضح من كلام كوثراني أنه يتحدث عن حساسيتين نابذتين ضمن القومية اللبنانية أولاها منفتحة على سوريا والثانية منغلقة حتى على سوريا. والثانية، إن أخذنا بهذا التقسيم هي التي فصلنا الحديث عنها في الفصل الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب (يوسف آصاف). وإذا كانت الحركة القومية اللبنانية فيما يتعلق بالعروبية الإسلامية على ما وصفنا فمن السهل على المرء أن يتصور موقفها من العثمانيين الاتحاديّين وموقف هؤلاء منها. ولقد بادر العثمانيون الاتحاديون منذ 1915 بإلغاء القانون الأساسي للمتصرفية وضموها إلى بقية مناطق الشام ضما وبقي شأنها كذلك حتى انسحاب الاتحاديّين من الشام فقامت فرنسا

⁸⁹ وجيه كوثراني . — الاتجاهات، ص 11

سنة 1920 بكبح جماح الفيصليين وأسست دولة "لبنان الكبير" بحدودها التي نعرف اليوم أي 10000,400 كلم². ولقد تحدث الأنكليزي لونغريغ عن تكوين هذه الدولة متحاشيا التعرض للقومية اليهودية لما يمكن أن يترتب عن الصراحة في هذه المسألة من "نتائج":

« وبعد انقضاء ثلاثين عاما فإن أصدقاء لبنان قد يأسفون على منح ذلك الجزء الصغير من سوريا وضعية قومية غير مبررة إطلاقا وقد يعتقدون أنه كان أفضل له لو وجد ضمن بلد موحد يمكن له أن يقدم ضمنه مساهمة قيمة وحافزة على الاستقار، »⁹⁰.

وعلى العكس من وضوح العلاقة بين القومية اللبنانية والعثمانيين الاتحاديين فإن علاقة هؤلاء بالصهيونية بدت متعرجة. فعندما حدث تمرد الجيش الثالث سنة 1908 ابتهجت الصهيونية بالحدث وصرح ماكس نورداف في اجتماع عقد بباريس:

« لو بقي هرتزل حتى اليوم على قيد الحياة لهذه الطرب ولكان صرح : ها هو ذا ميثاقي »⁹¹

وقد يكون مما شجع الصهاينة السياسيين على هذا الاتجاه في فهم الأحداث فترة الاضطراب الواقعة بين تمرد جويلية 1908 وقمع الحركة المحمدية في أفريل 1909 ولسوف يخيب أمل ماكس نورداف عندما يهيمن العثمانيون الاتحاديون على الحكم إذ بادر هؤلاء بإصدار قرار يمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فبعد شهر واحد من قمع التمرد المضاد صرح أحمد رضا، رئيس البرلمان العثماني، لحاخام اليهود الأكبر، بما مفاده أن الدولة العثمانية الاتحادية تنظر بعين الرضا إلى الهجرة اليهودية إلى السلطنة باستثناء فلسطين. وقد اقترح استقبال أكثر ما يمكن من يهود أوروبا الشرقية في مقدونيا حتى يكونوا سدا حاجزا بين اليونانيين وممتلكات السلطنة يمنع اليونانيين العثمانيين من الانضمام إلى اليونان.⁹²

في هذا التصريح تظهر الفلسفة العثمانية الرضاوية واضحة : فلا أثر فيها للتمييز بين الأجناس والديانات ولكنها لا تشجع على تكوين بؤر قومية مآلها الدعوة الانفصالية.

وما من أحد من أركان جمعية الاتحاد والترقي التي تتميز بقيامها على « المركزية » شذ عن هذه السياسة. فقد اجتمع ماكس نورداف في جوان 1909 بالصدر الأعظم الاتحادي حسين حلمي باشا يطلب إليه التراجع عن قرار منع الهجرة إلى فلسطين فلم يحظ مطلبه

⁹⁰ لونغريغ . — سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص150

⁹¹ كاميسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 163 نقلا عن (دي فالت) 1909/1

⁹² كاميسكي . المرجع السابق، ص123. أوردت ذلك نقلا عن CZA Z2/8/7 Mai 1909

توطين اليهود بشكل مكثف فيها بالقبول. ولم يشدّ محمد طلعت، وزير الداخلية، الذي تلحّ كثير من الكتابات المعادية للعثمانيين الاتحاديين على علاقاته الوثيقة بالركن الاتحاديّ ذي الأصل اليهودي "جاويد"، وزير المالية الشهير عن هذا الخط :

« ففي صيف 1909 صرّح طلعت باشا في حفل دعاه إليه الصهاينة أثناء زيارة قام بها إلى لندن أنه لا يعارض مبدئيًا الاستيطان اليهودي ولكن الحكومة التركيّة لا تتسامح إزاء إقامة مستقرّ يهوديّ مستقلّ في فلسطين. لقد صرّح إجمالاً أنه لا يعترض على الاستعمار الفرديّ أو الخيريّ ولكنه يعارض الاستعمار "العمومي" والصهيونيّة السياسيّة. إنّ هذا التصريح يمثّل من دون أي شكّ تلييناً للموقف العثمانيّ السابق. وقد استغلّت صحيفة عربيّة كانت تصدر ببّاريس وهي جريدة "نهضة العرب" هذا التصريح لتتهم، سنة 1909، أعضاء حزب تركيا الفتاة "الاتحاد والترقي" بأنهم ماسونيون، موالون للصهيونيّة».⁹³ والحقيقة أنه لا يمكن للمرء أن يفهم إثارة جريدة "نهضة العرب" التي تذكّرنا بكتاب نجيب العازوري الشهير "يقظة الأمة العربيّة" (1905) قضية التحالف العثمانيّ الاتحاديّ الصهيونيّ إنّ لم يربطها بصراع القوى العظمى على الشرق الأدنى سنة 1909 خاصة أنّ منبع إثارة القضية كان فرنسا أي هذا البلد المتحالف مع بريطانيا ضدّ ألمانيا "حامية" العثمانيين الاتحاديين وبموقف فرنسا وألمانيا من الصهيونيّة بين 1909 و 1913. إنّ سنة 1909 هي سنة انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي التاسع أمّا سنة 1913 فهي سنة انعقاد المؤتمر الحادي عشر والأخير قبل الحرب الكبرى. وبين هذين المؤتمرين انعقد المؤتمر العاشر سنة 1911 ولقد كان التأثير الفعليّ في هذه الفترة لصهاينة كانت بريطانيّة وفرنسا تعدّانهم "ألمانيي النشأة والميل" ومن هنا بدأت الحملة، في فرنسا، وبطريق جريدة عربيّة، على الصهاينة والعثمانيين الاتحاديين. وسوف تتواصل حتى سنة 1913. فعندما تمكّن فكتور جاكوبسون، وهو ألمانيّ من أصل يهوديّ بولونيّ، من عقد اتفاق مع جلال نوري باي لتأسيس جريدة "التركيّ الفتى" يقتضي، مقابل دعم ب 1000 جنيه من الوكالة الصهيونيّة للجريدة، أن تساعد هذه الجريدة على انتشار الأفكار المتعاطفة مع القوميّات غير التركيّة وأن تنشر الردود الصهيونية على مظاهر اللاصهيونية (لا نستعمل لفظ اللاسامية) قامت هذه الجريدة بهذا الدور خير قيام. إلا أن نجاح الصهيونية إذا كان كبيراً في هذا المجال وفي حدود السلطنة فهو لم يكن كذلك فيما يتصل بالقوى العظمى للعلاقة العدائية بين أنكلترا

⁹³ شارل رزق - بين الإسلام والقومية العربية، ص 215.

وفرنسا وروسيا من ناحية وألمانيا وحزب الاتحاد والترقي من ناحية ثانية إذ ما كان يمكن لهذه الجريدة التي أسسها الصهاينة أن لا تتعرض بالنقد لخصوم السلطنة فنشرت مقالات عنيفة ضد السياسة البريطانية منها مقالات لأحمد أغايف، صديق يوسف أقجورا، و جلال نوري باي في فيفري 1911. ولقد تسبب ذلك في نقد عنيف وجهته الصحف الأنكليزية والفرنسية إلى الصهيونية « صنيعة ألمانيا » في نظرها :

« فحسب السلط القنصلية الأنكليزية ترأس اليهود ذوو الأصل الألماني الحركة الصهيونية لتوجيهها وجهة تخدم التوسع الألماني في قلب الإمبراطورية التركية. وهكذا أصبح فيكتور جاكوبسون وكذلك مؤسسات "التعاون اليهودية الألمانية" و "الاسرائلية العالمية" (l'Alliance israelite universelle) مجرد مؤسسات تمثل السياسة الصهيونية »⁹⁴ ولقد فتحت "التايمس" خاصة أعمدتها لمقالات مراسلين من الآستانة مثل هذا المقال الذي ظهر في 14 أبريل 1911 والذي ورد فيه هذا التساؤل :

« ما الذي يمكن أن يعنيه هذا الدعم لحركة (هدفها) استعمار جزء من بلاد الرافدين ومن سوريا⁹⁵ من يهود أوروبا الوسطى والشرقية وتكون لغتها العبرية الألمانية (تقصد اليبديش) ويكون قادتها ألمانا أو نمساويين؟ »⁹⁶.

ولم تتخلف فرنسا عن نهج النهج البريطاني ذاته إزاء الصهيونية :

« ففي سنة 1911 شجع قنصل فرنسا علنيا بالمال كاظم نامي باي، أحد الكتاب في سالونيك، على كتابة سلسلة من المقالات المعادية للصهيونية في جريدة "الروملي" لسان لجنة الاتحاد والترقي. وقد نددت أربع مقالات من هذه السلسلة بالصهيونية على اعتبار أنها ركيزة ألمانية. واتهمت مقالات أخرى الصهيونية بالسعي إلى تدخل القوى العظمى في

⁹⁴ كامنسكي . القومية العربية والقومية اليهودية، ص 109

⁹⁵ مستكفل بريطانيا نفسها، من خلال وعد بلفور، بالإجابة عن هذا السؤال. ولنلاحظ من الآن أننا لم نركز على مسألة الوجود (للشريف حسين ولوايزمان) لأننا ننتقل من فكرة ضرورة وجود قوة مادية تسند "الأخلاق" شدياقية وأقجورية منا وهو ما يعني :

إنما الأمم الأنساغ ما بقيت فإن هم ذهبت أنساغهم ذهبوا

والنفس، لغة هو كل ما يناقض الظاهر بل أن ما يظهر هو في النهاية تعبير عن الداخل (انظر معجم كازيميرسكي العربي الفرنسي)

⁹⁶ كامنسكي . — القومية العربية والقومية اليهودية، ص 109

الشؤون الداخلية العثمانية. وقد استشهد كاظم باي في هذا السياق بتصريحات وقع الإدلاء بها في المؤتمر الصهيوني التاسع دعت إلى إقامة وطن " لليهود في فلسطين " يضمن القانون العام حمايته »⁹⁷.

كانت عداوة بريطانيا للعثمانيين الاتحاديين لاتحد ولذلك فهي لم تقتصر على محاربة الصهيونية في هذه الفترة بل تعدت ذلك، سعيها منها إلى إسقاط حكومة العثمانيين الاتحاديين، وإحلال المعارضة العثمانية الائتلافية محلها بقيادة كامل باشا "الأنكليزي" الصدر الأعظم زمن عبد الحميد وقيادة الداماد فريد، إلى "تشطين" حسين جاود باي⁹⁸ باتهامه بأنه صهيوني "متستر": « شجعت بريطانيا العظمى، سعيها منها إلى الحد من التأثير الألماني الذي يحظى برضاء لجنة الاتحاد والترقي، على نمو حزب المعارضة الذي كان يغيبه تأورب لجنة الاتحاد والترقي وكان يهدف إلى إعادة العمل بنظام الدولة الإسلامية (...) لقد أصرت بريطانيا على مساعدة الحزب الذي يؤكد على سيادة الإسلام والذي كان يتهم رجالا مثل جاود باي بمساندة غايات الصهيونية وتبعاً لذلك كان يبيع نفسه للكفار¹⁰⁰. وقد كان يكفي أن تظهر بريطانيا حسين جاود بمظهر "الشاة الجرباء" حتى يتحول عند الألمان إلى ضحية فقد بعث السفير الألماني في القسطنطينية، فون مارشال إلى وزير الخارجية الألماني بيثمان هولفيش Bethmann Hollweg بتاريخ 3 مارس 1911 بتقرير حول السياسة البريطانية إزاء السلطنة جاء فيه: « لا يوجد أدنى شك في أن الأنكليز يشجعون على اللاسامية بغية إسقاط جاود باي وحقي باشا (الصدر الأعظم) وإنه لم يعد

⁹⁷ كاميسكي . - القومية ، ص 113 نقلا عن جريدة "الروملي" بالتركية بتاريخ 30 جاني 1911 و 1. 3. 6

فيفري 1911 / والـ "كي دورسي"، تركيا، سلسلة جديدة، 138 عدد 33-10 فيفري 1911

⁹⁸ حسين جاود باي، ركن اتحادي وصديق حميم لطلعت رأس تحرير "طنين" لسان حال الاتحاديين، كما شغل منصب نائب رئيس البرلمان ووزير المالية. استقال معارضة منه لمشاركة السلطنة في الحرب الكبرى. أعدمه مصطفى كمال سنة 1926. دعا سنة 1910 (مع كل من قليج زاده حقي وجلال نوري أيلري) إلى استبدال الأنجدية العربية بالأنجدية اللاتينية فكان ذلك من بين أسباب اقامه معاداة الإسلام، والجدير بالذكر أن مثل هذه الدعوة سوف يتبناها في العشرينات مصريون مثل عبد العزيز فهمي وهو ليس يهودي الأصل. أنظر حسين مجيب المصري. - تاريخ الأدب

التركي . - القاهرة، 1951 . - ص 14

⁹⁹ وهذه سياسة انتهجتها منذ بداية ثمانينات القرن التاسع عشر وحمل شعارها ويلفرد بلانت واغتر بها محمد عبده

والعروبيون الاسلاميون. راجع الفصل الثالث من القسم الثاني من هذا الكتاب

¹⁰⁰ كاميسكي. - القومية العربية و القومية اليهودية، ص 152

خافيا أن فيتزموريس، أرفع الضباط درجة في السفارة البريطانية، قد قام بدور هام في هذا الاتجاه»¹⁰¹.

هذه الحملة الفرنسية البريطانية على العثمانيين الاتحاديين واتهامهم بالتواطؤ مع الصهيونية سوف تلقى صدى كبيرا بين 1911 و 1912 عند العربيين الإسلاميين خاصة الذين اتجهوا منذ 1909 وجهة صباحية ائتلافية معادية للعثمانيين الاتحاديين وألمانيا. لذلك نجدهم يفرضون في جوان 1909 طرح قضية الصهيونية العملية لأول مرة في البرلمان العثماني. وقد افتتح النقاش، وليس هذا من باب الصدفة، نائب حيفا حافظ بك سعيد الذي كان يرى وجوب إيقاف الهجرة اليهودية بإغلاق ميناء هذه المدينة الساحلية¹⁰². كان محور النقاش هو مدى التلاؤم بين سياسة الدولة الاتحادية (الإدماجية) وسعي الصهيونية العملية، المستتر، إلى تكوين "مستقر" وطني لليهود في فلسطين. وقد أظهر النقاش في البرلمان التعقيد البالغ للمسألة: فإذا كان هناك إجماع على ضرورة التنديد بالصهيونية السياسية القائمة علنا على الانفصال فإن هذا الإجماع لا يصبح ممكنا عندما يتعلق الأمر بقضايا الاستيطان وشراء الأراضي إذ أن لعرب السلطنة الحق، دستوريا، في بيع أراضيهم كما أن لليهود السلطنة الحق دستوريا، في شراء الأراضي. على أن تعقيد المسألة لم يكن متأتيا من هذا الحق الدستوري إذ أن اليهود المقيمين في فلسطين منذ أزمنة بعيدة كان عددهم ضئيلا وكانوا يعيشون من الصدقات مما يجعلهم، حتى لو شأوا، غير قادرين على التملك الاستعماري للأرض، إضافة إلى أنهم مثل أغلب سكان المنطقة لم تنفذ إليهم فكرة الدولة القومية الحديثة. ولذلك كانوا إيديولوجيا، معادين للصهيونية. فالتعقيد، إذن، كان متأتيا من يهود أوروبا الشرقية خاصة، وهؤلاء كانوا يستندون إلى مؤسسات منظمة ويملكون العلم والتقنية والمال والفكرة القومية وكانوا خاصة يحتمون بالامتيازات الممنوحة للأجانب والمُلزمة للسلطنة وآخرها التزامات الخط الهمايوني لسنة 1856. أمام هذا التعقيد لم يكن بإمكان البرلمان إلا إقرار حل وسط لا يمنع الهجرة اليهودية إلى متصرفية القدس وإلى المناطق الفلسطينية التابعة لولاية بيروت ولكن يحد منها وأفضل وسيلة إلى ذلك هي الحيلولة دون حصول اليهود المهاجرين على الجنسية العثمانية. ولذلك أوصى وزير الداخلية طلعت باشا

¹⁰¹ كامينسكي . - القومية، ص 109

¹⁰² كامينسكي . - القومية، ص 123 أوردت ذلك نغلا عن CZA L2/437(24Sept.1909)

بإلغاء حقوق اليهود الأجانب التي أقرها القانون العثماني لسنة 1867¹⁰³. إلى أي حد سيطبق هذا القانون بحذافيره في سلطنة يمكن شراء كل شيء بالمال فيها لأسباب عديدة ؟ هذه قضية نترك للقارئ فرصة الإجابة عنها. إن موقف الحكومة العثمانية الاتحادية كان إذن على غاية من الصعوبة وهذه الصعوبة مصدرها في حقيقة الأمر تشبثها من ناحية بوحدة السلطنة وإيمانها من ناحية ثانية بحقوق "الأجناس" (وهي قوى نابذة في حقيقة الأمر) : هذا هو بالذات ما وصفه يوسف أقجورا بـ "مثالية" العثمانية بوجهيها. هل يمكن لمثل هذه السياسة أن تلقى ترحيبا من كل "العناصر العثمانية" ؟ "إن كل ما اطلعنا عليه مما يتعلق بهذه المسألة يفيد عكس ذلك : فسكان القدس والمناطق الفلسطينية التابعة إداريا لولاية بيروت بما في ذلك الأعيان والإقطاعيون كانوا، لتعرضهم المباشر لضغط القومية اليهودية الكامن والظاهر في آن واحد، يميلون إلى أن يروا في سياسة الدولة هذه « سياسة تواطؤ » مع الصهاينة لأن الحرص على المساواة في الحقوق يقر للصهاينة حقوقا ليست لهم : ولذلك كانوا يطلبون من الدولة الاتحادية موقفا حاسما لم يكن بإمكانها، دستوريا، أن تتخذه لأنها عثمانية وليست دولة قومية. كثير من الشواهد تعبر عن هذا الموقف من سياسة العثمانيين الاتحاديين : فلقد عبر نائب متصرفية القدس، الحسيني، سنة 1909 للجريدة اليهودية هازيفي Ha Zevi عن «انشغاله نظرا إلى قدرات البلاد الضعيفة على الاستيعاب»¹⁰⁴ أما النائب روجي باي الخالدي فقد أدلى للجريدة نفسها بتصريح عنيف عبر فيه عن معارضته « لهؤلاء الذين لم يكونوا هنا يوم فتحنا البلاد والذين يسرقون سقف عرب فلسطين »¹⁰⁵ بل إن أعيانا ممثلين لعائلات أقل عراقية في هذه المنطقة مثل عائلة النشاشيبي الشركسية الأصل عمدوا إلى تنظيم فرق حماية بهدف منع بيع الأراضي للصهاينة. ليس من الصدفة أن كان كل من ذكرنا من الأسماء التي قاومت الصهيونية العملية من متصرفية القدس والمناطق الفلسطينية التابعة إداريا لولاية بيروت. وهذه الملاحظة على غاية من الأهمية في نظرنا، لأنها تطرح قضية مدى وجاهة الحديث عن "الفكرة القومية العربية" منذ القرن التاسع عشر أي مدى إحساس الشوام بأنهم "أمة واحدة يجمع بين أفرادها، بغض النظر عن الاختلاف الطبقي والديني والطائفي، شعور واحد بالانتماء إلى وطن واحد، هو

¹⁰³ كامينسكي . — القومية، ص 123

¹⁰⁴ كامينسكي . — القومية، ص 124

¹⁰⁵ كامينسكي . — القومية، ص 124

الشام . إن ما بدا لنا من خلال تناول هذه الفترة وما قبلها بالدراسة هو أن الشعور بالخطر الذي كان يهدد القدس والمناطق الفلسطينية لم يكن يتجاوز في العقد الأول من القرن العشرين (أي بعد انعقاد عشر مؤتمرات صهيونية عالمية وبعد الحملة التي شنتها الصحافة البريطانية والفرنسية على الصهيونية ذات الميول الألمانية) بعض المفكرين الفلسطينيين (نحن لا نتحدث عن عامة المزارعين الذين لم تنقطع ردود فعلهم على الاستيطان منذ القرن التاسع عشر) وبعض الشوام الذين عملوا في فلسطين (العاذوري، العسلي...) والخوف والشعور بالحرمان يعدان، في نظرنا، من أهم مقومات الفكرة القومية. ولقد بينا في حديثنا عن الشدايقية أن هذا الشعور هو الذي يدفع «الخود» إلى التمرد على «الشيخ» سواء كان هذا الشيخ الدولة أو الأب أو الزوج أو المعلم أو «كوناتوسا» مغائرا ومعتديا يسعى إلى استعباد «كوناتوس» أضعف هو الخود. فلا قومية ولا وطنية مفصولتان عن شعور جسد اجتماعي ما بفقدان التوازن وعن الرغبة «المصرية» في استعادة هذا التوازن الذي قد تدفع في سبيله خلايا هذا الجسد ثمنا دمويا باهظا. نقصد بكلامنا هذا طرح السؤال التالي: هل كان سكان ولايات سوريا وحلب وبيروت، جميعهم، يحسون بما كان يحس به من سيكونون فيما بعد، إداريا، سكان فلسطين من خطر وإلى أي حد كانت معارضة من عارض منهم السياسة الاتحادية معارضة تستند إلى هذا الإحساس بالانتماء إلى كل شامي؟

لا توجد غير إجابتين اثنتين عن هذا السؤال المزجج؟

إما الإجابة بنعم وفي هذه الحالة يصعب على المرء أن يفهم ما كتب أسعد داغر، المثقف "القومي" في هذه المسألة:

«تعرفت ذات يوم بالأستاذ جلال نوري، رئيس تحرير جريدة «الجون ترك» الفرنسية. ولما رأيته أتقن هذه اللغة طلب إلي أن أتولى تحرير صفحة الشؤون العربية في جريدته مرة في الأسبوع فوافقت على ذلك ولم أكن أعرف في ذلك الحين أن هذه الجريدة أسست بأموال اليهود وأن اسم جلال نوري وضع على رأسها للتغطية والتمويه. ولو أنني عرفت ذلك لما تغيرت موقفي لأن مسألة فلسطين لم تكن حينئذ ذات شأن في نظري، كما أنني كنت أجهل أغراض الصهيونية وأهدافها»¹⁰⁶.

¹⁰⁶ أسعد داغر . — مذكراتي على هامش القضية العربية، ص 41 و أسعد داغر (1888-1958) هو أحد أعضاء

"العربية الفتاة" عين بعد تأسيس الجامعة العربية في الأربعينات رئيسا لإدارة الصحافة (الموسوعة العربية الميسرة، ج 1)

كما يصعب عليه أن يفهم ما كتب الأمير مصطفى الشهابي تقييما لكتاب العازوري الذي كرر تنبؤات غوستاف لوبون حول الصراع بين القوميتين العربية واليهودية : « من الطبيعي القول إن نشاطا قوميا كهذا النشاط مقره باريس ولغته إفرنسية لا يمكن أن يبلغ صده البلاد العربية في سر ولا يمكن أن يكون له تأثير يذكر في نفوس العاملين في الحركة القومية العربية. وأنا على يقين أن كتاب العازوري لم يكن عند أحد من شباب جمعية النهضة العربية ولا عند أحد ممن ألفوا عقب إعلان الدستور العثماني الجمعيات والمؤسسات القومية العربية المختلفة. وفي سنة 1911 وجدته يباع في إحدى مكتبات باريس فاشتريته ودللت بعض الرفاق من الطلاب العرب عليه فلم يهتموا به لأنهم كانوا قد شبوا عن الطوق »¹⁰⁷.

كما يصعب عليه، في نهاية المطاف، أن يفهم كيف باع العربي الارثوذكسي إلياس سرسق إلى الصهاينة سنة 1910 ألف هكتار من أخصب الأراضي في الجليل، وهو العربي الذي ينتمي إلى طائفة مسيحية لا تعدلها أي طائفة مسيحية أخرى في تشبثها بأصولها العربية¹⁰⁸ وإما الإجابة بلا، وفي هذه الحالة يحسن تقليص مسؤولية العثمانيين الاتحاديين (وفيهم عدد غير قليل من العرب ومن المسلمين من غير العرب) في التورط مع الصهيونية إذ لن يطلب المرء من كوسموبوليتيين أمثال العثمانيين أن يسلكوا سياسة قومية لم يسلكها الشوام أنفسهم.

والحقيقة، في نظرنا، ولا يمكن غير الاجتهاد في مثل هذه المسائل، أن الإجابة بـ "لا" هي الإجابة الأكثر وجاهة : فالمراجع والمصادر التي تركز على دور شكري العسلي،الدمشقي، في مقاومة الصهيونية لا تركز بالقدر نفسه على أن هذا الموظف الذي اشتهر بمشاداته التي تصل حد العنف مع محمد طلعت أثناء اجتماعات البرلمان العثماني كان قد سبق له أن اشتغل قائمقاما في ... الناصرة. ولولا مباشرة هذه المسؤولية في هذه المنطقة الحساسة ولولا متابعة الحملة الصحفية البريطانية الفرنسية على الصهيونية المتهمه

¹⁰⁷ مصطفى الشهابي . - القومية العربية، ص 59.

¹⁰⁸ كل دراستا، كما لاشك أن القاريء لاحظ ذلك، تقوم على رفض تفسير ما حدث ويحدث في الشام، وفي غيره من المناطق، بالاستناد على العامل الديني، ولذلك فنحن نعتبر ميل البعض الى تفسير صفقة إلياس سرسق بالاستناد الى مسيحيتهم تفسيراً سخيفاً لأنه محازر إذ كيف يفسر المرء عندئذ بيع سلام علي سلام، المسلم الصهاينة أراضي شاسعة وامتيازات حصل عليها من العثمانيين الاتحاديين عقب مؤتمر باريس بداية الثلاثينات لا سنة 1910...

إذك بميولها الألمانية لما كان بإمكانه أن يعي الدلالة الحقيقية لصفقة إلياس سرسق ولكن شبيها، في جهله، بالأمر مصطفى الشهابي وبأسعد داغر الذي نكن له الكثير من التقدير لصراحته. فلا تفسير، إذن، لهذا الجهل إلا بأمر واحد هو جنينية الفكرة القومية (نقصد الشامية) مقارنة بتطور الفكرة القومية عند الصهاينة الذين عاشوا في بلدان تحكمها دول قومية وتشبعوا نتيجة لذلك بهذه الفكرة. أما الشعور الغالب على الشوام فلقد كان هو الشعور بالانتماء قبل كل شيء إلى الدين أو الطائفة أو المنطقة وهو شعور لا يرقى إلى مستوى الانتماء إلى الوطن. وهذا الشعور ليس مرده إلى "طبيعة" مميزة للشوام وإنما مرده إلى مجموعة معقدة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية «تكلست» نتائجها على مر الزمن وعملت عوامل خارجية على تثبيتها شلا للوحدة في هذه المنطقة الثرية والمعقدة والتي لا نعثر على ما يقرب منها ثراء وتعقيدا في شمال إفريقيا أو مصر أو العراق أو الجزيرة العربية ولذلك تصعب دراستها دراسة "تطورية" لا تركز على ما يسمى "بالثوابت" أي بهذه المقولات "الفكرية" المتهاففة.

على عكس أغلب المفكرين الشوام أحس التنظيم الصهيوني العالمي إزاء بداية طرح "المسألة الفلسطينية" بضرورة السلوك الحذر في التعامل مع الدولة العثمانية الاتحادية :
 « كان عليهم (تقصد الصهاينة) أن يتصرفوا بحذر لأن مصالح متضاربة لا حصر لها كانت في الميزان. وكان عليهم تبعا لذلك أن يتحفظوا في كل ما يتصل بالسياسة التركية الداخلية. هكذا تحاشوا أن يتخذوا موقفا من النزاع الذي سينشب بين الأتراك الفتيان (تقصد العثمانيين الاتحاديين) وحزب الوحدة، الحزب المعارض (تقصد العثمانيين الائتلافيين) »¹⁰⁹

هذا الحذر لا يعني ، في نظرنا، غير التركيز في هذه الفترة المضطربة على الوجه العملي والثقافي من الصهيونية (شراء الأراضي، نشر العبرية، تأسيس الصحف الموالية للصهيونية...) وفعلا فقد انعقد المؤتمر الصهيوني العاشر في بال سنة 1911 فتغلب فيه هذا الشق الذي اشتد في نقد وولفسون ممثل الهرتزية :

¹⁰⁹ كاميسكي . — الفومية ، ص 166

« كان من بين الخطباء الأوائل مؤرخ الصهيونية أدولف بوهن Böhn الذي صرح أنه لا يودّ مهاجمة وولفسون لأنّ هذا مريض كما يبدو للعيان. هنا صاح وولفسون : إنّ موقع المرض هنا (ووضع يده في موضع القلب) وليس هنا (وأشار إلى رأسه) ».¹¹⁰

استقال وولفسون وتبعه صحابة هرتزل القدامى : كان Kann وماكس نورداو واسكندر مارموريك. ومنذ هذا المؤتمر سوف تتحوّل قيادة الحركة إلى أيدي ممثلي يهود أوروبا الشرقية أي إلى يهود ألمانيين : الدكتور هوتكو Hautke والأستاذ قاربورغ Warburg (تّيار عمليّ) وثلاثة يهود روس : فيكتور جاكوبسون V.Jacobson وشمارياهو ليفين Shmaryahu Levine وناحوم سوخولوف. ولقد اتّخذ هؤلاء برلين مركزاً لهم فرأس الأستاذ فاربورغ اللجنة التنفيذية بين 1911 و 1918 في حين « وضع وايزمان كامل ثقته بالبريطانيين »¹¹¹ إذ كان « يعتبر أنّ قرار إبقاء مقرّ اللجنة التنفيذية في برلين هو خطأ كبير. وعندما قوبل اقتراحه بنقل المكتب إلى البلاد المنخفضة (أو الولايات المتحدة) بالرفض كفّ عن مراسلة من بقي من زملائه خارج بلاد الحلفاء والولايات المتحدة الأمريكية »¹¹²

إنّ لما ذكرنا من تحوّل في موازين القوى ضمن الحركة الصهيونية أهمية بالغة فيما يتصل بموضوعنا. فلقد كانت الغلبة للشقّ البراغماتي. لذلك سنراه عند اندلاع الحرب بين إيطاليا والسلطنة يقف موقفاً وسطاً بين إرسال جنود يعضدون الاتحاديين والوقوف موقف الحياد التام في هذا النزاع : وقد استقرّ الأمر بعد نقاش حاد على الاكتفاء بإرسال طاقم طبيّ يهوديّ وإبداء بعض علامات التعاطف مع قضية الاتحاديين. هذه السياسة "البراغماتية" التي كانت تمكّن الصهيونية العملية من النشاط الكثيف دعت شكري العسلي (1868 - قتل 1916) إلى أن يرى فيها تحالفاً صهيونياً اتحادياً :

« في فيفري 1912 سبّبت أزمة سياسية سقوط الوزارة في القسطنطينية فلقد أجبر البرلمان وزير المالية، جاود، على الاستقالة فاستقال طلعت معه. ولقد كان جاويد من الدونمة¹¹³ فاستغلّ أحد النواب العرب الذي كان قد اشتغل قائمقام في فلسطين هذه الفرصة

¹¹⁰ كامينسكي . - القومية، ص 170

¹¹¹ غولدا ماير . - الحق، ص 158

¹¹² لاكهر . - الصهيونية، ص 207

¹¹³ الدونمة : أصلهم من يهود الأندلس هربوا منها، بعد سقوط آخر معقل عربي فيها إلى الدولة العثمانية وأسلموا " و دونمة لـ " تعني " المهتدين "

للقيام بحملة معادية للصهيونية ومن هناك، ربط الأزمة الوزارية، وخاصة استقالة اليهودي جاويد، بالقضية الفلسطينية¹¹⁴. هذا الربط بين العثمانيين الاتحاديين والصهيونية، الذي رأينا كيف كانت الصحف البريطانية والفرنسية قد أشاعته قبل 1912، يدعو المرء إلى التساؤل عن موقف العثمانيين الائتلافيين من القضية خاصة أن العسلي ينتسب إليهم.

أجاب شارل رزق عن هذا التساؤل على النحو التالي :

« نشر (محمد رشيد رضا) في جريدته المنار في سبتمبر 1911 تحليلا غير منتظر بالنسبة إليه (مقاده) أن سوريا تحتاج إلى التقنية والمال اليهوديين وعليها تبعا لذلك أن تستقبل اليهود استقبالا حسنا، بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى هيمنة الحركة الصهيونية على فلسطين (الداخلية ضمن ولاية سوريا) فنحن نجد عند رشيد رضا، إجمالا، موقفا قريبا من موقف طلعت، وتمييزا مشتركا بين الاستيطان اليهودي والصهيونية¹¹⁵. إنه لا تفسير عندنا لمثل هذا الموقف الرشيدي الرضاوي الطلعتي إلا بتخلف فهم السياسي الاتحادي والسياسي العربي الإسلامي عن فهم غوستاف لوبون في بداية ثمانينات القرن التاسع عشر طبيعة الكيانات القومية الحديثة وفصلهما الجانب العملي والثقافي عن الجانب السياسي.

لأما البعض على تصنيف الصهيونية إلى صهيونية سياسية وصهيونية عملية وصهيونية ثقافية. ونحن لم نتمكن من فهم تفكير محمد رشيد رضا مثلا إلا اعتمادا على مثل هذا التصنيف الذي يبرئه من مساندة الصهيونية الهرتزلية ولكنه لا يبرئه من صفة الجهل بأبعاد المشروع الصهيوني ذي الوجوه الثلاثة التي لا نشك فيما يخصصها في تكاملها إذ لا فرق حقيقيا في نهاية الأمر بين "هرتزل" و "وايزمان" في الغاية. فالإختلاف كان في الوسائل والأولويات فحسب.

فبما أن الهرتزلية خدمت فلم لا يقع التعامل مع أمثال سوخولوف ووايزمان وآحاد حاعام؟ وعندما ستتأسس جمعية اللامركزية العثمانية في القاهرة بعد طرد العثمانيين الائتلافيين خصومهم العثمانيين الاتحاديين من الحكم في أكتوبر 1912 سيتسرب الصهيانة العمليون و الثقافيون إلى قلب لامركزية القاهرة الشامية نفسها: « منذ أن تكون الحزبان العربيان "اللامركزية" في القاهرة و "لجنة الإصلاح" في بيروت في 1912-1913 سعى صهيانة فلسطين المتنبهون لهذه التنظيمات القومية العربية إلى التسلل إليها وإقامة اتصالات إيجابية

¹¹⁴ كامسكي . - القومية، ص 216

¹¹⁵ شارل رزق . - بين الاسلام والقومية العربية، ص 217

بين القوميتين بواسطتهما»¹¹⁶ وقد «كلف "ملول" بتعريب المقالات العربية (...) ولسوف يتسلل بعد ذلك إلى تنظيم سياسي عربي قومي وسري هو حزب اللامركزية»¹¹⁷. وفي الموضوع نفسه كتب شارل رزق :

« سيعثر الصهاينة على الموقف الأقل عداء، إن لم يكن الأكثر تعاطفا، عند الزعماء العرب في حزب اللامركزية المعتدل في مطالبه الاستقلالية. ففي فيفري 1913¹¹⁸ نشر سكرتير هذا الحزب، حقي باي العظم في الأهرام بالقاهرة مقالا استعاد فيه تحليل رشيد رضا في المنار ووافق فيه على الاستيطان اليهودي في فلسطين. وفي الوقت نفسه وقعت في القسطنطينية مفاوضات بين حزب اللامركزية من جهة، والدكتور جاكوبسون¹¹⁹ ومعاونيه سامي هوشبرغ، الذي كان يدير في القسطنطينية جريدة باللغة الفرنسية هي « الجون ترك »¹²⁰

ولسوف تتزايد الاتصالات عند اقتراب الحرب الكبرى وبروز شق عثماني اتحادي ميال إلى المشاركة فيها :

« عندما ذهب ناحوم سوخولوف إلى بيروت وسوريا سنة 1914 ، وقع تقديمه إلى قادة قوميين محليين أظهروا اهتماما بعقد لقاء على مستوى عال وقد تقرر أن ينعقد هذا اللقاء قريبا من بيروت في سبتمبر 1914 ولم يكن موقف السلطات التركية من عقد هذا اللقاء واضحا فلقد بدا في بداية الأمر أن والي بيروت يشجع على محادثات يهودية عربية مباشرة إلا أنه حذر بعد ذلك القادة الصهاينة من العرب. وقد وقع التحضير لهذا اللقاء في فلسطين وكان من المقرر أن يضم الوفد اليهودي كلفريسكي Kalvarisky وديزنغوف Dizengoff وشابطاي ليفي Shabtai Levi ودفيد يلين David Yellin وشخصيات أخرى هامة. إلا أن تركيب الوفد العربي ثبط همة الصهاينة فمن ضمن العشرة مندوبين العرب المعينين لم يكن يوجد غير ثلاثة يمكن اعتبارهم محبذين لاتفاق عربي يهودي. ومن ناحية أخرى فإن قائمة

¹¹⁶ كاميسكي . - القومية، ص 133

¹¹⁷ كاميسكي . - القومية، ص 132

¹¹⁸ انقلب العثمانيون الاتحاديون على الائتلافين في جانفي 1913

¹¹⁹ كان فلاديمير رعبف (جابوتيسكي) (1880-1940) يعمل في الآستانة في هذه الفترة مع حاكوسون وسوف

يشغل سنة 1914 مرابلا حربيا في مصر وقد ولد في أوديسا في عائلة بورجوازية أفلسنت، موت الأب (والنسب ها

«عجيب» ييه وبين كل من هرتزل ويوسف أفجورا) ودرس في سويسرا وإيطاليا

¹²⁰ (شارل رزق . - بين الإسلام والقومية العربية . - ص 217

كانت تضم كثيرا من مشاهير المعادين للصهيونية مثل مدير «الكرمل»¹²¹ كما أن الصهاينة لم يرتاحوا إلى جدول الأعمال الذي اقترحه العرب والذي يفرض على الصهاينة أن يقدموا الدليل على أن نياتهم لا تلحق ضررا بالقضية العربية. وقد قرر المندوبون الصهاينة أثناء مجادثات تمهيدية جرت في يافا وحيفا تأجيل اللقاء مع العرب "على أن يكون ذلك بطريقة لا تقطع كل اتصال بهم..." ولقد اندلعت الحرب بعد بعض أسابيع فوضعت حدا لتبادل الآراء هذا¹²²

إلى أي حد يمكن للمرء؛ بعد ما أوردنا من شواهد حول الاتصالات الشامية الصهيونية، أن يتحدث عن تواطؤ عثماني اتحادي - صهيوني على غرار ما تحدثت به كثير من الدراسات الراجحة إلى اليوم ؟ لقد استغل أحمد جمال «السفاح» ظروف الحرب لامتحان الصهاينة فترك بذلك ذكرى سيئة حتى عند صغارهم إذاك. كتب موشي ديان (1915-1981) الذي هاجر أبوه شموئيل من كيبف إلى فلسطين سنة 1908 عن أحمد جمال : «كانت تركيا قد تحالفت مع ألمانيا ومع الإمبراطورية النمساوية الهنغارية ففرضت التجنيد الإجباري لكن السلطات العثمانية لم تكن تثق بإخلاص الطائفة اليهودية فطردت عددا كبيرا من زعمائها إلى مصر. وقرر أعضاء مستعمرة داغانيا اكتساب الجنسية العثمانية وأخضعوا أنفسهم لجميع المعاملات الديوانية. وقد استدعي بعضنا إلى الخدمة في الجيش العثماني وفرضت ضرائب قوية على الكيبوتس وصدورت ممتلكاته وكان هم المزارعين الوحيد هو البقاء في الكيبوتس»¹²³

لقد سعت ألمانيا المتحالفة مع العثمانيين الاتحاديين إلى استجلاب الصهاينة فبذل المستشار بيثمان- هولفيخ وسفير ألمانيا في الآستانة "فاقهايم" جهودا كبيرة لمنع أحمد جمال من امتحان الصهاينة في فلسطين « بين 1914 و 1917 تشفع الممثلون الدبلوماسيون الألمان كثيرا ولكن دائما بصورة شبه رسمية إزاء السلطات التركية لصالح يهود فلسطين. وأغلب هذه المساعي كانت بسبب القائد التركي في فلسطين جمال باشا الذي كان مقررا العزم على طرد كل اليهود من ذوي الجنسية الروسية أي أغلبية السكان اليهود»¹²⁴

¹²¹ هو نجيب ناصر الذي أسس الكرمل في حيفا

¹²² والترلاكر . - تاريخ الصهيونية، ص 252

¹²³ موشي ديان . - القاشية (والعنوان من اجتهاد المربي جوزيف صفر) . - بيروت، ط2، 1988 . - ص 15

¹²⁴ امتحان أحمد جمال اليهود بعد عندنا دليلا على تماف وكرة التواطؤ الاتحادي - الصهيوني

وإذا كانت السياسة الألمانية قد تمكّنت من منع قتل بعض الصهاينة فإنّها لم تتمكّن من تخفيف التضييق عليهم حتى اضطرّ كثير منهم إلى الهجرة سنة 1917. من هؤلاء نذكر دفيد بن غوريون¹²⁶ وإسحق بن زفي¹²⁷. من هذا التحليل الطويل للعلاقات بين العثمانيين الاتحاديين والصهاينة يتّضح أن هذه العلاقات كانت متعرجة ومتوتّرة في الآن نفسه على عكس علاقات العثمانيين الائتلافيين بهم، ومن ضمن الائتلافيين نجد العربيين الإسلاميين، الذين فضلنا أن نخصّهم بفصل كامل لتوتّر علاقاتهم منذ 1909 بالعثمانيين الاتحاديين من ناحية ولأهميّة التيار الذي يمثلونه في حياة العرب حتى يومنا هذا.

¹²⁵ كامبسكي . - القومية، ص 201

¹²⁶ دافيد بن غوريون (1886-1973) هاجر من بولونيا الى الجليل سنة 1906 ودرس الحقوق بالآستانة. هوأول

رئيس حكومة ي دولة اسرائيل (1948)

¹²⁷ اسحق بن زفي (1895-1963)، هاجر إلى فلسطين سنة 1907 و درس الحقوق بالآستانة. رأس إسرائيل بعد موت

حاييم وايرمان (1953)

الفصل الثاني

ومن الحبّ ما قتل

تناقض روح حركة صيف 1908 تفكير العروبيين الإسلاميين عامة. فالشريف حسين مثلاً لم يرحّب بالحدث بالرغم من أنّ الحاكمين الجدد هم الذين عينوه أميراً على "أمّ القرى". أمّا موقف محمّد رشيد رضا فيمكن للمرء أن يستنتجه ممّا رأينا من تفكيره الاجتماعيّ والسياسيّ الذي يلخصه قوله «أميل إلى بقاء زعامة وطني في وجهائه (...) لاعتقادي أنّه لا يوجد في دهمائه من يصلح للزعامة كما وجد في فرنسا عندما صارت ديمقراطيّة». ولقد كان دستور 1908 في بعض مواده «عثمانيّة» لدستور الثورة الفرنسيّة ولما أعلن عنه من "حقوق الإنسان والمواطن"

لقد كان على محمد رشيد رضا أن يحدّد موقفه، بين جويلية 1908 ومارس أفريل 1909 من تيّارات ثلاثة : تيّار الإسلاميين وتيّار العثمانيين الاتحاديّين ذوي الميول الألمانيّة عامّة وتيّار العثمانيين الائتلافيّين ذوي الميول البريطانيّة عامة فقاوم التيّارين الأوّلين وناصر التيّار الثالث ممّا أدّى إلى الخصومة المعروفة بينه وبين العثمانيين الاتحاديّين، هذه الخصومة التي حرص هو على صبغها بالصبغة الدينيّة وتحرص هذه الدراسة على تعرّيّة أسبابها الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة.

لقد قاوم محمد رشيد رضا في الستة شهور الفاصلة بين تمردّ مقدونيا وقمع الثورة المضادة الإسلاميين الحميديّين مقاومة لا هودة فيها عرضته للامتحان والإهانة حيثما حلّ في الشام. ففي طرابلس حيث ولد وشبّ :

«سرنا حتى إذا كنّا بالقرب من الدار التي نؤمّها في أشهر شوارع البلد وأسواقها فاجأني شقيّ (...) فقال أين هذا الذي تسلّمون عليه ؟ فعرفني بالقرينة اُضربني بعضا

¹ (عرفني بالقرينة : وصف طه الهاشمي محمد رشيد رضا وإن في فترة متأخرة من عمره كالتالي :

« أمّا الشيخ المرشد الجليل المصلح فيجبته الضخمة ولحيته المصبوغة، وأنفه الأحدب، والعباءة التي تربطه برابطة العريق، فيحدثك عن الوحدة العربيّة أو الحلف العربي الذي بشرّ به في مجلّته قبل نصف قرن أو أكثر، فيسألك فجأة : لعلّك قرأت ذلك ؟ ويستطرد قائلا إنّهُ انتقل على الحسين لأنّه لم يعمل بتقريره الفصل لإصلاح البلاد العربيّة ثمّ يعيد قائلًا باقتناع : إنّ البلاد العربيّة لا تتحدّ ما لم تعاهد انكلترا على أن لا يكون لها نفوذ سياسيّ ونفوذ إداريّ طبعاً، إنّما تساعد البلاد العربيّة بأنّ تجلب إليها الفنّانين والأخصائيّين وتتاخر معها، إلخ. وأنت تسمع كلّ ذلك وتجيبه بنعم، لكنّها نعم الشاعر "توفيق فكّرت" الثالثة (طه الهاشمي . — مذكرات طه الهاشمي 1919-1943) تقدم خلدون الحصري . — بيروت دار الطليعة 1967، ص 106، ويعرّف خلدون الحصري " نعم" التي يتّبر إليها طه الهاشمي بأنّها "المسكينة نعم" Zevalli evet الواردة في قصيدة للشاعر توفيق فكّرت (ملاحظة 1، ص 106) وزوّالي ما زالت مستعملة في الداريجة التونسية بمعنى "فقير".

في يده وقعت على جانب رأسي ثم رفعها ثانية وأهوى بها فتلقاها الشيخ محمد كامل الرافعي وكان على يساري في مقدمة الناس فأخرج الشقيّ سدّسا وأطلق منه رصاصة واحدة واعتقدت أنه يريد بها قتلي واعتقد الجمهور ذلك فيما يظهر. فإثّهم أرجعوني وأحدقوا بي وأرادوا إدخالاً لأحد البيوت المجاورة لذلك المكان. وتقدّم إليه أكثر من واحد منهم فطرده ثم استأنفنا السير إلى دار الرافعي وكانت قريبة منّا²

أمّا في دمشق، عاصمة الولاية المجاورة لولاية بيروت فقد «ألقيت درسا في الجامع الأمويّ يتعلّق بالعقيدة فإذا أنا برجل مغربيّ³ قد اخترق جمهور الواقفين حتى انتهى إلى دائرة القاعدين وصاح يا إخواننا المسلمين، اسمعوا لي كلمتين (...)» (ف) صد الكرسيّ الشيخ عبد القادر الخطيب وأراد أن يتكلّم فأنزله عثمان بك العظم عن الكرسيّ وصدّه عن التكلّم ووقف عليه وقال ما معناه "أيها الإخوان. إنه لا ينبغي للعوام الخوض فيما يختلف فيه العلماء⁴ فانصرفوا إلى شأنكم ومن كان من العلماء يريد مناظرة الأستاذ في هذه المسائل أو غيرها فليتنفّض بعد العشاء إلى منزلي ثم نزل وقال لي تفضّل. فنزلت ومشينا معا فمشى معنا جمهور عظيم من الحاضرين (...) وخطر في بالي أن الباعث لذلك الرجل على ما فعل هو حبّ الظهور والشهرة أو سوء الظنّ و الظنّة فإنّه هو الذي ذكرت أنني رأيته يقرأ درسا لا يحضره إلا قليل من الناس. وقد علمت بعد ذلك أن اسمه الشيخ صالح وأنّه داعية لأبي الهدى الصيادي أرسله إلى دمشق ليبثّ دسائسه فيها⁵.

لا يهمنّا موضوع الخصومة الظاهر وهو يتعلّق، في فترة من أخطر فترات التاريخ العثمانيّ الحديث بل في فترة من أخطر فترات التاريخ العالميّ، بـ "الأولياء" وبأي سلوك

² محمد رشيد رضا. — الرحلات، ص 13

³ معري هنافيد ضميّا حكما قيميّا. راجع الفصل المتعلّق بالعروبة الاسلاميّة في القسم الثاني من هذا الكتاب.

⁴ وضّح شكيب أرسلان موضوع الخصومة كالتالي: «ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي — وكان حاضرا ذلك الدرس إلى أن فيه تعرّضا للأولياء وأنّه شيء من الوهابية ! وتكلّم الشيخ صالح بحدّة فمال الجمهور بمنّ يقال له الحشوية إلى كلام الشيخ صالح كما أن أصحاب الرعة الجديدة والدستوريين مالوا إلى كلام الشيخ رشيد » (شكيب أرسلان. — السيد رشيد رضا ، ص 148) والحقيقة في نظرنا أن أسباب الخصومة قديمة قدم معاداة العروبة الإسلامية للإسلامية فالشيخ صالح وقف من عمّد عبده عبد قدومه إلى تونس موقفا نقديّا ثم إن هناك إسلاميين آخرين ليسوا من الحشويين في شيء مثل عبد العزيز جاويز كان يمتدّد بولائه لبريطانيا في كلّ مكان. ولن يتصالح

الإسلاميون والعروبيون الإسلاميون إلا بعد فشل التيارين إثر الحرب العالميّة الأولى وبواسطة... شكيب أرسلان نفسه .

⁵ محمد رشيد رضا. — الرحلات، صص 32-33

يجب على المسلم أن يسلك إزاءهم وعلى العكس من ذلك فعلينا، لفهم أسباب هذه الخصومة الحقيقية، أن نتعرّض لموقف السلطات المحليّة (أي والي سورّية شكري باشا والمسؤول الأمنيّ فيها أسعد بك) وهو موقف يعكس حالة اضطراب في الرؤية السياسيّة :

« قبل المغرب من ذلك اليوم، ذهبت مع عثمان بك إلى دار عبد الرحمن باشا اليوسف لأننا كنّا مدعوّين للفطر عنده. فلما كنّا على المائدة جاء أسعد بك بيبكباشي أركان حرب وهو وكيل الشرطة في دمشق وأحد أعضاء جمعيّة الاتحاد والترقيّ الذين يشكونهم أكثر وجهاء دمشق فجلس معنا وأخبرنا أنّه قبض على الشيخ صالح وأودعه في السجن فقال له عثمان بك : أخطأت في هذا العمل فيجب أن نذهب بعد الفطور لأجل إخراجه لأنّ ما حصل يجب أن يقف عند الحدّ الذي وصل إليه وكان الأمر كذلك. فقد ذهب أسعد بك بين المغرب والعشاء لأجل إطلاق الشيخ صالح على ما فهمنا. وبعد صلاة العشاء في بيت عبد الرحمن باشا خرجت أنا وعثمان بك فركب هو مركبته وتبع أسعد بك لينظر ماذا فعل وركبت أنا مركبة أخرى إلى دار عثمان بك. ولما عاد عثمان بك أخبرني بأنّهم أخرجوا الشيخ صالحا من الحبس وأنّ فتنة عظيمة أثّرت في الشام فحمل ألوف من الناس السلاح (...) قال (عثمان بك) إنّني علمت من حال بعض الحاضرين في الدرس أنّ هناك فتنة مدبرة يراد إيقاعها في الجامع بأدنى مناسبة أو بخلق مناسبة ولست أنت المقصود بها وأنه ليس للشيخ صالح عصبيّة ولا محبّون والذين هيّجوا الناس ودفعوهم إلى المطالبة بإطلاقه لهم بذلك أغراض (...) تتعلّق بانتخابات المبعوثين »⁶. أمّا شكيب أرسلان فقد روى هذه الحادثة على النحو التالي: « وحصلت ضجّة عظيمة في الجامع واتّصلت بالحكومة فاستدعت الشيخ صالح إلى دائرة البوليس واستنطقته بحجّة أنّه اعتدى على الشيخ رشيد وأنّه كفره فشاع في دمشق في تلك الليلة أنّ الشيخ صالح التونسي اعتقل وأوجب ذلك هياج العامّة فاجتمعوا ألّوفا وجاؤوا لتخليص الشيخ صالح من السجن. والحقيقة أنّه لم يكن سجن وإنّما استنطقوه بحجّة أنّه هو الذي تعرّض للشيخ رشيد. فلما رأى الوالي هذه الحالة وخاف الهرج والمرج ركب

⁶ الشيوخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وصالح الشريف التونسي وشكيب أرسلان يدرجون من منظور هذه الدراسة ضمن الآخذين بالنظرة التقليدية وإذا كان هناك اختلاف بين الواحد منهم والآخر فهو اختلاف في درجة الأخذ بهذه النظرة.

⁷ محمد رشيد رضا — الرحلات، ص 35

العربية وأجلس الشيخ صالح بجانبه حتى سكن هيجان الجمهور»⁸ ولقد ساء سلوك الوالي محمد رشيد رضا فكتب معرّضاً به :

« وقد ظهر من ضعف الوالي شكري باشا وأفن رأيه ، ما لا ينتظر أكثر منه من مدمني السكر وأسرى الشهوات مثله ، فإنّه لمّا رأى الجموع قد حشرت وزمّرة الوجها قد حضرت وعظمت عليه الأمور وأرجفت رجفت في قلبه الراجفة وتلتها الرادفة ، فخنق لكرهم وخضع لأمرهم وأمر بأن يؤتى بالشيخ صالح فجيء به وطاف بالناس في مركبته من بعد أن آذنه المشير⁹ بأن لديه من الجند ما يكفي لقمع الفتنة الأهلية بل لإعلان الأحكام العرفية ، ولو أخذ الوالي يومئذ بالحزم لاستقرّت هيبة الحكومة في النفوس من ذلك اليوم ، لا أقول في دمشق وحدها ، بل في الولايات السورية كلّها »¹⁰

إنّه يمكننا القول إنه إذا كان يوجد فرق بين سوريا الداخلية وسوريا الساحلية فإنّ هذا الفرق يصبح هوّة فاصلة بين مقدونيا التي ثارت من أجل التغيير و أغلب مناطق الشام التي أشرفت على الحرب الأهلية سنة 1908 من أجل مقاومة التغيير. ويتساءل المرء : إذا كان شيخ تقليديّ مثل الشيخ محمد رشيد رضا قد تعرّض لامتحان في ولايتي بيروت وسوريا فما الذي كان يمكن أن يحدث له لو نشط سياسياً في ثالث الولايات الشاميّة وهي حلب، موطن أبي الهدى الصياديّ ؟

إنّ امتحان محمد رشيد رضا في بيروت وسوريا يدلّ على شدّة مقاومة الشوام الحميديين للتغيير ولقد حرص الشيخ الطرابلسي على تعيينهم :

« وكان أشدّهم إفساداً أحد الباشاوات¹¹ الذي يرى أنه بعظمة بيته يجب أن يكون صاحب الأمر المطاع في البلد والقول المتّبع في حكومتها وأهلها (...) رآني هؤلاء الكائدون (...) فقالوا (...) ما لهذا الأمر إلّا رجل يشتري ما يراود منه بالمال وقد مرد على أمثال هذه الدسائس والأعمال، وما ذاك إلّا داعية ابن صياد الدجّال المعروف في جميع البلاد بأبي

⁸ تكيب أرسلان . — السيد رشيد رضا، ص 148

⁹ قائد الجيش الخامس

¹⁰ محمد رشيد رضا. — الرحلات، ص 38

¹¹ يقصد محمد باشا العظيم، على ما نرى

الضلال، فذلك المغربي¹² يطيعكم فيما يترفع عنه أهل الشام إذا وعدتموه بالتعويض عن مرتبه الذي قطع في هذه الأيام»¹³. لا يمكن إذن الشك في موقف محمد رشيد رضا من الإسلاميين الحميديين ولكن موقفه من العثمانيين يحتاج إلى التحديد الدقيق خاصة أنه يستعمل عبارة «جماعة الاتحاد والترقي» قبل هيمنة العثمانيين الاتحاديين على السلطة عقب قمع الثورة المضادة المحافظة في مارس أفريل 1909 بمعنى «جماعة العثمانيين الائتلافيين» خصوم العثمانيين الاتحاديين الذين يمقتهم مقتاً لأنهم ليسوا من «فضلاء الترك» بل هم «أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانك وشركاؤهم في النمسا وألمانيا أقوى أنصارهم»¹⁴ (...) فلا هم على دين الدولة فيغاروا عليه بل هم يقاومونه ويهدمونه¹⁵ ولا هم من أصل راسخ فيكونوا أحرص على حياتها من أبناء سلاطينها وأساطينها»¹⁶ فإذا «جاء طرابلس متطرف من الديمقراطيين (...) وكان والي المدينة (يقصد بيروت إذ أن طرابلس هي إحدى متصرفياتها الأربع اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس) منهم أيضاً فاعلموا أن ما تعودتموه من الجاه والكرامة في وطنكم لا يبقى لكم إلا إذا كان الشعب يحبك بتحبكم إليه قبل ذلك وإلا دهوركم وأسقطكم».

¹² مثال جديد على تفكير محمد رشيد رضا العروبي الإسلامي. والعروبية الإسلامية، كما نرى، ما زالت مقصورة على

الشرق الأدنى لا يدخل ضمنها لا مصر ولا شمال إفريقيا

¹³ محمد رشيد رضا، الرحلات، ص 38

¹⁴ يلاحظ المرء هنا أنه، موالة منه لبريطانيا، يغض الطرف عن يهوديتها ومن أنشطهم حايم وايزمان

¹⁵ هذا الادعاء لا يسمح بفهم مناصرة الإسلاميين للعثمانيين الاتحاديين ولقد حرص العثماني الاتحادي ساطع الحصري

على تعيين هذا الرأي، لشيوعه بين العروبيين الإسلاميين المعاصرين فكتب: «يرعم (فارل وهو ضابط أنكليزي

أشرف مدة من الزمن على التعليم في العراق) أن مدارس الحكومة العثمانية أثناء "دولة الاتحاد والترقي" كانت لادينية،

فما كانت تعلم الدين، ويريد أن يحتفظ للحكومة البريطانية بشرف الاهتمام بالدين، وجعل الدروس الدينية إجبارية

ولكن في حقيقة الأمر — إن المدارس التركية لم تحمل تعليم الدين في وقت من الأوقات وكل الأنظمة وكل المناهج

الموضوعة في العهد العثماني كانت تجعل هذا التعليم من الأمور الإجبارية. فإن زعم فارل في هذه القضية كان من

الزاعم الباطلة التي لاتستند إلى أي أساس حقيقي» (ساطع الحصري). مذكراتي في العراق، ج 1 (1921—

1927). بيروت، 1967. — صص 124-125

¹⁶ محمد رشيد رضا — الرحلات، صص 179-180

ومما يثبت ائتلافية محمد رشيد رضا و صحابيته وأخذه بمبادئ حزب "الجامعة من أجل المبادرة الخاصة واللامركزية" هذا النص الطويل والثري:

« نعم يجب على العرب (يقصد الشوام وعلى الأكثر سكان الجزيرة العربية) أن لا ينسوا في اتحادهم بالترك أنفسهم ويتكلموا على غيرهم بل يجب عليهم مباراة إخوانهم في التربية التي تقتضيها حال العصر وتحصيل العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ليكونوا يدا واحدة في إحياء الدولة وليقدروا على ترقية شأن بلادهم واستخراج خيراتها العظيمة ثم ليكونوا أهلا لإدارتها بأنفسهم إذا غلب في المستقبل حزب صباح الدين أفندي، ابن أخت السلطان علي غيره من الأحزاب التي ينتظر أن تتكون في الدولة¹⁷ وهو أي رأي صباح الدين أن تكون كل ولاية من ولايات الدولة مستقلة في إدارتها الداخلية ويعبر عن ذلك بعدم المركزية. ويرى بعض علماء السياسة أنه لابد في المستقبل من استقلال كل جنس بنفسه ويروى هذا عن نابليون. وإذا صح هذا في المستقبل البعيد¹⁸ وكان الجنس العربي غير أهل للإدارة التي تقتضيها حال مدنية ذلك العصر الذي سيكون أرقى من عصرنا هذا - وإن قرب - وغير أهل لمشاركة سائر الأمم في السياسة العامة والحقوق المتبادلة بين الأجناس على أصول المساواة فكيف تكون حاله يومئذ ؟ ألا نكون (لا قدر الله) تحت وصاية غيرنا من الأجناس المتريفة في العلوم والأعمال؟ ومن هو الجنس الذي يتولى هذه الوصاية ؟ وكيف تكون سيرته فيها ؟ يجب علينا أن نفكر في حالنا الحاضرة وفي مستقبلنا القريب ومستقبلنا البعيد¹⁹ وأن نعلم أن حسن المستقبل متوقف على ما قبله والنهاية أثر للبداية. ويجب أن

¹⁷ نشير من باب الاستطراد هنا إلى أن أبناء خير الدين التونسي الثلاثة محمد باي خير الدين (ولد بخير الدين في تونس

سنة 1870 ومات بالمرسى سنة 1921) وطاهر خير الدين (1872-1937) والداماد (صهر السلطان) صالح خير

الدين كانوا جميعا من العثمانيين الصباحيين وبعد قتل هؤلاء العثماني الاتحادي العراقي محمود شوكت في جوان 1913

سوف يعلم أصغرهم وهو الداماد صالح وينفى أخواه محمد وطاهر قبل أن يهاجرا الى تونس فيموت محمد سنة 1921

وطاهر سنة 1937 وبذلك انقرض نسل هذه العائلة الشركسية من الذكور

¹⁸ حدد تيودور هرتزل الزمن الضروري لقيام الدولة اليهودية بما يكاد يوافق المدّة الفاصلة بين انعقاد أول مؤتمر صهيوني

عالمي (1897) وقام دولة اسرائيل (1948).

أما العثماني الاتحادي سليمان الستاي فقد كان معنقد سنة 1908 أن ربع قرن هي المدّة الضرورية لهضة " الوطن

العثماني"

¹⁹ مستقبلنا القريب : هو زمن الارتباط بالترك أما "مستقبلنا البعيد" فهو زمن الانفصال عنهم ولسوف يهدم تطوّر

الأحداث هذا التصوّر إذ سيّحه محمد رشيد رضا منذ ربيع 1909 وجهة انفصالية هائية.

يكون الأساس الذي نبني عليه في حاضرننا ومستقبلنا الإخلاص لدولتنا والاتحاد بالترك وسائر العناصر العثمانية ما دامت هذه العناصر متحدة بالدولة مخلصه لها وأن نكون الآن²⁰ من أشد الأعوان لجمعية "الاتحاد والترقي" على بث روح الدستور في جميع الطبقات ورقباء على الحكومة في سيرها وأعمالها حتى ترسخ فيها الديمقراطية ونسير بعد اجتماع المبعوثان على الأصول الدستورية²¹. شرط إخلاص محمد رشيد رضا للدولة ولـ «جمعية الاتحاد والترقي» هو أن «يغلب في المستقبل حزب صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان على غيره من الأحزاب التي ينتظر أن تتكون في الدولة» ومن هنا نفهم سبب مقاومته الشديدة لـ «جمعية الإخاء العربي العثماني»²² في هذه الفترة وتحالفه مع بعض أعضائها عندما سيهيمن العثمانيون الاتحاديون على الحكم:

«سمعنا (من مستقبلنا عند حلولنا بالشام) منذ الليلة الأولى أخبارا سيئة عن جمعية الإخاء العربي التي تأسست في الآستانة فقال بعضهم إنها تأسست بإيعاز من السلطان لتكون عضدا له وعونا على جمعية «الاتحاد والترقي» وقال آخرون إنها "ضد الترك" وقالوا إن ندرة مطران²³ جاء الشام ليدعو إلى هذه الجمعية، وهو يذم الترك، ويدعو الناس إلى العصبية الجنسية وينفر من جمعية الاتحاد والترقي وذكروا أن سيرة بعض أعضاء هذه الجمعية غير محمودة وأن بعض أفرادها يحتقرون وجهاء البلد ويفطرون في رمضان جهرا وأن هذا مما يمهّد السبيل لندرة مطران ويجعل دسائسه مقبولة عند كثيرين. هذا ملخص ما سمعته من أكثر من واحد وكنت أبين لهم ولغيرهم أن تنفير العرب من الترك مفسدة من أضر المفاسد وأننا في أشد الحاجة إلى الاتحاد بالترك والإخلاص لهم لأن مصلحتنا ومصلحتهم في ذلك. على أننا أحوج إليهم منهم إلينا. فمن يسعى إلى التفرقة بيننا وبينهم

²⁰ الآن : أثناء الفترة الانتقالية جويلية 1908 — أبريل 1909

²¹ محمد رشيد رضا . — الرحلات، صص 25-26 وقد انعقد أول اجتماع للـ "مبعوثان" في ديسمبر 1908

²² جمعية الإخاء العربي العثماني : من أعضائها الباشا صادق المؤيد العظم و الباشا شكري الأيوبي و البكوات عارف

المارديني وشفيق المؤيد العظم و شكري الحسيني ويوسف شتوان. وقد التحق عارف المارديني مثلا بالعثمانيين الاتحاديين، فعينوه سنة 1913 واليا على دمشق فـ «استعمل الشدة والسياسة واعتقل بعض المتحمسين وعطل الجرائد الداعية إلى

الإصلاح» (دروزة، النشأة، ص 414)

²³ ندرة مطران : رومي كاثولكي من بعلبك. أعدم سنة 1916.

فهو عدو لناولهم. فإن كان سعيه لهواه فهو شر الشياطين وإن كان سعيه لغيره فهو شر الأجراء الخائنين ولا عجب في صدور ذلك عن بني المطران المفسدين»²⁴

وكتب أيضا في ندرة مطران وجماعة "الإخاء العربي" :

« لم يتجرأ (يقصد بعض وجهاء أهل الشام) على الوقوف في وجهها (يقصد جمعية الاتحاد والترقي) ومناجزتها جهرا فتربصوا بها الدوائر حتى إذا جاء زمن انتخاب المبعوثين (...) عيل صبرهم و لجأوا إلى الكيد وجراهم عليه ندرة بك المطران الذي جاء الشام لترشيح نفسه للانتخاب ويستعين عليه بمن يستميلهم إلى جمعية "الإخاء العربي" فإنه كان يهون على الناس أمر جمعية الاتحاد والترقي ويكبر في نفوسهم شأن جمعية الافتراق والتدلي (كناية عن جمعية الإخاء العربي العثماني) أي التي تفرق بين الترك والعرب وتنصر الاستبداد وتخذل الدستور»²⁵

ولسوف يخيب أمل «الدستوريين الصباحيين» بسبب غلبة الحميديين على الشام وضعف جمعية الاتحاد والترقي المزمع باعتراف محمد رشيد رضا نفسه «نال محركو الفتنة من أسعد بك (يقصد العسكري الدستوري النشيط) ما أرادوا وانتهت هذه الحادثة بخروجه من الشام وضعف جمعية الاتحاد والترقي وعجزها عما كانت تحاول من أمر الانتخاب وذلك جل ما كانوا يبغيون في نفس الشام»²⁶

لقد انتهت هذه الفترة الانتقالية المضطربة بثورة الحميديين المضادة في مارس أفريل 1909 وبتحرك الجيش الثالث لقمعهم والانفراد، هذه المرة، بالحكم. ومنذ ربيع 1909 بدأت العلاقات بين الصباحي والعروبي الإسلامي محمد رشيد رضا وبين العثمانيين الاتحاديين تسوء بمر الأيام. فلقد سعى عقب قمع الثورة المحمدية إلى الاتصال، على ما يدعي، بالقابضين الجدد على زمام الأمور في السلطنة لتأسيس مدرسة لـ "الدعوة الإسلامية" في العاصمة وكأنه لم يقدر التغيرات الحقيقية حق قدرها إذ لم يعد الحزب الجديد الحاكم خاصة بعد تورط بعض الصباحيين في التمرد المضاد وإقرار مبدأ الحزب الواحد يقبل بأي نشاط ذي طابع ديني أو قومي. ومن هنا كانت سياسة التسوية التي لجأت إليها الدولة

²⁴ محمد رشيد رضا، الرحلات، ص 26 و الملاحظ أن رشيد رضا لا يخلط بين جمعية "الإخاء العربي العثماني" و ندرة

مطران

²⁵ محمد رشيد رضا . - الرحلات . - ص 36

²⁶ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 39

في التعامل مع محمد رشيد رضا ومن هنا أيضا كانت القطيعة بين الشيخ و من سيصبحون "ملاحدة" و"عنصريين" في نظره رغم وجود عدد هامّ وعظيم التأثير من العرب في صفوفهم. ذلك أنه إذا كان الخليفة محمد رشاد (محمد الخامس) "يملك ولا يحكم" فقد كان عرب من أمثال محمود شوكت البغدادي وهادي باشا الفاروقي الشامي وعزير عليّ المصري يتنزّلون المنزلة الأولى في الجيش أي في هذا الجهاز المنظّم والقوي:

«رحلت في هذا العام - وهو العام الثاني للدستور - إلى القسطنطينية ، عاصمة الدولة لأسعى في أمرين عظيمين، أحدهما خدمة للدين الإسلامي ولجميع المسلمين وثانيهما خدمة للدولة العلية من حيث هي حكومة الدستور القائم على أساس العدل والمساواة ولعنصري الأمة العثمانيين الكبارين²⁷. وأقرب فوائد المرشدين إرسالهم إلى البلاد التي فشا فيها الجهل وكثرت المشاغبات (كاليمن²⁸ والعراق والأناضول) للوعظ (...) ويرغب في (...) الإخلاص للدولة العلية في السر والعلن. عرضت هذا المشروع على رئيس حكومتنا الصدر الأعظم حسين حلمي باشا وعلى بعض أعضاء وزارته وعلى بعض الكبراء والعلماء هنا ومنهم محمود شوكت باشا وعلى بعض أعضاء مجلس الأمة العمومي من الأعيان والمبعوثين وعلى أشهر رجال جمعية الاتحاد والترقي فكلهم أظهروا الإعجاب به والاعتراف بفوائده ومنافعه وشدة الحاجة إليه وقال بعضهم إنه فكر في مثله من قبل. وأما الأمر الثاني الذي سعت إليه فهو إزالة ما وقع أخيرا من سوء التفاهم بين عنصري الدولة الأكبرين - العرب والترك²⁹ وقد شرحت هذا في مقال مطوّل مؤلف من ست نبذ أو فصول نشرت في جريدة إقدام³⁰ مترجمة بالتركية فصادفت استحسانا عند فضلاء الترك³¹»³²

²⁷ فكرة ضرورة قيام دولة تركية عربية مزدوجة القومية تبدو منذ هذه الفترة واضحة عند محمد رشيد رضا ضاربة عرض الحائط بالدستور وبالقسم الذي كان العثمانيون الاتحاديون يفرضونه على المنخرطين في حزب "الاتحاد والترقي العثماني" (وهو "أقسم بالله وبديني وبشرقي أنني لا أفرق بين العناصر العثمانية..." (يوسف الحكيم - سورية في العهد العثماني، ص 73)

²⁸ ثورة اليمن بقيادة يحيى حميد الدين تنقلّص هنا فتصبح "مشاغب" ومعروف أن الدولة فضّلت إرسال القائد عزيز

علي المصري إلى اليمن فتوصل سنة 1911 إلى إيجاد صيغة تفاهم بينه وبين الإتحاديين

²⁹ إشارة إلى مطاردة العثمانيين الاتحاديين عددا من العرب الحميديين وإلى حملة التشويه التي شنتها بعض الصحف

ضدّهم

³⁰ جريدة إقدام لصاحبها طاهر خير الدين "التونسي"

³¹ فضلاء الترك تعني هنا الصالحين ويستعمل محمد كرد علي عبارة قرية من هذه وهي "عقلاء الترك"

لقد أبدينا رأينا في أسباب بداية القطيعة الحقيقية بين محمد رشيد رضا والعثمانيين الاتحاديين وهي تتعلق أساسا بهيمنة الشق الرضاوي على الحكم وإبعاد أغلب العثمانيين الصباحيين (أي فضلاء الترك) عنه.

ولو قال محمد رشيد رضا إنه قصد إلى إزالة ما وقع أخيرا من صراع دموي بين العثمانيين الاتحاديين من عرب وترك وغيرهم... وخصومهم العثمانيين اللا مركزيين من عرب وترك وغيرهم... لكان كلامه غاية في الوضوح... لكنّه فضّل المقابلة، منذ 1909، بين جنسين هما العرب والترك وهي مقابلة يثبت تهاافتها لجوؤه إلى "محمود شوكت".

وما يهمنا هنا هو أنّ محمد رشيد رضا سينشط منذ هذه السنة في كلّ جمعية تناوي العثمانيين الاتحاديين وتنصر خصومهم في السياسة الداخلية والخارجية. فدروزة الائتلافي مثلا، يذكر نقلا عن أمين سعيد الضابط الاتحادي صاحب كتاب «الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين» أنّ محمد رشيد رضا سعى منذ عودته من الآستانة إلى القاهرة إلى تأسيس "جامعة عربية" مناوئة للاتحاديين غايتها تأسيس "دولة الإسلام العربية" الجديدة. وقد دامت هذه الجامعة حتى ذهب بها الصراع الهاشمي السعودي أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها :

«أنشأ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الفراء بعد عودته من رحلته إلى الآستانة سنة 1909-1910 جمعية "الجامعة العربية" بالقاهرة سنة 1910 (...) وقد رمى إلى غرضين أولهما السعي لاتحاد حلقي بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق³³ وثانيهما التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإيجاد صلة بين الجمعيات العربية في سوريا والعراق وغيرهما وهذا نصّ القسم الذي وضعه لها السيد رشيد مؤسسها³⁴ إذ كانت خاصة بالأمراء والزعماء وكلّهم من المسلمين :

³² محمد رشيد رضا. — الرحلات، ص 75

³³ يتحلّ تفكير ساطع الحصري في الثلاثينات وما بعدها، في نظرنا، في السعي إلى تقليص تأثير العروبة الإسلامية

بطريقة مستوحاة من الأقحورية هي اعتبار منطقة الصراع الهاشمي السعودي ومنطقة الشمال الأفريقي مجرد جناحين لمطقة شاسعة يقع قلبها في مصر. وعندما ستفشّل الدعوة الحصرية بفشل الأنظمة العربية التي تقول بالقومية ستستعيد

العروبة الإسلامية (بمساعدة الريع الفطلي) كلّ إمكاناتها الأدبولوجية التقليدية

³⁴ تمسّن مقارنة مضامين هذا القسم بمضامين دستور 1908 الذي يدّعي رشيد رضا أنّه ما فتّى يدافع عنه

« أقسم بالله العظيم القهار، المنتقم الجبار، العالم بسرّي وعلايتي، القادر على سلبني كلّ ما أعطاني من المواهب والقوى وبكتاب الله المجيد، أنني أبذل جهدي وما في وسعي لجمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية التي انتظم سلكها اليوم، وأنني أسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والإخلاص وأنني لا أبخل في سبيل ذلك بمالي ولا بنفسي ولا يلفتني عنه هواي وحظّي الشخصي ولا حظّ أحد من أهلي وولدي وأنني أحافظ على مقاصد الجمعية وأسرارها بأشدّ ما أحافظ به على ديني وشرفي وعرضي فلا أفشي لها سرّاً ولا أعارض عملاً ولا أقول قولاً ولا أعمل عملاً يخالف مقاصدها أو يحدث فيها خللاً أو يوقع فيها فشلاً لعله من العلل أو سبب من الأسباب، وأنني أقوم بكلّ عمل يكلفني إياه مركزها العام من مقاصد هذه الجمعية أو وسائلها بحسب استطاعتي، على عهد الله وميثاقه، لأبرّ بقسمي هذا بلا تأويل ولا غدر ولا كفارة، وإن حنثت بشيء ممّا تضمّنه أو غدرت أو أفشيت سرّاً أو قلت أو فعلت ما يضرّ هذه الجامعة أو أحداً من العاملين لها أو يخلّ بشيء من أعمالها أو يخالف شيئاً من مقاصدها فعليّ إثم من حقر اسم الله ونبذ كتاب الله وبريء من الدين والشرف ومن ذمّة العرب واستحقّ انتقام الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين وانتقام الجامعة العربية وكلّ من يغار على ملّته وأمته وكان من الخائنين والملعونين إلى يوم الدين والله على ما أقول شهيد »³⁵

ويضيف دروزة، استناداً إلى أمين سعيد أنّ السيد رشيد كاتب الإمام يحيى حميد الدين والإمام عبد العزيز آل سعود والسيد محمد علي الإدريسي باسطة أغراض الجامعة وغايتها فكتبوا إليه موافقين ومحبّذين. كما اجتمع إلى الأمير عبد الله بن الحسين خلال زيارته لمصر³⁶ وأدخله عضواً فيها وأقسم اليمين بين يديه. وكان من أعضاء الجمعية العاملين

³⁵ (محمد عزة دروزة . — الشأة... ص 507

³⁶ للاتصال بالإنجليز قبل اندلاع الحرب الكبرى عن طريق بعض قدماء جمعية بيروت السريّة

بمصر قبل الحرب الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد³⁷ ورفيق العظم³⁸ ودخل فيها بعد إعلان الحرب الدكتور عبد الرحمن شهبندر³⁹ وشريف الفاروقي وغيرهم⁴⁰ «
إنّ ما سنحتفظ به من كلّ ما ورد في هذه الوثيقة مما يتّصل بموضوعنا ثلاثة أمور :
أنّ هذه الجمعية كانت عروبيّة إسلاميّة⁴¹
أنّها كانت خاصة بـ"الأمرء والزعماء"

أن حدود "الجامعة العربيّة" لا تتّسع لتشمل مصر والشمال الإفريقيّ وهذه الحدود هي التي كان يأخذ بها "الأمرء والزعماء" العرب المسلمون في تلك الفترة بل كان يأخذ بها منذ ثمانينات القرن التاسع عشر مفكّر مثل الفرنسي غوستاف لوبون والانجليزي ويلفريد بلانت وتابعهما في هذا الرأي مفكّر مارونيّ مثل نجيب العازوري.

منذ 1910 سينشط محمّد رشيد رضا في الهند والخليج العربيّ دينيًا حسب ادعائه :
« بعد العودة من الآستانة بأشهر رحلت إلى لهند فمسقط فالكويت فالبصرة فبغداد⁴² »
أي سياسيًا في نظرنا نحن إذ لم يعرف عن بريطانيا سواء في عهود المحافظين أو في عهد الليبراليّ دفيد لويد جورج أنها يمكن أن تسمح لأيّ كان يعارض مصالحها أن يصطاد في

³⁷ كان الشيخ علي يوسف خادماً عبّاس حلمي الفكري وكان مخلصاً للاتحاديين

³⁸ انتماء كلّ من محمّد رشيد رضا ورفيق العظم إلى هذه الجمعية هو الذي دفعنا إلى القول بالصيغة العروبية الإسلامية لحزب "اللامركزية" في القاهرة على الرغم من وجود مسيحيين فيه جلّهم من قدماء رواد "اسبلنديد بار" في القاهرة.

³⁹ يعتبر عبد الرحمن الشهبندر، في نظرنا، مثالا حيّاً على هذا الصنف من الشوام الذي توفّر على قدرة كبيرة على "التكيف" مع الأوضاع. فلقد تخرّج طبيباً من الجامعة الانجليزية (الأمريكية بداية من 1920) وكان رضاًوياً (ولنقل

شلبّا شلبّا) صرفاً « وكان في شبابه لا يرى لأحد مزّة إن لم يكن خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث تلقى

الدروس الثانوية ودرس الطب، حتى لو كان من عيار الإمامين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري ويلهج بأن من لم يدرس الطبيعيات والرياضيات كما درسها هو لا يحقّ له أن يمسك قلماً ولا أن يؤسس جريدة أو مجلة أو ينشر كتاباً

أو غير ذلك من أعمال العقل. فطابع الأثرة كان متجلياً فيه تجلّيه في بعض من تخرجوا بالأمريكيين الإنجلييين » (محمد

كرد علي، المذكرات، ص 446)

⁴⁰ دروزة. — المصدر السابق، الصفحة نفسها

⁴¹ عبارة "العربية الإسلامية" تحيل، بمصطلح هذه الدراسة على الحضارة العربية (لغة) الإسلامية (من دون تفرقة بين

الأجناس) ولذلك لا نكاد نستعمل هذه العبارة

⁴² محمد رشيد رضا. — الرحلات، ص 215

مياها" أي الهند والخليج العربي" ودليلنا على ذلك هذا الحديث الغامض الذي وقع بين الشيخ العربي الإسلامي ومبارك الصباح، محمي بريطانيا في الكويت، والذي هدف إلى تبرئة أمير الكويت من تهمة عقد اتفاقية حماية بريطانية كويتية منذ 1899.

« أنزلني الشيخ مبارك في قصره الجديد. ومما أحب أن أذكره هنا - وهو من مباحث الرحلة مسألة علاقة الشيخ مبارك بالدولة العثمانية والآنكليز. كنا نسمع المناققين لرجال الدولة⁴³ يصفون صاحب الكويت بالخيانة للدولة ويعيبونه بطلب حماية الآنكليز له فسألته عن ذلك فقص علي قصة سألت عنها بعد ذلك السيد رجبا نقيب البصرة ومندوب الحكومة إليه فيها فكان جوابه موافقا لجواب الشيخ مبارك ثم ذكرت ما قاله الشيخ فهد بك الهزال شيخ قبائل عنزة في العراق إذ كنت في ضيافته على نهر الفرات مع صديقي مراد بك (أخي محمود شوكت باشا) فصدق ما قاله الشيخ مبارك وزادني فوائد هو أعرف الناس بها»⁴⁴

كان العثمانيون الاتحاديون، وخاصة منهم أحمد جمال والي بغداد إذاك، يتابعون نشاط الشيخ العربي الإسلامي ولكنهم لم يجرؤوا على التعرض له بسوء إذ كانوا طيلة الفترة الممتدة بين تكوين حزب الائتلاف المعارض في 12 نوفمبر 1911 وطردهم من الحكم في جويلية 1912 في موقع الضعيف المستमित في الدفاع عن مواقفه المهددة ولذلك يعجب المرء من "عجب" محمد رشيد رضا من "إكرام" أحمد جمال له عندما حل بولاية بغداد قادما إليها من الهند والخليج سنة 1912 :

« كان من الغريب ما عاملني به أحمد جمال باشا الاتحادي الشهير في بغداد (1912) - وكان يومئذ جمال بك إذ ألمت بها منصرفي من الهند وكنت مجاهرا بالطعن في الاتحاديين والتنكير عنهم. وكانت مجلة العالم الإسلامي التي يصدرونها في الآستانة تنشر بقلم الشيخ عبد العزيز شوايش أنني أقصد العراق لأجل تأليب العرب وإثارتهم على الدولة. ولكن جمال باشا لم يأخذ هذا الكلام قضية مسلمة بل سأل نقيب الأشراف السيد عبد الرحمن المحضي الكيلاني (رئيس وزارة بغداد لهذا العهد) وبعض كرام العلماء فبالقوا في الثناء (وكان هو يعرف عني شيئا وكتب إلي قبل سفري ذاك) فأكرمني وزارني ودعاني إلى طعامه »⁴⁵

⁴³ الاسلاميين خاصة مثل عبد العزيز حاويش

⁴⁴ محمد رشيد رضا . الرحلات، صص 89-90

⁴⁵ محمد رشيد رضا. - الرحلات، ص 271

احتفاء «أحمد جمال باشا الاتحاديّ الشهير» بالشيخ له، إذن، مبرره السياسي، وهو وضع العثمانيين الاتحاديين الصعب في هذه الفترة فقد «اتفق بعد وصولي إلى سورية أن ظفر حزب الحرية والائتلاف في الآستانة بحزب جمعيّة الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان وما كان الفلح لهذا الحزب إلا بتألفه من أحرار العرب⁴⁶ ومنصفي الترك⁴⁷ وكانا حزبين فاتّحدا وصارا حزبا واحدا فرأيت السواد الأعظم من السوريين فرحين مغبوطين بخذلان الاتحاديين قدر ما رأيت قبل ثلاث سنين من اغتباطهم بهم وافتخارهم بالانتماء إليهم»⁴⁸

يلاحظ المرء أن محمد رشيد رضا عمد، من جديد إلى المقابلة بين العرب والترك بل ذهب إلى حدّ حصر المعارضة البرلمانيّة في "أحرار العرب" و "منصفي الترك". ومثل هذا المذهب هو الذي قاده إلى القول بعموم الفرحة "السوريّة" لانتصار العثمانيين الائتلافيين. نعم إن الائتلافيين مثل محمد رشيد رضا «فرحوا واغتبطوا بخذلان الاتحاديين» حتى أن شاعرهم الشاب عمر حامد⁴⁹ نظم في الموضوع : (الرمل)

ثلج القلب وقد كان ضراما	وزها الكون وقد كان ظلّاما
وعيون العرب قرّت بعدما	أذرفت دما من الحزن سجاما
فئة الظلم هوت في ظلم	واحتست في دورها الموت الزؤاما
فئة قد حملت أوطاننا	سبة العار وأهوالا جساما
منعوا العرب من الحقّ وكم	أوسعوا بغداد ظلما والشاما
لغة القرآن ودّوا محمدا	ويل قوم أغضبوا البيت الحراما
هذه نياتهم بانّت فلا	تنخدع يا شعب واحذر أن تناما
أخبر الظلام أنا أمّة	تكره الظلم وتأبى أن تضامّا

ولكن هل يصحّ القول إنّ "العرب" جميعهم «فرحوا واغتبطوا بخذلان الاتحاديين» ومن بين هؤلاء يمكن أن نعدّ أمثال محمود شوكت وعزيز علي المصري وعبد الرحمن الشهبندر ومعروف الرصافي وشكيب أرسلان وساطع الحصري الخ...؟

⁴⁶ أحرار العرب : يقصد الائتلافيين منهم

⁴⁷ منصفي الترك : يقصد الإئتلافيين منهم مثل طاهر خير الدين "التونسي" الذي فاز في انتخابات 1912 الجزئية

⁴⁸ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 215

⁴⁹ أعدمه العثمانيون الاتحاديون في 6 ماي 1916

أم أن هؤلاء لا يعدون شيئاً لأنهم ليسوا من «أحرار العرب» ؟

إننا بإزاء خصومة بين حزبين عثمانيين اختلفا نظرة إلى الأشياء فوق تحويل هذه الخصومة إلى خصومة بين قوميتين متناكرتين يصعب التعايش بينهما وذلك بالرغم من أن كتابات محمد رشيد رضا نفسها لا تخلو البتة من الإشارة إلى الأسباب الاجتماعية والسياسية الكامنة وراء هذه الخصومة.

بعد طرد «الأوباش» من الحكم حكم حزب «الحرية والائتلاف» الذي أسسه الداماد فريد صهر السلطان مدة ستة أشهر (21 جويلية 1912 - 23 جانفي 1913) وقد نشط محمد رشيد رضا سياسياً في القاهرة في هذه الفترة فأسس صحيفة عدد من قدماء المدمنين على مقهى «اسبليد بار» في القاهرة⁵⁰ حزب اللامركزية العثمانية :

«كان ذلك كله (يقصد مشروع الإدارة اللامركزية الذي وضعه وزير الداخلية الائتلافي رشيد بك) مما شجع ساسة العرب السوريين في مصر على ما هو المتبادر على إنشاء حزب اللامركزية⁵¹» ما هو هذا المشروع وما هي المطالب العربية (أي الشامية) التي وعد المشروع بالاستجابة لها ؟ : «أثر عن وزير الداخلية في الوزارة الائتلافية رشيد بك أنه وضع مشروعاً للإدارة اللامركزية يقوم على أساس أن يكون لكل ولاية النظر في جميع الأمور التي تخصها كالـتعليم والمشاريع الاقتصادية والزراعية والصناعية والطرق والجسور والسكك والترامواي وتجفيف المستنقعات ألخ وأن يكون لها ميزانية خاصة ويكون لها حق الاستقراض لترقية مرافقها وفرض بعض الرسوم والضرائب ويكون لها مجلس عمومي منتخب»⁵²

بعض الدراسات تتحدث عندما تؤرخ "للفكرة العربية" عن "جمعية اللامركزية العثمانية" في القاهرة وكأنها عثرت في مشروع وزير الداخلية الائتلافي الذي رحبت به هذه الجمعية على أثر لهذه الفكرة. إن المشروع واضح وهو يتحدث عن نوع من «التسيير الذاتي» في كل ولاية على حدة ولم تكن أي ولاية من الولايات الثلاث (سورية وحلب وبيروت)

⁵⁰ أمثال رئيسه رفيق العظم وبعض أركانه (محمد رشيد رضا و ابراهيم الحارثي)، ونائب رئيسه الماروني الشنتنة إسكندر

عمون ألخ

⁵¹ محمد عزة دروزة . — النشأة . ص 367 ويغيد كلام الائتلافي دروزة الذي ساهم في المظاهرات الائتلافية التي

اجبرت العثمانيين الاتحاديين على التخلي عن الحكم أن تأسس حزب اللامركزية كان بعد جويلية 1912

⁵² محمد عزة دروزة . — النشأة . — ص 367

تطلب أكثر مما حصلت عليه متصرفية لبنان منذ 1861 فلاجود عندئذ لا لمطلب توحيد الولايات الشامية ولا لمطلب الانفصال عن السلطنة. وكل حركة قومية لا تقوم إلا على أساس واحد هو رفض المركزية واللامركزية على حد سواء إذ تعتبرهما معا وجهين مختلفين لفكرة الاندماج. لم نذهب هذا المذهب في التفكير ؟ لأن تحليلنا لتركيب الحزب المهجري وتفكير النافذين فيه وتفكير أحلافهم (جمعية بيروت الإصلاحية، جماعة العربية الفتاة) لا يسمح بالحديث عن حزب يتوفر على حد أدنى من الإجماع على المطالب التي يمكن أن توصف "القومية". إن نظرة سريعة على أسماء اللامركزيين⁵³ تظهر أولا أن النافذين منهم ينتمون إلى جيل واحد تقريبا وأنهم غادروا الشام منذ فترة طويلة بل إنهم كانوا من قدماء المدمنين على مقهى اسبلنديد بار الذي كان الإسلاميون خصوم بريطانيا يتجنبونه (رفيق العظم - شبلي شميل - محمد رشيد رضا - خليل مطران - إسكندر عمون إبراهيم النجار..). وهذه الإقامة الطويلة خارج الشام، إضافة إلى هذه الصداقة الصالونية هي التي تفسر إلى حد كبير، في نظرنا، انضمام مفكرين مختلفين فكريا اختلاف العروبي الإسلامي محب الدين الخطيب والملحد شبلي شميل إلى هذا التنظيم. أما أقل هذه الأسماء نفوذًا إذًا فهو اسما الماسوني حقي العظم وعزت الجندي اللذين سيخرجان على هذا التنظيم سنة 1914 عندما يقبل أركانه باقتسام السلطة مع العثمانيين الاتحاديين ويؤسسان "الجمعية القحطانية" معلنين بذلك عن موت هذا التنظيم.

كما أن هذه النظرة السريعة تظهر ثانيا أن جماعة اللامركزية تضم على الأقل تيارين من التيارات السبعة التي درسناها في القسم الثاني من هذه الدراسة. ففيها بقايا الشدايق التي ذابت في بعض أجنحة التيار العثماني الائتلافي (شبلي شميل، إسكندر عمون، خليل مطران وكلهم مسيحيون موارنة أو روم كاثوليك ضاقت عليهم القومية اللبنانية) وفيها التيار العروبي الإسلامي ذو النظرة التقليدية الصرف (محمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب اللذين سيسهمان إسهاما كبيرا سنة 1928 في تأسيس جمعيات

⁵³ نذكر منهم رفيق العظم ومحمد رشيد رضا وشبلي شميل وإبراهيم النجار وعبد الحميد الزهراوي وإسكندر عمون وسامي الجريدي وحقي العظم ومحب الدين الخطيب وداود بركات وعزت الجندي و خليل مطران ومدرس العربية بجامعة عوردون بالخرطوم فؤاد الخطيب الخ... أما حارح مصر فس بين اللامركزيين يمكن أن تقتصر على ذكر عماد العبي العربي. وسوف يرفض محمد كرد علي الإنتساب إلى هذه الجمعية

الشباب المسلمين بل جمعية الإخوان المسلمين) ممّا يطرح السؤال التالي : إلى أي حدّ يمكن أن تتساكن نظرتان بهذا الاختلاف ضمن حزب سياسي يتوفّر على حدّ أدنى من التماسك ؟ إن "الفضضة" الفكرية التي ميّزت هذا الحزب هي بالذات ، في نظرنا ، سبب سعة تحالفه مع عدد من الحركات الأخرى المعارضة في الشام إذ كان هذا الحزب ، في هذا المجال ، شبيها بالعثمانية الصباحية الائتلافية التي اتّسعت ، لغموض حدودها ، للحركة النابذة و نقيضتها : هكذا تمكّن هذا الحزب من تمتين علاقاته بجمعية مثا "جمعية بيروت الإصلاحية" التي قادها أعيان متعطّشون إلى الامتيازات وبتنظيم شبابي مثل تنظيم "العريضة الفتاة" الذي لا بدّ أن نتعرّض له الآن لكثرة ما كتب عنه وما نسب إليه من "أفكار قومية" وبحركة نابذة هي أخطر الحركات القومية على الشوام قبل "الأترك" هي الحركة الصهيونية. عندما أسّس الداماد فريد حزب "الحرية والائتلاف" شجّع ذلك مجموعة من الشباب الشوام على تأسيس تنظيم "العريضة الفتاة" ، الوجه المحلي الشامي للعروبيين الإسلاميين في المهجر، وكانوا قبل 1911 ينشطون ضمن جريدة "المفيد" (تأسست في 1909) التي لم تكن تمتاز في شيء عن غيرها من الجرائد العثمانية الصباحية مثل "مقتبس" محمد كرد علي حتى أنّه يمكن للمرء أن يقرأ فيها قبل تأسيس "العريضة الفتاة" مقالات لمحمد كرد علي بل للأمير شكيب أرسلان. وهل يتصوّر المرء أن مفكراً مثل شكيب أرسلان يمكن أن يكتب في جريدة "قومية عربية" ؟ وعندما نشر عبد الغني العريسي صاحب "المفيد" كتاب "البنين" ، سنة 1911 ، مترجماً عن الفرنسية وأهداه إلى العروبي الإسلامي رفيق العظم قرض هذا الكتاب كل من الشيخ أحمد عباس الأزهري مؤسس الكلية العثمانية والإسلامي شكيب أرسلان والصباحي محمد كرد علي ورئيس الجامعة الإنجيلية هوارد بليس ، مما يثبت أن عبد الغني العريسي كان حتى 1911 ينهج خطأ سياسياً غير معاد للحزب الاتحاديّ عداء سافراً على الأقلّ بل كان في بعض الأحيان يقف مع هذا الحزب ضدّ خصومه من الأحزاب النابذة مثل حزب "النهضة اللبنانية" الذي كتب عنه في المفيد بتاريخ 21 ديسمبر 1909 : « من الحكمة للبنان ، إذا كان يرغب في التقدّم أن يوجّه وجهته للدولة العثمانية ويقطع كلّ أمل بالدول »⁵⁴ مبرراً هذا الموقف من القومية اللبنانية بتعلقه بـ "الوطن العثماني" غير القابل للتجزئة إذ أنّه كان يرى في مقال له نشر بالمفيد بتاريخ 28 ماي 1909 ، بعد قمع الحركة الحميدية أنّه «إذا اتحدت عناصر الأمة من عربيّ وتركّي وأرمنيّ

⁵⁴ عبد الغني العريسي . - مختارات من "المفيد" قدّم لها ناجي علوش. - بيروت ، 1981. - 239 ص

والباني، كانت حصنا حصينا وحرزا مكيئا لا تتناولها يد سوء، ولا يتناول إليها قرح أذى⁵⁵.

ولكن خطّ الجريدة بدأ يتغيّر منذ 1911 سنة تأسيس "حزب الحرية والائتلاف" أولا وتأسيس "العربية الفتاة" ثانيا ونشر كتاب "البنين" ثالثا، وهو كتاب تدلّ مقدّمته، في مجملها على تفكير عبد الغنيّ العريسيّ العربيّ الإسلاميّ المتأثر أشدّ التأثر بالكاتب والطبيب الفرنسيّ المحافظ غوستاف لوبون. فإضافة إلى إدمون ديمولين وغستاف لوبون اللذين لم يكن العريسيّ يعتبرهما من "هذا العصر" ودعا جيله إلى التشبّع بأفكارهما كتب :

« ولو خيّرت لذكرت من رجال هذا العصر جمال الدين الأفغانيّ، محمد عبده⁵⁶ أحمد لطفي السيد، محمد رشيد رضا، رفيق العظم، عبدالحميد الزهراويّ، شبلي الشميل، جرجي زيدان، عبدالرحمن الكواكبيّ، يعقوب صروف⁵⁷. وفي هذه الجماعة يلاحظ المرء وجود أربعة أعلام من العربيين الإسلاميين تأثروا إن قليلا أو كثيرا بـ "حضارة العرب" لغوستاف لوبون.

تمثّل تغيّر خطّ "المفيد" سنة 1911 في تبنيّ مطالب الكولونيل صادق بالعمل بما نصّ عليه دستور 1908 والمحافظة على الشريعة... وبلغة صريحة لا تصدر إلا عن شاب متحمّس (20 سنة) إذ سيكتب عبد الغنيّ العريسيّ في المفيد بتاريخ 20 جوان 1911 في لهجة «بوسويّة» (نسبة إلى بوسويه) ما أبدها عن الشدياقية :

« أن الأمير لا يمتلك قلوب رعيته، ولا يتصرّف بها حسب إرادته، إلا متى ضرب على مشاعر أمته (...). فإن قومنا لا يشعرون إلا باسم الدين، فعلينا بإقامة شعائره وأعظم لها شعار الخلافة⁵⁸.

لا يسمح الشاهد المتقدّم بأكثر من قراءة واحدة لتفكير عبد الغنيّ العريسيّ الذي كان يوصي جيله قبل قليل بالإقتداء بالماسوني جورجى زيدان والملاحد شبلي شميل

⁵⁵ عبد العبي العريسي. - مختارات المفيد، ص 187

⁵⁶ لا نفهم لم اعتبر العريسي جمال الدين الأفغانيّ ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبيّ من هذا العصر " إلا أن يكون ذلك تشبّثا منه بالربط بين المؤسسين للعروبة الإسلامية (ولا شك أنه كان يعتبر خطأ منه أن جمال الدين الأفغاني هو رأسهم) و تلامذتهم

⁵⁷ ناهي علوش. - مقدّمة مختارات المفيد، ص 35.

⁵⁸ عبد الغنيّ العريسي. - مختارات المفيد، ص 53.

والماسوني يعقوب صروف وهي الصبغة السياسية الماكيفيلية لتفكيره وتفكير جماعة المفيد وأشياها بل جماعة اللامركزية المهجريّة إذ ألم يعرف محمد رشيد رضا السياسة بأنها "المصلحة" ⁵⁹؟ لقد كان القوم يرون أن العدو الأكبر هو حزب الاتحاد والترقي العثماني ولا يولون الاختلاف بينهم في النظرة إلى الأشياء قيمة تذكر وبذلك حالوا دون ظهور تيارات فكرية واضحة المعالم والفروق. ومن يلق نظرة على "المفيد" بداية من سنة 1911 يعجب للهجة الدينية التي غلّقت بها مطالب «المفيد» الدستورية عجبه من تكفيرها جماعة حزب الاتحاد والترقي تكفيرا رشيديا رضاويا. فقد كتب العريسي في 12 مارس 1911 :

"كفى للأمة العربية فخرا أن أنبت الله منها رجلا عمّت شريعته الأرض فعمت لغته ولن يستأصلها السفهاء والقرآن على وجه الأرض. فالقرآن قسطاس الحق، صورة الحق. فمن حدّثته نفسه أن ينال الحق عز وجل بشيء فقد حدّثته نفسه سفها ورمّت به شططا، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره "

عندما تصبح إيديولوجية من الإيديولوجيات قابلة للتراوح بين لهجة قدماء جمعية بيروت السرية اللائكية ولهجة محمد رشيد رضا العروبية الإسلامية بل لهجة شكيب أرسلان الإسلامية يقترب المرء اقترابا خطيرا من منطقة العتمة الإيديولوجية التامة وتضيع الأجيال اللاحقة في تبيّن خيط العروبة الأبيض من خيطها الأسود.

وعندما اقترب التذمر عند المعارضة العثمانية الائتلافية من الذروة في جوان 1911 لم ير عبد الغني العريسي حرجا في المطالبة بردّ السلطات إلى "أمير المؤمنين الخليفة محمد رشاد" مقاومة منه للعثمانيين الاتحاديين الذين سلبوه كلّ سلطة وعوّضوا عبارة "الخلافة الإسلامية" بعبارة "الإمبراطورية العثمانية" فكتب بتاريخ 20 جوان 1911 :

« (الله أكبر) كلمة نطق بالأمس بها أمير المؤمنين في صحراء الألبان فارتجت لها قلوب المسلمين في أنحاء الأرض خشية وروعا وأجفلت منها قلوب الفرنجة هلعا وجزعا (...). فنحمد الله أن تغلب معنى الخلافة الإسلامية على الإمبراطورية العثمانية وظهر لأولياء الأمر

⁵⁹ كتب أسعد داغر «في اجتماع من اجتماعاتنا في المنتدى الأدبي دار حديث بيني وبين توفيق البساط (أعدم 1916) وعبد الكريم الخليل (أعدم 1916) وجلال البخاري (أعدم 1916) (...) فكان مما قاله لي توفيق البساط "إذا كُنا نريد الجامعة الإسلامية فلماذا نحاول بثّ الفكرة العربية؟ وقال عبد الكريم الخليل "إن فكرة الجامعة الإسلامية تسودي إلى الوهن أكثر منها إلى القوة لأنها تنفّر الغرب بينما لا تستطيع أن تمدّ الشرق بقوة" وقال جلال البخاري : "كيف يمكننا أن نوفّق بين اعتناقنا للفكرة الإسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة" (داغر، مدكراتي، ص 46)

ما لهذا المعنى من القوى الهائلة إذا اشتدت الأزمة و تعاصت الكلمة. وأولى بذواتنا وسادتنا أن يوعزوا لجاهد و إخوته فيتفهموا أن إطلاق الإمبراطورية العثمانية على هذه الملكة لمّا يمسّ عواطف المسلمين وتقطع به قوّة المؤمنين⁶⁰ ومتى انقطعت هذه القوة لحق بالدولة الخسار لا قدر الله والدمار. إن معنى الخلافة قاعدة لا أرسخ منها للسياسة الخارجية تستند عليها الدولة في مهمّات الأمور فإن سعى الأغرار⁶¹ في استبدالها كانوا كالجنّة على أنفسهم بل على الأمة العثمانية ومن ثم على الأمة الإسلامية. كلاً لا مطلقاً (كذا!) بالأذى كل من يمسّ مقام هذه الخلافة أو ينقص من قوتها. فالخلافة الخلافة يا أمير المؤمنين، فهي درؤنا إن امتحناً وغيثنا إن أجد بنا. فامنع بحكمتك هؤلاء الأغرار والآ وردنا تهلكات البوار. إن الأمم والممالك لا تقوم لها قائمة إلا متى اتحدت عواطفها وتوحدت ميولها⁶² وإن الأمير لا يملك قلوب رعيته ولا يتصرّف بها حسب إرادته، إلا متى ضرب على مشاعر أمته فقد عرف باليقين أن أكثر العواطف اتحاداً في هذه الملكة وأقربها تمازجاً وأشدّها تحسّساً عاطفة الدين، فاعمل بها يا أمير المؤمنين وأنت العزيز في قوّته، الحصين في منعته. سعى كثير من القوم في استبدال عاطفة الدين بعاطفة الوطن⁶³ فلم ينالوا بغية ولا مراماً. وريثاً تتغلّب هذه على تلك يخشى السقوط. وأشدّ سقوط الأمم ما كان بين الفترات يا أمير المؤمنين. خطب القوم يا خليفة الله في أرضه فاستحثّوا أنفسهم باسم الوطن و استوكلوا الأكفّ فلم ينبض لهم عرق ولم يخفق قلب ثم نشط ناهض فنادى أن (أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) و(جاهدوا في سبيل الله) و(أنفقوا ممّا رزقكم الله) فخشعت قلوب وذرفت دموع وبرّت أيدي (كذا!) فالسياسة السياسة! فإن قومنا لا يشعرون إلا باسم الدين، فعلينا بإقامة شعائره وأعظم لها شعار الخلافة. على أن الدين لا ينفي الوطن فالإسلام دين

⁶⁰ يلاحظ التشابه ها بين مآخذ العروية الإسلامية على العثمانيين الاتحاديين ومآخذ عبد الرحمن الكواكبي على تنظيمات عبد المجيد.

⁶¹ الأعرار يقصد العثمانيين الاتحاديين

⁶² نلاحظ أن السلطة كانت تعدّ ملايين من المسيحيين وبعض مئات الآلاف من اليهود (في سلاتيك خاصة)

⁶³ من بين هؤلاء العثمانيون الاتحاديون فمآخذ العرويين الإسلاميين إذ على الاتحاديين هو أخذ هؤلاء الكومبوليتية في حين يصرّ العرويون الإسلاميون في هذه الفترة على أن يكون الحكم قسمة بين المسلمين العرب والترك دون غيرهم

وجنسية⁶⁴ وما انفكّ الدين الإسلاميّ منذ نشأته عن السياسة. فديننا في السياسة والمصلحة وسياستنا في المصلحة والدين : وأينما تكن المصلحة فثمة دين الله كما يقول ابن قيم الجوزي (كذا !). نعم إنّ الدين الإسلاميّ لا ينفي الوطنية فهو حريص على إخاء المواطنين من غير المسلمين حفيظ لمساواتهم، رقيب لحريتهم⁶⁵ قلهم ما لنا وعليهم ما علينا ولهذا لا يتخوّف عقلاء المواطنين هذه الرابطة⁶⁶ فقد أيقنوا أنّ باتحاد المسلمين، ونهضة المؤمنين بقاء حياتهم ورغد عيشهم ولا يتخوّف منها إلّا أعداء المملكة. فاحرص يا أمير المؤمنين على هذه الرابطة، رابطة الخلافة الإسلامية ولا تنهه منها مهما شئع الأجانب بمبدئها "البانسلايسم" فالعدو لا يعنى إلّا بما يخشى سطوته ويحاذر قوّته. إنّ أشد وثاق لهذه الرابطة العطف، يا أمير المؤمنين، على الأمة العربية فيشتدّ ساعد الترك وتشتدّ قوّتهم فينهض العنصران⁶⁷ ومن ثمّ تنهض الأمة جمعاء. ومتى تحرّك الجميع فأبى بأس تحاذر، وأي جيش تخشى، فلو رميت إذّاك فما رميت ولكنّ الله رمى. إنّ الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن، وأي سلطة أعظم من خلافتك يا أمير المؤمنين على قلوب المسلمين فاعطف على هذه الأمة بزورة حتى تجعل قلوبها تكأة لجلالتك وخفقاتك حياة لسلطتك"⁶⁸

غزا الإيطاليون أثناء وزارة جيوفاني جيوليتي الرابعة (1911-1914) طرابلس في غمرة من الحماس الاستعماريّ عبّر عنها الشاعر غبريلي دانونترزيو d'Annunzio (1863-1938) تعبيرا يذكر بحماس رديارد كيبلينغ للاستعمار الأنكليزيّ فأثار هذا الغزو العثمانيين الاتحاديين إثارة لا حدود لها فاجتهدوا قدر المستطاع⁶⁹ في الدفاع عنها. ولكنّ قضية طرابلس لم تشغل بال العثمانيين الائتلافيين (أمثال أبناء خير الدين التونسي الثلاثة...) وأنصارهم من العربيين الإسلاميين الذين كانوا يحصرون مفهوم العروبة، تماما مثل غوستاف لوبون ونجيب العازوري، في الشرق الأدنى.

⁶⁴ لهذا وصفا هذا التفكير بالعروبي الإسلامي لا بالعربي الإسلامي ولهذا قلنا إنّه معاد لتمكّر البروتستانت من قدماء

جمعية بربوب السرية

⁶⁵ رفض عروبيّ إسلامي يرقى إلى رفض محمّد عبده فكرة المساواة.

⁶⁶ عقلاء المواطنين : من ليسوا من "الاعرار"، ولنتذكر عبارة "عقلاء الترك"

⁶⁷ فكرة العصريين الكبيرين هي فكرة قارّة، كما رأينا، عند محمد رشيد رضا.

⁶⁸ عبد الغني العريسي. - مختارات المعيد، صص 52-54.

⁶⁹ نقول قدر المستطاع للوضع المالي الذي كانت عليه خزانة الدولة

نعم، نحن نجد صدى لهذه القضية عند العريسي، وقد يكون ذلك بسبب أصله الليبي، ولكن الأمر لا يتعداه ليشمل كبار العربيين الإسلاميين بشهادة شكيب أرسلان :

«ولما كنت في مصر أثناء حرب طرابلس قال لي رفيق بك العظم : ليس عندنا اليوم وقت للاشتغال بصحاري طرابلس فأجبتة فوراً إن لم نقدر أن نحفظ صحاري طرابلس لم نقدر أن نحفظ جنان الشام»⁷⁰. وموقف محمد رشيد رضا لا يقل عن موقف رئيس لامركزية القاهرة وضوحاً :

«كان السيد رشيد لعهد الأستاذ الإمام قد شمله غضب الخديوي عباس حلمي لأجل غضب الخديوي على الشيخ محمد عبده فلما مضى الشيخ إلى ربّه عاد الخديوي ففرضي على السيد رشيد⁷¹ وعندما مررت أنا بمصر كان السيد رشيد رضا من المقربين عند الخديوي كما كان من المقربين أيضاً عنده الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد. فبدأ للخديوي وقتئذ أن يزهّدني في الذهاب إلى الجهاد في طرابلس لأنّه كان عنده مشروعات أخرى سياسيّة يظنّ أنّه يقدر أن يدخلني فيها فاعتذرت له عن قبول أمره وقلت له إنني قاصد إلى الجهاد في طرابلس وما خرجت من بيتي في جبل لبنان إلا بهذه النية فلا بدّ من إتمامها بالعمل. فتكلّم الخديوي مع كل من السيّد رشيد والشيخ علي يوسف لعلّهما يتمكّنان من تحويلي عن تلك الفكرة فتكلّما معي فوجدا أن لا سبيل إلى ذلك»⁷²

ويوضّح الإسلاميّ شكيب أرسلان في موضع آخر السبب الحقيقيّ لسعي الخديوي :

«...نزلت ضيفاً على الخديوي وكنت أظنّ أنّ الخديوي سيحفي السؤال عن الحرب الطرابلسيّة وعن أحوال المجاهدين فلم أجد شيئاً من ذلك ثمّ علمت أنّه كان على اتفاق مع الطليان بأن يبيعهم سكّة حديد مريوط بمليون ونصف جنيه لأنّ السكّة المذكورة كانت ملكاً خاصاً له وأنّه بمقابلة ذلك كان الخديوي وعد السلطان بتسكين الثورة السنوسية⁷³ وبالفعل أرسل جملة وفود إلى السيد أحمد الشريف السنوسي ينصحه بترك الجهاد والاتفاق مع

⁷⁰ شكيب أرسلان. — سيرة ذاتية، ص 84

⁷¹ كانت العلاقات سيئة بين عباس حلمي و الاتحاديين ولذلك فقد يكون من أسباب عداوة محمد رشيد رضا لهم منذ

1909 استجلاب عطف عباس حلمي.

⁷² شكيب أرسلان. — السيد رشيد رضا... ص 149

⁷³ يلاحظ الإتفاق، ها، بين السلطان محمد رشاد والعثمانيين الائتلافيين حول مسألة "صحاري طرابلس"

إيطالية». ⁷⁴ إن الصهاينة أنفسهم فهموا سنة 1912 ما يمكن أن تقود إليه الخصومة بين العثمانيين الائتلافيين والعثمانيين الاتحاديين من نتائج يصعب تقديرها ولذلك فضلوا أن يبقوا منها موقف الحياد أما الإسلاميون فقد وصل بهم استنكار الموقف العربي الإسلامي من الحرب الطرابلسية إلى حد تكفير العربيين الإسلاميين «لما كنت في عين منصور (فوق درنة) تلاقيت مع الشيخ صالح التونسي رحمه الله وكنت أقضي أكثر ساعات نهاري في مجالسته وكنت أراه يمقت آراء السيد رشيد في الدين وأجتهد في تعديل أفكاره من جهته فكان مصراً على سوء ظنه به وبأستاذه الشيخ محمد عبده. وعلمت منه أنه لما مرّ الشيخ محمد بتونس حصل بينهما جدال شديد. ومن غريب ما سمعت من الشيخ صالح مما يدل على شدة نفوره من الشيخ رشيد أنني مرّة كنت أقرأ في مجلة المنار فظهر الغضب على وجهه وقال لي إن فيها كثيراً من الضلالات وأحياناً من الكفر والعياذ بالله ثم قال إنّه نسي عدداً من المنار في خيمته فكان أن طلعت عليه الشمس ذلك اليوم قبل أن صلى صلاة الفجر وإنما كان ذلك من شؤم المنار (...) ولما رجعت إلى مصر رأيت الشيخ رشيد يعلم أنني كنت كثير المجالسة في معسكر عين منصور للشيخ صالح التونسي وكأنه يعاتبني من أجل هذه الملازمة فأجبت بأتنا كنا في برية لا يوجد فيها من أجالسه أحسن من الشيخ وأني كنت دائماً أذاف عن مبادئه وأفكاره أمام خصمه» ⁷⁵. رغم هذا الموقف الذي وقفه العربيون الإسلاميون عملياً من المقاومة الليبية فإن جريدة المفيد لم تدخر جهداً في تخوين العثمانيين الاتحاديين واتهامهم بمحاولة عقد صفقة مع إيطاليا للتفريط في هذا الجزء من "الخلافة". فقد كتب العريسي في المفيد بتاريخ 14 مارس 1912 من باريس وكان قد هاجر في فيفري لـ "لدراسة":

«أصبح هذا اليراع العثماني بعد فعلة الطليان في بيروت لا يجاهد إلا في الدفاع عن حوزة الأمة (...) تساقطت البرقيات علينا بعد ساعات قليلة من ضرب المدينة فأدمت قلوبنا وقرحت أجفاننا، نحن فتیان الأمة العثمانية في هذه العاصمة (...) إن العاقل ليجد في ضرب بيروت دليلاً على فشل الطليان في طرابلس الغرب (...) بشهادة قائد الحملة كنيفا، إذ سأله ملك إيطاليا عن النجاح فصرح قائلاً: كلاً ثم كلاً (...) فالثبات الثبات يا وجوه الأمة في معارضة الوزارة إذا أرادت أن تعقد صلحاً (...) أليس من الغريب أن العرب والجنود

⁷⁴ شكيب أرسلان. — سيرة ذاتية، ص 86

⁷⁵ شكيب أرسلان. — السيد رشيد رضا... صص 149-150

يظهرون من أفانين الشجاعة عجباً (...) وفي جرائد باريس أنّ جماعة سلايك أرسلوا سالم إيهودي إلى رومية لمخابرة الطليان في عقد الصلح ! تا لله إنّ هذا ليوهن العزائم ويدفع إلى اليأس والقنوط ⁷⁶»

يتهم العريسيّ العثمانيين الاتحاديين بالخيانة والتصهين معا لأنّه كتب هذه المقالة في مارس 1912 ولسوف يطرد العثمانيون الائتلافيون العثمانيين الاتحاديين من الحكم في جويلية 1912 فيعود العريسي من باريس إلى بيروت ليملك فيها ثلاثة أشهر. وهنا نلاحظ تغيير لهجة "المفيد" فيما يتصل بالصهيونية فقد كتب في المفيد (ديسمبر 1912) داعياً إلى جامعة وطنية « ينضم إليها المسلم والمسيحيّ والإسرائيليّ والائتلافيّ والاتحاديّ بحيث أن لا يكون أثر للخلاف في بلادنا » ⁷⁷ بل إنّ الائتلافيين سوف يوقعون في 2 أكتوبر 1912 معاهدة صلح مع إيطاليا فلا يتعرّضون لنقد "المفيد". فما هو يا ترى السبب الذي دفع المفيد إلى أن يغيّر لهجتها؟ إنّ سبب ذلك هو أنّها كانت ظلاً لجماعة المركزية في القاهرة. ولقد كان شغل هؤلاء الأوّل هو مقاومة العثمانيين الاتحاديين لا الصهيونية التي لم يكونوا يرون فيها خطراً كبيراً كامناً على الشام جميعه. وفي هذا الموضوع كتب شارل رزق: « على أنّ الصهاينة سوف يجدون الموقف الأقلّ عداء لهم إن لم يكن الأكثر تعاطفاً معهم في حزب اللامركزية المعتدل في مطالبه الاستقلالية. ففي فيفري 1913 نشر سكرتير هذا الحزب، حقّي باي العظم ، في "الأهرام" بالقاهرة مقالا تناول فيه ثانية تحليل رشيد رضا في المنار ورحب فيه بالاستيطان اليهوديّ في فلسطين. وفي الوقت نفسه وقعت مفاوضات في القسطنطينية بين حزب اللامركزية من جهة وبين الدكتور جاكوبسن ومساعدته سامي هوشبرغ ⁷⁸ الذي كان يدير فيها جريدة باللغة الفرنسية هي جريدة "التركي الفتى". ومن ناحية ثانية فإنّ هوشبرغ سيحضر، بصفة ملاحظ، مؤتمر باريس في 1913. وقد سلّم رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي هوشبرغ، حديثاً للنشر في "التركي الفتى" كثير الدلالة على عقلية حزب

⁷⁶ عبد العني العريسي. - مختارات المفيد، ص 76.

⁷⁷ عبد الغني العريسي. - المصدر السابق، ص

⁷⁸ سامي هوشبرغ (Sami Hochberg) ولد في بيسارابيا سنة 1869 وهاجر الى فلسطين سنة 1889. ساهم في تأسيس (ناس سيونا Nes ziona) وعمل معلّماً و طبرية. استقر هاية الأمر في الآساسة ولعب دوراً نشيطاً عند الأتراك الفتيا واللامر كزير العرب. أسس جريدة "التركي الفتى" التي كانت تدعمها الهيئة التنفيذية الصهيونية للدواع على المطالب الصهيونية في العاصمة التركية (والتركيا - تاريخ الصهيونية، ص 250).

اللامركزية : "إننا ... على يقين أن إخواننا الإسرائيليين في العالم جميعه سيعارضوننا سواء فيما يتصل بتحقيق مطلبنا المشترك أو بالنهوض المادي والمعنوي ببلدنا المشترك". ولكن بداية الاتفاق العربي الصهيوني توقفت هنا قبل الحرب العالمية الاولى⁷⁹ »

إن مضمون كلام شارل رزق هو نفسه الذي نعرش عليه عند بعض المؤرخين الصهاينة :

« في جوان 1913، انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس ومن جديد أبلغ هوشبرغ الذي كان ينشط قريبا من أجواء المؤتمر لحساب الحركة الصهيونية عن وجود بعض من حسن الاستعداد لدى العرب ولكن انقسامات كانت تشق صفوف المعسكر الصهيوني. وأشعر مخاطبو هوشبرغ هذا الوسيط أن من الأفضل عقد اتفاق شبه رسمي لأن اتفاقا طبق الأصول الواجبة يثير الأتراك ويضر بالقضية الصهيونية وبالقضية العربية. كان كثير من الناطقين باسم العرب مثل أحمد طيارة وأحمد مختار بينهم يؤكّدون أن في فلسطين متسعا للعرب وللإهود ولكن آخرين كانوا أكثر تحفظا. فالإهود حسب هؤلاء لا يساندون الحركة القومية العربية. وفي نهاية الأمر أحجم المؤتمر كلياً عن الحديث عن "المسألة اليهودية" في قراراته. وقد عقب سعي هوشبرغ حديث أجراه جاكوبسون مع الزهراوي الذي رأس المؤتمر من دون أن يقضي إلى أي اتفاق. بعث الأتراك في أثناء ذلك سكرتير حزب الاتحاد والترقي (إلى باريس) الذي وعد بالاستجابة لأغلب مطالب العرب فنتج عن ذلك مباشرة تحوّل أنظار العرب عن عقد إتفاق مع الصهاينة⁸⁰. هكذا يتبيّن المرء الصبغة الفضاضة والخطرة في الآن نفسه لسياسة حزب اللامركزية العثمانية في القاهرة، هذه الصبغة التي ستمكّنه في جوان 1913 من عقد مؤتمر باريس الذي بدأ التحضير له بداية من جانفي 1913 أي بداية من عودة العثمانيين الاتحاديين إلى الحكم. وفعلا فما أن انقضى هؤلاء على خصومهم الائتلافيين في 23 جانفي 1913 حتى بدأ طلاب باريس ينشطون في التحضير للمؤتمر. ونحن لا نتصوّر إمكانية أن تتمكّن جماعة قليلة من الطلاب الشباب القليلي الخبرة من أن تجمع في مؤتمر واحد محترفين سياسيين من جيل سابق لجيلها ومن تيارات مختلفة (الزهراوي، نعيم مكرزل، سلام، هو شبرغ) من دون أن يحركها محرك خاصة إذا عرفنا أن من قاوم فكرة انعقاد المؤتمر في باريس هم أعلام شوام لا يقلّون شهرة ونفوذا عمّن سبق أن

⁷⁹ شارل رزق. - بين الإسلام والقومية العربية، ص 217

⁸⁰ لاكم تاريخ الصهيونية، ص 252

ذكرنا من الأسماء نقصد أمثال شكيب أرسلان وعبد الرحمن اليوسف ومحمد العظم⁸¹. فقصة تفكير جماعة العربية الفتاة في عقد مؤتمر "عربي" في باريس واستقرار رأيها بداية من مارس 1913 على مراسلة مختلف الجمعيات المعارضة للعثمانيين الاتحاديين واستحسان هذه الجمعيات الفكرة هي قصة يجب التخلي عنها نهائيا لأنها تضخم دور "العربية الفتاة"

⁸¹ تحدّث هشام شرابي، عن العربية الفتاة مضخماً دورها على النحو التالي: "كانت أول جمعية سياسية وأهمها في فترة ما قبل الحرب "جمعية العربية الفتاة" التي تأسست في باريس في 1911. وكان هذا الشكل التنظيمي أساس المعارضة العربية للفكرة العثمانية ورأس الرمح لعمل قومي ملموس. ولقد تأسست هذه الجمعية على غرار "إيطاليا الفتاة" وغيرها من الجمعيات السرية الأوربية (...). وقد حافظت على طابعها السري حتى اعتقال معظم قادتها البارزين في دمشق وبيروت في ربيع وصيف 1915 « (هشام شرابي. المثقفون العرب والغرب. - بيروت، 1971، هوامش الكتاب). يخشى المرء، إن قارن بين ما كتب شرابي عن هذا التنظيم وما كتب عنه الأمير مصطفى الشهابي، وهو على أية حال أكثر قربا من المؤسسين، أن يكون التركيز على الشكل عند شرابي "تأسست على غرار إيطاليا الفتاة وغيرها من الجمعيات السرية الأوربية" قد قاد إلى تضخيم دور هذا التنظيم أكثر مما كان في حقيقة الأمر "كان أساس المعارضة العربية للفكرة العثمانية ورأس الرمح لعمل قومي ملموس". لقد كان "رأس الرمح" في هذه الفترة هو العروبيون الإسلاميون من الجيل السابق لجيل العربية الفتاة أي محمد رشيد رضا ورفيق العظم وحقي العظم بغض النظر عن تأخر ظهور "حزب اللامركزية" وهؤلاء علاقة لهم كبيرة بإيطاليا الفتاة ولا إعجاب عندهم بـ "غاربيالدي" المعادي للفكرة الدينية. وبعض المنتمين إلى العربية الفتاة ينفي حتى امكانية أن تكون قد تأسست في باريس سنة 1911 على أيدي الجماعة التي سنعرّف بها لاحقا. كتب الشهابي، وهو ليس من مواليد ثلاثينات القرن العشرين (ولد شرابي سنة 1929): "كُتبت في الجزء الثاني من كتاب" الاستعمار" وكذلك كتب الأستاذ عزّت دروزة (ودروزة انتمى إليها سنة 1916) في كتاب "حول الحركة العربية الحديثة" أن الجمعية تأسست في باريس سنة 1911، وقد وهم كلانا لأنني اطلمت في القاهرة لدى الأستاذ محب الدين الخطيب على منشورين سياسيين للجمعية بعنوان الصرخة الأولى والصرخة الثانية وكذلك على كرتس يشتمل على منهجها، فوجدت في ثلاثتها ختما للجمعية تاريخه 1909 وشعاره نخلة. وفي المنهج المذكور أنها تأسست في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1909" (الشهابي، القومية، ص 73، المامس).

ومحب الدين الخطيب الذي يتحدّث عنه الشهابي كان عروبيا إسلاميا صرفا وسيتحول في نهاية الأمر إلى الإسلامية فيصبح مدير مجلة الأزهر وصاحب مجلة "الزهراء" والشورى والمطبعة السلفية المشهورة.

إن ما نذهب إليه هو وحده الذي يفسّر لم لجأت "العربية الفتاة" (أي بسبب ضعفها) الى حزب اللامركزية سنة 1913 "تلّمس" مه الاشتراك فيما "أرمت عليه من عقد مؤتمر باريس" هذا إذا لم يكن أعيان" الجمعية الإصلاحية في بيروت وحرب "اللامركزية" في مصر هم الذين "أوحوا" بعقد هذا المؤتمر مستغلّين حيوية الشباب في "العربية الفتاة".

تضخيمًا يبيّن تهافته ما كتب عنها أحد النتمين إليها وهو الأمير مصطفى الشهابي الذي كان سنة 1911 طالبا في باريس :

« لقد عرفت شخصيًا جميع رفاقنا في "الفتاة" إلا خمسة أوستة »⁸² وقد قدر عدد المنخرطين فيها على النحو التالي :

« دخل الجمعية قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها نحو ستين شخصا »⁸³ وأضاف : « ودخلها في أيام الحكومة العربية القبطية بسورية ثمانون عضوا أو أكثر »⁸⁴ وبما أننا لا نهتم بمن دخل الجمعية أثناء الحرب الأولى ولا أثناء فترة حكم فيصل، الذي كان من أعضائها، لما نعرف من تكاثر أعداد المتحزبين عندما تقترب الأحزاب من "النصر" فإنه يمكننا أن نقول إن عدد أعضاء جمعية العربية الفتاة لم يكن يتجاوز قبل إعلان الحرب عدد الحواريين الإثني عشر وهم على اختلاف بين المصادر حول بعض الأسماء، الدمشقيون أحمد قدري الترجمان زميل دروزة في الابتدائية الذي سيضمه إليها وجميل مردم أحد أعضاء حكومة فيصل أولا وأحد أركان الكتلة الوطنية في سوريا بعد ذلك ومصطفى الشهابي المعروف بانتمائه إلى الكتلة الوطنية وبأعماله الأكاديمية وصبحي الحسيني و البيروتيون توفيق الناطور ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وتوفيق فائد والبلعكيان الشيعيان رستم حيدر رفيق فيصل في تجربته السورية والعراقية والذي سيقتله في بغداد بسبب الاختلاف حول الموقف من ألمانيا أحد موظفي الشرطة والنايلسي عوني عبد الهادي رفيق فيصل كذلك ومترجمه وهو فلسطيني قام بدور كبير في فلسطين لتجاوز الصراع بين الحسينيين الهاشميين والنشاشيبين الشرکس في الثلاثينات خاصة. هؤلاء هم الطلبة الشوام في باريس الذين أنشأوا "العربية الفتاة" وهم لا يدخلون إلا عرضا في الموضوع الذي ندرس لأنهم من جيل لاحق لجيل الكردي فلا مجال عندئذ للأخذ بما كتب الانتلافي والعروبي الإسلامي دروزة حول هذا الموضوع لأنه ضخم الجماعة حتى أصبح الأمراء الهاشميون وكبار الضباط العثمانيون الاتحاديون المرتدون من أركان هذه الجمعية فضاعت بذلك النواة المؤسسة بتفكيرها الخاص وينشأتها الفكرية الجديدة (الدراسة في فرنسا مثلا وكان أغلب السابقين من الذين درسوا في الآستانة) ضمن هذا البحر المتلاطم ممن ركبوا سفينة العربية الفتاة آخر لحظة.

⁸² مصطفى الشهابي . - القومية، ص 74

⁸³ مصطفى الشهابي . - القومية، ص 75

⁸⁴ مصطفى الشهابي - القومية، ص 73

فهل يتصور المرء أن جماعة من الشباب مثل هذه الجماعة يمكن أن يكون لها دور فعال إزاء محترفين للسياسة من أمثال رفيق العظم وحقّي العظم ومحمد رشيد رضا الذين لا يتورعون عندما يختلفون معهم على أن يكتبوا فيهم ما كتب الكردي في سبب امتحانهم الحقيقي. «وعهده (يقصد عهد عبد الكريم الخليل الذي شنقه جمال باشا) عهد أولاد طاشين، وكان على شيء من البلاهة، مهملًا لأوراقه، وربما تركها في أيدي من لا يعرفهم وخرج لقضاء حاجة، ومثل هذا لا يستودع سرًا، ولا يلقي المؤتمرون معه إلا شرًا»⁸⁵

ولعل جماعة لامركزيّة القاهرة كانت تحتاج إلى حماسة شباب العربيّة الفتاة فتمكّنت بذلك من عقد مؤتمر باريس الذي رأسه الزهراوي وانتهى باتخاذ قرارات دفعت العثمانيين الاتحاديين إلى الاستجابة لبعض مطالب المؤتمرين، بسبب خشيتهم من زيادة توتر العلاقات بين الطرفين في فترة كانت كل الدلائل فيها تشي باقتراب الحرب الكبرى ممّا سبب انفجار حزب اللامركزيّة الذي انقسم قسمين : قسم رفيق العظم وقسم حقّي العظم. والقسم الثاني يرى أنّ ما تحقّق هو أقلّ من المطلوب. هذا الانشطار يعدّ، في نظرنا، دليلًا على نهاية دور جيل محمد كرد علي المدني (40-50 سنة) بسبب اقتراب الحرب وبداية بروز دور العسكريين وهم بغداديون وموصليون أساسًا، أي هم نتاج سياسة مدحت باشا في القرن التاسع عشر الذي وجّه أعدادًا كبيرة من العراقيين من مختلف الطبقات نحو الخدمة العسكريّة. ولهذا لا نعجب لتأسيس "العهد" العسكريّ العراقيّ في جانفي 1914 أي في الشهر الذي انفجر فيه حزب اللامركزيّة المدنيّ الشامي. ولقد نشر محمد حسنين هيكل بعض الوثائق البريطانيّة الهامة حول تأسيس "العهد" بقيادة عزيز عليّ المصريّ وعضويّة عدد كبير من الضباط العراقيين أشهرهم نوري السعيد ورد ضمنها هذا التقرير الذي بعث به المسترر م. راسل من القاهرة إلى لندن حول مقابلة جرت بينه وبين الكولونيل عزيز علي في 16 أوت 1914 :

«إنّنا لا نحن ولا الأتراك كنّا نعرف كثيرًا عن هذه الجمعيّة. كنّا نعرف اسمها من خلال معلومات غير مؤكّدة تردّدت في أوساط استامبول ودمشق. لكنّا منذ فبراير هذا العام تابعنا اهتمام الحكومة التركيّة بهذه الجمعيّة مما أدّى إلى القبض على عزيز المصري ثمّ علمنا

⁸⁵ محمد كرد علي - المذكرات، ص 113-114، والتكّ وتوجّس الخيفة سمة نفسيّة عثرنا عليها عند أغلب محبلي محمد كرد علي (سنتي الزهراوي) فلقد عرضت الدولة بعد مؤتمر باريس وظائف على محمد رشيد رضا ورفيق العظم اللذين قبلا بتسمية الزهراوي، عضو حرمهما، عضوا في مجلس الأعيان فوَحّسا حيفة من الاتحاديين ولم نلتحقا بالآستانة.

أن مجلسا عسكريا شكّل لمحاكمته في أبريل وحكم عليه بالإعدام⁸⁶ ونظرا لنفوذه بين الضباط النشيطين، ونظرا لحقيقة أنّه مصري، فإنّ الحكم لم ينفذّ واكتفى بترحيله إلى وطنه الأصلي، مصر، منفياً في حقيقة الأمر. بهذه الخلفيّة في ذهني استقبلت عزيز المصري اليوم وقد أراد أن يحدثني عن أهداف جماعته ولكنه لم يعطيني تفاصيل كافية عن جمعيّة العهد ولا عن رفاقه فيها وإنّما اكتفى بأن قال لي إنّ جاء إليّ مفوضاً مما أسماه "اللجنة التنفيذية لجمعيّة العهد" بقصد اكتشاف نوايا الحكومة البريطانية تجاه احتمال قيام دولة عربيّة مستقلة عن تركيا وعن كلّ القوى الأجنبيّة مع رغبتهم في إيجاد علاقة خاصة بينهم وبين الحكومة البريطانيّة في مجال السياسة الخارجيّة. إنّ عزيزا عرض أمامي تصوّره لحدود الدولة العربيّة المستقلة التي يفكر فيها هو ورفاقه⁸⁷ وقد حدّدها بخطّ يمتدّ شمالاً ما بين ميناء الإسكندرونة، جنوب تركيا في شمال البحر الأبيض وولاية الموصل امتداداً إلى حدود فارس وهو ورفاقه يعتبرون أنّ قلب هذه الدولة ومكمن قوّتها سوف يكون المثلث ما بين بغداد والحجاز ونجد وسوريا. ⁸⁸ وهم لا يفكّرون الآن في جنوب شبه الجزيرة العربيّة "اليمن وعسير" لأنّ هذه المنطقة ممزّقة

⁸⁶ تفتّنت المخابرات العثمانية إلى تأسيس هذا التنظيم العسكري ولذلك حكم على عزيز علي بالإعدام فتدخلت بريطانيا لتغيير الحكم وقد نظم الباشا والشاعر أحمد شوقي في هذه المناسبة قصيدة التمس فيها تدخل محمد الخامس للحيلولة دون تنفيذ حكم الاعدام في هذا العسكري منها هذه المقطوعة (الكامل)

بالله بالإسلام بالجرح الذي	ما انفك في جنب الهلال يسيل
هلاً حللت على السجين وثاقه	إنّ الوثاق على الأسود ثقل
أيقول واش أو يردّد شامت	صنديد برقة موثق مكبول
هو من سيسوقك أغمدوه لرية	ما كان يغمد سيفك المسلول
فاذكّر أمسى المؤمنين بلاه	واستبقه إن السيوف قليل

⁸⁷ (نسبى القاريء فشر أنه على "مصريته" سرف يستني مصر من هذه الدولة لأنها لم تكن تعتبر قبل ثلاثيات القرن العشرين (الحصري) جزءاً من "الأمة العربية"

⁸⁸ سرف يظهر فيما بعد أنّ الصراع بين القوتين التقليديتين الهاشميّة والرواوية هو صراع شالّ وسيتمثّل دور الحصري في تحويل "قلب هذه الدولة" إلى مصر. ولقد عبّر أحد شعراء البلاط السعودي عن هذا الصراع في البيت التالي هجا فيه فيصل ونسب تكوين الدولة الفيصلية إلى الإنجليز (الوافر)

بسيّك لا بسيّك الإنكليز دخلت الشام "إيزي" ثم "إيزي"

بالصراعات في الوقت الحالي وغير قادرة على الإسهام في المشروع العربي كما يفكر فيه عزيز المصري ورفاقه ⁸⁹»

في هذا الوقت الذي كان فيه حزب العهد يفكر في الانتقال على الدولة العثمانية الاتحادية، خاصة إذا دخلت الحرب، بعون من بريطانيا، حدثت الاتصالات الأولى في فيفري 1914 بين الأمير عبد الله الهاشمي والمعتمد السامي البريطاني في القاهرة اللورد كيتشنر، بواسطة فارس نمر البروتستانتى وأحد قدماء جمعية بيروت السرية بغاية مساعدة بريطانيا والده الشريف حسين ⁹⁰ إذا انتقض، هو أيضا، على الدولة.

هذان طرفان، حجازي (الحزب الهاشمي) وعراقي (حزب العهد) رأينا سعيهما، منفصلين، إلى الاتصال بـ "ألبين الخبيثة" فهل يمكن لحزب اللامركزية (أي من بقي فيه مثل رفيق العظم ومحمد رشيد رضا...) أن يتخلف عن الركب؟ «كل ما عرفناه شخصيا هو أنهم (يقصد الأنكليز) اتصلوا سنة 1914 وقبل إعلان الحرب العظمى الأولى بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس جمعية "الجامعة العربية" وسألوه أن يوفد مندوبين إلى الأمراء عبد العزيز في نجد والإمام يحيى في اليمن والسيد الإدريسي في عسير وبعض زعماء الشام يسألونهم رأيهم في الخطة التي يسيرون عليها حين نشوب الحرب فوافق مبدئيا وسألوه عن النفقات التي يستلزمها هذا المشروع فقدره بألف جنيه دفعت له وأنتدب لهذه المهمة ثلاثة من الشبان العاملين في القضية وهم السادة محب الدين الخطيب، أوفده إلى نجد والشيخ محمد القلقيلي، أوفده إلى بلاد الشام والشيخ عاصم رضا (ابن عمه) أوفده إلى اليمن ⁹¹ واحتل الأنكليز البصرة يوم 21 نوفمبر ⁹² سنة 1914 والأستاذ محب الدين الخطيب ينزلها وكان في طريقه إلى نجد فاعتقلوه فأرسل إلى السيد بالقاهرة يستصرخه لإنقاذه من "بيت خالته" ⁹³ فسعى لدى الأنجليز فأفروا عنه فعاد إلى القاهرة بعد اعتقال امتد أشهراً وأما الثاني أي الشيخ القلقيلي فقد بلغ ميناء بيروت ظهر أول يوم أغسطس سنة

⁸⁹ محمد حستين هيكال، - القنوات السرية، جريدة العرب الصادرة في لندن، أعداد مختلفة بداية من جانفي 1996

⁹⁰ الشريف حسين: ولد في الآستانة سنة 1856 ومات سنة 1931. انتهى حكمه على سقوط مكة سنة 1924 والمدينة سنة 1925 في أيدي الوهابيين.

⁹¹ مؤسسة المار هي في الحقيقة مؤسسة عائلية إذ كان يديرها عبد الرحمن عاصم رضا وصالح رضا ووصفي رضا

⁹² في الوثيقة التي أوردنا بعضا منها قبل الآن كان حرب العهد موافقا على احتلال البصرة

⁹³ من السجن والعبارة مسجلة في تونس.

1914 بباخرة البريد الإيطالية وعلم وهو بالباخرة نبأ إعلان الحرب في ذلك اليوم⁹⁴ فلزمها ولم يبرحها وعاد بها إلى الإسكندرية وعُلِّل ذلك بالخوف من اعتقاله فيما لو وقع بأيدي الترك. وحالت حوائل دون سفر الشيخ عاصم إلى اليمن⁹⁵

هل نعلّق من جديد على شرابي الذي اعتبر "العريّة الفتاة" بمثابة "رأس الرمح" في المقاومة العربيّة وهي التي لم يتمكن الشيخ القلقيلي حتّى من الاتصال بها عند اندلاع الحرب سنة 1914 ؟ لقد بلغت أصداء هذا النشاط السياسي المحموم في القاهرة أسمع "العريّة الفتاة" فاتصلت بجماعة المركزيّة للاطلاع على حقيقة ما يحدث :

« اهتم رجال الحركة في سورّة لهذا النبا وما كانوا يعرفون شيئا عن أي اتصال مع الأنكليز فعدّوا اجتماعا سرّيا قرّروا فيه انتداب الأستاذ الشيخ كامل القصاب العضو في جمعيّة الفتاة ومن كبار العاملين بحقلها للسفر إلى مصر والاطلاع على هذه الاتصالات وإبلاغ القائمين بها أنّهم لا يرضون بما دون الاستقلال التام لبلاد العرب⁹⁶ ولكن كيف السبيل إلى مصر والحدود مغلقة، والطرق مقلّعة، والسفر ممنوع، والسلطات العسكريّة تسيطر على كلّ شيء؟ بيد أنّ هذا لم يبعث اليأس في نفس الأستاذ، وكان معروفا بقوة العزيمة، فجاء إلى بيروت دارسا مستطلعا، فعرف أنّ هنالك باخرة إيطاليّة تصل بعد يومين في طريقها إلى الإسكندرية فاستخار الله، ونقد بحاراً كان يعرفه مبلغا كبيرا أوصله سرّاً وبطريق التهريب إلى الباخرة. وراب الأنكليز في ميناء الإسكندرية أمره عند وصوله فاعتقلوه. بيد أنّ توسّط السيد رفيق العظم ورشيد رضا⁹⁷ لديهم جعلهم يفرجون عنه فذهب إلى القاهرة واتصل بالإخوان فعرف أنّه لم يجر أي اتفاق وأنّ الأمر ما كان يتجاوز أحاديث عابرة⁹⁸ »

يتساءل المرء عمّا يجمع، إنّ استثنائنا العداء للعثمانيين الاتحاديين، بين هذه الجماعات الخمس التي لا يكاد يوجد اتصال بينهما : جماعة عسكري "العهد" وجماعة قدماء جمعيّة بيروت السريّة وجماعة اللامركزيّة وجماعة العريّة الفتاة وجماعة الشريف

⁹⁴ بين مختلف البلدان الأوربية إذ أن السلطنة لن تدخل الحرب إلا يوم 3 نوفمبر 1914 ضدّ روسيا وفرنسا وبريطانيا واليابان.

⁹⁵ أمين سعيد. - أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص 37-38

⁹⁶ ما هي حدود بلاد العرب ؟ وما هي قوة الجماعة التي تترّ هذه اللهجة القاطعة ؟

⁹⁷ نلاحظ أنّا بجزء وساطة جديدة. ولسوف يعتقد رشيد رضا أن الأنكليز سوف "يعترفون له بالجميل" فيصل به الأمر حدّ مراسلة لويد جورج، من دون تفويض، يعرض عليه طريقة حل "القضية العربية".

⁹⁸ أمين سعيد . - أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص 29

حسين كما يتساءل عما يجب أن يكون عليه موقف بريطانيا من كل واحدة منها وهي الدولة الرأسمالية الخبيرة أكثر من غيرها بالشرقين الأدنى والأوسط والتي من صالحها أن تختار أكثر هذه الجماعات إغراقاً في النظرة التقليدية ممثلة في الشريف حسين. فالشريف حسين هو وحده القادر، إلى حد كبير، على التقليل من تأثير البيان الذي صدر بتاريخ 23 نوفمبر 1914 «للعالم الإسلامي (والذي) وقّعه شيخ الإسلام وثمانية وعشرون عالماً من ذوي المناصب الدينية الكبيرة وكان البيان مصدرًا بإذن السلطان بنشره ونصّ الإذن إننا نأمر بأن يوزّع هذا البيان على جميع الأقطار الإسلامية». وقد أهّاب البيان بجميع مسلمي العالم - سواء كانوا من رعايا دول الحلفاء أم لم يكونوا - أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسّرتة الفتوى الشريفة وأن يشتركوا في الدفاع عن الإسلام والأماكن المقدسة⁹⁹. لذلك ستطلب بريطانيا من بقية الجماعات أن تعمل تحت لوائه أي تحت لواء فيصل أي تحت لواء لورنس الذي كان منذ 1909 على صلة بالمنطقة يدرسها دراسة داخلية شدياقية. وهكذا بعث هذا الشيخ البدوي الغريب عن عالم الدبلوماسية الغربية "الماكيفيلية" بفيصل إلى الشام للاطلاع على مدى فاعلية "القوميين". وقد التقى عند وصوله إلى دمشق في 26 مارس 1915 بزعماء جمعية العهد والعربية الفتاة و"انضمّ" إليهما معا وبذلك حصل الإجماع الشكلي الذي طمس اختلاف النظرة إلى الأشياء حتى اقتراب نهاية الحرب الكبرى.

في هذه السنة يجب تنزيل امتحان أحمد جمال باشا الشوام بعد أن عينته الدولة واليا على الشام أي على هذه المنطقة التي لا أحد فيها يجهل صرامته التي بدت منذ 1909 عند قمع الحركة المحمدية «كلمته ست مرات أنا والدكتور شهبندر في رضا بك الصلح وابنه رياض بك¹⁰⁰ فكان جوابه لي ولشهبندر آخر مرة يخاطبني : هل تعرف كل شيء ؟ فقلت كلا. قال : «إن رضا الصلح الذي تتوسط له قد أتى أمرا لو أتاه إبني لأغرقته في البحر حباً بسلامة الدولة، ثم أقف أبكي عليه بصفته ابني (علمت بعد سنين أن الرجل كان يتهم بالدعوة لانكلترا) وطلب ألا نعود إلى الكلام في هذا التهم¹⁰¹»

وقد بارك جورج أنطونيوس هذا الاختيار البريطاني فكتب :

⁹⁹ جورج أنطونيوس، اليقظة، ص 222

¹⁰⁰ رياض الصلح : لم يقتل إذاك ولكنه قتل سنة 1951 في عمان. (الموسوعة العربية الميسرة، ج 2)

¹⁰¹ محمد كرد علي. — المذكرات، ص 155

« لعلّ كتشنر كان أكثر ساسة الحلفاء إدراكاً للأخطار الناجمة عن الموقف في البلاد العربيّة. وسبق له ولرونالد ستورز الفضل في أنهما أول من فكّر في مواجهة هذه الأخطار بخطوتهما الجريئة بعقد حلف مكة. ولقد وجّه منذ ذلك الحين كثير من النقد لتلك السياسة ووصفت بأنها سياسة خاطئة وأنها كانت مبنية على تقدير غير دقيق لأحوال شبه الجزيرة العربيّة، وأنّ بريطانيا العظمى راهنت على الجواد الخاسر¹⁰² حينما اختارت الشريف حسين ليكون حليفها الرئيسي ضدّ الأتراك وفضّلته على ابن سعود¹⁰³ »

لقد آتت السياسة البريطانيّة أكلها إذن فأطلق الشريف حسين، أمير مكة، من شرفة داره، الطلقة الأولى، في 10 جوان 1916 معلناً بذلك بدء انتفاضته ضدّ الدولة ثم أصدر المنشور التالي الذي تحسن مقارنة مضمونه ولغته بما رأينا من تفكير محمد رشيد رضا في الفصل المتعلق بالعروبيّة الإسلاميّة :

« باسم الله الرحمن الرحيم

منشور عام من شريف مكة وأميرها إلى جميع إخوانه المسلمين

”ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

كلّ من له إلمام بالتاريخ يعلم أنّ أمراء مكة المكرّمة هم أول من اعترف بالدولة العليّة من حكام المسلمين وأمرائهم (...) إلى أن نشأت في الدولة جمعيّة الاتحاد والترقيّ وتوصّلت إلى القبض على إدارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة، فحادوا بها عن صراط الدين ومنهج الشرع القيم ومهدوا السبيل للمروق منه واحتقار أئمّته وسلبوا شوكة السلطان المعظم ماله من حقّ التصرف الشرعيّ والقانونيّ أيضاً وجعلوه، هو ومجلس الأمّة ومجلس الوكلاء، منفذين للقرارات السريّة لجمعيّتهم الثوريّة وأسرفوا في أموال الدولة وحملوها الديون الفاحشة (...)

¹⁰² الصراع الهاشمي السعودي قدّم ولسوف يتجلّى حتى أثناء أحداث الكويت سنة 1990 عندما ناصر الشريف الحسين بن طلال صدام حسين. وقد كانت حكومة الهند البريطانيّة تدعم الجواد السعودي وكان مركز القاهرة البريطاني يدعم الجواد الهاشمي. ولسوف تتحلّى بريطانيا في بداية العشرينات عن الشريف حسين، بعد أن نصت أبنيّه فيصل الأول وعبد الله على عرشي العراق وشرق الأردن، فينتلج السعوديون، لحاجتهم إلى منفذ على البحر الأحمر، أمارته، ومن بين أسباب مراهنه بريطانيّة في البداية على الجواد الهاشمي نفور الشوام المسيحيين خاصة من الوهابيّة التي يعتنق تفكير الحسين، على تقليديته مقارنة بما "رحمة" فالحسين ولد بالاستانة وعاش فيها ومن بين زوجاته تركيات. وعندما هربت إحدى حفيداته، الأميرة عزة، سنة 1936، مع نادل مقهى أرثوذكسي وتزوّجته عدّ البعض هذا الحادث من نتائج اختلاط دم الشرفاء بالأتراك. (أنظر : نجدة فتحي صفوة . — العراق في الوثائق البريطانيّة . — البصرة - 1983)

¹⁰³ جورج انطربوس. اليقظة، ص 220

وأضاعوا عدّة ممالك كبيرة من ممالكها ومزّقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة فأوقعوا بينها وبين العنصر الذي أرادوا تسويده عليها وإدغامها فيه العداوة والبغضاء، وخصّوا العرب ولغتهم بالاضطهاد ولم يكتفوا بذلك كله، حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوروبية الساحقة الماحقة (...). ومن باب الأفعال أنهم أبطلوا ما كان محتّمًا على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة فجعلوا الصلاة في نظامهم العسكري اختياريّة غير واجبة توسّلاً بذلك إلى إبطالها بالفعل (...). ثم جاءت أوامرهم في أثناء هذه الحرب إلى الجنود المقيمين في مثل المدينة المنورة أومكة المكرمة أو الشام تحتّم عليهم الإفطار في رمضان بعلّة المساواة بينهم وبين الجنود الذين يقاتلون في حدود الروس... وقد صار أمر هذه الدولة إلى جمعية اغتصبت حقّ آل عثمان الكرام بقوة الثورة وجعلته في أيدي زعانف ليس لأكثرهم في الشعب التركي الإسلامي أصل راسخ، ولا في الإسلام علم صحيح، ولا عمل صالح كانور باشا وجمال باشا وطلعت بك¹⁰⁴»¹⁰⁵

¹⁰⁴ مآخذ الشريف حسين في هذا المنشور دليل على صحّة مذهبنا في تصيف العثمانيين إلى رضا وبين لافيتين وصباحين والاحداث التي اتّخذها العثمانيون الرضاويون أثناء الحرب هي بصفة عامة إجراءات سيّئتها مصطفى كمال عندما سينفرد بحكم تركيا بداية من 1924 وهي إجراءات ستبناها بعض الأنظمة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ولقد عبّر حتى الإسلامي الاتحادي شكيب أرسلان عن امتعاضه منها فكتب :

" والذي يلوح لي أنّه بعد واقعة الدردنيل (1915) التي ظفرت فيها تركيا (كذا !!) بجيش الخلفاء حصل عند رجال الاتحاد والترقي نشوة ظفر غير معهودة ولعبت حمرة النصر برؤوسهم فسكروا وأبرموا قرارات كثيرة من حملتها سفور النساء الذي كان إلى ذلك الوقت ممنوعا. ومن حملتها نقل المحاكم الشرعية من المشيخة الإسلامية إلى نظارة العدلية (يقصد وزارة العدل) وترك المشيخة بدون عمل تقريبا. ومن حملتها القضاء على الروح العربية في سوريا (أرسلان، سيرة ذاتية، ص 155) ما معنى "عملية القضاء على الروح العربية في سوريا" ؟ يشرح الأمر نفسه هذه العملية :

" قد ظهر أنّهم كانوا يريدون القضاء على الوجهة القديمة ومحو نفوذ أبناء الأصالة لأن الأتراك كثيرا ما يتحدثون بكون العرب هم أمة أرستقراطية وأن هذا هو السبب في عدم امتزاجهم مع الأتراك الذين هم أمة ديمقراطية بطبيعتها" (سيرة ذاتية، ص 156)

فللقضية إذن، بعد يتّصل بالنظرة إلى علاقة الله بالطبيعة ومن ثم إلى علاقة الدولة بالمتنم

¹⁰⁵ أمين سعيد . — أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، صص 99-105

وفي حين نظم الرصافي في التعريض بالمنتقذين وأحلافهم (البسيط)

دع الحسينين¹⁰⁶ في مصر وقد بغيا
ففي الحجاز حسين ثالث لهما
هذان قد أخلج الأهرام بغيهما
وبغي ذلك أخزى البيت وحرما
فأنت يا أرض ميدي تحته جزعا
و يا سماء عليه أمطري نقما
قالوا الشريف ولو صحت شرافته
لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما

وفي حين خطب جمال باشا في الموضوع منددا بـ « ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحة لأن ينسب نفسه إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه فقد اضطر الدولة العثمانية إلى أن توجه إليه قوى كان الحق أن توجه لتهزم البريطانيين في القناة وتحتل القاهرة »¹⁰⁷ وفي حين وصل الاستنكار بالأمير شكيب أرسلان حد الشماتة بمن أعدمهم جمال من الشوام لتواطئهم مع بريطانيا وفرنسا :

« لا أزال أحفظ قولاً لأحدهم، وأتحاشى ذكر اسمه لما له من مقام بين الناس إلى يومنا هذا، وقد كتب بعد إعدام الشهداء مقالا نشر له في ذلك الحين ومما قاله حرفيا تعريضا بهم لوعلم العرب ما كان يدبره لهم هؤلاء الخونة لقطعهم إربا إربا ورموا بهم إلى الكلاب »¹⁰⁸ في هذا الوقت الذي شهد الأحداث الدامية التي عرضنا كان أول عمل إيديولوجي قام به محمد رشيد رضا هو "الإفتاء" بشرعية تحالف الشريف الهاشمي المسلم مع النصارى. ولقد صاغ ذلك في أسلوب ينفي مسؤولية الشريف حسين ومسؤولية الفرنسيين والأنجليز في تخطيط هذه السياسة ويرجع ذلك إلى "العناية الإلهية الرحيمة" وكأنه يستند في ذلك إلى "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله" وما يوافقها على مستوى النظرة إلى الطبيعة وإلى المجتمع أي ما يوافقها من انشدادهما معا إلى الله وخلفائه في أرضه :

« أو ليس خذلانه - جلّت قدرته - لحكومة الاتحاديين الملحدين، بما أقدموا عليه من تنكيل بالعرب وانتهاك حرمت الدين وتوقيفه - عمت رحمته - لأمير مكة ومن معه من

¹⁰⁶ يقصد بهما حسين كامل، حديوي مصر الذي نصبته بريطانيا خلفا لعاس حلمي ووزيره حسين رشدي، وكلنت زوجته أختا لأحدى زوجات الشريف حسين.

¹⁰⁷ جورج أنطونيموس يقظة العرب، صص 305-306

¹⁰⁸ عبدة سلام الخالدي -.. جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين . - بيروت، 1978 - ص 105 . وعنترة هي ست سلام علي سلام، أحد أعيان جمعية بيروت الإصلاحية التي اشتركت في مؤتمر باريس وأحت صائب سلام وحطية عبد العبي العريسي. وقد تزوجت بعد إعدامه من عائلة الخالدي الفلسطينية

المسلمين بالخروج على البغاة المارقين وتسخيره - بهرت حكمته - لدولتي الفرنسيين والبريطانيين الكتابيين بحمل الحجّاج من الغرب والشرق إلى البلد الأمين، أليس هذا كلّه أقدارا تتابعت وأسارارا تشايعت «¹⁰⁹

وينتقل إلى نفي حقّ "الترك" في الخلافة وحقّ الآستانة في أن تكون مركز الخلافة ويتخلّص إلى أنّ "الترك" الحاكمين اليوم كانوا في حقيقة الأمر سبب انحطاط "دولة الإسلام العربيّة" :

« أيها المسلمون الكرام من سكّان حرم وحجّاج بيته الحرام، إنكم تعلمون أنّ الإسلام دين سيادة وسلطة وأنّ شريعته نزلت ليقم أحكامها أهله لقوله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (...) وهذه البلاد العربيّة هي مهد الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره، وكان أهلها هم السابقين إلى تلقّيه والاهتداء به، ثمّ تبعه فيه غيرهم من عرب الحجاز فسائر أهل الجزيرة ثمّ حملته العرب إلى سائر الأقطار ونشروه فيها (...) ثمّ طرأ الضعف على الأُمّة الإسلاميّة بتفرّق الوحدة العربيّة الكافلة لها وتغلغل الأعاجم في الدول الإسلاميّة التي تعدّدت بسبب ضعف سلطة الخلافة «¹¹⁰.

وختم كلامه بمدح الشريف حسين الذي وصفه بـ "المنقذ" ودعا المستمعين إليه إلى عدم الكفر بنعمة الله الذي خولهم مثل هذا "الخليفة" :

« لم نر أحدا من زعماء المسلمين وكبرائهم قدّر الحالة الخطرة التي وصل إليها الإسلام قدرها وانبرى لتداركها إلّا هذا الرجل العظيم - أمير مكة وشريفها - فإِنَّه رأى أنّ الدولة - وهو أعلم أهلها بحالها - قد أمست على شفا جرف، وأنّ ملاحة الاتحاديين قد اتّخذوا الأحكام العرفيّة والقوّة العسكريّة ذريعة للتنكيل بالأُمّة العربيّة بتقتيل رجال الفكر والعمل ومصادرة أموال أهل الثروة منها حتى لا يبقى فيها رجاء في عامل ولا في عمل، فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء (...) كلّنا يعلم أنه لا يوجد في الدنيا كلّها مكان يصحّ لتأسيس دولة إسلاميّة تخلف الدولة العثمانيّة إذا ما وقع بهاما نخشاه عليها إلّا جزيرة العرب وما يتّصل بها من البلاد العربيّة لما خصّ الله تعالى به هذه البقعة وأهلها من الخصائص، ولا يعقل أن يحفظ استقلال الإسلام في مثل بلاد الأفغان إن هو زال في مهده وموطن نشأته ومحلّ إقامة شعائره. انفرادت هذه البقاع

¹⁰⁹ محمد رشيد رضا - الرحلات، ص 93

¹¹⁰ محمد رشيد رضا - الرحلات، صص 178-183

الطاهرة المقدسة بأنها أجدر بقاع العالم الإسلامي لإقامة استقلاله¹¹¹ وكذلك انفرد سيدها وأميرها في هذا العصر بالنهوض بما يجب من العمل والاستعداد لتجديد هذا الانتقال (...). أيها الحجازيون ، إن من يكفر منكم لهذا الرجل المصلح المنقذ هذه النعمة فهو أكفر الناس للنعمة¹¹² أيها المسلمون، يجب أن تعلموا أن هذا العمل أعظم خدمة للإسلام في هذا الزمن¹¹³»

كم كان سرور الشريف حسين عظيمًا وهو يستمع إلى هذه الخطبة في منى وكم ستكون خيبته عظيمة كذلك عندما اقتربت الحرب من نهايتها وبلغ "الجيش العربي" العقبة وبدأ يتأهب للزحف نحو الشمال وبدت بوادر الانشقاق بين الشوام والعراقيين ومن ثم تغير موقف محمد رشيد رضا من "المنقذ" الشريف حسين و"أنجالة النجباء"

« فالعراقيون كانوا يؤلفون العدد الأكبر في هذا الجيش ضباطًا وجنودًا، وكانوا تبعًا لذلك يرون أن تكون القيادة بأيديهم والكلمة العليا لهم. أما السوريون فكانوا يرون أن تكون السلطة العليا لهم لأن القتال يدور في بلادهم وداخل أراضيهم، ولأنهم حملة القضية القومية وأول من نادى بها¹¹⁴»

لو بقي عندنا متسع من الصفحات لتوقفنا عند المواجهة بين "حملة السلاح" و"حملة الأفكار" فلنواصل إذن. لقد اتخذت الخصومة شكلًا عمليًا عندما صدر أمر عسكري « يقضي بدمج الفرقتين العسكريتين اللتين كانتا للجيش الشمالي إحداهما بالأخرى وتعيين جعفر العسكري¹¹⁵ قائدًا لهما وكان يتولّى قيادة الفرقة الأولى حسن رفاي الخيمي (وهو سوري)

¹¹¹ ولسوف يكتب بقلمه بعد تمهيش دوره أثناء الحكم الفيصلي في الشام " وإما الحجاز معبد ليس مقر سلطة ولا

... أن يكون كذلك" (الرحلات، ص 276)

¹¹² ولسوف يكتب في الشريف حسين وأبنائه " وأما أمراء الحجاز فقد ظهر فيهم ما كنا نقوله لأبناء الوطن السوري

فيهم وهو أنه لا رجاء فيهم للمسلمين ولا خوف منهم على المسيحيين، لأنهم لا حول لهم ولا قوة بأنفسهم وإما هم

مستخرون لخدمة بريطانيا العظمى" (الرحلات، صص 276-277)

¹¹³ محمد رشيد رضا - الرحلات، ص 182

¹¹⁴ (أسعد داغر - مذكراتي على هامش القضية العربية، ص 241

¹¹⁵ و 116 علاقة جعفر العسكري بسوري السعيد متينة فقد تزوج كل منهما أخت صاحبه. ولسوف يقتل الأول في

انقلاب بكر صدقي سنة 1936 والثاني في انقلاب عبد الكريم قاسم سنة 1958. وتعلق جعفر العسكري ببريطانيا لا حدود له أما تعلق نوري السعيد بها فلقد عبر عنه بقوله " إذ كان دحلة لا يزال يجري في العراق فما ذلك إلا بفضل

وقيادة الفرقة الثانية نوري السعيد (وهو كردي عراقي)¹¹⁶ ويقضي الأمر العسكري الذي صدر بتعيين الأول مفتشاً عاماً للجيش والثاني رئيساً لهيئة أركان الحرب. ولم يلق هذا التدبير ارتياحاً لدى الضباط السوريين (...) واستقال القائم مقام حسن رفاقي الخيمي من منصب مفتش الجيش العام، عقب خلاف نشب بينه وبين جعفر العسكري ولحق بالقاهرة متخلياً عن العمل بالجيش، وانتقل المعسكر العام إلى "أبي اللسن" متابعاً الجيش نحو الشمال» (مارس 1918)¹¹⁷. هذا الصراع حول القيادة بين العسكريين الشوام كان في تلك الفترة قد شاع إلى حدّ دعا الشوام المدنيين إلى أن يتخذوا موقفاً منه. وقد اجتهد شوام المهجر المصري (كامل القصاب، محب الدين الخطيب، عبد الرحمن الشهبندر، محمد رشيد رضا، رفيق بك العظم، أحمد مختار الصلح، حسن حمادة المحامي...) في تطويقه ومن ثم ربط الصلة بينهم باعتبارهم مركز قوى مدنياً وبين فيصل. ولذلك أسسوا لهم "هيئة قومية" سيطروا لها غايتين الغاية الأولى هي الوساطة بين الشقيين العسكريين» إذ لا يجب أن يكون هناك سوري ولا عراقي وأن ينصهر الجميع في بوتقة العروبة»¹¹⁸.

والغاية الثانية هي اقتراح سفر بعض من تخيرتهم هذه الهيئة وهو الماروني المتحفظ إزاء القومية اللبنانية إسكندر عمون إلى أوروبا للتعريف بالقضية إذ «بقاء الثورة في عزلتها لا يجوز مطلقاً إذا لم يكن مضراً بها ومسيئاً إليها»¹¹⁹ كما أنه «لا يجوز أن تبقى (الثورة) محصورة في الإطار الضيق الذي تدور فيه، إطار الأنكليز وحدهم»¹²⁰ ولقد وقعت محاولات عديدة للتوفيق بين العسكريين باءت بالفشل كما أن برنامج سفر إسكندر عمون تخلى عنه الشريف حسين بعد أن وافق عليه وخصص لتنفيذه ألف جنيه وذلك بـ "نصيحة" من بريطانيا، ففسدت العلاقة بينه وبين شوام المهجر المصري قبل أن تضع الحرب أوزارها. ما هو سبب الخصومة الجديدة وما هي علاقتها بخصومة العسكريين العراقيين والشوام؟ لا يربط أسعد داغر مثلاً بين الخصومتين ويقدم للخصومة الثانية سبباً يدعو إلى الاستغراب:

الأنكليز" (داغر، مذكراتي، ص 113) وبصفة عامة يمكن اعتبار الخصومة بين البعثيين العراقيين والسوريين بداية من ستينات القرن العشرين خصومة لها شقيقتها الكبرى بداية من نهاية الحرب الكبرى.

¹¹⁷ أسعد داغر. — مذكراتي، صص 240-241

¹¹⁸ أسعد داغر. — مذكراتي، ص 239

¹¹⁹ أسعد داغر. — مذكراتي، ص 238

¹²⁰ أسعد داغر. — مذكراتي، ص 237

« وفيما كان القصاب يعمل في تأليف الوفد المسافر إلى جدّة والأستاذ عمّون يعدّ معدّات السفر إلى أوروبا وصلت إلى القاهرة جريدة القبلة، لسان حال الحكومة الهاشمية تحمل في صدرها خبراً أثار ضجة كبرى لدى الذين قرأوه أو سمعوا به. فقد نشرت بالنبط العريض ما يلي :

”بشرى للمسلمين بتنفيذ الأحكام الشرعية في الحجاز“ ثم أوردت خبراً خلاصته أن أحدهم حبس في حقوق فتسلّق السجن بقصد الفرار فأدركوه وأعادوه إلى السجن ثم حاكموه وحكموا بقطع يده ورجله من خلاف عملاً بالآية الكريمة : ”جزاء الذين يحاربون الله ورسوله أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وينفوا من الأرض“. وتناقلت الألسن الخبر في القاهرة فرحّب أناس بتطبيق أحكام الشرع الشريف واستغرب ذلك آخرون، واجتمع بعض أعضاء الوفد الذين دعوا للسفر فذهبوا إلى دار الوكالة العربية (يقصد المؤسسة المثلثة للشريف حسين في مصر) معتردين عن السفر. وهكذا فشل المشروع¹²¹ إنّ ما يدعو إلى الاستغراب فيما يتعلّق بهذا السبب الذي قدّمه داغر لفشل المشروع هو أنه يعرض الخلاف بين الشريف حسين وشوام المهجر المصريّ وكأنه خلاف يتعلّق أساساً بموقف من ”تطبيق الشريعة“ والحال أن حركة الشريف حسين نفسها برّرت جزءاً من أسباب قيامها بحيد العثمانيين الاتحاديّين عن الشريعة. ثمّ إنّه لا أحد من جماعة المهجر المصريّ كان يجهل حقيقة الأوضاع في الحجاز بل إنّ البعض منهم (محمد رشيد رضا، محبّ الدين الخطيب...) كانوا من الدعاة إلى ”دولة الإسلام العربية“ ثمّ إنّ محمد رشيد رضا سيتحوّل، فيما بعد، إلى أكبر نصير للوهابيّة ولم يعرف عن الوهابيّة أنّها كانت تنهج غير المنهج الذي نهجه أمير مكّة. وفي نظرنا إنّ اللجوء إلى مثل هذا التبرير للخصومة إنّما كان يهدف إلى تغطية السبب الحقيقيّ وهو ما ذكرنا من هذا الخلاف بين العسكريين العراقيين المقربين من الأمير فيصل والعسكريين الشوام، ولقد كان فيصل بتأثير من لورنس، يعوّل على الأوائل ولا يثق بالشوام بصفة عامة فهو الذي ذكر عنه محمد رشيد رضا أنّه كان يقول في الطبيب عبد الرحمن الشهبندر، خريج الجامعة الانجيليّة، قبل أن يقبل به وزيراً في حكومته سنة 1919:

«إنّني لما عرفت الشهبندر احتقرت جميع أهل الشام»¹²²

¹²¹ أسعد داغر — مذكراتي، ص 239

¹²² محمد رشيد رضا - الرحلات، ص 300

ولعل ما يؤكد ما نذهب إليه هو سعي هذه الجماعة بعد نهاية الحرب إلى التفكير في تأسيس حزب سوري محض لا يتضمن عراقيين : فما أن حلت سنة 1919 حتى دعا بعض هؤلاء (ومنهم كامل القصاب) إلى « فصل القضية السورية عن القضايا العربية الأخرى والسعي إلى إنشاء كيان مستقل لسورية تؤسسه بما يتلاءم مع تطورها وينسجم مع رغبة أبنائها ودعا القصاب وإخوانه السوريون في القاهرة إلى اجتماع عام درسوا فيه الموقف ووافقوا على إنشاء حزب سياسي سوري يعمل للقضية السورية وحدها ووقع الاختيار على السيد ميشيل لطف الله من أعيان السوريين المسيحيين الأرثوذكس رئيسا للحزب الجديد الذي سموه (الحزب الديمقراطي) والسيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وكيلا للحزب الجديد والسليم سركييس سكرتيرا للحزب وتآلفت لجننتها الإدارية كما يلي : رفيق العظم وكامل القصاب والدكتور الشهبندر والدكتور خليل مشاققة والمحامون إسكندر عمون ووهبة العيسي وحسن حمادة، أعضاء¹²³ »

إننا بإزاء ما يشبه التجديد لحزب اللامركزية الشهير وإزاء ما سيمسى أيضا بحزب "الاتحاد السوري" الذي يرفض قيام دولة تتسع لغير سوريا الطبيعية ومن ثم سيكون همه مقاومة فيصل وحزب الاستقلال الذي يضم عراقيين وسوريين من بينهم شق من العربية الفتاة بسبب هيمنتهم على دواليب الدولة الفيصلية (1918-1920). ولقد كان «رأس الرمح» في مقاومة الاستقلايين هو محمد رشيد لأنه كان يحس، لما قدمه من أعمال أثناء الثورة، بغبن شديد وكان لا يقبل بأقل من التعامل مباشرة مع فيصل : فمنذ سفره من المهجر المصري إلى الشام في 12 سبتمبر سنة 1919 كان هدفه الاتصال المباشر بفيصل «سافرت من القاهرة. ولما جئت محطة السكة الحديدية وجدت فيها صديقي رفيق بك العظم جاء لتوديعي فيمن جاء من الأصدقاء فأخبرني أنه قد جاءت برقية من دمشق تفيد أن الأمير فيصل (ملك سوريا اليوم) قد سافر عن طريق حيفا ليسافر منها إلى أوربة فسأني ذلك جد الاستياء لأن لقاء الأمير في ذلك الوقت كان هو المرجع الأول لسفري إلى دمشق مباشرة دون بيروت وطرابلس»¹²⁴

¹²³ أ. سعد داغر. - نذكراتي، صص 241 - 242

¹²⁴ محمد رشيد رضا. - الرحلات، ص 221

فالشيخ لم يخطط للعودة إلى الشام تخطيط من لا يحمل شعورا متصّحّما بدوره السياسي : « كتب إلي علي رضا باشا حاكم المنطقة الشرقيّة العسكري كتابا ذكر فيه أنهم ينتظرون قدومي كانتظار الظمآن الماء »¹²⁵.

وعندما حلّ بدمشق لم يمكنه صنع القرار المحلي من أكثر من رئاسة « البرلمان السوري » وهي رئاسة اعتبر أنّها تكاد تكون شرفيّة لأنّ حزب الاستقلال « انفرد بالنفوذ (في البرلمان) كما انفرد بالنفوذ في الحكومة وفي بلاط الملك »¹²⁶ فما العمل، إذن ؟

نهج محدّد رشيد رضا في مقاومة فيصل نهجين أولهما تأسيس كتلة برلمانيّة معارضة وثانيهما محاربة فيصل والمقربين منه أي على ما يقول محاربة « المعتدلين » ممّا قاده إلى الالتقاء في صفّ واحد مع قوى معارضة لا يجمعها غير معاداة فيصل فحصلنا بذلك على ما يشبه النسخة المطابقة للأصل للمعارضة زمن عبد الحميد وللمعارضة زمن حكم العثمانيين الاتحاديين :

« تألفت كجبهة برلمانيّة مقابلة لحزب الاستقلال العربيّ جبهة الحزب الديمقراطيّ (التي) ضمّت ثلاثين نائبا من الإقطاعيين والمحافظين والمتشدّدين والمعتدلين ولكنهم ناقمون على الحكومة وعلى الفتاة (...) ووضعوا برنامجا من أربع عشرة مادة تهدف إلى تكوين دولة سوريا "بوحدها القوميّة" من طوروس شمالا إلى العقبة جنوبا ومن الفرات والصحراء شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا على أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً بضمانة عصبة الأمم ولها حكومة ديمقراطيّة على مبدأ اللامركزيّة بقوانين مدنيّة ما عدا ما يتعلّق منها بالأحوال الشخصية فإنها تبقى على ما هي عليه. كما نصّ البرنامج على حماية الأقليات وعلى وجوب توجيه برامج التعليم وقبول الانضمام إلى الوحدة العربيّة عند قيامها مع المحافظة على «كيان البلاد القومي» وقد اختير لرئاسة الحزب الأمير ميشيل لطف الله "اللبناني" والشيخ محمد رشيد رضا وكيلا له والدكتور الشهبندر وسليم سركيس سكرتيرين ويمكن القول إنّ هذا البرنامج هو تطوير لبرنامج حزب اللامركزيّة. إلّا أنّ شكل الحكم بقي غامضا لم يوضّح فيه إلى أن اضطرّ إلى تعديل خطّته للتلاؤم مع الجوّ الذي ساد بالحكم الفيصليّ وبانضمام الدكتور الشهبندر إلى جمعيّة الفتاة الحاكمة ودخوله الوزارة الدفاعيّة »¹²⁷. هذا هو

¹²⁵ محمد رشيد رضا . — الرحلات، ص 220

¹²⁶ محمد رشيد رضا . — الرحلات، ص 309

¹²⁷ دوغان قرقوط . — تطور الحركة الوطنيّة في سوريا 1920 - 1939 . — بيروت، 1975 - ص 33

موقف محمد رشيد رضا و حزب "الاتحاد السوري" من الاستقلايين جماعة فلنعرّض لموقفه من بعض رموزهم بداية من فيصل ومرورا بهاشم الأتاسي ووصولاً إلى وزير المعارف ساطع الحصري.

نكتفي فيما يتعلّق بفيصل بما ذكر عنه محمد كرد علي :

« إنه ما كان يتوقّف عن الاختلاف إليه قبل الشمس في غرفة منامه، ولا في ساعة متأخرة من الليل وهو يتهيأ للدخول إلى فراشه يباغته في خلوته وجلوته حتى ضاق به ذرعاً على ما فطر عليه من سعة صدر. ثم غضب على والده، الملك حسين وكتب فيه ما لا يكتب وطعن في نسبه بما لا يقرّه عليه عاقل »¹²⁸

فماذا كان موقفه من الأتاسي ؟ كان محمد رشيد رضا يرى أن حكومة علي رضا باشا الركابي هي حكومة ضعيفة وغير مرشحة، إن هاجم الفرنسيون سوريا، للدفاع عنها ولنفهم من ذلك أنها كانت حكومة موالية لفيصل موالاة تامة :

« عقدت اجتماعات سرّية للبحث في إسقاط وزارته (أي وزارة علي رضا باشا الركابي) حضر بعضها الملك فيصل وتقرّر فيها استبدال وزارة قويّة بها فتألّفت وزارة هاشم الأتاسي دخل فيها الدكتور عبد الرحمن شهبندر والرحوم يوسف بك العظمة وكان الكاتب (يقصد نفسه) هو المقترح الأوّل لإدخالهما في هذه الوزارة. وأمّا الرئيس فاختاره الملك فيصل وقد كان أحد أعضاء لجنة الشورى السوريّة »¹²⁹

يعترف محمد رشيد رضا لهاشم الأتاسي، على نقده له، بموقفين أولهما أنه :

« أمكن لحكومة الاستقلال أن تقيّد الملك براتب محدّد لم يكن راضياً به على كثرتة وكان يستهلك راتب كلّ شهر في أوّله أو قبل بدوّ هلاله » أما الأمر الثاني فهو رفض الوزارة نجدة الشريف حسين إن تعرّض لهجوم وهابي سعودي :

« واختلف (الملك فيصل) مع الوزارة الأتاسيّة في عدّة مسائل من أهمّها أنّه كان يريد إرسال حملة من الجيش السوريّ الجديد لقتال ابن سعود إنجاداً لوالده - إذا ثبت ما كان أشيع من عزم الإخوان النجديين على الاستيلاء على المدينة المنورة. فلما كاشف الوزراء بذلك حاروا في أمرهم وبعد مشاور وتدبّر قرّروا الردّ عليه بأنّه لا سبيل إلى إرسال حملة من جند الحكومة ولا إنفاق شيء من مالها في هذا السبيل وإنما يمكن جمع حملة متطوّعة بمال

¹²⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 131

¹²⁹ محمد رشيد رضا . - الرحلات، ص 299

الحجاز وكان هذا أفضل موقف للوزارة الأتاسية مع الملك فيصل لشدة اهتمامه بهذا الأمر وتصريحه للأتاسي وغيره بأنه إذا وقع قتال بين والده وبين ابن سعود فإنه يغادر سورية ويذهب بنفسه للقتال سواء ساعدته حكومة الشام أم لا، ولكن لم يقع ما كان يتوقع. ولو وقع فأصر فوافقته الوزارة لعجزت عن التنفيذ وكان هذا رأيي إذ شاورتني في الأمر»¹³⁰

وإذا كان نقد محمد رشيد رضا السابق لبعض رموز الاستقاليين يقتصر على الجانب السياسي فإنّ نقده لساطع الحصري يتجاوز ذلك إذ كان يرى في هذا العثمانيّ الاتحاديّ القديم خطراً حقيقياً على التعليم والثقافة: « وقد أفضى ضعف الحكومة (يقصد الدفاعية الأتاسية) ولينها وطمع الطامعين فيها إلى أن تجرّ الساخطون عليها من الطامعين في المناصب والمواهب الملكية على الطعن فيها وتأليف الأحزاب لمقاومتها¹³¹ وكان بعض العلماء والعامّة يكثرّون الطعن في وزير المعارف خاصّة ويزعمون أنّه يريد إضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات فيها على التهنّك. وطالما راجعوني في هذا قبل إعلان الاستقلال وبعده، متوسّلين بي إلى السعي معهم لدى الأمير ثمّ الملك بعزله، فكنت أنصح بالتأني وأحسب حساباً لتعوّد الشعب الافتيات على الحكومة ولا سيما الطامعين منه في أعمالها ومناصبها، وأرى أنّ السعي لتلافي الخلل وإقناع الحكومة بإصلاح ما ينتقد عليها بحقّ أحسن عاقبة من إطماعهم فيها وقد ذكرت رأيي هذا لمدير المعارف ثمّ وزيرها ليكون على بصيرة من أمره»¹³²

من يعرف ساطع الحصري ويقرأ ما كتبنا في الفصل الثالث من القسم الثاني عن تفكير محمد رشيد رضا الاجتماعيّ والسياسيّ (ومنه نظرتّه إلى المرأة ولقد رأيناها يعالج بعضهنّ بالتعاويز سعيًا منه إلى طرد ما سكنهنّ من "روح شريرة" قريبة من معنى الليبدو عند فرويد معاصره) يمكن أن يفهم مدى ما يفصل بين تفكير الحصري وتفكير محمد رشيد رضا ممّا يفسّر اللغة التي تحدّث بها عنه « ذكرت رأيي هذا لمدير المعارف ثمّ وزيرها ليكون

¹³⁰ محمد رشيد رضا . — الرحلات، ص 298-299

¹³¹ الإشارة هنا واضحة إلى "الحزب الوطني" (محمد كرد علي وعبد الرحمن اليوسف وعلاء الدروبي) : ولقد قتل

الأخيران سنة 1920 لاثامهما بقبول الانتداب الفرنسي في كمين نصبه لهم الدروز ولم يسج محمد كرد علي، على حدّ قوله، إلا لأنّ متاعل حالت دون مرافقة زميله. وفي كلام محمد رشيد رضا عن "علاء الدين الدروبي، قتل خربة العرالة"، كثير من التسمّي وهذا يلاحظ أنّ محمد رشيد رضا يتحاشى ذكر محمد كرد علي.

¹³² محمد رشيد رضا . — الرحلات، ص 301

على بصيرة من أمره» وخاصة « يزعمون أنه يريد إضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات فيها على التهتك » إذ لا يخف استعمال الفعل « يزعمون » من شدة الحكم على الحصري. ولقد حرص محمد رشيد رضا على أن يضيف مأخذاً سياسياً إلى مأخذه الفكري على الحصري فلامه على اعتداله "السياسي": « بعض وزراء الحكومة ، على قلتهم ، كانوا يصرحون لبعض الناس بأن رأيهم قبول الوصاية ومنهم ساطع الحصري وزير المعارف الذي كان أحد رسل الملك فيصل إلى الجنرال (غورو) وعلاء الدين الدروبي قتييل خربة الغزالة »¹³³ ومن المعروف أن موقف بعض الشوام المتطرف من هذه المسألة انتهى بوقعة ميسلون في جويلية 1920 وبهجرة محمد رشيد رضا إلى القاهرة من جديد. فهل اقتنع هذا الداعية الديني والسياسي بأن دوره قد انتهى ؟ إن محمد رشيد رضا لن يكف حتى موته سنة 1935 عن النشاط السياسي ولذلك نراه ، بعد وقعة ميسلون ، يعيد ربط الصلة ، بشكيب أرسلان وبالإسلاميين عموماً فيندمج بذلك التياران العروبي الإسلامي والإسلامي في تيار واحد منذ عقد مؤتمر جنيف سنة 1921. لا يوجد اتفاق حول من قام بالمبادرة الأولى لعقد المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف. فقد كتب محمد رشيد رضا مدعياً سبق "الاتحاد السوري" إلى الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر (سنة 1921) « إن حزب الاتحاد السوري وهو أحد الأحزاب السياسية التي كنت من مؤسسيها والعاملين فيها قد قرّر برأيي وموافقتي أن يدعو الأحزاب السورية الاستقلالية إلى عقد مؤتمر سوري في مدينة (جنيف) من بلاد (سويسرة) حيث تجتمع جمعية الأمم لأجل المطالبة بحق سورية في الحرية والاستقلال الصحيح المطلق من كل قيد ينافيه ولأجل جمع كلمة هذه الأحزاب وتعاونها على العمل دائماً وبناء على هذا القرار نشر الحزب المنشور الآتي بإمضائي وإمضاء رئيسه (ميشيل لطف الله) »¹³⁴ أما الإسلامي شكيب أرسلان فهو لا يقر للعروبي الإسلامي محمد رشيد رضا بهذه المبادرة فكتب في الموضوع نصاً نثبته على طوله لتثبت هذه الجماعة بـ "ريادة" و "زعامة" غريبتين في فترة فقدت فيها هذه الجماعة كل تأثير في الأوضاع الداخلية في الشام حتى أنها ستقف متفرجة على الأحداث عند قيام الثورة الدرزية سنة 1925 - 1926 التي قادها الدروز الطرشان (لا الأرسلانيون) بزعامة سلطان الأطرش :

¹³³ محمد رشيد رضا . — الرحلات ، ص 308

¹³⁴ محمد رشيد رضا . — الرحلات ، ص 132

« ثمَّ إنَّنا فكرنا نحن السوريين والفلسطينيين في عقد مؤتمر بأوربة لأجل الاحتجاج (صيغة رشيد رضا : « لأجل المطالبة بحق سورية في الحرية والاستقلال الصحيح المطلق من كل قيد ينافيه ») على احتلال الفرنسيين لسورية والأنكليز لفلسطين وتبادلنا الأفكار في هذا الموضوع إلى أن قرَّ رأينا على عقد هذا المؤتمر في مدينة جنيف وكان للوجيه ميشيل بك لطف الله في هذه القضية خدمة وطنية عظيمة لا تنكر ومأثرة عربية لا تجحد في المشروع فجاء إلى جنيف ومعه عدَّة أشخاص من رجالات العرب من مسلمين ومسيحيين وكان السيد رشيد رضا في مقدمتهم ووافيناهم يؤمِّد من برلين حيث كنَّا مقيمين»¹³⁵

يلاحظ الفرق بين ما توحى به عبارة الأمير" وكان السيد رشيد رضا في مقدمتهم" وما يوحي به الشاهد الذي أوردناه لمحمد رشيد رضا. وشكيب أرسلان لا يكتفي بهذا الموقف "الاستعلائي" الذي لا تتمكَّن لغته من إخفائه « ووافيناهم يؤمِّد من برلين حيث كنَّا مقيمين» بل يصوِّر أغلب من حضروا المؤتمر على أنهم "صلُّوا الطريق" بموالة بريطانيا ومعاداة السلطنة، وتجاهلهم بل بمقاومتهم لواقفه المناصرة للخلافة فكانهم بحضورهم في جنيف إنما يعترفون بخطإ ارتكبهو :

« ثمَّ أعود إلى سيرة السيد رشيد رضا وعلاقاتي الشخصية معه فأقول : إنَّه لما ظهر من نكت الأنكليز بالعهود التي قطعوها للعرب في أيام الحرب وعلم هؤلاء أنَّ الذين كانوا يحذرونهم من مكاييد الأنكليز وينذرونهم بسوء المصير إذا استمعوا لهم، وفي مقدِّمة هؤلاء كاتب هذه السطور لم يكونوا خائنين للقضية العربية ولا كان مقصدهم ممالة الأتراك على قومهم كما كان يزعم بعض سماسرة الأجانب فأخذ كثيرون يتذكِّرون كلامي الذي كنت أنادي به بكرة وأصيل (...). وقد كان السيّد رشيد في طليعة من تذكَّرني وبدأ وهو في الشام بتكليف بعض من يرسلني بإهدائي سلامه فأجبت بالمثل فعاد وكتب إلي رأساً يقول لي ما معناه إنَّه مضى الذي مضى وصار علينا أن نجتمع ونتفق لأجل معالجة الحال الحاضرة»¹³⁶. إنَّ ما يهمُّ هنا ليس البتَّ في سبق الإسلاميّ شكيب أرسلان أو العربيّ الإسلاميّ محمد رشيد رضا إلى الدعوة إلى هذه المصالحة وإنما هو عودة هاتين الشخصيتين إلى مجال النشاط السياسيّ انطلاقاً من المهاجر وجرَّ جزء من العربية الفتاة من غير جيلهما (أسعد داغر، الزركلي...) إلى هذا المنحى في فهم السياسة الأفضل. وهو ما سيكون كارثة على تطوُّر التفكير الاجتماعيّ

¹³⁵ شكيب أرسلان. — السيد، ص 157

¹³⁶ شكيب أرسلان. — السيد...، ص 158 - 160

والسياسي في الشام إذ لن يطلب المرء لا من شكيب أرسلان ولا من محمد رشيد رضا أن "يدير" الحركات الاجتماعية والسياسية ويوجهها وهما اللذان سيجتهدان في أسلمة القضايا الوطنية في الشام (وفي غيره من المناطق العربية) أي في تميمها. ولسوف تكون الثورات الاجتماعية في فلسطين منتصف الثلاثينات (عز الدين القسام) وبداية المحادثات بين الكتلة الوطنية (لا العربية) والحكومة الفرنسية هي بالذات سنة حل "اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية" وهذا الحل لا يعني غير حقيقة واحدة هي نهاية دور هؤلاء الزعماء الفاعل وتهافت العمل السياسي في المهاجر مقارنة بالنضال الداخلي، مهما كان هذا النضال محدودا.

الفصل الثالث :

إذا متّ ظمّانا

عاد محمد كرد علي من المهجر المصري إلى ولاية سوريا عندما أجبر الجيش الثالث عبد الحميد على إعلان الدستور يحدوه الأمل في أن يحقق ذاته من خلال نشاط صحفي لا يقل قيمة عن نشاط قدماء جمعية بيروت السرية البروتستانت في مجلة «المقتطف» العلمية «شيخة المجلات العربية» و«المقطم» السياسي :

«لما أعلن القانون الأساسي وسقطت دولة الاستبداد رجعت في سنة 1908 إلى دمشق وأنشأت مطبعة وأصدرت المقتبس اليومي والسياسي مع المقتبس الشهري العلمي وكان المقتبس السياسي أول جريدة يومية صدرت في دمشق»¹.

كان محمد كرد علي إذًا «صباحيًا» أدخله بعض رواد «اسبيلندبار» وهو العروبي الإسلامي رفيق العظم ضمن هذا التيار المعادي لسياسة عبد الحميد الإسلامية وللركزية على حد سواء :

«وأدمجني رفيق بك العظم في جملة الداخلين على صغر سني يؤمئذ وأنا لا أعرف إلا من أدخلني ومن أدخلته بعدي»².

ولقد كان على المقتبس السياسي اليومي أن يقف موقفًا صريحًا من الحميديين قبل أحداث مارس - أبريل 1909 وأثناءها فقاومهم محمد كرد علي مقاومة لا هوادة فيها. قاوم أحمد عزت العابد :

«حاول أحمد عزت باشا العابد (...) أن ينتخب عن دمشق عضواً في مجلس النواب فقاومته في جريدتي «المقتبس» لأننا كنا نريد أن ينوب عنا الشبان المتعلمون ممن لم تصبغهم مصبغة الاستبداد بنيلتها الحالكة السواد، وكنا نعتقد أن أنصار الحكومة الاستبدادية لا خير فيهم في العهد الدستوري. والرجل الواحد من الصعب أن يفلح في دورين متناقضين»³.

وقاوم شفيق بك المؤيد :

¹ محمد كرد علي . — المذكرات (4 ج). — دمشق، 1948 - 1951. — ص 61

² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 36

³ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 266

« طلب منّي (فوزي بك البكري) أن أكفّ عن التعريض بشفيق بك المؤيد⁴ وقال لي إن والده عطا باشا قال : إذا لم أعدل عن غمز أعيان البند فإن قتلي محقق فأجبتّه : إنّي إذن في موتي لسعيد⁵ وعندما « زالت شوكة (جمعية الاتحاد والترقي) بعد أن ألّف السلطان جمعية سرّية سماها الجمعية المحمدية اغتالت بعض أفراد الاتحاديين في الآستانة وبكت فيها روح الثورة والعصيان »⁶ لم يثبّط ذلك عزيمة الصحفي الشاب محمد كرد علي فثبت على مقاومة دعائها في دمشق :

« كتبت أو كتبت الجريدة تعريضا بـ (...) الأمير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق، وكانت قامت هذه الجمعية بإيعاز السلطان عبد الحميد لقلب النظام الدستوري وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي، وسبق القائمان بها إلى الآستانة للمحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لهما النجاة من القتل»⁷ وقد عرّضه هذا الموقف من الجماعة المحمدية للخطر : « حرّضت على الدستور وعلى الحكم النيابي يوم قامت الجمعية المحمدية في الآستانة والولايات ودخل الناس أفواجا، فتهوّرت في حرب هذه الجمعية الارتجاعية حتى قرّرت قتلي. وقال لي عبد الرحمن باشا اليوسف من كبار الاتحاديين إنّ القوم، يعني جماعة المحمدية، يبيتون لك القتل فأنا مرسل لك ثلاثة أشخاص من شجعان الأكراد يرافقونك حيثما ذهبت أو تنقطع على الأقلّ عن التجوّل ليلا في المدينة»⁸

لقد تورّط كثير من الصباحيين في التمرد المضادّ، كرها منهم للعثمانيين الاتحاديين، ولكنّ محمد كرد علي لم يكتف بمقاومة الحميديين بل نصر العثمانيين الاتحاديين بعد استئصالهم شوكة الحميديين على دروز متصرفيّة حوران المتورّدين على الدولة كرها منه لطابعي هذا التمرد : الطائفية والتقليدية :

⁴ شفيق المؤيد العظيم (1857-1916)، أعدمه العثمانيون الاتحاديون في 6 ماي 1916 (الموسوعة العربية الميسرة ج 2).

⁵ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 76

⁶ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 75

⁷ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 90

⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 76

« لَمَّا اعتدى بعض دروز حوران على جيرانهم أهالي قريتي عصم ومعربة وسكانها مسلمون سنّيون ومسيحيون، وقتلوا منهم نحو ستين رجلاً وامرأة ونهبوا بعض قرى السهل القريبة منهم، كتب المقتبس هذه الأخبار مفصلة، وما زال يكتب فيمن دأبوا على شقّ عصا الطاعة، حتى عزمّت حكومة الاتحاديين أن ترسل حملة إلى الجبل تعيد الأمن إلى نصابه، وتضرب على أيدي الخارجين على السلطان، وأرسلت الحملة بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقي. أخذت الجريدة تروي الأخبار بصورة تفتّ في عضد العصاة وتضعف شوكتهم، حتى قال لي سامي باشا الفاروقي: إنّه كان من نفع المقتبس في الحملة، ومن تأثيراته فيمن أخلّوا بالأمن ما يوازي تأثيرات فرقة من الجند وإنّ صوته نفع الدولة كما كان يتوقّع من عشرة آلاف جنديّ في مثل هذه الحال. وكان صاحبنا خليل رفعت الحوراني يكثر في الجريدة من الكتابة في كلّ ما له علاقة بأحوال الجبل ببيّن مسالكه ومضايقه، وسهوله وعراته، يتلقّطها من أفواه العارفين، ولا سيما من صديقنا علي آغا العسلي، والد شكري بك⁹ فكان كلامه على الطرق والمياه، وعلى أخلاق القوم وعاداتهم ممّا يزيد أمراء الجيش بصيرة، وأكّد رئيس أركان حرب الحملة أنّهم انتفعوا بالخرائط التي رسمها خليل رفعت الحوراني وغيره في جريدة المقتبس أكثر من انتفاعهم بما لديهم من المصوّرات المختلفة ذلك لأنّ الخريطة الوطنية مفصلة، فيها ما يحتاج إلى معرفته بدون تحريف في الأسماء، وخلت من الأغلاط التي تتسرّب إلى الغريب إذا أراد أن يكتب في شؤون بلد غير بلده»¹⁰

ورغم هذه المواقف المساندة للعثمانيين الاتحاديين فستسوء علاقة محمد كرد علي بهم بين 1909 و 1915 فيتعرّض لامتحانهم أكثر من مرّة فما هو سبب ذلك ؟

لقد كانت العثمانيّة الصباحيّة ثمّ الائتلافية، لقولها باللامركزيّة التي لا اتفاق حول حدودها، ملاذا يتّسع لقوى متعارضة المصالح ولذلك علينا أن نحدّد بشكل دقيق المعنى من «صباحيّة» محمد كرد علي و «ائتلافية» خاصّة أنّه لم يكن يؤمن بمستقبل القوميّات النابذة التي اندمج كثير منها في العثمانيّة الائتلافية مثل العروبيّة الإسلاميّة بل مثل الشقّ العملي في الصهيونيّة.

⁹ هو شكري العسلي، كان في هذه الفترة قائمقام الناصرة التابعة لمصرفية عكا التابعة لولاية بيروت قتله العثمانيون

الاتحاديون في 6 ماي 1916

¹⁰ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 81

لقد رأينا في الفصل الثامن من القسم الثاني أن نواة تفكير محمد كرد علي الميتافيزيقي والسياسي والاجتماعي هي من ناحية القول بارتخاء العلاقة بين الله و الطبيعة ومن ناحية ثانية، ونتيجة لذلك، القول بوجود تقليص وصاية الدولة على المجتمع «لأن سلامة الاجتماع كالسلامة الأخروية تقوم بكل واحد على حدته، وعلى كل فرد أن يسعى إليها»¹¹ ذلك أنه «يوم تجمع حكومة كل السلطات يصبح الرعايا كالعبيد تسيّرهم أيدي مواليتهم ويعدون بالطبيعة من الأمم الاتكالية المنحطة. وإذا كانت الأمة مصدر كل سلطة حقاً وصدقاً تعدّ حكومتها أرقى حكومة وشعبها أسعد شعب».¹² ولقد كانت سياسة العثمانيين الاتحاديين بعد قمع الحركة المحمدية في أبريل 1909 سياسة احتكار للحقيقة وللحكم أي «كانت المركزية في عهدهم من أشد ما عهد من نوعها تشبه مركزية فرنسا مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج»¹³ وكان محمد كرد علي يصرّ على أن يحافظ المقتبس على حرّيته بعد أن «أصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية التي تصدر بالعربية لأنها كانت تكتب بحرية زائدة، حتى ليظنّها العارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر، تصدر على عهد العميد لورد كرومر»¹⁴

إن كل حزب واحد حاكم، خاصة إذ كان ينسب إلى نفسه دوراً رسالياً إنقاذياً، يتضاءل فيه بفعل الزمن والارتخاء الملازم لمن «شبعوا» بعد «وبنة» طويلة عدد «النحل» لتتكاثر زمر «الزنابير» التي تتحالف مصلحياً لمقاومة كل مبادرات التحرر الحقيقية. و بما أن محمد كرد علي لم يكن يؤمن بـ «صنة الغيث» لتغيير الأوضاع فقد ركّز نشاطه الصحفي على ملاحظة «لصوص الموظفين» من ولاة ومتصرفين وطنجيين¹⁵ أي ركّز نشاطه على المعالجة الموضوعية للأوضاع :

« تتلخّص الدعوة التي دعوت إليها في المطالبة بالإصلاح وطرده لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب إلى العمل النافع والتذرّع بالمشاريع المنتجة وبعث القرائح

¹¹ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 949

¹² محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1054

¹³ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 67

¹⁴ محمد كرد علي . - المذكرات ، ص 67

¹⁵ وطحي : ذو وطية صاحبة

واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة»¹⁶ ومثل هذا التركيز بدا للعثمانيين الاتحاديين الذين يطبقون سياسة «إمّا معي وإمّا ضدي» شكلاً مقتعاً من المعارضة الصباحية: «عاد الاتحاديون فتغلبوا على السلطان وخلعوه ونفوه إلى سلانيك وقضوا على زعماء الحركة المحمدية في العاصمة والولايات وأخذوا يكثرون من اغتيال المعارضين لسياستهم، من أرباب الأقلام في الآستانة، وأحبّوا أن يجروا على هذه الطريقة في الولايات، وكانوا من قبل يحاذرون أن يأتوا فيها شيئاً ممّا أتوه في دار الملك فبدأوا بي: أرسلوا دركياً تركياً يهدّني في رابعة النهار وأنا سائر مع رفيقين لي على جادة الصالحية، وقال لي ما معناه: يكفي يا سيّد ما عملت فالعاقبة لا تعرف ما تكون. ولمّا انتهرت هرب»¹⁷. عندما يقارن المرء بين سياسة العثمانيين الاتحاديين إزاء كلّ من محمد كرد علي المعادي للعروبية الإسلامية ومحمد رشيد رضا العروبي الإسلامي سنة 1909 يعجب لعدد الدراسات التي استندت في حكمها على العثمانيين الاتحاديين إلى ما أورده الشيخ الطرابلسي عنهم من «عداوة» للعرب وللإسلام ومن محاولة لـ «تتركّ العرب» أكثر من استنادها إلى ما أورده محمد كرد علي عنهم من عداوة لكلّ معارضة للحزب الواحد الحاكم تشبّثاً منهم بوحدة السلطنة «الصمّاء» ممّا أدّى هذه الدراسات إلى أن تجلّي القضية الأساسية وهي قضية الديمقراطية في مجتمع متعدّد الحساسيات السياسية وأن تضخّم فكرة الصراع العرقيّ العربيّ التركيّ، وهي فكرة ليس بإمكانها أن تخدم تحرّر المجتمع الحقيقيّ من الوصاية المشطّة لأيّ دولة رسالية منقذة عليه. والدليل على ما نقول هو أن كلّ تجارب الأحزاب الواحدة الحاكمة في البلدان العربية التي ولدت عقب انهيار العثمانيين الاتحاديين مازالت حتى نهاية القرن العشرين مخلصة لسياستهم المركزية «مركزيّة فرنسا مع كلّ ما في الحكم الاستبداديّ من عوج» ولهذا كان محمد كرد علي الذي يكره المظاهر ويمقت «البطاقات السياحية الموردة» يلحّ أشدّ الإلحاح على هذا الشبه الغريب، فيما يتّصل بخنق الحريّات، بين الحميديين والعثمانيين الاتحاديين الذين جعلوا، في نظره، من «الدستور استبداداً في صورة حريّة»¹⁸ أي فشلوا في تحقيق التوازن بين ما كانوا يدعون إليه قبل الهيمنة على مقاليد الحكم والممارسة، أي

¹⁶ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 61

¹⁷ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 75

¹⁸ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 187

جانبا قانون الطبيعة « وكلّ قانون غير قانون الطبيعة تنسفه الأيام ولا تبقى على غير المعقول والأنسب»¹⁹

لم يكن محمد كرد علي، إذن، معارضا نابذاً، وإنما كان يؤمن بنجاعة النقد البناء للنظام الحاكم حتّى يدلّه «على عيوبه ليتّقيها (وينصح) له بالاعتدال لتطول أيّامه ولا تساوره أسقامه». ²⁰ وبسبب هذا الإيمان ذاته بدأت ترفع ضده القضايا العدليّة لتعجيزه ماليًا وترهيبه جسديًا والفتّ في عزمته نفسيًا : «أقام والي سوريا دعوى على جريدتي واحتال لإقفال الجريدة وإغلاق المجلة والمطبعة قبل صدور الحكم علينا وبعث إلى مرجعه الأعلى في الآستانة يستأذن في الموافقة على مقترحاته، فوافقه بلسان البرق على إلقاء القبض عليّ وإقفال الجريدة والمطبعة. وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمريّة كان لأحدهما اتصال بإدارة البرق، عرفا بالأمر فطلبوا إليّ أن ألبس ثيابي وأسير معهما، فإنّ الشرطة تأتي بعد حين إلى داري لتفتّشها وتقبض عليّ. وكان الأمر كما قدّرا، وسرت معهما وأنا لا أعرفهما، وغاية ما عرف أخّي أنّهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروءة من الشبّان فبتّ ليلتي في دار أحدهما». ²¹ هذا هو أوّل هروب من الحزب الواحد الحاكم عمد إليه محمد كرد علي في رمضان سنة 1909. فقد ركب باخرة نمساويّة كانت راسية في ميناء بيروت قاصدا باريس :

«وفي هذه الرحلة قضيت في باريس أشهراً حتى برّئت ساحتي ورجعت إلى بلدي عن طريق الآستانة، وكان الداعي إلى الرحلة شراً فأنّج خيراً كثيراً»²².

يوضّح محمد كرد علي بعض ما يقصد بعبارة «أنّج خيراً كثيراً» فيذكر أنّه خطر بباله سنة 1909 أن يتحوّل من فرنسا إلى ألمانيا، حليفة العثمانيين الاتحاديين، فسعى بعض الفرنسيين إلى تثبيط عزمته، خلطاً منه بين الصداقة والتبعية السياسيّة، فكان رفض محمد كرد علي هذه الصداقة المشروطة أحد أسباب اطمئنان العثمانيين الاتحاديين إليه عندما اطّلعوا، فيما بعد، على هذه الحادثة :

¹⁹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 703

²⁰ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 187

²¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 84

²² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 89

«كان السبب في نزع الثقة (الفرنسية) مني أنني أبنت عن رغبتني لأحد أصحابي في باريس وهو الميسو لشاتليه، صاحب مجلة العالم الإسلامي الفرنسية بزيارة ألمانيا في عودتي من فرنسا (1909) فقال لي إذا فعلت أخرجك من صداقتي، ولا أعرفك ولا تعرفني. وعجيب من حال بعض السياسيين من الغربيين، يطلبون منّا أن نوالي من يوالون، ونحن لا دخل لنا في سياستهم المتبدّلة».²³ لم يزر محمد كرد علي ألمانيا سنة 1909 ولكنه فضّل العودة إلى دمشق بعد أن «برأت المحكمة ساحته» وبعد أن أصبح أكثر حذرا مما كان عليه قبل هذا الامتحان. ولكن التآكل الذي أصاب حزب الاتحاد والترقي العثماني بداية من 1910 وانتهى في 12 نوفمبر 1911 بتكوين حزب قويّ معارض للاتحاديين هو حزب «الحرية والائتلاف» برئاسة الداماد فريد باشا دفع محمد كرد علي إلى الانضمام إلى الحزب المعارض الجديد ف «أنشأنا حزب الائتلاف في دمشق».²⁴ وبدأ يكتب في العثمانيين الاتحاديين «كتابات مرّة»²⁵ طيلة الفترة الممتدة بين نوفمبر 1911 وأفريل 1912.

كان العثمانيون الاتحاديون في هذه الشهور الستة في وضع اليائس المستميت في الدفاع عن مواقعه وكان العثمانيون الائتلافيون يشدّدون عليهم الخناق فحلّ الاتحاديون البرلمان في جانفي 1912 واستخدموا كلّ أساليب الضغط والتزوير حتى لا تظهر المعارضة الائتلافية بالأغلبية في البرلمان. وفعلّا فإنّ انتخابات أفريل 1912 لم تسفر عند إجرائها إلّا عن فوز ستّة نواب عن المعارضة من جملة 275 نائبا. وطالت إجراءات القمع محمد كرد علي ففرّ للمرّة الثانية من وجه الاتحاديين، إلى مصر هذه المرّة :

«سعيت وطائفة من أصدقائي في سورية بعد انتشار القانون الأساسي أن يكون في بلادنا دستور يستمتع به العثمانيون على اختلاف عناصرهم ونحلهم. ولكنّ الفئة المتغلّبة على الحكومة في الآستانة والمرسلة بصنائعها إلى الولايات أبّت وخصوصا بعد سقوط وزارة رجل السياسة العثمانية كامل باشا إلا أن يكون الدستور استبدادا في صورة حرية فكنا كلّما طالبنا بمطلب من مطالب الإصلاح الطفيف اتهمونا أنواع التهم بل كنا معهم كما قال ابن أبي طالب : كراكب الصعبة إن أشق لها خرم وإن أساس لها تقحّم. فالحكومة بل الحاكم الذي كان يرهقنا زمن الاستبداد ويشردنا على أنّنا ناقمون على حكومة المخلوع حتى اضطرنا

²³ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 99-100

²⁴ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 111

²⁵ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 107

أن نقضي أربع سنين في هذا القطر (يقصد مصر) فرارا من الحيف عاد في الدور الذي يدعونه بالحرية يرمينا بالارتجاع ثم بالدعوة لأنكلترا ثم الدعوة لحكومة عربية²⁶ إلى غير ذلك مما يختلقون من ضروب الافتراء الذي لا يستنكف كل ضعيف في حكومة هذا الشرق التعس من أن يلصقه بمن لا يقدر على حجاجه بالبرهان إذا دلّه على عيوبه ليتقيها ونصح له بالاعتدال لتطول أيامه ولا تساوره أسقامه (...) ولذا أرسلنا ساقينا للريح ساعة بلغنا أن الحكومة المحلية في سورية تريد القبض علينا على نحو ما قبضت على شقيقنا أحمد المدير المسؤول لجريدة المقتبس (يوم 17 نيسان - أبريل 1912) دون ريث»²⁷

ويبدو أن محمد كرد علي قد يؤس منذ هذا الامتحان الثاني (أفريل 1912) من جدوى كل عمل سياسي معارض بل أصبح يرى في الأحزاب السياسية جميعها مصاد ينصبها الساسة «الشياطين» لصيد المثاليين المغفلين من الناس :

« قد ثبت لي أنه ما أفلح في هذه الأرض حزب ولا جمعية اللهم إلا إذا كان من بعض الشياطين أن اتخذوا من حزب مطية لأغراضهم الخاصة، يصلون على متنها إلى المراتب والمكاسب. والمغفلون من يخدمون معهم في هذه المناحي على العمياء، وبدون أعمال الروية، يرفسهم الكبار بأرجلهم من غير حياء في اليوم الذي تتحقق فيه مآربهم»²⁸

لذلك نراه منذ هذه السنة حربا على الساسة جميعهم وعلى «صنعة الغيث» منهم خاصة لا يرى صلاحا للمجتمع إلا إذا اكتسب أفرادها حصانة ضد «أبوية» الدولة و«رسالة» الأحزاب :

«لا يرجى من الحكم الملكي المقيد ولا من الحكم الجمهوري خير لمن تجرى عليهم أحكامهما إن لم تكن فيهم شروط الحياة موفرة»²⁹

لم يعد الحكم المقيد ولا أي حكم يتجاوزه إلى إقرار الجمهورية هو مطلب محمد كرد علي بل أصبح «توفر شروط الحياة» في المادة الاجتماعية هو الأصل وبذلك طلب محمد كرد

²⁶ يترأ هنا محمد كرد علي من الانتماء إلى الحركة الحميدية و العربية الإسلامية.

²⁷ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 187

²⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 401

²⁹ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1020

علي مطلباً عزّ توفّره في «الأمم الاتكاليّة» نهاية القرن العشرين ومن ضمن هذه الأمم «الأمة الإسلاميّة» و«الأمة العربيّة» «التي يصعب الاتكال عليها»³⁰

ولسوف يقوده رأيه في «الأمة العربيّة» (أي الشاميّة) إلى صدام بينه وبين العربيين الإسلاميين. فهؤلاء كانوا ينشطون في مصر سنة 1912 نشاطاً محموماً بل إنهم تمكّنوا من تكوين جمعيّة اللامركزيّة العثمانيّة وأقنعوا عدداً من الشوام المسيحيين من قدماء المدمنين على «اسبندد بار» بالانضمام إليها وبدأوا اتصالات ببعض الجمعيات في بيروت وبالصهاينة العمليين لتوحيد الموقف من العثمانيين الاتحاديين. ولقد حاولوا أن يضمّوا إليهم محمد كرد علي فخاب مساعهم «عرضوا عليّ الدخول معهم فأبيت وقلت لهم إنّ الدولة تعدّ برنامج هذا الحزب خروجاً على سلطانها فكان جواب رفيق بك (يقصد رفيق العظم) : دعوه وشأنه، إنّه يعترض أبداً فيخرب ما نريد أن نعمله»³¹

إن الفترة الفاصلة بين هرب محمد كرد علي إلى مصر (1912) و 23 جانفي 1913 سوف تشهد طرد الجيش العثماني في البلقان العثمانيين الاتحاديين من الحكم وقيام حكومة ائتلافيّة بديلة (21 جويلية 1912 - 23 جانفي 1913) تظافرت عوامل عديدة (عقد الصلح مع إيطاليا، الحرب العثمانيّة البلقانيّة، انقلاب عثمانيّ اتحاديّ جديد) على إسقاطها ولقد أصبح محمد كرد علي يرى منذ هروبه الثاني من العثمانيين الاتحاديين «أنّ العاقل على كلّ حال يمتنع في الأزمان من التصريح برأيه وأسلم له أن يتعمّى ويتجاهل». ³² لذلك انصرف في هذه السنة العصيبة والدامية، سنة 1913، إلى البحث العلمي وفي إيطاليا «في خزانة الأمير كايتاني في روميّة شهراً كاملاً» وهو اختيار عرّضه لكثير من النقد بسبب حدّة المشاعر الإسلاميّة والعثمانيّة الاتحاديّة المضادّة لإيطاليا إذّاك. ³³ عندما عاد محمد كرد علي إلى دمشق كان العثمانيون الاتحاديون قد استعادوا الحكم ونكّلوا بالعثمانيين الائتلافيين الذين التفّوا حول كامل باشا، الصدر الشهير منذ عهد عبد الحميد، متحاشين قدر المستطاع أن يظال

³⁰ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 111

³¹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 101

³² محمد كرد علي . — المذكرات، ص 88

³³ نفصّل هنا لأنّ العربيين الإسلاميين لم يتأثروا للأحداث في ليبيا إذ لم يكونوا يعدّونها جزءاً من الأمة العربيّة

هذا التنكيل ممثلي القوى النابذة الشاميّة من عروبيين إسلاميين وقوميين لبنانيين³⁴ خشية أن توغل هذه القوى، بعد ضياع بلاد البلقان، في انفصاليّتها وفي المطالبة بتدويل قضاياها أثناء انعقاد مؤتمر باريس في جوان 1913 بتشجيع من فرنسا، وهو مؤتمر جمع بين تيارات مختلفة اختلافا تاما (العروبيون الإسلاميون - القوميون اللبنانيون - ممثل شبه رسمي للصهاينة) لا شيء يوحد بينها غير معارضة العثمانيين الاتحاديين فأثارت بذلك مشاعر كل من يتوجّسون خيفة من سياسة أوروبا الرأسماليّة.³⁵ لقد رفض محمد كرد علي منذ 1912، عندما كان في مصر، الانضمام إلى جمعيّة اللامركزيّة ولذلك فمن الطبيعي أن لا يتعاطف مع مؤتمري باريس وخاصة المسيحيين منهم وكذلك الشبان المسلمين مثل عبد الغني العريسي (العربيّة الفتاة) الذين يطلق عليهم عبارة «المتطوّعة بالجاسوسيّة». ومع ذلك فإنّ ماضيه الائتلافي ورفض الانتماء إلى العثمانيين الاتحاديين قد أظهره في مظهر الصحفي اللامنتمي ممّا جرّأ عليه والي سورّيّة (ناظم باشا) فسعى إلى امتحانه من جديد قبل بداية الحرب الكبرى :

« شقّ على والي سورّيّة (ناظم باشا) في عهد الحرّيّة والدستور أن يسمع في الجريدة المطالبة بإصلاح شؤون الولاية ونقد إدارتها أحيانا (...) فلم ير ليشغلني عنه أنجح وسيلة من أن يقيم عليّ بعض العمّال ممن انتقدت أعمالهم، دعاوي لدى المحاكم، يزيّن لهم الوالي إقامتها (...) وحكمت المحكمة بتبرئتنا من كلّ القضايا فصقّ الوالي والاتحاديون ومن سار تحت علمهم واستأنفوا النظر في الدعاوي أمام محكمة الاستئناف فحكمت بتأثير رئيسها شكري بك، وكان تركيّاً من جماعة الاتحاديين، بسجن شهر واحد على أخي أحمد مدير الجريدة المسؤول ثمّ أنزل الحكم إلى النصف. وطلب إليه بعض رجال القضاء أن يدخل من

³⁴ هكذا وقع مثلاً إعدام الدمامد صالح خير الدين "التونسي" ونفي عدد من دعاة التاريّة الإسلامية مثل أحمد فريد تك، رفيق يوسف أفجورا

³⁵ كان شكيب أرسلان من أكر المتدّين باعقاد هذا المؤتمر وقد وصل الأمر بالبرلمان العثماني الاتحادي معروف الرصافي أن نظم في العروبيين الإسلاميين هجائيّة جاء فيها (البيسط)

والصحف تروي لنا عه الأعاجيا
ما كنت فيه برأي القوم مندوبا
لما نعى خيرا لـ "لطان" مكذوبا
كأه حمل يستجد الديا

قل للعريسي والأسباء شائعة
علام تعقد في باريس مؤتمرا
وهل تعمّد حقّي العظيم فعلته
إذ راح يستجد الإفرنج مستصفا

باب من أبواب السجن ويخرج من آخر لتتم الصبغة القانونية، ويقال إن المدير حبس، ويقيّد ذلك في السجل فأبى. وأعلنت الحرب العامة فذهبت الدعوة مع ذهاب المملكة كلها»³⁶ كانت الفترة القصيرة التي سبقت الحرب الكبرى فترة امتحان حقيقيّ لدى تماسك العثمانيين الاتحاديّين أنفسهم إذ لم يكن هناك إجماع حول موقف واحد من الحرب التي كان كلّ شيء يندّر باندلاعها. وسوف يستقيل بعض كبار الاتحاديّين من الحزب الواحد الحاكم بسبب معارضتهم للمشاركة في الحرب مثل المصري عزيز علي ومثل المفكر الماروني الشهير سليمان البستاني.

وعندما استدخل السلطنة الحرب بداية من نوفمبر 1914 ستتزايد أعداد الاتحاديّين الهاريين من «الركب» العثمانيّ الاتحاديّ مثل القائد العسكري رضا باشا الركابي الذي «كان برتبة عالية في الجيش فاستقال بإعلان النفي العام، قيل لمرض أصابه»³⁷ ومثل الطبيب الدمشقي العثماني الاتحادي عبد الرحمن الشهبندر إذ «بدأ (...) يذكر ما يقاسيه جيش الدولة في حرب جنائز قلعة من الضربات، وقال إنّ الواجب أن يفكر أهل هذه الديار في مصيرهم، كان تؤسس جمعية تتصل بالأنكليز للاتفاق على خطة إلى غير ذلك»³⁸.

وإذا كان هذا هو شأن كثير من الشوام العثمانيين الاتحاديّين فمن السهل على المرء أن يتصور موقف العربيين الإسلاميين والقوميين اللبنانيين ومن بقي حيّا من جماعة قدماء جمعية بيروت السرية الذين ينسب إليهم جورج انطونيوس نشأة الفكرة العربية مثل فارس نمر ومثل يعقوب صروف.

في هذه الفترة بالذات التحق محمد كرد علي بالركب العثماني الاتحادي مما سبّب عند الكثيرين حيرة بسبب هذا الموقف العجيب :

« بدأ الدكتور (يقصد الشهبندر) يذكر ما يقاسيه جيش الدولة في جنائز قلعة من الضربات وقال إنّ الواجب أن يفكر أهل هذه الديار في مصيرهم، كأن تؤسس جمعية سرية تتصل بالأنكليز للاتفاق على خطة إلى غير ذلك فذكرت للجماعة ما لقينا من القوم عندما أنشأنا حزب الائتلاف وأنّ هذه الأمة يصعب الاتكال عليها لأنّها لم ترّب تربية سياسية تعرّفها الصواب في قولها وعملها وقد جرّبناها غير مرّة فضاع تعبنا وجهدنا معها. وقلت إنّ

³⁶ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 64-65

³⁷ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 231

³⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 111

الحرب تتقدّم وتتأخّر تبعاً للأحوال، وما يدرينا أن تكون الغلبة غداً للدولة. وأرى البحث في مصير الديار الشاميّة أكبر من عقولنا ونحن يسعنا ما يسع أهلها إذا نزل البلاء. فقال الدكتور متهكماً : وكيف إذن تدّعي أنك تخدم العرب ؟ وأين حميتك ووطنيتك؟ فقلت له : لم أصحّ شيئاً من هذا مع الأسف. وإذا متّ فاكتب على قبري هذا خائن العرب، وانظم قصيدة في هجوي، وأنا لا أدخل في مثل هذه المسائل. فقال الباشا صاحب الدار³⁹ إذا كان فلان يتمتع عن الدخول فأنا لا أدخل، وافترقنا متعهدين على الكتمان⁴⁰

ما سبب هذا الموقف في حقيقة الأمر ؟

لقد توصلنا من خلال دراسة تفكير محمد كرد وخصومه إلى أسباب ثلاثة، على الأقل، تفسّر هذا الموقف أولها الرهبة وعدم الثقة وثانيهما معاداته للقوميّات النابذة ومنها الـ « قوميّة العربيّة » وثالثها الميل إلى الأشخاص أكثر من المؤسسات.

لم يكن محمد كرد علي يرى حرجاً في التصريح بأن « العاقل على كلّ حال يمتنع في الأزمات من التصريح برأيه وأسلم له أن يتعامى أو يتجاهل »⁴¹

ولقد كانت سنة 1915 سنة مطاردة أحمد جمال القوى النابذة جميعها بدءاً بالقوميّة اللبنانيّة وصولاً إلى القوميّة اليهوديّة فلم يكن بإمكان محمد كرد علي الائتلاف في القديم أن لا يتوجّس خيفة في مثل هذا الوضع :

« لقد شجّعني على المضيّ في نقل حسنات قائد الجيش، كلّما دعا إلى ذلك داع، نصيحتان لعظيمين يعرفان نفسيّة الكبراء في هذا الشرق إحداها نقلها لي صديقي الشيخ أحمد حسن طيارة⁴² صاحب جريدة "الاتحاد العثماني" في بيروت قال : أبلغك نصيحة الشيخ طاهر الجزائري لما عرّج على بيروت في طريقه إلى مصر قبل نشوب الحرب بأيام قال « انشر للأتراك كلّ ما يريدون في جريدتك وقل لصاحب "المقتبس" أن يجري على مثل طريقتك، وإذا لم تفعل فأنتما مقتولان لا محالة (...) والنصيحة الثانية... »⁴³ وعبارة » يعرفان نفسيّة الكبراء في هذا الشرق عظيمة الدلالة « من وجهة نظر هذه الدراسة إذ هي

³⁹ هو الكردي الاتحاديّ عبد الرحمن باشا اليوسف.

⁴⁰ محمد كرد علي . - المذكّرات، ص 111

⁴¹ محمد كرد علي . - المذكّرات، 88

⁴² قتل سنة 1916

⁴³ محمد كرد علي . - المذكّرات، ص 142

تدلّ على غياب ما يطلق عليه في أوروبا الغربية إسم «المجتمع المدني» أي هذه السياقات العديدة (أحزاب، قضاء، جمعيات غير حكومية) التي تستند إليها الطاولة (المجتمع) والتي إن سقطت إحداها لم يقد ذلك إلى سقوط الطاولة جميعها. غياب هذا المجتمع في السلطنة يضع الفرد وجها لوجه أمام سلطة أفراد يسمّون أنفسهم الدولة ويمكن أن يعيثوا بالناس عبث «الشيخ» بـ «الخود». ومن هنا تصبح الشجاعة الفردية إزاءهم ضربا من ضروب الدونكيشوتية. فليس الخوف، إذن، هو السبب الوحيد لموقف محمد كرد علي الجديد.

وهناك سبب ثان هو عداوته للأفكار القومية بصفة عامة :

« طالما تألمت نفسي في مصر والشام ممّن ينشيء ناديا أو جمعية يسمّيه أو يسمّيها بالكاثوليكية أو المارونية أو الأرثوذكسية أو القبطية أو الإسلامية أو العلوية أو اليهودية، وكلّ ذلك تفرقات لا معنى لها في هذا العصر.⁴⁴ ونحن نعثر في كتاباته على مواقف صريحة من بعض حملة هذه الأفكار : لقد نقد محمد كرد علي إسلام الشيوخ التقليديين نقدا لم نعثر على ما يشبهه إلّا عند ولي الدين يكن، ومأخذه الأساسي عليهم هو الأخذ بنظرة تغيب الطبيعة وقوانينها وتردّ كل شيء إلى عوامل غيبية. ولقد فسّر محمد كرد علي سبب احتضان العثمانيين الاتحاديين على وضعيتهم الرضاوية هؤلاء الشيوخ بسبب سياسيّ هو تخلف المجتمع العثمانيّ المسلم ولذلك لو كان رجال الدين « من غير جماعة المشايخ ما كان (لهم) ذاك الوقع في نفوس أهل الآستانة».⁴⁵ هذا الفهم هو الذي دفع محمد كرد علي، على عداوته للإسلاميين التقليديين إلى أن يرافق الوفد الذي تقرر إرساله إلى الدردنيل في السنة الأولى للحرب الكبرى لينقل إلى الشوام عند عودته مآثر النظام الحاكم. ونحن نورد هذا الشاهد الطويل في وصف تفكير هذا الوفد الدينيّ وسلوكه ونكتفي به دليلا على موقف الكرديّ من الإسلام التقليدي :

« ألف جمال باشا في السنة الأولى للحرب العامة وفدا من مفاتي سورية وفقهائها وشعرائها ووجوهها وشفعه بأربعة من الصحفيين أدمجني في جملتهم فسافر الوفد إلى الآستانة ثم إلى جنان قلعة (الدردنيل) ليزور المشاهد التي تدلّ على عظمة الدولة ويرجع إلى سورية يخبر أهلها بما رأى وسمع (...) وأتمّ الوفد مهمّته على ما يحبّ مرسله. وتجلت في هذه

⁴⁴ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 47

⁴⁵ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 140-141

الرحلة أطعم بعض أفرادهم وجشعهم فتأذى بهم رئيس الوفد⁴⁶ وكان يتوسطني لأكلم بعض من يشذون عن قانون الجماعة ومصطلح المدنيين في الأكل والجلوس والسير والاجتماع والخطاب فألقى ويلقى هو من بعضهم عنتا. وما دعا إلى هذه البلبلة إلا عدم التجانس بين الوفدين. على أن الوفد لو كان من غير جماعة المشائخ ما كان له ذاك الوقع في نفوس أهل الآستانة، وما عرفوا أن منهم الجهلاء، ومنهم من يشهد بالزور، ويكذبون ولا يرون في الكذب غشاسة، وقد يفتونك فيما تعتقده محرما، ويبيحون لك ما كان محظورا، ومنهم من يحبون أن يستثمروا كل شيء لجيوبهم و مظاهرهم (...). وركب الوفد إلى هذه الأرجاء (يقصد جنان قلعة) باخرة من بواخر المستشفيات الخاصة بنقل المرضى، وكان الخطر محققا بنا من الغواصات، ودأب المشائخ يتلون حزب البحر. داعين الله أن ينجينا من الغرق فنجونا ببركات أنفاسهم الطاهرة، وأثر حزبهم في البحر وما هاج، بفضل توسلاتهم، وتخططنا غواصات الحلفاء وما كنا من المغرقين (...). وعدنا إلى مساقط رؤوسنا يحمل كل واحد منا نوط الحرب وساعة من ذهب، ولكل واحد من أرباب الجرائد مائة ليرة عثمانية معونة لجريدته فسقط في أيدي بعض أعضاء الوفد لما بلغهم ما ناله أرباب الصحف وود بعضهم لو كان في الإمكان عده في الصحافيين حتى يقبض ما قبضوه ولو بخلع عمامته وحلق لحيته، وجعله في مؤخرة الصفوف»⁴⁷

وبقدر ما كان سبب معاداته للإسلاميين، واضحا فكريا وسياسيا فإن معاداته للتيارين النابذيين، التيار التتاري الإسلامي و التيار القومي اليهودي تشي بجهل كامل بمقوماتهما الفكرية، فتضخم بسبب ذلك السياسي على حساب الفكري. وكم كنا نود، لقرب تفكير المعبرين عن هذين التيارين، فيما يتصل بالنظرة إلى الطبيعة من نظرة الكردي لو اهتم بما ينبنيان عليه فكريا. ولكننا لم نعثر فيما كتب على غير إشارات متفرقة إلى هذين التيارين لا تسمح بالحديث عن موقفه الفكري منهما. أما التيار القومي اللبناني النابذ فقد نقده الكردي نقدا يقرب من التحامل من دون أن يفرق كثيرا بين مختلف الطوائف المسيحية

⁴⁶ هو الشيخ أسعد الشقيري العكاوي، خصم شكيب أرسلان والمقرّب من أحمد جمال. ومقاومته للمفني أمين

الحسيني في مؤتمر القدس (1931) مشهورة. وهو والد أحمد الشقيري الذي حلفه ياسر عرفات في قيادة منظمة التحرير

الفلسطينية. وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أمين الحسيني (1897-1972) الحق في هذه الفترة بالحركة

العروية الاسلامية وقد تعرّف منه 1912 على محمد رشيد رضا في القاهرة.

⁴⁷ محمد كرد علي . — المذكرات، صص 1430-1431

في بعض الأحيان. فلبنان، في نظر محمد كرد علي، كيان سياسي مصنوع قام بإرادة بعض القوى العظمى: «أحسن تعريف مختصر للبنان، أن جباله أكثر من سهوله وأنه من أجمل سواحل الشام (...) وكان في الإسلام عمالة من عمالات دمشق مقطورا معها يسايرها في السراء والضراء بدون أخذ ورد (...) ونفخ الواغلون على البلاد في السكّان روح التعصّب الدينيّ فكان من ذلك الضرر عليهم وعلى البلاد عامّة»⁴⁸

من تعريف محمّد كرد علي للبنان يتبيّن المرء أنه لا يقول بشرعيّة القوميّة اللبنانيّة إذ هو يظهرها في مظهر دعوة قامت بها جماعة صغيرة خادمة لإرادة قوى غريبة عن الشام: « ظلّ التعصّب الذميم في بعض العناصر اللبنانيّة على أشده حتى إذا أراد اللبنانيون بل أرادت فرنسا أن يجعلوا لهم كيانا خاصا (...) كانت سوريا خلالها تمدّ يدها إلى اللبنانيين وهم يناون بجانبهم»⁴⁹

وبهذا الفهم يرتخي التماسك في تفكير الكرديّ بل يرتدّ إلى ما قبل التفكير الشدياقيّ الذي سعى إلى النفاذ إلى مواقف «الخود» المختلفة من «الشيخ» فرأى أنها «قد تميل إلى العبادة و النسك (ف) لا تتقف في ذلك على أمد بل تتماذى فيه حتى تنهوس و تتخبّل (وقد تميل) إلى الهوى (ف) تترك أباه وأمه اللذين ولداها وربّياها وتقبل تجري في إثر رجل لا تعرف من صفاته شيئا سوى كونه ذكرا». فالقوميّة اللبنانيّة هي في نظرنا، قضية الخود التي اختارت أن تتحرّر، قدر المستطاع، من «الشيخ»؛ أبيها وزوجها. ولهذا فهي تختلف عن القوميّة اليهوديّة التي تطرح قضية الحقّ بالمعنى الماكيفيلي الذي لا يفرّق كثيرا بين الحقّ والقوّة. فإهمال الجانب الداخلي والتركيز على العامل الخارجيّ فقط يقود إلى غمط حقّ «الخود» ويقود فيما يتّصل بتفكير الكردي إلى تناقض صارخ. ما من أحد لا يأسف لاضطرار «الخود اللبنانيّة» إلى «الطلاق». وما ينطبق على لبنان ينطبق على كل الدول العربيّة الشاميّة مثلما ينطبق على الدول المغربيّة لأن وحدة اللغة والتاريخ المشترك لا يكفيان أساسين للوحدة إن لم تتوفّر القوى الماديّة الداخليّة ووحدة النظرة إلى العلاقة بين الله والطبيعة ومن ثمّ النظرة إلى العلاقات الاجتماعيّة. فنحن نشهد نهاية القرن العشرين دولا قوميّة نالت استقلالها بالدم والدمع لا تتمكّن من الحفاظ على مكتسباتها لاتساع الشقّة عند مواطنيها فيما يتّصل بالنظرة إلى الوجود.

⁴⁸ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 73

⁴⁹ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 74

على أنّه يمكن للمرء، أحيانا، أن يتبيّن من خلال ما كتب محمد كرد علي أنه يميّز بين دعاة القومية اللبنانية من المارونيين والروم الكاثوليك ودعاة الفكرة العربية (نقصد الوحدة بين القيسيّة واليمانيّة) من الروم الأرثوذكس وخاصة من البروتستانت وأن عداوته تستهدف الأوائل. وما ذلك إلا لصبغة البروتستانتية العربية الشامية التوفيقيّة من ناحية ولضعفها الشديد من ناحية ثانية، هذا الضعف الذي لم يمنع مثاليّة جورج أنطونيوس من أن تنسب إليها نشأة الفكرة العربية، مرّة سنة 1847، ومرّة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر فأوقعت بذلك جيلا كاملا (الجيل المولود في الثلاثينات) في متاهة يصعب حصر تناقضاتها.

كيف يظهر من نسب إليهم جورج أنطونيوس « نشأة الفكرة العربية » في عيني محمد كرد علي ؟ إنهم يظهرون خدمة لأمريكا وبريطانيا أي في مظهر الوسطاء الفكريين أو في مظهر « المناولين » الاقتصاديين: « لما أراد البروتستانت أن ينشروا مذهبهم في الشرق لم يجدوا أحسن من لبنان فجاؤوا وأنشأوا مدارس في الجبال ثم أقاموا الجامعة الأمريكيّة في بيروت (...) ولما تخرّج الطلاب بالجامعة الأمريكيّة لم يطب عيشهم في بلادهم فتفرّقوا في الأرض. وكان الاحتلال الأنكليزي لمصر، والاحتلال يحتاج إلى من يخدمه فرأى في اللبنانيين المتخرّجين باللغة الأنكليزيّة أحسن أنصار فأخلصوا كلّهم له ونسوا مصلحة مصر فاستفادوا من ذلك فوائد ماديّة لا تقدّر وخسروا كثيرا من المعنويات»⁵⁰ هل يمكن للمرء أن يردّ كلّ ما قدّمه جورج زيدان وفارس نمر ويعقوب صرّوف... إلى التفكير الشامي والعربي الحديث إلى « الاستفادة فوائد ماديّة »؟ وما هذا الفصل العجيب بين الماديّ والمعنويّ، وهو فصل قام تفكير محمد كرد عليّ على رفضه كما بيّنا ذلك في الفصل الثامن من القسم الثاني؟

لا تفسير عندنا لمثل هذا التناقض إلا بشدّة تأثير الأحداث السياسيّة في من عايشوها وكانوا طرفا فيها إذ كثيرا ما تمّحن هذه الأحداث الساخنة مبادئ المفكرين « الثابتة » فتظهر استعصاء الحياة على المحاصرة الفكرية النهائيّة : ولقد رأينا في حرب الخليج سنة 1991 بعض كبار المفكرين الذين كان « يعبدهم » كثير من المثقّفين عبادة الأصنام لتماسك تفكيرهم الفلسفي يقفون من هذا الحدث ويحلّونه تحليلًا يقصر أحيانا عن نفاذ تحليل عابديهم. هكذا مثلا دفعت الأحداث محمد كرد علي إلى أن يرى في كلّ من يكتب عن الإسلام من المسيحيين المارونيين خاصة كاتبها مشبوها كما يدلّ على ذلك الشاهد التالي :

⁵⁰ محمد كرد علي . - المدكرات، صص 73-74

«حدث شهوة الشهرة والاغراب صاحبي أمين الريحاني اللبناني على أن يظهر مرة في مظهر مؤرخ، وما كان عرف بغير الكتابات الأدبية. ومعظم تاريخه في نجد كان إملاء صاحب نجد على ما روى الراون فاقتبس من كتابي (خطط الشام) السيئات التي راقته وجسمها، وألبسها ثوبا من خياله، ونشرها في كتاب سمّاه «النكبات» حمل فيه على بعض رجال الإسلام، وزيف ما قاله المنصفون فيهم، ولجأ إلى قاعدة «خالف تعرف». ومما نصح به المسلمين أن يتركوا التناغي برجالهم وتاريخهم ويتبعوه، وما أعرف إلى أين ؟ ولعلّه يقصد أن يلتحقوا به ليمتلوا ملته. وكان جاهر كثيرا أنه خرج عليها، وإن كان حبها أشربه قلبه، وهو معذور في ذلك، فإنّ المعتقدات ما يتوارث مع الدم على ما يظهر. وغريب هذا القول ممن يدّعي الفلسفة ويلقب بفيلسوف الفريكة - والفريكة مزرعة التي ولد فيها - ونعته بالفيلسوف سواء كان من صنعه أو صنع أحبابه جميل وعجيب. والريحاني إذا حاول كتابة التاريخ الإسلامي، وهو فارغ الذهن منه مثلي إذا توخّيت أن أدون مناقب قديسه وشقيقه مار مارون، أو بطل لبنان يوسف كرم الذي غلا بعضهم غلوا مضحكا، ليقولوا للناس إنّ جبلهم الأشم أنبغ الأبطال كما أنبغ الفلاسفة»⁵¹.

موقف محمد كرد علي من القومية اللبنانية واضح، إذن، بل هو موقف يشكك حتى في من يتبرأ منها لأنها تعني «الطائفية» و«الطائفية من المعتقدات (التي) تتوارث مع الدم على ما يظهر». لعلّ بعض القراء يذهب به الظنّ، وهو يقرأ الشاهد السالف، إلى أنّ محمد كرد علي إنما يصدر في موقفه هذا عن الإسلامية أو العروبية الإسلامية. لقد رأينا قبل الآن مدى عداوته للإسلامية فما يكون موقفه من العروبية الإسلامية ؟

يتضمّن الشاهد المتقدمّ موقفا واضحا من العروبية الإسلامية التي تمثّل العربية السعودية نموذجها المكتمل. ولقد كتب الكردي عن الريحاني وعبد العزيز:

« ومعظم تاريخه (أي الريحاني) في نجد كان إملاء صاحب نجد على ما يروي الراون » ولا يحتاج المرء إلى حسّ لغوي كبير ليقمّ موقف الكردي من العروبية الإسلامية. فمحمد كرد علي يرفض العروبية الإسلامية لسببين أولهما تعصّبها للعرب وثانيهما عجزها الكامن عن تكوين دولة حديثة مستقلة مالكة لـ «شروط الحياة» وفي هذا الموضوع، وعلى عكس ما ذكرنا عن التتارية الإسلامية والقومية اليهودية، لا يعدم المرء أمثلة كثيرة على

⁵¹ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 236-237

موقف محمد كرد علي من التيار العروبي الإسلامي : لقد رأينا قبل قليل كيف انتهى اللقاء بين محمد كرد علي و عبد الرحمن الشهبندر :

« فقال الدكتور متهمًا وكيف إذن تدّعي أنك تخدم العرب ؟ وأين حميتك ووطنيتك ؟ فقلت له : لم أصحح شيئًا من هذا مع الأسف وإذا مت فاكذب على قبري : « هذا خائن العرب، وانظم قصيدة في هجوي، وأنا لا أدخل في مثل هذه المسائل »⁵².

هذه الحادثة ترقى إلى نهاية 1915 إذ أن تراجع الحلفاء حدث في ديسمبر من هذه السنة ومن المعروف أن أحمد جمال أعدم فيها عددا من الانفصاليين المسيحيين على انفراد أمثال الخوري يوسف الحائك وأنطون زريق وسليم زريق وقبض في جويلية على مجموعة من المسلمين منهم البيروتية عبد الغني العريسي أحد رموز العربية الفتاة، حليفة لا مركزية القاهرة قبل أن يعدمهم في ماي 1916 فما الذي صرح به عبد الغني العريسي فيما يتعلق بمحمد كرد علي وما مدى صحة ما صرح به ثم، وهذا هو الأهم، كيف كان الكردي ينظر إلى العروبيين الإسلاميين، سواء من العربية الفتاة أو من لا مركزية القاهرة ؟ :

«...وممن ذكرني وأكثر من ذكرني في الديوان العرفي صاحب جريدة "المفيد" عبد الغني العريسي فإنه بدا له أن يتوسع في أجوبته فكتب فيما قيل نحو مائة صفحة كبيرة ذكر فيها حتى صبيان المدارس، رجاء أن تعدل الحكومة عن مسّ كبار المجرمين إذا اتسعت المسألة إلى حدّ بعيد. وقد خصّني من هذه الصفحات بأربع الله أعلم بما حشاها به »⁵³

من السهل علينا بعد أن خصّصنا الفصل السابق للعروبية الإسلامية أن نتصور مضمون "هذه الصفحات الأربع" فلقد كان العريسي ومجموعته وكذلك قدماء لامركزية القاهرة، حتى لا نتحدث عن القوميّين اللبنانيّين يرون أنّ من يخدم سياسة الاتحاديين إنما ينشط ضدّ خصومهم إذ وصل الأمر بحقيّ العظم، على ما يقول شكيب أرسلان، إلى حدّ السعي إلى اغتيال الأمير الدرزيّ الاتحاديّ :

« غاية ما سمعت أنهم وجدوا كتابات من حقيّ العظم يحرّض فيها على قتلي »⁵⁴
فقد بلغ الانقسام، بين الشوام، إذن، حدًا لا يسمح، حتى لو لم تتدخل القوى العظمى لتقسيم الشام بتكوين دولة واحدة تجتمع على حدّ أدنى من الوفاق.

⁵² (محمد كرد علي . - المذكرات، ص 111

⁵³ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 118

⁵⁴ شكيب أرسلان . - سيرة ذاتية، ص 215

من الذين يقصدهم محمد كرد علي، يا ترى، بلفظ «كبار المجرمين» ؟ إنهم العربويون الإسلاميون ممثلين في لامركزية القاهرة وفي العربية الفتاة وفي حزب العهد خاصة إذ لم يعرف عن العريسي، رغم ما نسب إلى مؤتمر باريس من «صبغة توحيدية» أنه كان يرى في القومية اللبنانية خيراً على الشوام.

ومما يؤكد ما نذهب إليه هو حكم محمد كرد علي من أعدموا سنة 1916 فهو لا يعدّهم، مثلما يفعل الحزب الخصم، "شهداء" وأقصى ما يذهب إليه هو اعتبار أن الحكم عليهم بالإعدام قد يكون حكماً قاسياً : «قتل الاتحاديون ثلّة من أبناء العرب بدعوى خيانة الوطن، حاسبين الحرب العامة فرصة لا تتاح كل حين للخلاص منهم. قتلوا نحو ثلاثين رجلاً⁵⁵ ما أظنّ يستحقّ القتل منهم غير أفراد قلائل، هذا إذا تسامحنا في فرض العقوبة مثل ذنب من قال (يقصد شفيق بك المؤيد العظم) لوكيل فرنسا في القاهرة : قطعوا بجيشكم الخطّ من الإسكندرونه ونحن في الداخلية ننادي حالاً باسمكم. هذا رأي، إن صحّ أنّه قاله، والقانون لا يقتل إلا من تشبّث فعلاً بالشروع بالعمل، وظهرت نتيجة تشبّثه إلى حيّز الوجود»⁵⁶

الجملة الأخيرة، في الشاهد، مضطربة. والسبب واضح، إذ لم يعرف عن رئيس المجمع العلمي بدمشق أنه يتعثّر، تعثّر الحصري مثلاً، عندما يكتب باللغة العربية. وحتى عندما يتحدث محمد كرد علي عن بعض من قتلوا ممن لم تكن علاقته بهم متوتّرة فإنّه يعود إلى تقييمه المفضّل لشوام تلك الفترة: افتقار الناطقين باسم "هذه الأمة" إلى التجربة والحسّ السياسيين فأحمد طيارة الذي أبلغ محمد كرد علي وصيّة الشيخ طاهر الجزائري بضرورة الحذر زمن الحرب الكبرى لم يعمل بهذه النصيحة :

«لكن حبّ الكسب غلب على طيارة فنشر في جريدته حوادث لا ترضي العثمانيين كان يبعث إليه بها أحد قناصل الحلفاء مع أجرتها القليلة أيام النفير العام وقبله بقليل، وأنا

⁵⁵ لم يعثر على مصدرين يتفقان في تعداد من امتنحهم العثمانيون الاتحاديون من الشوام. ورغم ما قد تبدو عليه

ملاحظتنا من عراة فإنّ كلّ الأعداد التي نسبت إلى الاتحاديين هي أعداد ضئيلة مقارنة بما حصل للأرمن. وهذا هو ما يعسر في نظرنا أن أغلب الاتحاديين قد طاردهم الأرمن بعد سقوطهم وابتالوا أكثرهم. ثمّ إنّ الدول التي نشأت عن الدولة العثمانية الاتحادية لم تشدّ عنهم في سياسة امتحان معارضيهما إذ يصعب أن يعثر على دولة واحدة لم تسلك السلوك نفسه.

⁵⁶ محمد كرد علي . - المذكّرات، ص 154

عرضت على جريدتي مثل هذه النشرات ولم أر من الحكمة نشرها وهي صادرة عن أجنبي لا أعلم النية فيها، والدولة في أخرج أوقاتهما، فسيق صاحبي إلى عالية، وهو من جماعة الإصلاحيين، وربما كان مع غيرهم أيضا، وحوكم مع من حوكم فحكم عليه بالقتل»⁵⁷

أما المأخذ الأكبر على أكثر من امتحنوا فهو «الخطابة» و «البيان» وعدم الحيلة في ميدان السياسة وزمن الحرب :

« من رجالنا من كانوا لا يحتاطون كثيرا في كلامهم مع القناصل ولهذا سقطت الدولة العثمانية في أوراق وكلاء الدول⁵⁸ على أسرار باح بها بعض أحرار العرب، وكانت من العوامل في تجريم بعضهم ومحاكمتهم في الديوان العرفي والحكم عليهم بالقتل صلبا. وممن صلبوا وهم زهرة الرجال صديقي عبد الوهاب بك الأنكليزي. ولما حكم الديوان العرفي عليه بالقتل بكى أعضاؤه. ولو عرف أنه سيحاكم ويحكم عليه لرضي باقتراح طلعت باشا وزير الداخلية عليه : أراده أن يهيء له سبيل الهرب من الآستانة إلى الخارج وقال له إذا طلبت إلى سورية فلا أستطيع إنقاذك»⁵⁹

إن القضية واضحة، إذن، بالنسبة إلى محمد كرد علي : هناك حرب كبرى يسحق فيها الملايين من الناس وتسيل فيها وديان جارفة من الدم والدمع. فإذا اختار المرء النشاط السياسي في ظروف كهذه فعليه الحذر، على الأقل، أشد الحذر، إذ أن الحرب مناسبة لتسيب الغرائز الأكثر طبيعية. ولا يمكن في مثل هذه المناسبة أن يختلف القضاء سواء في السلطنة أو في فرنسا أو في غيرهما من الدول اختلافا تاما فيطبق "القانون الذي لا يقتل إلا من تشبث فعلا بالشروع بالعمل، وظهرت نتيجة تشبته إلى حيز الوجود". والجملة «ولما حكم الديوان العرفي عليه بالقتل بكى أعضاؤه» يصعب علينا، ولو اجتهدنا، أن نؤتيها حظها من البيان لأنها تفيض على اللغة فتصير بإزائها خشبا : إن الحرب حالة خلل وآلة الحرب عندما تنفلت من أيدي صنعة القرار تلقي بهم جانبا وتستقل بنفسها فإذا نحن من جديد بإزاء مفهوم الجلال والضحية الشديقي ألا ترى أن لا أحد يخرج من عملية القتل الجماعي هذه سالما، سواء كان منتصرا أو مهزوما ؟ لقد عثرنا على شواهد عديدة وفي مصادر

57 محمد كرد علي . - المذكرات، ص 142

58 المثال المعروف هو مثال جورج بيكر (المشهور شهرة اتفاقية سايكس بيكو) الذي نسي عند مغادرة مقره إحراق

ما فيه من وثائق

59 محمد كرد علي . - المذكرات ص 152

متعارضة، تتهم، وليس لنا أن نبت في صحة هذه التهم، الأمير الدرزي شكيب أرسلان والشيخ السنّي العكاوي أسعد شقير والمتنفذ المتوالي كمال الأسعد بل محمد الشنطي، أحد المنشقين عن جماعة رفيق العظم ومحمد رشيد رضا في حزب لامركزية القاهرة بالوشاية بكثير ممن صلبوا من الاستقاليين ولكننا لم نعثر في ما وقع بين يدينا من مصادر على اتهام واحد لمحمد كرد علي بسلوك هذا المسلك فما هو سبب ذلك ؟ لا يمكن في مثل هذه الأسئلة إلا الاجتهاد. ونحن نرى أن ما حال دون سلوك الكردي هذا المسلك هو إحساسه المر والقاتل بأنه غير حر، أي غير مخير، أي أنه "خود" لا يربطها بأحمد جمال أي علاقة حب، وإنما الخوف (الخود) من ناحية والمصلحة (الشيخ أحمد جمال) من ناحية ثانية: « كان الأمير شكيب أرسلان من جماعة أنور يحميه ويحبّه، وكنت أنا من أخصاء جمال يحبّني ويحميني، والله أعلم بنيات الإثنين نحونا، وأنا لا أعتقد بأن قلب أمثالهما من القلوب التي تحب، وما حبّهما لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما والدولة»⁶⁰

إن ما يدفع الناس إلى أن يكونوا ملوكا أكثر من ملوكهم إنما هو الإيمان أي الحب أو الكره أي العمي، ولقد كان محمد كرد علي، بفضل الشك، مبصرا، أي "واعيا" بحقيقة مكانته في "عجلة" الدولة. ولذلك لن يموت شكيب أرسلان سياسيا إلا عندما يموت بيولوجيا. أما محمد كرد علي فلقد أحسّ بعد نهاية الحرب الكبرى بانتهاؤه دوره السياسي إذ أجاب من حاول استخدامه مثلما استخدمه أحمد جمال :

« إنني استعبدت مرة واحدة في حياتي، ولا أحب أن استعبد مرة ثانية. استعبدني جمال باشا الكبير لأنه حماني منذ وافى هذه الديار من دسائس الدسائين، وأنا أكره الاستعباد مهما كانت صورته ولست كفوطة الحمام انتقل من جسم إلى جسم»⁶¹

فإذا كان علينا أن نغلب سببا من الأسباب التي نحاول أن نفسر بها ارتباط محمد كرد علي بالعثمانيين الاتحاديين بداية من 1915 فإن هذا السبب هو شكّه في إمكانية نجاح الدولة التي يطلبها الاستقاليون لفقدان هذا "النسخ" الداخلي الذي يمكنها من البقاء. ولقد حدّد هذا الإيمان موقفه من الدولة الفيصلية (1918 - 1920) التي قامت عقب سقوط الدولة العثمانية الاتحادية في ظلّ القوتين المنتصرتين، بريطانيا وفرنسا :

⁶⁰ محمد كرد علي . - المذكرات، صص 171-172

⁶¹ محمد رد علي . - المذكرات، صص 169-170

« لما عقدت الهدنة ودخل الأمير فيصل دمشق مع الجيش العربي وجيوش الحلفاء كان أول ما طلب إلى أخي أن يكتب إلي في إسطنبول بالحضور حالا. ولما زرتة كان لناؤنا لقاء أخ بأخيه، وتفضل وعاون المقتبس على الصدور، وكان توقف قبل جلاء العثمانيين عن دمشق⁶² »

إن صورة الأمير ثم الملك فيصل الأول لا تبدو عند محمد كرد علي بالتقلب الذي تبدو عليه في كتابات العروبي الإسلامي محمد رشيد رضا وذلك لأن الكردي يركز على العوامل الداخلية عندما يقيم تجربة الحكومة الفيصلية في الشام. وهو لا يرى أن أمة من الأمم يمكن أن تخرج من وضع إلى وضع بتأثير "زعيم منقذ" ومن هنا كان التعقيد الذي يميز تفكيره، فهو معاد « للجمهور » ولكنه معاد كذلك "للزعماء الرسل". وهكذا فإن فترة حكم فيصل الشام بدت في عينيه، فترة فوضى :

« كانت الفوضى بادية في إدارته في دمشق، على نحو ما كانت ظاهرة في حملته بالبادية⁶³ وإذا كان له بعض العذر في فوضاه يوم كان في الصحاري فهو لا يعذر على الفوضى في حالة الاستقرار بالمدن. والفوضى تبدو جلية في الحضر أكثر من البوادي⁶⁴ »

وبدا له المحيطون بفيصل سواء من المسيحيين أو من العربيين الإسلاميين (محمد رشيد رضا قبل انقلابه على فيصل) أو من الاستقلاليين أعضاء حزب الاستقلال العربي « قوما لم يربوا التربية السياسية المطلوبة، وهم خارجون من أيدي حكومات عبثت بحضارتهم وأضررت بتربيتهم⁶⁵ بل بدا له أغلب من ترددوا على فيصل « سراقا من كل صنف وأناسا لا يهتمون لغير مصلحتهم⁶⁶ ». ويعطينا محمد كرد علي أمثلة عديدة على من « لم يربوا التربية الساسية المطلوبة » نكتفي بإيراد اثنين منها أولها يتعلق بإحسان الجابري « حاجب الملك فيصل (...) فكان حريصا على جلال هذا الملك يعين لن يواتيه

⁶² محمد كرد علي . - المذكرات، ص 131

⁶³ البعض أطلق على حركة الشريف حسين عبارة "الثورة العربية الكبرى" فيما لا يرى محمد كرد علي في هذه الحركة

عبر حملة بالبادية تميزت بالفوضى

⁶⁴ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 131

⁶⁵ محمد كرد علي . ت المذكرات، ص 132

⁶⁶ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 131

الحظ بالمثل بين يدي الملك دقيقتين أو أربعاً، ويقول للملك أن ينهض لواحد، ولا ينهض لآخر ويقَلُّ من الكلام أو يكثر على حسب ما يرى»⁶⁷
وثانيها يتعلق بمحمد رشيد رضا :

« ومع هذه الصداقة القديمة المستحكمة الأواخي (يقصد بينه وبين الأمير ثم الملك فيصل) ما كنت أرى تعجيزه وقد أصبح أمير سورية، على نحو ما كان يفعل بعضهم ومنهم رئيس المؤتمر السوري فإنه ما كان يتوقف عن الاختلاف إليه قبل الشمس في غرفة منامه، ولا في ساعة متأخرة من الليل وهو يتهيأ للدخول إلى فراشه، يباغته في خلوته وجلوته حتى ضاق به ذرعاً على ما فطر عليه من سعة صدر ثم غضب على والده، الملك حسين، وكتب فيه ما لا يكتب وطعن في نسبه بما لا يقره عليه عاقل، أطلعني على الطعن صديقي الأمير شكيب أرسلان في برلين وقال "انظر ما كتب صاحبك، فقلت له هو صاحبك قبلي وأنتما تتقارضان المديح. قال شكيب : أنت تعرف ما بيني وبين الهاشميين من أجل السياسة التي انتهجوها في معاداة الدولة ومع ذلك لا أستبيح أن أطعن بهم هذا الطعن، وأرى أن من واجبي إذا رأيت الطفل منهم أن أقبل يده لأنه ابن الرسول »⁶⁸

لم يكن فيصل، على قلة تجربته السياسية، واقعا فقط تحت ضغط من سبق ممن ذكرنا من جيل محمد كرد علي ولكنه كان واقعا كذلك تحت ضغط جماعة "إمّا الكلّ أو لا شيء" الذين يمتقنهم محمد كرد علي مقنا لا مزيد عليه. وعلينا، لفهم موقف محمد كرد علي من هؤلاء، أن نثبت الاتفاقية التي رفضوها بعد أن وقّعها فيصل وكليمنصو. وكالعادة، في مثل هذه المسائل التي لا إجماع حولها، تميل، من دون خشية الإطالة، إلى إيراد الشواهد من كتابات الشوام أنفسهم وفي هذا السياق كتب عبد الرحمن الشهبندر :

« أفهم الأنكليز فيصلا بصورة صريحة أن فرنسا أصبحت الآن صاحبة الشأن في سورية، فعليه أن يتفق معها مباشرة وأنهم لا يحجمون أن يكونوا وسطاء خير. فسافر إلى باريس حيث اجتمع بالمسيو كليمنصو ودخل معه مباحثات بسط له فيها حرص الأمة السورية على وحدتها واستقلالها فكان من نتيجة هذه المباحثات وضع أسس الاتفاق (في 6 يناير سنة 1920) الذي أطلق عليه اسم (اتفاق كليمنصو وفيصل) وخلاصة هذا الاتفاق الوحدة الشاملة للعلويين وجبل الدروز وجبل بيروت والإسكندرونة مدينتين حرتين، وسحب

⁶⁷ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 327

⁶⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 131

الجيش الفرنسي من سورية إلى كيليكييا. فإذا اقتضى الأمر استدعاء هذه الجيوش مرة ثانية فلا يكون ذلك إلا بطلب رئيس الدولة السورية واتفاقه مع المفوض السامي، أما المستشارون الفنيون فيوضعون تحت تصرف الحكومة السورية ومنها يتسلمون وظائفهم ويستمدون قوتهم التنفيذية بموجب عقود. فحدث بينهم وبين الحكومة خلاف. فقد أصرّ الفقيه (الملك فيصل) على أن يحلّ ذلك في مجلس الوزراء السوري لا في فرنسا كما أصرّ المسيو كليمنصو وتكون دمشق عاصمة البلاد وحلب مقرّ المندوب السامي واللغة العربية لغة البلاد الرسمية. لقد أوردنا هذه الخلاصة لبيان الأسباب التي جعلت الأمير فيصل على قبول الاتفاق وإمضائه بالحروف الأولى من اسمه كما أمضاه المسيو كليمنصو وكيف كان راضيا به، لكنّ دعاية شنيعة بنّت عليه عند عودته، فتراجع من غير نظام لأنّه كان لا يزال حديث عهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة بالرغم من جميع تلك الاختبارات البالغة التي مرّت عليه، ولو أنه وقف موقفا ثابتا ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين أنصارا يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه ولا يدرى أحد ماعسى أن يكون التدرج في ديار الشام لو تمّ هذا الاتفاق وبقي فيصل السياسي الممتاز مليكا على سوريا ومما لاشك فيه مطلقا أنه كان في نفسه راضيا عن هذا الاتفاق (...) ومما قاله المسيو كليمنصو لفیصل عند البحث في هذا الاتفاق : إن هذا الشعر الشائب الذي تراه في شاربي وفودي قد ابيض من معاناة السياسة في هذه البلاد وأنا لست استعماري ولا أعتقد بالاستعمار . وإني أعرض عليك معاهدة لن تجد سياسيا فرنسيا مسؤولا من بعدي يعرض مثلها، ففكر في الأمر مليا وأنا أنتظر جوابك»⁶⁹

من الذين قصدهم الشهبندر بأصحاب «الحملات المدبرة» ؟ إنهم جماعة العربية الفتاة خاصة (من دون جماعة العهد) و... محمد رشيد رضا الذي انضم، سياسة منه، إليهم «على إثر رجوعه (يقصد فيصل) عقدت الهيئة العامة لجمعية الفتاة ومن أعضائها الدكتور أحمد قدري ورفيق التميمي وعزة دروزة وشكري القوتلي اجتماعا سرياً في منزل الدكتور أحمد قدري حضره الأمير فيصل نفسه فعرض مشروع المعاهدة على اللجنة فرفضه أعضاؤها رفضاً باتاً (...) وفي عصر اليوم السادس من (...) مارس 1920 اعتلى عوني عبد الهادي كاتب الأمير منبر المؤتمر السوري المنعقد في النادي العربي، فقال بلسان الأمير في جملة ما قال : «استحقّ العرب حريتهم واستقلالهم بفضل الدم الطاهر الذي سفكوه،

⁶⁹ حس الحكيم - عبد الرحمن الشهبندر - ص 47

وبفضل ما قاسوه من أنواع العذاب والظلم. فالأمة العربيّة بعد اليوم لا تقبل أن تستعبد. ولا نطلب من أوروبا أن تمنحنا ما ليس لنا به حقّ بل نطلب أن تصدّق على حقنا الصريح الذي اعترفت به لنا، نريد حياة حرّة واستقلالاً تاماً وفي 8 مارس 1920 في الساعة الثالثة بعد الظهر بوبع الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا في دار بلدية دمشق.⁷⁰ وفي جويلية 1920 انتهت وقعة ميلسون بين الفرنسيين والشوام بعد بضع ساعات من القتال وسقطت الحكومة الفيصلية إلى الأبد.

استعمل الفلسطيني عوني عبد الهادي في خطبته مرّات عديدة ألفاظ : "الحق" و"استحق" و"حقنا" ولم يرد في هذه الخطبة ولو مرة لفظ يدلّ على القوة المادية. وهذا هو بالذات مأخذ محمد كرد علي على الجماعة التي ادعت القدرة، على ما هو بين من ضعفها (بما أنّها تستمدّ حياتها من العون المادي البريطاني) على معارضة سياستي فرنسا وبريطانيا معا :

« سألت (أحد المتطرّفين) : ولماذا تحاربون فرنسا وانكلترا في آن واحد؟ حاربوا أحدهما حتى إذا ما تغلبتم عليها تحاربون الأخرى »⁷¹

لا يردّ محمد كرد علي هزيمة ميلسون إلى البريطانيين (الذين تخلّوا عن فيصل) ولا إلى الفرنسيين لأنّ من طبيعة الأقوى أن يسعى إلى السيطرة على الأضعف بل إنّ لا يردّ هذه الهزيمة إلى فيصل : « لو لم يكن لديه (فيصل) إلّا المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين وكلّ من الفريقين يحاول أن تكون لدولته الكلمة العليا في الشام، لكفاه ذلك همّاً ومشغلة. أضف إلى هذا أنّ القوم (يقصد الزعماء) لم يربّوا التربية السياسيّة المطلوبة »⁷² بل هو يردّ هذه الهزيمة إلى « خطأ رأي هؤلاء المتبجّحين وكانوا ولا يزالون شرّاً على البلاد بآرائهم وتوجيهاتهم الخاطئة »⁷³ هؤلاء الذين « يستأثرون بحقّ الكلام عن السوريين من دون توكيل منهم »⁷⁴ والذين يعتبر محمد كرد علي أنّ الشيخ كامل القصاب أو الشيخ محمد رشيد رضا هو النموذج الصافي لهم :

⁷⁰ حسن الحكيم . - عبد الرحمن الشهنيدر . - ص 125

⁷¹ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1292

⁷² محمد كرد علي . . - المذكرات، ص 132

⁷³ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1293

⁷⁴ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1292

« وما ننسى اليوم ما كان من تزعم "شيخ كتاب" يملي إرادته على الأهلين وعلى الأمير فيصل ويبث في النفوس روح الثورة والعداء للأجانب، وكان بعمله الأخرق سببا في إزهاق أرواح مئات من الناس، وما كانت غايته إلا الظهور والاستئثار بالمغانم، وكان يزيد في رعونته كلما رأى آراءه مسموعة ودعوته في تضليل العقول ناجعة. وهو بما أتاه لم يخسر شيئا، وكان الخاسرون من ساروا في ركبته مغرورين مخدوعين أما هو فقد جمع ثروة عاش بها مرقها. ومن الغريب أن يظل مرجعا يعتد برأيه إلى عهد قريب، بعد أن رأى الشعب خطأ جميع مناهجه السياسية »⁷⁵

إن كان المقصود، في الشاهد، هو محمد رشيد رضا، وهو أمر لا نستبعده، فإن السبب الأخير التي نفسر به خيار محمد كرد علي الاتجاه سنة 1915 وجهة عثمانية، وهو خيار الولاء للأشخاص، يصبح سببا وجيها : إذ اليأس من إمكانية قيام دولة سليمة صحيا يقودها أمثال محمد رشيد رضا من العروبيين الإسلاميين يلجئ ضرورة إلى مثل هذا الاختيار. ولسوف يجتهد محمد كرد علي، نتيجة هذا الاختيار، في تغيير الصورة التي رسمها العروبيون الإسلاميون والقوميون اللبنانيون خصومه، للعثمانيين الاتحاديين وكأنه يود من وراء ذلك إثبات حقيقة مرة هي أن العثمانيين الاتحاديين، على ما تميز به حكمهم من سلبيات، كانوا، لتجربة الحكم الطويلة التي لهم، أكثر من الشوام قدرة على إقامة دولة حديثة إذ في الوقت الذي فشل فيه هؤلاء في تكوين دولة موحدة حتى في سوريا الداخلية تمكن مصطفى كمال، العثماني الاتحادي القديم من فرض إرادة الشعب التركي على بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان مجتمعة وحافظ بذلك على وحدة الأراضي التركية بعد أن رفض الفكرة الأقجورية القومية وعوضها بالفكرة الوطنية .

لقد شطن العروبيون الإسلاميون والقوميون اللبنانيون العثمانيين الاتحاديين وخصوا ثلاثة منهم هم أحمد جمال ومحمد أنور ومحمد طلعت بالقدر الأكبر من المثالب . أما محمد كرد علي فقد رسم لأحمد جمال ومحمد أنور صورتين يحسن أن نتتبع ملامحهما ونقارنهما بالصورة التي رسمها شكيب أرسلان لكل منهما حتى يزداد القارئ تشبعا بروح هذه الفترة وإحساسا بجموح المشاعر التي تقف وراء هذا الاختلاف في تقييم العثمانيين الاتحاديين.

كان كل مركز من مراكز القوى في الدولة محاطا بجماعة من الخلاء المتخصصين فيما بينهم استنساخا لخصومات أولياء النعمة فلقد كان شكيب أرسلان مثلا من خلاء أنور

⁷⁵ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 1293

وكان الشيخ أسعد الشقيري من خلصاء أحمد جمال. فكيف كانت العلاقة بين هذين الشاميين ؟ كتب أرسلان : « إن تلك المكانة وتلك العنجهية اللتان كانتا لجمال لم تلبثا أن سقطتا بعد تقهقر جيشه في فلسطين. فبدلاً من أن يرغب وي زيد مثل ذي قبل، رجع يتزلف إلينا حتى نكف عنه وكان أول من شرع في ذلك مستشاره الشيخ أسعد الشقيري الذي كان من قبل يكرهني أشد الكراهية ويكيد لي بجميع ما يستطيع من الوسائل. فلما جرت إقاله جمال باشا من القيادة في سوريا أخذ يتزلف إلي⁷⁶ »

فمن المنطقي، إذن، أن يتحاشى الباحث، وهو يدرس هذه الفترة، الاستناد إلى مصدر مفرد أو إلى تيار مفرد فيقع فيما وقعت فيه دراسة تاريخ هذه الفترة التي استندت إلى الايديولوجيا العروبية الإسلامية خاصة. ومع ذلك فنحن نميل إلى الثقة فيما كتب محمد كرد علي أكثر من ميلنا إلى الثقة في أي شخصية فكرية أخرى لأمر بسيط وهو شك الكردي القاتل في الأفراد وفي الأحزاب مما يقيه في أغلب الأحيان من الوقوع في « حب » سياسي يعشي بصره الفكري إن لم يذهب به. فلقد كتب عن علاقته بجمال وعلاقة أرسلان بأنور : « كان الأمير شكيب أرسلان من جماعة أنور يحميه ويحبّه وكنت أنا من أخصاء جمال يحبّني ويحميني، والله أعلم بنيات الإثنين نحونا، وأنا لا أعتقد بأن قلب أمثالهما من القلوب التي تحبّ، وما حبّهما لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما وللدولة⁷⁷ »

فقيمة محمد كرد علي الفكرية تكمن في أنه "خود" متسائلة دائماً لا "خود" مرتخية فكرياً. ومن هنا كان اهتمامنا بأحكامها على جمال وأنور. ولقد تحدّث الكردي عن نفسية جمال وعن شعوره الديني فكتب :

« لاحظت منه غيرة دينية وشعورا إسلامياً في أحاديثي الكثيرة معه ولكنّه كان في المسائل السياسية لا يغفر لأحد زلة إذا حاد قيد أنملة عن قانون الوطنية العثمانية. ومما أعده له في باب الغيرة الدينية ما اقترحه عليّ من أن أضع على رأسي عمامة ليوسد إليّ إفتاء دمشق فأتصمّن من إدخال الإصلاح على أهل السلك العلمي فتبسّمت في المرّة الأولى لكلامه وقلّبت الحديث إلى ما يشبه الهزل. فلما تكرّر ذلك منه بعد حين قلت له : أظنّ مولاي

⁷⁶ شكيب أرسلان . - سيرة ذاتية، ص 199، وليس بإمكان المرء أن يقرأ هذا الشاهد من دون أن يندكر ما كان يحدث من حصومات بين أبي الهدى الصيادي والمقربين منه و أحمد عرت العائد وأبصاره (الدم، حمال الدين الأعماي) ومراكز القوى كانت في الدول العربية الحديثة مثل السوس الذي يحرر أسس الدولة.

⁷⁷ عماد كرد علي . - المدكرات، صص 171 - 2172

يهزل في اقتراحه هذا عليّ. فأقسم أنّه يجدّ وأنّه يتوقّع من ذلك خيراً للمسلمين لاعتقاده أنّ من الصعب أن يقوم بهذا من لم يثقّف الثقافة اللازمة وقال : إن معالجة المشائخ ببلمس الإصلاح خدمة للإسلام والمسلمين فشكرت له فضله وغيرته وتنصّلت واعتذرت من عمل قد لا يجلب عليّ غير الضرر»⁷⁸

أما شكيب أرسلان فهو على شدّة بغضه لأحمد جمال، لا يذكر عنه شيئاً يشكّك فيما قاله عنه محمد كرد علي. وممّا زادنا اقتناعاً بصحّة هذا الحكم ما أورده جورج أنطونيوس الذي لا يقلّ عن شكيب أرسلان مقتاً للقائد العثمانيّ الاتحادي :

« لم يكن جمال باشا أحد أعضاء "تركيا الفتاة" الذي يمثلون جمعيّة الاتحاد والترقيّ ويحملون طابعها بل كان بطلاً معروفاً من أبطال الدعوة الإسلاميّة فكان يخالف الداعين إلى الوحدة الطورانيّة ويجاهر، عن إخلاص، بإيمانه بمزايا القوميّة العثمانيّة المبنيّة على التضامن الإسلاميّ وبمستقبلها وكان يميل إلى فرنسا وقد اشتهر بكرهه للألمان»⁷⁹

تتبدّل لهجة محمد كرد علي عندما يتحدّث عن أنور :

« أكّد لي بعض العارفين أنّ أنور باشا كان إذا أراد قتل إنسان، وقام إلى الصلاة، وأتمّ صلاته ورأى أن أمره لم ينفذ، يأمر بقتل من أمره بالقتل وتلكأ، ثمّ يقتل الأوّل الذي كان قضى بقتله، وكان في آخر أيّام الحرب يعذب في سجن إستامبول نحو مائة ضابط لأنهم قالوا إنّ الاستمرار على الحرب لا يورثنا إلا خسارة في الأنفس والأموال، وذلك بأنواع من الإرهاق لم يروا أفظح منها في محكمة الفتيش الديني في العصور الوسطى. وكان أنور باشا يتظاهر بالدين والعفة ويعمل له في مزارعه أربعة آلاف جنديّ في آخر سنيّ الحرب⁸⁰ والدولة في حاجة شديدة إلى الجند يؤمّد، وهذه المزارع اغتصبها من رجل روميّ فيما أحسب وصدّرت منه يوم سقوطه فأفقر»⁸¹

أما الأمير الدرزي فقد كتب مقارناً بين الركنين الاتحاديين :

⁷⁸ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 110

⁷⁹ جورج أنطونيوس . - البيضة، ص 234

⁸⁰ ها هي شداقية محمد كرد علي وكره المظاهر بيدوان على السطح من جديد. أما العروبيون الاسلاميون فيكتفون

بالمظهر فمحمد رشيد رضاعلي كرهه للاتحاديين بسم سلوك أنور بالاسلامي لأنه كان يصلي.

⁸¹ محمد كرد علي . - المذكرات، 172

« لم يكن جمال باشا بذلك الرجل الذي يعهد إليه بسياسة مدنيّة داخلية. وجميع مزيته أنه كان ماضيا في العمل مهابا صارما يجوز أن يكون ذا نصيب من النجاح في الأمور العسكرية أو الأمور العمرانية أو الإصلاحات التي تقتضي السرعة والنجاز.⁸² فأما السياسة فإنه مع شدة ذكائه كان بعيدا عنها لأنّه لم يكن ممن يتغلّب على أهوائه وكان الغرور مستوليا عليه⁸³ » « وكان أنور كتامة لا يوجد أقدر منه على إخفاء ما في نفسه، وكنتم حركته⁸⁴ » « وكان من أقدر خلق الله على كتمان ذات صدره (...) ولم يكن (...) ممن يستطيره الغضب ولا ممن ينطق لسانه بطعن ولا لعن، ولا قذيفة، لم يعهد أحد أن رآه غضبان ولا أن سمعه شاتما، وكان عجيبا في هذا الأمر لا يباريه أحد فيه، وإذا أراد أن يتشكى لاذ بالمعارض، وعمد إلى الإشارات، بدون سلاطة لسان⁸⁵ »

فلا اتفاق إذن كبيرا بين محمد كرد علي وشكيب أرسلان في ما يتعلّق بهاتين الشخصيتين العسكريتين "الصخريتين". وهذا هو ما يفسّر، بالذات، دور المدنيّ محمد طلعت في الدولة العثمانية الاتحادية منذ قيامها إلى سقوطها. وحول هذه الشخصية وحدها نجد اتفاقا كاملا بين المفكر الكرديّ والمفكر الدرزيّ. فمحمد كرد علي يعدّد الحالات التي تدخّل فيها محمد طلعت للحدّ من جموح أحمد جمال ومن شدّته في امتحان ممثلي القوى النابذة ومنها الحالة التي « اقترح (فيها على عبد الوهاب الأنكليزي) أن يهرّبه إذا كان له شيء يتذرّع به لمحاكمته فأبى⁸⁶ »

ويتوسّع شكيب أرسلان أكثر من الكرديّ في وصف محمد طلعت :

« كان أنور كتامة (...) وذلك بخلاف طلعت الذي كان أدهى من أنور وأعلى كعبا منه في السياسة، فقد كان فاووهة يبيح كلّ ما في نفسه⁸⁷ » وكان « سريع الدمعة لاسيما إذا تكلم في المسائل الوطنية غلب عليه البكاء⁸⁸ ». ولطلعت « مزيّة أخرى (...) وهي معرفته أن

⁸² ما أقرب هذه الصورة من صورة أحمد مدحت باشا "أبي الدستور" ولناحظ أن الرجلين لم يثريا وكانا عفيفين ماليّا وقد قتل عبد الحميد الثاني مدحت باشا وقتل الأرمس أحمد جمال سنة 1922.

⁸³ شكيب أرسلان. - سيرة ذاتية، ص 158

⁸⁴ شكيب أرسلان. - سيرة ذاتية، ص 241

⁸⁵ شكيب أرسلان. - سيرة ذاتية، ص 246

⁸⁶ محمد كرد علي. - المذكرات، ص 153

⁸⁷ شكيب أرسلان. - سيرة ذاتية، ص 241

⁸⁸ شكيب أرسلان. - سيرة ذاتية، ص 266

يعصم نفسه من المطامع الدنيئة والمطامع الوبئية وعدم استخدامه شيئاً من نفوذه الطائل في جمع ثروة بحيث سطع له من حالة فقره برهان دائم على نزاهته (...). بينما كثيرون من زملائه قد غمسوا أصابعهم في أدهان المنافع، منهم من أشط ومنهم من اقتصر وكان يقول: أفلا يكفي كون هذه الأمة تحملتني على جهلي، فأحملها أيضاً على سرقتي وإعلالي»⁸⁹

هذه الصفات التي تميز بها البريدي محمد طلعت هي التي جعلت اسم جمعية الاتحاد والترقي يقرن باسمه رغم أنه «كان عصامياً فكل أحد يعلم أنه رقي في مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سالونيك بمعاش ألف وخمسمائة قرش في الشهر»⁹⁰ إلى الصدارة العظمى ولا جرم أن سرعة هذا الترقى كانت بسبب الانقلاب وإعلان الدستور ونفوذ جمعية الاتحاد والترقي التي كانت هي سبب الانقلاب، وكان طلعت من أعضائها⁹¹ ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلاً خارق العادة في ذكائه ومضائه وحزمه وعزمه لما أصبح هو رئيس جمعية الاتحاد والترقي بلا منازع⁹² فقد تصرفت هذه الجمعية بزمam السلطنة العثمانية عشر سنوات تامة، وتصرف طلعت بزمam هذه الجمعية جميع هذه المدة وكان هو دائماً روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلي ولو لم يكن كل الأحيان رئيسها الرسمي. وكان هو المرجع الأول والأخير للدولة من قبل أن يتولى الصدارة (يقصد بداية من 1916) بل لحظت أن الصدارة لم تزده نفوذاً، بل بالعكس أظهرت شيئاً من ضعفه وخطأت في نفسي رأيه بقبولها (...). وبالجمل فلو كان في جميع أعضاء هذه الجمعية من يضارع طلعت أو يقارنه مع كثرة عددهم

⁸⁹ شكيب أرسلان . - سيرة ذاتية ، ص 281

⁹⁰ حدد زميل محمد طلعت في الشعل البريدي عزة دروزة قيمة الليرة الشرائية على النحو التالي :

"إن دخل المائة قرش (ليرة واحدة) كان (يقصد سنة 1908) مجزياً لحياة بسيطة لأسرة مؤلفة من ثلاثة أفراد ومن بلب أولى مرتب الوظائف التي تكون بين الليرة والصف والثلاث ليرات. وكان الموظف ذو الثلاث ليرات أو الليرتين ونصف يدفع أجرة بيت ويلبس ويأكل ويفرش بيته ويعيش عيشة إن لم نقل حسنة فإنها لم تكن سيئة" (نشأة الحركة العربية، ص 212) ويورد أمثلة على مرتبات الموظفين فإن كانوا من غير الرؤساء فمرتبتهم يتراوح بين ليرة وخمس ليرات وأما إذا كانوا من الرؤساء فالوزير يتقاضى بين 75 و 100 ليرة والوالي بين 50 و 75 ليرة والمتصرف بين 30-45 والقائم مقام بين 15 و 25 ومدير الناحية بين 7 و 10 ليرات.

⁹¹ أكبر مأخذ للعروبيين الاسلاميين على الاتحاديين هو "أصلهم الوضع"

⁹² يلاحظ هنا أن الاسلاميين يركزون على الإرادة الفردية أكثر من التركيز على "الأصل والفصل"

وطموح الكثيرين منهم إلى المعالي، لما انفرد هو بالرئاسة على جميعهم، وقد قلت لما مات : إن هذه الجمعية ماتت بموته»⁹³

كلام شكيب أرسلان واضح، فهو رغم أنه كان من دعاة الدخول في الحرب الكبرى، على عكس طلعت، أقر لهذا المدني بما لم يقر به للعسكريين ومنهم أنور "حبيبته". وهو لم يعد في ذلك، ومن دون أي إحساس بالتناقض ما كان يطالب به يوسف أقجورا وما سيطبقه مصطفى كمال من ضرورة إبعاد الجيش عن السياسة وحصره في ثكناته لا يبارحها حتى وإن تزى قواده بالرّي المدني لأن القضية قضية ذهنية لا قضية مظهر. وماعرف عن قادة الجيوش يوما أنهم كانوا أكثر من أدوات تطبيق وتنفيذ.

لقد كان، إذن، على محمد كرد علي، بعد أن فقد الثقة في قدرات الشوام على تأسيس دولة صلبة وسليمة أن يختار، زمن الحرب، حاميا يحميه فاختر أحمد جمال مثلما اختار غيره محمد أنور أو محمد طلعت وبذلك ارتبط مصيره السياسي بتاريخ العثمانيين الاتحاديين ومثلما صرح محمد طلعت بعد الحرب بأن دور العثمانيين الاتحاديين قد انتهى «نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققنا غضب الأمة، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق فأقصر الطرق أمامنا هو أن نذهب إلى أوروبا، ونقبع في زوايا العزلة، ولا نأتي بأدنى حركة ولا نطمع في شيء، بل ننظر إلى ما يأتي به الدهر فإن لاحت لنا فرصة بعد مرور الأيام اهتبلناها، و لكننا في الوقت الحاضر لا يليق بنا إلا الانزواء والاعتزال، فقد أردنا أن ننقذ أمتنا ونرقي وطننا فلم يسعفنا القدر فلنترك الأمر لغيرنا»⁹⁴ صرح محمد كرد علي المؤمن بـ "قانون الطبيعة"، الملحد بدين هؤلاء السياسيين الذين لا يموتون، حتى عندما تلفظهم الأغلبية الساحقة من الناس، إلا عندما يموتون بيولوجيًا أو يقتلون : «إن التجلي لا يعاد، وإن من الصعب التمتع بالخطوة في دورين»⁹⁵

وأضاف :

«تعاهدنا أنا وصديقي الشيخ أسعد الشقيري ألا نشتغل بشيء اسمه سياسة بعد الحرب العامة لكثرة ما لقينا من آلامها، فانقطعت بالفعل إلى الأعمال العملية الصرفة. وإذا اشتركت في الوزارة مرتين فالوزارات السورية في عهد الانتداب كانت وزارات تعيين من

⁹³ شكيب أرسلان . - سيرة ذاتية، ص 280

⁹⁴ شكيب أرسلان . - سيرة ذاتية، صص 239-240

⁹⁵ محمد كرد علي . - المذكرات، ص 234

المنتدبين لا دخل لها في السياسة، وإنما هي وزارات إدارة، والسياسة بيد الدولة المنتدبة. وبهذا بررت بتعهدي وخلصت من غوائل كثيرة، وما كنت في الوزارتين شهد الله، أفكر في غير إصلاح المدارس وتعميم التعليم الابتدائي»⁹⁶

⁹⁶ محمد كرد علي . — المذكرات، ص 300

الغائمة

تبدأ هذه الدراسة بقسم عنوانه "الخود العثمانية بين خطيبين : آدم سميث والماوردي". وقد قصدنا بـ "الخود" المجتمع العثماني المعقد وقصدنا بـ آدم سميث الحضارة الرأسمالية التي بدأت تنفذ إلى هذا المجتمع منذ صدور تنظيمات 1839 والآخذين بهذه الحضارة نظرة إلى الله والطبيعة وإلى الدولة والمجتمع وإلى الزوج والزوجة وإلى المعلم والتلميذ أما الماوردي فكان يرمز إلى القوى التقليدية التي استماتت في الدفاع عن مواقعها الاقتصادية وعمّا كانت ترى أنه يمثل لا "أصالتها" الثقافية فحسب وإنما أصالة الخود كذلك.

وعندما حاولت هذه القوى التقليدية عن طريق عنف الدولة ممثلاً في تجربة عبد الحميد السياسية التي دامت ثلاثين سنة، أن توقف مسار التطور الرأسمالي تسببت في ردّة فعل للخود العثمانية ذات وجوه سبعة على الأقل خصّصنا لها القسم الثاني من هذا الكتاب: بعض هذه الوجوه لم تكن فيه شروط الحياة موفورة ففشل مسعاه (الإسلامية، العثمانية)، دعوة قدماء جمعية بيروت السرية) والبعض الآخر ولد ولكنه عاش كسيحاً (العروبية الإسلامية، القومية اللبنانية، القومية اليهودية) فلم هذا الفشل من ناحية والحياة الكسيحة من ناحية ثانية ؟

هناك، في نظرنا، شروط ثلاثة لابدّ من توفرها وبشكل كامل وغير منقوص لنجاح كل مشروع تغيير حقيقي :

- الشرط الأوّل هو ضرورة وجود حركة أفكار تستند إلى واقع اجتماعي واقتصادي
- الشرط الثاني : هو ضرورة عدم تعارض حركة الأفكار مع حركة التاريخ العام للإنسانية .

- أما الشرط الثالث فهو ضرورة وجود ظروف عالمية لا تعوق إعاقة كاملة، إن لم تسهل، تحقيق هذا المشروع.

هذه الشروط الثلاثة، التي يلحق غياب شرط واحد منها ضيماً على المشروع جميعه، مكنتنا إلى حدّ كبير، من أن نفهم أسباب فشل المشاريع التي تولدت عن ردود فعل "الخود" العثمانية على "الشيخ" أو ولادتها كسيحة.

فلقد فشلت الإسلامية لأنها لم تكن تعبّر عن حركة أفكار تستند من ناحية إلى قوى مادية فعّالة وتندغم من ناحية ثانية في حركة التاريخ العام للإنسانية وقد قاومتها من ناحية ثالثة القوى العظمى جميعها وفشلت العثمانية بوجهيها الائتلافي والاتحادي لأنها وإن كانت آخذة بنظرة حديثة إلى الأشياء ، لم تكن تستند إلى قوى اجتماعية واقتصادية مؤثرة وحاسمة وقاومتها إضافة إلى ذلك، القوى العظمى والقوى الداخلية النابذة شأنها في ذلك شأن التتارية الإسلامية وشأن دعوة قدماء جمعية بيروت السرية. أما الضرب الثاني من

المشاريع، وهو الذي ولد وعاش كسيحا، فيشمل القومية اللبنانية والقومية اليهودية والعروبية الإسلامية: والشبه بين القوميتين اللبنانية واليهودية يسترعي الانتباه ففي الحالتين توفرت الشروط الثلاثة ولكن بشكل منقوص. فهناك حركة أفكار تستند الى واقع اقتصادي وهناك ظروف عالمية سهلت تحقيق المشروعين الإيديولوجيين وهناك تناغم بين حركة الأفكار في القوميتين وحركة التاريخ العام للإنسانية ولكن ما كان ناقصا في هاتين القوميتين وبشكل كامل هو صلابة الواقع الاجتماعي المحلي مما جعلهما تفقدان عنصري الاستقرار والادئناس وما قيمة قيام دولة قومية غير مطمئنة؟ إن القومية، في نهاية الأمر، شأنها في ذلك شأن كل الإيديولوجيات ليست غاية في حد ذاتها، على الأقل بالنسبة إلى الأجيال التي تخلف الرواد. ومن يلق نظرة سريعة على لبنان أو إسرائيل لا يسعه أن يكون مطمئنا على مستقبل هاتين الدولتين. أما المشروع العربي الإسلامي فلقد توفر فيه وجود حركة أفكار تستند إلى واقع اجتماعي واقتصادي ووجود دعم خارجي تمثل في بريطانيا ولكن حركة الأفكار في حالة العروبية الإسلامية لا تندغم في حركة التاريخ العام للإنسانية بل إن هذه الأفكار لا تمثل بالنسبة إلى الأجيال الجديدة في البلدان العروبية الإسلامية مثلا أعلى لا تستنكف من اعتماده.

ولحركة التاريخ العام للإنسانية معنى شامل يتضمن الفكر والاجتماع والاقتصاد ويمثل بالنسبة إلى الأجيال الجديدة أفقا لا تنضب إمكاناته. ولم تكن الدول العروبية الإسلامية التي ساعدت بريطانيا على تأسيسها دولا تتضمن مثل هذا الأفق لأنها قامت على نظرة تقليدية إلى الأشياء أي على طبقات اجتماعية أفل نجمها عالميا أي أنها مجرد امتداد أو ما يشبه الامتداد لدولة عبد الحميد الثاني الإسلامية ولذلك فهي دول مثلت ارتدادا حتى بالنسبة إلى دعوة مثل دعوة قداماء جمعية بيروت السرية إذ ما أن قامت هذه الدول حتى تفوقعت على مصالح العروش الضيقة فكذبت بهذا الاتجاه آمال الرشديين السبينوزيين الشدياقيين حتى لا نتحدث عن اليساريين العرب الذين قارنوا في بداية العشرينات بين "حقيقة" الدعوة العروبية الإسلامية و"حقيقة" الوطنية التركية فظهر لهم سريعا تهافت أسس الدعوة الأولى ومثانة الدعوة الثانية بقيادة مصطفى كمال وصحابته. فعندما سقط العثمانيون الاتحاديون كان موطن الأتراك نفسه قد تعرض للتقسيم وللإهانة ومع ذلك تمكن الوطنيون الترك من استعادة هيبتهم الوطنية استعادة دفعت العربي الإسلامي محمد رشيد رضا إلى أن يكتب في مصطفى كمال، على معرفته بأنه سكير ولا يميل إلى غير بنات الهوى في المباغي (وأخذ العروبيين الإسلاميين الأول على خصومهم هو غياب مظاهر التدين والسكر والإفطار في رمضان...) ما يبعث على التأمل :

« لو عرف هذا الرجل العالي الهمة مصطفى كمال من الإسلام ما أعلم لأمكنه أن يكون رجل العالم لا رجل الترك فقط فالإسلام لا يحتاج إلا إلى رجل عالي الهمة بيده شيء من القوة يعلم ما فيه من علاج فساد البشر وينهض لمعالجتهم به وقد علم هذا نابليون الشهير وحاول أن يقوم به على ضعف علمه وانحصاره في بعض خواصه. ولو أحاط به علما لأشربه قلبه إيمانا. ولما استطاع أحد أن يقف في طريقه »¹

ودفعت الطبيب الوضعي عبد الرحمن الشهبندر الذي لم يقتله أحمد جمال « السفاح » ولكن قتله بعض رموز الكتلة الوطنية (مردم، الجابري، الحفار) إلى أن يكتب: « إذا أراد شرقي أن يعرف كيف يستطيع الشرق أن يستعيد مجده فليقرأ بإنعام نظريات تاريخ الحرب التي استعرت في الأناضول بين الكماليين واليونان وكيف برهن الترك على أنهم أهل للمجد والاحترام بما أتوه من ضروب البطولة والاستماتة في الدفاع عن الأوطان إلى أن اضطرت أوروبا وعلى رأسها أنكلترا إلى الاعتراف بالأمر الواقع، وأخذت الدول ذات المصالح المتباينة تأتي إلى الترك تخطب ودّهم »²

إن ما دفع هذين الشاميين إلى أن يكتبوا ما كتبوا (وهما من جيل مخضرم هو جيل محمد كرد علي) هو إحساسهما بالهوة التي تفصل بين مثل « الدعوة القومية العربية الشرق أدنوية » وواقعها فسرعان ما خبا وهجها وكان الموقف الغالب على من يملكون بعض القوة المادية من دعائهم التوقع على عروش تقليدية محلية موزعة بين العراق والحجاز ونجد وشرق الأردن. ففيما يتصل بالعراق كتب أسعد داغر في ما يشبه الألم المكتوم « أدركنا أنهم (يقصد جماعة حزب "العهد") في شغل عنا بالحالة التي يعالجونها في العراق فلم نشأ أن نحاول توجيه أنظارهم إلى سورية وغيرها لكيلا تنتشبت جهودهم فيضعف بذلك جهادهم في سبيل الاستقلال وانفردنا نحن بالعمل من أجل سوريا وفلسطين »³

والعمل " من أجل سوريا وفلسطين " الذي يقصده أسعد داغر هو النشاط في مهاجر شرق الأردن ومصر وأوروبا من أجل « تحرير سوريا وفلسطين »، هذا النشاط الذي خلف في الداخل السوري فراغا ملأته الكتلة الوطنية، لا القومية؛ المتأثرة بمصطفى كمال الوطني لا بيوسف أقجورا القومي، ممثلة في جيل جميل مردم و لطفى الحفار وسعد الله الجابري، وليد تسعينات القرن التاسع عشر الذي أنهى بنشاطه السياسي في الداخل دور جيل أمثال شكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا و محمد كرد علي وعبد الرحمن الشهبندر مستعملا العنف أحيانا ضدّهم (مقتل الشهبندر سنة 1940) من دون أن يتمكن من الانفراد بالعمل السياسي

¹ (شكيب أرسلان . - السيد رشيد رضا، ص 316

² (حسن الحكيم . - عبد الرحمن الشهبندر . حياته وجهاده، ص 70

³ (أسعد داغر . - مذكراتي على هامش القضية العربية، ص 123

لظهور جيل جديد منافس بعيد فكرياً عن الجيل الذي درسنا بل بعيد عن جيل الكتلة نفسها وهو جيل زكيّ الأرسوزي (ولد 1899) وأنطون سعادة (1904) وببير جميل (1905) وأحمد الشقيري (1908) وقسطنطين زريق (1909) وميشيل عفلق (1912) وخالد بقداش (1912) الذي تعددت معه الاتجاهات الفكرية في الشام، وأغلبها اتجاهات تقول بمسؤولية العامل الداخلي (ظهور مصطلح الرجعية) مسؤولية العامل الخارجي (مصطلح الاستعمار) مما قاد إلى أمرين هامين يتصلان بتطور التفكير في الشام أولهما تعديل النظرة إلى العلاقات العربية التركية الماضية إذ لم يعد الأتراك يحملون المسؤولية الكاملة عن أوضاع العرب مما سمح لمفكر مثل الشهبندر أن يكتب متبنيًا تفكير هذا الجيل الجديد :

« إننا لم نكن مستعمرين. فنحن إذا صرفنا النظر عن أحمد جمال وإخوانه الاتحاديين، نجد أننا كنا أمة تتمتع باستقلالها في داخل الدولة العثمانية. فقد كان لنا عرش واحد يحيط به العرب من جميع الجهات وجيش واحد فيه رئيس أركان حرب عربيّ ابن عربيّ من العراق وهو هادي باشا الفاروقي، وكانت لنا مجالس إدارة ومجالس ولاية وكان لنا برلمان يجتمع العرب فيه مع الترك ولئن كنا مختلفين مع الترك في اللغة والعادات فقد كنا متحدين في العقائد. وفي عهد اللامركزية كنا على قدم المساواة مع الترك. وإذا كنا لم نرتق فالترك لم يرتقوا أيضا «ومن أقامك في سحره ما ظلمك» فالظلم في الرعية كان عدلا في السوية»⁴

وإذا كان الشهبندر الاتحادي القديم قد فتح الباب لإعادة قراءة تاريخ العلاقات العربية التركية قراءة تنفر من تشطين العثمانيين فمن السهل على المرء أن يفهم دعوة وجيه كوثراني إلى إعادة كتابة تاريخ هذه العلاقات :

« هنا بالذات يكمن الخطر الكبير الذي يقع فيه بعض المؤرخين (يقصد الشوام) حين يتحدثون عن الاستعمار التركي وعن اعتبار حركة المثقفين العرب في المشرق حركة معادية للأتراك بشكل أساسي»⁵

أما الأمر الثاني فقد تمثل في طرح سؤال وجيه، في نظرنا، هو ما علاقة فكرة القومية العربية مثلما عبر عنها جماعة قدماء جمعية بيروت السرية بفكرة القومية العربية مثلما عبر عنها ساطع الحصري في عشرينات القرن العشرين وثلاثيناته ؟

لا يرى الحصري، الذي عرّب الأقجورية، في نظرنا، أن هناك علاقة بين الفكرتين ذلك أن فكرة القومية العربية المعاصرة ولدت نتيجة بروز القوميتين التركيتين (في تركيا على أيدي الوطنيين الأتراك) والإيرانية (في إيران على أيدي الوطنيين الإيرانيين

⁴ (حسن الحكيم . - عبد الرحمن الشهبندر، ص 123

⁵ (وجيه كوثراني . - الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، ص 153

(ولم تكن هاتان القوميتان فاعلتين في الفترة موضوع هذه الدراسة ولذلك فإن (أسباب نزولها) مختلفة إذ أنها هدفت إلى تحقيق أغراض ثلاثة أولاً الوقوف ضد تنامي التيار العروبي الإسلامي الذي تدعم بعد صلح جنيف سنة 1921 بين الإسلامية (شكيب أرسلان) والعروبية الإسلامية (محمد رشيد رضا) وثانيا التصدي للتفتت الفكري السياسي في الشرق الأدنى نتيجة تعدد التيارات الجديدة (الكتلة الوطنية ، البعث ، الشيوعية، حزب أنطون سعادة، الكتائب اللبنانية) وثالثا التصدي للقوميتين الإيرانية والتركية اللتين تهددان سوريا والعراق والخليج بتهدة الصراع الهاشمي (العراق، شرق الأردن) السعودي (نجد والحجاز) ونقل مركز ثقل الفكرة العربية إلى مصر والربط تبعاً لذلك بين الشمال الأفريقي والشرق الأدنى. وما كان لهذه الفكرة العربية الجديدة أن تظهر لولا الشعور المتنامي بتهافت التفكير التقليدي الذي يردّ فشل العرب إلى أسباب خارجية قبل كل شيء والذي برز إثر سقوط الدولة الفيصلية في سوريا (1918 - 1920) بسبب نقص تأهيل الشوام لحكم أنفسهم بأنفسهم نقصاً فادحاً:

« كنت ألفت الأنظار إلى خطر «التتريك» الذي ستعرض له الموصل إذا عادت إلى حكم الجمهورية التركية ولكن البعض كان يردّ على ذلك قائلاً إن الأتراك حكمونا وحكموا الموصل أكثر من أربعمئة سنة ، لم يستطيعوا خلالها أن يقضوا على عروبتنا وعلى عروبة الموصل... غير أنني كنت أقول "أرجو أن لا تنسوا أن الدولة التي كانت حكمت العراق وحكمت الموصل - في الماضي - لم تكن دولة "تركية" بل كانت "دولة عثمانية إسلامية" ولكن الدولة التي قامت مقامها الآن، هي «دولة تركية» بكل معنى الكلمة : إنها تركية باسمها، وبتكوينها، وسياستها . وإذا استعادت الموصل الآن فلن تعاملها كما كانت تعاملها الدولة العثمانية المنقرضة... »⁶

ويشير الحصري إلى دور بريطانيا في التشجيع على هذه الفكرة مما يذهب بادعاء من يتحدثون عن ولادتها منذ القرن التاسع عشر :

« تكلم (غاربيت وكان مستشاراً للمالية) عن الخطر التركي وقال إنه يظن أن هذا الخطر سيزداد في السنة القادمة (يقصد 1923) (...) أوضحت له رأيي وملاحظاتي بتفصيلات وافية حيث قلت : إنني دهشت عندما رأيت قوة التيار التركي الذي ينجذب إليه الناس وعلمت بعد البحث أنه نتيجة طبيعية لإهمال القضايا العربية. وتأكيذا لرأيي هذا ذكرت له ما حدث في سوريا، فقلت : في سوريا ما كان أحد يتجه نحو الأتراك بل بعكس ذلك كان الجميع يشعرون بكراهية شديدة نحوهم ولكن بعد سقوط الحكومة العربية، وبعد

⁶ (ساطع الحصري ، . - مذكراتي، صص 489-490

استيلاء الفرنسيين على سورية، تغيّرت الأوضاع... ولدينا معلومات أكيدة أنه بدأ هناك أيضا تيار يوجّه الناس نحو الأتراك. يظهر أن حجج هذه أثرت في غاربيت فقال: إذن ، اسعوا للعروبة، قوموا بدعاية لها»⁷

وخلاصة القول هي أن ما سعت هذه الدراسة إلى بيانه، باعتماد الشواهد الطويلة حيناً وبالتكرار المقل حيناً آخر، لا يتعدى ما ذهب إليه عبد الرحمن الشهبندر وساطع الحصري ووجيه كوثراني، فكل ما سبق من الشواهد يفيد أنه لم تكن هناك خصومة عرقية عربية تركية ولكن كانت هناك (انظر المقدمة) «خصومة بين عثمانيين اختلفوا، إزاء وضع السلطنة، حول الإجابة عن السؤال : ما العمل ؟ وانقسموا تبعا لذلك إلى عثمانيين آخذين بنظرتين متناكرتين إلى الأشياء» هذه الخصومة حول الإجابة عن السؤال ما العمل ؟ ورثتها الدول العربية التي ظهرت عقب سقوط الدولة العثمانية الاتحادية، وما زالت تنخرها في القرن الحادي والعشرين الذي دخلنا فيه فعلياً لا فلكياً بشكل يذكر بالعهد العثماني في أطواره الثلاثة : طور التنظيمات وطور قبرها وطور "صنعة الغيث" من العثمانيين الاتحاديين وخصومهم.

⁷ (ساطع الحصري . — مذكراتي، صص 61-62

المصادر والمراجع

المصادر و المراجع المذكورة في الهوامش

بالعربية:

- آصاف (يوسف) - استقلال لبنان. رسائل حرّرها يوسف آصاف و يتبع ذلك مذكرة الوفد اللبناني إلى مؤتمر الصلح في باريس. مصر، المط. العمومية، 1920.
- إبن رشد (محمد بن الوليد). - فصل المقال و تقرير ما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال. - بيروت دار الفكر، 1994
- إبن رشد. - مناهج الأدلة في عقائد الملة. - القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية 1955.
- إبن رشد. - تهافت التهافت. - القاهرة، دار المعارف، 1964.
- أرسلان (شكيب). - السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة. - دمشق، مط. ابن زيدون، 1937.
- أرسلان (شكيب). - لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم. - بيروت دار مكتبة الحياة، 1969.
- أرسلان (شكيب). - الديوان. - القاهرة، 1935.
- أرسلان (شكيب). - سيرة ذاتية. - بيروت دار الطليعة، 1969.
- أرسلان (شكيب). - بنو معروف، أهل العروبة و الاسلام. إعداد و تقديم سعود المولى. - بيروت، دار العودة، 1990.
- أرسلان (شكيب). - الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف (الرحلة الحجازية). - القاهرة، المنار، 1350.
- اسحق (أديب). - الكتابات السياسية و الاجتماعية. - بيروت، دار الطليعة، (1982)
- الأفغاني (جمال الدين). - خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني. - بيروت، دار الحقيقة، ط2، 1980
- أنطونيس (جورج). - يقظة العرب. تاريخ حركة العرب القومية. - بيروت، دار العلم للملايين، ط7، 1982.
- أوين (روجر). - الحياة الفكرية في المشرق العربي 1890-1939. - تأليف ر. أوين و آخرين. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1983.
- البستاني (سليمان). - عبرة و ذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور و بعده. - بيروت. دار الطليعة، 1978.
- جارودي (رجا). - الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية. - القاهرة، دار الغد العربي، ط9، 1997.

- الجسر (باسم). - ميثاق 1943. لماذا كان؟ و هل سقط؟. - بيروت، دار النهار، 1978.
- الحرّ (عبد المجيد). - معالم الأدب العالمي. - بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1982.
- حرّاز (السيد رجب). - الدولة العثمانية و شبه جزيرة العرب 1840-1909. - القاهرة، معهد البحوث و الدراسات العربية، 1970.
- الحصري (ساطع). - مذكراتي في العراق 1921-1941 (جزآن). - بيروت، دار الطليعة، 1967.
- الحكيم (حسن). - عبد الرحمن الشهبندر. حياته و جهاده. - بيروت، الدار المتحدة للنشر، 1985.
- الحكيم (يوسف). - سوريا في العهد العثماني. - بيروت، المط. الكاثوليكية، 1966.
- الحوارني (البرت). - الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939). - بيروت د.م.، (د. ن)
- الخطيب (عدنان). - الشيخ طاهر الجزائري، رائد النهضة العلميّة في بلاد الشام و أعلام من خريجي مدرسته. - القاهرة، م. د. ع. ع. ، 1971
- خير الدين التونسي. - أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس، الدار التونسية للنشر، 1972
- داغر (أسعد). - مذكراتي على هامش القضية العربيّة. - القاهرة، دار القاهرة للطباعة، (1959)
- دوزة (أحمد عزّة). - نشأة الحركة العربية الحديثة. - صيدا- بيروت، منشورات المكتبة العصرية ط2، 1971.
- الدهان (سامي). - الشعراء الأعلام في سورية. - بيروت، دار الأنوار، ط2، 1968
- دوغان (قرقوط). - تطوّر الحركة الوطنية في سوريا 1920-1939. - بيروت، دار الطليعة، 1975
- رضا (محمد رشيد). - رحلات الإمام محمد رشيد رضا جمعها و حققها يوسف إيبش. - بيروت، دار المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1971.
- زريق (قسطنطين). - نحن و التاريخ. مطالب و تساؤلات في صناعة التاريخ و صنع التاريخ. - بيروت، دار العلم للملايين، 1981
- رينان (إرنست). - ابن رشد و الرشديّة. - القاهرة، 1957.
- الزهاوي (عبد الحميد). - الفقه و التصوّف. - القاهرة، ط. نور الأمل، 1960
- زيدان (جورجي). - تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم. القاهرة، دار المحروسة، 1889

زيدان (جورجى). - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر. - بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.

الزركلى (خير الدين). - عمان في عمان. - القاهرة المط. المدرسية، 1925.

الزركلى (خير الدين). - ما قرأت و ما سمعت. مصر، المط. العربية، 1923
سعيد (رفعت الـ). - الأساس الاجتماعي للثورة العربية. - القاهرة، مكتبة مدبولي، د. ت.

شاكى (مصطفى). - محاضرات عن القصة في سوريا حتى الحرب العالمية الثانية. - القاهرة، م. د. ع. ع.، 1958

الشدياق (أحمد فارس). - الساق على الساق فيما هو الفاريان. أيام و شهور و أعوام في عجم العرب و الأعجام. - بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.

شرابي (هشام). - المثقفون العرب و الغرب. - بيروت، دار النهار للنشر، 1971
الشهابي (الأمير مصطفى). - القومية العربية. - القاهرة، م. د. ع. ع.، ط2، 1961
شيخو (لويس، الأب). - تاريخ الآداب العربية. - بيروت، ط. الآباء اليسوعيين، 1926

سالم (السيد مصطفى). - تكوين اليمن الحديث (1904-1948). - عين شمس، جامعة عين شمس، ط2، 1971

سعيد (أمين). - أسرار الثورة العربية الكبرى و أساة الشريف حسين. - بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، د. ت.

سلام (عنبرة). - جولة في الذكريات بين لبنان و فلسطين. - دار النهار، 1978
السوداني (صادق حسن). - العلاقات العراقية السعودية (1920-1931). - بغداد مط دار الجاحظ، 1976

صائغ (أنيس) الهاشميون و الثورة العربية الكبرى. - بيروت، دار الطليعة، 1966
صفوة (نجدة فتحي). - العراق في الوثائق البريطانية اختيار و ترجمة ن. ف. صفوة. - البصرة، منشورات مركز دراسات الخليج، 1983

صليب (جميل). - محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام و أثرها في الأدب الحديث القاهرة م. د. ع. ع.، 1958

الطهطاوي (رفاعة رافع). - الأعمال الكاملة. - بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1973.

العازوري (نجيب). - يقظة الأمة العربية تعريب و تقديم أحمد أبو ملحم. - بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1978.

- عبد الحميد، السلطان.- مذكراتي السياسية 1891-1908.- بيروت، مؤسسة الرسالة، 1977
- عبد (محمد).- الأعمال الكاملة.- بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980.
- عبد (محمد).- سلسلة الأعمال المجهولة.- لندن، رياض الريس للنشر، 1987.
- عبد (محمد).- الاسلام و النصرانية.- الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1987
- عبود (مارون).- رواد النهضة الحديثة.- بيروت، دار العلم للملايين، 1952
- العريسي (عبد الغني).- مختارات من " المفيد " قدم لها ناجي علوش.- بيروت، دار الطليعة، 1981
- علي سعيد (اسماعيل).- المجتمع المصري في عهد الاحتلال البريطاني 1882-1923.- القاهرة، مط. الأنجلو المصرية، 1972
- الغزالي (أبو حامد).- تهافت الفلاسفة.- القاهرة، دار المعارف، ط7، 1987
- غنيم (عادل حسن).- محمد عزّة دروزة و حركة النضال الفلسطيني.- القاهرة، دار النهضة العربية، 1987
- كرد علي (محمد).- أقوالنا و أفعالنا.- القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1946.
- كرد علي (محمد).- المذكرات (4ج).- دمشق، مط. الترقّي، 1948-1951.
- الكواكبي (عبد الرحمن).- الأعمال الكاملة.- القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، 1970
- كوتلوف (ل. ن).- تكوّن حركة التحرّر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر- 1908) دمشق، منش. وزارة الثقافة و الارشاد القومي، 1981
- كوثراني (وجيه).- الاتجاهات الاجتماعية و السياسية في جبل لبنان و المشرق العربي (1860-1920).- بيروت، معهد الانماء العربي، ط2، 1978
- الكيالي (سامي).- الأدب العربي المعاصر في سورية (1850-1950) القاهرة، دار المعارف، 1959.
- لوتسكي (فلاديمير).- تاريخ الأقطار العربية الحديث.- بيروت، دار الفارابي، 1985
- لونغريغ (س. همسلي).- سوريا و لبنان تحت الانتداب الفرنسي.- بيروت، دار الحقيقة، 1978

الماوردي (أبو الحسن).- الأحكام السلطانية والولايات الدينية.- بيروت، دار الكتاب العربي، 1990 الموسوعة العربية الميسرة.- القاهرة، دار الشعب، 1987.
موسى (سلامة).- تربية سلامة موسى. القاهرة، مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1958

النفزاوي (محمد الناصر).- محمد كرد علي. المثقف وقضية الولاء السياسي.-
تونس، دار الجنوب للنشر، 1993

النفزاوي (محمد الناصر).- فارس و بيزنطة و الجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع.- تونس، دار الجنوب للنشر، 1995

النفزاوي (محمد الناصر).- الملك و البهيمة أو الدولة و المجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده و فرح أنطون.- تونس، مركز النشر الجامعي ، 2000

الهاشمي (طه) .- مذكرات طه الهاشمي (1919-1943) .- بيروت ، دار الطليعة ، 1967 .

هيكل (محمد حسنين). - القنوات السرية (جريدة العرب الصادرة بلندن بداية من جانفي 1996)

وهيم (طالب). - مملكة الحجاز (1916-1925). - البصرة، منش مركز دراسات الخليج العربي، 1982.

وولف (جان). - يقطعة العالم العربي. - المكتب التجاري للطباعة و التوزيع
و النشر، 1960

اليازجي (كمال).- الشيخ ابراهيم الحوراني في فجر النهضة الحديثة.- القاهرة، م. د.ع. ع. ، 1961

يكن (ولي الدين). - المعلوم و المجهول (جزآن). - بيروت، دار صادر، د. ت.

بالفرنسية:

Abdelmalek (Anouar).- La pensée politique arabe contemporaine, Paris, Seuil, 3ème éd, 1980

Ageron(ch.-R)- politiques coloniales au Maghreb.- Paris, Puf, 1972

Ansart(Pierre)- La sociologie de Saint- simon.- Paris, Puf, 1970

Bardin(Pierre)- Algériens et Tunisiens de l'Empire ottoman de 1848 à 1914.- Paris, C.N.R.S. 1979

Baumann(Antoine).- Le programme politique du positivisme.- Paris, Perrin et Cie, 1904

Benoit- Méchin.- Mustapha Kémal ou la mort d'un Empire.- Paris, A. Michel, 1991

Castellan (Georges).- Histoire des Balkans(XIV-XXes.) .-Paris, Fayard,1992

Chevallier(Jean-Jacques) .-Les grandes œuvres politiques de Macchiavel à nos jours.- Paris, A.Colin,1970

Chevallier(Pierre).-Histoire de la franc-maçonnerie.- Paris, Fayard,1979

Churchill(Randolph S.).- Churchill, T2 :Le jeune homme d'Etat(1901-1914).- Paris, Stock,1967.

Derriennic(Jean-Pierre).-Le Moyen –Orient au XXes.- Paris, A.Colin,1980

Duroselle (Jean-Baptiste). –Le Moyen- Orient au Xxes. –Paris, Fayard , 1988

Ehrard (Jean). –L'idée de nature en France dans la première moitié du XVIIés. – Genève-Paris, Statkine, 1981

Encyclopédie de l'Islam, nouvelle éd., Paris- Leiden, G.P. Maisonneuve /EJ. brill, 1991

Fontaine (Jean, père). –La crise religieuse des écrivains syro- libanais chrétiens de 1825 à 1940. –Tunis , Ibla, 1996

Franck (Claude). –Le sionisme par C. Franck et M. Herszlikowicz. – Paris, Puf, 1980

Fritz (Gérard).- L'idée de peuple en France du XXII^{ème} au XIX^{ème} s.- Paris, 1988

Georgeon (François)... Aux origines du nationalisme turc. Yusuf akçura (1876-1935). –Paris, éd. AD.P.F., 1980

Goichon (A.-M..).- Jordanie réelle.- Paris, P. Maisonneuve et Larose, T.II, 1972

Guerreau (A.).- l'Iraq : Développement et contradictions.- Le sycomore, 1978.

Guichonnet (Paul).- Histoire de l'Italie. I : La Monarchie libérale (1870-1922).- Paris, Hatier Univ., 1969.

Guillermon (Alain).- Les jésuites.- Paris, Puf, 1975.

Habermas (Jurgen).- Connaissance et intérêt.- Paris, Gallimard, 1976.

Haddad- Chammakh (Fauma).- Philosophie systématique et système de philosophie chez spinoza.- Tunis, Fac. des lettres, 1980.

Kaminsky (Cathrine).- Le Nationalisme Arabe et le nationalisme Juif, par C. Kaminsky et Simon Kruk.- Paris, Puf, 1983.

Lalande (André).- Vocabulaire technique et critique de la philosophie.- Paris, Puf, 13^{ème} éd., 1980

Lammens (H).- La Syrie. Précis historique.- Beyrouth, Imp. catholique, t.2, 1921.

Laqueur (Walter).- Histoire du sionisme.- Paris, Calmann- levy, 1973.

Laurent (Annie). Guerres secrètes au Liban par A. Laurent et Antoine Barbous.- Paris, Gallimard, 1987

Lebon (Gustave).- La civilisation des Arabes.- Syracuse, Imag, 1969

Lenoble (Robert, père).- Esquisse d'une histoire de l'idée de nature.- Paris, A. Michel, 1968

Lewis (Bernard).- Islam et laïcité : la naissance de la Turquie moderne, Paris, Fayard, 1988

Lyné-Lohéac.- Daoud Ammoun et la création de l'Etat libanais.- Paris, Klincksieck, 1978

Marx (Roland).- Histoire du Royaume Uni.- Paris, A. Colin, 5ème éd, 1967

Mommsen (Wolfgang).- Max Weber et la politique Allemande 1890-1920.- Paris, Puf, 1985.

Montran(Robert).- l'Egypte d'aujourd'hui : permanence et changement : 1805-1976 par A. Montran et autres, Paris, éd. C.N.R.S., 1977

Pakdaman (Homa).- Djemel ed-din Assad- Abadi dit Afghani.- Paris, G.Maisonneuve et Larose, 1969.

Picard (Elizabeth).- Liban, Etat de discorde. Des fondations aux guerres fratricides.- Paris, Flammarion, 1988.

Raymond (André).- La Syrie d'aujourd'hui par A. Raymond et autres.- Paris, C.N.R.S., 1980.

Raymond (André).- Grandes villes arabes à l'époque ottomane.- Paris. Sindbad, 1985.

Renan (Ernest).- l'Islamisme et la science.- Paris, 1983.

Renan (E.).- La vie du Christ.- Paris, 1974.

- Rizk (Charles).- Entre l'Islam et l'Arabisme. Les Arabes Jusqu'en 1945.- Paris, A. Michel, 1983.
- Rodinson (Maxime).- Marxisme et monde musulman.- Paris, Seuil, 1972.
- Rondot (Pierre).- Les Chrétiens d'Orient.- Paris, Peyronnet et Cie, 1955.
- Said (Jaleddine).- Morale et éthique chez Spinoza.- Tunis, Fac. des sc. hum. et soc., 1991.
- Uthmann (Jörg von) .- Le diable est-il allemand ? 200 ans de préjugés franco-allemands.- Paris, Denoël. 1984.
- Vernier (Bernard).- L'Iraq d'aujourd'hui.- Paris, A. Colin 1963.
- Volney.- Voyage en Egypte et en Syrie.- Paris, La Haye, Mouton et Co, 1959.
- Zmerli (Sadok).- Figures tunisiennes.- Tunis, MTE., 1967.

فهرس الأعلام

428-324-294-281-276-14-10 :	آصاف يوسف
215-93-58 :	ابراهيم باشا
318 :	إبراهيم حافظ
424-423-266 :	ابراهيم—وف
349 :	ابشتاي—ن
232-227-203 :	ابن حن—بل
233 :	ابن خلدون
367-78-75-74-64-63 :	ابن رشد
159 :	ابن عباس
192 :	ابن عربي
192 :	ابن مالك
37-36 :	أبو تاية، عودة
35 :	أبو ذر الغفاري
28 :	أبو شهلا حبيب
30 :	أبو ن—مي
487-486 :	الأتاسي، هاشم
102 :	أحمد باشا—ا
151 :	الأخطل
34 :	إده، إيميل
34 :	إده، ريمون
388 :	ادوارد السابع
42 :	أدونيس
425 :	أديب خالدة
114-73 :	أرسط—و
-232-224-212-192-181-155-141-140-135-112-37-29-11-10 :	أرسلان، شكيب
-393-391-386-372-367-365-312-295-284-278-267-254-251	
-470-466-463-461-458-447-446-424-420-416-411-405-401	
531-530-522-518-515-513-510-505-502-490-488-479-478	
181 :	أرسلان، غالب
413-405-313-308-306-162 :	إرسلان، محمد الامين

387-142 :	أرسلان مصطفى
181-37 :	أرسلان مـي
181 :	أرسلان، ناظمة
142 :	أرسلان نسيب
530-42 :	الأرسوزي زكي
253 :	اسبينـاس
304-224-212-209-178-165-138-26 :	اسحق (أديب)
423-421-270 :	اسحاقي أياز
42 :	الأسد حافظ
327-321-280-245 :	إسكندر الثاني
372-215-91-58 :	إسماعيل، الخديو
159 :	إسماعيل، الملازم
411 :	إسماعيل، حقي الكردي
488 :	الأطرش، سلطان
384 :	الأطرش، يحيى بك
114-73 :	أفلاطون
431-426-425-423-263-248 :	أغايف، أحمد
105 :	أغنايف
-440-434-431-427-420-334-324-271-247-245-160-12-10 :	أقجورا، يوسف
530-523-502	
109 :	اليوت، سير هنري
326 :	أنجلز، فريدريش
147 :	الأنسي، عبد الرحمان
357-28 :	انطون، روزا
357-318-294-241-223-219-213-63-42-28 :	أنطون، فرح
318-316-314-301-299-296-295-216-47-8 :	انطونيوس، ورج
523-518-513-478-427-420-418-416-407-390-389-387 :	أنور، محمد
187 :	أوزانام
349-340-339 :	أوسيشكين
249 :	أوغلو، حسن سليمان
121 :	أولش

265-103 :	أوهانس ، باشا
245 :	ايغان المربعب
	ب
248 :	البارودي الشيخ
61 :	باكـون
321 :	باكونــــــــــــين
300-102-57-30-29 :	بالمارستون
28 :	البرادعي ، يعقوب
265 :	برتقال باشا
216 :	بركات ، داود
306-305-303-302-300 :	البستاني ، بطرس
224-209 :	البستاني ، سعيد
308 :	البستاني ، سليم
187-184-175-165-160-144-138-124-127-107-101-30-12-10 :	البساني ، سليمان
503-450-419-307-304-303-276-275-265-203-195-194	
216 :	البستاني يوسف
318 :	بطرس باشا
530 :	بقداش ، خالد
114 :	بقـراط
193 :	بكنسفيلد (اللورد)
456-432-228-224-141-106 :	بلانت ، ولفريد
65 :	بلزأك
431-351 :	بلفور
301 :	بليس ، دانيال
461-301 :	بليس هوارد
348 :	بليشا ، بارواي
263 :	بنتام
442-48 :	بن زفي ، اسحق
442-48 :	بن غريون ، دفيد
249 :	بنو ، بيبي قمر
347 :	بوبر ، مارتين

252 :	بوتمي إميل
76 :	بود ، جوزيف
277 :	بورقاد (ف)
362-361-232-228 :	بورك إدموند
342-340 :	بوروخوف ، بار
300 :	بوست ، الدكتور
462-144-112-83-73 :	بوسويه
188-168-166 :	بومان
189 :	بويل (مستر)
333-332-329-327-324 :	بينسکر ، ليون
294 :	بيغين ، ميناحيم
469 :	بيهم ، أحمد مختار
308-307 :	بيهم ، حسين
309-47 :	بيوس التاسع
293 :	بيوس الحادي عشر
383 :	بيير الأول
246 :	تاجيف ، زين العابدين
253 :	تاردي
323-122-121 :	ترايتشكو
347 :	تريتش ، دفيد
349-348 :	تسانغفيل إسرائيل
56 :	تشرسل ، الصحفي
348 :	تشرشل ، وينستون
308-27 :	تقلا ، بشارة
313-308-27 :	تقلا ، سليم
408-121 :	توفيق باشا
265 :	تولستوي
172 :	توما الأكويني
28 :	تويني ، جبران
307 :	تويني ، جرجس
28 :	تويني غسان

161 :	تيمو ابراهيم
259 :	تــــين
190 :	ثابت خليل
190 :	ثابت كريم
530-529-514-411 :	الجابري ، إحسان
440-294 :	جابوتينسكي فلاديمير
438-431-430-351-347 :	جاكوبسون ، فيكتور
439-438-432-430-419-265 :	جاويد
457-446 :	جاويش ، عبد العزيز
141 :	جبران خليل جبران
151 :	جرير
406 :	الجزائري سليم
515-504-456-374-362-356-324-310-216-46-31-42-28 :	الجزائري ، طاهر
435-431-430-219 :	الجرس حسن
435-431-430 :	جلال ، نوري
-441-427-420-419-417-406-402-390-373-367-108-108-37 :	جمال ، أحمد
-521-518-513-510-505-504-479-478-476-472-458-457-442	
530-524-523	
-310-309-238-230-227-226-224-209-142-140-139-136-106 :	جمال الدين ، الافغاني
519-462-373	
37 :	جمبلاط ، كمال
427-191 :	جميل ، أنطون
530-28 :	جميل ، بير
257 :	جنكيز ، خان
424-423-252-184-161-160 :	جودت ، عبد الله
386 :	جورج الأول
421 :	جورسل ، جمال
29 :	الجوزي ، بندلي
465-415 :	جيو ليتي
439-343-338-336-331-329-324 :	حاعام آحاد
216 :	حبيب ، توفيق

289 :	حداد غريغوريوس
357 :	الحداد نيقولا
413 :	حسن فهمي
-317-314-293-242-241-239-237-228-227-217-203-36-13 :	حسين، الشريف
515-514-486-483-476-474-445-431-387-385-377	
33 :	حسين بن علي بن أبي طالب
477 :	الحسين بن طلال
453-429-413-404-394-388 :	حسين حلمي باشا
161-160 :	حسين زاده علي
477 :	حسين صدام
233 :	حسين طه
505 :	الحسيني أمين
471 :	الحسيني صبحي
445 :	الحصري خلدون
-411-387-385-295-294-289-285-236-210-180-144-51-36 :	الحصري ساطع
532-531-511-488-486-473-458-454-449-425	
530-529 :	الحفار لطفي
208 :	الحلاج
322-280-106-26 :	الحلبي، حسون
33 :	حنا (القديسة)
86-75 :	حنبل
89-87 :	الهوراني، ألبرت
293-290-15 :	الحويك الياس
406 :	حيدر، حسين
471 :	حيدر رستم
216 :	الخازن يوسف
282 :	خالد بن الوليد
434 :	الخالدي روجي
346-162 :	الخالدي يوسف ضيا
446 :	الخطيب عبد القادر

460—385—237	:	الخطيب فؤاد الدين
483—482—474—470—460—385—203	:	الخطيب محب الدين
121	:	خليل باشا
342	:	خليل رفعت باشا
185	:	خليل باشا شريف
472	:	الخليل ، عبد الكريم
51	:	الخنساء
28	:	الخوري ، فارس
406—28	:	الخوري ، فايز
310	:	خياط ، أسعد
465—450—190—140—135—90—88	:	خير الدين التونسي
502—450—419—413	:	خير الدين التونسي ، صالح
458—453—450—415—413	:	خير الدين التونسي ، طاهر
450—413	:	خير الدين التونسي ، محمد
159	:	خير الله أفندي
482—481	:	الخييمي حسن رفقي
530—529—489—483—482—463—337—335—290	:	داغر ، أسعد
249	:	الداغستاني عثمان
278—103	:	داود باشا
141	:	داود يوسف
28	:	دباس ، شارل
141	:	الدبس ، يوسف
277—276	:	الدحداح ، رشيد
257—253	:	دركايم
522—516—471—470—459—455—454—418—416—403—48	:	دروزة، عزّة
406	:	درويش وحدتي
346—323—321	:	دريفوس
114	:	دستويفسكي
172	:	دلبيش
171—170	:	دوروسيل ، مؤرخ
193	:	دوفيرين ، لورد

348	:	دولبرغ جوزيف
289	:	دوماني مالاتيوس
233	:	دومر بول
143	:	الدويش ، فيصل
441	:	ديان موشي
312	:	دي إيتان
172	:	ديبنلوب (أسقف)
172	:	دي فور
79-77	:	ديكارت
462-257-233-188	:	ديمولين ، إدمون
267-127	:	راسبوتين
472	:	راسل م
88	:	راسين
203	:	الرافعي ، مصطفى صادق
78	:	رامسي
251	:	رجب باشا ، قائد
278-103	:	رستم باشا
193	:	رسل أرل
418-416	:	رشيد بك
502-479-458	:	الرصافي معروف
-259-257-252-220-199-195-187-184-175-173-171-166-160	:	رضا ، أحمد
429-401-324-265	:	
474	:	رضا صالح
474	:	رضا عاصم
475-474	:	رضا عبد الرحمان عاصم
-224-216-210-209-206-203-199-181-147-143-42-13-12-10	:	رضا ، محمد رشيد
-373-356-314-312-288-284-267-247-236-235-233-230-229	:	
-468-465-463-462-460-445-440-439-423-410-405-383-374	:	
-529-520-518-413-506-497-490-479-477-475-474-472-470	:	
531	:	
474	:	رضا وصفي

503-486-485-163-108	:	الركابي رضا باشا
362	:	رويكه فيلهاييم
351-349-347	:	روبين أرتير
337	:	روتشيلد ، إدموند
317	:	روزفلت تيودور
70	:	روسو
509	:	الريحاني ، أمين
58-57	:	ريكاردو
372-368-291-266-259	:	رينان
252	:	الزاوش عبد الجليل
489-393-241-31	:	الزركلي ، خير الدين
530	:	زريق قسطنطين
233	:	زغلول أحمد فتحي
48	:	زعيترو ، محمد
472-469-468-462-460-373-236-31	:	الزهرابي ، عبد الحميد
508-462-356-318-312-311-309-225-217-162-140-47-44	:	زيدان جورجي
216	:	زينيه خليل
-389-387	:	السادات ، أنور
325-324	:	سالفادور جوزيف
366-167-166	:	سان سيمون
257-253-169	:	سبنسر ، هربرت
369-144-126-112-93-86-83-81-76-74-67-63	:	سبينوزا
477	:	ستورز رونالد
385	:	السراج عبد الله
28	:	سرسق ألفريد
437-436-345	:	سرسق ، إلياس
147-146	:	سرسق ، نجيب
28	:	سرسق ، يوسف
485-484-217-216-192	:	سرکس ، سليم
349-341-340-270	:	سرکين ، ناشمان
531-530-28	:	سعادة ، أنطوان

216	:	سعادة خليل
455-454-418-403	:	سعيك أمين
421-395-393-391-390-124-120	:	سعيد باشا
215	:	سعيد الخديو
420	:	سعيد حلیم
482-481-472-387-384	:	السعيد ، نوري
114	:	سقراط
479-181	:	سلام ، صائب
479-436	:	سلام ، علي سلام
479-181	:	سلام، عنبرة
10	:	سلطان غالييف
30	:	سليم الأول
299-56	:	سليم الثالث
256	:	سليمان القانوني
527-263-60-58-8	:	سميث ، آدام
440-538-338	:	سوخلوف، ناحوم
253	:	سوريل، ألبير
45	:	سوط مسز
161-160	:	سيكوتي، إسحاق
172	:	سيمون جول
144-112-83-74-73-72	:	سينو
253	:	سينيو بوس
292	:	شامبليون
216	:	شاهين اسكندر
216	:	شاهين طانيوس
216	:	شاهين نجيب
357	:	شحاذة نيقولا
300	:	الشدياق أسعد
9-28-30-45-61-63-66-72-74-76-79-80-83-85-87-90-93-95-	:	الشدياق ، فارس
100-101-112-113-116-120-120-125-138-154-162-176-189-		
194-218-247-250-275-291-302-304-326-369-414		

28-	شقيير ، أسير
216 :	شقيير سعيد
216 :	شقيير نعيم
530-505 :	الشقييري أحمد
523-519-513-505 :	الشقييري أسعد
462-460 :	شميل شيلي
176-175-95-91-89-87-61 :	شناسي ، إبراهيم
287-75-51 :	الشهابي بشير
50-48-27 :	الشهابي يدر
471-470-436-393-29 :	الشهابي مصطفى
-510-503-486-482-476-476-456-411-406-384-383-241-144-36 :	الشهبندر عبد الرحمان
532-530-529-515	
473 :	شوقي أحمد
458-457-454-453-450-419-411-407-406-390-389-387-251-16 :	شوكت محمود
72-47 :	شيخو لويس
462-418-416-414 :	صادق الكولونيل
467-466-449-446-424-411 :	صالح الشريف التونسي
257-216-142 :	الصباح مبارك
451-450-265-257-252-198-197-195-187-184-175 :	صباح الدين
51 :	صخر
33 :	الصدر موسى
508-503-463-462-357-318-317-313-217-190-30 :	صروف يعقوب
396 :	صفوت باشا
128 :	الصفني الحلبي
373-366-294-289-282 :	صلاح الدين الأيوبي
476 :	الصلح رضا
476 :	الصلح رياض
519-448-446-411-406-267-248-213-188-186-184-129-126-30 :	الصيادي أبو الهدى
30 :	ضاهر
408 :	ضياء الدين أفندي
176-110-95-91-89-87 :	ضيا عبد الحميد

511-504-469	:	طيارة أحمد
28	:	طراد نجيب
-512-478-439-438-436-433-432-430-427-420-419-417-387	:	طلعت محمد
523-521-518		
83-82	:	طهطاوي رفاعه
128	:	ظافر صطفى
519-493-410-406-350-344-343-214-184-129-126	:	العابد عزت
129	:	العابد محمد علي
128	:	العابد مصطفى باشا
476-465-456-436-435-430-411-316-314-295-290-240-239-237	:	العاذوري نجيب
179-135-105-103-91-89-88-87-58	:	عالي باشا
466-456-479-356-214-188	:	عبس الثاني
-137--135-128-110-108-107-96-94-91-81-22-16-14-12-10	:	عبد الحميد السلطان
-179-178-175-173-163-162-160-159-155-149-147-141-139		
-228-227-225-224-213-210-207-194-192-190-186-184-183		
-313-312-308-307-302-291-290-269-256-255-251-247-241		
-383-372-365-363-359-358-355-351-347-345-344-339-321		
-416-410-408-403-401-400-398-395-393-390-388-387-386		
528-527-521-485		
210	:	عبد الرحمان النقيب
321-163-135-117-109-106-104-92-91-61	:	عبد العزيز السلطان
-509-487-486-477-474-455-385-239-237-148-143	:	عبد العزيز آل سعود
414	:	عبد العزيز مجدي
324-310-309-281-279-31-28	:	عبد القادر الجزائري
385-203	:	عبد القادر الجيلاني
464-396-284-211-207-135-104-99-86-72-68-66-62-61-57	:	عبد المجيد السلطان
228	:	عبد المطلب الشريف
151	:	عبد الملك بن مروان
389-387	:	عبد الناصر جمال
216	:	عبد طانيوس
517-516-471	:	عبد الهادي عونى

عبد محمد	: 15-46-63-106-141-147-150-203-205-210-215-220-230-233-
	235-238-247-248-310-314-316-324-356-372-374-446-
	447-456-462-465-467
عيلة	: 37
عبود مارون	: 145-146-
عثمان باشا	: 390
عثمان بن عفان	: 35
عثمان ارطغرل	: 149-156-256
عثمان نوري باشا	: 159
عرابي باشا	: 215
عرفات ياسر	: 505
العريسي عبد الغني	: 203-233-252-393-425-460-463-465-468-471-479-502-510-511
عزام عبد الرحمان	: 416
عزة الأميرة	: 477
عزيز	: 55
عزيز علي المصري	: 196-263-387-407-416-453-458-472-474-503
العسكري جعفر	: 481-482
العسلي شكري	: 435-436-438-439-495
العسلي علي	: 495
العظم حقي	: 440-460-468-470-472-502-510
العظم رفيق	: 216-233-424-456-459-462-466-470-472-474-475-482-484-
	493-501-513
العظم شفيق المؤيد	: 451-493-511
العظم صادق المؤيد	: 451
العظم عثمان	: 446-447
العظم محمد	: 448-470
العظمة يوسف	: 486
عفلق ميشيل	: 530
عقل سعيد	: 286
علي باشا، الباي	: 251
علي بن أبي طالب	: 33-35-38-40-499

474-385	:	علي بن الشريف حسين
41	:	العلي صالح
466-456-357	:	علي يوسف
99	:	عمر باشا
33	:	عمر بن الخطاب
146	:	العمرى علي
484-482-460-459-428-427-290-216	:	عمون اسكندر
216	:	عمون داود
37	:	عنتره
33	:	عوده أبو تاية
293-228-227	:	عون الرفيق
368-325-288-56-55-51	:	عيسى، المسيح
470	:	غاريبالدي
424-423-324-271-269-266-256-248	:	غاسبيرينسكي اسماعيل
408	:	غالب باشا
77	:	غاليلي
263	:	غالييف، سلطان
170-166	:	غامبيتة
427	:	غانم حبيب
313-308-307-195-184-175-165-163-162-160	:	غانم خليل
428	:	غانم شكري
349	:	غرينبرغ ليوبولد
235-232-218-114-113	:	الغزالي أبو حامد
286	:	غصن، مارون
216	:	غليوم الثاني
321	:	غوركى، ماكسيم
488	:	غورو الجنرال
	:	ف
438-349	:	فاربورغ
357	:	فارس، بشر
449	:	فارل الضابط

530-495-453-389-384 :	الفاروقي سامي
456 :	الفاروقي شريف
412-324-312-307-215-213-193-189-186-184-175 :	فاضل مصطفى
121 :	فاقنر
258 :	فاليوسكي
356-324-302-300-219-210-209-46 :	فانديك كورنيليوس
471 :	فائد ، توفيق
347 :	فايفل بوتولد
390-387 :	فتحي المقدوني
303-122 :	فخته
50 :	فخر الدين الثاني
254 :	فرانسوا جوزيف
278-140-103 :	فرانكو باشا
88 :	القرزدق
487 :	فرويد سيغموند
492-452-432-415 :	فريد الدماذ
502-251 :	فريد أحمد
325 :	فسيبيان
-278-276-215-193-179-135-114-106-105-103-95-91-89-58 :	فؤاد باشا
307-305-304 :	
325-250-249 :	فلتير
438-437-350-349 :	فلفسون ، دافيد
250-249-61-33 :	فولني
253 :	فونك - برينتانو، تيوفيل
402 :	فواز شيخ الروالة
216 :	فياض إلياس
121 :	فيبر، ماكس
171-170-166 :	فيري جول
518-514-488-482-477-476-473-471-37 :	فيصل بن الحسين
58-57-11 :	فيكتوريا ، الملكة
482 :	قاسم عبد الكريم

516-471 :	قدري أحمد
408 :	قره ص
490 :	القسام عز الدين
93 :	قسطنطين
517-484-482-475 :	القصاب ، كامل
475-474 :	القلقيلي محمد
516 :	القوتلي شكري
78 :	قورش
245 :	كاترين الثانية
323 :	كافكا فرانز
501-499-432-421-419-417-416-404-124-120 :	كامل باشا
438-349 :	كان ، جاكوبيس
169 :	كانط
346 :	كاهن صادق
501 :	كاپيتاني الأمير
477-474-293-227-216 :	كتشنر
502-500 :	كرد علي أحمد
-245-231-216-210-203-140-129-127-108-33-31-24-16-15-11 :	كرد علي محمد
-487-486-472-471-461-460-453-376-371-355-324-310-249	
530-529-523-517-515-493-493	
216 :	كرزن
509-304-281-278-276-140 :	كرم يوسف
496-357-292-252-189 :	كرومر
295 :	كساب فريد
440 :	كلفاريسكي
516-515-170 :	كليمنصو
-425-422-417-416-407-404-387-290-260-251-198-171-109 :	كمال (مصطفى)
530-528-523-518-478-432-427	
425-215-176-175-159-142-111-110-95-90-89-61 :	كمال (محمد نانق)
-217-215-214-212-210-209-207-203-147-143-127-126-30-13 :	الكواكبي عبد الرحمان
-464-462-373-372-310-293-231-229-223-220	

58 :	كبدن
289 :	كرين المبعوث الأمريكي
77 :	كوبرنيك
349 :	كوفن برنشتاين
427-425 :	كوك ألبرضيا
362-361-257-250-173-168-166-165-164 :	كونت أوغسط
411 :	الكوراني شفيق باشا
250 :	كوندورسي
88 :	كيبلينغ
387 :	الكيلائي عالي
289 :	كيسنج ، م ، أ
348 :	لاسكوناتان
188-175-173-168-166-165 :	لافيت بيير
302-75-33 :	لافيجري
88-86-66-27 :	لامرتين
187 :	لامنيه
253 :	لانجلوا
186 :	لاير هنري
252-187 :	لطف الله (الأمير)
489-488-485-484-29 :	لطف الله (ميشيل)
462 :	لطف السيد أحمد
187 :	لوبلاي فريدريك
-439-436-376-374-362-361-359-346-292-291-240-234-188 :	لوبون (عوستاف)
465-462-456	
-266-260 :	لوثر
483-476-37-36 :	لورانس
499 :	لوشاتليه
475-456 :	لويد جورج
282 :	لويس القديس
77-73 :	لويس الرابع عشر
309 :	لويس فيليب

165 :	ليتري اميل
266-264-61 :	ليست فريدرش
333 :	ليسنغ
440 :	ليفى شابطاي
438 :	ليفين ، شامارياهو
253 :	ليفى بروهل
347 :	ليليان أفراثيم
329 :	ليليا نبلوم موشي
424-263-245 :	لينين
346-291 :	ليون الثالث عشر
216 :	مارشان القائد
326-325-167-65-56 :	ماركس كارل
509-286-49 :	مارون مار
313-190 :	ماكارويس شاهين
57 :	مالتوس
527-55 :	الماوردي
479-234-233-192-56-55-30 :	محمد (النبي)
93 :	محمد الثاني
473-466-463-453-416-410-408-302-293-171 :	محمد رشاد (محمد الخامس)
417 :	محمد السادس
161 :	محمد رشيد الشركسي ،
299-314-287-241-215-214-93-86-66-61-56-51 :	محمد علي الخديو
471 :	المحمصاني (محمد)
312-254-211-114-105-63-58-55-30-9 :	محمود الثاني
252-187-159 :	محمود الداماد
246 :	مختار رؤوف مرتضى
304 :	مخلص اسعد
-228-215-214-175-164-163-159-142-121-111-105-91-63-9 :	مدحت احمد باشا
521-472-401-312-304-249 :	
186 :	مراد الرابع

111-109 :	مراد الخامس
247 :	المرجاني شهاب الدين
530-529-471 :	مردم ، جميل
438-349 :	مرموريك اسكندر
304-278 :	مسعد بولس
299-215-214-89-87-61-58 :	مصطفى رشيد باشا
460-308-288-216-140-27 :	مطران خليل
452-451-428-278 :	مطران ندره
103 :	مظفر باشا
357 :	مظهر إسماعيل
49 :	معاوية بن أبي سفيان
318 :	المعلوف أمين
469-428-289 :	مكرزل نعوم
338-337 :	ماكيا فيل
410-290 :	ملحمة سليم
410-290 :	ملحمة نجيب
269-267 :	مليوكوف
394-123 :	ممدوح باشا
61 :	منتسكيو
421 :	مندريس عدنان
208 :	المنصور خليفة
227 :	المهدي (السوداني)
347-339-338 :	موتسكين
325-56 :	موسى النبي
318-203-57 :	موسى سلامة
293 :	موسيليني
88 :	موليير
178 :	ميتسو هيتو
263-188 :	ميل سيتوارة
251 :	ميلي ، ريني
348-341-322 :	مايير غولدا

529-450-264-211-107	:	نابليون الأول
334-324-281-276-258-193-165-102-85-75	:	نابليون الثالث
294	:	ناتنياهو بنيامين
215-213-189-186-185-184-94	:	نازلي هانم
441	:	ناصر نجيب
471	:	الناطور ، توفيق
502-419-416	:	ناظم باشا
347	:	ناظم باي ، روزو
460-459-216	:	النجار إبراهيم سليم
88	:	نافع
389	:	نجيب ، محمد
290-289-27	:	نجيم ، بولس
529-184-135	:	النديم ، عبد الله
106-105-96	:	نديم محمود
142-103	:	نعوم باشا
29-28	:	نعيمة ميخائيل
344-343	:	نفلسكي
224-209	:	النقاش سليم
508-503-474-357-317-314-313-299-292-217-190-30-11	:	نمر فارس
40	:	النميري ، أحمد بن نصير
88	:	نوبل
438-429-351-349-340-347-338-334-332-324-269	:	نورداو ، ماكس
407-403-389	:	نيزاي أحمد
321-123-114-86-62	:	نيكيثا الأول
394-388-270-269-267-266-127	:	نيكتا الثاني
445	:	الهاشمي طه
253	:	هاليغي ، بول
331-171	:	هتلر أدولف
-450-440-438-429-352-332-329-324-291-270-269-152	:	هرتزل تيودور
457	:	الهزال فهد
361	:	هوبز

469-468-440 :	هوشبرغ ، سامي
253 :	هومان
169-107 :	هيجل
345-335 :	هيرش ، موريس
73 :	هيرودوت
327-324 :	هيس موشي
472-295 :	هيكل حسين
263 :	هيوم دفيد
142-103 :	واصا پاشا
-352-350-348-347-342-341-339-338-336-332-331-324-34-11 :	وايزمان
445-439-418-431	
317-313-308-3047-302-281-218-217-14 :	اليازجي ابراهيم
307 :	اليازجي حبيب
-308-305-280-75-51-27 :	اليازجي ناصيف
474-455-453-387-254 :	يحيى ، الامام
-160-128-123-117-116-111-110-107-105-94-92-91-58-11-10 :	يكن ولي الدين
505-275-216-203-195-188-186-179-174-163	
216-186 :	يكن يوسف حمدي
440 :	يلين دفيد
48 :	يني راحل
504-494-487-470-447-242-129 :	اليوسف عبد الرحمن

فهرس الموضوعات

7 المقدمة
19 القسم الأول: الخود العثمانية بين خطيبين: آدم سميث والماوردي
20 <u>الفصل الأول: برج بابل شامي</u>
53 <u>الفصل الثاني: وأورقت الشدايقية فترة من الزمن</u>
97 <u>الفصل الثالث: خريف العثمانية</u>
131 القسم الثاني: الخود العثمانية تطلق شيخها
133 <u>الفصل الأول: في ظلال الهلال</u>
157 <u>الفصل الثاني: التوأمان المتناكران</u>
201 <u>الفصل الثالث: الحنين الأخضر</u>
243 <u>الفصل الرابع: ليم سلطان غاليف</u>
273 <u>الفصل الخامس: نهم المدينة التاجرة</u>
297 <u>الفصل السادس: طلع اليانكي علينا...</u>
319 <u>الفصل السابع: موسم هجرة الأشكيناز إلى الجنوب</u>
353 <u>الفصل الثامن: كردستاني في شامستان</u>

379 القسم الثالث: وجفت أرض صنعة الغيث
381 <u>الفصل الأول: عهد قديم يتجدد أم عهد جديد يجهض ؟</u>
443 <u>الفصل الثاني: ومن الحب ما قتل</u>
491 <u>الفصل الثالث: إذا متَ ظمّانا</u>
525 الخاتمة
533 المصادر والمراجع
543 فهرس الأعلام
565 فهرس الموضوعات

التيارات الفكرية السليمة في السلطنة العثمانية

كانت «التنظيمات الأولى» الصادرة في السلطنة العثمانية سنة 1839 ذات وجهين :
* وجه اقتصادي يهدف إلى تسوية الإقتصاد العثماني هيكليا بالإقتصاد العالمي.
* ووجه ثقافي يهدف إلى تغيير الثقافة التقليدية حتى تتسجم مع ما أصبح سائدا
في ثقافة العالم الغربي.

وكانت ردود الفعل على هذا النمط من «العولمة» المبكرة متباينة تباينا ولّد تيارات
فكرية وسياسية عديدة حاولت هذه الدراسة رصدتها وتوضيحها.
وقد رفض كاتب هذه الدراسة الدكتور محمد الناصر النفزاوي في بحثه عن
أسباب التباين ما ذهب إليه غيره من الباحثين الذين انطلقوا من ثنائيات تقليدية :
إسلام/نصرانية، عرب/ترك، وطرح السؤال بطريقة أخرى :
من المستفيد من هذه التنظيمات ومن المتضرر منها؟ من يساندها ومن يعارضها؟
باحثا من وراء ذلك عن الأسباب الحقيقية وراء التباين والصراع بل الحرب أحيانا.

الناشر